

الحب المقدس

[١]

الحب الأخوي

٢٠٠٤

القمص تادرس يعقوب ملطي

كنيسة الشهيد مار جرجس بسبورتج

بسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين

الكتاب: الحب، الأخوي.

المؤلف: القمص تادرس يعقوب ملطي.

الناشر: كنيسة مارجرس بسبورتنج.

الطبعة: الثانية ٢٠٠٤.

رقم الإيداع بدار الكتاب ١٧٢٨ لسنة ١٩٧٠.

لنحب!

مع بداية عام ١٩٦٤ إذ أحسست في أعماقي الالتزام بالكتابة عن "الحب" بكونه لا يمثل مجرد سمة يتسم بها الإنسان، إنما يمس جوهر حياة الإنسان: روحه ونفسه وجسده بكل طاقاته ومواهبه، حتى إننا لا نكون مبالغين إن قلنا إن الإنسان ككل كائن محب؛ فجاء هذا الالتزام مترجمًا في ثلاثة مجلدات عن الحب المقدس. لكنني أشعر في صراحة كاملة أنها قد كُتبت كمقالات منفصلة عن بعضها البعض ينقصها الترابط بسبب ظروف كتابتها. وقد طالبني الكثير بإعادة طبعها، وإذ لا أشعر بالراحة في أعماق نفسي. بدأت أعيد صياغتها من جديد لعلني أستطيع أن أصلح قليلاً من العمل السابق.

وأقول بصدق سيبقى "الحب" هو موضوعنا الرئيسي الذي يشغل لا كتاباتنا وكلماتنا فحسب، بل كل أحاسيسنا وتصرفاتنا. إنه فوق كل تعبير لغوي، يصعب ترجمته!

هذا وإنني أود أن أؤكد أنني لست أكتب بحثًا عن الحب، إنما أكشف عن اشتياق المؤمن بالروح القدس أن يلتهب فيه روح الحب الحقيقي ليحيا بفكر إنجيلي آبائي مشبع لحياته.

خادمك في الرب

القمص تادرس يعقوب ملطي

الحب: مفهومه ودرجاته

الحب الأخوي

[١]

الحب

مفهومه ودرجاته

- ١ . حاجتنا إلى الحب .
- ٢ . الحب والدوافع .
- ٣ . الحب والجسد .
- ٤ . الحب والشهوة .
- ٥ . الحب والصداقة .
- ٦ . إمكانية الحب فيك .
- ٧ . درجات الحب .

حاجتنا إلى الحب

شغلت كلمة "الحب" قلب الإنسان منذ وُجد، وستبقى تشغله مادام يوجد، ولا أكون مبالغاً إن قلت إنها الأمر الوحيد الذي يرافقنا حتى الموت، كقول الرسول: "المحبة لا تسقط أبداً" (١ كو ١٣: ٨).

يبقى الإنسان يبحث عن الحب، متعطشاً إليه، يشاق إلى حب الغير له، وأن يسكب حبه على غيره. فالمؤمن المتعبد يطلب الحب حتى متى بلغ درجات النسك الصادق والتوحد الأصيل يهيم في محبة الله، مقدماً قلبه جمر نار متقدداً حباً! والزوج يتوق أن يحب زوجته، ويكون موضع حبها، والأب والصديق والمعلم والابن والأخ، الكل يطلبون أن يحبوا ويحبوا. أقول حتى الشهبانيين الأشرار والمجرمين وقساة القلب يحنون إلى الحب ويشتهونه، حتى وإن لم يمارسوه.

يحتاج الإنسان للحب لأنه هو الرفيق الوحيد له حتى في الأبدية. "أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة، ولكن أعظمهن المحبة" (١ كو ١٣: ١٣). به نصير أيقونة الله أبينا.

هذا الحب يختلط في أذهان الكثيرين، فلا يعرفون أن يميزوا بينه وبين الميل العاطفي أو الاجتماعي أو الشهوة، بل وكثيراً ما يخفون روح النفعية وحب الأنا تحت ستار "الحب"، فيخدع الإنسان نفسه قبل أن يخدع أخاه، معطياً صورة مقدسة لدوافع موجهة توجيهها شريراً.

❖ تبطل هذه (الأمر من إيمان ورجاء وأعمالٍ صالحةٍ) عندما تظهر تلك، أما المحبة فتبقى سامية وتزداد قوة وحيوية^١.

❖ هذه الفضيلة تجعل الإنسان متشبهاً بالله.

لاحظ كمّ الفضائل الأخرى التي تقل في أهميتها عن المحبة، هذه التي يركز محورها حول جهاد الإنسان ذاته ضد الشهوات، ومقاومته للنهم، والجهاد ضد محبة المال والغضب. أما المحبة فهي فضيلة يشترك فيها الإنسان مع الله ذاته. لهذا يقول المسيح:

¹ In 1 Corinth., hom. 34:5.

"صلوا من أجل الذين يُسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات" (مت ٥: ٤٤-٤٥).

اكتشف بولس أن **المحبة هي تاج الفضائل**، فسعى إلى غرسها بعناية فائقة^١.

❖ إن كانت فضيلة الحب عظيمة هكذا، أليس حسناً يضيف قائلاً: **"اتبعوا المحبة"** (١ كو ١٤: ١)؟ فإنه بالحقيقة توجد حاجة إلى إتباعها، وأن نجري وراءها بمشاعر ملتزمة، إذ هي تهرب بنوع ما منّا، وكثير من الأشياء ترتفع عنّا في ذات الاتجاه. لذلك فإننا في حاجة إلى غيرة عظيمة لكي نمسك بها^٢.

القديس يوحنا ذهبي الفم

❖ الحب هو الأول بين كل الأنشطة التي ترتبط بالفضيلة وكل وصايا الناموس. لذلك إذا ما اقتنتت النفس هذا الحب **لا تحتاج بعد إلى الأمور الأخرى**، إذ تبلغ كمال وجودها. يبدو أن الحب وحده يرى البعض يحتفظ في ذاته بسمة التطويب الإلهي؛ وتصير المعرفة حُباً لأن ما يُعرف بالطبيعة هو جميل^٣.

القديس ماكرينا

❖ المحبة لن تسقط، وتعني أنها لن تسقط في خطية.

سفيريان أسقف جبالة

❖ الحب هو الأعظم، فإنه بينما يُركز بالإيمان هنا، ويسحبنا الرجاء للحياة المقبلة، إذا بالحب يملك^٤.

أمبروسياستر

❖ استخدم معرفتك كأداة لبناء **المحبة الشامخة الباقية إلى الأبد** حتى بعدما تعبر المعرفة. فإن المعرفة التي تُستخدم لنمو الحب نافعة، لكنها في ذاتها وبانفصالها عن الحب تصير ليس فقط غير نافعة بل ومضرة^٥.

❖ [الزيت في مصابيح العذارى الحكيمات]

في مديح القديس بولس، عظة ١.٣

^٢ In 1 Corinth., hom. 34:5.

^٣ St. Gregory of Nyssa: On the Soul and the Resurrection.

^٤ CSEL 81:149.

^٥ Letter 55.

سأخبركم لماذا يعني بالزيت المحبة؟ يقول الرسول: "أريكم طريقاً أفضل" (١كو ١٢: ٣١). "إن كنت أتكلم باللسنة الناس والملائكة ولكن ليست لي محبة فقد صرت نحاساً يطن أو صنحاً يرن" [١]. هذه هي المحبة الطريق الأفضل من الكل، والتي لسبب حسن يشار إليها بالزيت. فإن الزيت يقوم فوق كل السوائل. اسكب ماء ثم اسكب عليه زيتاً فسيغمر الزيت فوق الماء. اسكب زيتاً ثم اسكب ماءً عليه، سيعوم الزيت فوقه. إن حفظت التدبير العادي فإنه سيكون فوق الكل. إن غيّرت النظام يبقى فوق الكل. هكذا المحبة لا تسقط أبداً^١.

❖ (في حديثه للمتأهبين لسرّ العماد).

المحبة هي وحدها العلامة المميزة بين أولاد الله وأولاد إبليس.

لنطبع أنفسنا بسمه صليب يسوع المسيح... ولنصطبغ جميعاً بالعمودية. وليحضر الكل إلى الكنيسة لنبنى أسوار الكنيسة، فليس ثمة شيء يميز أولاد الله عن أولاد إبليس إلا المحبة.

❖ يقدم لي الرسول بولس في موضع ما تجميعاً رائعاً لأموراً فائقة، يكشفها أمامي، وأنا أقول له: "اكشف لي إن كنت قد وجدت من بينها ثوب العرس. يبدأ يكشف الواحدة تلو الأخرى. ويقول: "إن كنت أتكلم باللسنة الناس والملائكة..." يا لها من ثياب ثمينة! ومع ذلك لا يوجد بعد ثوب العرس! لماذا تتركنا أيها الرسول في إثارة قلقين؟... "إن كانت ليس لي محبة لا انتفع شيئاً".

انظروا ثوب العرس! ارتدوه يا أيها الضيوف فتجلسوا في آمان!^٢

القديس أغسطينوس

❖ إن كان الإيمان هو مادة كل الأمور التي نترجاها، كما جاء في العبرانيين (١١: ١)، فإنه إذ نبلغ هذه الأمور يصير الإيمان أمراً ثانوياً. هكذا بالنسبة للرجاء. أما بالنسبة للحب فهو أعظم عن هذه كلها، لأنه حين تنتهي الأتعاب تتحول أجسادنا في القيامة، فإن أذهاننا ستثبت بالحب، فلا نعود نطلب شيئاً واحداً أو آخر^٣.

ثيودورت أسقف قورش

¹ Sermons on New Testament Lessons, 43:5.

² Sermons on New Testament Lessons, 45:7.

³ Comm. On 1 Cor., 255-256.

الحب: مفهومه ودرجاته

الحب والدوافع

خلق الله للإنسان دوافع أو غرائز كثيرة بدونها يفقد الإنسان إنسانيته وحيويته بل وحياته كلها.

هذه الدوافع تمثل طاقات حية تختلف من شخص إلى آخر، يتسلمها الإنسان بالطبيعة لينميها ويوجهها، فيقدر أن ينميها إلى أبعد الحدود لتخلق منه إنساناً حياً ناضجاً. كما يقدر أن يكتمها إلى حين فتغلق قلبه، وتضيق الخناق على نفسه، وتفقده حيويته، وأخيراً تحطمه تماماً. يستطيع أن يسمو بها في تجاهها السليم ليحيا قوياً ناضجاً في كل شيء، ويمكنه أن يلهبها في اتجاه مضاد تحطم روحانياته وإنسانيته^١.

فدافع الخوف مثلاً يحميك من أن تدفع بنفسك في الخطر، فلا تلقي بنفسك في النار أو في النهر... تستطيع أن تنمية بالروح القدس فيكون لك خوف مقدس تجاه الرب، يفرح القلب فتقول مع المزمور: "يفرح قلبي عند خوفي من اسمك" (مز ٨٥)، ويمكنك أن تتهاون، فتخاف الناس وترتعب منهم في جبن، تهاب المرض والموت، تغلق على مستقبلك ومستقبل أولادك في كفرٍ وياسٍ، بل وتخاف من لا شيء وتبقى قلقاً بلا حياة!

وغريزة الغضب تثريك ضد أخيك فتتوق إلى الانتهاز والتوبيخ، وتُسّر بتحطيم الناس، بل وأحياناً إن لم تجد من تثب فيه سموم حنقك تنثور على الحيوانات، وأحياناً تحطم أو تمزق كتاباً في يدك أو تمزق ثوبك. لكن إذا جاهدت مسلماً هذه الغريزة للروح القدس الساكن فيك، فإنك لا تنثور ضد الغير، بل على نفسك وعلى خطيئتك وشهوتك، فتخرج إنساناً قوياً قادراً بالرب أن تحكم نفسك وتضبطها، فتكون أفضل من فاتح مدينة كقول الحكيم.

وما قلته عن دوافع الخوف والغضب أقوله عن بقية الدوافع والغرائز من **حب الاقتناء والأبوة والأمومة والغريزة الجنسية**... هذه جميعها أيها العزيز طاقات حية جبارة لا يستطيع المؤمن أن ينكرها أو يتجاهلها أو يكبتها، كما لا يليق به أن ينحرف بها ويلهبها بعيداً عن دائرة الروح القدس.

هذه الطاقات من دوافع وغرائز وانفعالات وعواطف ليست من صنع الإنسان ليخافها

^١ راجع كتيب العفة *Contenance* للقديس أغسطينوس طبعة ١٩٦٨م، المقدمة ٨-١١.

أو يهرب منها، بل هي من خلق إله صالحٍ محبٍ للبشر صانع خيرات.
هذه القوى التي تحطم علاقات الكثيرين بالرب، هي التي أعانت كل التائبين والقدسين
في طريق الرب كأداة قوية وفعالة في يد الروح القدس.
فالجسد وكل ما فيه - كقول القديس يوحنا الذهبي الفم - القيّارة التي في يد
العازف، والسفينة في يد الربان، معين للنفس ونافع لها متى أحسن استخدامه.
وإنني أكتفي هنا بالحديث عن الغريزة الجنسية.

الغريزة الجنسية في حياة المؤمن

الغريزة الجنسية التي تعمل فينا، هي جزء من كياننا، ليست شرّاً نرغب التخلص منه،
ولا دنساً نحترقه، ولا نجاسة نخزى منها، بل هي من عمل صانع الخيرات، وهبها لأجل ترابط
البشر ووحدهم ونموهم وسلامتهم.

فالإنسان ينمو وتنمو معه غريزته الجنسية، وعندئذ يلبق به أن يُدرك أنها عطية الله
يشكره عليها، من خلالها تنضج حياته وتفكيره وسلوكه، متى كانت مسلمة في يد أمينة، هي
روح الله واهب العفة والطهارة.

ينمو الصبي بعدما اجتاز طفولة بريئة عاش فيها بلا نضوج، سمت أفكاره في عفة
وطهارة بلا مقاومة ولا جهاد، ظن في نفسه أن يبقى هكذا بجسده الهادئ وحواسه الساكنة من
جهة الجنس وبنفس بريئة لا تميز بين ذكر وأنثى. وفي فترة قصيرة يجتاز مرحلة جديدة ليقف
أمام أحاسيس وانفعالات وغرائز لم يكن يتوقعها. هنا ينتابه الخجل أمام نفسه وأمام الله وأمام
والديه وأمام الكنيسة والمجتمع، ويظن أنه أشر الناس، قد انحطّ إلى رتبة الزناة والفاسقين، ولا
يستحق الحياة بعد مع المسيح.

أمام هذا الإحساس المرّ الذي يجتازه الصبي يلتجئ إلى وسيلة أو أخرى، فقد يستتر
تحت ظلال شجرة الإنطوائية والإنعزالية ليختفي عن نظرات الله والناس، فيحيا مجاهداً سنوات
طويلة بمجهوده الذاتي بكل طاقاته لضبط نفسه، وكبت غرائزه، وحرمان عواطفه، ومعاداة
جسده. وإذ هو لا يصنع الخطية بأعضائه الجسدية يحسبه الناس قديساً بريئاً، وهو في عيني
نفسه إنه مجرم أثيم، يحمل في أعماقه بركاناً ثائراً وصراعاً لا ينتهي، وغالباً ما ينتهي بفلت
الزمام ليرتد إلى النجاسة في أعنف صورها، فيكره الإيمان وينبذ العفة والطهارة.

من أجل هذا يقول القديس أغسطينوس^١ أنه ليس كل من يضبط نفسه أو يمنع نفسه عن الشهوات أو يبحث عن العفة هو "عفيف"، إذ كثيرون بحثوا عن العفة واقتنوا شيئاً آخر غير العفة. وقد يلتجئ الفتى إلى أصدقائه من ذات عمره يستجديهم معرفة الأمور الخاصة بالحياة الجنسية، فيقدّمون له معلومات مأخوذة من الكتب السوقية أو الأفلام العاطفية بعد ما يعكسون عليها خيالاتهم الواسعة، فتأتي المعلومات مملوءة سموماً. وهنا لا مفر من أن يسقط الفتى في الإباحية والاستهتار، إن لم يكن أمام المجتمع ففي أعماقه الداخلية.

هنا تبرز أهمية احتضان الكنيسة والبيت للفتية. فالفتى أو الفتاة الذي أدرك حنوّ أب اعترافه، وانفتاح قلبه له، وأحسّ بأبوة والديه، واتساع مداركهم للقاءهم معه، لا يلتجئ إلى زملائه في تفهم الأمور الخاصة بحياته الجنسية التي لها كل الخطورة في بنيانه أو تدميره. الأب الروحي - بالتعاون مع الأب والأم الجسديين - يفتح قلبه للفتى ليفيض الابن بكل مشاعره وأحاسيسه، ويسأل عن كل ما قد يظنّه غريباً أو دنساً.

ففي هذا السن يقوم ميل طبيعي للشخص تجاه الجنس الآخر، يستريح له ويستلطفه، خاصة إن مثّل في ذهنه مثلاً معيناً من الناحية الجمالية أو الأخلاقية أو العلمية أو القدرات الفنية أو الهوايات وأحياناً الدينية.

فإن فتح الأب قلبه بالروح القدس ليكشف الابن له بكل أحاسيسه تجاه الجنس الآخر، كجماعة أو كأفراد أو تجاه شخص واحد معين، فليس بالصعب على الأب في حكمة الروح القدس أن ينطلق بطاقات هذا الابن بالنعمة الإلهية نحو الله لتكون أداة برّ للبيان الحيّ في الكنيسة، وقوة جبارة للانطلاق نحو الله والناس في جهادٍ لا ينقطع.

ما أحوج الفتى في هذا السن، بل أقول ما أحوج كل إنسان أن تستريح نفسه تجاه جسده بكل طاقاته، ليعلم مدى قدسيته وقيّمته، ويحس أن كل ما فيه - في أصله - ليس دنساً بل أن أعضائه بالروح القدس هي أعضاء المسيح. عندئذ يدرك هذه الحقيقة التي أدركها القديس أغسطينوس الذي ذاق الشر في أدنس صورة، حتى كان معه ابن زنا يوم توبته، بلغ عمره إحدى عشر سنة، وكانت له عشيقة تتردد عليه يومياً. إذ أدرك هذه الحقيقة أن هذه الطاقات الشريرة الدنسة بالتوبة الصادقة والخضوع لعمل النعمة يتحول الإنسان إلى شعلة حب متقدة، فيحب الله والكنيسة وكل البشر حتى الأعداء المقاومين له.

من يقرأ كتابات القديس أغسطينوس يدرك كيف تحولت طاقاته للبيان. إذ لم يحطم

^١ راجع كتيب العفة *Contenance* للقديس أغسطينوس طبعة ١٩٦٨م، بند ٢٧.

الروح القدس غرائزه وطاقاته الشريرة، بل قدّسها، فصارت تعمل لحساب مملكة الله.
لكي ندرك قدسية الغريزة في حياتنا يليق بنا أولاً أن نتعرف على قدسية الجسد ككل.

الحب والجسد

إن كان الإنسان كائنًا، يشنق أن يحب ويحب، فإننا لا نستطيع أن نمارس هذا الحب نحو الغير وأن نتقبل حبهم لنا، بل ولا أن نتفهم الحب بالحق ما لم نتعرف أولاً على جسدنا بطاقاته وأحاسيسه وغرائزه، فنعرف مركز الجسد في حياتنا، ونظرتنا إليه خلال الفكر الإنجيلي والواقعي.

ربما يتعثر البعض في كلمات الرسول بولس من جهة الجسد، إذ نراه يقول: "ويحي أنا الإنسان الشقي، من ينقذني من جسد هذا الموت؟!" (رو٢٤:٧)، "لأن الجسد يشتهي ضد الروح، والروح ضد الجسد، وهذان يقاوم أحدهما الآخر" (غل ٥: ١٧)، إذ يتساءلون:

هل كان الرسول يتطلع إلى جسده كعنصر فاسد ومقاوم يلزم الخلاص منه؟

هل كان الجسد بالنسبة له سجنًا تود نفسه أن تفارقه منطلقًا من شره؟

هل أراد الرسول أن يحطم أعضاء جسده لتلتهب نفسه حبًا لله؟

الإنسان كيان واحد

إن كان الإنسان يتكون من نفس وجسم، للنفس سماتها وللجسم سماته، لكنه لا يحمل في الواقع ثنائية كيانية أو ثنائية طبيعية، بل كيانه الإنساني الواحد. الإنسان له كيانه الواحد، فحين قيل أن الله خلق الإنسان على صورته ومثاله (تك ١: ٢٦) لم يقصد النفس مجردة عن الجسم، بل قصد الكيان الإنساني ككل. تأثر الأب غريغوريوس بالاماس بالقديسين إيريناؤس وغريغوريوس أسقف نيصص حين قال: [اسم الإنسان يطلق لا على النفس ولا على الجسم بل على الاثنين معًا، لأنهما خلقا معًا على صورة الله].

الجسم ليس مجرد مسكن للنفس، تحتله إلى حين لتفارقه بلا عودة، لكنه لا يتقبل النفس في داخله على سبيل الاستضافة، إنما يشاركها كل شيء، ويبقى شريكًا معها حتى في الأمجاد الأبدية. ففي المجد يكون الإنسان بكماله نفسًا وجسدًا حاملًا صورة كلمة الله المتجسد، وإن كان هذا الجسم يحمل طبيعة جديدة تليق بالأبدية.

بمعنى آخر الجسم ليس عنصرًا مؤقتًا في كيان الإنسان بل هو شريك النفس، أو بمعنى أدق واحد معها في جهادها وفي سقطاتها كما في أمجادها الأبدية أو دينونتها.

يقول العلامة ترنتليان: [حقًا لا يمكن للنفس أن تجتاز هذه الحياة بذاتها، فلا يمكن أن نعزل حتى أفكارنا عن ارتباطها بالجسد، مع أنها مجرد أفكار... وما يتم في القلب هو نشاط النفس في الجسد ومع الجسد وخلال الجسد¹.]

لا يحمل الجسم انعكاسات النفس الداخلية فحسب، إنما النفس والجسد يعملان معًا متفاعلين بغير انفعالٍ. لهذا لا تعجب إن دعا الكتاب المقدس الإنسان بـ"نفسًا" أو "جسدًا". ما يمارسه الجسم حتى الأكل والشرب تشترك فيه النفس، وما تصنعه النفس حتى الفكر يشترك فيه الجسم. فالإنسان ليس بكائنين أحدهما النفس والآخر الجسد، كل يعمل في استقلالية عن الآخر.

خلال هذا المنظار تتطلع الكنيسة إلى الإنسان في كليته نفسًا وجسمًا كمقدسٍ للرب، يحل فيه الروح القدس خلال سرّي العماد والميرون لكي ينطلق بالإنسان في كليته نحو الحياة الإلهية، شاهدًا لله بملكوته المعلن في داخله.

❖ قيثارتنا إنما هي جسدنا ونفسنا وروحنا يعملون معًا في توافق لنقدم أوتارهم جميعًا النغم!²

القديس جيروم

الجسد من منظارٍ جديدٍ

ليس ألصق إلى الإنسان من جسده حتى أن الكتاب المقدس أحيانًا يستخدم كلمة "جسد" ليعني بها الإنسان ككل (مت ٢٢: ٢٤). ومع هذا فقد اختلفت نظرة الناس إلى الجسد، فالبعض أبغضه تمامًا حتى حسبه عنصر ظلمة من صنع إله الشر، أو الإله خالق المادة مثل بعض الغنوسيين. والبعض عشق الجسد فقاموا بتأليهه أو تأليه بعض أعضائه. والبعض صارت ألتههم بطونهم (في ١٩: ٣). أما وقد صار الكلمة الإلهي جسدًا (يو ١: ١٤) فقد قدّم لنا نظرة جديدة فائقة للجسد. لم نعد نستكف منه، ولا نريد تدميره، بل نعتز به لأن خالقنا نفسه شاركنا طبيعتنا البشريّة وصار جسدًا.

الجسد هو عطية إلهية، نلتزم أن نهتم به ونقدم له احتياجاته، لكي يتعاون مع النفس والفكر وكل الطاقات، فيعيش الإنسان في تناغمٍ بلا نزاعات داخلية. فالإنسان السوي يعرف كيف يتمتع بتوازنٍ داخلي.

¹ De resurrechione Carnis 16.

² On Ps. 21.

- ❖ الجسم البشري هو إعلان عن صلاح الله وعناية خالق الجسم.
- ❖ نعترف بأن طبيعة الجسم كلها هي من الله، خالقها القدير.
- ❖ الجسد ليس شرًا متي تجنب الشر، أي الخطأ الذي به يصير الإنسان مخطئًا، الأمر الذي لم يخلق عليه الإنسان، إنما هو أوجده. لأن كلا جانبي الإنسان – الجسد والنفس – خلقهما الله الصالح صالحين. أما الإنسان فصنع الشر وبذلك صار شريرًا^١.
- ❖ لهذا فإنني لا أقول أي خطأ، بل أي جنون مطبق هذا الذي ينسبه أتباع ماني لجسدنا، أنه "عنصر ظلمة"... مع أن المعلم الحقيقي يوصي الرجال أن يحبوا نساءهم علي مثال حبهم لأجسادهم، وفي نفس الوقت علي مثال حب المسيح للكنيسة^٢.
- ❖ كيف يكون الجسد من خلق العدو (الشيطان) إن كانت النفوس ذاتها التي تحكم الجسد، تقتدي بأعضاء الجسد، لكي لا يوجد بينها انقسامات عدائية، إذ وهب الله ذلك للجسد بالطبيعة، فيلزم للنفوس أن تقتدي به أيضًا، فتحب بعضها البعض بالنعمة؟
- ❖ إنه بسبب حسن كتب إلى أهل رومية: "فأطلب إليكم أيها الإخوة برأفة الله أن تقدموا أعضائكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية". (رو ١٢: ١) باطلاً نناضل بأن الظلمة غير النور، والنور خلاف الظلمة إن كنا نقدم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله من أجسادنا التي هي "عنصر الظلمة"^٣.
- ❖ لنهتّم بالجسد، وإنما فقط في حدود الصحة^٤.

القديس أغسطينوس

بين الجسد والجسم

إن كان الجسم ملتحمًا مع النفس، يشتركان معًا في كيان واحد في كل تصرف داخلي أو خارجي، فلماذا يئن الرسول بولس من جسده، ملقبًا إياه: "جسد هذا الموت" (رو ٧: ٢٤)، وحاسبًا إياه يشتهي ضد الروح (غل ٥: ١٧)؟

^١ العفة للقديس أغسطينوس، ٢٠.

^٢ العفة للقديس أغسطينوس، ٢٢.

^٣ العفة للقديس أغسطينوس، ٢٤.

^٤ Ep 130: 7.

في الواقع لم يُحَقَّر الرسول بولس من جسم الإنسان، إنما يحذرنا من الجسد، وإن كان في اللغة العربية لا يوجد تمييز واضح بين الجسم *Soma* والجسد *Sarks*. الجسم أو البدن هو المخلوق بواسطة الله، وهو عنصر صالح، وليس شرًا كما سبق فادّعى المانيون وبعض الغنوسيين، أما الجسد فيقصد به الإنسان المشوّه نفسًا وجسدًا معًا. الجسم هو خليفة الله الصالحة، لا يليق بنا أن نحترقه أو نعاديّه كعدوٍ نود الخلاص منه، ولا نحسبه سجنًا للنفس كما ادعى أفلاطون.

يتطلع معلمنا بولس الرسول إلى أعضاء جسده بقدسية ورهبة، فيحسبها أعضاء المسيح (١ كو ٦: ١٥) لا يليق إفسادها، ولا استخدامها كآلات إثم للخطية بل "آلات بَرِّ الله" (رو ٦: ١٣).

لقد وقفت الكنيسة تُقَدِّد كل فكرٍ غريبٍ جاء به الهرطقة من الفلسفات الشرقية خاصة الفارسية لمعاداة الجسد والاستهانة به كعنصر شرٍ يجب الخلاص منه، فمن كلمات الآباء في هذا الشأن:

❖ لا يجب أن نخجل من أن نسمي ما لم يخل الله من أن يخلق^١.

القديس إكليمنضس السكندري

❖ يجب أن لا تكون الطبيعة البشرية موضوع عارٍ، بل موضوع احترام^٢.

❖ الجسم هو من عند الله، ما سمح أن يوجدّه إنما هو جزء من عمله... لاحظ كيف دُعي الإنسان "جسدًا" بطريقة لائقة... وأن غاية الله ومواعيده الخاصة بالإنسان ليست لصالح النفس وحدها بل للنفس مع الجسد^٣.

❖ في نظر أفلاطون الجسم سجن، أما في نظر بولس فهو هيكل الله لأنه في المسيح^٤.

العلامة تريليان

❖ الجسم الذي من البداية كان موضع فن الله، سيوجد قادرًا على تقبل قوة الله والامتثال بها^٥.

^١ مجموعة من المؤلفين: الجسد والعفة والحب، منشورات النور، ١٩٨٣م، ص ٢٤.

^٢ مجموعة من المؤلفين: الجسد والعفة والحب، منشورات النور، ١٩٨٣م، ص ٢٤.

^٣ De resurr. Carn 5.

^٤ On the Soul 54:5.

^٥ Adv. Haer. 5: 3: 2.

العلامة ايريناؤس

❖ لسنا نريد أن نتخلص من الجسم، وإنما من الفساد الذي فيه. جسمنا هو ثقل علينا، ليس لأنه جسم بل لأنه فاسد وقابل للألم. ولكن إذ تحل الحياة الجديدة فإنها ستتزع هذا الفساد، أقول هذا الفساد لا الجسم نفسه^١.

❖ خلق الله الجسد صالحًا، ليس شرًا في ذاته، لكن إذ دخلت الخطية لم يعد يسكن فيه شيء صالح.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ليتنا لا نحترق الجسم بأية وسيلة، بل نرفض أعماله. لا نحترق الجسم الذي سيملك في السماء مع المسيح. لا يقدر جسد ودم أن يرثان ملكوت الله. هذا لا يشير إلى الجسد والدم هكذا بل إلى أعمال الجسد^٢.

القديس جيروم

❖ لقد نتقلنا إذن بهذا الجسم الفاسد. لكننا إذ نعلم أن حالة الثقل هذه ليست من طبيعة الجسم وجوهره إنما من فساده، لذا فإننا لا نرغب في أن نتخلص منه، بل أن نلبسه مع عدم فساده. عندئذ سيوجد جسم، لكنه لا يعود يكون ثقلًا لأنه لا يعود يكون بعد فاسدًا^٣.

القديس أغسطينوس

❖ لا نقل لي إن هذا الجسد soma هو سبب الخطية. فلو كان الجسد سبب الخطية، فلماذا لا يخطئ الميت؟ لأن الجسد لا يخطئ بذاته، بل النفس هي التي تخطئ من خلال الجسد. الجسد هو أداة.

القديس كيرلس الأورشليمي

إذن، فجسمنا ليس عدوًا نقاومه، وإنما كما يقول القديس أغسطينوس^٤ يجب علينا أن نحبه كما يحب الرجل امرأته، والمسيح كنيسته، إذ يقول الرسول: "أيها الرجال أحبوا نساءكم،

^١ In 2 Cor. hom 10:3.

^٢ On Psalm 143, hom. 34.

^٣ The City of God, 14:3.

^٤ راجع كتيب العفة Contenance للقديس أغسطينوس طبعة ١٩٦٨، العهد القديم، ١٩ - ٢٣.

كما أحب المسيح أيضًا الكنيسة، وأسلم نفسه لأجلها لكي يقدسها... كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم... فإنه لم يبغض أحد جسده قط، بل يقوته ويربّيه كما الرب أيضًا للكنيسة" (أف ٥: ٢٥-٢٩).

ويعلق القديس أغسطينوس قائلاً: [المعلم الحقيقي يوصي الرجال أن يحبوا نساءهم على مثال حبهم لأجسادهم أو في نفس الوقت على مثال حب المسيح للكنيسة].
لنحب أجسادنا في الرب، لتكون أداة طيعة معينة للنفس في الانطلاق معاً بروح الرب في حياة الحب!^١

❖ عندئذ سيكون هناك نوع من الانسجام بين الجسد والروح، فالروح يحيي الجسد الخادم دون أية حاجة إلى قوتٍ منه. لا يعود بعد يوجد صراع في داخلنا.
وكما أنه سوف لا يوجد أي أعداء من الخارج نحتلمهم هكذا لا يعود يوجد أعداء من الداخل.^٢

القديس أغسطينوس

❖ إني أحب الجسد، لكنني أحبه عندما يكون طاهرًا، عندما يكون عذراويًا، عندما يُمات بالصوم. لست أحب أعماله إنما أحبه هو، هذا الذي يلزم أن يحكم عليه ويموت كشهيد^٣.

القديس جيروم

هذا بالنسبة للجسم أو البدن Soma بأعضائه بكونه خليفة الله المقدسة، والتي اهتم الله نفسه بتقديسها حتى بعد السقوط، حاملاً جسداً بلا خجل، لكي بملء الدالة نقول في القداس الغريغوري: [باركت طبيعتي فيك].

حمل كلمة الله جسداً لتقديس أجسادنا، فجاء في رسالة القديس إكليمنضس الروماني: [بالحب حملنا الرب إليه! من أجل الحب حملنا، فوهبنا ربنا يسوع المسيح دمه... وهبنا جسده لجسدنا، ونفسه لنفسنا^٤].

وبنفس المعنى يقول القديس إيريناؤس: [هكذا يخلصنا الرب خلال دمه، فيهبنا نفسه لنفوسنا، وجسده لأجسادنا، ساكباً روح الآب لأجل اتحاد الله مع الإنسان والشركة معه^٥].

^١ راجع أقوال الأب لاکتنتيوس عن العواطف والغرائز Lactantius: The Epitome of the Divine Institutes 61.

^٢ Enchiridion 23:9.

^٣ Ep. , 84:8.

^٤ Ep: 1: 49.

^٥ Adv. Haer. 5: 1:1.

أما بالنسبة للجسد Sarks، فلا يقصد به الرسول جسمنا أو بدننا، إنما إنساننا العتيق الذي يمس حياتنا كلها نفسًا وجسدًا. ولكي نفهم ذلك يلزمنا توضيح التمييز بين الإنسان الجسداني والإنسان الروحي.

الإنسان الجسداني والإنسان الروحي

يميز القديس بولس بين الإنسان الجسداني والروحاني، ليس بمعنى أن الأول يحمل جسدًا بلا روح، ولا الثاني روحًا بلا جسد، إنما يقصد بالجسداني الإنسان القديم، أو ما يسميه بالجسد، وبالروحاني الإنسان الجديد. الإنسان الجسداني هو الذي التحم بالخطية نفسًا وجسدًا فأفسدت كل كيانه، ويعلل العلامة ترنتليان هذه التسمية هكذا: [الجسد ذاته ليس مشيئًا... إنه مجرد أداة... فقد وُيخ في الكتاب المقدس لأن النفس بدونه لا تقدر أن تمارس الشهوة أو النهم أو السكر أو العنف أو عبادة الأوثان وغير ذلك من الأعمال^١]. ويكمل حديثه مؤكّدًا أن الجسد وهو يشترك مع النفس في الخطية يشترك معها أيضًا في الصلاح.

على أي الأحوال ليس الجسم وحده يسقط تحت تأثير سلطان الخطية إنما الإنسان بكليته، إذ يقول السيد المسيح: "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة: قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف، هذه هي التي تتجس الإنسان" (مت ١٥: ١٩-٢٠).

أما الإنسان الروحي فهو الإنسان الذي يخضع لعمل الروح القدس فيُحسب روحياً دون أن يخلع الجسد، لذلك يقول القديس أغسطينوس: [من كان ليس روحانياً حتى في جسده يصير جسدانياً حتى في روحه^٢].

❖ إذ يعيش البعض حسب الجسد وآخرون حسب الروح، ظهر نوعان من المدن مختلفان ومتصارعان معًا. حسنًا قيل: "يعيش البعض حسب البشر، والآخرون حسب الله". يقول بولس لأهل كورنثوس بكل وضوح: "فإنه إذ فيكم حسد وخصام وانشقاق أُلستم جسديين وتسلكون بحسب البشر؟! " [٣]. من يسلك حسب البشر ومن يدعي جسدانياً نفس الشيء، فإنه يقصد بالجسد جانباً من جوانب الإنسان^٣.

❖ لمن يقول الرسول: "لم أستطع أن أكلّمكم كروحيين بل كجسديين" (١ كو ٣: ١)؟ يكون

^١ De Anima 4.

^٢ منشورات النور: الجسد والعفة والحب، ص ٢١.

^٣ City of God 14:4.

الإنسان روحياً في هذه الحياة بطريقة ما، وهي أنه وهو جسدي له جسده يرى ناموساً آخر في أعضائه يحارب ناموس ذهنه. لكنه وهو في الجسد سيكون روحياً إذ ينال هذا الجسد عينه القيامة التي قيل عنها: "يُزرع جسماً حيوانياً ويُقام جسماً روحانياً" (١ كو ١٥: ٤٤). ماذا يكون هذا الجسد الروحاني؟ وكم هي عظيمة نعمته؟ أخشى أن أكون متهوراً عند الحديث عن هذا إذ لم أُنل بعد هذه الخبرة^١.

❖ لا يتحدث بولس عن أجسادهم، وإنما عن أرواحهم الجسدانية^٢.

القديس أغسطينوس

❖ صار الكلمة جسداً لكي يغير جسدنا إلى روح (أي ليحمل بعض سمات الروح وأخيراً يلبس صورة آدم الثاني)... ولكي يقدس الجسد كله معه، إذ فيه تقدست البكور^٣.

القديس غريغوريوس النيسي

❖ يلزمنا ألا نعيش حسب الجسد، بمعنى ألا نجعله سيّد حياتنا، إنما ليكون الجسد هو التابع لا القائد، ليس هو الذي يدبّر حياتنا، بل ناموس الروح هو الذي يدبرها^٤.

❖ لم يتّهم الجسد ذاته، إذ لم يقل: "الأهواء التي ارتكبتها الأعضاء"، وإنما التي "تعمل في أعضائنا" (رو ٧: ٥)، ليظهر أن أصل الضرر جاء من موضع آخر، وهي الأفكار التي تعمل فينا، وليست الأعضاء التي تعمل الأهواء فيها. فإن النفس تقوم بدور اللاعب على القيثارة التي هي الجسد، فتلزمه بذلك. فالنغم غير المنسجم لا ينسب للأخير (القيثارة) بل للأول (النفس) أكثر من الأخير^٥.

❖ يقول: "اسلكوا بالروح، فلا تكمّلوا شهوة الجسد" (غل ٥: ١٦). يتهم البعض الرسول بأنه قسّم الإنسان إلى جزئين... لكن الأمر ليس هكذا، فإنه بالتأكيد لم يقصد بكلمة "الجسد" الجسم فلو كان يعني هذا فما معنى إضافة تعبير: "شهوة الجسد ضد شهوة الروح"؟... لقد اعتاد أن يدعو الإرادة الفاسدة لا الطبيعة "جسداً"، مثل قوله: "لكنكم لستم في الجسد بل في الروح" (رو ٨: ٨-٩)، وأيضاً: "الذين هم في الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله"...

¹ City of God 22:21.

² City of God 22:21.

³ Contra Eunomius, 4 PG 45:637AB.

⁴ In Rom. hom 14.

⁵ In Rom. hom 12.

ماذا إذا يعني بالجسد؟ الفكر الأرضي، الكسل واللامبالاة، هذا ما يعنيه هنا بالجسد، وهو ليس اتهامًا للجسم إنما هو اتهام ضد النفس الخاملة. الجسد أداة؛ لا يبغيض أحد الأداة أو يكرهها، لكن يبغيض من يسيء استخدامها...

في استخدامه تعبير "الجسد يشتهي ضد الروح" يعني حالتين للعقل؛ يضاد إحداهما الأخرى، أعني تضاد بين الفضيلة والرذيلة، وليس تضاد بين النفس والجسم... إنه يُشير إلى الصراع بين المبادئ الشريرة والمبادئ الصالحة؛ إلى الإرادة أو عدم الإرادة التي تخص النفس، لذلك يقول: "وهذان يقاوم أحدهما الآخر" حتى لا تُترك النفس مستمرة في شهواتها الشريرة...

أجبنني الآن، يا من تتهم جسدك وتحسبه عدوًا وخصمًا. لنقبل ما تؤكدونه بأن الزنا والعهارة يصدران عن الجسد، ولكن الكراهية والشقاق والصراع والنزاع والبدع والسحر هذه إنما تنبع عن مجرد اختيار سلوكي فاسد. وهكذا بالنسبة للأخطاء الأخرى أيضًا، كيف يمكن أن ننسبها للجسد؟ ها أنتم تلاحظون أنه لا تحدث (هذه الرذائل) عن الجسم بل عن أفكار أرضية، تزحف على الأرض¹.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كان هؤلاء الناس جسديين، لأنهم كانوا لا يزالون عبيدًا لشهوات العالم الحاضر، مع أنهم اعتمدوا وقبلوا الروح القدس، لكنهم كانوا جسديين، لأنهم بعد عمادهم عادوا إلى حياتهم القديمة التي جحدوها.

يسكن الروح القدس في الشخص متى ثبت هذا الشخص في إيمانه القوي بميلاده الجديد، وإلا يفارقه. إن تاب هذا الشخص يسكن فيه إذ هو دائمًا مستعد لما هو صالح، وهو محب للتوبة².

أمبروسياستر

بركات الصراع بين شهوات الجسد وشهوات الروح

❖ هذا الصراع (الذي بين شهوات الروح والجسد) يسبب لنا فائدة كبرى... ففي أثناء مقاومة الجسد نتحصن من تلك الأمور الشريرة التي يفكر فيها عقلنا، ونعود إلى حال أفضل عن

¹ In Galat., Chapter 5.

² CSEL 81:31-32.

طريق التوبة...

الروح التي لا ترتبط بمادة جسدية^١، لا تجد غفرانًا عن الخطية التي تسقط فيها... لأنها لا تصطدم ببواعث جسدية مثلنا، إنما تخطئ بفساد الإرادة. لذلك فإن خطيتها بلا غفران وضعفها بلا علاج. فإنها إذ تسقط من غير ضعفات أرضية، لا تجد مكانًا للتوبة ولا للغفران. وعلى هذا فإن الصراع بين الجسد والروح ليس فقط غير مضر، بل وبالحيقة مفيد لنا.

أولاً: لأنه عن طريقها (شهوة الجسد) نلوم أنفسنا على كسلنا وإهمالنا، فهي تشبه ضابطاً نشيطاً لا يسمح لنا أن نحيد عن الطريق الصحيح للنظام... فإذا ما أهملنا ولو قليلاً، تنور فينا بباعث الشهوة، وبالتالي يحدث تأنيباً يعيدنا إلى الاعتدال الصحيح. ثانياً: لأنه في حالة العفة والنقاوة الكاملة التي تهينا إياها النعمة الإلهية، نجد أنفسنا محفوظين من الزنا الجسدي، حتى أننا ننظر أننا لا نعود نضطرب بأي أهواء جسدية، وبهذا نخطئ ونبنتخ في داخل قلوبنا، كأننا لا نحمل فساد الجسد. لكن بأشواك الشهوات نخضع ونتذكر أننا لسنا إلا بشر^٢.

الأب دانيال

❖ من يُقهر شهوات الجسد يُتَوَجَّعُ بعدم الفساد. فلو لم تكن هناك شهوات ما كان يمكن أن توجد فضائل، وبالتالي ما كان يعطي الله أكاليل لمن يستحقونها^٣.

القديس أنطونيوس الكبير

الإنسان الروحي والجنس

يظن البعض أن الإنسان الروحي، يضاد الجنس، وينفر حتى من تعبير "الجنس". هذه النظرة هي عودة للمانوية والغنوسية بصورة أو أخرى. أما الإنسان الروحي الحق، فهو يرى الجسد في ذاته أنه مبارك، والجنس أيضاً يراه مباركاً، وإن كانت الخطية قد أفسدته، لذلك قيل: "مجدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله" (١ كو ٦: ٢٠). لكي نرى "الجنس" كأمر مبارك، يلزم بنا أن نعرف أن الإنسان ليس فيه شيء حيواني

^١ مثل الملائكة الذين سقطوا (إبليس وجنوده).

^٢ مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية، ٤: ١٣-١٥.

للمؤلف: الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، ص ٣٥.

بحث، إنما كل ما يمارسه إنما يمارسه بوجوده ككلٍ صادر عنه في شخصه. ليست هناك أمور تمس الجسد بطريقة حيوانية تأنفها النفس، ولا أمور عالية تمارسها النفس في معزلٍ عن الجسد. فالإنسان في تناوله الطعام مثلاً لا يمارسه بطريقة غريزية بحتة خارجة عن نطاق النفس، وإلاً لكان يأكل بطريقة آلية غريزية ثم يتوقف، لكن الإنسان وهو يأكل يشترك مع أصدقائه في الحديث، فيكون للطعام مع الأصدقاء لذة خاصة تتبع عن لقاء المحبة والصدقة، كما تؤثر العوامل النفسية على اختيار الإنسان لنوع الطعام وكميته وأحياناً موعد تناوله. أما العمليات النفسية كالتفكير فتتم خلال تغييرات جسدية، للمخ دوره الرئيسي في الفكر، وأيضاً للحالة الصحية الجسدية. الأوضاع النفسية تُعاش ليس فقط روحياً وإنما جسدياً أيضاً. خلال هذا المنظار يقول الأستاذ كوستي بندلي عن الجنس إنه: [ليست وظيفة حيوانية غريزية بحتة خارجة عن نطاق الروح، وإلاً لتركت لنشاط الجهاز العصبي وجهاز الغدد الصماء، لكن نتائج العلم الحديث وتطورات البحث الفلسفي المعاصر كشفت أن الجوانب السيكلوجية والفسولوجية ترتبط معاً في وحدة الكيان الإنساني العميق، وحدة روح "مجسدة" أو جسد "مروحن"^١].

فالجنس الإنساني ليس لقاء بين جسدين خلال تلاقى الغريزة الحيوانية، إنما في أصلته هو التقاء شخصين معاً على صعيد الحب، ليس لكي يطلب كل متعته الذاتية وإشباع غريزته، إنما هو انفتاح كل منهما للآخر باتحادهما معاً على مستوى الجسد والفكر والقلب ليعيشا معاً، يربطهما الإيمان الواحد والغاية الواحدة. بهذا يكون النشاط الجنسي مرتبطاً بالحب لا بشهوة الجسد. الأمر الذي نتحدث عنه بمشيئة الرب في "الحب الزوجي"، حيث يلتقي الزوجان معاً خلال الجسد لا كجسدين بل بالأحرى حضور نفسين معاً على مستوى الاحترام المتبادل لشخصية كل منهما للآخر.

يوجد فارق بين الجنس الإنساني والشهوة الحيوانية. الأول يلتقي فيه شخصان بحب حقيقي صادق، والآخر يلتقي فيه الإنسان مع شيء يستخدمه ويستغله لذاته؛ فيجعل من الطرف الآخر شيئاً لا شخصاً، يفقد أصالته وحريته.

الطبيعة الإنسانية ككلٍ لا تشبع بالجنس كلذة على مستوى حيواني، فالجسم لا يحب الجسم منعزلاً عن النفس بكل طاقاتها وإمكاناتها وإلاً كان الإنسان يرتبط بجسمٍ ميتٍ مثلاً. بهذا المنظار الإنساني الروحي لا يحمل المؤمن كراهية للجنس، إذ لا يتطلع إليه كأمرٍ دنسٍ، إنما يراه عبر الإنسان ككل، جزءاً من حياته وكيانه يحتاج إلى السمو به

^١ منشورات النور: الجسد والعفة والحب، ص ٦٢.

وتوجيهه من الاستيلائية على الغير إلى العطائية، من الشهوة إلى الحب الصادق.

❖ الأعضاء عينها التي اعتدنا أن نخدم بها الخطيئة ونجلب بها ثمرة الموت يريدنا الله أن نستخدمها للطاعة للبر فنثمر للحياة^١.

القديس ايريناؤس

الجنس والحب الحقيقي

إن كان الإنسان الروحي لا يبغض جسده، ولا يحتقر الوظيفة الجنسية كأمرٍ قبيحٍ دنسٍ، إنما بالروح القدس يعلو بها كغيرها من الطاقات الإنسانية والدوافع من الاستيلائية الأنانية إلى العطائية الباذلة.

هذا الحب الذي بفضلله كما يقول الأستاذ بندلي [يتأنسن] الجنس ويتعالى من صعيد الوظيفة إلى صعيد الشخص^٢. فلا يتطلع الإنسان إلى الطرف الآخر كشيءٍ يستخدمه، كما يجب التفاحة فيستهلكها، ساعياً وراء لذته، ومبتغياً إرضاء ذاته.

الجنس لا يتستر وراء كلمة "الحب"، فيغلق على الآخر داخل جدران أنانيته المنكمشة، ليصير الآخر موضع إشباع لذاته الشخصية، إنما يجب أن يحمل انفتاحاً للإنسان نحو الإنسان فيقبله كآخر يعطيه ويبدل.

قدم لنا الأستاذ بندلي حركة النمو التي يلزم أن ينطلق بها المؤمن من حالة الاستيلائية المنغلقة إلى حالة العطاء للآخرين في الرب.

[هكذا يتحقق الإنسان بتخليه عن مركزية أنه ويغتني بتعريته من ذاتيته المنطوية ويجد نفسه بخسرانه إياها، وهنا يلتقي التحليل النفسي الأدق والأعمق بكلمة الإنجيل: "من أهلك نفسه أحيها" (لو ١٧: ٢٣). فالإنسان - كما يتضح مما سبق - لا يصل إلى البلوغ التام إلا إذا توصل إلى معطائية كاملة^٣.]

يحيا الإنسان في طفولته متمركزاً حول ذاته سجيناً للأنثى، فيكون بهذا في مرحلة النرجسية (نرجس هو شاب أسطوري عشق صورته، فصار يتأملها في غدير ماء، وبقي هكذا في ذات المكان يتطلع إليها حتى مات).

^١ Adv. Haer 5: 14: 4.

^٢ منشورات النور: الجسد والعفة والحب، ص ٦٦.

^٣ منشورات النور: الجسد والعفة والحب، ص ٦٩.

هذه المرحلة النرجسية التي يرى الإنسان في ذاته العالم كله منحنيًا لخدمته، لينطلق إلى أكثر موضوعية حين يدخل المرحلة الأوديبية. فالبنت تطلب أباه، وتغير من أمها، لأنها تود أن تملكه وحدها، والولد يطلب أمه ولا يطيق أباه إذ يريد أن يملكها بمفرده. إنها مرحلة تحمل لذة ذاتية، هي امتداد للأنا.

أما المرحلة التالية فهي مرحلة المراهقة المبكرة حيث يلزم أن يكتشف الشخص الإنساني، لكنه أحيانًا يطلب أن يجد صورته في الغير (نكوص إلى النرجسية)، أو يطلب صورة أحد والديه (نكوص إلى الأوديبية). أما الشخص السوي فيتعرف على الجنس الآخر لا ليقتنيه لحساب الأنا ولا لإشباع لذة ذاتية ولو بصورة متسترة، إنما يفتح قلبه إلى العطائية برؤيته في الجنس الآخر أشخاصًا لا أداة.

يحدثنا أيضًا الأستاذ بندلي عن الذين لا يعرفون الحب بل يتنكصون إلى الاستيلائية بنزوات حب من شخص إلى آخر، أو بالجوء إلى بيوت الدعارة من أجل لذة متطورة في شكلها؛ فيتعامل مع الآخرين كسلع.

حارب شهوة الجسد بشهوة الروح

❖ الذين يتغلبون على ميولهم الجسدية بالشهوة المقدسة، يتحررون من كل القيود، حتى وهم باقون في الجسد. لأن الله الذي تركزت فيه شهوتهم هو أسمى - بغير مقارنة - من كل الأشياء، وهو لا يسمح للإنسان أن تتركز شهوته في غير الله. لتتصب شهواتنا بقوة في الله. ولا يكون بعد للأمور الجسدية أن تأسر إرادتنا الحرة، إنما ترتفع نفوسنا على كل شيء حي وعقلي. فإننا إن فعلنا هذا لا يصيب إرادتنا أي أذى من الحياة الطبيعية بخصوص السكنى مع الله، الذي تفوق طبيعته كل فهم^١.

القديس مرقس الناسك

التجسد الإلهي وتقديس الحواس

❖ بالتجسد الإلهي صرنا مشابهين إياه من جهة الجسد، صرنا أغصانًا في الكرمة، متحدين به، متمتعين بملئها (يو ١: ١٦). بهذا تقدس جسدنا الذي كان قبلاً ميئًا وفاسدًا، إذ صار

^١ للمؤلف: الفيلوكاليا، الجزء الأول، ١٩٩٣، ص ٩٧.

له حق القيامة والخلاص خلال إختوتنا بالسيد المسيح الحامل لجسدنا^١!

البابا أنثاسيوس الرسولي

❖ المسيح هو القداسة التي بدونها لا يقدر أحد أن يعاين وجه الله. المسيح هو خلاصنا، إذ هو المخلص والفدية في نفس الوقت. المسيح هو كل شيء بالنسبة لنا، فمن يترك شيئاً من أجله يجده مقابل ما قد تركه، فيستطيع في حرية أن يقول "تصيبني هو الرب" (مز ١٢٣: ٦)^٢.

القدّيس جيروم

الروح القدس وتقديس الحواس

❖ يتطلب الجهاد للحصول على النقاوة الكاملة جهاد النفس والجسد معا في أعمال التوبة، بتناسق وتسايو.

فإذا وُهب العقل نعمة ما، يستطيع عندئذ أن يصارع ضد الشهوات بلا هوادة أو تراخ، ويتقبل أفكار الروح القدس وتوجيهاته وتعزياته، ويستطيع أن يطرد عن النفس الميول الدنسة النابعة عن شهوات القلب.

وبفضل الشركة بين عقل الإنسان أو نفسه والروح القدس، يساعد الروح القدس الإنسان على تنفيذ الوصايا التي تعلمها، ويرشده لطرد كل الشهوات عن النفس، سواء الشهوات النابعة عن النفس ذاتها مستقلة عن الجسد، أو تلك التي لحقت بها عن طريق الجسد.

والروح القدس يعلم الإنسان أن يحفظ جسده كله - من الرأس إلى القدمين - في تناسق:

فيحفظ العينين لنتظرا بنقاوة.

ويحفظ الأذنين لتصغيا في سلام، أو تنصتا إلى الأمور الخاصة بالسلام دون أن تتلذذا بالأحاديث عن الآخرين والافتراءات وذم الغير.

ويحفظ اللسان لينطق بالصلاح فقط، معطيًا وزناً لكل كلمة، فلا يسمح لشيء دنس أو شهواني أن يختلط بحديثه.

¹ De Sententia Dionysii 11.

² Ep. 116 : 8.

ويحفظ اليدين لتتحركا طبيعياً فترتفعان للصلاة ولصنع الرحمة والكرم.
ويحفظ المعدة ليكون لها حدود مناسبة للأكل والشراب، وذلك حسب القدر الكافي
لقوت الجسد، فلا يترك الشهوة أو النهم ينحرفا بها فتتعدى حدودها.
ويحفظ القدمين ليسلكا ببر حسب إرادة الله، بهدف القيام بالأعمال الصالحة.
بهذا يكون الجسد كله قد اعتاد على كل عمل صالح، وصار خاضعاً لسلطان الروح
القدس، فيتغير شيئاً فشيئاً حتى يشارك - إلى حد ما - في النهاية في صفات الجسد
الروحي الذي يناله في القيامة العادلة^١.

القديس أنطونيوس الكبير

^١ رسالة ١.

الحب والشهوة

يا لعظم الحب الإلهي المنسكب فينا بالروح القدس في المعمودية، هذه العطية، أي الحب تجاه الله وعمله وكنيسته عندما تدخل القلب تتقابل مع كل عطايا الله، الأول للجسد بكل غرائزه وطاقاته وانفعالاته وميوله وعواطفه، فتتجاوب معها وتتطلق بها في عملية إعلاء تفوق الطاقة البشرية، يلمسها المؤمن ويتذوقها ولا يقدر أن يعبر عنها!

أما عن الذين لا يتجاوبون مع روح الرب - روح الحب الإلهي - بعدم تسليمهم الطاقات الطبيعية لعطية الروح القدس أي الحب، فينحرفون بهذه الطاقات الطبيعية نحو آخر غير الله. ففي لحظة الانحراف، لحظة الانفصال بالإرادة الذاتية عن التجاوب مع روح الحب الإلهي، ينحرف القلب طالباً إلهاً آخر يتعبد له. هذا الإله هو "الأنا" أو "الذات" تتجسم في تصرفات جسدية خاطئة مع نفسه أو مع آخر، قريباً كان أو غريباً، يشقائق إليه ويتعبد له.

فلا عجب إن سمعنا عن فتى أحب فتاة لدرجة التعبد، ونراها في ذات الوقت احتلت قلبه إلهاً بلا عيب، يرى فيها كل الكمال وكل العقل وكل الجمال وكل ما هو خير، ويحسب أنه بدونها تظلم الحياة في وجهه لا يطيقها ولا يحتملها. هذا كله لأنه قد انتزع من قلبه محبة الله وأحل آخر ليكون موضوع حبه.

وهكذا يؤله المحب محبوبته ويعصمها من كل خطأ، وتصير كل شيء في حياته ما دامت لم تدخل قلبه خلال الرب. تبقى متربعة على عرش قلبه لا يقبل من ينتقدها أو يحدثه بشيء عنها إلى أن يحل آخر غيرها محلها فيبغضها ويمقتها ويدهش كيف كان معمياً عن حقيقتها، كيف كان معجباً بها!

من أجل هذا رفضت الكنيسة كل حب خارج دائرة الرب، لا ليحرم القلب من عمله، بل ليشبع ويحب كل البشرية على مستوى سامٍ يفوق الطاقة البشرية، فيحب من يعرفهم ومن لا يعرفهم، الأصدقاء والغرباء والأعداء. يتسع قلبه ليحب كل البشرية فوق كل حدود مكانية أو زمنية.

من هنا يتذوق الصداقة والحب العائلي والحب الروحي، الأمور التي أرجو أن يسمح الله لي بالحديث عنها.

١. آدم يخلع محبة الله على حواء

❖ لماذا أطاع آدم صوت حواء وزوجته وتجاوز الوصية حتى أكل من الثمرة التي نهاه الله عنها؟!

هل خُذع آدم، فحسب أنه إذا أكل الثمرة الممنوعة صار إلهاً كما قالت الحيّة لحواء؟ كلا! فإن هذا الخداع بعيد عن عقل آدم المملوء حكمة وفهماً، إذ يقول الرسول: "وآدم لم يُغَوَّ لكن المرأة أغويت في التعدي" (١ تي ٢: ١٤).

لما سأل الله حواء، أجابت إن الحيّة أغوتها فأكلت (تك ٣: ١٣). أما آدم فلم يجب هكذا بأن المرأة أغوته، بل قال "المرأة التي جعلتها معي أعطتني (وليس أغوتني) من الشجرة فأكلت" (تك ٣: ١٢).

وما سبب هذا؟ إلا أن آدم أحب امرأته جداً (ليس في الرب) ففعل ما طلبته منه، بهذا طغى آدم إذ المحبة (غير الطبيعية) طغته... فإننا كثيراً ما نغيب الله لنرضي صديقنا ومحبيونا.

القديس أغسطينوس

٢. سليمان يخلع المحبة على الشريرات

❖ من أسقط سليمان الحكيم في الجهل الفظيع حتى انقاد إلى عبادة الأوثان وصار يخدمها؟ هل أعتقد سليمان حقاً أن الأوثان آلهة، وأن في خدمتها نفعاً جزيلاً؟ كلا! فإن سليمان كان مزيئاً من الله بكل حكمة وفهم وإفراز وحزم. فإن قلت ما السبب الذي جعله يسجد للأصنام ويقدم لها بخوراً، وزجّه في لجة الكفر الفظيع؟ أجيبك أن السبب في ذلك هو أن المحبة خدعته!

هذا قد أوضحه لنا الكتاب المقدس بقوله: "أحب الملك سليمان نساء غريبات كثيرة مع بنات فرعون موآبيات، من الأمم، الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم، وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة... وكان في زمن الشيخوخة أن نساء سليمان أملن قلبه وراء آلهة أخرى" (١ مل ١١).

فإذ لم يطع سليمان أمر الله... كان متى اتخذ سليمان امرأة من تلك النساء الغريبات يبني هيكلًا للصنم الذي تتعبد له. وهكذا عندما يتزوج بأخرى.

فكل منهن تسجد لصنمها في هيكله، وهو يسجد معهن للأصنام ويقدم البخور، لا لأنه

كان مؤمناً بأن الأصنام آلهة حقيقية، إنما من أجل اضطرام حبه لهن، الذي أعمى قلبه وبصيرته.

كان يطيعهن لئلا يُحزن شهواته الملتهبة فيه، كالقول المتداول: عبد الشهوة أذل من عبد الرق. لهذا كان يرضي نساءه اللواتي يجهن. إذن المحبة خدعته ومالت بقلبه إلى الكُفر الشديد.

القديس أغسطينوس

هذا ما دفع الرسول بولس أن يوضح حقيقة محبته لإخوته، قائلاً: "محبتي مع جميعكم في المسيح يسوع. آمين" (١ كو ١٦ : ٢٤).

❖ إذ لم يحب الكورنثوسيون الواحد الآخر قدم لهم بولس هذا التعليم من عنده لكي يتعلموا أن يحبوا بعضهم البعض بذات الحب الذي يحبهم به الرسول، ليس حباً بعواطفٍ جسدية بل في المسيح يسوع^١.

أمبروسياستر

❖ هكذا لكي يمنعهم عن التفكير أنه يتملقهم ختم بقوله: "في المسيح يسوع". ليس في محبته شيء بشري أو جسدي، بل هو حب من نوعٍ روحي وأصيل. هذا هو السبب الذي به يضع الختم عليه بإضافة الكلمات: "في المسيح يسوع"^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

الشهوة أخذ والحب بذل

يخلط البعض بين الحب والشهوة؛ فالحب يعني البذل والترك والتضحية حتى الموت من أجل المحبوب، وليس من أجل الذات. أما الشهوة فهي أخذ، إذ يرغب الإنسان في إشباع غرائزه أو عواطفه أو دوافعه من إنسان آخر، ظاناً أنه يحبه ومستعد أن يبذل ويترك ويموت من أجل محبوبه دون أن يدري أنه محب لشهوته ولذاته لا لمحبوبه. والمثل الواضح في ذلك أمنون الذي أحب أخته ثامار. فلو كان يحبها حقاً لسمع صوتها حيث قالت له: "لا يا أخي. لا تذلني. لأنه لا يفعل هكذا في إسرائيل. لا تعمل هذه

¹ CSEL 81:194

² In 2 Corinth. Hom. 44:4.

القباحة. أما أنا فأين أذهب بعاري. وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل" (٢ صم ١٣: ١٢-١٣) بل وبعدما سقط معها "أبغضها أمنون بغضًا شديدًا جدًا حتى أن البغضة التي أبغضها إياها كانت أشد من المحبة التي أحبها إياها وطردها". فأبي حب هذا؟! ويمكنك التمييز بين الحب كعطاء والشهوة كأخذ، كما حدث في حياة يوسف وامرأة فوطيفار التي أحبته... إذ يسأل القديس يوحنا الذهبي الفم: من الذي يحب الآخر، يوسف أم امرأة فوطيفار؟

❖ قال أحدهم كيف قبلت المرأة المصرية التي أحببت يوسف أن تضربه؟ السبب أنها أحببت حبًا شيطانيًا. ومع كلِّ فهو لم يحبها بنفس حبها الشيطاني، بل أحبها بالحب الذي طالبنا به الرسول بولس. تأمل ما قالتها: "إنه شتمني وحسبني زانية، وأخطأ إلى زوجي، وازدرى بكل من في البيت، وخانه أمام الله". مثل هذه الكلمات تصدر عن شخص بعيد كل البعد عن أن يكون محبًا ليوسف، بل ولا كانت تحب حتى نفسها. أما يوسف فإذا كان بالحقيقة يحبها حذرًا من هذا كله. ولكي يقنعها أنها مندفعة عَرَفَها طبيعتها بتقديمه النصيحة لها. لأنه لم يكتف بالابتعاد عنها، بل قدَّم لها إرشادًا كافيًا لإخماد لهيب شهوتها قائلاً... "هوذا سيدي لا يعرف معي في البيت" (تك ٣٩: ٨). فأولاً دَكرها بزوجها لكي يخلجها.

ولم يقل لها "زوجك" بل "سيدي" حتى يوقظ ضميرها لكي تعرف مركزها ومركز من تعشقه، إنها سيدته! لأنه إن كان زوجها سيدًا له فهي سيدته. فكأنه يقول لها: عار عليك أن تألفي عبدًا! تألمي زوجة من أنت؟ ومن هو الذي تتصلين به؟ وأمام من تقفين موقف الجحود والازدراء؟...

لقد وَبَّحها باعتبارات بشرية بقوله: "لا يعرف معي ما في البيت". كأنه يقول لها: إنه أعظم من أحسن إليّ، فلا أصفع سيدي في أعز ما لديه. لقد جعلني السيد الثاني على هذا البيت، لم يمسك عني شيئًا غيرك"، وبهذا يرغب أن يسمو بعقلها بكل طريق حتى يقنعها فتخجل.

لم يقف يوسف عند هذا الحد، بل أضاف ما يكفي لصدها قائلاً: "لأنك امرأته، فكيف أصنع هذا الشر العظيم؟"

على أي الأحوال لم تستقد شيئًا من إرشاده، بل لازالت تبحث كيف تجتذبه لأن رغبتها

هي إشباع عواطفها وليس حب يوسف. ويظهر عدم حبها له في تدبير المكيدة، وإتهامها له وحملها شهادة زور ضده، وكوْحشٍ مفترسٍ قدمت ذاك الذي لم يخطئ وطرحته في السجن أو بالأحرى قد تتكرت من جانبها له وإدانته.

هل كان يوسف مثلها؟ كلا! بل على العكس تمامًا، فإنه لم يشتكٍ عليها ولا اتهمها، بل ومن الحوادث التالية أظهر يوسف إرادته الصالحة وحبها لها، فإنه حتى عندما شعر باضطراره إلى ذكر سبب سجنه وبقائه فيه لم يشأ أن يذكر القصة كاملة. بل قال "لأنني قد سُرقَت من أرض العبرانيين، وهنا لم أفعل شيئاً حتى وضعوني في السجن".
إنه لم يشر قط إليها كزانية...

فالإنسان عادة عندما يرتكب خطية لا يلوم نفسه على ما ارتكبه حتى لا يوبخه أحد، فأَيُّ إعجاب استحققه يوسف لأنه كان هكذا تقياً، حتى أنه لم يذكر شهوات المرأة ولا أظهر خطيتها، بل وحتى عندما ارتفع إلى العرش وصار حاكماً لم يذكر الخطأ الذي صنعت به ولا عاتبها!

أنظر كيف راعى هذه المرأة؟ أما عاطفتها هي فلم تكن حباً بل جنوناً، لأنها ما كانت تحب يوسف، بل تبحث عن إشباع شهواتها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ **بالحقيقة الإنسان المحب هو الذي لا يبحث إلا عن نفع محبوبه. فلو خالف المحب ذلك فإنه ولو صنع عشرات الآلاف من أعمال المحبة الصالحة فإنه بالأكثر يكون أقسى من أي عدو.**

القديس يوحنا الذهبي الفم

إذن يليق بالمؤمن أن يفصل بين الشهوة والحب، بين الأنانية المستترة والبدل... لأنه حتى وإن إنتهت الشهوة - أو الحب حسب هذا المفهوم - بالزواج، فإنه يقدم على أساس أناني سرعان ما يتحطم.

وإنني أترك هذا الحديث بمشيئة الرب إلى أن نعود إليه في كتاب "الحب العائلي" حيث يميز الآباء بوضوح الحب الزوجي والشهوة.

النظرة الأبائية للجنس الآخر

عندما تحدث **القديس إكليمنضس السكندري**^١ عن التمييز بين الحب والشهوة مظهرًا أنه حيث يوجد الحب الحقيقي تُطرد الشهوة، طلب منا حين نتطلع إلى سيدة جميلة أن ترتفع أنظارنا إلى الخالق لنرى الجمال الأسمى الذي أوجد النفس البشرية الجميلة. ولقد نادى **القديس يوحنا الدرجي** بذات المبدأ فقال^٢ إنه يعرف إنسانًا حين يرى امرأة جميلة يرفع أنظاره إلى الله يمجده ويشكره من أجل حسن خلقه. وبهذا يرتفع ذهنه عن الملموسات والماديّات ويسمو قلبه تجاه الخالق. ويصير المصدر الذي يسبب هلاكًا للبعض بركة لآخرين.

فإن كان الرب قد وهب المرأة جمالاً، فهذا لا يعني أنه قدمها للإنسان كأداة لتحقيق شهواته وإشباعها. تلك النظرة التي تعوقها النفس البشرية ويستتكفها النساء أنفسهن! فالمرأة أو الفتاة لا تقبل إلا أن تكون إنسانًا موضع حب حقيقي وتقدير حقيقي، تعين زوجها في خلاص نفسه، وتدبير بيتها وتربية أولادهما، كإنسانين يربطهما الروح القدس برباط الحب الحقيقي في شخص المسيح، ليعيشا بروح واحد وفكر واحد وغاية واحدة وإرادة متفقة. خلال هذه الروح يعيشان في حياة زوجية مباركة، ويكون لهما أولاد مباركون. نعود إلى نظرة الشاب إلى الفتاة أو العكس، إنه يجب أن ترتفع النظرة وتسمو فوق حدود الشهوة أو "الاستلطاف" الخ. ليرى فيها الإنسان المخلوق المساوي له في كل شيء، الذي يحيا لمجد الله كعضو حقيقي في جسد يحمل روح الله في داخله، يخفي شخص السيد المسيح في أعماقه.

لذا نجد الآباء الأولين يركّزون في حديثهم مع الرجال والنساء على إبراز كمال كثير من الفتيات والنساء معلنين أن الكمال ليس قاصرًا على فئة دون أخرى.

فالقديس **إكليمنضس السكندري**^٣ بعدما تحدث عن الفارق بين الشهوة والحب، استرسل في الحديث عن نساء كاملات. فيهوديت أنقذت مدينتها من الأعداء، وإستير الجميلة خلّصت شعبها من هلاك أكيد، وسوسنة الصبية غلبت قاضيين شياطين، ومريم أخت موسى قادت الجميع للتسييح.

حقًا إن مثل هذه الصور ترفع من قيمة الجنس الآخر في نظر الرجل وفي نظر نفسه.

خداع الشهوة

^١ Cf. Strom 4: 18.

^٢ سلم السماء ودرجات الفضائل، ١٥.

^٣ Cf. Strom 4: 19.

عظيم هو أن يبلغ الإنسان إلى هذه الدرجة التي فيها لا يميز بين جنس وآخر، يراها مخلوقين إلهيين يعملان في وحدة واحدة، يعينان بعضهما البعض حتى يجتازا هذا العالم ليصير الكل واحدًا في المسيح يسوع. حقًا إننا في السماء لا نرى رجلاً أو امرأة، أو أبًا أو أمًا أو زوجة أو أولادًا. يقول كل للآخر يا أخي أو يا أختي، ونقول للأب: "أبانا" والكنيسة هي أمنا.

هذه هي الحياة السماوية يرفعنا إليها الروح القدس لنختبرها في عربونها في هذا العالم، فيشعر المؤمن أن كل الفتيات والنساء أخواته، وكل الشبان والرجال إخوته. ترتفع نظرتة فوق كل اعتبارات بشرية لينطلق إلى المفاهيم السماوية قدر ما يخضع لعمل الروح، قدر ما يحتمل ويقبل! لكن أحيانًا تخدعنا الشهوة فتلتهب غيرتنا لخدمة الجنس الآخر تحت ستار "خلاص نفوسهم بلا تمييز بين الجنسين" أو تزيد غيرتنا نحو خدمة مريض حسن الصورة بقصد الشفقة أو الرحمة.

❖ كثيرًا ما يظهر الشهوانيون أنهم لطفاء وشفوقين ورحماء وأن ضميرهم يحثهم (على محبة الغير).

❖ لا تجهل نفسك أيها الشاب، فإنني رأيت أناسًا يصلون بكل أرواحهم من أجل محبوبهم إذ أثارهم لهذا الحب روح الزنا، وهم يحسبون أنهم يتممون قانون المحبة.

❖ يا من تريدون تحقيق النقاوة وتبحثون عنها، اسمعوا عن حيل هذا المخادع وخسته وشره فقد اخبرني شخص اختبر هذا الماكر بأنه شيطان الشهوة غالبًا ما يخفي نفسه تمامًا. فبينما يجلس راهب يتحدث مع النساء يقترح عليه الورع الشديد والتقوى، وربما يفيض بالدموع، ويبث في عقله تعليمهم عن تذكر الموت والدينونة والعفة، عندئذ تسرع النساء المسكينات إلى هذا الذئب كما لو كان راعيًا، لأنهن انخدعن بكلامه وتدينه المزيف.

القديس يوحنا الدرجي^١

مثالان

١. من سيرة الأب باخوميوس

كان لما مرض صبي حسن الصورة أن مضوا به إلى مكان المرضى، وكان الأخ الذي كان يخدم المرضى ناسكًا اسمه زويده. وكان يحسن فرز الأفكار، فلما نظر ضميره

^١ سلم السماء ودرجات الفضائل ١٥: ٤٧، ٥٠، ٦٤.

ينشطه لخدمة الصبي بمحبة وفرح، فيعد له الطعام باهتمام زائد، صار يتتهد قائلاً في نفسه: "لماذا هذا الاهتمام نحو هذا الأخ؟ هل هو مختار من الله أكثر من كل الأخوة؟ أو مريض أكثر منهم جميعهم؟ لا!"

فلما فرغ ذلك الأخ من خدمة المرضى، مضى إلى قلايته وبقي صائماً لم يأكل طعاماً ولا شرب ماء في ذلك المساء، وكان الوقت صيفاً، فأقام الليل كله مصلياً قائلاً: "يا ربي يسوع المسيح اظهر لي هذا الأمر حتى أعرف ما هو، لأن هذا النشاط الذي صار في قلبي ليس بمستقيم أمامي حسب التعاليم التي علمني إياها عبدك باخوميوس."

فلما قرب الصباح، وزودة مستمر في صلاته، إذ به ينظر روحاً قائماً أمامه في شكل امرأة حسنة المنظر واللباس، وقالت له: "لماذا تداوم الطلبة حتى كُلفت بغير إرادتي أن أظهر لك، والآن اعلم إنني أنا روح الزنا، كما أنا الذي زرعت ذلك الفرح والنشاط في قلبك لكي تخدم ذلك الصبي بمحبة واجتهاد^١."

٢. لقي أنبا جراسيموس امرأة في البرية عارية، فلما أبصرته توارت عنه، لكنه أراد أن يكلمها فتوارت خلف صخرة وكلمته.

قال لها: كم لك في هذه البرية من الزمان؟
أجابته: خمسون سنة.

قال لها: فماذا أبصرت في هذه البرية.
قالت: لم أبصر سوى المسيح وأعماله وصنائعه.
قال لها: ففيم الخلاص؟
قالت: في ترك ما أنت فيه.
قال لها: وما هو؟

قالت: شغلك بالبكاء على خطاياك أولى من سؤالك امرأة عما لا ينفعك^٢.

عفة النضوج

سيق أن رأينا الغريزة الجنسية كطاقة قوية يثيرها البعض ويلهبها في اتجاه مضاد لعملها. كما يمكنه كبتها إلى حين حتى يقلت الزمام فتحطمه، أما أولاد الله فبالروح القدس يعملون

^١ بستان الرهبان.

^٢ بستان الرهبان.

بها ويرتفعون لبنيانهم الروحي. لكن كثيرين يحسبون أن بعملية إعلاء الغريزة للحب بالعمل والبذل الحقيقي بروح الرب لا يعود الإنسان يتعرض لحرب الفكر أو النظر. الحق يا عزيزي أن الروح القدس يهب الإنسان شبعًا للنفس بكل طاقاتها والجسد بغرائزه حتى يفيض الإنسان على الغير بالحب الطاهر بلا دنس، يود الإنسان أن يموت من أجل جميع إخوته وأخواته، لا ليشبع غرائزه، ولا بقصد البلوغ إلى لذة جسدية، بل يحب بلا حدود بلا تمييز ما استطاع. لكن الروح القدس لا ينزع عن المؤمن الحرب مع الفكر الشرير حتى لا يُحرم من التمتع بالنصرة والغلبة ليصير له إكليل أبدي.

فمن حق الجسد أن يهاجم بشهواته، وبإمكانية الروح تُمتص هذه الثورة وتُستوعب وتُصبغ بالصبغة الجديدة، وتوجّه لطاقات حب وبذل غير محدودين، فينطلق الشاب بنفس القوة الأولى وبنفس الغيرة الأولى في طاقة أعظم وأقوى، بصورة جديدة تتعدى حدود الجسد، تتطرق بكل الكيان الداخلي والخارجي للصلاة والخدمة والدراسة والأمانة في الحياة.

الروح الإلهي يصير عينك بسيطة، فيكون جسدك كله نيرًا. فإن تعرضت العين لمنظرٍ ما لا يسترخى الجسد بطاقاته تائبًا نحو التمرغ في وحل اللذة الجسدية، بل يقوم الروح بالستر على العين، فيطلب الإنسان أن يستر الله عليه، وعلى صاحب المنظر ليكونا مقدسين في الرب.

هذه هي عفة النضوج، حيث لا تعود إلى عفة الطفولة الطبيعية التي لا تخطئ جنسيًا بالطبيعة البشرية، بل تتقبل حياة الطفولة البريئة الناضجة خلال عمل الروح القدس المقترن بالصليب الذي كسكين يبتز ما هو ليس حق أو ليس عفة، واهبًا لنا قدرة للحرب والجهاد. عفة الرجولة الروحية هذه، فيها يحارب المؤمن بالصليب، فلا يجد في الأفكار المهاجمة فرصة للاستكانة بل غنيمة يقتنيها، خلالها ينقل المؤمن ويرتقي من فصلٍ إلى فصلٍ أعلى، لينال بركات روحية أسمى عندما يصمد في الحرب بأمانة، حتى وإن أُصيب خلالها ببعض الجراحات.

قد تتعرض يا عزيزي لما حدث مع يوسف الشاب، حين قُدمت له الخطيئة في أخذ صورها. سيدته الأمرة الناهية تجبره وتتوسل إليه، تنتستر عليه وهو بلا معين، ليس له أهل ولا كنيسة ولا كتاب مقدس ولا مرشد. لكن الرب الذي يسنده ستر على عينيه، فرأى هذه الفرصة للنصرة والغلبة بالله القادر.

هذا هو إيماننا فعلاً "قد دُفنا معه بالمعمودية للموت عالمين أن إنساننا العتيق قد

صُلب ليبطل جسد الخطية كي لا نعود نُستعبد أَيْضًا للخطية" (رو ٦ : ٦).

❖ يبجل البعض الخصيان بالطبيعة... لكن أعظم منهم الذين يستشهدون بقطع أفكارهم الشريرة كما بسكين^١.

القديس يوحنا الدرجي

ما هو موقف المؤمن؟

١. عفة الضبط لا الكبت

يميز المؤمن بين العفة المسيحية التي هي عملية إيجابية، فيها يكون الإنسان حذرًا لكن بلا اشمئزاز من الغريزة الجنسية، أما الكبت فهو عملية سلبية، هروب من الواقع، تسوده مركزية الأنا بطريقة متسترة.

العفة المسيحية ليست شكلاً من التابو *Tabou*، أي من التحريم الخرافي الذي يفقد الإنسان بهجته وسلامه، إنما هي انطلاق بالحب المفرح للنفس. العفة هي موقف لا يمس الجانب الجنسي وحده، إنما هو موقف للكيان الإنساني كله، فيه يتجه الإنسان نحو الشركة والعطاء، كما أكد القديس إكليمنضس السكندري^٢.

٢. عدم التخوف من الغرائز والعواطف

كما سبق أن كررنا إننا بالروح القدس نكون في حالة عداوة لا للجسد بغرائزه، بل تصير فينا طبيعة متأصلة وعميقة في النفس ضد الخطية والشهوة. فالمفهوم السليم لعطايا الله للإنسان وإدراك إمكانية الروح القدس الناري الذي يلهب طاقات الإنسان فيما هو للبنيان، وسمو الإنسان في نظريته للجنس الآخر، هذا كله يرفع من حياة المؤمن تجاه السماويات وينقله عن التمرغ فيما هو أرضي.

٣. رفض حركات الشهوات

مادمننا نحمل هذا الجسد، فإننا معرضون في أية لحظة لهجوم من حركات الشهوة التي لها هذا الحق دون أن تسيطر علينا، اللهم إلاً بهواناً ورضاناً أو لتراخٍ وتهاونٍ. مادمننا في هذه الحياة لا نكون بعد قد بلغنا الكمال. لكن ليس لحركات الشهوة قوة فينا

^١ سلم السماء ودرجات الفضائل ١٥ : ٢١.

^٢ *Miscellanies 3: 1: 4.*

بل تزحف لعلها تخذعنا فنقبلها أو تهول لنا شدة الحرب، فنستسلم، أو تخذعنا مدعية إننا فقدنا عقلنا لمجرد حربها معنا فنيأس.

❖ بالرغم من أنه لا يوجد بعد الكمال الذي فيه لا تصارع العفة مع الرذيلة، إنما إلى الآن لا يزال "الجسد يشتهي ضد الروح، والروح ضد الجسد" (غل ١٧:٥)، إنما يكفيننا ألا نوافق الشرور التي نشعر بها. لأنه بموافقتنا لها يخرج من فم القلب ما يندس الإنسان. وبرفضنا لها خلال العفة لا يضرنا شر شهوة الجسد التي تحارب شهوة الروح^١.

❖ شهوة الخطية فينا، لكننا لا نسمح لها أن تملك علينا. ورغباتها موجودة، لكن يلزم ألا نطيعها حتى لا تسيطر علينا. وإذا لا نسمح للشهوة أن تغتصب أعضائنا، بل للعفة أن تطلبها كحقي لها، بهذا تكون آلات برّ الله وليس آلات إثم للخطية، وبهذا لا تسودنا الخطية^٢.

❖ توجد فينا شهوة شريرة، لكن بعدم موافقتنا لها لا نعيش أشرارًا. توجد فينا شهوة الخطية، وبعدم إطاعتنا لها لا نكمل الشر، لكن وجودها يعني إننا لم نكمل الخير بعد. والشهوات الشريرة تجد لها موضعًا فينا حيث توجد اللذات غير المشروعة، ولكننا لا نكمل هذه الشهوات عندما نقاومها بالذهن خادمين ناموس الله (رو ٧: ٢٥)^٣.

القديس أغسطينوس

٤. عدم طاعة أعضائنا لشهوة الجسد

في المعمودية صُلب إنساننا العتيق، وصار لنا الإنسان الجديد الذي بطبعه يحب القداسة التي للمسيح ويسلك فيها طبيعيًا. وكما يقول الرسول: "إن إنساننا العتيق قد صُلب ليبطل جسد الخطية، كي لا نعود نستعبد للخطية". لكن إن خنع الإنسان أو تهاون وقبل حركات الإنسان القديم المصلوب يسقط تحت سلطان شهوة الجسد. لهذا يحذرنا الرسول: "احسبوا أنفسكم أمواتًا عن الخطية (أي لا توافقوها). إذا لا تملكن الخطية في جسدكم المائت، لكي لا تطيعوها في شهواته. ولا تقدموا أعضاءكم آلات إثم للخطية، بل قدموا ذواتكم لله كأحياء

¹ Contenance, 5.

² Contenance, 8.

³ Contenance, 20.

من الأموات وأعضاءكم آلات برّ الله" (رو ٦: ١٢-١٤).

❖ هذا هو عملنا الحالي مادامت حياتنا تحت النعمة مستترة، وهو ألا تملك الخطية أو شهوة الخطية في جسدنا، لكن إن كنا نطيع شهوتها تملك علينا.
لهذا فإن شهوة الخطية فينا، لكننا لا نسمح لها إن تملك علينا، ورغبتها موجودة، لكن يلزم ألا نطيعها حتى لا تسيطر علينا^١.

القديس أغسطينوس

٥. الارتفاع إلى السماويات

قلنا إن الحياة المسيحية لا تعرف العفة السلبية، إذ لا تقبل الحرمان والكبت بل تسمو بالإنسان ليطلب السماويات فتعاف النفس الزمنيات.

فلا يكفي أن نرفض حركات الجسد، ولا أن تعصى أعضاء جسدنا شهوة الجسد، لكن يليق بالأكثر أن تتطلق النفس إلى اشتياقات سماوية تبتلع كل لذة أرضية جسدانية، وكما يقول القديس أغسطينوس:

❖ كيف تموت هذه الحركات إلاّ بعدم موافقة ذهننا لها، وعدم خضوع أعضاء جسدنا لها كآلات، وبالأكثر بالتطلع إلى العفة باهتمام شديد، مرتفعين بفكرنا ذاته. الذي تهاجمه حركات الجسد بطريقة معينة، إلى أفكار مبهجة خاصة بالأمور السماوية.

بهذا لا يرتبط البشر بالحركات، بل يتحررون منها.

وهذا نبغّه إن كنا نصغي إصغاء مفيداً بمساعدة الرب الذي وهبنا وصيته خلال رسوله القائل "اطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس..."^٢

القديس أغسطينوس

من أجل هذا نجد شباباً بل وأحياناً رجالاً وشيوخاً حين يسقطون في الشهوة، أن تضايقت نفوسهم جداً يسقطون في اليأس أو الضجر الممل، الأمر الذي يزيد من سقوطهم في الشهوة أكثر، وقدّر ما يحزنون على سقوطهم لا يتمتعون بالعفة.

هنا عمل أب الاعتراف وهو الانطلاق بهؤلاء الناس إلى الجانب الايجابي: محبة الله والصلاة والشركة، وأن يُطمئن قلوبهم أن الله قادر أن ينزع عنهم الحرب.

¹ Contenance, 8.

² Contenance, 6.

يحتاج الساقط من هذا النوع إلى أبٍ مترقٍ، يشعر بأبوة الله، فلا يكف عن الصلاة بغير إحباطٍ أو قنوطٍ. وسرعان ما يجد نعمة الله قد ارتفعت به ونقلت به إلى الحب الحقيقي. أما إن سمع تأنيبًا شديدًا وقرأ عن بشاعة الخطية وآثارها وارتجف قلبه منها وعقد العزم على تركها، سرعان ما ينحط فيها إلى درجات أعمق وأشر وأقسى.

هكذا عاش آباؤنا الأولون حتى النساك والمتوحدين منهم يملأون قلوب الساقطين بالرجاء، ويترفقون بهم، ويقدمون الجانب الإيجابي أولاً، حتى متى امتلأ القلب بحب الله والسماء صار طاهرًا وعفيًا.

❖ عظيم هو ذاك الذي يقهر النار الناشئة عن الذات الأرضية بواسطة التأمل في مباحج السماء!

❖ الإنسان الطاهر هو من يطرد الحب بالحب، ويخمد النار المادية بالنار الروحية.

❖ الإنسان الطاهر ليس من يضبط جسده الترابي ليكون بغير دنس بل ذاك الذي يخضع أعضائه لروحه تمامًا.

القديس يوحنا الدرجي^١

❖ ليكن عظيمًا في قلبك ذلك الحب الذي يوحدك بالله، لئلا يسببك الحب الذي علته فاسدة.

القديس يوحنا سابا (الشيخ الروحاني)

^١ سلم السماء ١٥: ١١، ٢، ١٠.

الحب والصدقة

الأصدقاء

"الفم العذب يكثر الأصدقاء،

واللسان اللطيف يكثر المؤانسات.

ليكن المسالمون لك كثيرين،

وأصحاب سرّك من الألف واحدًا.

إذا اتخذت صديقًا، فاتخذهُ عن خبرة، ولا تثق به سريعًا. فإن لك صديقًا في يومه، ولكنه لا يثبت في يوم ضيقك. وصديقًا بصير عدوًا، فيكشف عار مخلصتك. وصديقًا يشترك في مائدتك، ولكنه لا يثبت في يوم ضيقك. يكون نظيرك في أموالك، ويتخذ دالة بين أهل بيتك. لكنه إذا انحطط، يكون ضدك، ويتوارى عن وجهك.

تباعد عن أعدائك، واحذر من أصدقائك.

الصديق الأمين معقل حصين، ومن وجده فقد وجد كنزًا.

الصديق الأمين لا يعادله شيء، وصلاحه لا موازن له.

الصديق الأمين دواء الحياة، والذين يتقون الرب يجدونه.

من يتقى الرب يحصل على صداقة صالحة، لأن صديقه يكون نظيره"

(سيراخ ٦: ٥-١٧)

منذ وجد الإنسان وجدت معه الصداقة، إذ تنشأ أحشائه الداخلية طالبًا من يستريح إليه. يود أن يجد من يحبه بحق بلا أنانية، يحبه فوق كل الظروف دون أن يطلب لنفسه نفعًا ماديًا أو اجتماعيًا أو عاطفيًا أو معنويًا، علانية أو خفية. هذه الصداقة يتعطش إليها الكل، حتى المتعجرفين والدكتاتوريين الذين يتسمون بجفاء المشاعر.

إذ رأى الرب عطش الكل إلى الصداقة، تقدم إلينا كصديق، ليشبع عاطفة الحب، فنقبل صداقته ونصادقه. تقدم إلينا كصديق إلهي، خلاله نصادق الناس ونقبل صداقتهم.

وكصديقٍ مثاليٍ فيه نفهم الصداقة ونتذوقها ونمارسها...

يا لعظمة الصداقة!

❖ "الصديق الأمين دواء الحياة" (ابن سيراخ ٦: ١٦).

لا يوجد علاج مؤثر في شفاء الأوجاع مثل الصديق الصادق الذي يعزيك في ضيقاتك، ويدبرك في مشاكلك، ويفرح بنجاحك، ويحزن في بلاياك. من وجد صديقًا هكذا فقد وجد ذخيرة. فالصديق الأمين لا شبيه له، فوزن الذهب والفضة لا يعادل صلاح أمانته (انظر ابن سيراخ ٦: ١٤، ١٥).

❖ بحقٍ ليكون لك صديق تدعوه "تصف نفسي".

❖ ليست دعوة للحب أعظم من أن تبادل بالحب.

❖ لا توجد صداقة حقيقية، ما لم تجعلها كوصلة تلحم النفوس، فتلتصق معًا بالحب المنسكب في قلوبنا بالروح القدس.

❖ لا يوجد علاج مؤثر لشفاء الآلام مثل الصديق الصادق الذي يعزيك في ضيقاتك.

القديس أغسطينوس

❖ إذا عجزت عن أن تكون غنيًا بالله، فالتصق بمن يكون غنيًا به، لتسعد بسعاداته، وتتعلم كيف تمشي حسب أوامر الإنجيل.

القديس باخوميوس

❖ أي شيء أثنى من الصداقة التي يشترك فيها الملائكة تمامًا كالإنسان؟ لذلك يقول الرب

يسوع: "اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم، حتى يقبلونكم في المظال الأبديّة" (لو ١٦: ٩).

الله نفسه يجعلنا أصدقاء عوض كوننا عبيدًا، إذ بنفسه يقول: "أنتم أحبائي إن فعلتم ما أمرتكم به". أعطانا مثالاً للصداقة كي نتبعه.

يلزمنا أن نحقق رغبة الصديق (الرب يسوع)، ونكشف له أسرارنا التي نحفظ بها في قلوبنا، ولا نتجاهل ثقته. لنريه قلوبنا فيفتح قلبه لنا. لذلك يقول: "قد سميتكم أحبباء، لأنني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي". إذن الصديق إن كان صديقًا حقًا لا يخفي شيئًا، بل يسكب نفسه، كما يسكب ربنا يسوع أسرار أبيه.

هكذا من يفعل إرادة الله هو صديقه، ويتكرم بهذا الاسم. هذا الذي له فكر واحد معه

هو أيضًا صديقه، إذ توجد وحدة فكر بين الأصدقاء. وليس أحد مكروه أكثر من إنسان يسيء إلى الصداقة^١.

القديس أمبروسيوس

❖ إني أخبركم بأني أضع حياتي لأجلكم لا للتوبخ، أو لأني أجري لكي ألتقي بكم، وإنما لكي أقودكم إلى الصداقة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى الأب ثيوفلاكتيوس في الصداقة التي قامت بين بيلاطس وهيرودس من أجل قتل السيد المسيح بعد العداوة التي كانت بينهما توبيخًا لنا، فإن الشيطان وحّد بين المتخاصمين لتحقيق هدفه الشرير، أما نحن فننقسم على أنفسنا عوض الوحدة من أجل خلاص النفوس. أما القديس أمبروسيوس فيرى في هذه الصداقة بين العدوين إشارة إلى الوحدة التي صارت بين شعب إسرائيل والشعوب الأممية، خلال موت المسيح بقبول الكل كأعضاء في كنيسة العهد الجديد.

الصداقة غاية الوصية الإلهية

❖ "وأما غاية الوصية فهي المحبة من قلب طاهر، وضمير صالح، وإيمان بلا رياء" (١ تي ١: ٥)... لكن أي نوع من المحبة يتحدث عنها الرسول؟ المحبة الخالصة التي لا تقوم على كلمات مجردة، إنما تتبع عن الميل الداخلي والوجدان والعاطفة، إذ يقول: "من قلب طاهر... فالحياة الشريرة تجلب انقسامات، "لأن كل من يعمل السيئات ييغض النور" (يو ٣: ٢٠). حقًا توجد صداقات حتى بين الأشرار، فالقتلة واللصوص يحبون بعضهم البعض، لكن ليس من ضمير صالح ولا من قلب طاهر، إنما من قلب دنس، وليس من إيمان بلا رياء، وإنما من إيمان باطلٍ مرأى^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

أنواع الصداقات

عرض الأب يوسف في حديثه مع القديس يوحنا كاسيان لموضوع "الصداقة"، فذكر عدة صداقات تقوم على أسس غير المتمتع بالسيد المسيح، وهدفها ليس خلاص الأصدقاء. هذه

¹ Duties of the Clergy, 3: 22: 135 – 136.

² In 1 Tim, hom 2.

الصداقات مؤقتة تزول بزوال مسبباتها أو بعامل الزمن.

❖ توجد أنواع كثيرة من الصداقات والمصاحبات بين البشر بطرقٍ مختلفةٍ من جهة رباطات الحب.

فالبعض يدخلون في تكوين علاقة تعارف يليها علاقة صداقة خلال معرفة سابقة.

وآخرون يرتبطون برباط حب بعد الدخول في صفقاتٍ أو اتفاقاتٍ تجارية.

والبعض يتحدثون معًا في صداقة بسبب التشابه ووحدة العمل أو العلم أو الفن أو الدراسة، الأمر الذي يجعل حتى النفوس الشرسة تشفق على بعضها البعض. فترى الذين في الغابات والجبال يتلذذون باللصوصية، ويشغفون بسفك الدم، يحتضنون شركاءهم في الجرائم، ويهتمون ببعضهم البعض.

لكن يوجد نوع آخر من الحب، فيه يكون الاتحاد نابغًا عن دوافع طبيعية وبسبب رابطة الدم، مثل الرباط الذي بين أفراد القبيلة الواحدة، أو الرباط بالزوجات والآباء والإخوة والأبناء، إذ لهؤلاء تمييز خاص عند الإنسان عن غيرهم. وهذا الأمر لا نجده في البشرية فقط، بل وبين كل الطيور والحيوانات. فعند الخطر تدافع (الطيور والحيوانات) عن صغارها بدافع طبيعي، حتى أنهم لا يخشون التعرض للخطر والموت من أجلها. حقًا حتى هذه الأنواع من الحيوانات والحيات والطيور التي تتعزل بعيدًا عن غيرها بسبب شرستها المهلكة أو سمها المميت مثل الأفاعي والثور الوحشي والنسور، بالرغم من إنه يُقال حتى عن نظراتها أنها خطيرة على كل إنسان، لكنها لا تؤذي بعضها البعض، بل يوجد فيما بينها سلام ومشاعر صداقة بسبب وحدة أصلهم.

هذه الأنواع كلها من الحب التي نتحدث عنها هي عامة، توجد بين الصالحين والأشرار، وبين الحيوانات المفترسة والثعابين، وهي لا تدوم إلى الأبد! غالبًا ما تقسد وحدتهم وتتكرر بسبب البُعد المكاني، أو بسبب عامل النسيان بحكم الزمن، أو بسبب المضايقات في التعامل والاحتداد في الكلام. فإذا تقوم هذه الأنواع على أساس النفع الخاص أو الرغبات أو بسبب القرابة أو التشابه في العمل، لذلك متى انتهت هذه الظروف بطلت الألفة¹.

❖ اتحاد الصداقة الأكيد الذي لا ينحل هو الذي يكمن بين المتشابهين في الصلاح وحده... بهذا يكون الحب غير مغشوش بين من لهم هدف واحد وفكر واحد ليشاءوا أو يرفضوا نفس

¹ St. John Cassian: Conferences ,16:1.

الأمر معاً^١.

❖ الاتحاد يتم بالله وليس بالمكان... ولا يمكن للسلام الثابت أن يبقى متى اختلفت الإرادة بين الناس^٢.

الأب يوسف

❖ "لكي تكونوا مخلصين أمام الله، وبلا عثرة أمام الناس، إلى يوم المسيح، فإن صداقات كثيرة للبشر يمكن أن تضرهم، حتى وإن كانت لا تضركم أنتم، فقد يتعثر بها الغير. "إلي يوم المسيح"، أي حتى توجدوا أتقياء، غير معثرين لأحد^٣.

القديس يوحنا الذهبي الفم

وقد لخص القديس إكليمنضس السكندري^٤ الصداقات في ثلاثة أصناف:

١. صداقة تقوم على أساس إيماني روحي، فيه يحب الإنسان ويصادق من أجل الله أو من أجل الحب ذاته.

ب. صداقة أساسها إنساني اجتماعي نفعي، مادياً أو معنوياً.

ج. صداقة أساسها حيواني شهواني.

أولى هذه الأنواع وأعظمهن هي التي تأتي كثمرة للفضيلة، لأنه الحب المتأسس على الذهن (الروح) ثابت.

ثانيها والمتوسط هو الذي يقوم على أساس المكافأة وهو إجتماعي متسع ومفيد للحياة، لأن الصداقة هنا تقوم على أساس نفعي مشترك.

ثالثها وأقلهم وهي طلب الصداقة القائمة على أساس المودة (اللذة)، وهي تحتل أشكالاً متنوعة قابلة للتغيير، تقوم على اللذة.

كما يقول القديس إكليمنضس السكندري بأنه يبدو له أن هيودامايوس الفيثاغوري وصف هذه الصداقات بطريقة عجيبة قائلاً أنها تقوم:

١. على المعرفة الإلهية.

ب. على العطايا البشرية.

¹ St. John Cassian: Conferences, 16:3.

² St. John Cassian: Conferences, 16:3.

³ Homilies on Philippians, homily 2.

⁴ Strom 2: 19.

ج. على الملذات الحيوانية.

إذ توجد صداقة الفيلسوف (الحكيم)، وصداقة الإنسان، وصداقة الحيوان.

أسس الصداقة

١. صداقة عطاء لا أخذ

تنازل الابن الكلمة ولبس جسدنا وصار كواحد منا. أتى بنفسه إلينا قبل أن يطلب صداقتنا. هو الذي سعى أولاً إذ "أحبنا أولاً". وهو القدوس البار الغني في كل شيء نزل إلى الإنسان الضعيف المملوء نجاسة، الذي لا حول له ولا قوة، يرجو أن يقبل صداقته، إنه يقول: "هأنذا واقف على الباب أقرع. إن سمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل وأتعشى معه وهو معي" (رؤ ٢٠:٣).

هو الذي أبتدأ ليقدم حباً. وإذ يعلم أن الإنسان لا يُكره على صديقٍ، لم يفرض نفسه علينا، بل أسرع إلينا يرجونا قبول حبه قائلاً: "أنتم أحبائي لا أعود أسمىكم عبداً" (يو ١٤:١٥). وفي حبه لم يرَ فينا إلا كل عذوبة وحلاوة وجمال. لهذا إذ تسمع النفس البشرية صوت صديقها الوديع الهادئ الملهب حباً تقول: "صوت حبيبي هوذا آت ظافراً على الجبال قافراً على التلال... هوذا واقف وراء حائطنا يتطلع من الكوى، يوصوص من الشبايك. أجاب حبيبي وقال لى: قومي يا حبيبتي وتعالى... قومي يا حبيبتي يا جميلتي... يا حمامتي في محاجئ الصخر في ستر المعازل. أريني وجهك، اسمعنى صوتك. لأن صوتك لطيف، ووجهك جميل" (نش ٨:٢-١٤).

ومع كل ضعفها وعدم استحقاقها لصداقته يعلن لها عن شوقه إليها وعشقه لها فيقول: "قد سببتي قلبي يا أختي العروس. قد سببتي قلبي بإحدى عينيك، بقلادة واحدة من عنقك. ما أحسن حبك يا أختي العروس. كم محبتك أطيب من الخمر؟! وكم رائحة أدهانك أطيب من كل الأطياب؟! شفتاك يا عروس تقطران شهذاً. تحت لسانك عسل ولبن، ورائحة ثيابك كرائحة لبنان. أختي العروس جنة مغلقة، عين مقفلة، ينبوع مختوم! (نش ٩:٤-١٢).

وإذ تراخت النفس في قبول صداقته أظهر لها أعماق محبته المعلنة على الصليب إذ قال لها: "افتحى يا أختي يا حبيبتي يا حمامتي يا كاملتي، لأن رأسي امتلأ من الطل، وقصصي من ندى الليل... حبيبي مدّ يده من الكوة، فأنت عليه أحشائي" (نش ٢:٥-٤). خلال الصليب قبلت النفس البشرية صداقة ربها، فصرخ اللص: "اذكرني يا رب إذا

جنّت في ملكوتك". لست أطلب شيئاً لكن أريد أن أكون معك. أطلبني وأسندني لأنتقل، فحيث تكون أكون معك، إذ تعلق قلبي بحبك!

في دائرة الصليب نلتقي بالرب الباذل للبذل نحن أيضاً به، ونقبل أن نصادق كل البشر فيه. فلا تكون صداقتنا قائمة على الأخذ، بل على العطاء أولاً.

بالصليب نصادق حتى الأشرار والزناة والقتلة ومغتصبي حقوقنا، لا نشترك معهم في جرائمهم، ولا نذاهنهم، ولا نتجاوب مع فكرهم، بل في ترفقٍ وتأنٍ نشعر بحاجتهم إلى صديقٍ محبٍ!

وعندما تجسد الرب وصار منظوراً صادق الضعفاء، وصادقت الكنيسة المختفية فيه، إذ هي جسده السري، الضعفاء وترفقت بهم. أما وقد صعد المسيح إلى السماء، فإنه يصادق الضعفاء خلال كنيسته المنظورة إذ هو مختفٍ فيها.

أيها الحبيب، إن لم تعد الصداقة بالأمر الثاني، بل إذ يختفي الرب فيك بكونك عضواً في جسده، يلزمك أن تصادق بنفس الصداقة التي للمسيح نحو البشر. لتسلك كما سلك ذاك بروحه القدوس الساكن فيك، فمن خالك يتلمس الناس صداقة المسيح لهم. بقدر ما يفتح قلب الكنيسة لمصادقة كل البشر يلمس العالم المسيح رأسها السري.

٢. صداقة داخلية في الرب

الصداقة الحقيقية هي التي تتبع عن سلامٍ داخلي في أعماق النفس. فخلال صداقتنا بالرب يسوع نلتقي مع الأب في مصالحة سرية بدم المسيح غافر الخطية، عندئذ تستريح النفس وتهللاً، ويفيض منها سلام وحب تجاه البشرية، فتشتاق إلى مصادقة الكل، ولو كان الثمن سفك الدم وحمل الصليب والحرمان من الحقوق الزمنية واحتمال الاهانات والمضايقات.

من أجل هذا طلب صديقنا الحقيقي عنا قائلاً: "ليكونوا واحداً فينا" إذ لا وحدة ولا صداقة حقة إلاً فيه وخلاله. فيه ننال سلامنا الداخلي كأساس لبناء صداقتنا مع الغير. من أجل هذا حثنا أبائنا على اقتناء السلام الداخلي مع الرب كأساس للصداقة.

❖ اهتم أيها الإنسان بالسلام. شدد يدك نحوه على قدر ما تستطيع.

ينبغي على كل أحد أن يصلح نفسه، ولذاته يسالم، ولا يكون الانقسام في ضميره، لأنه إذا اصطالح الإنسان مع جميع العالم وهو منقسم على ذاته فصلحه بلا منفعة^١.

^١ الآباء الحاذقون في العبادة، دير السريان، ج ٢.

القديس يوحنا التبائسي

❖ السلام هو اتفاق الإرادة التامة بالمحبة. أما فاعليتها فهي المحبة والأمن والاتفاق والمودة (الصدقة).

فاعلوا السلام هم الذين يجعلون السلام بين النفس والجسد...

فاعل السلام هو الذي يصلح بينه وبين الآخرين...¹

العلامة مار ديوناسيوس

(يعقوب بن الصليبي)

❖ الصداقة المجردة لا تحمينا ما لم تتبعها أعمال صالحة، ما لم ننفق ثروتنا ببر هذه التي جُمعت بطريقة ظالمة.²

القديس يوحنا الذهبي الفم

٣. الله مركز الصداقة

❖ تصور دائرة تخرج من مركزها أشعة أو خطوط. فبقدر ما تبتعد الخطوط عن المركز تفترق عن بعضها البعض...

وبالعكس كلما اقتربت من المركز تقاربت نحو بعضها البعض.

افترض أن هذه الدائرة في العالم ومركز الدائرة هو الله. والخطوط من المركز إلى المحيط أو من المحيط إلى المركز هي طريق حياة البشر، فإننا نجد نفس الأمر، فبقدر ما يتحرك القديسون في داخل الدائرة تجاه المركز راغبين في الاقتراب من الله، يقترب كل منهما نحو الآخر.³

القديس دوروثيوس

❖ لا يوجد حب حقيقي به نحب الآخرين ما لم نحب الله. كل إنسان يحب قريبه كنفسه، إن كان محباً لله، لكنه إن لم يحب الله فلا يحب نفسه.⁴

❖ لندرب أنفسنا على محبة الإخوة... فإن أحببت أخاك ستعين الله، لأن بمحبتك لأخيك

¹ للمؤلف: تفسير إنجيل متى ٥: ٩.

² In Heber. 1:4.

³ الفيلوكاليا، ص ١٧٦.

⁴ In Joan, Tr. 87 : 1.

تعاين المحبة ذاتها التي فيها يسكن الله¹.

القديس أغسطينوس

٤. أساسها المسيح وغايتها خلاص الآخرين

عرض الأب يوسف في حديثه مع القديس يوحنا كاسيان لموضوع الصداقة فذكر عدة صداقات تقوم على أساس غير المسيح. هدفها ليس خلاص الأصدقاء، هذه الصداقات مؤقتة تزول بزوال مسبباتها أو بعامل الزمن. فالأب يصادق ابنه، ولكن إن عصاه الابن يحتمله سنة فأخرى فعدة سنوات، وأخيراً يضيق به الأمر.

والطبيب يحب زميله الطبيب المشارك له في المهنة، لكن إن شعر بمنافسة قوية قد يبغضه.

ضرب لنا ربنا يسوع مثلاً عملياً رائعاً للصداقة الحقيقية، فقد جمع له أصدقاء، لا لنفع مادي أو اجتماعي، بل بهدف وصولهم إلى الحياة الأبدية، مقدماً نفسه أساساً لكل صداقة وحب. وعندما التقى بتلميذي عمواس وتصادق معهم في الطريق لم يكن له حديث معهما خارج عن خلاص نفسيهما.

❖ صرنا ضعفاء... فلا نهتم بالمحبة التي في الله، لكن نطلب لأنفسنا أسباباً أخرى للصداقة، بعضنا من أجل القرابة الجسدية، وبعضنا من أجل الألفة والمؤانسة، وبعضنا من أجل المخالطة، وبعضنا من أجل الجوار، ونحن من كل جهة نكون أصدقاء ليس من أجل الإيمان... لكن ينبغي أن نأخذ معنا قوماً آخرين ونمضي، فإن كنا لا نخلص نفوسنا ولا نفوس الآخرين، فأى شر لا يحل بنا؟!!

ولماذا ألوم على هذا (أي لا أهتم بخلاص الأصدقاء) إن كنا لا نكثرث بالساكنين معنا مثل الزوجة والأولاد والعييد... فصرنا كالسكارى نطلب كثرة العبيد أكثر مما لدينا لكي يخدموننا خدمة أفضل، ونهتّم أن يرث الأبناء ميراثاً وافراً، وأن تكون للزوجة ذهب وثياب فاخرة وربع وعقار... فلا نهتم بنفوسنا بل بأموالنا. لا نهتم بالزوجة (أي خلاصها) بل بأموالها...

حالتنا يشبه إنساناً إذا رأى منزلاً قد ساءت حالته، ومالت حوائطه، بدلاً من أن يصلحه،

¹ St. Augustine: 10 Homilies on 1st Epistle of St. John.

يُعد له من الخارج أسوارًا ضخمة.

وإذا مرض جسده لا يعتني به، بل ينسج له ثيابًا مذهبة...

فقد ساء حال النفس وشقيقت، وهي تسب وتغضب وتشتهي شهوات منكرة. فكل هذه الوحوش والسباع تمزقها، ومع ذلك لا نهتم بطرد الآلام عنا، بل نهتم بالمنزل والعبيد.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا يمكن أن تكون الصداقة قوية ما لم تأتلف بصديقك، وتلتصق به بتلك المحبة التي يسكبها الروح القدس المعطى لنا.

❖ يلزمنا أن نوافق الكل لنربح الكل، مقتدين بالرسول القائل عن نفسه: "صرت للكل كل شيء، لأخلص على كل حال قوماً" (١ كو ٩: ٢٢).

كن مع الحزين حزينًا، لأنه لا يوجد شيء يعزي الرجل الحزين، مثل أن يرى أحدًا يحزن معه على شدته، ومع الفرح فرحًا، ومع الضعيف ضعيفًا. إلا أن هذه المرافقة تكون ضرورية لمساعدة القريب وتخليصه من شره، لا مشاركته في شره.

انظر كيف ينحني الإنسان ليقم بيده من كان ساقطًا، فإنه لا يسقط معه ليقمه، بل يقف مثبتًا قدميه على الأرض لئلا يسقط بسبب الساقط، ثم يمد يده إليه قليلًا وبمقدار ما يحتاج إلى معونة، وبذلك ينهضه من سقطته.

لنكن هذه الحال صورة مناسبة لنا، فعلينا أن ننحني قليلًا، ونرافقهم يسيرًا في أحوالهم، لنخلصهم من سقطاتهم، ونربحهم لله. إلا أن هذا يلزمنا أن نثبت قلوبنا لئلا يجذبونا وراءهم.

القديس أغسطينوس

❖ يرتبط القوي بالضعيف فيسند، ولا يسمح بهلاكه.

مرة أخرى إن ارتبط بشخص متكاسل يقيمه ويدفعه للعمل. قيل: "أخ يعينه أخ هو مدينة قوية". هذه لا يفوقها بعد المسافة ولا السماء ولا الأرض ولا الموت، ولا أي أمر آخر، إنما هي أقوى وأكثر فاعلية من كل الأشياء. هذه وإن صدرت عن نفس واحدة، قادرة أن تحتضن كثيرين دفعة واحدة.

اسمع ما يقوله بولس: "لستم متضايقين فينا، بل متضايقين في أحشائكم. كونوا أنتم

أيضًا متسعين"¹.

❖ هكذا فلتعلقوا أنتم أيضًا ولا تحسبوا أنفسكم أفضل من غيركم حتى تتواضعوا، فمن أجل خلاص إخوتكم تتنازلون عن كرامتكم. فإن هذا ليس فيه سقوط بل هو تنازل. فمن يسقط يرتمي منبسطًا ويصعب قيامه، أما من يتنازل فيقوم حاملاً الكثير من المنافع. كما تنازل بولس أيضًا وحده، لكنه صعد ومعه العالم كله، فلم يكن يعمل في جزء من العالم، بل كان يطلب أن يقتني كل الذين خلصوا خلال عمله².

القديس يوحنا الذهبي الفم

إلى أي مدى نصادق الأشرار؟

هل نصادق الأشرار؟ سؤال يقف الإنسان أمامه حائرًا، فيجيب البعض بضرورة مصادقتهم لتكون لنا صورة المسيح محب الخطاة والعشارين. فنحن كأولاد الله كيف يمكن أن نعلن للأشرار طريق الرب ما لم تكن لنا صداقة معهم، فيذوقون حب المسيح فينا، ويختبرون عمل الرب في حياتنا، وتستتير عيونهم بالنور المشرق علينا وفينا منه. لكن يجيب البعض معترضين قائلين: ما أكثر الذين فتروا في محبتهم للرب بسبب صداقتهم للأشرار؟!

إننا كمؤمنين لنا صورة المسيح لا يليق بنا الانعزال عن الخطاة ولا أن نتجنب زمالتهم، ففي هذا ما يخالف صورة الرب طويل الأناة محب البشر، الذي أحب الكل لأجل خلاصهم. يوجد فارق بين الصداقة والزمالة، فأنا كمسيحي ينبغي أن أحب الكل وأزامل الكل. ولكن عند اختيار الصديق، ينبغي أن تكون له شركة مع الرب. فالزمالة تقتضي مجرد رباطات بسيطة وعلاقات هينة، لكن الصداقة التي فيها يقضي الإنسان نسبة كبيرة من وقته ينبغي أن تكون في الرب.

لا يليق بالمسيحي أن ينعزل عن المجتمع، ليُكون له مجتمعًا من جماعة صغيرة، لا يعرف غيرهم ولا يعامل سواهم، ولا يتسع قلبه إلا لهم... إنما يليق به أن يتسع قلبه ليكون خادمًا للجميع ومحبًا للكل.

لست أقول أن يجري الأشرار في شهرهم، ولا أن يصادقهم على حساب خلاص نفسه،

¹ In Ephes., hom. 9.

² In 1 Cor. Hom. 22:6.

إنما أقول أن يتضح الهدف أمامه في معاملاته مع الجميع... إنه يقدم صورة حية للمسيح غير المنظور العامل فيه، وينبغي خلاص العالم كله مهما كلفه الثمن. أولاد الله كأبيهم السماوي إيجابيون فعّالون في المجتمع إذ يقول الرب: (أبي يعمل وأنا أيضًا أعمل)...

لكن يليق بالمؤمن أن ينعزل عن الأشرار في سلوكهم الشرير، وأماكن شرهم وانحرافاتهم، فيتحاشى اختيار الأشرار كأصدقاء، من جهة سيره معهم في الطريق واندماجه معهم في فكرهم... لهذا طالبنا الكتاب المقدس بضرورة الاهتمام باختيار الأصدقاء فقال: "طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة المنافقين، وفي طريق الخطاة لم يقف، وفي مجلس المستهزئين لم يجلس" (مز ١: ١).

"لا تضلوا فإن المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة" (١ كو ١٥: ٣٣).

"أستم تعلمون أن خميرة صغيرة تخمر العجين كله؟ إذا نقوا منكم الخميرة العتيقة لكي تكونوا عجينا جديداً كما أنتم فطير" (١ كو ٥: ٦، ٧).

❖ المجالسة مع الذين ليسوا حكماء تغتت القلب، ومحادثة الفضلاء ينبوع عذب.

❖ لا تتنازل مع المسترخين، وإلا صيرت نفسك في الدرجة السفلى، بل لتكن مناجاتك مع محبي الخير، ليكون سكتاك معهم في الأعالي. لذلك ليكن مقامك بشجاعة في المواضع التي فيها المعرفة العليا. اذهب إلى بلدة الضوء ولا تتنازل عند الخطاة.

مار اسحق السرياني

❖ أنت تحتقر الذهب، يوجد آخر يحب الذهب. أنت ترفض الغنى، هو يطلب الغنى بشغف. أنت تحب الصمت والضعف والحياة الخاصة، أما هو فيجد سعادته في الأحاديث الباطلة بلا تريث في الميدان العام والشوارع ومتاجر المخدرات... لا تبقَ معه تحت سقفٍ واحدٍ. لا تعتمد على عفتك السابقة. فإنك لا تقدر أن تكون أكثر قداسة من داود أو أحكم من سليمان... إن كان دورك في العمل الكهنوتي هو أن تقتقد أرملة أو عذراء لا تدخل البيت وحدك. ليصحبك أشخاص لا يسيئون إليك... لا تجلس بمفردك مع سيدة سرًا بدون شهود. إن كان لديها أمر سري تريد أن تبوح به، يجب أن يكون معها مربية أو عذراء أو أرملة، أو سيدة متزوجة. لا تقدر أن تقيض بأسرارها لك بدون وجود صديقة لها^١.

^١ Letter 32.

القديس جيروم

❖ ألا ترى أن "المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة؟" بها لا تقدر أن تتطرق بالإنجيل، وإنما تسمع كلمات الأوثان. بها تفقد الحق أن المسيح هو الله، وما تشربه هناك تنقيأه في الكنيسة¹.

القديس أغسطينوس

❖ شاب يصاحب شابًا للشر، فليكن عليهما المفرزون.

❖ أيها المحب لله، حين ترى المنافقين يتراشقون بألفاظ الغش والتدليس اهرب من هناك، لئلا يتعلق بأذنك ألفاظهم القاتلة.

❖ هذه هي وقود الشيطان الذي يصارعنا، والتي توقد النار التي تحرقنا: الحديث الفاسد مع العلمانيين... وأم الشرور إنما هي الحنجرة ومعاشره الإخوة البطالين. فإن تعرت نفوسنا من هذه الوقود المحرقة لا تقع في مصائد مصارعنا، وبسرعة تقدر أن تطير إلى الله، وبه تتخلص من مكائد إبليس.

صداقة رفقاء الكسل واللغو تملأك شرارة وشرًا. آه ما هذه المحبة النجسة والفعل الطامث؟! اهرب من الذين اعتادوا على هذا يا أخي. لا تأكل معهم ولا تصادقهم. نجسة هي مائدتهم، والشياطين يكونون مساعدين لتهيئتها، محبوب الختن المسيح لا يذوقونها.

وليمة الإنسان الشره المتلهي بالأطاييب... تدنس نفس الوديع، وكسرة خبز يابسة من مائدة طاهر النفس، تجلبها من كل الأوجاع والأدناس.

رائحة مائدة الشر تفسد نية الأطهار، والطفل يجذب إليها مثل الكلب إلى بيت الجزار.

والمواظب كل حين على الصلاة، مائدته تفوق رائحة المسك، ومن هو محب لله يشاق كمثل الكنز.

الشيخ الروحاني

❖ إن كان أحد يحبني وأنا أحبه للغاية، وعلمت أنه قد لحقني نقص بسبب محبته فإني أقطعه مني وأنقطع عنه بالكلية.

❖ إن كانت لك صداقة مع أحد الإخوة وانتابك ضرر بسبب مخالطتك إياه، فاسرع واقطع

¹ Sermons on New Testament Lessons.

نفسك منه. ولست أقول لك هكذا أيها الحبيب لتبغض الناس، كلا. وإنما لتقطع أسباب الرذيلة.

الأنبا أغاثون

❖ اسمع ما يقوله الرب: "فإن أعثرتك يدك أو رجلك فأقطعها وألقها عنك. خير لك أن تدخل الحياة أخرج أو أقطع من أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان. وأن أعثرتك عينيك فأقلعها وألقها عنك. خير لك أن تدخل الحياة أعور من أن تلقى في جهنم النار ولك عينان" (مت ١٨: ٨، ٩).

أنه لم يقل ذلك عن الأعضاء، بل من أجل الإخوة، ومن أجل الأقرباء الذين لهم عندنا في منزلة الأعضاء الضرورية... فيقول أنه ليس شيء أضر من الاجتماع الرديء والمؤانسة الخبيثة، لأن الصداقة مرارًا كثيرة تضر أو تقيد... فيأمرنا بصراحة شديدة أن نقطع الذين يضرروننا...

إنه لم يقتصر على إعطائه الويل لمن تأتي منه الشكوك، بل أظهر لنا الطريق التي يخلص بها الإنسان من الشكوك. وما هو هذا الطريق؟ قال اقطع صداقة الأشرار، ولو كانت في الغابة... فلا تربحهم وتهلك معهم نفسك.

❖ إذا كانت المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة كما يقول الرسول، فينبغي علينا أن نهرب دائمًا من معاشرة الأشرار والمستهزئين وأمثالهم. لأن الاختلاط بهم، وسماع حديثهم يجذب سليمي القلوب إلى التخلق بأخلاقهم.

القديس يوحنا ذهبي الفم

❖ بولس نبوي في إخبارنا أن نصنع حاجزًا ليس بيننا وبين المتزوجين، وإنما بيننا وبين الأمم الذين لازالوا يعيشون في اللاأخاليات، وأيضًا بين الهراطقة الذين لا يعتقدون في الطهارة ولا في الله^١.

القديس إكليمنضس السكندري

❖ ابتعدوا عن كل الذين لهم اسم رهبان وبتولين، وليس فيهم روح الحكمة والإفراز. لأنكم إذا خالطتهم لا يدعونكم تتقدمون، بل يطفئون نار المحبة فيكم، ليس منهم إلا برودة... لأنه

^١ Stromata 3:73:4.

مكتوب في الرسول بولس لا تطفئوا الروح ولا تزدلو النبوات. واعلموا يا أولادي أن الروح لا ينطفئ منا إلا بالكلام الباطل والمزاح وأعمال أخرى كثيرة لا يمكنني أن أكتبها واحدة فواحدة، لكن إذا نظرتكم مثل هؤلاء فلا تحتقروهم، بل اصنعوا معهم الخير ولا تخالطوهم لئلا يجذبونكم إلى الوراء.

القديس أنطونيوس الكبير

إلى أي مدى تصادق القديسين والمجاهدين؟

النفس المحبة للنور تتجذب إلى حيث يقطن النور، والإنسان المجاهد لتذوق الحق والسلوك في القداسة يتوق لمجالسة القديسين والمجاهدين.

لنصادق الصديقين ونعيش معهم فترات طويلة، لا ليحسبنا الآخرون أننا قديسون مثلهم، بل بقصد الاقتداء بهم ونوال بركتهم. فصداقة المجاهدين تلهب القلب بالغيرة والجهد، وتعطي للنفس عذوبة وفرحاً إذ تلمس فيهم روح المسيح، روح الحق المعزي المفرح للقلوب. لكن لندرك أنهم بشر، معرضون للسقوط، وليسوا آلهة معصومين من الخطأ، بهذا فإن أخطئوا لا نخطئ مثلهم ولا نياس نحن من خلاصنا!

لهذا نجد أن آبائنا الأولين يحثوننا أن يكون لكل واحد صديق روحي... فمتى شعر الإنسان بضجر أو ملل أو ثقل عليه الجهاد جداً بالتزم بالصلاة، فإن لم يستطع يبحث عن أب اعترافه، وإن لم يقدر يسرع إلى صديقه الروحي لا ليهرب من الجهاد بل ليطلب منه أن يشتركا سوياً في الصلاة أو التأمل في الكتاب المقدس الأمر الذي يلهب الاثنين روحياً.

❖ إذا ضعفت عن أن تكون غنياً بالله فالتصق بمن يكون غنياً به لتسعد بسعادته وتتعلم كيف تمشي حسب أوامر الإنجيل.

القديس باخوميوس

❖ "الصديق الأمين وراء الحياة" (ابن سيراخ ٦: ١٦).

لا يوجد علاج فعال في شفاء الآلام مثل الصديق الصادق، الذي يسليك في ضيقاتك ويدبرك في مشاكلك، ويفرح بنجاحك، ويحزن على بلاياك. من وجد صديقاً كهذا فقد وجد ذخيرة، فالصديق الأمين لا شبيه له. فوزن الذهب والفضة لا يعادل صلاح أمانته (ابن سيراخ ١٤: ٦-١٥).

القديس أغسطينوس

❖ كما أن الذين يجالسون باعة المسك والأطياب العبة يكتسبون الروائح الذكية، هكذا ينبغي علينا أن نلازم الحكماء والمعلمين وأرباب الفضيلة، لنقتدي بمثالهم في الصالحات.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الملتصق برجال الله يستغنى بأسرار الله، والملتصق بالجاهل والمتكبر يبتعد عن الله، وأيضًا يبغضه أhabؤه.

❖ ليس شيء يبث في قلوبنا الطهارة مثل خلطة هؤلاء الأبطال أنقياء القلوب. فمثل هذا الصديق يوقظ النفس إلى الحياة، وينزع الأوجاع والأفكار السمة أكثر من كل الفضائل، فلا تتخذ لك صديقًا أو مستشارًا إلا من هذه العينة، لئلا تجعل فسادًا يحل بك وتحيد عن طريق الله. ليكن عظيمًا في قلبك ذلك الحب الذي يوحدك بالله، لئلا يسيبك الحب (الشهواني) الذي علته فاسدة.

صداقة القديسين النشطين تملأك من أسرار الله...

المائدة التي يتكئ عليها المؤمنون والعاملون والساھرون والنشيطون والصائمون، امض وخذ منها دواء الحياة، وأحيي به موت نفسك، فالحبيب متكئ بينهم عليها، ويطهر مائدتهم.

❖ افحصي يا نفسي ذاتك، وانظري إلى أي موضع تنتقلين، إذا طردت من جسدك، ومن هم الأبناء رفقاؤك الذين تسيرين معهم لميراثهم؟ إن كانوا ملائكة نور، فكيف لم يضيئوا عليك بشعاع جمالهم بمجيئهم عندك؟! ويفرحون بالخلطة معهم قبل الافتراق؟! وأما إذ كانوا أولئك السمجين الخداعين بالشهوة، السارقين للأطفال إلى بلدة ظلمتهم، المحرومة من العزاء، فالويل لي من هم في صحبتهم، الويل لي من قريبهم الذي يبعدي عن ربي! الويل لي لأنني أطعت غشهم، ومنعت نفسي من نظر الحُسن! الويل لي لأنني أبعدت ذاتي عن الشر، وصرت شريكًا للشرير بإرادتي. فإن كنت من البلدة التي اقتنيت منها الأوجاع فأني الأدوية تضمد جراحاتي؟! تضمد جراحاتي؟!

الشيخ الروحاني

صداقة القديسين المنتقلين

إذا كانت صداقة المجاهدين في الرب تبعث في النفس غيرة روحية، فكم بالأكثر الصداقة مع القديسين المنتقلين.

مات ربنا يسوع وقام من بين الأموات كاسرًا شوكة الموت، جاعلاً منه انتقالًا وعبورًا من

حياة أرضية مؤلمة إلى حياة أبدية، لذلك تعلن الكنيسة في أوشية (صلاة) المنتقلين: "لا يكون موت لعبيدك بل هو انتقال".

فموت المسيح وقيامته تمزق الحجاب الفاصل بين الأرضيين والسمايين.

فتح أبواب الفردوس ليدخله أحيائنا الذين ماتوا بالجسد وصارت لنا إمكانية طلب صلواتهم كما نصلى نحن عنهم. فأقام رباطاً بيننا وبين أحبائنا آبائنا وإخوتنا المنتقلين المنتظرين يوم الدينونة في فرح، إذ نحن جميعاً أعضاء في الجسد السرى الواحد للرب يسوع.

هذا من جانب ومن جانب آخر، بقيامته هياً المؤمنين ليقبلوا الروح القدس في عيد العنصرة أو في المعمودية، فيخلق منهم جسداً واحداً، عروساً واحداً للعريس يسوع. فيشعر كل عضو بمشاعر الآخر. لذلك إن جاز أن تتكون صداقة بين الأعضاء المجاهدة من أجل خلاص نفوسهم، فكم أن تكون الرابطة أقوى والحب أعظم بين المجاهد والمنتصر. لهذا أرشد الروح القدس الكنيسة في القداس الإلهي بعد حلوله وتحويل الخبز إلى جسد الرب والخمر إلى دمه أن تشعر بالوحدانية العجيبة بين المجاهدين والمنتقلين، فيطلبون صلوات المنتقلين (المجمع) ويصلون عن المنتقلين (الترقيم). يا لها من صداقة غلبت الموت وحطمتها واخترقت حاجزي المكان والزمان. إنها صداقة في الرب مالى السماء والأرض صداقة في من هو حي وقد مات بالجسد الآن حي إلى أبد الأبد.

عزيزي إن كنت تشعر بفتور في حياتك الروحية، ألا تذهب إلى أحد الإخوة المحبين ليصلي معك أو تتأمل في الكتاب المقدس معاً؟ فيزول فتورك، كم بالأكثر ينبغي عليك أن تكون صداقة مع قديس من القديسين الذين لا يزالون في هذا الجسد أو الذين انتقلوا لتتقوا معاً مصليين!

إن الشفاعة في المفهوم المسيحي هي صداقة مع آباء وأمّهات وإخوة وأخوات أحياء كملوا أيام جهادهم وانتقلوا إلى الفردوس، يشعرون بضعف البشر المجاهدين، وبقلب متسع يصلون معنا من أجل ضعفنا حتى نكمل نحن العبيد رفقاءهم جهادنا. هي وقفة القديس معنا للصلاة للرب. وقفة إنسان ضعيف لا يزال معرض للشكوك والضعفات مع آخر ذاق حلوة الرب وعبر من العالم منتصراً. يعرف ضعفك ويود نصرتك مثله ويشاق أن تشاركه في المكان الذي أعده الرب لكل القديسين.

❖ حينما نبخر أمام أيقونة القديسين فنحن نعبر عن أشياء كثيرة. منها شركة صلاتنا معًا كاتحاد بين الكنيسة المجاهدة والكنيسة المنتصرة في السماء "قصعد دخان البخور مع

صلوات القديسين" (رؤ ٨ : ٤).

وعلاوة توسل أن يذكرونا ويرفعوا صلواتنا أمام الجالس على العرش في السماء، وتكريم للروح القدس الذي عمل فيهم وقدهم.

❖ حينما نطوف بالبخور حول المذبح ونقدمه للأيقونات وأجساد القديسين والشعب فإننا نجمع صلوات الجميع كصوت واحد يجمعه البخور المقدس، وترفعه الملائكة المنوطة بالخدمة مع صلوات وتشفعات العذراء الطاهرة مريم. وهكذا تتقوى صلواتنا بصلوات وتشفعات القديسين.

❖ سواء كنت تدعو الرب يسوع تبارك اسمه أو تتشفع بأمه العذراء أو بالملائكة أو بأحد القديسين، أدعهم من قلب ملتهب بالإيمان والحب نحوهم. وإذا كنت تصلي من أجل أحد الأحياء أو الأموات فصل لهم من كل قلبك ذاكرًا أسمائهم بحرارة صادقة.

الأب يوحنا من كرونستادت

مصادقة القديسين ليست هدفًا

كثيرون يسرعون نحو الالتقاء بالقديسين الأحياء في هذا العالم أو المنتقلين ومصادقتهم في صورة أو أخرى، كالذهاب إليهم في أديرتهم أو كنائسهم أو طلب صلواتهم دائمًا أو قراءة سيرتهم بكثرة. لكن ليحذر المؤمن من خداعات العدو، لأن مجرد الالتقاء بهم ليس هدفًا في ذاته، إنما هو وسيلة للالتقاء بيسوع والتدرب على حياة الشركة مع الله والصلاة الدائمة.

قراءة سيرهم

سير القديسين حلوة وشهية للنفس. لكن إن شعرت أثناء قراءتك بشوق للسلوك مثلهم لا تكمل قراءة الكتاب، بل توقف لحظات واركع أمام الرب ملتزمًا أن يعمل فيك كما عمل فيهم بصلوات هؤلاء القديسين. بمعنى آخر تلمس حياة القديسين في حياتك الشخصية ولا تكون مجرد قارئ أو إنسان معجب بهم، بل تتلمذ للسيد المسيح على أيديهم. بمعنى آخر حول قراءتك لتاريخ الكنيسة وسير الآباء إلى صلاة من أجل خلاص نفسك.

زيارتهم

يشغف الكثيرون بزيارة الآباء القديسين المتقدمين روحياً. وهذا عمل جميل طالما لأجل البركة وللإقتداء بهم. لكن إن تحولت الزيارة لتكون مجرد عادة أو لنوال مجد من الناس، فقدت قيمتها بل وسببت أضرارًا.

زيارة القديسين المجاهدين

امتنع القديس باخوميوس عن مقابلة أخته، طالبًا منها أن تقتدي به إن أرادت. كذلك أخبرنا بالاديوس عن القديس أرسانيوس معلم أولاد الملوك قائلاً:

❖ بدأ القديس أرسانيوس حياته الرهبانية بنسكٍ عظيمٍ وصلاةٍ وقداسةٍ وزهدٍ، حتى فاق كثيرين، وسمع بفضلِه أولاد أكابر القسطنطينية وعظمائها، وابتدأ كثيرون منهم يزهدون ويجيئون إلى ديار مصر ويترهبون. فسمعت بخبره عذراء من بنات رؤساء البلاط في روما. وكانت غنية جدًا وخائفة الرب، فلما جاءت لتبصره ومعها مال كثير وحشم وجنود، تلقاها البابا ثاوفيلس البطريك بوقارٍ كبيرٍ وأضافها، فسألته أن يطلب إلى الشيخ بأن يفسح لها الطريق للمضي إليه، فكتب يقول له: إن السيدة لارية السقليكي ابنة فلان من بلاط ملك رومية تريد أن تأذن لها برؤيتك لأخذ بركتك... فلم يشأ الأبا أرسانيوس أن تأتي إلى البرية، وأنفذ لها بركة من عنده، وقال لها: "هوذا قد علمت بتعبك وسفرك ونحن مصلون لأجلك. فلا تحضري لأنني لا أشاء أن أبصر وجه امرأة... قال لها "إذ سمعت بأعمال فاضلة فاعلمي على أن تمارسيها ولا تجولي طالبة فاعليها..."

القديس بالاديوس

إن كانت هذه القصة تكشف لنا عن هروب الرهبان من مقابلة النساء، لكنها تكشف لنا أيضًا عن هدف زيارة الآباء الأحياء القديسين.

زيارة أماكن القديسين

من يستطيع أن ينكر البركة التي يحصل عليها المؤمنون من زيارة الأماكن المقدسة والتبرك برفاتهم؟! لكن عدو الخير لا يهدأ عن محاربتنا بكل وسيلة، فإما أنه يجعلنا نغالي في تكريم القديسين إلى درجة العبادة... وهذا خطأ فاحش، إذ لنفس السبب سمح الله لرئيس الملائكة ميخائيل أن يخفي جسد موسى، وأما إبليس فأراد إظهاره ليكون موضع عبادة (رسالة يهوذا)، كما أخفى جسد سمعان الخراز الذي نقل جبل المقطم بالإيمان، إذ دخل في الجبل، حتى لا يعبد البشر.

هذه ضربة، أما الضربة الثانية، فهي الاستهتار بأجسادهم. فنحن لا ننسى أن عظام إيلشع النبي أقامت ميتًا. وأن من يكرم القديسين إنما يكرم الروح القدس الذي قدسهم وطهرهم. أما الضربة القاضية التي نقشت بيننا فهي تحول أعياد القديسين إلى أفراح عالمية. وقد

حاربها القديس الأنبا شنودة رئيس المتوحدين في عظات كثيرة. فأعياد القديسين لم توضع للأكل والشرب واللهو، إنما للعبادة، لتمجيد الله العامل فيهم. ولأجل نوال بركاتهم وطلب صلواتهم عنا في تلك الليلة وللإقتداء بسيرتهم.

الاستشفاع بهم

الله المحبة، يقبل صلوات الأحياء أو المنتقلين من أجل إخوانهم، لأن صلواتهم عن إخوانهم علامة حب أخوي يشتمه الله المحب رائحة سرور ورضا. ولا يسعني المجال للحديث عن الشفاعة، لكن لنذكر أقوال الله دائماً (من أجل داود عبدي) معطيًا بركة لسليمان من أجل صلوات داود أبيه المنتقل. فلن يمكن لإنسان أن ينكر قوة شفاعة القديسين وبركتهم. لكن إن لم يكف المصلي عنه عن الشر، لن يقبل الله صلاة الآخرين عنه، فقد طالب صموئيل النبي أن يكف عن الصلاة من أجل شاول الملك. لهذا يا عزيزي لا تعتمد على قداسة والدك وبره وصلواته عنك أو على صلوات القديسين، متراخيًا في العبادة.

❖ أية فائدة تعود علينا إذا كان أنسابنا وإخواننا أصحاب عدل ما لم نكن نحن ودعاء جدًا، نعيش مثلهم في الفضيلة؟! وذلك أن النبي قد أومأ بهذا المعنى فقال إخوانك لا يفتدونك، أيفتدك إنسان ولو كان موسى أو صموئيل أو أرميا؟! اسمع ما يقوله الله لإرميا النبي: لا تبتهل من أجل هذا الشعب، فإنني لست أسمع منك. وما لك تعجب من قوله، لست أسمع منك، وقد قال: لو حضر صموئيل لما أقبل تضرعه من أجلهم...

حقًا إن لصلاة القديسين قوة عظيمة، بشرط أن نتوب ونصير إلى أفضل، لأن موسى اختطف أخاه وستين ربة من الناس من سخط الله، لكنه لم يقدر أن ينقذ أخته بالرغم من أن خطأها لم يكن معادلاً لخطأ أولئك، فهي شتمت موسى، أما هم فقد كفروا وألحدوا. وما حاجتي أن أذكر صلاته عن أخته... فهو ما أمكنه أن يكون له كفاية بالنسبة لنفسه (عدم دخوله أرض الموعد)...

إننا إذا توانينا ونمنا، فإننا ما يمكننا أن نخلص ولا بغيرنا...

القديس يوحنا ذهبي الفم

الصدقة والتعلق الشخصي

حيث توجد الصداقة الحقبة يبتهج القلب إذ يلتبس محبة الله خلال حبه لآخوته البشريين... لهذا يناشدنا القديس أغسطينوس أن لا يكون فرحنا نابغًا عن حب ذاتي أو لرباط

بشري إنما لتلامسنا مع الرب خلال الحب عندئذ بحق ننشد "ما أحلى أن يجتمع الاخوة معاً"،
يجتمعون خلال الحب في الله واهب الوحدة والسلام.

لكن إذ يتسع قلب المؤمن بالحب للغير يجد بعض المحرومين من العاطفة والحب فيه
ضالته المنشودة فيتعلق به. فما موقف المؤمن خاصة إن كان راعياً أو خادماً؟!
إذا تعلق الشخص بالمؤمن لا لسبب شخصي بل بسبب اتساع قلبه، أو لوجود مثل
حية فيه، لا ينزعج المؤمن من هذا التعلق، إنما يليق به أن ينمي هذا التعلق في مجراه الروحي
الطبيعي... ينميه في الرب لينضج بالروح القدس فيتحول التعلق الطفولي إلى حب ناضج في
المسيح يسوع.

فكما لا تقدر الأم أن تنتهر طفلها المتعلق بها في كل مكان، لكن عمل الأم أن تنتقل
بطفلها من التعلق الطفولي إلى البنوة الناضجة، هكذا نحن مسئولون بالروح القدس أن ننطلق
بأولادنا واخوتنا الروحيين إلى مستوى روحي أعمق، بنقلهم إلى محبة المسيح فينا، دون انتهار
أو توبيخ، إنما في حكمة وتأن بما يتناسب مع إمكانية كل فرد.
تحويل طاقات الحب التي في المخدم إلى الصلاة والعبادة، والانطلاق بإمكانياته
للخدمة والشهادة، ومساعدة المخدم على فتح قلبه بالروح القدس لمحبة إخوته... كل هذه تثبت
محبة المخدم مع الخادم على مستوى روحي أعمق بدون تعلق مرضي.

الوسائل التي تحفظ وحدة الأصدقاء

١. بادر بالصدقة وكرم أخاك

❖ حينما يقول "وآدين بعضكم بعضاً" (رو ١٢: ١٠) يعني كونوا أصدقاء وحازين أيضاً. لا
تنتظر أن يحبك الغير، بل اقفز نحوه بنفسك،، ولتكن أنت المبتدئ. بهذا تحصد أجرة
محبه أيضاً. أظهر السبب لماذا يلزمنا أن نحب بعضنا بعضاً، واخبرنا عن الطريق الذي
فيه تلتهب المودة الثابتة، إذ أردف قائلاً: مقدمين بعضكم بعضاً في الكرامة" (رو ١٢:
١٠). هذا هو الطريق الذي يُنتج المودة، والذي فيه تسكن مودة بعد إنتاجها. ليس شيء
يخلق أصدقاءً مثل السعي بغيرة لتكريم الإنسان قريبه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لنظهر قلوبنا لصديقنا، فسيظهر هو أيضاً قلبه لنا... الصديق الحقيقي لا يخفي شيئاً.
القديس أمبروسوس

❖ الصداقة الحقيقية لن تخفي ما تفكر فيه.

❖ الصداقة الحقيقية لن تأوي فيها شكًا. يليق بالصدیق أن يتحدث مع صديقه بحرية كمن يكلم نفسه الأخرى.

القديس جيروم

٢. عبّر عن صداقتك لأخيك في غيابه

❖ تعال إلي ولتجدد فضيلتي، ولتعمل معي. فنفتني معًا ما هو نافع لنا، لتذكرني في صلواتك حتى لا أذبل قليلاً قليلاً، فأكون كالظل عندما يميل النهار. فأنت هو نسمتي أكثر من الهواء، فإنني أعيش مادمت في صحبتك، سواء كنت حاضراً أو غائباً فأعيش بصورتك.

القديس غريغوريوس النزينزي

❖ إنه ليس بالمجهود الهين، إنما يتطلب نفساً نشيطة وذهناً عظيماً لنحتمل الانفصال عن شخص نحبه في المسيح.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٣. عبّر عن صداقتك لأخيك وسط آلامه

❖ ليعرفونا أننا معززون لبعضنا في الحزن أكثر من أننا ضيوف في وقت الطرب.

القديس جيروم

❖ كيف يختلف الصديق على المتملق، المتملق يتحدث ليهب لذة، أما الصديق فلا يحجم عن شيء حتى ولو كان فيه ألم.

القديس باسيليوس الكبير

❖ ليس شيء يثبت الحب بقوة مثل المشاركة في الفرح والألم. ليس لأنك بعيد عن المتاعب تنعزل عن مشاركة الآخرين أيضاً. فعندما يتعب قريبك احسب الضيق خاصاً بك. شاركه دموعه لكي تسند روحه المنسحق، وشاركه فرحه ليصير الفرح فيه عميقاً متأصلاً.

ثبتت المحبة إذ بهذا تخدم نفسك أكثر من خدمتك له. فبدموعك تصير أنت رحوماً، وبمشاعر البهجة تنقي نفسك من الحسد والغم... إن كنت لا تستطيع أن تنزع عنه الشرور شاركه بدموعك، فتزيل عنه نصف الشر؛ وإن كنت لا تستطيع أن تزيد خيراته فشاركه فرحه

فتضيف إليه أمرًا عظيمًا^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٤. بالحكمة تقيم من الأعداء أصدقاء

❖ بين أكثر المقاومين لنا بشدة يوجد أناس معيّنون ليكونوا أصدقاء لنا.

القديس أغسطينوس

❖ بحبك لإنسان هو عدوك تصير صديقاً لله؛ في الحقيقة ليس صديقه فقط بل وابنه، كما يقول الرب نفسه: "أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيك، هذا يبرهن أنكم أبناء أبيكم السماوي" (راجع مت ٥: ٤٤-٤٥)^٢.

الأب قيصريوس أسقف آرل

٥. تقدير تنوع الإمكانيات

❖ حسن هو إتحاد الشيوخ مع الشبان، واحد يقدم شهادة والآخر يعطي راحة. واحد يقود، والآخر يعطي بهجة. أعبّر بلوط الذي التصق وهو شاب بإبراهيم، إذ كان خارجاً (تك ١٢: ٥). ربما يقول البعض أن هذا حدث بسبب القرابة وليس عن طوع اختياري. ماذا نقول عن إيليا وأليشع (١ مل ١٩: ٢١)؟... وفي سفر أعمال الرسل برنابا أخذ مرقس معه، وبولس أخذ سيلا وتيموثاوس (أع ١٦: ٣)، وتيطس (تي ١: ٥)^٣.

القديس أمبروسيوس

٦. تقدير تباين الآراء

تساور الرسول بولس مع القديس برنابا صديقه الحميم في الكرازة، فوجد تجاوباً من جانبه، غير أن برنابا رأى أن يأخذ معهما ابن أخته القديس مرقس يوحنا الإنجيلي (أع ١٥: ٣٧).

"وأما بولس فكان يستحسن أن الذي فارقهما من بمفيلية، ولم يذهب معهما للعمل، لا يأخذانه معهما. "فحصل بينهما مشاجرة، حتى فارق أحدهما الآخر، وبرنابا أخذ مرقس، وسافر في البحر إلى قبرص". (أع ١٥: ٣٨-٣٩).

¹ In Rom. hom. 22.

² Sermon 23

³ Duties of the Clergy, 2:20. (101).

هنا ندرك أنه ليس بالأمر الغريب أن يحدث خلاف حتى بين الرسل الحكماء، لكن لا تتسلل الكراهية إلى قلب أحدهم، ولا ينسحب أحد عن العمل، أو يحقر من عمل الآخر، ولا تهتز وحدة القلب والروح والفكر، مادام الكل يخدم المسيح الواحد، بإيمانٍ واحد، مستنيرين بنور الروح القدس واهب المحبة.

❖ هذا الخلاف في الرأي لم يدم بل صار القديس مرقس معينًا للقديس بولس في الخدمة كما شهد بذلك في رسالته الوداعية (٢ تي ٤: ١١). هكذا يليق أن يتعلم الأصدقاء التواضع وعدم احتقار رأي الغير حتى الأصغر منهم

❖ ما نأخذه في الاعتبار ليس أنهما اختلفا في الرأي، وإنما تكيف الواحد مع الآخر، متطلعين إلى أن صلاحًا أعظم يتحقق بمفارقتهم بعضهما البعض... ماذا إذن؟ هل افترقا في عداوة؟ حاشا!

ففي الواقع نرى بعد ذلك مديح كثير لبرنابا في رسائل بولس. إنه نضال حاد ليس عداوة ولا خصام، أدى النضال إلى المفارقة بينهما. "وبرنابا أخذ مرقس..." بتعقل كل منهما رأى أن ذلك أنفع فلم يمتنع أحدهما عن الخدمة إذ وجدت شركة مع الآخر. إنني أحسب أن المفارقة قد تمت بروية، وكل منهما قال للآخر: "إذ أنا لا أرغب في هذا وأنت ترغب، لهذا لا نتخاصم، وإنما نوزع مناطق العمل". لقد فعلا هذا وخضع كل منهما للآخر. فقد أراد برنابا أن تتجح خطة بولس لهذا انسحب، ومن الجانب الآخر أراد بولس أن تثبت خطة برنابا فانسحب^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الرب في هيكل قدسه. الذي يتألف من أعضاء كثيرين، كل منهم يفي بوظائفه وواجباته المحدودة. بالحب نبني بنيانًا واحدًا^٢.

القديس أغسطينوس

٧. بالتخلي عن محبة الزمانيات

أرجع الأب يوسف سر فشل الصداقة بين العلمانيين إلى محبة الأمور الزمنية. أما بين الروحانيين فعلته ما يبثه عدو الخير من اختلاف في الفكر تحت ستار الروحانية والحق.

^١ Hom. on Acts, hom. 34.

^٢ On Ps. 11.

٨ . نصائح أخرى

فيما يلي بعض النصائح للأب يوسف في حديثه عن الصداقة لوجود صداقة ناجحة:

❖ **أولاً: الأساس الأول للصداقة الحقيقية يكمن في الازدراء بالأمور الزمنية، واحتقار كل ما نملكه، لأنه من الخطأ تمامًا أن نهتم بأباطيل العالم، وكل الأمور المزدرة أكثر مما نهتم بالأمور الأعظم ألا وهي محبة القريب...**

ثانيًا: يجدر بكل إنسان أن يقطع رغباته، فلا يظن في نفسه إنه حكيم مُختبر، فلا يفضل آرائه عن آراء قريبه.

ثالثًا: يلزمه أيضًا أن يعرف أن كل شيء، حتى ما يبدو مفيدًا وضروريًا، يحتل المركز الثاني بعد بركة الحب والسلام.

رابعًا: عليه أن يتحقق إنه لا يجوز له أن يغضب قط بسبب حسن أو رديء.

خامسًا: يجدر به أن يحاول شفاء كل غضب عند أخيه تجاهه، ولو كان بغير سبب، بنفس الطريقة التي بها يرغب في أن يتخلص هو من غضبه ضد أخيه. وليعلم أن غضب أخيه ضده هو أمر شرير مثل غضبه ضد أخيه، فيبذل كل طاقته أن يستبعد عن ذهن أخيه الغضب تمامًا.

أخيرًا: الأمر الذي بلا شك حاسم ويجب عليه أن يتحققه كل يوم إنه راحل عن هذا العالم. بهذا ليس فقط لا يسمح للغضب أن يبقى في قلبه، بل ويضبط كل حركات الشهوات والخطايا من كل الصنوف.

فمن يقتنى هذه الأمور، لا يسمح للغضب وعدم الاتفاق أن يوجد، ولا يجد سببًا لهما. أما من يفشل في هذه الأمور، فإنه وإن كان غيورًا بالحب، لكنه يتشرب سم الانفعال ضد الأصدقاء شيئًا فشيئًا، وإذ تحدث منازعات متكررة يبرد الحب فيه شيئًا فشيئًا وفي وقت أو آخر، يفارق الحب قلوب المحبين، إلى أن يُنتزع تمامًا. لأنه من كان في الطريق السابق شرحه كيف يمكنه أن يختلف مع صديقه، مادام لا يطلب لنفسه شيئًا؟!

بهذا يبتدئ بداية أي نزاع بتراً تاماً (ذلك الذي غالبًا ما يحدث بسبب أمور تافهة غير ضرورية بالمرّة)، إذ يلاحظ ما لفائدته كما جاء في سفر الأعمال: "وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة. ولم يكن أحد يقول أن شيئًا من أمواله له بل كان عندهم كل

شيءٍ مشتركًا" (أع ٤: ٣٢).^١

الأب يوسف

صداقة شريرة

كل صداقة ليست في الرب لا يحق دعوتها صداقة، لأنها تزول سريعًا. ومن أمثلة تلك الصداقات غير الحقيقية:

أولاً: صداقات خاصة معثرة

إذا جلست في وسط جماعة احذر من تكوين صداقة خاصة تجلب غيرة الباقين نحوكم. بل حدث الكل، وتعامل مع الكل بلا تمييز. وقد تحدث القديس باسيليوس الكبير كثيرًا في عظاته عن تدبير الرهبان، عن تلك الصداقات المعثرة التي توجد في وسط جماعة عامة، طالبًا من أن تُستخدم الحكمة في تكوين الصداقة، فلا نحب شخصًا أكثر من الآخرين وبخاصة من الرؤساء، لئلا يتسبب عن ذلك تحزبات وانشقاقات وحسد وغيرة بين الرؤساء.

❖ يجب على الرهبان أن يكون بينهم حب واتحاد عظيم، إلا أنه ينبغي أن ينتزع عنهم كل اتحاد خاص كائن بين شخصين أو ثلاثة، على أن هذه الاتحاد الخاص ولو ظهر كأنه مقدس، فهي انشقاق عن الآخرين.

❖ إن وجد راهب يظهر أنه مائل نحو أحد الإخوة أكثر من الآخرين، إما لأجل قرابة أو لسبب آخر، يجب صدّه أو تأديبه، لأنه بفعله هذا يفترى على المحبة العامة.

❖ الذي يحب أحدًا من الإخوة أكثر من الباقين، فبمجرد فعله هذا يظهر أنه لا يحب بقية الإخوة حبًا كاملاً. وبالتالي يسيء إليهم مفتريًا على جماعة الدير. فإن كان الله يغتاض ممن أساء إلى شخصٍ واحدٍ غيظًا هذا حده، حتى أنه يقول: "يمس حذقة عين الله" (زك ٢: ٨)، فماذا يكون حال من يسيء إلى كل الجماعة؟

❖ الصداقات الخاصة تزرع على الدوام الحسد والعداوة وتسبب الانشقاق والتعصب واللوم الخفي التي هي خراب للرهبنة وهدم لها.

القديس باسيليوس الكبير

¹ St. John Cassian: Conferences ,16:6.

❖ المعاشرات والاتحاد الخاص يضر النفس ضررًا عظيمًا. لهذا يجب علينا أن نهرب منه باحتراس ونتوطد على هذا الأساس... وهو أنه لا يجوز في الرهينة أن يكون لأحد صديق خاص يتحد معه في صداقة يمكن أن يتألم من قبلها بقية الإخوة.

القديس مار أفرام السرياني

ثانيًا: صداقات لمجرد نوال الشهرة

نخطئ كثيرًا عندما نكون الصداقة على مجرد شهرة الآخرين، بقصد نوال شهرة بصداقتنا معهم، أو نحبهم لمجرد مدح الآخرين لهم، فمتى ذمهم مادحهم تقتر محبتنا لهم. أخطأ القديس أغسطينوس في بداية حياته عندما كون صداقة بينه وبين Hierius لمجرد شهرته، لينال هو أيضًا شهرة على حساب هذه الصداقة.

❖ لكن ماذا دفعني أيها الرب إلهي أن أهدي هذه الكتب لهيريوس وهو أحد خطباء روما، الذي أحببته دون أن أقابله، إنما لمجرد ما أشتهر به من علم؟!... ولكن هل يمكن أن تتدخل المحبة في قلب السامع لمجرد سماعه عنه من فم مادحه؟!...!

لقد أحببت في ذلك الوقت الممدوحين من البشر، وليس الممدوحين منك، وإن كنت قد أحببتهم ومدحتهم، فإنني كنت أود أن أكون مشهورًا مثلهم... من أين أعرف، وكيف أعترف لك بأنني أحببت ذلك الخطيب بسبب حب مادحيه له، أكثر من حبي له؛ بسبب الصفات التي مدحوه من أجلها، فلما ذمه مادحوه أنفسهم... فترت محبتي له وصرت غير متأثر به؛ مع أن الأسباب التي ذموه لأجلها لم تكن جديدة عليه، كما لو أنه أصبح شخصًا آخر. لكن الذي تغير هو شعور المتحدثين عنه.

القديس أغسطينوس

❖ لنتبع الصداقات التي حسب الروح، لأنها قويّة ويصعب حلها، وليس الصداقات التي تقوم حول المائدة¹.

القديس يوحنا الذهبي الفم

¹In Colos hom 1.

إمكانية الحب فيك

الحب كما تلمسناه هو اتساع القلب ليحمل في داخله الله، المحبة، ومن خلاله يجب كل البشرية فوق حدود العواطف والغرائز البشرية وفوق كل الطاقات الطبيعية، إذ ينحني الإنسان أمام كل أحد ليقدم كل شيء من أجل أخيه.

فالحب ليس استلطافاً للغير ولا انسجاماً معه ولا إشباعاً ولا تعلقاً به، وإنما هو أسمى من هذا كله. إنه بذل وعطاء بكل إمكانية من أجل كل أحد دون أن ينتظر نفعاً مادياً أو جسمانياً أو معنوياً، بل يحب من أجل الله المحبة ذاته.

هذا الحب كيف يقدر الإنسان أن يقتنيه؟

١. بالمعمودية نلبس ثوب الحب

لا يمكن أن نتذوق الحب الحقيقي ما دامت الأنا تحيا وتتضخم فينا، لأنه حيث توجد ذاتيتي وتكون لي إرادتي الخاصة واشتياقاتي الخاصة لا أتذوق عذوبة محبة الله والناس فيه، ولا حتى أتفهمها، بل يختلط في ذهني الحب بالشهوة أو بالتعلق الشخصي.

من أجل هذا صارت لنا حاجة لا إلى وصايا تأمرنا بالحب، بل أن تكون لنا طبيعة جديدة قادرة أن تتفهم الحب وتمارسه.

فبالمعمودية إذ صُلبنا مع المسيح ودفنا وقمنا معه، نسلك به في جدة الحياة. صار لنا بثبوتنا فيه أن نسلك كما سلك هو أيضاً (١ يو ٦: ٢)، وأي سلوك سلكه الرب أعظم من محبته لنا ونحن بعد أعداء!؟

يطالبنا الرسول يوحنا الحبيب أن نسلك بذات سلوك الرب، الأمر الذي يستحيل على الإنسان أن يقتنيه من ذاته، بل يتمتع به كنعمة مجانية ممنوحة له في المعمودية، يقدر بها أن يسلك طريق المسيح ويعمل أعمال محبته، وبهذا يتحقق فينا وعد الرب "من آمن بي يعمل الأعمال التي أعملها وأعظم منها" هكذا بالايمان إذ نختم عليه بالمعمودية تصير لنا أعمال المسيح نفسه فينا.

❖ هذه هي المحبة الكاملة يا إخوتي، والمولود من الله ينعم بها.

انظروا يا إخوتي واعلموا أن الإنسان قد نال أسرار هذا الميلاد بالمعمودية... أي سرّ هذا الذي يجعل منّي إنساناً جديداً بمحو كل خطاياي؟! لينظر كل إنسان جيداً إلى أعماق قلبه. لينظر إن كان التجديد قد شمل القلب كما الجسد أيضاً. لينظر إن كان له المحبة فهو من الله. وإن لم تكن فيه محبة فإنه وإن حمل سمة الجندي (أي إمكانية الحب التي أخذها بالميلاد الجديد) إلا أنه هائم كشريد.

❖ (في حديثه للمتأهبين لسرّ العماد).

المحبة هي وحدها العلامة المميزة بين أولاد الله وأولاد إبليس. لنطبع أنفسنا بسمة صليب يسوع المسيح... ولنصطبغ جميعاً بالمعمودية. وليحضر الكل إلى الكنيسة لنبني أسوار الكنيسة، فليس ثمة شيء يميز أولاد الله عن أولاد إبليس إلا المحبة.

القديس أغسطينوس

❖ (المؤمن الحقيقي) هو الذي بالحق والحكمة يتصور في نفسه تدبير محبة الله الفاضل، وحقيقة ربنا يسوع، ويدوم معه، ويلتصق به ويصير معه روحاً واحداً. هذا هو الإنسان الجديد الذي تعرّى من الإنسان العتيق وليس صورة المسيح (المحبة).

القديس يوحنا التبايسي

٢. التوبة تجدد ثوب الحب

لكن يتساءل البعض: إنني قد آمنت وختمت صدق إيماني بالعماد، وصرت ابناً لله ومع ذلك لا أستطيع أن أحب، فلماذا؟! لنرجع إلى سرّ المعمودية لنفهم أنه متى وُلد الإنسان ولادة روحية ينتقل من الأبوة

البشرية إلى أبوة جديدة، يكون فيها الله أباه والكنيسة أمه. لذا يلزم نقل المعتمد من البيت القديم إلى بيت أبيه الجديد. وهذه هي رسالة الإشبين الذي يربي الطفل المعتمد في أحضان الكنيسة، ويحرص على أن ينشأ الطفل في بيت مسيحي حقيقي، فيتذوق المعتمد شخص المسيح خلال حياة والده ووالدته وإخوته.

أما وقد أهمل الإشبين عمله، لم يعد المعتمد يدرك بيت أبيه، رغم بقاء البنوة التي له. فلا يعود يحتاج إلى بنوة جديدة، بل إلى تجديد ثوب المعمودية بالتوبة الحقيقية، هذه التي دعيت بحق "معمودية ثانية".

فإن عاد الابن في انسحاق ودموع ليعمل ربنا يسوع فيه، فسيجد أحضان أبيه مفتوحة، عندئذ يجد الحب فيه سهلاً وبسيطاً.

إن إمكانية تنفيذ وصايا الحب قد نلتها بالعماد، وينقصك أن تتسحق وتتواضع أمام الله حتى يتجدد ثوب المعمودية ثانية بالتوبة والاعتراف، فتثبت في المسيح وهو فيك بالتناول من جسده ودمه الأقدسين، اللذين سُفكا لأجل محبته لك.

❖ من لا يتعجب من محبتك يا ربنا... وُلدنا من بطن التوبة التي تلد على شببك (أي محبين).

❖ اظلم ذهني من كثرة المحن، واطلم ضميري بالشر، وليس لي قوة تقدر أن تهب الدموع. لكن أيها المسيح كنز كافة الخيرات أعطني توبة كاملة وقلباً منسحقاً ليخرج بالحب في طلبك.

❖ أيتها الرحمة الفائضة ما أوفرِكَ، التي أعطيت لنا نحن الموتى بالخطايا رحماً قدوساً الذي هو التوبة، يلد بنين... بهيّن متشبهين بأبيهم السماوي بعد أن كانوا دنسين متشبهين بمعبودهم الشيطان.

الشيخ الروحاني

٣. ممارسة أعمال الحب تنميتها

إن كان الحب هبة من الله لأولاده بالمعمودية، فإن الهبة تبقى كامنة ما لم يُضرمها المؤمن.

وقد شبه القديس أغسطينوس هذا الأمر بالجندية، فيوهب للإنسان رتبة الجندية، وعليه أن يجاهد فيكلل، أو يهرب كشريد طريد هائم فيدان.

إلاً إننا في ممارسة أعمال الحب يلزم أن نضع نصب أعيننا إننا لا ننال الحب بالمران والتدريب خارج النعمة الإلهية، أي بمجهودنا الذاتي أو قدرتنا الشخصية.

❖ هذه المحبة لا بد أن تولد أولاً (بالمعمودية). ثم بعد ذلك تكمل (بممارستها عملياً). إنها تولد ثم تنمو وتتقوى، وعندما نتقوى تكمل، وعند كمالها تصرخ قائلة: "لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح... لي اشتها أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً" (في ٢١: ٢٤).

❖ لا نياس يا إخوتي، فقد وُلدت فينا بذار المحبة. لكنها لم تكمل بعد. لنرعاها إذن ونُنمّيها لنُلا تختنق.

كيف تقتخر إذن بكونك مسيحياً؟! لقد أخذت اسم المسيح، ولكنك لم تقتنِ أعماله. لتظهر بأعمالك مسيحيتك... "وأما من كان له معيشة العالم، ونظر أخاه محتاجاً، وأغلق أحشاءه، فكيف تثبت محبة الله فيه. يا أولادي لا نُحب بالكلام ولا بالسان بل بالعمل والحق".

❖ هؤلاء الذين يدعون أبناء الله... ماذا تتفعهم دعوتهم هكذا ما داموا لا يخدمون أعمال البنوة فيهم؟!

كثيرون يدعون أطباء، لكنهم لا يعرفون كيف يعالجون.

كثيرون يدعون ساهرين، لكنهم نائمون الليل كله.

كم من أناس يُدعون مسيحيين، ولكن بأفعالهم لم يُوجدوا هكذا، لأنهم ليسوا كما يُدعون، أي في حياتهم وسلوكهم والإيمان والرجاء والمحبة؟!

إننا على رجاء التمتع في الله إلى الأبد (أي التمتع بحب الله) نتوب عن شرورنا ونُظهر من خطايانا، أما إذا توخينا الحقيقة فإنه لا يميل أحد بطبيعته إلى التعب والمشقة، ولا يعزم بهذه الأعمال ويحتملها برحمة، بل نقبلها كوسيلة تبلغ بنا إلى حياة التأمل في الله في الأبدية.

فلو ترك كل واحدٍ لرغبته الحقيقية، فإنه يود لو أمكن أن يصل مباشرة إلى بركات حياة التأمل في الله، دون القيام بأعباء الجهاد التي تجابه الإنسان في الحياة العملية... بدون هذا الجهاد لن يستطيع العقل أن يبلغ غايته (الحق المطلق) الذي يسعى إليه في حب ملتهب.

القديس أغسطينوس

❖ لا تُكتسب الفضائل من كلام الكتب بل من تجربة طويلة.

قد يكون إنسان ساذج يعمل عملاً بالتجربة أفضل من عالم في سيرة الروح، من خلال سطور الكتب وتسلمها عن الآخرين دون أن يختبرها.

مار إسحق السرياني

❖ عندما نكون في السماء، حيث لا فقر ولا فاقة ولا عوز، لا تكون هناك حاجة إلى العمل

لتقدم المحبة. على أن النار في مركزها لا تحتاج إلى مادة تغذيها، إلا أنه متى نُزعت عنها مادتها تنطفئ وتنفى حالاً، هكذا المحبة هنا إن لم تغذيها بالأعمال تنطفئ وتنتلشى حالاً.

❖ لا نأخذ يا إخوتي بكلام اللسان بل بأفعال القلب. فإن كان أحد لا يفعل صلاحاً مع أخيه، فإنه يكشف عما بداخل نفسه، فالناس لا يُختبرون إلا بالتجربة.

القديس أغسطينوس

المسيح أعلن حبه لنا عملياً

❖ المحبة هي إظهار العمل، فزيادة تضحيتنا وتعبنا في العمل يدل على زيادة المحبة. لهذا لما أراد التلميذ الحبيب أن يوضح لنا فرط محبة الله نحو البشر قال: "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد" (يو ٣: ١٦).

السيد المسيح بنفسه حينما تكلم عن محبته لأبيه قال: "ليعلم العالم أنني أحب الآب، وكما أوصاني الآب هكذا أفعل، قوموا ننطلق من ههنا" (يو ١٤: ٣١)، فإلى أين كان ماضياً؟

كان ماضياً ليتألم ويقبل الموت على الصليب، وبتنفيذ هذه الوصية الصعبة أظهر للعالم أنه حقاً يحب أباه. فالمحبة إذن تُوضح وتُعرف من الأعمال. فظهور محبة أعظم يكون بمقدار صعوبة الأعمال.

القديس غريغوريوس

نمو دائم في أعمال الحب

إذ نتطلع على أعمال الحب التي للمسيح، فإننا كلما مارسنا الحب تجاه الله والناس نجد أنفسنا مقصرين وناقصين، فنجاهد ونثابر إلى ملء قامة المسيح. فالمؤمن المحب لا يقف عند حدود في حبه. بل يبقى متصاعداً على الدوام...

❖ "مغبوط هو الإنسان الذي أعدّ مطالع في قلبه" (مز ٨٣: ٦). البار لا يوجد في قلبه إلا مطالع ومساعد. وأما الخاطئ فلا يوجد في قلبه إلا انحذار وانخفاض.

فالبار يتجه نظره دائماً إلى الأمور الأسمى ارتقاءً في الفضيلة. ولا يرغب سوى أن

ينمو في الكمال غير مفتكر في شيءٍ آخر. وكما قال الحكيم: "أفكار المجتهد إنما هي للخصب" (أم ٥:٢١).

❖ "طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ، لأنهم يشبعون" (مت ٦:٥).

الطوبى هي للذين لم يحسبوا أنفسهم كاملين بما فيه الكفاية، إنما لا يزالون مجتهدين في اكتساب كمال الفضيلة.

القديس إيرونيموس

❖ كما أن الجنين في الرحم لا يبلغ إلى الرجولة في لحظة، بل تبدأ فيه الصورة والميلاد رويدًا رويدًا... وكما أن حبوب القمح والشعير لا تثمر حالما تُبذر في الأرض...

وكما أن الذي يزرع الشجرة لا يجني الثمرة في الحال، كذلك الأمور الروحية فيها حكمة ودقة عظيمة، فإن الإنسان ينمو درجة درجة ويعلو إلى قمة تامة (أف ٤:١٣).

القديس مقاريوس الكبير

❖ لا سبيل للنجاة بالرجوع إلى الوراء إلاً بالاجتهاد الدائم في الارتقاء والتقدم إلى الأمام. لأنه حينما نقف في جريتنا نرتد إلى الوراء. فعدم التقدم يعني التقهقر. فإن أردنا ألا نرجع إلى الوراء يلزمنا أن نسرع راكضين على الدوام بلا راحة.

القديس أغسطينوس

❖ يجب علينا أن نهتم في الفضيلة غير متقاعدين، وأن نمارس رياضياتها مجتهدين، لئلا إذا توقفنا عن النمو الروحي نجح حالاً إلى النقص، لأن الضمير لا يمكنه الثبات في حالة واحدة، أي لا يمكنه أن يكون في الفضيلة غير زائد ولا ناقص، لأن عدم الجمع هو تبديد.

القديس دوروثيوس

❖ الذين يسرون في سبيل الفضيلة يشبهون إنساناً موجوداً في نهر سريع الجريان. فإنه إذا رام أن يقف قليلاً في الوسط ولا يجتهد دائماً مقاوماً الماء يوشك أن يُسحب بالماء قهراً. هكذا الطريق التي يلزمنا السلوك فيها إن لم يقاوم فيها ويجاهد على السير إلى الأمام، فبلا شك سيسحبه جريان شهواته. وقد قال المخلص: "ملكوت الله يغتصب والغاصبون يختطفونه".

كما أن المسافرين الذين يسرون بنشاطٍ لا ينظرون إلى مقدار ما تجاوزوه من الطريق، بل يتأملون فيما يبقى عليهم من مسافات، ولا يفكرون في شيءٍ آخر إلى أن

يبلغوا المكان المطلوب... لهذا قال الرسول: "هكذا اركضوا لكي تتالوا".

القديس غريغوريوس

❖ يليق بنا أن نموت في الجهاد من أن نحيا في السقوط.

❖ جميع الفضائل التي نقتنيها بالتعب إن كنا ننتهون في عملها تضيع قليلاً قليلاً.

مار اسحق السرياني

درجات الحب

رسالة ربنا يسوع ليست دعوة إلى دينٍ جديدٍ أو مبادئٍ جديدةٍ، أو مجرد نظم وأخلاقيات أو مجموعة عقائد لاهوتية وطقسية، وإنما هي عودة إلى إعطائنا إمكانية الحب، لنبلغ إلى كمالها.

وقد أورد لنا القديس أغسطينوس^١ درجات الحب أو الكراهية:

الدرجة الأولى: الوحشية أو الاعتداء على الغير

صار الإنسان منذ سقوطه متوحشاً، لا يريد أن يرى في الكون غيره، وإن أحب الآخرين فلنفعه الخاص. إنه يشق إلى الاعتداء على الكل وامتلاك الكل. ولو لم يظهر دوافعه هذه.

فالمدينة حذت من هذه الروح، لكن من الخارج دون الداخل، فالمتمدن لا يستطيع السرقة ولا النهب أو القتل. لكن في داخله كثيراً ما يتمنى لو فشل الجميع ونجح هو. يشق لو نال كل جديد دون غيره، يحزن ويضطرب لو فقد منديلاً قديماً وهو يملك عشرات المناديل! يشهد الكتاب المقدس بذلك، فقاين قتل هابيل، وإخوة يوسف تأمروا على أخيهم، وشاول صوّب السهام ضد منقذه داود... كل هذا بلا ذنب ارتكبه في حقهم. وقد كشف لنا القديس أغسطينوس هذه الوحشية في اعترافاته في صورتين هما:

١. شهادة الطفولة بذلك

- ❖ وإن طوّب الرب الصغار والرضع، فليس بسبب قداستهم، لأنه ليس أحد طاهراً ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض، بل لأجل بساطتهم، أي لقلوبهم البسيط غير المزدوج، الذي خارجه صورة واقعية لداخله. فالطفولة خير مرآة تفضح انحطاطنا وفجورنا.
- ❖ استمع يا الله! استمع! وآسفاه لمعصيتي!... وأنت ترحمني، لأنك خلقتني، ولكنك لم تخلق الإثم الذي في.

^١ راجع القديس أغسطينوس: الموعظة على الجبل ١: ٥٢، ٥٦.

من ذا الذي يذكّرني بخطايا طفولتي؟! لأنه لا يوجد أمام عينيك إنسان طاهر ولو كان رضيعاً لم تتجاوز حياته يوماً واحداً على الأرض!...

ما لم أتذكره عن نفسي وأنا طفل أتصوره في غيري من الأطفال، فماذا كانت خطيئي إذن؟! إنه يصرخ متى شعر بما يؤلمه... فهل من الصلاح أن يصرخ بقسوة لإغاضة الناس حتى يضجرون... إنه يستعمل كل ما من شأنه أن يخيف الناس ويؤذيهم، عندما يرفضوا تحقيق رغباته التي لو حقّقوها له لأصابه ضرر بليغ.

إذن سبب براءته هو عجز أعضاء الطفل، لا عجز إرادته!

لقد رأيت بنفسي طفلاً حسوداً لا يقدر أن يتكلم، ومع ذلك فإنه عندما نظر إلى أخيه في الرضاعة اصفرّ لونه، وظهرت نظرات الحقد في عينيه.

القديس أغسطينوس

٢. التلذذ بالإثم في ذاته

❖ جميلة كانت الكمثرى (المسروقة)، ومع ذلك لم تكن نفسي الشقيّة تميل إليها، بل كنت أسرق أفضل ما على الشجرة لمجرد السرقة، وبعدما كنت أجمعه كنت ألقى به للخنازير. وكانت لذتي الوحيدة في هذا كله هو إثمي الذي كنت في غاية السرور أن أتلذذ به، والذي لم أكن أشعر بعذوبته إلا عندما أضع الكمثرى في فمي.

القديس أغسطينوس

الدرجة الثانية: مقابلة الشر بشر أعظم

رد إساءة المعتدي بشر أعظم.

الدرجة الثالثة: مقابلة الشر بشر مماثل

لقد سمت الشريعة الموسوية على الدرجة السابقة إذ اهتمت بتقويم الطبيعة البشرية وإعدادها لقبول عدم مقابلة الشر بأي شر.

❖ يرغب الإنسان دائماً في الانتقام بصورة مغالى فيها جداً، وذلك بسبب الغضب والشعور بأن المُسيئ يجب أن يعاقب عقاباً مضاعفاً. فالشريعة الموسوية التي جاء فيها "عين بعين وسن بسن" تحد من الروح السابقة، لأنها تطالب بالألّا يزيد الانتقام عن مقدار الضرر الذي أصاب الشخص. هذه الشريعة هي بداية السلام، وأما السلام الكامل فهو عدم الانتقام...

أما في الشريعة الموسوية، فقد طُلب من الإنسان ألا يتعدى انتقامه قدر الشر الذي أصابه. وبهذا يكون قد تنازل عن جزء من حقه، إذ يقتضي العدل معاقبة البادئ بأكثر مما صنع. لذلك فإن هذه الشريعة التي لم تكمل لم تستخدم القسوة على من يرتكب الشر، بل استخدمت العدالة المصطحبة بالرحمة. وهذه الشريعة كُملت بواسطة من جاء ليكمل الناموس.

❖ ينبغي ألا نفهم أن ما جاء بالناموس "تبغض عدوك" كوصية موجهة للإنسان البار، بل بالأحرى سماح أُعطي للضعيف.

القديس أغسطينوس

الدرجة الرابعة: مقابلة الشر بشر أقل

❖ عدم مقاومة الشر بشر أعظم ولا مساوٍ له بل أقل منه، فيقابل الضربتين بضربة واحدة، وفقء العين بقطع الأذن.

القديس أغسطينوس

الدرجة الخامسة: عدم مقابلة الشر بشر

❖ أما من يسمو على الدرجة السابقة، فإنه لا يقابل الشر بأي شر، مقترِبًا بذلك من وصية الرب دون أن يبلغها بعد.

القديس أغسطينوس

الدرجة السادسة: عدم مقاومة الشر

❖ أما درجة الكمال ففيها يأمر الرب بعدم مقاومة الشر. فهو لم يأمر بعدم مقابلة الشر بشر، بل عدم مقاومته قائلًا: "من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر"، أي لم يقل له تلطمه، بل بالأحرى إن كان يرغب في لطمك مرة أخرى فقدم له ذاك.

القديس أغسطينوس

هذا هو هدف ربنا يسوع الذي لم يأت إلا بالإنسان الجديد حيث نبلغ به نحو الكمال. ليعطينا الرب الذي وهبنا بذار المحبة في المعمودية أن تنمو فينا، فنندرب على محبة الله والكنيسة وكل البشرية.

مقابلة الآخرين

❖ لا تكن حجر عثرة لمن تلتقي بهم بأية وسيلة. كن بشوشاً، محباً للإخوة، لطيفاً، ومتواضعاً.
لا تحط من هدف كرم الضيافة بتقديم طعام مبالغ فيه. كن مكثفياً بما هو بين يديك¹.
القديس باسيليوس الكبير

¹ Letter, 33.

الحب الزوجي

- ❖ الحب الزوجي.
- ١. مفهوم الحب الزوجي.
- ٢. غاية الزواج.
- ٣. كيف يختار الإنسان شريك حياته؟
- ٤. الخطبة والحب الزوجي.
- ٥. الحب الزوجي في حياة الزوجين.
- ٦. الحب الزوجي والعلاقة الجسدية.
- ٧. وحدة الزواج.
- ٨. الحب الزوجي من خلال الطقس القبطي.
- ٩. البتولية والترمل.

الحب الزوجي

تحدّثنا في الباب الأول عن "الحب" ليس كسمّة يتّصف بها الإنسان تمس علاقته بالآخرين، إنّما تمس جوهر حياته. الحب – إن صح التعبير – هو حياة الإنسان، بدونه يفقد إنسانيّته، إذ خلق علي صورة الله "الحب الأعظم"، حتى يحمل طبيعة الحب فيه. هذا الحب الذي به ينطلق الإنسان من سجن الأنا وحبس الذات لكي ينفّث بكل طاقاته للبذل من أجل الآخرين، فينطلق من الاستيلائيّة إلى الشراكة والعطاء يتجلّى بصورة رائعة في الحياة الزوجيّة، إن عرف المؤمن حقيقة هذه الحياة. في حديثنا السابق تعرّفنا علي "الحب" خلال إدراكنا لقدسيّة الجسد بكل غرائزه وأحاسيسه وإمكانيّاته، وفهمنا للجنس بمفهومه الإيجابي القدسي، هكذا يلزمنا لكي نمارس الحب الزوجي أن ندرك "الزواج المقدّس" ونتعرّف علي غايته ومقوماته وديمومته بفكرٍ إنجيلي كنسي أبائي.

مفهوم الحب الزوجي

أولاً: البشرية والحب الزوجي

أظن أنني لا أكون مبالغاً إن قلت إن الحياة البشرية في كليتها لا يمكن أن تقوم خارج "الحب الزوجي"، ليس لأنه بدونه لا يتحقق الإنجاب الذي يعطي للحياة البشرية الديمومة هنا علي الأرض، وإنما ما هو أهم وأعظم أن الإنسان وهو كائن يجد في الحب طعامه وشرابه بل ونسمات حياته، فإن الحب الزوجي هو عصب "المحبة البشرية" إن أختبر بفهمه الإنساني الحق.

في العصر الحديث إن كان فرويد بأبحاثه السيكولوجية خلق ثورة في علم النفس محورها أن "الجنس" هو عصب الحياة الإنسانية كلها، إذ رأى في الإنسان أشبه بكائن جنسي، من خلال الجنس يمارس كل أنشطته الفكرية والجسمانية، منذ الطفولة حتى الشيخوخة. لكن الخطأ الذي سقط فيه فرويد وقد حاول التخلص منه وفي كثير من الأحيان لم يستطع، هو أنه تطلع إلى الحياة البشرية كلها من زاوية الجنس، لا إلى الجنس كجزء لا يتجزأ من الحياة البشرية، فجعل من الجزء كلاً، ومن الكل جزءاً... هذه النظرة رفضها كثير من رجال علم النفس الحديث.

أما الكنيسة وهي لا تتجاهل كل هذه الجوانب من نفسية وعضوية واجتماعية، لكنها تقدم للإنسان فهماً إيمانياً جديداً يرفعه ويسنده في ممارسته للحب، ألا وهو إدراك الحقيقة أن الإنسان ليس بالكائن الحيواني البحت، تسيّره غرائزه الطبيعية خاصة الجنس، وإنما وهو يسلك علي الأرض، ينعم بالمواطنة في "مملكة الله". هذه المواطنة قادرة أن تقود حياته كلها، توجهها بما فيها من طاقات جسدية وعقلية وغرائز، فتسيطر علي حركاته الداخلية وتصرفاته الظاهرية لتشبعه روحياً ونفسياً وجسدياً.

"الحب الزوجي" في حياة المؤمن "سرّ" يمارسه بمنظار إيماني حيّ، لا لمجرد إشباع غرائزه الجنسية، وإلا صار أشبه بزنا محلل كما يتخيل البعض، ولا لإشباع احتياجاته الاجتماعية البحتة، فيهدف إلى إنشاء بيت وإقامة أسرة خلال قانون الطبيعة، وإنما هو أولاً وقبل كل شيء قبول عمل إلهي في حياته لإشباعه من كل جانب في هذا الزمان ورفعته إلى رؤية

أبدية مفرحة.

- ❖ الزواج أعظم من أن يكون بشرياً، إنه مملكة مصغرة هو بيت صغير للرب.
 - ❖ ذهب مخلصنا إلى عرسٍ ليقّس أصل الحياة البشرية.
 - ❖ من هم الاثنان أو الثلاثة المجتمعون باسم المسيح، الذين يحل الرب فيهم؟ أليسوا الرجل وزوجته وطفلهما، لأن الرجل وزوجته يتحدان بالله.
 - ❖ بمشورات القديسين تُدبر الدول حسناً، وأيضاً البيوت.
 - ❖ الزواج صورة مقدسة يجب حفظها طاهرة ما يندسها. يليق بنا أن نقوم مع المسيح من سباتنا، ونرجع لننام بشكر وصلاة.
 - ❖ قلوب الأحباء لها أجنحة... الحب يمكن أن يتحول إلى بغضة إن زحف إليه أسباب هامة لعدم الاحترام المتبادل.
 - ❖ من يطلب اللذة الجسدية وحدها يحول الزواج إلى زنا.
- القديس إكليمنضس السكندري**
- ❖ يعطى بولس راحة للمتزوجين بالقول أن الزواج هبة من الله¹.

ثيودورت أسقف قورش

ثانياً: قدسية الحب الزوجي

إن عدنا إلى قصة الخلق كما وردت في سفر التكوين نجد الله الخالق لم يقبل أن يترك آدم وحيداً، فقدّم له حواء شريكته، لا في طبيعته البشرية فحسب، وإنما من لحمه وعظمه، يحبّها وتتجاوب هي معه في الحب.

الله هو الذي وهب الإنسان شوقاً وميلاً طبيعياً للجنس الآخر، هذا الميل ينمو بنموه الجسماني والعاطفي والذهني، إذ يبقى الإنسان فترة ليست بقليلة بين سن المراهقة المبكرة وسن الزواج خلالها يتعرّض الشخص لرغبات واشتياقات، لا لكي يجمع الإنسان برغباته كيفما شاء، ولا لكي يكتبها بعنفٍ في سلبيةٍ قاتلةٍ لنفسه وشخصيته بل ومحطمة لكل حياته، إنّما وُهبَت له كفرصةٍ يغتنمها، فيها يتدرب علي تسليم ميوله وعواطفه وأحاسيسه وأفكاره، الأمور التي الصق

¹ PG 82:274.

إليه من كل شيء، في يدي الروح القدس، ليعيش في حياة مفتوحة منطلقة نحو الله والناس، مُمتصة خلال المحبة الإلهية العلوية.

في هذه الفترة يختبر الإنسان النضوج الروحي والفكري والعاطفي مع نضوجه البيولوجي، فيخرج منها إنساناً يعرف مفهوم النصر لا علي الغير بل على حياته الداخلية العميقة، لا في إباحية مستهترّة، ولا في كبتٍ وضيقٍ وتبرمٍ، بل في انفتاح قلب الله، في إيجابية مملوءة حيوية.

في هذه الفترة قبلما يدخل إلى حياة الحب الزوجي مع فرد من الجنس الآخر يستطيع العفة، لا عفة الطفولة العاجزة، بل عفة النضوج والرجولة الروحية المجاهدة.

في هذه الفترة يختبر الحكمة الحقيقية وعدم التسرع...

هكذا يخرج الإنسان ناضجاً بالروح القدس روحياً ونفسانياً وذهنياً وجسمانياً، متهيئاً للحياة الزوجية، ليرتبط مع الطرف الآخر بحبٍ علويٍ نابعٍ لا عن انفعالات وعواطف مؤقتة، بل بحبٍ زوجيٍ مقدسٍ، تباركه الكنيسة ويسكبه روح الرب وينميّه.

بهذا يتقدّم الإنسان الناضج للزواج ليس كظاهرة اجتماعية إلزامية، إنّما كسرٍ مقدسٍ، أي يقبله عملاً إلهياً، بإتمام سرّ الزوجية الخفي بين العروسين، فيحضر الرب بنفسه "الإكليل" كما حضر عرس قانا الجليل، وتمتد يده علي هامتي العروسين ويربط بينهما رابطاً علوياً ويوحدهما (مت ٤: ١٩)، ويخلق منهما كنيسة جديدة هي عضو في الكنيسة الواحدة الأم.

بهذا ارتفعت المسيحية بالزواج إلى أعلى مستوى، إذ جعلت الوحدة تقوم بين الزوجين بالله نفسه، علي نفس مثال الوحدة بين المسيح والكنيسة (أف ٥: ٢٢-٢٤)، ليس لإقامة بيت جديد، بل لتأسيس كنيسة مقدسة يسكن الرب في داخلها ويستريح.

بهذا يشعر المؤمن أن سرّ الزيجة سرّ مقدس، فيه يربط السيد المسيح العروسين في اتحادٍ مقدسٍ بنعمة الروح القدس، ليتذوقا الاتحاد السري بين المسيح والكنيسة عروسه ويعيشا في بيتهما للرب جسداً واحداً بلا انقسام.

❖ من حيث أنه في الابتداء ظن أبوانا أنهما اثنان، أنظر كيف لصقهما معاً ليكونا جسداً واحداً بواسطة سرّ الزواج. لأنه يقول: عوض هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً.

القديس يوحنا ذهبي الفم

❖ كيف يمكننا أن نعبر عن السعادة الزوجية التي تعقدها الكنيسة، ويتبناها القربان، وتختتمها البركة؟^١

العلامة تريليان

خلال هذا المنظار الإيماني نرى "الحب الزوجي" وهو عصب "المحبة الإنسانية" لا يقوم علي صعيد تلاقي جسدين معاً أو ائتلاف أو تناغم عاطفي بحت بين الرجل وامرأته، وإنما هو "حياة" أو "حركة" حب مستمرة متبادلة بينهما، لها قدسيّتها الخاصة، تمس صميم كيانهما الجسدي والعاطفي والفكري والاجتماعي. هذه الحركة هبة الله نفسه للإنسان بروحه القدوس ليجعل منه أيقونة تصوّر الحب السماوي عينه، بهذا تصوير العائلة ككل سماء ثانية يتجلى فيها الله القدوس ويعلن فيها ملكوته بقوة. إنها كنيسته التي يعتز بها كعروس مقدسة له.

في اختصار علامات قدسية هذا الحب الزوجي هي:

أ. الحب الزوجي... يشهد لله واهبه.

ب. الحب الزوجي... أيقونة السماء.

ج. الحب الزوجي... كنيسة مقدسة.

أ- الحب الزوجي... يشهد لله واهبه

إن عدنا إلى الفردوس الأول نجد الله يقيم لآدم زوجة، لا بخلق إنسان آخر منفرد عنه، بل أقامها من جنبه لتكون من لحمه وعظامه. حتى يدرك الإنسان مدى الحب والوحدة القائمة بينهما، فيحب زوجته لأنها جسده يقوتها ويربّيها، يهتم بها ولا يبغضها. هذا هو عمل الله مع الإنسان الأول، إذ أراد محباً للطرف الآخر، أي زوجته بطريقة تفوق كل حب بشري آخر، فيقوم الحب بينهما في صورة كاملة.

❖ الرباط الطبيعي للمجتمع هو من رجل وامرأة. لم يخلق الله كل منهما علي انفراد ويجمعهما كغريبين عن بعضهما البعض من جهة مصدرهما، إنما خلق واحداً من الآخر، واضعاً علامة عن قوة الوحدة.^٢

القدّيس أغسطينوس

❖ كان آدم هو الزوج الوحيد لحواء، وكانت حواء هي زوجته الوحيدة. رجل واحد لامرأة

¹ To his Wife 2:9.

² The Good Marriage 1.

واحدة!^١

العلامة ترتليان

لم يخلق الله لآدم أكثر من حواء، بالرغم من أنه لا تقتصه المادة لصنعها ولا القدرة، كما يقول العلامة ترتليان^٢، لكنه أراد أن يقيم الرباط الزوجي مؤسساً علي الحب والوحدة بين الاثنين، لا يدخل بينهما ثالث يفرقهما.

هكذا نشأ الزواج منذ البدء علي أساس الحب والوحدة قي أقوى صورهما... حتى اعتبر الحكيم أن أحد البركات الثلاثة للإنسان أن يكون موفقاً مع زوجته، يربطهما الحب في وحدة صادقة.

❖ إذ يعدد الحكيم الأمور التي تُحسب بركات يذكر ضمنها "زوجة تتفق مع رجلها" (ابن سيراخ ٢٥: ١): وفي موضع آخر يذكر بين البركات أن تسكن امرأة في انسجام مع زوجها (ابن سيراخ ٤٠: ٢٣).

في الحقيقة من البداية أظهر الله اهتماماً خاصاً بهذه الوحدة، وحسب الاثنين واحداً. لقد قال: ذكراً وأنثى خلقهما الله (تك ١: ٢٧)، وقيل: "ليس ذكر وأنثى" (غل ٣: ٢٨). إنه لا توجد علاقة بين إنسانٍ وآخر في قوة العلاقة التي تقوم بين الرجل وامرأته، إن كانا مرتبطين معاً كما ينبغي!

لذلك عندما أراد الحكيم أن يعبر عن الحب الفاضل في حزنه علي شخص عزيز لديه... لم يشير إلى أب أو أم أو ابن أو أخ أو صديق بل إلى ماذا أشار؟ إنه يقول: "محبتيك لي أعجب من محبة النساء" (٢ صم ١: ٢٦).

حقاً إن هذا الحب عنيف أكثر من أي عنف، لأن الأنواع الأخرى (من الحب) قوية، لكن هذا الود ليس فقط قوياً بل لا يذبل أيضاً. يوجد حب معين مستقر في العمق، في طبيعتنا، يربط أجساد بعضنا البعض بطريقة لا تدرك.

من البداية عينها خرجت المرأة من الرجل، وبعد ذلك يخرج كل رجل وامرأة من الرجل والمرأة معاً (١ كو ١١: ٨).

أندرك شدة الرباط وقوة العلامة؟! كيف أن الله لم يسمح لطبيعة مغايرة أن تتدخل من

^١ To his Wife 1:2.

^٢ Exhort. To Chastity 5.

الخارج. لاحظ كيف امتلأت التدابير من العناية الإلهية؟! فإنه سمح للرجل أن يتزوج أخته، لا ليس أخته بل ابنته، ليس ابنته بل ما هو أكثر من ابنته، إنها جسده! (هنا يشير إلى زواج آدم بحواء).

هكذا خلق الله الكل من بداية واحدة، فيجتمع بعضهم البعض كالحجارة في المبنى في وحدةٍ واحدةٍ.

لم يخلقها من الخارج حتى لا يشعر الرجل أنها غريبة عنه، ولا أوقف الزواج عندها وحدها، حتى لا تقتصر علي نفسها، وتظن أنها مركز الكل (هنا يقصد لا تقدر أن تتجبدون الرجل، وإلا لتسامخت عليه، ولما قامت المحبة بينهما، إنما شعورها بالحاجة إليه للإثمار يجعل من البنين علامة الاتحاد والحب بينهما). ليس هناك شيء يلحم حياتنا مع بعضنا البعض هكذا مثل حب الرجل وزوجته^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنني لا أرفض رباط الزواج، لا بل أسلم به في حب أعظم، لأنني بهذا أشهد معترفًا لزواجتي التي عينها لي الرب وأكرمها، ولا أرفض الارتباط بها برباط الحب في المسيح الذي لا ينفك أبدًا^٢.

الأب ثيودور

هذا الحب الزوجي الذي وهبه الله للإنسان الأول فائق فوق كل حب بشري، ليس غايته مجرد ربط البشريّة معًا، وإنما التمتع بمثال الله نفسه، ليحمل في داخله حركة حب علي مثال خالقه. فإن كانت الكنيسة في تعاملها مع الله لا تراه مجرد فكرة تعتقها، إنما الكائن الحق الأزلي الذي فيه حركة أزلية غير متوقفة. يقول القديس أغسطينوس الأب يحب الابن، والابن محبوب لدي الأب أزليًا، والروح القدس هو روح الشركة أو روح الحب إذ هو روح الأب وروح الابن في نفس الوقت. هو الحب المنسكب من الأب في الابن. الله حركة حب حقيقي أزلي، ننعم به ككائن حق خلال شركتنا معه، فنحمل فينا سمة "الحب" عاملة فينا، هذه التي تتجلى بصورة فائقة في الحياة الأسرية خاصة بين الزوجين.

ربما هذا ما عناه القديس أمبروسيوس في حديثه عن خلق حواء، إذ يرى أن الله وهب آدم أن ينام في سبات عميق ليقوم من جنبه امرأته ويبني الضلع، وكأنه قد أراد له أن

¹ In Eph. Hom 20.

² Cassian: Conf 21: 9.

يستريح (السبات) وسط أتعاب هذه الحياة، ليتطّلع خلال الاتحاد الزوجي إلى مملكة الله^١.
وقد أعلن القديس يوحنا الذهبي الفم في قوة عن الاتحاد الزوجي أنه ليس صورة
لأوضاع بشرية أرضية بل صورة الله ذاته.

هكذا تتطّلع الكنيسة الأولى إلى الحياة الزوجية بنظرة قدسية، فيرى حتى الآباء
الأساقفة الرهبان في الحب الزوجي لا ضرورة تلزمها الحياة البشرية، وإنما إعلانًا عن الله نفسه
وحياته الإلهية، وشهادة عن ملكوته المتجلي في الاتحاد الزوجي.

نستطيع خلال هذا المنظار الروحي العملي أن نكتشف العلة الأولى لحركة الإلحاد
التي تسود العالم، ألا وهي فقدان الحب الزوجي جوهره، فيصعب جدًا أن يقدم العالم للجيل
الجديد شهادة حيّة عن الله في حبه الفائق ما لم يتلمّس هذا الجيل الحب المتبادل الحيّ
خلال الأسرة، خاصة بين الوالدين أي بين الرجل وامرأة.

أذكر علي سبيل المثال في عام ١٩٧١م حين كنت في كنيسة مارمرقس بلوس
أنجلوس أن قرعت فتاة الباب الزجاجي للكنيسة، وكان بصالة الكنيسة قد اجتمع عدد ليس بقليل
من الشباب نعمل معًا في النشرة الشهرية، وباختصار دخلت الفتاة صالة الكنيسة، أخبرتنا أنها
من الشام، وأنها تسكن بجوار الكنيسة، وكانت تسمع اللغة العربية، فاشتاقت أن تتعرّف علينا.
وإذ سألتها عن إيمانها وعلاقتها مع الله، وجدت أنها تتكر وجود الله، فصرت أحدثها عن حب الله
وأبوتها للإنسان، أما هي فبدأت تسأل: وما معنى الأبوة؟ في اختصار إنها لا تعرف في أي
ولاية يسكن والدها ولا أيضًا والدتها المطلقة، وأنها لا تتشغل قط بل ولا تبالي بأمرهما. ترى أن
والداها أنجباها وتركهاها، وقد انقطعت كل علاقة حب أو عاطفة بينها وبينهما إن كانت قد
وُجدت من قبل.

هذا الحرمان من الحب بين الوالدين وبعضهما البعض، وبينهما وبينها قد افسد صورة
الله (الحب) في عينها. إنها لم تذوق الحب ولم تعرفه! وكما قالت أنها تعيش مع الشاب رقم ٥
منذ شهور لكنها لا تشعر باستقرار ولا طمأنينة، إنّما تقضي أيامها في لهو جسدي بلا متعة
صادقة أو سلام في داخل النفس! هذا هو ثمر إفساد الحب الزوجي... حرمان من الحب
الإلهي!

ب - الحب الزوجي... أيقونة السماء

^١ On Paradise 11:50.

لخص كثير من الآباء مثل القديس ايريناؤس والعلامة أوريجينوس والقديس أنثاسيوس الرسولي والقديس غريغوريوس النيسي إيماننا المسيحي في العبارة التالية أو ما يماثلها: صار كلمة الله إنساناً، لكي يصير الإنسان إلهاً. هذا العمل الإلهي يمس حياة الإنسان الشخصية، إذ يرفعه إلى الحياة السماوية الفائقة، لكن ليس منعزلاً عن الجماعة المقدسة، وإنما بكونه عضواً في الأسرة السماوية. إيماننا في جوهره هو قبول الله أباً سماوياً، والكنيسة أما علوية، والابن البكر عريساً روحياً. لهذا يرى الآباء في العلاقات الأسرية، خاصة بين الزوجين، أيقونة ناطقة للعلامة الأسرية السماوية.

إن كانت السماء في جوهرها "شركة حب" و"حياة وحدة في الله مركز السماء"، فإن الحياة الزوجية الحقّة في صميم كيانها هي وحدة حب زوجي، خلالها يصير الاثنان واحداً. بهذا الروح لا يرتبط العروسان معاً خلال الجسد وحده، ولا يقف حيّهما عند حدود الزمن، إنّما ينظران إلى رباطهما معاً أنه أبدي في الرب، يبقى عاملاً فيهما حتى بعد انطلاقهما من الجسد لا علي مستوى الاتحاد الجسدي أو الاستيلانية، إنّما علي مستوى وحدة سماوية والحب الفائق فيه، يرتبط الكل معاً كعروس مقدّسة للعريس الواحد.

لعلّه لهذا السبب لم تسمح الكنيسة بالزواج الثاني (بعد وفاة الطرف الآخر) إلا لأفضليته عن التحرّق (١ كو ٧: ٩). ويقول جون مايندورف أن الكنيسة حتى القرن العاشر لم تكن تبارك الزواج الثاني^١، قاصداً بذلك أن الكاهن لا يضع الأكاليل علي رأسي العروسين مادام أحدهما قد سبق له الزواج. هذا وقد رفضت الكنيسة الزواج الثاني تماماً بالنسبة لرجال الكهنوت.

جاءت قوانين الكنيسة الأولى تضع عقوبات مشدّدة بالحرمان من التمتع بالأسرار المقدّسة لسنوات طويلة لمن يتزوَّج مرة ثانية (بعد وفاة الطرف الثاني) وبالأكثر إن كان الزواج للمرة الثالثة إذ تكاد تحسبه زواج شهوة.

حينما يتحدّث الرسول بولس عن الترمّل يفترض أن الحب الزوجي لا ينحل بالموت، لأن "المحبّة لا تسقط أبداً" (١ كو ١٣: ٨).

يعلق القديس إكليمنضس السكندري على كلمات السيّد المسيح للصّدّوقيين: "لأنهم في القيامة لا يزوّجون ولا يتزوَّجون بل يكونون كملائكة الله في السماء" (مت ٢٢: ٣٠)، بقوله: إلّم

^١ J. Meyendorff: Marriage an Orthodox Perspective, 1970, p. 18.

يحتقر الرب الزواج، وإنما انطلق بأذهانهم للتوقع أنه لا تكون شهوة جسدية في القيامة¹.
لقد أراد الرب أن ينزع عن الصّدّوقيين الماديين هذا الفكر الجسداني المادي من جهة
القيامة. وعلي العكس فإن رفض السيّد المسيح الطلاق إلا لعلّة الزنا، إنّما ليعلن رغبته أن
الحب الزوجي الروحي أبدي لا يحله الموت، بل يحله الزنا لا كتصريح بالزواج الثاني، وإنما
كمأساة حلت بالحب الزوجي وأفسدت طبيعته الفائقة، أي شوهته كأيقونة السماء.
مرة أخرى حين نقول أن الحب الزوجي في جماله السماوي يبقى بلا انحلال حتى ما
بعد الموت، لا نعني بقاء العلاقات الجسدية بين الزوجين، إنّما بقاء الحب الذي يحمل الذي
يحمل طبيعة جديدة يليق بالسماء، خلاله يتسع القلب لممارسة حب سماوي جديد!
إن صح لنا القول إنّنا نحن هنا نتنسم الحب السماوي خلاله أيقونته "الحب الزوجي"
بكونه ظل السماء، أما في الأبدية فننعم بحب فائق يتلح حبنا الزوجي لا بإفنائته وإنما بدخوله
إلى صورة أشمل وأعمق وأكمل!

ج- الحب الزوجي... كنيسة مقدّسة

هذا الحب الزوجي الذي وهبه الله للإنسان ليصير به مثلاً حيّاً لله "الحب السرمدى"،
وصورة حياة للسماء عينها، أفسده الإنسان خلال أنانيته ورغبته في السيطرة والاستيلاء، فصار
الزواج في أعين الكثيرين استيلائية بلا شركة أو عطاء داخلياً. من أجل هذا تقدّم ربنا يسوع
المسيح للإنسان ليصحّ حياته كلها، فقدس سرّ الزواج بنفسه، وأقامه من جديد في كنيسته
بروحه القدّوس الذي يهب الحب ويقّده وينمّيه.
وهكذا في سرّ الزواج يتقدّم السيّد المسيح نفسه ويضم ابناً من أبناء كنيسته وبناتاً لها،
يمد يده العلوية ويسند رأسيهما علي بعضهما البعض ويسير معهما بالفرح والتلهيل، ويدخل بهما
في دائرة الصليب ليتسلّما في الجلجثة سرّ الزواج ويتعلّما أسرارهم، عندما ينظرا الحب الذي أعلنه
العريس السماوي لعروسه، بسفك دمه مهراً لكنيسته، والكنيسة حانية الرأس أمام هذا الحب تتمتع
بدمه... وتتطهّر به وتتقدّس وتبرّر... ولا تريد مفارقتها!

عند الصليب يرى الزوج السيّد المسيح المحب البازل، وترى الزوجة الكنيسة
المتعلّقة بيسوعها... وهناك تقام كنيسته بينهما.

عند الصليب يسمع العريس هذه الوصية "أيها الرجال أحبوا نساءكم، كما أحبّ المسيح

¹ Miscellanes 3:12,87.

أيضًا الكنيسة وسلم نفسه لأجلها لكي يقدسها... كذلك يجب علي الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم. من يحب امرأته يحب نفسه، فإنه لم يبغض أحد جسده قط بل يقويه ويربّيه كما الرب أيضًا للكنيسة، لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه" (أف ٥: ٢٥-٣٠).

في دائرة الصليب يلصق الروح القدس الرجل والمرأة ليكونا كنيسة مقدسة، جسداً واحداً، ينعمان بالروح الواحد والفكر الواحد والرأي الواحد قدر ما يتجاوبان مع عمل الروح فيهما. هذا هو الحب الزوجي الذي لا ينحل!

عند الصليب، يلتقي العريس والعروس معاً في المسيح بالروح القدس، ويتجلى لا في حياتهما الشخصية فحسب، وإنما في تلاقيهما معاً ليحملا الروح الزوجي القدسي فيهما، فتعلن الكنيسة المقدسة في زواجهما ووحدتهما. وكما يقول القديس أغناطيوس النوراني: [حيث يوجد المسيح هناك تكون الكنيسة]. وبنفس الفكر يدعو القديس يوحنا الذهبي الفم البيت المقدس [كنيسة صغيرة^١].

إن كان أول عمل صنعه الله لآدم بعد إقامته في الفردوس هو خلقه حواء زوجة له، فإن أول معجزة صنعها رب المجد يسوع هي تجديد "سر الزواج" بتحويله الماء خمراً في عرس قانا الجليل. لقد حضر العرس بنفسه وتوسلت إليه القديسة العذراء من أجل الأجران التي نضبت وجفت، وكأن البتول تطلب عن المترشحين بسبب ما بلغوه من جفاف في حبهم الزوجي بسبب المفاهيم الخاطئة للزواج. حل السيد المسيح وسط العرس ليجعل منه كنيسة مقدسة، محولاً ماء العاطفة البشرية التي انحرفت إلى خمر روجي يملأ أجران العروسين، فيشربا من كأس حب الله، ويقدمًا خلال حبهما الزوجي في الرب واتحادهما الفائق، خمر حب حقيقي يُروي المدعوين ويرد لهم بهجتهم المفقودة.

إن كان الشر قد أفسد أجراننا (الأجساد) فقد حل الخالق بنفسه، وحول مياهنا الباردة بروحه القدوس إلى خمر مبهج للنفس.

تسرّبت الأنانية والاستيلانية إلى "الحب الزوجي"، فحولته شهوة، وفسد الفكر البشري ونظرته نحو الزواج، لذلك جاء يُقيم من عرسنا كنيسة مقدسة فيه، بتطعيم حبنا بحبه الإلهي... ففي صلاته الوداعية يحدث الأب من أجلنا، قائلاً: "ليكونوا واحداً كما نحن" (يو ١٧: ١١)...

إن كان السيد المسيح أراد أن يقيم كنيسته باجتماعنا معه وفيه، قائلاً: "لأنه حينما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم" (مت ١٨: ٢٠)، فكم بالأكثر حينما

^١ In Eph. Hom 20.

يضم الاثنين بروحه القدّوس ليصيرا بالحب الزوجي واحداً، ليس فقط في الجسد وإنما أيضاً في النفس والفكر كما يقول القدّيس يوحنا الذهبي الفم^١.

نختم حديثنا عن الحب الزوجي كأساس لكنيسة البيت المقدّس فنقول أن علاقة كنيسة البيت بالكنيسة الأم ليست علاقة مؤسسة صغيرة بأخرى أكبر، إنّما هي علاقة العضو بالجسد الكلي، فيها تمارس الحياة الكنيسة ووحدتها وتعلن قدسيّتها في الرب. لهذا عندما تحدّث الرسول بولس عن الزواج قال: "هذا السرّ عظيم، أقول من جهة المسيح والكنيسة" (أف ٥: ٣٢).

بين العقد المدني وسرّ الزواج

إن كنّا نتحدّث عن الزواج كسرّ كنسي يرفع البيت كله إلى مستوى سماوي، فيه يتجلّى السيّد المسيح نفسه كمتّمْ للسرّ، ألا أننا لا نتجاهل الجانب المدني. فالعلامة أثيناغوراس في دفاعه الذي قدّمه للإمبراطور مرقس أوريليوس يقول: لكل واحد منا يعتبر المرأة التي تزوّجها حسب قوانينكم هي له^٢. ويتحدّث القدّيس يوحنا الذهبي الفم عن القانون المدني حين عرفّ الزواج بكونه [ليس إلا التصاق ومصاهرة^٣]. الكنيسة وهي تقبل الزواج كعقد ترفع المؤمن لتحوّل زواجه من عقد إلى حقيقة الملكوت عينه^٤، لهذا يسمّيه الرسول بولس "سرّاً" (أف ٥: ٣٢)، فيه تتحقّق كفاية المؤمن لا من الجانب الزمني وحده وإنما من الجانب السماوي أيضاً.

هذا الفكر المسيحي لم يكن ممكناً للرجل اليهودي إدراكه بالرغم من محاولات العهد القديم الكثيرة لرفع نظر المؤمن إلى العرس القائم بين الله وشعبه لإقامة بيت الزوجيّة "ملكوت الله"، فيه تختبر العروس حب عريسها، الله نفسه، فيكون الله بالنسبة للمؤمن ليس فكرة يعتنقها بل شخصاً يتّحد كما بحبّ زوجي روحي.

^١ In Eph. Hom 20.

^٢ Ch. 33.

^٣ In Gen. 2, hom 26.

^٤ J. Meyendorff: Marriage an Orthodox Perspective, 1970, p. 21.

غاية الزواج

١. التعاون

"قال الرب الإله ليس جيدًا أن يكون آدم وحده، فأصنع له معينًا نظيره" (تك ٢: ١٨). هذا هو الفكر الإلهي تجاه الزواج، أن تقوم الزوجة كعضوٍ حيٍّ فيه، بكونها من لحمه وعظامه، تتعاون مع رأسها.

هذا الرباط المقدس الذي أساسه التعاون المشترك بين الرأس والجسد يحمل صورة مبسطة للعلاقة الأبدية السماوية بين السيد المسيح والكنيسة عروسه، ففي البيت المسيحي الحقيقي يتجلى السيد المسيح فيه، فيلمس كل من العروسين الوحدة السرية بين السيد وكنيسته. يقدر الزوجان أن يتذوقا محبة المسيح عريسهما خلال حب الزوج لزوجته، ويدركا طاعة الكنيسة له خلال طاعة الزوجة لزوجها، ويختبر أباؤهما أبوة الله وأمومة الكنيسة خلال أبوة أبيهم وأمومة أمهم.

في البيت المسيحي الحق يتذوق الكل مفهوم الشركة، شركة القديسين معًا في شخص المسيح. بمعنى آخر أن الحياة الزوجية المقدسة تقدم لكل أعضائها وللغير صورة للعلاقات السماوية الخالدة.

٢. الإنجاب

كان الأمر الإلهي "أنثروا وأكثروا واملأوا الأرض" (تك ١: ٢٨).

يرى القديس أغسطينوس أن الآباء العظماء لم تكن غايتهم في زواجهم إشباع شهوتهم بل إنجاب الأبناء. فالزواج مجرد وسيلة لتحقيق الإنجاب لا لإشباع الشهوات.

❖ فلتنتبهوا يا إخواني، فإن هؤلاء الرجال المشهورين تزوجوا من أجل إنجاب الأبناء فقط وذلك كما قرأنا عمّا فعله البطارقة^١، وقد عرفنا ذلك بشهادة الكتب المقدسة الواضحة القاطعة... يُحفظ جنس البشر بعمليتين جسديتين يخضع لهما الإنسان الحكيم والقديس كأمرين لازمين، أما الجاهل فيندفع فيهما متهورًا منقادًا بشهوته...

^١ البطارقة أي الآباء يقصد إبراهيم واسحق ويعقوب الخ.

١. العملية الأولى تخص تغذيتنا... الأكل والشرب، فإن لم تأكلوا وتشربوا تموتون...
 ب. لكن هذه العملية هي قوت يخص الإنسان ذاته، غير أنه لا يكون له خلف بالأكل
 والشرب بل بزواجه... فيحل حديثو الولادة محل الذين يموتون...
 فبالنظر إلى بقاء جنس البشر بنوع ما، فإن هاتين المعونتين (الطعام والزواج) اللتين
 تحدثتا عنهما بما فيه الكفاية ضروريتان لبقائه. فيخضع لهما الإنسان الحكيم الفاهم المؤمن
 كأمرين لازميين دون أن يغمس فيهما منقاداً بشهوته. لأنه كم من كثيرين يندفعون بشره نحو
 أكلهم وشربهم، ويجعلون منهما كل حياتهم، كأنهم يعيشون لأجلهما. فبينما بالحق يأكل
 البشر ليعيشوا، إذا بهؤلاء يظنون أنهم يعيشون ليأكلوا...
 هكذا بالنسبة لواجب الزواج فإن الشهوانيين يطلبون زوجات لمجرد إشباع شهواتهم،
 لذلك ينذر أن يقتنع هؤلاء حتى بزواجهم...
 لقد كان الرجال القديسون في العصور الأولى... يطلبون ويرغبون في إنجاب الأبناء،
 فكان التقاؤهم ووحدهم بزواجهم من أجل هذا الهدف الواحد^١.

القديس أغسطينوس

والجميل في طقس "سر الزواج" يقرأ بدء إنجيل معلّمنا يوحنا في عقد الأملاك معلّناً
 عن الله الكلمة: "كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان"، فالله الكلمة هو الخالق
 للبنين وواهبهم للعروسين كعطية إلهية. خلال الإيمان يعطيهم "سلطاناً أن يصيروا أولاد
 الله... الذين ليس هم من هوى لحم ولا من مشيئة رجل لكن وُلدوا من الله".
 فمهمة العروسين أن يقبلا من الله البنين كعطية إلهية، وليس كأولاد حسب الجسد، وإن
 يتقدّسا في الرب، حتى يهبهما الرب أبناءهما كأبناء له...

٣. الحفظ من التحرق

لا نستطيع القول أن غاية الزواج تحقيق شهوات الإنسان أو إرضائها أو مجرد حفظه
 من التحرق، فهذا جانب لا يغفله الرسول عندما يقول أن الزواج أفضل من التحرق، لكنه ليس
 غاية الزواج.

وأنا نجد القديس أغسطينوس في أكثر من موضع يطالب المتزوجين التمييز بين
 الحب الزوجي والشهوة بين الزوجين، حاثاً إياهما أن ترتفع نظرة كل منهما إلى الحب الزوجي

^١ Serm. On N.T. 1:23-25.

الذي هو أبدي وثابت.

حقاً جيد للإنسان ألا يقترب إلى زوجته (أو العكس) إن استطاع الاثنان وبموافقة، لكن يليق به ألا تقف نظرتَه للزواج عند هذا الحد، فإنه يستحيل أن يقبل طرفٌ ما أن يكون مجرد موضوع شهوة الآخر... إنما تأتي العلاقة الجسدية بينهما كثمرة من ثمار الحب الداخلي والتجاوب، وليس كغاية يسعى إليها ويطلبها ويقف عندها.

❖ وبالرغم من أنه من المخجل أن يرغب في استخدام الزواج بقصد الشهوة، لكنه أمر مكرّم ألا يرغب الشخص في تكوين علاقة ألا مع زوجته^١.

❖ آه أريد لو كان كل أولئك الذين لا يستطيعون معالجة شهواتهم أو سوف لا يعالجونها ألا يتعدّوا تلك الحدود التي فرضها الواجب الزوجي، أقصد بذلك حتى تلك التي وهبت للضعفاء^٢.

القديس أغسطينوس

❖ الأشخاص المتزوجون، مدين كل منهما للآخر، ليس فقط من جهة العلاقة الجنسية من أجل إنجاب الأطفال... بل بطريق ما أن يشتركا لمساندة أحدهما ضعف الآخر، حتى يتمتع عن العلاقات غير الشرعية. فمع أن ضبط النفس الدائم مبهج لكن لا يتمتع الإنسان من أجل إرضاء الآخر.

لأنه هكذا "ليس للمرأة سلطان علي جسدها بل للرجل". وبنفس الكيفية "ليس للرجل سلطان علي جسده بل للمرأة" (١ كو ٧: ٤)، حتى أنه لا يطلب الزواج فقط من أجل إنجاب الأبناء بل بسبب الضعف لعدم ضبط الإنسان نفسه.

ولا يجوز لأي من الطرفين أن يسلب الآخر حقه حتى لا يسقط في إغراء دنسٍ خلال تجربة الشيطان بسبب عدم ضبط أحد الطرفين نفسه أو كلاهما. إن كان ضبط النفس ذا استحقاق عظيم، لكن ليس في تقديم الواجب الزوجي جريمة...

❖ زينة الزواج عفة الإنجاب (أي تكون العلاقات لمجرد الأبناء) مع الإيمان بالسيطرة علي الجسد، هذا هو عمل الزواج.

¹ The Good of Marriage 5.

² Ser. On N.T. 1:24.

❖ أجساد المتزوجين مقدّسة مادامت أمانة كل طرف للآخر والله^١.

القديس أغسطينوس

^١ The Good of Marriage 6,12,13

كيف يختار الإنسان شريك حياته؟

أهمية اختيار الزوجة

تحدث القديس إيرونيموس^١ عن أهمية اختيار الزوجة مستشهداً بأقوال الحكيم سليمان صاحب الخبرة بوحى الله، إذ يقول: "لأنه بسبب المرأة الغبية والجسورة يفتقر المرء إلى الخبز" (راجع أم ٦: ٢٦). إنه بالتأكيد يفتقر للخبز النازل من السماء! يقول أيضاً: "السكنى في أرض برية خير من امرأة مخاصمة حردة (في بيت واسع)" (أم ٢١: ١٩).

"السكنى في زاوية السطح خير من امرأة مخاصمة وبيت مشترك" (أم ٢١: ٩؛ ٢٥: ٢٤).

"الوكف المتتابع في يوم ممطر يجعل الرجل يترك بيته، هكذا المرأة المخاصمة تطرد زوجها من بيته" (راجع أم ٢٧: ١٥). إنها تغمر بيته بالنكد المستمر والقليل والقال اليومي، وتطرده من بيته، أي من الكنيسة.

لقد خرج القديس إيرونيموس بهذه النتيجة الخطيرة أن الزوجة غير الصالحة تحرم رجلها من الخبز النازل من السماء، أي من السيد المسيح، وتطرده من بيته أي الكنيسة!

كيف يختار الإنسان شريك حياته؟

تستخدم أكثر من وسيلة في اختيار الشاب شريك حياته أو الشابة شريك حياتها. أولاً: يضع البعض قائمة بالشروط التي يتطلبها في الطرف الآخر، فيطلب فيه كل الجمال وكل القداسة وكل العفة متعلماً غنياً لبناً اجتماعياً ومنتدياً، ناظرًا إلى نفسه كأنه كلى الكمال لا يوجد من يستحقه شريكاً معه!

هذا الفكر يحمل أنانية الإنسان الذي يتوقع حول ذاته كمركز للعالم، طالباً سعادة نفسه وحده. مثل هذا لا يستطيع أن يسعد بشريك حياته ما لم يتعلم أولاً أن يتخلى عن ذاتيته خلال الصليب ويتمتع بالروح القدس بالتوبة عن كبرياء قلبه باحثاً عن إنسانٍ يشاركه توبته

^١ Adv. Jovinianus 1:28.

وجهاده في الرب.

حقًا أنه يليق بالإنسان أن يبحث عن من يعينه في كل شيء، طالبًا إنسانًا في نظره يحوز إعجابه وتقديره وحبّه، لكنه لا يتطلب الكمال.

ثانيًا: فريق آخر في سن المراهقة المبكرة يستلطف شخصًا من الجنس الآخر،
فسرعان من يظن أنه قد وجد الشخص الوحيد الذي يصلح أن يكون شريكًا له.
يراه فريدًا في جماله ورقته وعذوبته ولطفه وتعقله ونبله وربما تدنّيه، وإن كان الطرف الآخر يتّسم بشروط واضحة يعجب به من أجل صراحته وخبرته.
إنه تهوّر يلهب المرء مشاعر الاستلطف الداخلية، ويثير عواطفه الدفينة تحت ستار الرغبة الأكيدة في الزواج. لهذا نجد في كل ندوة تقام لشباب الثانوي أو الجامعة عن "الحب" كثيرون يثيرون هذا السؤال:

هل ارتباط الطالب بطالبة في علاقة عفيفة علي ذمة الزواج حرام؟

والإجابة علي هذا التساؤل هي:

- أ. المؤمن المسيحي يسلم حياته للسيد المسيح، فلا يليق به الاهتمام بالغد، يكفيه أن يكون أمينًا في عمل اليوم.
- ب. الزواج كسر مقدّس يليق أن يقوم في النور علانيّة أمام الكنيسة وعائليّ الشاب والشابة، ومن يسير في الظلمة يخطئ!
- ج. يظن المرء أن ذلك صونًا لعفته، ولا يدري أنه بهذا يسقط في عواطف المراهقة بغير إعلاء ولا تهذيب لها خلال نعمة الله والجهاد.
- د. يخشى البعض من أن يُخطب الطرف الآخر فيُحرم منه... وهذا محك الإيمان أن يتقبّل الزوجة من يد الرب حسب تدبيره.
- هـ. يبرّر البعض رغبته في التعرّف علي الطرف الآخر. والكنيسة لا تحرم أبناءها من التعرّف علي شركاء حياتهم. لكن هل يقدر الشاب المنشغل بدارسته أن يتعرف على قلب فتاه تستلطفه وتسايره مشاعره لإشباع عواطفها؟! من يقدر أن يعرف أعماق قلب الآخر؟! وأخيرًا فإننا نستطيع أن نتلمّس خطورة هذا التسرع خلال تفهمنا للطريق الإيماني في اختيار شريك الحياة.

الطريق الإيماني في اختيار شريك الحياة

١. يدرك المؤمن الحقيقي محبة الله ضابط الكل له، ويثق في قدرته علي اختيار شريكة حياته له، بل يتوق الله أن يقدم لكل مرءٍ معيناً له لتقوم كنيسة صغيرة جديدة هي امتداد للكنيسة الواحدة الأم.

لهذا يبدأ طريق الاختيار من مخدع الصلاة. وقد قدم لنا إبراهيم أب الآباء نموذجاً حياً لفاعلية الصلاة في هذا الشأن، إذ قال للعبد كبير بيته "الرب إله السماء... هو يرسل ملاكه أمامك، فتأخذ زوجة لابني من هناك" (تك ٢٤: ٧)، وقد سار كبير البيت بروح سيده فصلّى قبل الاختيار، وقدم صلاة شكر بعد ما أنجح الرب طريقه (تك ٢٤).

خلال الصلاة يتقبل الإنسان شريك حياته من يد الله، وبالصلاة تسير كل شئون البيت في المستقبل حسب إرادة الله الصالحة، إذ يكون السيد المسيح مركزه.

٢. يليق بالشباب والشابة أن يستشيرا والديهما ويأخذا بركتهما، فاسحق قبل مشورة إبراهيم، ويعقوب أطاع وصية أبيه، ونجح كلاهما ببركة الوالدين.

وقد أمرت القوانين الكنيسة أن يأخذ الأبناء رضا والديهم أو أولياء أمورهم في الزوجات اللاتي يريدون الاقتران بهن^١.

ولا يقف الأمر عند أخذ بركة الوالدين الجسديين، بل وبركة الكنيسة أيضاً، كأمٍ روحية.

❖ يجب علي المتزوجين والمتزوجات أن يجروا اتحادهم برأي الأسقف، لكي يكون الزواج مطابقاً لإرادة الله لا بحسب الشهوة^٢.

القديس أغناطيوس النوراني

❖ كيف يمكننا أن نعبر عن سعادة الزيجة التي تعدها الكنيسة، ويثبتها القربان وتختتمها البركة؟!^٣

العلامة تريليان

❖ (في حديثه عن حفلات الزواج الماجنة التي تدنس النفس)

قل لي لماذا تسمح من بادئ الأمر أن تمتلئ آذان ابنتك من الشوائب بالأناشيد القبيحة، وبذلك الاحتفال الذي لا محل له؟!

^١ باسيليوس، ق ٤٠، ٤١.

^٢ Ad Polyc. 5.

^٣ To his Wife 2:9.

لماذا تهتك أسرار الزوجية الموقرة؟!^١

فإنه ينبغي أن ترفض كل هذه، وتعلم ابنتك الحياء منذ البدء، وتدعو الكهنة وتعدّد اتحاد الأزواج بالصلوات والبركات، لكي ينمو شوق العريس وتزداد عفة العروس، ويدخل عمل الفضيلة في بيتهما بكل وجه^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

إن كنا كشباب نلتزم أن نأخذ بركة الأبوين الجسديين والأبوين الروحيين "الله والكنيسة"، لكن قدّم لنا أهل رفقة مثلاً جميلاً، إذ قالوا: "ندعو الفتاة ونسألها شفاهاً، فدعوا رفقة وقالوا لها: هل تذهبين مع هذا الرجل؟" وفي صراحة كاملة أجابت "أذهب" (تك ٢٤: ٥٨).

٣. يلزم طالب الزواج أن يتطلّع إلى الجانب الإيماني في الطرف الآخر، فيختار إنساناً مؤمناً سالماً في طريق الرب بالتوبة. لا يكفي أن يكون الطرف الآخر "مسيحياً"، ولا يهم أن يكون ماضيه مملوء بالشر، إنّما يلزم أن يكون إنساناً مسيحياً تائباً، حتى يعيش البيت كله بفكرٍ واحدٍ ورأيٍ واحدٍ هو فكر المسيح المصلوب.

قد يسأل إنسان: هل يمكن للمؤمن أن يتزوج بغير المؤمن؟ فيجيب القديس إيرونيموس قائلاً:

❖ في أيامنا الحاضرة كثير من النساء يحتقرن وصايا الرسول، مرتبطات بأزواج وثنيين مدنسين هيكل المسيح بالأوثان. أئهن لا يفهم أنهن أعضاء جسده مع أنهن في الحقيقة هن من ضلعه.

إن الرسول يتساهل في الوحدة مع غير المؤمنين بالنسبة للذين قبلوا المسيحية فيما بعد (أي بعد زواج غير المؤمنين يقبل أحدهما المسيحية فلا يفك رباط الزوجية الأولى مادام الطرف الثاني يقبل البقاء معه رغم إيمانه بالمسيح). إنه لا يتحدّث عن نساء وهن مسيحيات يتزوجن برجال وثنيين.

عن هؤلاء يقول في موضع آخر: "لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين لأنه أي خطئه للبر والإثم؟! وأي شركة للنور مع الظلمة؟! وأي اتفاق للمسيح مع بليعال؟! وأي

^١ In Gen 48:6.

نصيب للمؤمن مع غير المؤمن؟! وأي موافقة لهيكل الله مع الأوثان؟! فإنا نحن هيكل الله" (١ كو ٦: ١٤، ١٦ الخ).

وإن كنت تريد أن تعرف بأكثر وضوح كيف أنه لا يجوز قط للمرأة المسيحية أن تتزوج أمميًا، تأمل قول نفس الرسول: "المرأة مرتبطة مادام رجلها حيًا، ولكن إن مات رجلها فهي حرة لكي تتزوج بمن تريد في الرب فقط" (١ كو ٧: ٣٩)، أي أن يكون مسيحيًا. ذاك الذي يسمح أن يتزوج بالثانية أو الثالثة (بعد وفاة السابقات) علي أن تكون "في الرب" فإنه يمنع زواج الأولى مع أممي.

إبراهيم نفسه جعل خادمه يحلف علي فخده، أي علي المسيح الذي يأتي من نسله، ألا يحضر امرأة غريبة زوجة لابنه اسحق...

وملاخي النبي يقول: "غدر يهوذا وعمل الرجس... لأن يهوذا قد نجس قدس الرب الذي أحبه وتزوج بنت إله غريب. يقطع الرب الرجل الذي يفعل هذا..." (مل ٢: ١١-١٢)¹.

القديس إيرونيموس

❖ إذا كان لابد من أن يعقد الزواج بخلة كهنوتية وبركة، فكيف يمكن أن يكون زواج حيث الإيمان مختلف؟!²

القديس أمبروسيوس

❖ الزواج عطية روحية، ولكن لا تكون هكذا إن تمت مع غير المؤمنين. لا يُعطى روح الله ليسكن في هؤلاء الذين هم غير مؤمنين³.

❖ الزوج والزوجة هما واحد كما أن الخمر والماء هما واحد عند امتزاجهما معًا. كما أن الشريك غير المؤمن يفسد المؤمن. لهذا السبب فإن الذي لم يتزوج بعد يلزمه بكل حرص إما أنه لا يتزوج نهائيًا أو يتزوج في الرب⁴.

العلامة أوريجينوس

المؤمن بالمصلوب يدرك ملكيته الكاملة للمسيح إذ يرى كل عضو من أعضائه هو

¹ Adv. Jovinianus 1:10.

² Ep. To Wegelius 19, 23:7.

³ Commentary on 1 Cor. 3:34:42-45.

⁴ Commentary on 1 Cor. 3:36:2-5..

للمسيح، فكيف يتّحد بجسد لم يتقدّس للمسيح؟!

المؤمن يدرك أن الصليب هو محور حياته. إذ هو قوّة الله للخلاص، فكيف يرتبط
بآخر لا يقبل الصليب، بل يرى فيه جهالة؟! وما موقف الأبناء؟!

لقد حرصت الكنيسة ألا يرتبط أبنائها بغير المؤمنين حتى إن طلبوا الإيمان
المسيحي، إن كان الإيمان ليس من أجل الإيمان ذاته بل بقصد الزواج^١، لأن من يشتري
المسيح بزوجة يحبّها يبيعه بأخرى!

٤. في إيمان المرء بعمل الله لا يعني عدم تدبير الأمر أو التفكير فيه برويّة وتعقل،
إنّما يليق به عدم التسرع وبغير قلق في نفس الوقت.

أ. لا ينشغل الإنسان ذهنه كلّ بالجمال، لكن يلزم أن يتزوَّج بمن تستريح لها نفسه
برضا ومحبة.

ب. هذا العصر وإن اتسم بمحاولة كل جنس محاكاة الجنس الآخر، لكننا نجد الفتاة
لا تطلب زوجًا فيه أنوثة، ولا الفتى يقبل زوجة مسترجلة.

ج. وإن أعجب الفتى بالمظهر الخارجي لكثير من الفتيات، لكن حتى غير المتديّنين
عند اختيارهم للزوجة يطلبون الجمال الخفي للنفس.

د. الزواج ليس عقدًا، فيه يساوم الطرفان أحدهما الآخر، بل حب فيه يبذل كل
منهما لأجل الآخر. وقد وبّخ القديس يوحنا الذهبي الفم الذين يطلبون الزواج من الفتيات
لأجل غناهن فقال:

❖ من هو هذا الذي وهو علي أبواب الزواج... يتّجه للمال والممتلكات والمقتنيات من أنواع
متعدّدة كما لو كان يقوم بشراء شيء ما أو يبرم عقدًا عامًا؟! لهذا يسمّون الزواج "عقدًا"، إذ
أسمع كثيرين يقولون فلأن عقد علي فلانة، أي تزوّجها. وهم بهذا يهينون عطايا الله كما لو
كانوا يشترون ويبيعون!^٢

❖ حتى وإن كنّا غير فاضلين يلزمنا في تدبيرنا أن نطلب رفقاء فاضلين – سواء زوجة أو ابن
أو صديق – حتى نقتني لنا خلالهم صلاحًا، فنحصل علي نفعٍ قليلٍ، لكنه علي أي الأحوال
هو نفع.

^١ راجع القديس كيرلس الأورشليمي: المقال الافتتاحي.

^٢ In Matt., Hom 73.

إن جعلت هدفك الرئيسي ليس أن تتزوج إنسانة غنية، بل تكون لك زوجة ورعة وابنة متدينة تنال تعزية...

إن طلبت أن يكون لك ابن ليس غنيًا بل ورعًا، فستكسب هذه التعزية.
إن وضعت لك أهدافًا كهذه فستكون أنت (تقيًا) مثلهم^١.

❖ ليس هناك شيء أضمن، ولا يمكن أن يوجد شيء أضمن من أن يُحِبَّ الإنسان من زوجته ويحبّها!

يقول الكتاب: "زوجة تتفق مع رجلها" (كإحدى البركات الثلاث التي ذكرها الحكيم (ابن سيراخ ٢٥: ١)، لأنه حيث يوجد هذا (الحب) يوجد الغنى ويفيض الرخاء، وحيث ينعدم هذا لا يفيد أي شيء آخر، بل تسير كل الأمور في طريق خاطئ، وتصبح الحياة بؤسًا وقلقًا.

لنبتنا نطلب هذا قبل كل شيء!

من يطلب المال لا يطلب شيئًا. لنطلب ما يدوم!

لا تطلب الزوجة من بين الأغنياء، لئلا زيادة الغنى من جانبها يسبب عجرفة.

يليق بنا ألا نطلب الزوجة من أجل ثروتها، بل نطلبها شريكة لنا في الحياة من أجل التدبير لتكون معينة من أجل إنجاب الأبناء.

لقد أعطى الله المرأة لا لتجلب مالاً بل لتكون معينة!^٢

القديس يوحنا ذهبي الفم

ماذا إن أنكر أحد الإيمان؟

رأينا أنه لا يجوز للمؤمن (أو المؤمنة) أن يختار شريك حياته من غير المؤمنين، حتى إن قبل الآخر الإيمان حبًا فيه، فما هو موقف الذي قبل الإيمان بعد زواجه حيث كان الطرفان غير مؤمنين عند زواجهما؟ هل يفارق الطرف الآخر بسبب عدم إيمانه؟ وما هو الموقف إن تزوج مؤمنان، ثم أنكر أحدهما الإيمان؟

إن قبل أحد الزوجين الإيمان المسيحي، وقبل الطرف الثاني، وهو غير مسيحي، أن يبقى معه فلا يمتنع الأول. لأن غير المؤمن مقدس في المؤمن، وإلا يُحسب

^١ In Acts, Hom 22.

^٢ In Acts, Hom 40.

الأولاد نجسين. هذا لا يعني التصريح للمسيحي بالزواج بغير المؤمنة، إنما يتحدث عن كانا متزوجين قبل قبول أحدهما الإيمان بالمسيح. يقول الرسول بولس: "ولكن أن فارق غير المؤمن فليفارق، ليس الأخ أو الأخت مستعبداً في مثل هذه الأحوال، ولكن الله قد دعانا في السلام (١ كو ٧: ١٥).

❖ لا يكون الشريك المؤمن هو سبب الطلاق. ولكن إن أراد الشريك غير المؤمن أن ينفصل يكون الشريك المؤمن بريئاً وليس عليه اتهام^١.

ثيودورت أسقف قورش

❖ لا يعنى بولس أن المرأة ملتزمة أن تتزوج غير مؤمن، وإنما هي ملتزمة أن تبقى معه ما دامت كانت أصلاً متزوجة (قبل قبولها الإيمان)^٢.

سيفريان أسقف جبالة

❖ واضح أن المرأة التي ترتبط بعابد وثني هي معه جسد واحد. حسناً! هما جسد واحد، ومع ذلك لا تصير دنسة، بل طهارة الزوجة تغلب دنس الزوج. مرة أخرى فإن طهارة الزوج المؤمن تغلب دنس الزوجة غير المؤمنة. كيف إذن في هذه الحالة الدنس يُغلب ويسمح بالعلاقة بينهما، بينما في حالة المرأة الزانية لا يُدان الرجل عندما يفارقها؟ لأنه هنا يوجد رجاء أن العضو الضائع قد يخلص خلال الزواج، أما في الحالة الأخرى فالزواج قد انحلّ فعلاً وكلاهما قد فسد، أما هنا فالخطأ من جانب واحد لا من جانب الاثنين...

لكن الأمر هنا ليس بخصوص شخصين لم يجتمعا بعد (الزواج) بل بخصوص الذين ارتبطوا فعلاً به. إنه لم يقل إن أراد أحد أن يأخذ له زوجة غير مؤمنة، بل قال: "إن كان أخ له امرأة غير مؤمنة" [١٢]... ماذا إذن هل اليوناني (الأممي غير المؤمن) مقدس؟ بالتأكيد لا، إذ لم يقل أنه مقدس بل قال أنه "مقدس في زوجته"، قال هذا لا ليعني أنه مقدس (في ذاته)، وإنما لكي يخلص المرأة تماماً قدر المستطاع من مخاوفها ويقود الرجل لكي يرغب في الحق^٣.

القديس يوحنا الذهبي الفم

¹ PG 82:278.

² Pauline Commentary from the Greek Church.

³ In 1 Corinth., hom. 19:4.

❖ الحكمة من وصية الرسول هو أن عدم تركها قد يترك لها فرصة للإيمان. فيقول: "لأن الرجل غير المؤمن مقدس في المرأة، والمرأة غير المؤمنة مقدسة في الرجل" (١ كو ١٤:٧).

أظن أن بعض النساء صرن مؤمنات بواسطة أزواجهن المؤمنين كما صار بعض الرجال مؤمنين بواسطة زوجاتهم المؤمنات.

لم يؤيد الرسول نصيحته بذكر أسماء بل بأمتة قائلاً "وإلا فأولادكم نجسون. وأما الآن فهم مقدسون". لأن أولادكم الآن مسيحيون، هؤلاء الذين تقدسوا بسبب إيمان أحد الوالدين أو كليهما معاً. وقداسة هؤلاء الأولاد لم تكن تحدث لو انهار الزواج بإيمان أحد الزوجين (أي ترك الطرف الآخر لعدم إيمانه) ولكن المؤمن احتمل غير المؤمن تاركاً له مجالاً للإيمان. واحتمال الضعفاء هذا من مشورة الرب إذ يقول: "ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعي أوفيك" (لو ١٠:٣٥).^١

❖ الزوج المسيحي يمكنه أن يترك زوجته دون لوم عليه حتى إن كانا قد تزوجا قانونياً ما دامت ترفض الزوجة أن تعيش معه **لأنه مسيحي**.^٢

القديس أغسطينوس

❖ الزواج الذي يُعقد بدون صلوات لله غير ملزم، لهذا لا يُحسب خطية إن انحل من أجل الله. أما الشريك غير المؤمن فهو يخطئ ضد الله وضد الزواج، لأنه هو أو هي لا يرغب أن يعيش في زواج مقدس لله. ليس له حق أن يذهب إلى المحكمة لأجل هذا، لأن من يترك الزواج يفعل هذا بسبب كراهيته لله، ولهذا فإنه أو إنها لا يُحسب أهلاً للاستماع إليه.^٣

❖ يقول بولس هذا عن حالة اثنتين أمميين، أحدهما صار مؤمناً. عادة الوثني يكره المسيحية، والمسيحي لا يريد أن يتأثر بالوثنية، ولهذا يقول بولس إن كان الاثنان سعيدان في عيشتهما معاً يلزم أن يستمرا.^٤

أمبروسياستر

¹ Sermon on the Mount 1:16:45.

² Questions of Dulcitus, 1.

³ CSEL 81:76-77.

⁴ CSEL 81:75-76.

الخطبة والحب الزوجي

الخطبة في المسيحية

الرباط الزوجي بين العريس وعروسه رباط لا ينفك، لهذا ألزمت الكنيسة أولادها ألا يتسرّعوا في اختيار شريك الحياة.

فالخطبة في المسيحية لها أهميتها القصوى بكونها عمل يحمل جدية الإنسان في زواجه من فتاة مؤمنة بقدر ما، وفرصة للتعرف بصورة أقوى حتى متى انتهت بالزواج لا يجوز بعد انحلاله.

وتسمى الخطبة "جى بنيوت" أي (أبانا)، إذ تفتح بالصلاة الربانية وتُختَم بها، وفيها يسلم الطرفان الأمر لإرادة أبيهما السماوي.

في الخطبة تقوم الكنيسة بمباركة الاتفاق الذي صار بين الخطيبين خلال الصلاة وكلمة الله، كعربون للاتصال الروحي والاقتران المقدس الذي يجعلهما جسداً واحداً.

في الخطبة يرفع الكاهن أنظار الخطيبين والحاضرين معهما إلى الخطبة السماوية، حيث تقدّم إلينا العريس السماوي، مقدّمًا لنا مواهب الروح القدس كحليّ لزيّنة النفس وتجميلها، منعمًا علينا بحفلٍ سرّيٍّ مقدّسٍ، إذ يقول:

"أيها السيد الحقيقي كلمة الله الأزلي، يا من خطب النوع الإنساني للفرح الأبدي بتجسّده المنيف، عاقداً أملاك الأنفس المؤمنة، بسرّ صليبه الميمون، ومظهرًا إياها بحميم الميلاد الثاني المصون، واهبًا لها حلي مواهب الروح القدس، ومنعمًا عليها بمائدة الحياة وكأس الخلاص السريّ الأنفس الخ".

الكنيسة في كل عمل تقوم برفع أنظار أولادها إلى الصليب وفاعليته فينا. فتجعل من المسيح المصلوب محورًا للخطبة، إذ تذكرنا بما سبق أن وعدنا به على لسان الأنبياء: "ويكون في ذلك اليوم يقول الرب إنك تدعيني رجلي... وأخطبك لنفسي إلى الأبد، وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم، وأخطبك لنفسي بالأمانة، فتعرفين الرب" (هو ٢: ١٦، ١٩، ٢٠).

عمل السيد المسيح "الخاطب للبشرية" أن يقدّمها لنفسه عروسًا في يوم الفرح الأبدي، متكلّفًا في ذلك تجسده، دافعًا دمه الثمين مهرًا لها، مقدّمًا لها جسده ودمه عربونًا عن المحبة

والمجد الأبدي.

خلال هذا المفهوم يدرك الخطيبان أن فترة الخطبة ليست امتحاناً يتجسس كل منهما علي أخيه، يلتقط له الأخطاء والهفوات، إنما هي بالأكثر فترة استعداد يتفهم فيها كل منهما كيف يرضي الآخر.

حقاً إن الكنيسة لا تلزم الخطيبين بإتمام عقد الزواج إن شعر أحدهما بعدم رضا من جهة الآخر، لكن ليست هذه غاية فترة الخطبة.

خاتم الخطبة

تقول العروس للسيد المسيح: "اجعلني كخاتمٍ علي قلبك، كخاتمٍ علي ساعدك، لأن المحبة قوية كالموت" (نش ٨: ٦). ويقول الرب عن زربابل، "أجعلك كخاتمٍ لأنني قد اخترتك يقول رب الجنود" (حج ٢: ٢٣).

فخاتم الخطبة يشير إلى قوة المحبة التي تربط بين الخطيبين، والرضا التام في اختيار كل منهما للآخر، وقبول كل منهما الخضوع للآخر.

❖ ينبغي للعريس أن يعطي عروسه خاتماً من ذهب، لا لكي تقتخر به، بل لكي تختم به الأمور المنزلية التي تسلم إليها.

لا يرمز خاتم العرس إلى الأمانة الزوجية فقط، بل ويشير أيضاً إلى الحقوق الخاصة بالزوجة التي هي ربة البيت وأم العائلة. ويدل أيضاً علي الكرامة التي نالتها المرأة لدي رجلها، كما يقول الكتاب لما مُدح زربابل، إذ شَبَّهه بخاتم في اليد اليميني^١.

القديس إكليمنضس السكندري

مدي العلاقة بين الخطيبين

الخطبة ليست زواجاً، وإنما هي مجرد وعد. مهما بلغت أمانة الطرفين فإنها تتعرض للفسخ لسبب أو آخر، لهذا يليق بالخطيبين:

أولاً: أن يعرف كل منهما أنهما لازالا جسدين وليسا جسداً واحداً، فلا يتسلط أحدهما علي جسد الآخر، بل يحافظ كل منهما علي طهارة جسد الآخر كما علي طهارة جسده. إذ يليق بكل منهما أن تسموا نظرتة للآخر فوق الانفعالات والعواطف إلى الحب الحقيقي والتقدير

^١ القمص صليب سوريال: طقوس الأسرار ٣: ٦١.

والاحترام.

ثانيًا: الاعتدال في علاقتهما مع بعضهما البعض. فللخطيب الحق أن يصطحب مخطوبته، ويتعرّف كل منهما علي الآخر.

ثالثًا: في فترة الخطبة يكشف كل من الطرفين محبّته العفيفة تجاه الآخر في وقارٍ وترقٍ.

رابعًا: في فترة الخطبة يتعارف الخطيبان علي أفكارهما ونيّاتهما وآرائهما وطريقة حياتهما. وتُعتبر هذه الفترة من أجمل الفترات التي فيها يمكن لأي الطرفين أن يصطاد الآخر في شبكة المسيح بحكمة ومحبة، بغير إلحاحٍ ولا إلزامٍ ولا تسرعٍ. إذ كثيرون انطلّقت حياتهم في العبادة بصورة قويّة بتشجيع الخاطب أو المخطوبة، وكثيرًا ما يدفع الاثنان بعضهما البعض للنمو الروحي.

خامسًا: فترة الخطبة ليست فترة لتهيئة المنزل من جهة الأثاث، الأمر الذي كثيرًا ما يدفع الاثنين إلى المشاحنات والخلافات، فتنتهي الخطبة إما بالفسخ أو إتمام الزواج بنفسين محطمتين من جهة بعضهما البعض، وإنما هي فترة لتهيئة السلام الحقيقي والكنيسة الصغيرة المتوقعة. لذلك يصلي الكاهن قائلًا:

[احفظهما من كل حسد وغائلة.

هب لهما محبة سليمة متبادلة...]

امنحهما حياة هنيئة محفوفة بالكمال، احفظهما ناهجين منهج طاعتك، وارعهما بحراسة عنايتك، واجعلهما كغُرسين مرتبطتين بأصول الإيمان والفضائل، مصونين من شوائب الخلاف والرزائل، مباركين ببركاتك...]

سادسًا: فترة الخطبة من أخرج الفترات في حياة الشباب. لهذا يلزم أن يكون الخطيبين علي اتصال دائم بالكنيسة خلال أب اعتراف مرشد لهما في سلوكهما وتدابيرهما.

الحب الزوجي في حياة الزوجين

يدرك المؤمن الحقيقي أن بيت الزوجية كنيسة له قدسيته، تقوم الوحدة فيه لا علي مجرد روابط بشرية أو التزام يتعهدان به، إنما خلال عمل الروح القدس واهب المحبة، إذ يهب الزوجين من روح المسيح المحب. لهذا قبلما تحدث الرسول عن العلاقة بين الزوجين وضع مبدأ عامًا للحياة كلها إذ قال: "فكونوا متمثلين بالله كأولاد أحبباء، واسلكوا في المحبة، كما أحبنا المسيح أيضًا وسلم نفسه لأجلنا قربانًا وذبيحة لله رائحة طيبة" (أف ٥: ١). هذا هو أساس العلاقة القائمة بين الزوجين أن يتمثلوا بالله كأولاد لله سالكين بالحب الذي أحبنا به الرب.

أولاً: محبة الطرف الثاني رغم ضعفاته

عندما رفع الرسول أنظار الرجال إلى المسيح في محبته للكنيسة قال: "لكي يقدسها مطهرًا بإياها بغسل الماء بالكلمة، لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة، لا دنس فيها ولا غضن أو شي من مثل ذلك، بل تكون مقدسة وبلا عيب" (أف ٥: ٢٦).

الحب الزوجي ليس مجرد انفعالات عاطفية، ولا إعجاب مجرد، لكنه عمل إيجابي باذل وهادف ينبع من أعماق القلب وتترجمه التصرفات الظاهرة في أمانة بلا رياء أو مداينة. إنه يقدس ويمجد بالرغم من الضعفات.

لقد أشرق الرب علي عروسه ليسندها في غربتها حتى تتشدد وتعبّر إلى يوم إكليلها الأبدى، حيث تكون علي مثال عريسها. وقد رآها الحكيم هكذا فتהלّ قائلاً: "من هذه الطالعة من البرية، مستندة علي حبيبها، مشرقة مثل الصباح، جميلة كالقمر، طاهرة كالشمس، مرهبة كجيش بألوية" (نش ٨: ٥، ٦، ١٠).

لقد قدّم القديس يوسف خطيب القديسة مريم مثلاً رائعاً للحب الحقيقي الذي يربط الخطيبين أو الزوجين، فإنه إذ رأى بعينه علامات الحمل واضحة علي خطيبته التي لم يمسه، في محبة لم يشأ أن يشهر بها (مت ١: ١٩).

الرجل مسيح البيت، مهمته مستمدة من عمل سيده ربنا يسوع، به يتوق دومًا إلى ستر ضعفات عروسه، مشتهياً تقديسها بالدم الذي بذله عريس الكل.

وما أقوله بخصوص الرجل ينطبق أيضًا علي المرأة التي تمثل الكنيسة المترفة بالكل. رسالتها الأولى الشهادة لمسيحها بروح الوداعة لا أمام الآخرين فحسب، وإنما بالأكثر أمام رجلها، وكما يقول القديس بطرس: "إن كان البعض لا يطيعون الكلمة يُريحون بسيرة النساء بدون كلمة، ملاحظين سيرتكَن الطاهرة بخوف" (١ بط ٣: ٢-١). فإن كان الرجل في حبّه لامرأته يشتهي ما اشتهاه مسيحه أن يراها "كنيسة مجيدة، لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك، بل تكون مقدّسة وبلا عيب" (أف ٥: ٢٦)، فإن الزوجة بدورها تشتهي أن تقتني بالوداعة النابعة عن الحب، أو زينة الروح الهادئ، قلب رجلها لحساب السيّد المسيح. في المسيح يسوع ربّنا يحتمل كل طرف الآخر، وكما يقول القديس أغسطينوس: [لقد أمر رب المجد ضرورة احتمال جميع المتاعب الأخرى (غير الزنا) بثبات من أجل المحبة الزوجيّة ولأجل العقّة].

ثانيًا: رئاسة الرجل وحبّه

تركز المفهوم الإنجيلي لرئاسة الرجل في العبارة الرسوليّة: "لأن الرجل هو رأس المرأة" (أف ٥: ٣٣)، وقد ربط الرسول الرئاسة بالحب، فقال في نفس الرسالة: "أيها الرجال أحبوا نساءكم، كما أحبّ المسيح أيضًا الكنيسة، وسلّم نفسه لأجلها لكي يقدّسها..." (أف ٥: ٢٥-٢٦).

بمعنى آخر لا يمارس الرجل رئاسته خلال التسلّط، وإنما خلال الحب البازل حتى الموت. فإن رأت الزوجة رجلها يشفق أن يموت لأجلها، دون مطالب ذاتيّة له، أو رغبة في الاستيلايّة عليها، إنّما في شوق للشركة والعطاء، تشفق بكل فرح أن تقبله رأسًا لها، تعتز به. حينما أراد السيّد أن يسلم أمر تدبير الكنيسة في أيدي تلاميذه كشف لهم عن مفهوم الرئاسة، بقوله: "أنتم تعلمون أن رؤساء الأمم يسودونهم، والعظماء يتسلّطون عليهم، فلا يكون هذا فيكم، بل من أراد أن يكون فيكم عظيمًا، فليكن لكم خادماً، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فليكن لكم عبداً، كما أن ابن الإنسان لم يأت ليُخدَم بل ليُخدَم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (مت ٢٠: ٢٦-٢٨).

فرئاسة الرجل ليست حقاً له يسعى إليها مجاهداً أن يغتصب السلطة، بل هو التزام بالحب البازل والخدمة بلا حدود، كما قدّم السيّد حياته من أجل كنيسته، وكما تعمل الرأس دوماً لحساب الجسد كله. لهذا لا يفتخر الرجل بكونه رأساً له حق التصرف، إنّما بكونه محباً ينحني عاملاً لحساب الأسرة، ولا تخجل المرأة من رئاسة رجلها، بل تفرح بحبّه لها، فتكرّمه في الرب

كمحبٍ لها.

الرجل كـرأسٍ إنّما يعني التحامه بالجسد. فلا مكان للرأس بدون الجسد، ولا حياة لها بدونه، يتحدّث الأسقف الراهب القديس أمبروسيو عن المتزوج في علاقته بامرأته، قائلاً: [الرجل بدون زوجة يحسب كمن هو بلا بيت^١].

لا ننكر أهمية دور الرأس في تدبير شؤون الجسد، لكن هل يستطيع الرأس أن يعمل بمفرده؟ أو هل يحيا بدون الجسد؟ وهل يستقيم عمل الرأس إن أصيب الجسد وضعف؟ هكذا لا يعني تدبير الرجل لشؤون الأسرة سيطرته وانعزاليتّه، وإنما تعاونه مع زوجته بل ومع بنيه في دالة الحب وخلال روح التفاهم، ليكون الكل واحداً، مع اختلاف مسؤولياتهم، الرجل الناجح هو الذي يتخذ قراراته من خلال زوجته وأولاده بروح الحب الناضج، فتعزّز الأسرة ككل به وتقوّره.

❖ تُستخدم كلمة "رأس" هنا بمعانٍ مختلفة، وإلا تكون النتيجة خاطئة. المسافة بين المسيح والرجل أعظم بكثير منها بين رجل وامرأة، وبين المسيح والله الأب من جانب آخر. فإن المسيح والله متساويان في الجوهر لكن الخلاف في العلاقة، ونفس الأمر بين الرجل والمرأة. وأما بين الله والمسيح الابن من جانب والرجل (والمرأة) من الجانب الآخر فالفارق عظيم للغاية في الجوهر والعلاقة^٢.

❖ كيف يقول: "ورأس المسيح هو الله"؟ أقول أيضاً كما أننا نحن جسد واحد، هكذا المسيح والآب واحد. وبهذا يكون الأب هو رأسنا^٣.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "أيها الرجال (الأزواج) أحبوا نساءكم كما أحبّ المسيح أيضاً الكنيسة" (أف ٥: ٢٥).
اهتم بها بنفس العناية التي تعهّد بها المسيح الكنيسة. نعم حتى وإن احتاجت أن تقدّم لها حياتك! نعم وإن احتاجت أن تتقطع أجزاء ربوات المرات! نعم لتحمل أي ألم مهما كان ولا تمتنع!

فإنك إن فعلت هذا كله، فإنك حقاً لم تصنع شيئاً مما فعله المسيح. فإنك تفعل هذا من أجل إنسانٍ مرتبط به فعلاً، أما هو فصنعه لمن أعطاه القفا وكرهه.
بنفس الطريقة كما أخضعها عند قدميه تلك التي أعطته القفا وأبغضته واستهانته به

^١ On Paradise 11:50.

^٢ In 1 Cor., hom., 26:3.

^٣ In Ephes., hom. 20.

واستأنفت منه، لا خلال التهديدات ولا بالقوة والإرهاب... هكذا يليق بك أن تسلك مع زوجتك.

نعم، حتى وإن رأيته تزدري بك وتأنف منك وتحتقرك، فتفكيرك العظيم تجاهها ومودتك ولطفك تقدر أن تخضعها لك. فإنه ليس شيء أعظم قوة في الاستمالة أكثر من هذه الروابطات، خاصة بين الزوج والزوجة!

ربما يمكن للمرء أن يذل الخادم بالخوف، لا، فإن حتى هذا يهرب... أما شريكة الحياة وأم الأبناء ومصدر فرحه فلا يليق إخضاعها بالإرهاب والتهديد، إنما بالحب والمعاملة الحسنة.

أي نوع من الوحدة يمكن أن تقوم علي خوف الزوجة من زوجها؟!
أي صنف من السعادة يتمتع بها الزوج إن سكن مع زوجة كما لو كانت أمة لا زوجة حرة؟!!

نعم، فإنه بالرغم مما قد تعانيه من بعض الأمور من ناحيتها فلا تعنفها، لأن المسيح لم يفعل هذا^١.

❖ "وسلم نفسه لأجلها لكي يقدسها ويطهرها" (أف ٥: ٢٥-٢٦).

هكذا لم تكن طاهرة! هكذا كانت مملوءة عيبًا! هكذا كانت بشعة وملومة!
أي نوع هذه التي تأخذها؟! فإنك لم تأخذ عروسًا مثل الكنيسة التي أخذها المسيح، ولم تأخذ شخصًا هكذا بعيدًا عنك مثلما كانت الكنيسة بعيدة عن المسيح، ومع هذا لم يشمتز منها، ولا مقتها بسبب بشاعتها...!

ماذا أقول؟ لقد كانت غيبّة ولسانها سليطًا، ومع ذلك بالرغم من كل عيوبها الكثيرة سلم نفسه من أجلها كشابة في ريعان شبابها محبوبة لديه عجيبة في جمالها!
وإذ نعجب من هذا يقول الرسول: "لأنه بالكاد يموت واحد عن صالح" (رو ٧: ٧)،
وأيضًا "إذ ونحن خطاة مات المسيح عنا" (رو ٥: ٥). وبالرغم من كونها هكذا أخذها وكساها بالجمال، وغسلها، ولم يرفض أن يسلم نفسه من أجلها^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

^١ In Eph., Hom 20.

^٢ In Eph., Hom 20.

ثالثاً: عدم التعنيف

تطلّعت النفس البشريّة فرأت عريسها ربّنا يسوع يبدو كما لو كان قاسياً عليها، فوضعت تأديباته النابعة عن حبّه لها تحت رأسها، وتطلّعت إلى يمينه فوجدته يعانقها حباً، إذ قالت: "شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني" (نش ٢: ٦، ٨). فليق بالزوج إن أدب أو بمعنى أدق إن أظهر حزمًا لأسرته فلتكن يمينه أولاً معانقة بالحُب.

يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [وأنتم أيها الأزواج أقول لكم، ليكن هذا قانوناً ألا يوجد عصيان يدفعكم إلى ضرب الزوجة. ولماذا أقول الزوجة، فإن الرجل الحر لا يحتمل حتى أن يصفع عبده...]

[إن كانت فقيرة فلا تعنفها، وإن كانت غبيّة، لا تطأها بل بالحري درّبها، إذ هي عضو منك، وقد صرّتما جسداً واحداً، إنها تافهة وسكّيرة وشهوانيّة! يليق بك ألا تضطرب ولا تغضب بل أطلب من الله وانصحها. قدّم لها المشورة وافعل ما في وسعك لانتزاع الشر. أما إن ضربتها فإنك تزيد من شدة المرض، لأن الخسونة تُنزع باللفظ لا بالقسوة المماثلة^١.]

لقد طالب الآباء الرجل أن يرشد زوجته خلال الصلاة وبالحب والقُدوة الحسنة... إذ يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [إن كانت زوجتك دائماً متعطّشة إلى الاجتماعات العامة (أماكن اللّهو) وأنت تلومها بقسوة، أفلا تستحق أنت اللوم إن كنت أنت نفسك تقضي كل أوقاتك في المشاهد العامة؟!]

رابعاً: الاهتمام بمطالب الزوجة

يهتم عريسنا الرب يسوع بكل احتياجاتنا الروحيّة والماديّة، هكذا يليق بالزوج أن يقدّم لزوجته كل إمكانيّة حب، وكما توصيه الكنيسة قائلة:

❖ يجب عليك أيها الابن المبارك والأخ الحبيب المؤيّد بنعمة الروح القدس أن تتسلّم زوجتك في هذه الساعة المباركة بنية خالصة ونفس طاهرة وقلب سليم. اجتهد فيما يعود لصالحها ولتكن حنوناً عليها وتسرع إلى ما يُسرّ قلبها.

صلوات الإكليل المقدّس

خامساً: الخضوع للزوج واحترامه

^١ In 1 Cor. Hom 25.

^٢ In Matt. Hom 7.

الزوجة المؤمنة ترى في زوجها يسوعها. تمتد أنظارها خارج ضعفاته وأخطائه لتراه قد تسلمته من يد الرب لتتعلم حياة الطاعة والخضوع.

هذا الخضوع لا يحتمل ضعفًا، بل فيه قوة وفعالية، به تكسب الزوجة رجلها للرب، وتكسب محبته لها، واحترامه لها في الوقت الذي فيه تزيد هي من طاعتها له. في محبة لا تعدد المرأة برأيها، بل تسلم قلبها وجسدها وكل حياتها لرجلها في الرب... يهب الجسد (الزوجة) نفسه للرأس من أجل الوحدة والسلامة. إنه خضوع القلب الكبير المتسع بالحب، الذي يعطي ذاته تلقائيًا.

❖ وأنت أيتها العروس المباركة السعيدة، قد سمعت ما أوصي به زوجك، فيجب عليك أن تكرميه وتخافيه ولا تخالفي أمره ولا رأيته، بل تزيدي في طاعته علي ما يوصيك به أضعافًا...

يجب أن تقابليه بالرحب والبشاشة، لا تضجري في وجهه. اتق الله في سائر أمورك معه، لأن الله قد أوصاك بالخضوع له، وأمرك بطاعته بعد والديك.

صلوات الإكليل المقدس

❖ أيها الإخوة، ينبغي أولاً من أجل تعليم النساء أخواتنا ألا يفوتنا مثل هذا التواضع المقدس الذي للعذراء مريم. لقد ولدت المسيح وجاءها الملاك مخبراً إيّاها: "ها أنت ستحبلين وتلدن ابناً وتسميه يسوع، هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعي" (لو ١: ٣١-٣٢). لقد استحققت أن تلد ابن العلي، ومع ذلك فكانت في غاية التواضع، فلم تقدم نفسها علي زوجها (خطيبها الذي لم يتركها) حتى في ترتيب تسميته، كأن تقول: "أنا وأبوك" بل قالت "أبوك وأنا" (لو ٢: ٤٨).

إنها لم تضع في حسابها كرامتها بسبب ابنها، بل راعت أولاً نظام الزواج، لأن المسيح المتواضع لم يرد أن يعلم أمه الكبرياء!

"أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين". لقد قالت: "أبوك وأنا"، "لأن الرجل هو رأس المرأة" (أف ٥: ٢٣)، فكم بالحري ينبغي علي بقية النساء ألا يتكبرن؟!^١

القديس أغسطينوس

❖ "أيتها النساء اخضعن لرجالكن، كما يليق في الرب" (كو ٣: ١٨).

^١ Sermons On N.T.

المحبّة من اختصاص الرجال، أما الخضوع فمن اختصاص النساء. فإن قدّم كل إنسان ما يلتزم به تثبت الأمور، فالرجل بحبّه لها، والمرأة بطاعتها للرجل يصير وديعاً معها.

لا تنتفخي لأن الرجل يحبّك، فقد جعله الله يحبّك لتطيعيه في خضوعٍ بسهولة.
لا تخافي من خضوعك له، لأن الخضوع للمحب ليس فيه صعوبة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب" (أف ٥: ٢٢).

لماذا هذا؟ لأنه عندما يكونان في اتفاق ينشأ الأبناء في تربية حسنة، ويصير الخدم في تدبيرٍ صالح، ويتنسم الأقرباء والأصدقاء رائحة طيبة.
أما إذا لم يكن الأمر هكذا، تتقلب الأمور، ويحدث ارتباك. فكما أن قادة الجيش متى كانوا في سلامٍ معاً تسير الأمور في وضعها السليم، بينما إن حدث خلاف تتقلب الأوضاع، هكذا نفس الأمر يقوله (الرسول): "أيها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب"...
وكلمة "كما" هنا لا تعني المساواة، وإنما ربّما قصد "عالمات أنكن هكذا إماء الرب" أو قصد "عندما تطعن أزواجكن تفعلن ذلك كأنكن تخدمن الرب".
ليأخذ كل وضعه الطبيعي، فيشغل الزوج موضع "الرأس"، والزوجة تحتل موضع "الجسد".

لقد جاء بعد ذلك بأدلة كثيرة إذ قال: "لأن الزوج هو رأس الزوجة، كما أن المسيح هو رأس الكنيسة، وهو مخلص الجسد. ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح، كذلك الزوجات لأزواجهن في كل شيء" (أف ٥: ٢٣-٢٤).
لقد وضع أمام الزوج والزوجة أساس محبتهم وما ينعشها، مشيراً إلى كل منهما عن وضعه السليم، فالواحد له المسئولية والتدبير، والآخر عليه الخضوع^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أخشى أن يكون الاهتمام بالملبس (المحتشم) فقط، لكن في الأعمال توجد نساؤنا غير متواضعات، وبطريق آخر غير محتشمت.

لهذا لم يقتنع الرسول في رسالته إلى تيموثاوس بهذه الأمور بل أضاف: "أن النساء يزين ذواتهن بلباس الحشمة، مع ورع وتعلّل لا بصفائر أو ذهب" (١ تي ٢: ٩).

^١ In Eph. Hom 25.

علي أي الأحوال اعتادت النساء القديمات أن يدعون أزواجهن سادتهن (١ بط ٣: ٦)، وإن يخضعن معطين إياهم الكرامة.

قد نقول: أنهم من جانبهم كانوا يحبّون نساءهم.

إنني أعرف هذا حسناً مثلك، لست أجهله. لكن عندما نحثكن بخصوص واجباتكن يلزم ألا تنتظرن إلى واجبات الطرف الآخر...

تطلعي فقط إلى هذا الأمر الواحد: كيف تخلصين نفسك من المسؤولية الملقاة عليك. فإذا ألقى آدم اللوم علي المرأة، والمرأة علي الحيّة، لم يصنعنا هذا بحكمة.

يليق بك من جانبك أن تدفعي بكل طاقتك ما أنت مدينة به لزوجك، وعندما أحدث زوجك نصحه أيضاً أن يحبّك ويلطفك، فلا أسمح له بتقديم الوصية الخاصة بالمرأة بل أطلبه بما هو مكتوب بخصوصه.

لنتشغلي أنت أيضاً فقط بما يُطلب منك. اظهري نفسك أنك سهلة التطبّع مع قرينك. فإن كنت حقاً تطيعين زوجك من أجل الله فلا تحدّثيني عما يُطلب منه، بل تسألين عن تنفيذ وصيتك بتدقيق.

من أجل الطاعة لله لا تعصي الوصية حتى وإن احتملت أموراً مضادة.

بنفس القاعدة من يحب وهو محبوب لا يكون قد صنع أمراً عظيماً، أما من يتأني علي من يبغضه فهو فوق الكل يستحق إكليلاً.

هكذا إن كان زوجك يضايقك وأنت احتملينه تتالين إكليلاً مجيداً، أما إن كان وديعاً ولطيفاً فأني شيء لك يكافئك عنه الله!

إنني لست بهذا أمر الأزواج لكي يكونوا عنفاء، إنّما أحث الزوجات أن يحتملن فظاظة أزواجهن. إذ متى اهتم كل طرف بتنفيذ وصيته يتبعه رفيقه للحال. فعندما تستعد الزوجة لاحتمال حتى سلوك زوجها الخشن، فإن الزوج يكف عن مضايقتها... وبهذا يصير الكل في ميناء أمين من الأمواج.

هكذا كانت الأمور تسير في الزمن القديم، كل يعمل علي تنفيذ واجبه دون أن يستلزم من رفيقه أن ينقذ ما عليه.

فإبراهيم اصطحبه ابن أخيه (لوط)، وفي هذا لم تلمه زوجته.

لقد أمرها أن ترحل معه في سفر طويل، ولم تعارضه في هذا بل تبعته...

لم تفكر سارة قط أن تعارضه، ولا حتى أن تفتح فمها، ولا تنطق بأية كلمة كما تفعل

نساء اليوم... إنما كانت مسرورة بكل ما يفعله^١.

القديس يوحنا ذهبي الفم

❖ "لكن ينصحن الحدثات أن يكن محبات لرجالهن" (تي ٢: ٤).

يقول الرسول بأن العجائز ينصحن الحدثات أن يحبين رجالهن، لأن رأس خيرات المنزل هو أن تكون الزوجة موافقة لرجلها. إن حدث هذا لا يوجد مكروه قط. لأنه كيف لا يوجد السلام عندما يتفق الجسد مع الرأس؟!... فإن وُجدت الرأس في سلام، من يستطيع أن ينزع السلام أو يمنعه؟... إن هذا أنفع للمنزل من الأموال وشرف الجنس والاقتدار... بالمحبة تزول كل مقاومة، فإن كان الرجل وثيقًا يقبل الإيمان سريعًا، وإن كان مسيحيًا يصير إلى حال أفضل.

هل رأيت كيف يتنازل بولس الذي يعمل بكل جهده أن يبعدنا عن الدنياويات، معطيًا اهتمامًا عظيمًا فيما يخص حال المنزل؟ لأنه إن دُبرت المنازل جيدًا وجدت الروحيات مكانًا، وبدون المنزل السليم تعطب الروحانيات...

فالمراة إذ تكون متزوجة رجلاً غير مؤمن ولا تكون فاضلة يستحيل ألا يُفترى علي الله بسببها، أما إذا كانت متزينة بالكرازة فإنها تريح الشرف من كرازتها وأعمالها الحسنة.

لتسمع النساء اللواتي رجالهن قساة أو غير مؤمنين وليتأدبن، حتى يقدن إياهم إلى حسن العبادة. فإنك إن لم تربيه أو تستمليه إلى مشاركتك في التعاليم المستقيمة تغلقين فمه ولا تتركينه يجدف علي الديانة المسيحية. وهذا ليس بالأمر البسيط، لأن الديانة تُمدح بسبب تصرفاتها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

سادسًا: الشعور بالملكية المتبادلة

قبيل البدء في صلاة "سر الزواج" يقدم الكاهن صلوات تسمى "عقد أملاك"، وتعتبر مقدمة للسر، فيه يشير إلى عقد أملاك الكنيسة علي المسيح إذ جاء واتحد بها، مقدمًا نفسه ملكًا لها، وهي بدورها تقدم نفسها ملكًا له.

ما نود تأكيده هنا، أن كل طرف لا يسعى للاستيلاء علي الآخر ليملكه لحساب ذاته ومصالحه وملذاته، إنما بالحب يقدم نفسه ملكًا للطرف الآخر. يجب أن يعطي لا أن يستحوذ،

^١ In 1 Cor. Hom 25.

حتى في العلاقات الجسدية، فهو لا يطلب ما يرضيه هو، بل ما يرضى الآخر، مقدّمًا قلبه قبل جسده، بفرح وسرور، الأمر الذي نوضحه في حديثنا عن "الحب الزوجي والعلاقات الجسدية" بمشيئة الرب.

سابعًا: لتتزين الزوجة لرجلها

ينادي الرب يسوع عروسه قائلاً: "إن لم تعرفي أيتها الجميلة بين النساء... لقد شبّهتك يا حبيبتى بفرسٍ في مركبات فرعون. ما أجمل خديك بسموطٍ وعنقك بقلائد... ها أنتِ جميلة يا حبيبتى. ها أنتِ جميلة. عينك حمامتان" (نش ١: ٨-١٥).

هذه المناجاة وغيرها مما ورد في سفر نشيد الأنشيد تكشف عن ضرورة مناجاة العريس مع عروسه. هذا وقد سلّمت الزوجة حياتها ملكًا لرجلها لذلك يليق بها أن تهتم كيف ترضى رجلها أولاً وآخرًا، فتكشف له وحده عن جمالها الداخلي والخارجي... جمال نفسها الوديع الهادئ مع جمال مظهرها أيضًا.

فكما يطلب الرب جمال الإنسان الداخلي، فيطلب القلب أولاً، والعبادة الخفية السريّة، هكذا ليت النساء يتقدّمن بجمالهن الداخلي لأزواجهن، فلا يكن لهن مظهر النقوى والورع والتظاهر بالوداعة ورقّة الحديث مع الآخرين، بينما يملأن بيوتهن الزوجية بعبوسهن وتبرمهن. بذلك تهتم كل منهن كيف ترضي الآخرين، وتكشف لهم عما يبدو جمالاً لها بينما لا تنبالي بزوجهما.

وأما من جهة الجمال الخارجي، فقد اتسم طابع هذا العصر بصورة مغالى فيها عن اهتمام الزوجات بالمظهر الخارجي أمام الناس وليس أمام أزواجهن. ينبغي علي كل عروس أن تعلن لعريسها أنها تحبّه فوق كل إنسانٍ في الرب يسوع.

❖ أتريدين أن تكوني جميلة؟ تسربلي بالصدقة، البسي العطف، توشّحي بالعقّة، تخلي عن التشامخ، هذه كلها أوفر كرامة من الذهب هذه تصير الجميلة جزيلة البهاء، وغير الجميلة تجعلها جميلة...
تزيّنت المصرية وقتًا ما، وتزيّن يوسف، فمن كان جميلًا؟ لا أقول أنه تزيّن عندما صار له سلطان، بل وهو في الحبس عندما كان عاريًا كان يلبس ثوب العقّة. وهذه كانت أشنع من العارية، إذ لم يكن لها العقّة.

تزيّنت المصرية وقتًا ما، وتزيّن يوسف، فمن كان جميلًا؟ لا أقول أنه تزيّن عندما صار له سلطان، بل وهو في الحبس عندما كان عاريًا كان يلبس ثوب العقّة. وهذه كانت أشنع من العارية، إذ لم يكن لها العقّة.
فعندما تغالين في التزيّن أيتها المرأة تكونين أشنع من العارية، لأنك خلعتِ حُسن

الجمال. فحواء كانت عارية، لكنها لما لبست صارت أشنع من الأول. عندما كانت عارية متزيّنة بمجد الله، ولما لبست ثوب الخطيئة عند ذلك صارت شنيعة...
قولي لي، لماذا تتزيّنين؟ هل لكي ترضي رجلك؟! افعلي هذا في منزلك... فإن كنت ترضين رجلك لا ترضي الغير. وأما إن كنت ترضين الغير لا ترضي رجلك.
قد تلبسين الحلّي عندما تسيرين في الكنيسة، وفي الوقت نفسه لا تريدان إرضاء رجلك بشيء من هذه...

القديس يوحنا ذهبي الفم

❖ يجب علي النساء أن يتزيّنّ بالتواضع ككلام الرسول، ولا يتزيّنّ بذهب ولا فضة، ولا بزينة، ما خلا الحُسن الحَقّاني (١ بط ٣: ٣، ٤).
لا تتزيّن امرأة علي خديّها بحمرة، بل تمشي هكذا بعفاف، ووجهها مطاطئ إلى أسفل في كل حين. ولتكن طائعة لبعلاها كالوصيّة مثل النساء الأوليات. ولا يكن لها سلطان علي جسدها كقول الرسول بل تحت أمر بعلاها (كو ٧: ٤).
الشعر دُفع لها عوض البلين (١ كو ١١: ١٥)، لكن ليس بافتخار...
لا تتزيّني بجمال كاذب، الذي هو بأدويّة ورشم بكحلّ، وتحريك أعين بلا حشمة...
وضحك مملوء حلاوة كاذبة، ومشى بلا هدوء، وكلام ليس فيه عفة. هذه الأمثلة الكثيرة التي تثير الزناة وتدع الشهوات تتحرّك في أعضاء الذين يزنون...

القديس باسيليوس الكبير

إن كان الخضوع الذي فيه يعطي القلب ذاته تلقائيًا هو زينة المرأة، فتكسب به زوجها لمسيحها، فإن الرجل من جانبه لا يفهم الخضوع بمعنى النقص في كرامة المرأة، إذ يؤكد الخالق نفسه مساواتها مع الرجل في خلقته لحواء. وكما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [لم يقل الله "قاصنع له معيّنًا" فحسب بل قال "تظيره" (تك ٢: ١٨)، مظهرًا المساواة في الكرامة].
خضوع الزوجة ليس تحقيرًا لشأنها أو استخفافًا بكرامتها، إنّما يحمل تنوعًا في المواهب، فإن كان الرجل من مركز عمله يقوم بالتدبير بروح الحب، فالمرأة من واقع عملها تقدّم الخضوع بروح الحب، كما يخضع الجسد للرأس.

ثامناً: الحب الزوجي والتوبة الدائمة

¹ In Gen. Hom 4:1 PG 54:594.

إذ يقوم الزواج علي أساس آخر غير "الحب الزوجي الحق"، نجده يبدأ بالبهجة والفرح ليتحوّل إلى سجن يريد كل طرف الخلاص منه، مترقبًا أحيانًا الإفراج عنه. هذه الأحاسيس إن ظهرت في القلب داخليًا أو ترجمت خلال الكلمات والتصرفات إنّما تعني قيام الزواج علي أساس غير صادق. "الحب الزوجي" في حقيقته ينطلق خلال الحياة المقدّسة، لذا كلما تقدّس الإنسان، ممارسًا حياة التوبة الدائمة التهب بالأكثر حبّه الزوجي، وتمتّع مع الطرف الآخر في وحدة أعمق، وتصير الأيام والسنوات بالنسبة له ليس ألا تجديدًا لحبّه الزوجي، فيحيا في فرح لا ينقطع... تصير أيامه كأنها حفل زفاف مستمرّ يقيمه السيّد المسيح نفسه بروحه القدّوس.

أذكر في بدء السبعينيات إذ تحدّثت بعض الطالبات الجامعيّات بأمريكا مع فتاة قبطيّة عن سكنها، فأجابت أنها تسكن مع والديها، دهشن، قائلات: هل يمكن لوالدك أن يحتل البقاء حوالي ٢٥ عامًا مع والدتك دون أن يمل، وأيضًا بالنسبة لوالدتك؟! فالحياة السعيدة في أعينهن أن يستبدل الرجل أو المرأة زوجته أو رجلها، من حين إلى آخر لأجل التجديد وعدم الملل. التجديد في حقيقته لا يقوم بتغيير الأفراد، وإلا كان الإنسان يمل من الكتاب المقدّس الذي لا يتغيّر، أو من السماء حين يعيش فيها أبدًا. إنّما التجديد المفرح ينبع عن أعماق قلب متجدّد علي الدوام. فالرجل الروحي يرى في زوجته العروس التي تبهج قلبه، لأنه يحبّها. وبالتوبة يراجع حساباته معها لا ليتصدّ أخطاءها، وإنما ليعاتب نفسه عن كل تقصير في محبّته لها، بهذا تلهب نار "المحبّة الزوجيّة" بعمل الروح القدس الناري، ويصير قلبه في بهجة غير منقطعة، مشتاقًا أن يعطي بلا حدود. وما أقوله عن الزوج أرّده بخصوص الزوجة، وكلاهما يتنافسان علي بلوغ كمال الحب والعطاء.

الحياة الزوجيّة هي مدرسة الحب أو كنيسة الحب، يتدرب فيها كل عضو علي النموّ في العطاء والانطلاق في ملكوت السموات لعلّه يبلغ قياس ملء قامّة المسيح.

تاسعًا: الحب الزوجي والإرشاد الكنسي

إن كانت الدول المتقدّمة قد شعرت بالحاجة إلى مرشدين counselors للأزواج يساعدونهم علي تفهم حقيقة الزواج، خاصة في السنين الأولى من زواجهم، فإنه من واجب الكنيسة أن تلنقي بالشباب قبل زواجهم بل وقبل اختيارهم لشركاء حياتهم، وبعد الخطبة والزواج أيضًا لكي تلهب في داخلهم روح الحب الحقيقي، وتسندهم في طريق الصليب ليمارسوا الحياة الزوجيّة بلا عثرة.

عاشراً: الحب الزوجي والاهتمام بخلاص الطرف الآخر

امتدح القديس غريغوريوس النزينزي والده غريغوريوس الذي جذبته زوجته نونا Nonna، لا ليؤمن بالسيد المسيح فحسب، بل ويصير أسقفاً فيما بعد وعاشاً معاً كأخوين. قال عنهما إنهما دُعيا إبراهيم زمانه وسارة زمانها، إذ تبررا مثل إبراهيم بالإيمان. بل يتجاسر فيقول أن والدته نالت كرامة أكثر من سارة.

فمن كلمات القديس غريغوريوس النزينزي في مديحه لوالديه:

[هوذا الراعي الصالح هو ثمرة صلوات زوجته وإرشادها، وقد تعلم منها حياته الرعوية المثالية. بقوة هرب من عبادة الأوثان، وبعد ذلك صارت الشياطين تهرب منه... لقد صاراً متساويين في التعقل والبهاء، غيورين يسندان بعضهما البعض، يطيران فوق الجميع... كان لهما جسدان، ولكن كأنه قد تحول الجسدان إلي روح، حتى قبل انحلالهما... كانا يملكان كل شيء ولا يعوزهما شيء. لقد رفضا الغنى، فصارا غنيين في الكرامة...]

أقول فقط كلمة واحدة عنهما، أنهما بحقٍ وعدلٍ قد عُين كل واحدٍ منهما لجنسه، عُين هو زينة للرجال، وهي زينة للنساء، ليس فقط زينة، بل ومثالاً للحياة الفاضلة^١.
وقد جاءت ابنتها القديسة جورجونيا صورة رائعة لوالدته. تطلع أخوها الأصغر منها القديس غريغوريوس النزينزي إليها كنموذجٍ حيٍّ للزوجة المسيحية، وقد تأثر بها جداً، إذ كان مغرماً بتقواها وورعها. سندت القديسة زوجها أليبيوس Alypius بل وقادته في طريق الفضيلة والتقوى. أما ابناها فقد سيما أسقفين.

حين وقف أخوها الأسقف غريغوريوس يرثيها في حضور أبيها الروحي فوستينوس أسقف أيقونية، وزوجها شعر بصعوبة بالغة إذ أدرك أن الكلمات تعجز عن أن تعلن عما بلغته. في مديحه لها قال إنه لم يستخدم الكلمات البراقة لأنها كانت في حياتها لا تتحلى بالزينة الخارجية، وكان تخليها عن الحلي هو جمالها.

[موطن جورجونيا كان أورشليم العليا (عب ١٢: ٢٢، ٢٣)... التي يقطنها المسيح،

ويشاركه المجمع وكنيسة الأبركار المكتوبين في السماء]

[بالنسبة للحديث عن سمو فضائلها بين أناسٍ يعرفونها، فليساهم كل واحدٍ منهم فيه ويعينني، لأنه يستحيل علي شخصٍ واحدٍ أن يسد كل النقاط، مهما كانت قدراته علي الملاحظة

^١ راجع قاموس آباء الكنيسة وقديسيها، حرف ج (القديسة جورجونيا).

والتعقل...

إن كانت قد ارتبطت باتحادٍ جسديٍّ، لكنها لم تنفصل عن الروح، ولا لأن رجلها كان رأسها تجاهلت رأسها الأول (السيد المسيح)...
لقد ربحت زوجها إلي جانبها، وجعلت منه عبدًا شريكًا معها بدلاً من سيدٍ عنيفٍ...
[جعلت من ثمار جسدها، أي من أبنائها وأحفادها، ثمارًا لروحها، مكرسة لله ليس فقط نفسها الوحيدة بل كل الأسرة وأهل بيتها].

المسؤولية الشخصية عن الحياة الروحية

يليق بالإنسان أن يهتم بخلاص نفسه، كما بخلاص الطرف الآخر، فلا يلقي باللوم على الطرف الآخر، وإنما يسند بعضهما البعض. يقول القديس أمبروسيو: [هذا تحذير! لا يعتمد أحدهما على الآخر. فالتى خلقت معينة له كانت تحتاج إلى حماية الأقوى. فمع أن "الرجل رأس المرأة"، اعتقد أنه وهو محتاج إلى معونة زوجته سقط بسببها. لهذا يليق ألا يضع أحد حياته في يد الآخر، ما لم يختبر أولاً فضيلته. ولا يدّعي أحد أنه يقوم بدور الحماية لمن يظن أنه أقل منه في قوته، بل بالحرى يلزمه أن يشاركه نعمته الخاصة مع الآخر. خاصة بالنسبة للشخص الذي في وضع القوة الأعظم ويمارس دور المدافع¹.]

¹ Paradise 4:25.

الحب الزوجي والعلاقات الجسدية

في حديثنا عن "الحب: مفهومه ودرجاته" أدركنا أن الإنسان لا يحمل ثنائية في طبيعته، فهو ليس بالكائن ذا عنصرين مستقلين، أحدهما (الجسد) ينتمي للأرض ويكبر وينمو ثم يموت، له احتياجاته الجسدية التي تشبع خلال الطعام والشراب والراحة الجسدية والجنس، بينما الآخر ملائكي (النفس) ينتمي للسماء، يسكن في الأول كضيف غريب إلى حين. وإنما الإنسان له كيانه الواحد، فيه يتفاعل الجسد مع النفس في تكامل، يعملان بلا استقلال. بمعنى آخر لا يمكننا أن ننسب أعمالاً للجسد في عزلة عن النفس، وإلا أمكن للجثة أن تمارس هذا العمل، كما لا يُمكن أن ننسب للنفس عملاً في عزلة عن الجسد وإلا كانت النفس ملاكاً ليس لها موضع هنا.

الإنسان حقيقة هو كائن فريد يضم العنصرين معاً في تناغمٍ وتناسقٍ، خاصة إن خضع لروح الله كقائدٍ للنفس والجسد معاً.

بهذا المنظار يمكن للمسيحي أن يتفهم علاقة الحب الزوجي بالعلاقات الجسدية، ويدرك الخط الفاصل بين العلاقات الزوجية الجسدية والشهوة، كما يتفهم مركز الحياة الزوجية بالنسبة للعفة والنسبة للبتولية.

أولاً: بين الحب الزوجي والعلاقات الجسدية

يتشكك بعض المتدينين في قدسية العلاقات الجسدية بين الرجل وامرأته، حتى لنجد أحياناً بعض الشبان أو الشابات عند زواجهم يأنفون من هذه العلاقات، ويتطلعون إليها كأنها "زنا مباح". هذه النظرة تمثل فهمًا خاطئاً للحياة الإنسانية وعدم إدراك للحياة الزوجية. لقد اهتم آباء الكنيسة - حتى البتولين منهم - بالكشف عن قدسية هذه العلاقة، فيحدثنا القديس أغسطينوس في كتابه "مدينة الله" عن العلاقات الجسدية مؤكداً أن الإنسان لو لم يخطئ بروح العصيان ل بقي في الفردوس، وتطلع إلى جسده وجسد الآخرين بنظرة مقدسة بلا خجل ولا ازدراء. وكان يمكن أن تتم العلاقات الجسدية بين الرجل وامرأته لكن لا بدافع شهوة مثيرة، وإنما خلال الإرادة الصالحة، مثلها في ذلك بقية الأعمال والوظائف التي تمارسها أعضاء الجسم الأخرى، مثل الطعام والنوم الخ. فمن كلماته: [هل يصعب علينا أن نعتقد بأن الأعضاء

الجنسيّة كبقية أعضائنا الجسديّة يمكنها أن تخدمنا في خضوع لتحقيق الرغبة في الإنجاب حتى ولو لو توجد الشهوة التي هي ثمرة خطية العصيان؟!^١] كما يقول: [حاشا لنا أن نتوقع استحالة الإنجاب بدون فساد الشهوة، فإنه بالحري كان يمكن لأعضاء الجسم هذه أن تتحرك في طاعة للإرادة كسائر الأعضاء^٢.]

إن ما خلقه الله فينا ليس عيباً، حتى أن القديس بولس يقول: "بل بالأولى أعضاء الجسد التي تظهر أضعف هي ضرورية، وأعضاء الجسد التي نحسب أنها بلا كرامة نعطيها كرامة أفضل، والأعضاء القبيحة فينا لها جمال أفضل، وأما الجميلة فينا فليس لها احتياج، لكن الله مزج الجسد معطياً الناقص كرامة أفضل، لكي لا يكون انشقاق في الجسد" (١ كو ١٢: ٢٣-٢٥).

هكذا لا يستكف الإنسان من أعضاء جسده التي تبدو قبيحة، لأن المجتمع قد شوّه صورتها بإساءة استخدامها. في هذا يقول القديس إكليمنضس السكندري: [يجب ألا نخزى من الأعضاء التي لم يخل الله من خلقها].

إنّ فالمضطجع الزوجي طاهر ومقدس، لا يمارس فيه الزوجان علاقتهما علي مستوى حيواني، إنّما فيه يلتقي الشخصان معاً خلال الجسد، كل منهما يهب ويعطي، ولا يطلب أن يأخذ ويستولي.

عبر رب المجد عن اتحاد الزوجين فقال: "يكون الاثنان جسداً واحداً"، فلا يكون دافع العلاقات هو إشباع الغريزة وتحقيق كل واحدٍ رغباته، إنّما تأتي كعملٍ طبيعي خلال "الوحدة". كل يود أن يهب حتى جسده للآخر، وكما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [ليس أحدهما سيّد الآخر، إنّما كل منهما عبد للآخر... وإن كان الرجل والمرأة ليس لهما سلطان علي جسديهما، بالحري يكون بالنسبة للأموال].

أقول أن المبدأ الذي يعيش به الزوجان هو أن العلاقة الجسدية بين الزوجين يلزم ألا تكون غاية يطلبها أي الطرفين، بل أحد الثمار الطبيعيّة للألفة المقدسة الطاهرة، يراعي فيها كل منهما أخاه وظروفه الجسمانيّة والنفسية والروحية، فلا يقترب أحدهما من الآخر أو يمتنع حسبما يريد بل حسبما يرضى أخاه.

ثانياً: العلاقة الجسدية والشهوة

¹ City of God 14:23.

² City of God 14:26.

رأينا أن العلاقة الجسدية بين الزوجين لا تقوم علي أساس أناني، بل علي أساس حب زوجي حقيقي مقدّس وعميق وسري داخل النفس يسمو فوق كل حدود. من هنا يليق بكل منهما أن يتدرب علي الخضوع للآخر بمحبة ورضا، في تقدير لأخيه واحترام له.

كما يليق بالاثنتين ألا يجعللا من الزواج فرصة لإثارة الشهوة بينهما بلا ضابط. فبالرغم من قداسة هذه العلاقة، لكن يليق بهما أن يرفع كل منهما الآخر نحو الحياة العفيفة السامية ليس بالامتناع، لكن خلال مساندة كل منهما في حياته مع الرب، فيقبل أو يمتنع دون أن يجرح مشاعر أخيه أو ينسب للثاني سمة "الشهوانية" ولو في أعماقه الداخلية.

يقول الرسول: "لا يسلب أحدكم الآخر ألا أن يكون علي موافقة إلى حين لكي تتقرّغوا للصوم والصلاة ثم تجتمعوا أيضًا معًا لكي لا يجزيكم الشيطان بسبب عدم نزاهتكم" (١ كو ٧: ٣-٥).

❖ مادام الإنسان متزوجًا ليس له سلطان أن يمتنع عن زوجته إلا برضا الطرفين^١.

القديس إيرونيموس

❖ إذا افترضنا امرأة ورجل، فسلكت المرأة في ورج وامتعت بغير إرادة الرجل، فماذا يكون موقفها إذا زنى؟ وإن لم يزن فقد يتألم ويضطرب ويعاдиها... فما هو فائدة الصوم والامتناع؟ إنهما بلا فائدة ولا ربح إذا أنتزعت المحبة!

❖ حتى ذاك الذي يمنع نفسه عن زوجته (بغير رضاها) غالبًا ما يجعلها تزني عندما لا يُشبع رغباتها، حتى وإن فعل هذا تحت مظهر ضبط النفس^٢.

العلامة أوريجينوس

من أجل هذا تدقق الكنيسة جدًا في تقديس العلاقة بين الزوجين كعلاقة حب قائمة بينهما، دون أن تكون غاية يطلبها المؤمن، ويسعى إليها قدر ما تكون بذل من جانبه وخضوع للآخر. وفي نفس الوقت تطلب من أبنائها أن يتدربوا علي حياة ضبط النفس حتى فيما حلله الله لهما.

طالبت الكنيسة أولادها الامتناع عن العلاقة الزوجية، بشرط رضا الطرفين واتفاقها دون حرج، وذلك في الأيام التالية:

¹ Adv. Jov. 1:17.

² Origen: Comm. On Matt

أ. **الثلاثة أيام الأولى من الزواج.** وقد أخذت ذلك عن قصة طوبيا الذي تزوج، لا بهدف إشباع شهواته وإنما بتدبير إلهي. وقد قضى هذه الأيام مع زوجته يصلّيان كل ليلة. هذا التدريب مع صعوبته لكنه حتى من الجانب الجسماني والنفسي له منافع. فمن ناحية تشعر الزوجة في عريسها أنه يحبها لشخصها لا لمجرد العلاقات الجسدية، ومن جانب آخر غالباً ما تكون العروس في خشية من هذه العلاقة، فتحتاج إلى ملاطفة عريسها أولاً، كما أن العريس قد يكون مرهقاً جسمانياً. هذه العوامل بجانب تقديس المخدع بالصلاة وتكريس الليلة الأولى أو الثالث ليال للصلاة معاً يعطي قدسية خاصة لهذا الزواج.

ب. **ليلة التناول من الأسرار المقدسة** ويوم التناول، وأيام الأحاد للفرح للعبادة.

ج. **أيام الصوم.**

بهذا يمارس الزوجان العلاقات الجسدية بجوٍ روحي ومفاهيم إيمانية سليمة. وكما يقول **العلامة تريليان:** [تتم أعمال الجنس بين الطوباويين بطريقة مكرمة حسب الضرورة، فتتحقق في عفة واعتدال، كما تحت عيني الله¹].

هل تعوق العلاقات الجسدية العبادة؟

❖ إن أعاق الزواج أناساً، فليعلموا أن العائق ليس هو الزواج، بل أهدافهم الشريرة في الزواج. استخدم الزواج باعتدال فتكون في الملكوت، وتتمتع بكل الأمور الصالحة التي نالها بنعمة ربنا يسوع المسيح ومحبتة².

القديس يوحنا الذهبي الفم

ثالثاً: العلاقات الجسدية والعفة

قدّم لنا التاريخ الكنسي صورة جميلة لأناسٍ تدربوا علي العفة في حياتهم الزوجية باعتدالهم في علاقاتهم الجسدية، ومنهم من عاش بلا علاقات جسدية. وقد خرجت عائلات بأكملها ملتهبة بالحب تمارس حياة البتولية والرهبة بفرح حقيقي وبرضا واتفاقٍ مشتركٍ كما ذكر لنا آباؤنا ومعلمونا علي حد تعبير **العلامة تريليان**³. كما طالب **القديس أغسطينوس**⁴ المسيحيين الذين سمو في حياتهم الروحية – إن أمكن – أن يضبطوا أنفسهم في علاقاتهم

¹ Exhort. To his wife 2:3.

² In Hebr. Hom 7.

³ Ad Uxorem 1.

⁴ Sermons On N.T.

الجسدية بالقدر الذي به ينجبون الأطفال، دون أن يتوقف نموّ حبّهم الزوجي يوماً ما.

وهنا يجب علينا أن نقف قليلاً لنوضح النقاط التالية:

أ. لا يعني الامتناع عن العلاقات الجسدية في ذاته قداسة، إنّما هو نوع من الصوم كمن يتتسك في الطعام والشراب والنوم الخ. لهذا فإن الامتناع عن العلاقات الجسدية إن لم يصحبه عفة في جوانب الحياة الأخرى يكون هذا الامتناع إما عجزاً أو كبتاً. في هذا يقول القديس إكليمنضس السكندري: [العفة ليست خاصة بالرغبة الجنسية وحدها، إنّما تخص كل ما تشتهي النفس بطريقة شريرة، عندما تكون غير مكتفية بالأساسيات الضرورية. فتوجد عفة تخص اللسان وأخري تمس الممتلكات... العفة لا تعلمنا الطهارة فحسب، وإنما بالحق التي تمدّنا بالطهارة هي نعمة الله وقوته^١.]

بمعنى آخر العفة ليست امتناعاً عن هذه العلاقات، إنّما هي نعمة الله وقوته المشبعة للنفس فيكون الجسد عفيفاً في كل شيء ككل. بهذا فالعفة ليست حرماناً ولا كبتاً بل شعباً داخلياً. في هذا يقول القديس إكليمنضس السكندري: [الفهم البشري للعفة، أقصد فهم الفلاسفة اليونانيين لها، يقوم علي الالتزام بمحاربة الرغبة لا بمساعدتها علي القيام بدورها. أما نحن ففي خبرتنا العفة ليست مجرد غلبة الإنسان علي الرغبة بل شبع أسمي من الرغبة. أما طريق نوالها فلا يكون ألا بنعمة الله، لذلك قيل: "أسالوا تعطوا" (لو ١١ : ٩)^٢.]

البتول كما الإنسان العفيف في علاقاته الجسدية حتى مع زوجته، تتقبل نفسه كلمة الله داخله فتشبع أعماقه.

ب. العفة خاصة علي مستوى بتولية الجسد مع بتولية الروح لها عملها المقدس، والزواج العفيف أيضاً له عمله. وكما يقول القديس إكليمنضس السكندري: [للزواج وعدم الزواج، كل منهما له نوع مختلف من الخدمة والعمل لحساب الرب^٣.]

^١ Miscellanes 3:1:4.

^٢ Miscellanes 3 :7 :57.

^٣ Miscellanes 3 :12 :79.

وحدة الزواج^١

يقول رب المجد: "من أجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً. إذاً ليس اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان" (مت ١٩).
 الزواج في المسيحية حب واتحاد يقوم به الله نفسه، حتى لا يسمح لجسد ثالث أن يدخل بينهما – ولو إلى حين يفرقهما – ولا يسمح لظروف أو مضايقات أن تحل رباطاته.
 تتجلى قوة الوحدة في إتمامها بين رجل واحد وامرأة واحدة يقوم بها الله نفسه عن صورة اتحاد المسيح الواحد للكنيسة الواحدة^٢.
 لقد أكد لنا الرسل والآباء القديسون وعلماء الكنيسة أنه لا يجوز للمسيحي أن يتزوج بأكثر من واحدة، إذ حرمت تعدد الزواج ففي هذا:

١. يخالف الناموس الطبيعي، إذ من البدء خلق الله رجلاً واحداً وامرأة واحدة^٣.
 ٢. يفسد وحدة الزوجين ولا يكونا جسداً واحداً. إذ كيف يمكن للرأس (الرجل) أن تكون لها جسدان (امرأتان)، أو يكون للجسد (المرأة) رأسان (رجلان)؟!
 لذلك تنتظر الكنيسة إلى الزواج الثاني (مادام الزوجان علي قيد الحياة) أنه زنا^٤ وفسق^٥، بل وأكثر من زنا^٦، ولا توبة له ألا بعد ترك الزوجة الثانية^٧.
 ٣. يتنافى مع ضبط النفس الذي تنادي به المسيحية^٨.
- وقد أفاض قداسة البابا شنودة الثالث في بحث هذا الموضوع معتمداً علي أقوال آباء

^١ لدراسة هذا الموضوع بأكثر توسع راجع كتاب: الزوجة الواحدة لقداسة البابا شنودة الثالث.

^٢ القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات، عظة ٣٨.

^٣ الفيلسوف أثيناغوراس: دفاعه ٣٣، العلامة ترتليان: حثه علي العفة ٥، القديس جيروم: رسالة ١٢٣ إلى أجرشيا ١٢، القديس الذهبي الفم: عظات علي إنجيل متي عظة ١٧.

^٤ الفيلسوف أثيناغوراس: دفاعه ٣٣، القديس أمبروسيوس: علي إبراهيم ١: ١٧، القديس إكليمنضس السكندري: Strom 2:23، القديس أغسطينوس: صلاح الزواج ١٠.

^٥ القديس باسيليوس ق ١٠.

^٦ القديس باسيليوس ق ٨٠ من رسالته القانونية الثالث.

^٧ ابن العسال: المجموع الصفوي ١٠: ٧٢.

^٨ القديس ثاوفيلس الأنطاكي: إلى أوتوليوخوس ٣: ١٥.

الكنيسة الأولى في كتابه "الزوجة الواحدة".

عدم انحلال الحياة الزوجية

إذ يرتبط المرء بشريك حياته في الرب، إنّما برباطٍ لا ينحل، وتتأسس وحدتهما علي شخص الرب يسوع الذي يحل في وسطهما ويوحدهما. لذلك في قراءات سرّ الزيجة نسمع البولس يقول: "وأسألكم يا إخوتي باسم ربنا يسوع المسيح أن تقولوا قولاً واحداً، ولا يكون بينكم انشقاقات..." وفي المزمور يسمع العريس: "الرحمة والحق تقابلا. البرّ والسلام ثلاثاً..." ما أروع هذا التقابل! إنها وحدة تقوم علي الرحمة والحق والسلام. يخاطب القديس يوحنا الذهبي الفم العروسين قائلاً: [لقد أصبحتما الآن واحداً، مخلوقاً حياً واحداً¹].

فالعروسان المؤمنان يدركان وحدتهما، ليس فقط روح واحد ونفس واحدة، بل هما جسد واحد. هذا الجسد الواحد له غاية واحدة ومشاعر واحدة وفكر واحد. فإن انحنى أحدهما تحت نير ضيقة ما، لا يهرب الآخر من شريكه، بل يتقدّم بالمسيح يسوع حتى الموت. فيشترك الاثنان في الألم كصليبٍ مفرح في الرب. هذه الوحدة لا تفصلها التجارب والآلام، ولا المضايقات، ولا ضعفات الطرفين، ولا عنف أحدهما أو فظاظة تصرفاته، إذ يدرك الآخر أنه تسلم شريك حياته من الرب، وليس حسب هواه.

من أجل هذا لا يجوز التخليق في المسيحية ألا لعلّة الزنا، هذه التي وحدها تفك رباطات الحب بين الزوجين.

لماذا سمح الله في العهد القديم بالطلاق؟

يقول ملاخي النبي: "آن الرب هو الشاهد بينك وبين امرأة شبابك التي أنت غدرت بها، وهي قرينتك وامرأة عهدك... فاحذروا لروحكم، ولا يغدر أحد بامرأة شبابه، لأنه يكره الطلاق قال الرب" (مل ٢: ١٤).

❖ "قيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق. أما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته ألا لعلّة

¹ In Eph. Hom 20.

الزنا يجعلها تزني. ومن يتزوج بمطلقة، فإنه يزني".

لم تأمر الشريعة الموسوية بالطلاق، بل أمرت من يطلق امرأته أن يعطها كتاب طلاق، لأن في إعطائها كتاب طلاق ما يهدئ من ثورة غضب الإنسان.

فألم الذي أمر قساة القلوب بإعطاء كتاب طلاق أشار إلى عدم رغبته في الطلاق ما أمكن. لذلك عندما سئل الرب نفسه عن هذا الأمر أجاب قائلاً: "إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم" (مت ١٩ : ٨). لأنه مهما بلغت قسوة قلب الراغب في طلاق زوجته، إذ يعرف أنها بواسطة كتاب الطلاق تستطيع أن تتزوج من آخر، يهدأ غضبه ولا يطلقها. ولكي ما يؤكد رب المجد هذا المبدأ - وهو عدم طلاق الزوجة باستهتار - جعل الاستثناء الوحيد هو علة الزنا. فقد أمر بضرورة احتمال جميع المتاعب الأخرى (غير الزنا) بشبّات من أجل المحبة الزوجية ولأجل العقّة. وقد أكد رب المجد نفس المبدأ بدعوته من يتزوج بمطلقة يزني.

شرح الرسول هذا الأمر قائلاً في رو ٧ : ٢-٣ إن الزوجة تكون مرتبطة مادام رجلها حيًا، ولكن إن مات رجلها فيسمح لها بالزواج. اعتقد أنه بنفس القاعدة إذا ترك الرجل زوجته، لذلك لا يسمح للمرأة أن تتزوج مادام رجلها حيًا ولا للرجل أن يتزوج مادامت المرأة التي طلقها حية^١.

القديس أغسطينوس

هل يجوز التطليق لغير العلة؟

❖ عظيم هو رباط الصداقة بين الزوجين وقوي، حتى أنه وإن كان يقوم لإنجاب الأبناء لكنه لا يُحل بسبب (عدم) إنجاب الأبناء^٢.

❖ صلاح الزواج عند كل الأمم وجميع البشر يقوم علي أساس أنه فرصة للإنجاب ومن أجل الإيمان بالعقّة، أما بالنسبة لشعب الله أيضًا فرصة **لقداسة السرّ**، فبسببه لا يجوز لمن تترك رجلها أن تتزوج بآخر حتى وإن طلقت مادام رجلها حيًا، لا بل ولا لأجل إنجاب الأبناء الذي هو العلة الوحيدة لقيام الزواج^٣.

القديس أغسطينوس

^١ Sermon on the Mount.

^٢ The Good of Marriage 7.

^٣ The Good of Marriage 32.

هل يجوز زواج المطلقة أو المطلّق؟

١. من جهة مسبب الطلاق (التطليق)، أي مرتكب الزنا. بلا شك لا يجوز له الزواج لأنه إن كان بزناه قد تم التطليق كيف يرتبط بآخر؟

❖ إنني مندهش إن كان يسمح بطلاق الزانية. فكيف يسمح لها أن تتزوج بآخر بسبب طلاقها؟... إنه بأمر الرب يقول الرسول أن تلتزم الزوجة بعدم مفارقة رجلها، وإن فارقتها تبقى غير متزوجة أو تصالح رجلها (١ كو ١٠: ٧)¹.

القديس أغسطينوس

٢. من جهة الشخص البريء. لم ينص الكتاب صراحة عن السماح له بالزواج. وإن كان البعض يرى في عدم تزويجه يعطي فرصة للطرف الثاني أن يستغل الموقف فيزني عالمًا أن الطرف البريء لن يطلقه لأنه يعجز عن أن يتزوج بآخر. لكن القديس أغسطينوس يرى عدم السماح لزواج الطرفين قط.

❖ إن عهد الزواج لا يزول بالطلاق الحادث بل يستمر المتزوجان الواحد للآخر حتى بعد الانفصال، ويرتكبان زنا بمن يتحدان بهما حتى بعد الطلاق، وسواء كان المرأة مع الرجل أو الرجل مع المرأة².

❖ ينبغي للمطلقة سواء هي تركت زوجها أو زوجها هو الذي تركها ألا تتزوج أو لتصالح رجلها³.

القديس أغسطينوس

أخيرًا يعلّل القديس يوحنا الذهبي الفم⁴ تضيق الخناق وعدم السماح بزواج المطلقين أنه يدفع بالطرفين أن يحافظ كل منهما – ما أمكنه – علي حياة الأمانة الزوجية والعفة، عالمًا أنه لا مجال لاستبدال شريك حياته.

هذه صورة مبسطة عن وحدة الزوجين وارتباطهما في محبة قوية سامية هي صورة لحب المسيح لكنيسته، وثمره من ثماره، خلالها يحيا الكل بروح المسيح وعروسه.

¹ The Good of Marriage 7.

² The Good of Marriage 7.

³ Sermon On the Mount 1:47

⁴ In Matt. Hom 17.

الحب الزوجي من خلال الطقس القبطي

طقس "سرّ الزواج" ليس تصريحًا ليلتقي العروسان معًا ويعيشا في بيت زوجيّة واحد، ولا هو مجرد "بركة" يتقبلها العروسان كختم يعلن عن قبول الكنيسة لزوجهما، إنّما يحمل مفاهيم روحيّة لاهوتيّة تمس إيمان العروسين، وحياتهما في الرب، وإدراكهما للحب الزوجي الحق. لذلك رأيت لزامًا أن أقدم هذه المفاهيم في شيء من الاختصار.

أولاً: التمييز بين الخطبة والزواج

الكنيسة القبطية في ممارستها لطقس الزواج تسلك بذات روح الكنيسة الأولى التي كانت تميّز بين الخطبة وطقس سرّ الزواج^١. وبحسب قوانين الكنيسة يوضع اسم الخطيبين علي لوحة بالكنيسة في مكان واضح، ولا يتم الزواج إلا بعد ١٥ يومًا علي الأقل من إتمام الخطبة. الفصل بين الخطبة والزواج وإعلان اسمي العروسين يكشف عن نظرة الكنيسة لقسديّة الزواج، فمن جانب تُلزم العروسين بالتروّي فلا يتم الزواج دفعة واحدة حتى لا يندم أحدهما، بل يفكرا في جدية خاصة في فترة ما بين الخطبة والزواج. أما إعلان الاسمين فيكشف عن احساسات الكنيسة أن هذا العمل يمس الكنيسة كلها، إذ فيه يقوم عضو جديد أو كنيسة صغيرة لا يمكن فصلها عن الكنيسة الأم.

هذا الفصل أيضًا يكشف عن تقديس الكنيسة للحرية الإنسانيّة، فإن كانت الخطبة تتم بمشورة الأسقف كما يقول القديس أغناطيوس^٢، لكن هذه المهلة تعطي للعروسين أن يفكرا بصورة جدية في زواجهما دون ضغط ولو أدبي من الوالدين أو غيرهما. فمن حق أي طرف أن يفسخ الخطبة دون إبداء أسباب، والكنيسة التي تفرح بالخطبة توافق علي الفسخ حتى لا تتعرّض حياة العروسين للمتاعب بعد الزواج.

ثانيًا: طقس الزواج وسرّ الإفخارستيا

^١ J. D. Davies: A Dictionary of Liturgy & Worship, 1978, p. 256.

^٢ Ad polyc. 5.

بلا شك فقدت الكنيسة الكثير بانفصال طقس سرّ الزواج عن سرّ الإفخارستيا، فحتى القرن التاسع أو العاشر لم تكن تعرّف الكنيسة للزواج طقساً منعزلاً عن الإفخارستيا¹، ففي الكنيسة القبطية كان السرّ يتم ما بين رفع بخور باكر وبدء القداس الإلهي، ولعل الحكمة في ذلك هو الآتي:

أ. إن كانت ليتورجيا الإفخارستيا تمثل "سرّ الجماعة المقدّسة" مجتمعة حول الصليب في استحقاقات الدم، ليرفعها الروح القدس إلى حضن الآب، وتحمل الطبيعة السماوية، خلال ثبوتها في العريس المصلوب السماوي، فإن العريسين إذ يتحدان معاً، إنّما يتحدان خلال اتّحادهما في الجماعة المقدّسة. بيتهما هو كنيسة صغيرة كقول القديس يوحنا الذهبي الفم، تتعم بكيانها خلال الكنيسة الأم. وكأنّ حفل الزواج الكنسي ليس عملاً خاصاً يدعو إليه أهل العروسين أحباءهما وأصدقاءهما، إنّما هو عمل الكنيسة كلها، يشترك فيه كل الأعضاء. هو احتفال الكنيسة كلها!

ب. سرّ الإفخارستيا هو "سرّ الصليب"، والعروسان يجتمعان معاً حول ذبيحة الصليب، فيه يجد العريس مصدر حب يفيض في قلبه ليسكبه علي العروس، وفيه تجد العروس كنيسة المسيح مقدّسة بالدم، فيلتهب قلبها بالحياة الكنسية لتشهد لمخلصها بروح عريسها الوديع أمام رجلها. في الصليب يجتمع العروسان معاً ليتنافسا علي حياة العطاء والبذل، فيصير حبّهما الزوجي عملاً كنسياً إفخارستياً.

ج. تناولهما مع بقية المتعبّدين من جسد الرب والدم يعلن عن وحدتهما معاً في المسيح يسوع.

د. في سرّ الإفخارستيا تتحطّم الحواجز المادية لترتفع الكنيسة المجتمعة كما إلى السماء، والعروسان في هذا يرتفعان بأنظارهما إلى أحداث الزواج لينعمان بحياة سماوية، يعيشا في بيت الزوجية فوق حدود الجسد وغرائزه والمادة والزمن. لهذا السبب قاوم القديس يوحنا الذهبي الفم في أكثر من عظة الحفلات المأجنة التي تقام بمناسبة إتمام سرّ الزواج، لأنّه بينما ترفع الكنيسة أنظار العروسين إلى السماء، إذ بالحفلات تسحب قلوبهما للمتعة الزمنية.

ثالثاً: موكب العروسين

عرفت الكنائس التقليديّة علي وجه الخصوص "موكب العروسين"، ينطلق الموكب من

¹ Meyendorff, p 27.

الخارج إلى صحن الكنيسة حيث يستقر العروسين أمام الهيكل. ويرى بعض الدارسين في هذا الموكب صورة لانطلاق العروسين من العالم إلى أورشليم العليا يتقدمها رئيس الكهنة الأعظم ربنا يسوع المسيح ويقودهما في موكب نصرته (٢ كو ٢: ١٤) بروحه القدوس ليهبهما شركة مجده الأبدي والتمتع بالعرس السماوي. بمعنى آخر هو موكب الدخول في ملكوت الله، لهذا في الطقس البيزنطي يفتح الكاهن الصلاة هكذا:

"مباركة هي مملكة الآب والابن والروح القدس، الآن والي الأبد والي دهر الدهور"، وفي الطقس القبطي يبدأ الكاهن الصلاة بمجرد استقرار العروسين أمام الهيكل، معلناً ارتباط هذا السر بملكوت الله، إذ يقول:

"باسم ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح... نعلن عقد زواج الابن... علي الابنة...
باسم الآب والابن والروح القدس، الله الواحد،
مبارك الله الآب ضابط الكل آمين...
مبارك ابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا آمين...
مبارك الروح القدس الباراقيط آمين..."

رابعاً: وضع الإكليلين

تعتبر الصلاة علي الإكليلين ووضعهما علي رأس العريس وعروسه عصب طقس السر، حتى أن السر نفسه يُسمى بالإكليل.

يرى القديس يوحنا الذهبي الفم^١ أن الإكليلين في هذا السر يشيران إلى الغلبة علي الهوى (آلام الخطية)، لأن الزواج المسيحي هو سر خاص بالأبدية لا يحذه الفكر الجسداني. لا يمس العروسين قدر ما يمس العريس الأبدي، إذ يقول الكاهن: [الله الذي كَلَّ قديسيه بأكاليل لا تذبل، وصالح السمائيين مع الأرضيين...]

كأن الكنيسة أرادت أن ترفع الفكر أثناء ممارسة الطقس إلى الإكليل الأبدي والعرس السماوي الذي تم خلال المصالحة بالصليب، والذي يلقي بظله علي الزواج المسيحي. الزواج الحق ليس ضعفاً أو هزيمة بل هو إكليل وغلبة بالرب واهب النصرة. هذا ولبس الإكليلين وجلس العروس عن يمين عريسها يعلن عن نظرة الكنيسة إليهما كملك وملكة قد توجا في الرب.

¹ In 1 Tim., hom 9.

خامسًا: موضوع الصلوات

الأمر العجيب أن الصلوات في مجملها تدور حول العرس السماوي، سواء في طقس الخطبة أو الإكليل. ففي الخطبة بعد صلاة الشكر، يقول الكاهن: [أيها السيّد الحقيقي، كلمة الله الأزلي الوحيد، يا من خطب النوع الإنساني للفرح الأبدي بتجسده المنيف المجيد، عاقداً أملاك النفوس المؤمنة بصلبيه الميمون، ومطهرًا إيّاها بحميم الميلاد الثاني المصون، واهبًا لها حلي مواهب الروح القدس، منعما عليها بمائدة الحياة وكأس الخلاص السري الأنفس، صائرًا لها وراعياً ورئيساً أسمى، وعريساً سمائيًا...]. هكذا كأن الكاهن وقد رفع نظره إلى العريس السماوي ليجد نفسه متهللاً بعريسٍ يُقام باسم البشريّة المؤمنة كلها، يبدأ الاحتفال به بتجسد العريس ويتحقّق خلال دم الصليب، ويتم في مياه المعموديّة، وتنال العروس مواهب الروح القدس كخليّ أو خاتم الخطبة، وتتمتع بمائدة الإفخارستيا كوليمة العرس الأبدي.

سادسًا: تطويب العذراء مريم

لا تنسي الكنيسة - بإرشاد روح الله القدّوس - تطويب القدّيسة مريم في أكثر من موضع أثناء طقس الزواج، إذ ترى العريس الحقيقي متجسدًا في أحشائها، لذا يقول المرتلون: "الباب الذي في المشارق هو مريم العذراء، الخدر الطاهر الذي للختن (العريس) النقي" (مرد الصلاة الأولى للزواج).

يرى المؤمنون في أحشائها خدرًا مقدّسا حمل القدّوس، ويرون فيها العروس المحبوبة، فيقولون: [سليمان يدعوك في نشيد الأناشيد، قائلاً: "أختي، حبيبتي، مدينتي الحقيقيّة، أورشليم".] (مرد لأجل والدة الإله القدّيسة مريم).

هكذا تلتحم البتوليّة بالزواج خلال الإيمان، ففي سرّ الزواج نطوّب البتوليّة خلال القدّيسة مريم، وفي البتوليّة نرى سرّ الزواج علي مستوى فائقٍ مع العريس السماوي.

سابعًا: تلاقي الأيدي

يذكر العلامة ترلتيان من رجال القرن الثاني عن الخطبة أن العروسين يمسان بأيدي بعضهما البعض ويتبادلان القبلة¹. وفي الطقس القبطي بعد وضع الأكاليل يضع الكاهن يد

¹ Apol. 6, de Virg. Vel 11, David: Dict of Liturgy & Worship. p. 256.

العريس اليميني علي يد العروس اليميني ويضع عليها "لغافة" بها علامة الصليب. ولعل هذا الطقس يعني أن التلاقي بين العريسين ليس علي مستوى العاطفة البحتة، وإنما علي مستوى العمل (تلاقي الأيدي) خلال الفكر الناضج والجهاد المستمر، يعملان معًا مستتران تحت ظل الصليب لحساب مملكة الله!

ثامنًا: الدهن بالزيت

في الصلاة علي الزيت يقول الكاهن: [لكي تبارك هذا الزيت تبريكا، ليكون زيتًا لتقديس عبدك (فلان وفلانة)، آمين...
سلاح البرّ والعدل، آمين.....

قوةً وخلصًا وغلبةً علي كل أفعال المضاد، آمين.]

وعند الدهن يقول المرتلون: [ليبطل هذا الدهن الشياطين. هذا الدهن ضد الأرواح الرديئة. هذا دهن الأرواح المقدسة. هذا الدهن ضد مقاومة الأرواح النجسة، بيسوع المسيح ملك المجد.]

إن كان سرّ الزواج يقيم كنيسة صغيرة جديدة، يسكنها المسيح بنفسه فلا يقف عدو الخير مكتوف الأيدي، إنما يبذل طاقته لمقاومتها، فالدهن هنا هو سلاح البرّ بالمسيح يسوع الذي به نغلب روحياً. بمعنى آخر، الزواج وهو "سرّ الفرح" يلزمه جهاد روحي غير منقطع حتى يتم إكليلنا أبدياً.

هذه صورة مبسطة لبعض ملامح طقسنا القبطي الخاص بسرّ الزواج.

ليت إلهنا الصالح يهب الكنيسة كلها متعة سرّ الإكليل الأبدي والتمتع بالعريس السماوي وشركة مجده الفائق. آمين.

البتولية والترمل والحب الزوجي

بين الزواج والبتولية والترمل

مادمنا قد تحدثنا عن الحب الزوجي يليق بنا أن نشير إلى علاقته بالبتولية والترمل في شيء من الاختصار^١.

كان اليهود يرون الزواج أمرًا ضروريًا، ويحسبون من لا يريد الزواج قد ارتكب جرمًا. بينما يتطلع كثير من الفلاسفة إلى الزواج كشرٍ يجلب متاعب لا حصر لها، لكنه شر لا بد منه.

في قوانين **Lycurgus** كان غير المتزوجين يمنعون من مشاهدة الألعاب العامة، وفي قوانين **Sportans** كان غير المتزوجين يُعاقبون. وأعلن أفلاطون بأن هؤلاء لا يستحقون أية كرامة، ومع هذا وجد فلاسفة يونانيون يدافعون عن العزوبة وعدم الزواج.

عالج القديس بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس الأصحاح السابع هذا الأمر. ويمكن تلخيص ما ورد في هذا الإصحاح عن الزواج والبتولية في النقاط التالية:

١. يعلن الرسول عن سمو الحياة البتولية [١، ٨] بالنسبة لمن لم يتزوج أو البتول. فقد عاش الرسول بولس بتولاً، متفرغاً للخدمة دون تحرق. فالبتولية ليست غاية في ذاتها، بل هي تكريس الطاقات والإمكانات للعبادة أو الكرازة. فإن كان الرسول يشاق أن يقتدي الكل به، ذلك ليس لأن الزواج خطية، وإنما لأجل الرب لمن وهبوا هذه العطية. "فأريد أن تكونوا بلا هم. غير المتزوج يهتم في ما للرب كيف يرضي الرب. وأما المتزوج فيهتم في ما للعالم كيف يرضي امرأته" [٣٣].

ب. يلزم ألا يتمتع أحد عن العلاقات الزوجية كأمرٍ دنسٍ، إنما يمكن الامتناع إلى حين، للتفرغ للعبادة، وبموافقة الطرفين.

ج. إن قبل أحد الزوجين الإيمان المسيحي، وقبل الطرف الثاني، وهو غير مسيحي،

^١ راجع تفسيرنا: رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس الأصحاح السابع.

أن يبقى معه فلا يمتنع الأول. لأن غير المؤمن مقدس في المؤمن، وإلا يُحسب الأولاد نجسين. هذا لا يعني التصريح للمسيحي بالزواج بغير المؤمنة، إنما يتحدث عن كانا متزوجين قبل قبول أحدهما الإيمان بالمسيح.

د. لا يليق بالمتزوج أن يندم على زواجه، ويمكن للبتول أن يبقى هكذا، لكنه إن تزوج لا يخطئ. من لا يضبط نفسه فليتزوج "لأن التزوج أفضل من التحرق" [٩]. ولكل مؤمن موهبته الخاصة من الله: الزواج أو البتولية [٧].

يقول **ثيودور أسقف قورش**: [سأل أهل كورنثوس بولس إن كان من حق المسيحيين المتزوجين، وقد نالوا العمد، أن يتمتعوا بالعلاقات الجسدية بين الزوجين. أجاب بولس أنه يمدح العفة، ويدين الزنا ويسمح بالعلاقات الزوجية^١.]

❖ احضر تقدماتك؛ أي نوع من التقدمات؟ تقدمات نفسك! فالبتولية هي ذبيحة مُحرقَة للمسيح، وكل طهارة سواء في الحياة البتولية أو الترمّل أو العفة (الزوجية) هي تقدمَة ذبيحة للمسيح^٢.

❖ بينما نحن نسمح بالزواج لكننا نفضل البتولية التي تتبع عن الزواج... هل تُحسب إهانة للشجرة إن فُصل تفاحها عن جذورها وأوراقها؟ وهل يتأذى القمح لأنك تعطي الأولوية للسنبلة عن الساق والنصل؟ كما أن التفاح هو من الشجر، وحبوب الحنطة من السنبلة هكذا البتولية هي من الزواج. قد تتحقق المحاصيل مئة ضعف وستون وثلاثون عن تربة واحدة وزرع واحد، لكن الاختلاف هو في الكمية. الثلاثون ضعفًا يشير إلى الزواج... وستون ضعفًا يشير إلى الترمّل حيث يوجد الأرامل في شيء من الضيق والتعب... والمئة ضعف يشير إلى إكليل البتولية^٣.

القديس جيروم

❖ البتولية ليست احتقارًا للزواج... ولا تلمح هذا الاستعلاء، لأن العلاقة بين الرجل والمرأة كعلاقة المسيح بالكنيسة^٤.

القديس أغناطيوس الثيوفورس

¹ PG 82:271.

² On Ps. hom 23.

³ Ep. 98 : 2, 3.

⁴ Ad Polycarb 5:1.

❖ لا يظن أحد أنني أقل من قيمة الزواج كسُنّة ونظام. نحن لا نجهل أن الزواج ليس غريبًا عن بركة الله^١.

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

❖ إننا لا نمنع من يرغب في الزواج، لكننا نشجع من لا يرغبون فيه لأجل البتولية. يوجد فارق بين المنع وأن يُترك الإنسان يتصرف بكامل حريته. من يمنع يأمر بذلك للجميع، أما من يوصي بالبتولية كحالة أسمى فإنه لا يمنع الزواج إنما يفضل البتولية^٢.

❖ المرأة غير المتزوجة لديها حصن البتولية الذي يحميها من عواصف هذا العالم. هكذا إذ تتحصن في حماية الله لا تضطرب برياح، لذلك فإنه لكي نتأهل لكي نراه، سواء كنا في البتولية أو الزواج الأول أو الثاني لنسلك هكذا وهو أن نبغي ملكوت السماوات خلال نعمة ورأفات ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والقوة والكرامة مع الآب والروح القدس الآن وإلى الأبد آمين^٣.

القديس يوحنا الذهبي الفم

يا لعظمة البتولية!

❖ البتولية تخلص من المتاعب الأرضية، وتحرر بطهارتها، إذ هي تنتظر العريس الطوباوي^٤.

العلامة أوريجينوس

❖ كل الكلمات البشرية قاصرة عن أن تضيف شرقًا أكبر لنعمة فائقة كالبتولية.

❖ ما انفصلت البتولية قط عن الملتصق بواهب صفات الألوهية... إن كل قواميس اللغة وأساليب البلاغة تُحتقر احتقارًا إن أُستخدمت في مدحها.

❖ البتولية رفيقة الإنسان في عمله الروحاني، ومساعدة له في البلوغ إلى الهدف السامي للحياة... إنها الطريق العملي في علم الحياة الإلهية. وهي تهب الأشخاص قوة حتى أنهم يتشبهون بالطبائع الروحانية^٥.

^١ فلسفة البتولية، ٨.

^٢ In 1Tim. hom 12.

^٣ In 1 Corinth., hom. 19:7.

^٤ Commentary on 1 Cor. 3:39:51-52.

^٥ فلسفة البتولية، ١، ٢، ٥.

❖ الطهارة تصل إلى درجتها الأولى في المتبتلين، والثانية في المتعفين، والثالثة في المتزوجين. ولكنها مجيدة في الكل بكل مستوياتها...
بهاء (الطهارة) يزداد بين الذين يمارسونها كما أنها أيضا هي تزيّنك... فالكل دائن ومدين بالشرف للآخر (الطهارة تشرف الإنسان، والإنسان الطاهر يشرف الطهارة). إنها تضيف عليك بهاء المثل العليا، وأنت تضيف عليها جلال أعمال القداسة.

القديس غريغوريوس النيسي

❖ المسيح نفسه بتول، وأمه أيضًا عذراء، نعم مع أنها أمٌ لكنها بقيت عذراء.
لقد دخل يسوع والأبواب مغلقة (يو ١٩:٢٠). وفي قبره قُطع قبر جديد من صخرة صلبة للغاية، لم يرقد فيه أحد قبله ولا بعده (يو ١٩:٤١). مريم هي جنة مغلقة... ينبوع مختوم" (نش ١٢:٤). وكما جاء في يوثيل (LXX ١٨:٣) من هذا ينبوع يفيض النهر بمياهه^١.

القديس جيروم

❖ عظيمة هي البتولية والعزوبة والانتظام مع الملائكة ذوى الطبيعة البسيطة. أخشى ان أقول: والانتظام مع المسيح، الذي لما شاء أن يولد لأجلنا قد وُلد من بتول، فاشترع البتولية لكي نتقلنا من هنا وتفصلنا عن العالم. أو بالحري تجعلنا نستخف بالعالم لأجل عالم آخر، بالحاضر لأجل الآتي^٢.

القديس غريغوريوس النزينزي

❖ يوجد طريقان للحياة... الواحد عفيف وعادي أقصد به الزواج، والآخر ملائكي وفائق للطبيعة أقصد به البتولية، إن اختار إنسان طريق العالم أي الزواج فيحق لا يُلام لكنه لا ينال المكافأة كالآخر، إذ هو يثمر ثلاثين ضعفًا، إما إن قبل إنسان الطريق المقدس غير الأرضي - إن قورن بالسابق - فهو طريق وعر يصعب تحقيقه، لكن عطاياه أكثر عجبًا إذ ينتج ثمارًا أكمل أي مئة ضعف^٣.

^١ Letter 48:21.

^٢ الأب الياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٢٤٢.

^٣ Ep. 48

القديس أثناسيوس الرسولي

بتولية الجسد وبتولية الروح

يحدّرنا القديس كبريانوس لئلا نعتد على بتولية الجسد وحدها حتى وإن كانت من أجل الرب، إنّما يلزم الجهاد في بتولية النفس خلال التمتع بالحياة الكنسية المقدّمة. لقد خشى على البتوليين من الكبرياء خلال بتوليتهم الجسدية، إذ يقول: [ليت الذين صاروا خصياناً من أجل ملكوت السماوات مرّة يُرضون الله في كل شيء، ولا يضادّون كهنة الله ولا رب الكنيسة خلال عثرة شرهم^١].

- ❖ ربّما تُفقد البتولية بمجرد فكر. فالبتوليون الأشرار هم البتوليون بالجسد دون الروح، هؤلاء أغبياء ليس لهم زيت، لذا يطردونهم العريس^٢.
- ❖ أوّدك أن تخرجي من نذر البتولية لا بالكبرياء بل بالمخافة. إنك تسيرين حاملة ذهباً، تحفّظي من طريق اللص (الكبرياء)^٣.

القديس جبروم

- ❖ لا تكمن نعمة البتولية فقط في الامتناع عن إنجاب الأطفال، إنّما تمس حياتنا كلها، وسلوكنا، وأخلاقنا، فيكون ذلك كله بتولاً، مظهرين في كل تصرف الاستقامة المطلوبة بالنسبة للبتول. فيمكن بالحق أن يرتكب الإنسان الفسق في كلماته، وجريمة الزنا بعينيّه، والفساد بالسمع، والدنس في القلب، وأن ننتهك حدود ضبط النفس بعدم الضبط في الطعام والشراب. أما من يحفظ نفسه تحت ضوابط في كل هذه الأمور، حسب تدبير البتولية، فبالحق يظهر في نفسه نعمة البتولية متقدّمة تماماً وتبلغ كما لها^٤.

القديس باسيليوس الكبير

- ❖ لا تكرم البتولية من أجل ذاتها، وإنّما لانتسابها لله^٥.
- ❖ من هنّ العشر عذارى اللاتي منهنّ خمس حكيمات وخمس جاهلات؟... هذا المثل أو هذا

^١ Ep. 61:5.

^٢ Ep. 22:5.

^٣ Ep. To Eustochum 22: 3.

^٤ An Ascetical Discourse, (Frs. Of the Church, volume 9, p. 207-208).

^٥ De Sacr. Virg. 8.

التشبيه لست أظن أنه ينطبق على أولئك النساء اللواتي يُدْعَيْن "عذارى" في الكنيسة من أجل قداستهنَّ العظيمة، وإنما اعتقد أنه ينطبق على الكنيسة كلها... إنه لا ينطبق على الكهنة وخدمهم الذين تحدّثنا عنهم بالأمس ولا على الشعب وحده، وإنما على الكنيسة بأكملها.

لماذا كان عدد كل منهنَّ خمسة؟... كل روح في جسد يُعرف برقم خمسة، إذ يستخدم الحواس الخمس، فالجسد لا يدرك شيئاً إلا عن طريق المدخل ذي الخمسة أبواب: النظر والسمع والشم واللمس والتذوّق. فمن يضبط نفسه في النظر والسمع والتذوّق واللمس والشم بعيداً عمّا هو غير طاهر يحمل لقب "عذراء".

إن كان من الصالح أن يحفظ الإنسان حواسه عن المثيرات الدنسة، بذا يصير لكل **نفس مسيحية لقب "عذراء"**، فماذا إذن خمس منهنَّ مقبولات وخمس مرفوضات؟ إنه لا يكفي أن يُكَنَّ عذارى وأن يحملن مصابيح، فهنَّ عذارى لحفظهن من ملذّات الحواس الدنسة، ولهن مصابيح لأجل أعمالهن الصالحة التي يقول عنها الرب: "قليضيء نوركم قدّام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة، ويمجّدوا أباكم الذي في السماوات" (مت ٥: ١٦). مرة أخرى يقول لتلاميذه: "لتكن أحقاؤكم ممنطقة وسُرْجكم موقّدة" (لو ١٢: ٣٥)، فبالأحقاء يعني البتولية والسُرْج الموقّدة يعني الأعمال الصالحة.

إن لقب "البتولية" عادة لا ينطبق على المتزوجين، لكنّه هنا يعني **بتولية الإيمان التي تمثّل الطهارة المكلّلة**. لذلك لتعلموا يا إخوتي المقدّسين أن كل إنسان وكل نفس لها الإيمان عديم الفساد الذي به تُمسك عن الأشياء غير الطاهرة، وبه تصنع الأعمال الصالحة، لا تُحسب **خلسة أن تدعى عذراء**، فكل الكنيسة التي يدخل في عضويتها عذارى وصبيان ومتزوجين ومتزوجات يطلق عليها لقب "عذراء"، كيف هذا؟ لتسمع قول الرسول عن الكنيسة عامة وليس عن النساء المتبتلات وحدهنَّ: "خطبتكم لرجلٍ واحد لأفدّم عذراء عفيفة للمسيح" (٢ كو ١١: ٢). ولأنه يجب الاحتراس من الشيطان مفسد الطهارة أردف الرسول قائلاً: "ولكنني أخاف أنه كما خدعت الحيّة حواء بمكرها تُفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح" (٢ كو ١١: ٣). **قليلون اقتنوا بتولية الجسد لكن يليق بالكل أن يقتنوا بتولية الروح**. فإن كان التحفظ من الفساد أمراً صالحاً، لذلك تقبل النفس لقب البتولية، وإن كانت الأعمال الصالحة تستحق المديح وقد شُبّهت بالمصابيح، فلماذا خمس منهنَّ مقبولات وخمس مرفوضات؟... وكيف نميّز بين الاثنين؟

يُمَيِّزُ بَيْنَهُنَّ بِالزَّيْتِ؛ هَذَا الزَّيْتُ هُوَ شَيْءٌ عَظِيمٌ وَعَظِيمٌ جَدًّا، أَلَا وَهُوَ الْمَحَبَّةُ... يَقُولُ الرَّسُولُ: "وَأَيْضًا أُرِيكُمْ طَرِيقًا أَفْضَلَ: إِنْ كُنْتَ أَتَكَلَّمُ بِاللِّسَانِ وَالْمَلَانِكَةِ وَلَكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ فَقَدْ صَرْتُ نَحَاسًا يَطْنُ أَوْ صَنْجًا يَرِنُ" (١ كو ١٢: ٣١؛ ١٣: ١). هَذِهِ هِيَ الْمَحَبَّةُ، الطَّرِيقُ الْأَفْضَلُ، وَالتِّي شُبِّهَتْ بِالزَّيْتِ، إِذْ يَطْفُو عَلَى جَمِيعِ السُّوَالِ. إِنْ صَبَّيْتُ عَلَيْهِ مَاءً يَطْفُو الزَّيْتُ.... لِأَنَّ "الْمَحَبَّةَ لَا تَسْقُطُ أَبَدًا" (١ كو ١٣: ٨).^١

القديس أغسطينوس

❖ المسيح هو عريسك أيتها البتول، فلماذا تجتذنين الأحباء البشريين؟... الزينة التي ترضي الله هي الوداعة والعفة والالتزام بالترتيب واحتشام الملابس؟... كفى غباء أيتها السيدة! حولي اهتمامك إلى نفسك، وإلى زينتك الداخلية.^٢

القديس يوحنا الذهبي الفم

اعتزاز الأرامل بمركزهن

كتب القديس جيروم إلى الأرملة فيوريا Furia، مقدمًا لها حنةً مثلًا حيًا، إذ يقول: [أتريدين أن تعرفي ما يجب أن تكون عليه الأرامل؟ لنقرأ الإنجيل بحسب لوقا، فإنه يقول: "وكانت نبية حنة بنت فنوئيل من سبط أشير". فَإِنَّ كَلِمَةَ "حَنَّةُ" تعني "نعمة (حنان الله)"، وفنوئيل في لساننا يعني "وجه الله"، وأشير "يمكن ترجمتها "غنى" أو "طوباوية"، وكانت منذ صباها قد تحمّلت الترمّل لمدة ٨٤ عامًا لا تفارق الهيكل، عابدة بأصوامٍ وطلباتٍ ليلاً ونهارًا لذلك نالت النعمة روحياً وتقبّلت لقب "ابنة وجه الله" وتمتعت بنصيب في "الطوباوية والغنى" إذ تنسب له^٣.]

يقول الرسول بولس: "المرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حيًا، ولكن أن مات رجلها فهي حرة لكي تتزوج بمن تريد، في الرب فقط" (١ كو ٧: ٣٩).

❖ ليت النسوة يصغين إلى هذا هؤلاء اللواتي يدخلن في زواجٍ ثانٍ ويسينون مضطجع الزوج الراحل، مع أنهن يحبونه.

لست بهذا أمنع الزواج الثاني، ولا أنطق بهذا على أنه دنس. فإن بولس لن يسمح لي بذلك، فيغلق فمي بقوله للنساء: "إن تزوجت لم تخطئ".

^١ Ser. on N. T. 43:1-5.

^٢ In 1 Tim. hom. 8.

^٣ Ep. 54:16.

لكنها ليتها تنصت إلى ما بعد ذلك: "ولكنها أكثر غبطة إن لبثت هكذا". هذه الحال أفضل من الأخرى، لماذا؟ لأسباب كثيرة. فإنه الأفضل ألا يتزوج الإنسان نهائياً عن أن يتزوج، وأما هذه الحال فهي أفضل بكثير. قد نقول: "ولكن البعض لا يحتملون الترملة ويسقطون في متاعب كثيرة". نعم لأنهم لا يعرفون ما هو الترملة. لأنه ليس الترملة مستثنى من الزواج الثاني، وأما البتولية فلا يسمح لها بالزواج نهائياً!^١

القديس يوحنا الذهبي الفم

"ولكنها أكثر غبطة أن لبثت هكذا بحسب رأيي، وأظن أنني أنا أيضاً عندي روح الله" (١ كو ٧: ٤٠).

❖ إن ماتت زوجة أو زوج والآخر تزوج فهل هذا خطية؟ لا، لكن إن بقي بدون زواج ينال كرامة أعظم ومجداً أفضل في عيني الرب.^٢

هرماس

❖ إنها مطوبة إن تزوجت وصار لها زوج يحميها، لكن تكون أكثر تطويلاً إن كانت من أجل التقوى ترفض الزواج وتكرس حياتها بالكامل لله.^٣

سفيريان أسقف جبالة

❖ لاحظ أن بولس لم يقل بأن المرأة التي تعقد زواجا ثانياً ستكون بائسة. إنما يقول بأنها تكون أكثر سعادة إن بقيت بلا زواج. إنه موضوع درجات.^٤

ثيودورت أسقف قورش

❖ عندما يقول: "لأجل اللياقة" و"لكي تصغي للرب من دون ارتباك" [٣٥]، يقدم ملخصاً لكل الفضيلة بطريقة معينة. ها أنتم ترون أنه ليس مجرد عدم عقد زواج ثانٍ يمكن وحده أن يجعلها أرملة، إنما تحتاج إلى أمور أخرى ضرورية. ولكن لماذا لا يشجع الزواج الثاني؟ هل هذا الأمر ممنوع؟ حتماً لا! لأن هذه هرطقة. وإنما أراد هنا فقط أن تتشغل بالأمور الروحية موجهاً كل اهتمامها إلى الفضيلة. لأن الزواج ليس حالة من الدنس وإنما حالة

^١ In 2 Tim., hom. 7.

^٢ The Shepherd 4:4.

^٣ Pauline Commentary from the Greek Church.

^٤ PG 82:286.

انشغال. إنه يتحدث عن إيجاد وقت وليس أنهم يصرون أكثر طهارة ببقائهن بغير زواج. لأن الزواج بالتأكيد يتطلب اهتمامات عالمية أكثر. إن امتنعت عن الزواج لكي تجد وقتاً أكبر لخدمة الله ولم تنتفع بهذا الوقت فلا نفع لها من ذلك، مادامت لا تتم كل الخدمات للغرباء والقديسين^١.

❖ يا للغرابة! أية دقة يتطلبها في الأرملة، فإنها تكون ذات السمات المطلوبة في الأسقف^٢.

❖ يلزم الأرملة أن تتم كل عمل صالح، وإن لم تستطع فلتساهم فيه.

❖ هكذا يتطلب الرسول التدقيق في الأرملة أكثر مما يتطلبه في العذراء، يتطلب فيهن أن يكن أكثر دقة وأعظم فضيلة^٣.

❖ بقوله هذا جعلنا نفهم أن اللواتي فقدن رجالهن هن عرائس المسيح بدلاً من رجالهن... هذا أنت ترين أن كرامة عظيمة تُمنح للأرملة! هذا في العهد الجديد حيث أضاء نور البتولية أيضاً بوضوح. وبالرغم من شدة بهاء هذه الفئة (البتوليين) إلا أنها لا تطغي على أمجاد الأرملة، حيث تضيء لكل محتفظة بقيمتها^٤.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ليس فقط طهارة الجسد وحدها هو هدف الأرملة القوي، وإنما ممارستها للفضيلة على نطاق عظيم وبفيض^٥.

❖ ليس بلا سبب يجب أن يكن بلا لوم، هؤلاء اللواتي إذ يرتبطن بالأعمال الفاضلة تكون لهن كرامة عظيمة حتى أن الأساقفة يكرمهن. ليس كبير السن وحده يجعل منها أرملة وإنما استحقاقها كأرملة^٦.

القديس أمبروسوس

❖ بولس يريد دائماً الأفضل للمسيحيين. فإن أراد أحد بحق أن يتزوج فالأفضل له أن يتزوج

¹ In 1 Tim., hom. 14.

² In 1 Tim. hom 14.

³ In 1Tim. hom 10.

^٤ للمؤلف: القديس يوحنا الذهبي الفم رسالة تعزية لأرملة شابة، ص ١٤.

⁵ Conc. Widows 2.

⁶ Conc. Widows 2.

علانية بالسماح الممنوح له عن أن يسلك بطريقة رديئة ويكون في عارٍ خفية^١.

أمبروسياستر

¹ CSEL 81:89.

الحب العائلي

- ١ . الرباط العائلي.
- ٢ . الوالدية في المسيحية.
- ٣ . والدية مسئولية.
- ٤ . الوالدية بين الحب والسلطة.
- ٥ . الوالدية والحب المقدس.
- ٦ . الوالدية والحزم.
- ٧ . تنشئة الأطفال والمجد الباطل.
- ٨ . آباء محبوبون.
- ٩ . البنوة المسيحية.
- ١٠ . أب عجيب وأبناء وبنات في الرب.

الرباط العائلي

الحب دعامة الأسرة

بدأ ربنا يسوع المسيح خدمته بحلوله في عرس قانا الجليل، معطيًا بهذا للأسرة مركزًا أساسيًا في عمله الإلهي، إذ يحل الرب بنفسه في سرّ الزواج، ويتقدم إلى العروسين ليرافقهما في بيتهما الجديد ككنيسة صغيرة مقدسة، بكونها امتدادًا للكنيسة الأم المدشّنة للرب^١.

في عرس قانا الجليل طلب الرب الأجران الفارغة، وأمر أن تُملأ ماءً، ليحوّلها إلى خمرٍ يبهج المدعوين. والخمر في الكتاب المقدس يشير إلى الحب كما إلى الفرح الروحي. هكذا يتقدم الرب في سرّ الزواج، وسط العرس، طالبًا من العروسين أجرانهما الفارغة العاجزة كل العجز عن أن تقدم لهما أو لغيرهما ما يسر القلب ويبهج النفس. يطلب الرب ماءً، أو يطلب عواطفهما الموهوبة لهما ومحبتهم الغريزية ودوافعهم، ليخلق من الماء خمرًا فريدًا في نوعه، إذ يرتفع الرب بطبيعتهم إلى ما هو فوق الطبيعة. يهب لهما بالروح القدس حبًا يبتلع كل العواطف والانفعالات ويسمو عليها، إذ يصير لهما حبًا على مثال حب المسيح والكنيسة الأبدي.

هذا هو عمل سرّ الزواج؛ يربط الروح القدس الزوجين بالحب الحقيقي بكونهما قد صاروا جسدًا واحدًا، ليعيشا معًا بالحب، متحدي الرأي والفكر والجسد أيضًا، خلال ربنا يسوع المسيح. ترتفع أنظارهما ليُشاهدا في بيتهما ربنا متجليًا.

خلال هذه النظرة يتذوق الزوجان أبوة الله الحانية، ويدركان أمومة الكنيسة الحقيقية، فيتفهمان الأبوة والأمومة، لا عند حدود الدوافع الطبيعية، بل على مستوى إيماني إلهي عميق. والأبناء أيضًا بارتباطهم بالابن الوحيد يتفهموا البنوة في طاعة وخضوع متّسمين بالحب. وهكذا تقوم الروابط بين أفراد العائلة على أسس روحية عميقة تفوق حدود

^١ يُطلق اسم "كنيسة" على جماعة المؤمنين سواء السابقين المنتقلين أو الأحياء المجاهدين أو المقبلين في الأجيال القادمة.

وبيت الرب المدشّن لله هو كنيسة.

والنفس البشرية بارتباطها في الكنيسة كعضو حيّ فيها تُسمى كنيسة. وهكذا البيت المسيحي بعضويته الفعالة في الكنيسة يُدعى كنيسة

الطبيعة.

الاستقرار العائلي

تجلّى ربنا يسوع المسيح في البيت المسيحي الحقيقي يخلق جوًا من الحب الباعث على الوحدة مع الاستقرار، أمور لا تتحل عبر الزمن، ولا بسبب أحداث. هذا الجو العائلي أو قل الكنسي الإنجيلي الحق تعمل الكنيسة على تأكيده وتثبيته بكل وسيلة، حتى تستقر الروابطات بين أعضاء الأسرة في طمأنينة، فقد أوصت بالآتي:

١. لا يتم الزواج إلا بين رجل واحد مع امرأة واحدة، لا يفرّق بينهما ثالث يغتصب جانبًا من جوانب أحد الزوجين. هذا وقد أوصى الرب أن يترك الرجل (وأيضًا المرأة) أباه وأمه ويلتصق بامرأته. إنه تأكيد لأهمية وحدة البيت وسلامه! وحفظ ثبات الرباط بين الزوجين وأولادهما.

٢. ارتباطهما في المسيح يسوع، فلا يكفي أن يقوم الزواج بين رجل وامرأة تقوم بينهما مودة وحب منعزلين عن أهلهم، إنما يلتزمان بالارتباط في شخص ربنا يسوع، حتى لا يفارقهما النظر نحو الصليب.

فالزواج ليس انسجامًا عاطفيًا مجردًا، ولا بالاتفاق في الفكر أو الرأي فحسب، إنما هو اتحاد معًا في المسيح يسوع في دائرة الصليب. خلال الصليب لا يمكن أن يوجد انقسام ولا خصام ولا أنانية، بل يحتمل كل عضو ضعفات الآخرين، مقدمًا حياته الزمنية ذبيحة حب من أجل خلاصهم. أي حب أعظم من هذا؟!

٣. ارتباط الزوجين وأولادهما بالكنيسة الأم، فيدرك الكل رسالتهم أنهم قد تسلّموا روح الوحدة والحب من السيد المسيح، مقيمون كنيسة له، تشهد لحياته فيهم، ويسلمون وديعة الإيمان الحية العملية عبر الأجيال.

وقد حرص السيد المسيح أن يرتبط البيت بالكنيسة، لكي يعيش الكل بروح عريسهم، فينمون في حياة الحب.

ترتبط الأسرة بالكنيسة في كل ظروفها، في الأفراح والأحزان. فعند إنجاب طفل وعماده وتزويجه، في المرض وفي الضيق... تحت كل الظروف تلجأ الأسرة إلى الكنيسة كأم تسند البيت بالصلاة والتسبيح والشكر ليعيش الكل معًا تحت قيادة روح الله القدوس، الذي يهب حبًا وفرحًا وسلامًا (غل ٥: ٢٢).

٤. منع الطلاق نهائيًا إلا لعلّة الزنا، فيحتمل كل عضو ضعفات الطرف الآخر

من أجل الرب. بهذا تستقر نفسية الرجل والزوجة والأولاد، واثقين أن استقرارهم لا يتوقف على أهواء شخص ومزاجه، خاصة وأن الكنيسة تمنع زواج المطلّقين بسبب العلة. وأكثر من هذا تنتظر الكنيسة إلى "الزواج الثاني" بعد وفاة الزوج أو الزوجة الأولى بغير استحسان. وهذا يعمل على استقرار نفسية الأبناء الذين من الزواج الأول، وعلى توثيق الربط بين الزوجين وأولادهما.

في كتاب "الراعي" لهرماس^١، وهو من الكتب الكنسية التي كان لها تقديرها الخاص في العصور الأولى لم يكن يسمح للزوج أو الزوجة بالطلاق حتى إن سقط الطرف الآخر في الزنا، بل ينتظر توبته وقيامه، لكنه إن سقط مرة أخرى فلا يجوز عدم الطلاق، وإلا حسب الطرف البريء متهاوئاً مع الخطيئة وشريكاً في الزنا. لست بهذا أعني أننا نقبل عدم تطليق الزاني للمرة الأولى، لكن هذا الكتاب يكشف عن جانبين مهمين: ترجيّ توبة الساقطين والحفاظ على قدسية الزواج ووحدته ما أمكن.

الاهتمام بكل عضو في الأسرة

في القديم غالباً ما كانت الأسرة تقوم على أساس شبه دكتاتوري، يتصرّف رب الأسرة مدبّر البيت كما يرى هو، وتلتزم بقية الأعضاء بالقبول لتدابيره دون نقاشٍ أو رقابة. أما في المسيحية فقد أعطى لكل عضوٍ في الأسرة دوره ليتكامل الكل معاً بروح الانسجام والتفاهم.

١. **فبالنسبة للزوجة**، كانت بعض القوانين القديمة تُعطي للرجل حق التصرف فيها دون مساءلة. وكانت حتى النظرة الدينية إليها أنّها علة الضعف الذي ساد العالم. جاء المسيح باذلاً نفسه من أجل الكل: الرجل والمرأة، العبد والحر... وصار الكل واحداً فيه. يقول معلمنا بولس الرسول: "لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع، لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح... ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وأنثى، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع" (غل ٣: ٢٦-٢٨).

تجسد كلمة الله من العذراء مريم التي صارت فوق كل الأرضيين والسمايين ردّ للمرأة كرامتها، وكما يقول القديس أغسطينوس:

«إنه بميلاده من امرأة أراد أن يعلن لنا عن بعض أسرارهِ العلوية، لأنه بالحق أيها

^١ المؤلف: الآباء الرسوليون، ١٩٩١م، الصليب ١٥٨ (وصية ٤).

الأحباء نسلم بأنه في استطاعته أن يصير إنساناً دون ولادته من امرأة لو أراد ذلك...
لقد وُلد من امرأة لكي يواسي جنس النساء؛ فكأنه يخاطب البشرية قائلاً: "إنه
ينبغي أن تعلموا أنه ليس في خليفة الله شر... لقد صنعت الإنسان منذ البداية، صنعتُه ذكراً
وأنثى؛ إنني لا ازدري بالخليفة التي صنعتها.
انظروا إنني وُلدت رجلاً ووُلدت من امرأة؛ لذلك لست احتقر الخليفة التي
صنعتها، بل الخطية التي لم أوجدها.

لذات السبب نجد النساء أول من أعلن للرسل عن قيامة الرب. ففي الفردوس
أعلنت المرأة الموت لرجلها، وفي الكنيسة أعلنت النساء الخلاص للرجال. لقد أعلن الرسل
قيامة المسيح للأمم، والنساء أعلن ذلك للرسل^١.

يقول **القديس إيريناؤس**: [مع أن حواء كان لها زوج هو آدم كانت لا تزال عذراء،
بعضيانها صارت سبب الموت لنفسها ولكل الجنس البشري، هكذا مريم أيضاً وهي لها رجل
مخطوبة وكانت عذراء عندما قدمت الطاعة صارت سبب الخلاص لنفسها ولكل الجنس
البشري... هكذا انحلت العقدة التي سببها عدم طاعة حواء بطاعة مريم. ما قد ربطته
العذراء حواء شديداً بعدم إيمانها، حلته العذراء مريم بالإيمان...]

ويشير **العلامة أوريجينوس** إلى القديسة مريم بكونها قد أعادت الكرامة لجنس
المرأة، هذه التي فقدتها خلال خطية حواء. في هذا وجدت المرأة خلاصها بولادة البنين (تي
٢: ١٥). كما يقول أيضاً: [الفرح الذي بوق به جبرائيل لمريم نزع حكم الحزن الصادر من
الله ضد حواء]. [كما بدأت الخطية بالمرأة وبعد ذلك عبرت إلى الرجل، هكذا بدأت البشارة
بالنسوة (مريم واليصابات)].

هكذا استعادت المرأة كرامتها، وصار لها تقديرها الخاص في الأسرة كزوجة وكأم،
وقد سبق لنا الحديث عن مساواة الزوجة للزوج في حديثنا عن الحب الزوجي.
لعل اهتمام الكنيسة بأيقونة السيدة العذراء مريم حاملة طفلها ربنا يسوع المسيح،
ووضعها على حامل الأيقونات في مدخل الهيكل الرئيسي ما يبرز للمؤمن احترامه للمرأة
وتقديره للأمومة.

٢. أما بالنسبة للطفل، فقد كانت التربية اليونانية تسمح بقتله، كأن يُترك عارياً
على الجبل يموت متى ضعفت البنية، كما كانوا يدربون أطفالهم على الغذاء الخشن، وسرقة

^١. القديس أغسطينوس: عظات على فصول منتخبة من العهد الجديد (٣:١).

الطعام من المعسكرات بشرط ألا يُضبط، وكانت الفتيات يتدربن على تمارين رياضية عنيفة لكي تتجنب الفتاة القوية البدن أطفالاً أصحاء. هكذا كان كل ما يهتم اليونان هو إيجاد أطفال أقوىاء بدنياً دون مراعاة لإنسانية الطفل الضعيف البدن أو احترام لأنوثة الفتيات. أما المسيحية فقد رفعت من شأن الطفل:

١. **دافع السيد المسيح عنهم** (مت ١٩: ١٣-١٥)، ورفع أنظارنا إلى القيم الروحية التي للطفل (مت ١٨: ٣-٥) من جهة بساطته وبرأته وطهارته. منذ ذلك الحين صارت "الطفولة" رمزاً يشواق الكل أن يبلغوها أو يصلوا إليها ليتأهلوا لملكوت السماوات، كمثال يقول القديس أغسطينوس: [إنهم المتواضعون... ينبغي أن نكون أطفالاً صغاراً].^١

ب. يتجلى إيمان الكنيسة بدور الطفل وأهميته في تمتعه بالميلاد الثاني خلال المعمودية دون أية شروط للسن، فتتلقفه المعمودية، ربما وهو ابن أيام قليلة ليعمل روح الله فيه، فيجعل منه ابناً لله ومسكناً للروح القدس، له كل حق العضوية الكنسية.

❖ من يجسر أن يقول إن المسيح ليس مخلص الأطفال وفاديههم؟^٢

القديس أغسطينوس

❖ جاء يسوع المسيح ليخلص الجميع، أعني جميع الذين ولدوا به ثانية، سواء كانوا أطفالاً أو شباناً أو شيوخاً.^٣

القديس إيرينيؤس

❖ الذين أخطأوا أمام الله إذ يؤمنون بنوال الصفح عن خطاياهم لا يمنهم أحد من المعمودية والنعمة. أما الأطفال الذين ضميرهم غير متفتح ولم يخطئوا في شيء، نظراً للخطيئة الجدية الكامنة فيهم فقد تدنسوا وصاروا مشاركي الموت الآدمي، وفي حاجة أيضاً إلى المعمودية، لأنها شرط لنوال الخلاص والصفح، لا عن الخطايا الشخصية بل والأبوية، لهذا حدد مجمعنا ما يأتي: أيها الأخ الحبيب: لا يجوز أن نمنع أحداً من المعمودية ونعمة الله، الذي هو صالح ورءوف بالجميع. فالمعمودية هي للجميع،

^١ المرجع السابق ٨:١٦

^٢ St. Augustine: On Forgiveness of sins and Baptism.

^٣ St. Irenaeus: Adv. Haer. 2:229-11.

خصوصا للأطفال الصغار، الذين بنوع خصوصي يستميلون انتباهنا وصلاح الله^١.

الشهيد كبريانوس

❖ كثيرون هم تلاميذ المسيح وهم أطفال (يقصد بالتلاميذ المعمدين)^٢.

القديس يوستين

❖ هل لك طفل؟ لا تسمح للشر أن يجد له فيه فرصة، بل ليتقدس وهو رضيع، وليتكرس بالروح منذ نعومة أظافره.

إنك تخافين أيتها الأم من الخدمة بسبب ضعف الطبيعة لأنك ضعيفة الروح وقليلة الإيمان. أما حنة فقبل أن تلد صموئيل وعدت الله به (١ صم ١: ١٠)، وبعد ميلاده كرّسته له في الحال. وبالخلة الكهنوتية ربّته، ولم تخف من الضعف البشري، بل وثقت في الله. سلّمي ابنك للثالوث القدوس فإنه حارس عظيم ونبيل^٣.

❖ ماذا نقول عن الذين لا يزالون رضع، ولم تصبهم خسارة ولا نعمة؟! هل نعمدهم أيضًا؟! طبعًا، لأنه يوجد خطر. فإنه من الأفضل لنا أن نتقدس ونحن لا ندرك عن أن نرحل بدون هذا الختم وهذا التكريس^٤.

القديس غريغوريوس النزينزي

❖ تسلمت الكنيسة من الرسل تقليد عماد الأطفال أيضًا فيعمدون لمغفرة الخطايا ليغسلوا من الوسخ الجذّي بسرّ المعمودية^٥.

أوريجينوس

❖ عمدوا رُضعكم، وأحضروهم إلى مرضعة الرب القائل: دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم^٦.

الداثير الرسولية

يتمتع الطفل القبطي منذ نعومة أظافره بسرّ الإفخارستيا، فيشعر بالكنيسة أمًا له، تقوته بجسد الرب ودمه، وتقدير خلاص نفسه، وتهتم به.

¹ Epis. 59.

² Apology 1:15.

³ On Baptism.

⁴ Orat. 40:28.

⁵ In Lev; hom 8:3; in Luc. Hom 14, in Epist ad Rom 5:9.

⁶ Apost. Const. 6:15.

ج. في الخدمات الليتورجية، خاصة القداس الإلهي، يشترك الأطفال مع الكبار في الكنيسة القبطية، دون عزلهم في مكان خاص بهم خارج صحن الكنيسة. هذا التصرف يربط الطفل بالعبادة الكنسية، ويشعر بتقدير الكنيسة له، وحقيقة عضويته فيها. فالكنيسة ليست تنظيمًا مجردًا، وإنما هي أسرة تضم الكل معًا بالحب في أقدم لحظات العبادة.

د. تمتاز الكنيسة القبطية بألحانها العذبة وطقسها المبهج الذي يسحب قلب الطفل، فلا يمل من العبادة.

هـ. يبرز تقدير الكنيسة للطفل وتكريمها له، من اهتمامها بأعياد الكثير من الشهداء والقديسين الأطفال والصبيان، وطلب صلواتهم عتًا، وبناء الكنائس بأسمائهم، مثل شهداء أطفال بيت لحم، والقديس قرياقوس الطفل وأمه يوليطة، وأبانوب الصبي والأم دولاجي وأولادها، والقديسة رفة وأولادها الخ.^١

❖ بالحق هل نحن أطفال الله، تركنا الإنسان القديم، وخلعنا ثوب الشر، ولبسنا خلود المسيح، فنصير شعبًا جديدًا مقدسًا خلال الميلاد الجديد، ونحفظ إنساننا غير دنس، وكأطفال لله نغتسل من الزنا؟^٢

القديس إكليمنضس السكندري

❖ لنهرب إذن من الكبرياء ولنقتدي ببساطة الأطفال، فالحق يتعارض مع الكبرياء بينما توافقه البساطة وترفعه بتواضعها.^٣

القديس أمبروسيوس

❖ هذه هي حدود الحكمة الحقيقية: أن تكون بسيطًا بفهم. هذه هي الحياة الملائكية، نعم لأن نفس الطفل الصغير نقيّة من كل الشهوات.^٤

❖ لقد منعهم التلاميذ عن إحضار أولادهم، إذ حسبوا هذا لا يليق بكرامة المسيح... لكن مخلصنا وقد أراد أن يعلم تلاميذه فكر التواضع والوطء بالقدمين على الكبرياء الزمني احتضن الأولاد ونسب إليهم ملكوت الله.

❖ حقًا ذهن الطفل نقي من آلام الخطية، لهذا يليق بنا أن نمارس بكامل حريتنا ما يفعله

^١ راجع للمؤلف: الكنيسة القبطية الأرثوذكسية والروحانية، ١٩٨٧م، أتوا، كندا، ص ١٩٤-١٩٦.

^٢ Instr. 1:6.

^٣ In Luc 18: 17.

^٤ In Matt. hom 62:4.

الأطفال بالطبيعة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لم يقل "لهؤلاء"، بل قال: "لمثل هؤلاء ملكوت الله"، أي للذين لهم في نيتهم كما في تصرفاتهم ما للأطفال بالطبيعة من بساطة وعدم الأذية. فالطفل لا يبغض، ولا يحمل نية شريرة، حتى إن ضربته والدته لا يعتزل عنها، وأن ألبسته ثياباً رخيصة يراها أفضل من الثوب الملكي، هكذا من يسلك في طرق الكنيسة أمه الصالحة، لا يكرم شيئاً أكثر منها، حتى ملذاته بكونها ملكة الكل، لذلك يقول الرب: "من لا يقبل ملكوت الله مثل ولد فلن يدخله"

الأب ثيوفلاكتيوس بطريرك بلغاريا

و. طالبت الكنيسة بردع الآباء المغيظين لأولادهم كما سنرى.
في هذا كله تقوم الرباطات الأسرية على أساس الحب الحقيقي والاحترام المتبادل والتقدير لكل عضو، فقد مات المسيح لأجل كل أحدٍ منهم.

الوالدية في المسيحية

مفهوم الأبوة والأمومة

وهب الله الإنسان، كما الحيوانات والطيور، دافعا الأبوة والأمومة، فالوالد يشفق على ابنه ويهتم به ويدافع عنه، بأذلاً من أجله كل شيء حتى حياته، ناظرًا إليه أنه امتداد لحياته.

هذا الدافع أودعه الله في حياة الإنسان بدرجاتٍ متفاوتةٍ، ينمو وينضج يوماً فيوماً. فلا عجب إن رأينا الطفلة تمثل في ألعابها دور الأمومة، تحنو على دُميتها وتهتم بها كابنةٍ لها، تقدم لها عواطف الحب.

ينمو هذا الدافع في اتجاهٍ أو آخر حسبما تمليه عليه بيئة المرء وثقافته، فقد ينمو أباً (أو أمًا) محباً أو قاسياً، مدلاً للغير أو معنفاً أو معتدلاً، مشجعاً لابنيه أو مثبطاً لهمهم أو متجاهلاً شئونهم، أمراً، ناهياً، أو لطيفاً مترفعاً، أو غير مبالٍ.

من أجل هذا يتقدم الله محب البشر كاشفاً لهم أبوته، وتتقدم الكنيسة معلنة أمومتها، خلال هذه الأبوة وتلك الأمومة نستمد الأبوة والأمومة الحقيقيتين، وننفههما ونمارسهما وننمو فيهما، حتى ولو لم يكن لنا أبناء حسب الجسد.

ما أكثر التأكيدات التي يعلنها الله لنا بفمه الطاهر (مت ٣١: ٦-٣٢؛ ١٠: ٧، ٢٣، ٢٧؛ لو ٣٢: ١٢) وعلى لسان أنبيائه ورسله (إش ١٦: ٦٣؛ ٨: ٦٤) التي تحمل لنا أبوة الله الحقيقية خلال اتحادنا معه.

هذه الأبوة التي يتمتع بها الزوجان المؤمنان خلال اتحادهما مع الله في المسيح يسوع، والتي تفوق الوالدية الطبيعية، يلمسها الأبناء فيهما منذ نعومة أظافرهم، فينشأون في وسط دفء الأبوة والأمومة على مستوى الإيمان العالي، وهكذا يشعرون بدفء الحب في داخل العائلة على مستوى سماوي.

سمة البيت المسيحي الحقيقي هو الحب، يتذوقه الطفل منذ ولادته، وكما يقول القديس جيروم مرشداً أمًا في تربيتها لابنتها:

❖ لتعانق أحياناً رقبة أمها، ولتختطف قبلات من أقاربها^١.

❖ ليلاطفها جدّها، ولتبتسم لأبيها مظهرة أنها تعرفه، وهكذا تعزّز نفسها لدى كل أحد، فتجعل كل أفراد العائلة يبتهجون بحملها كما لو كانت برعم زهرة! لتخبروها عن جدّها ومن هي عمّتها، وأيضاً يلزم أن تتعلم أي جيش هي منتسبة إليه كجندي (روحي ضد الخطية)، ولتعلم من هو قائدها (السيد المسيح) الذي دُعيت للخدمة تحت قيادته.

القديس جيروم

إذ لا ينبع هذا الحب من مجرد عاطفة الأبوة أو الأمومة، لكن عن إيمان بالله "المحبة"، به يستطيع الأبناء أن يتعلّقوا بالرب خلال والديهم، ويتفهّموا أبوة الله الحانية، وهكذا العبادة في روحها المحيي. بهذا يكون البيت المسيحي بالنسبة للطفل حلقة الوصل الحيّة لارتباطه بالرب إلهه.

وعلى العكس متى خُرم الطفل من أبوة حقيقية أو أمومة على مستوى إيماني، يقف الوالدان عثرة في تفهّمه "الحياة مع الرب" وقبوله أبوة الآب السماوي وأمومة الكنيسة. إن الآباء الأرضيين - رغم ضعفاتهم الشخصية - متى سلكوا بروح الرب وكنيستهم، متحدّين مع الله، يقدمون لأبنائهم صورة حيّة عميقة للأبوة الإلهية تنفذ إلى أعماق قلوبهم.

^١ Epistle 128:1.

والدية مسئولة

إذ يستمد الوالدان والديتهما من الآب السماوي وكنيسته، يليق بهما إن أرادا أن يتفهما رسالتهم وعملهم أن يعيشا بالحب الإلهي ويتذوقاه في حياتهما حتى يرعيا أولادهما بذات الرعاية التي يتعهدهما بها الله وكنيسته، رعاية الحب الهادف، والترفق الحازم.

أهمية تربية الأبناء

الأطفال الذين يتسلمهم الآباء هم وديعة ثمينة، أثنى من العالم كله، يعهد بهم الله إليهم لا لكي يمتلكوهم أو يشكلوهم حسب أهوائهم، ولا للسيطرة عليهم أو للافتخار بهم، إنما أولاً وقبل كل شيء كأشخاص مات المسيح لأجلهم، لكي ينشأوا أعضاء حيّة في جسد المسيح، هياكل مقدسة للروح القدس، أبناء الله، ورثة الله ووارثون مع المسيح، صورة الله التي تمجده.

بمعنى آخر يتطلع الوالدان إلى طفلهم لا كقنيّة ثمينة، وإنما ككائن حيّ له ذات قيّمة لدى الله، يشاركهما ذات النصيب. يقول القديس يوحنا ذهبي الفم:

[إن كان البعض من أجل صنعهم التماثيل، وطلاء صور الملوك ينالون كرامة عظيمة، فكم بالأكثر ننال نحن الذين نزيّن صورة ملك الملوك - إذ الإنسان صورة الله - ربوات البركات؛ إذ نقيم مثلاً حقيقياً؟! لأن المثل الحقيقي هو في فضيلة الروح، عندما ندرب أولادنا أن يكونوا صالحين وودعاء ومسامحين ومحسنين ورفقاء، وعندما نربّيهم أن ينظروا إلى العالم الحاضر كلا شيء¹]

هكذا يرى القديس يوحنا ذهبي الفم أن الوالدين لا يقَدّمان مثلاً لله، بل صورة حيّة له في ابنهما، يقدمانه حاملاً مثال الرب في شركة سماته للسيد المسيح، وأيقونة للسماء باستخفافه بارتباكات العالم وإغراءاته. وكأن الوالدين اللذين يحملان صورة الله يتمتعان بشركة الطبيعة الإلهية ويتهلّلان بالحياة السماوية في أعماقهما وفي بيتهما، إنما يقدمان جيلاً مقدساً في الرب لا يقل في شهادته للرب عن الجيل السابق له، إنما يكمل عمله! لا يقف الأمر عند استلامنا أطفالنا من يد الله كوديعة حيّة، يقومون بتكملة

¹ In Eph. Hom. 20.

مسيرتنا كما نكمل نحن مسيرة الأجيال السابقة، لتلتحم الأجيال معًا كجسدٍ واحدٍ يكمل عمل السيد المسيح رأس الكل، وإنما يلزمنا أن ندرك أننا مطالبون بتقديمهم للرب تقدمه حب، بأن نبعث فيهم روح الجهاد كجنودٍ صالحين روحيين يحملون الصليب معنا بفرح. يعلق القديس **يوحنا الذهبي الفم** على ١ تي ١٥:٢، قائلاً:

[لكنها ستخلص بولادة البنين، إن ثبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل" (١ تي ١٥:٢)... بمعنى أنه يبقى الأبناء بعد الحمل بهم في المحبة والقداسة.

هذا يعني أنهم لا ينلن مكافأة قليلة الشأن على هذا الأمر، إذ يُدرَّبَن مصارعين (روحيين) لخدمة المسيح، وهذا ما يقصد بالحياة المقدسة والتواضع والتعقل..

اسمعوا هذا أيها الآباء وأيتها الأمهات،

فإنكم لن تخسروا جزاء تربيتهكم لأبنائكم...

إنه ليس بالمدح القليل أن تكرسوا أولادًا كنتقدمة لله. لأنه متى كان الأساس الذي تلقونه فيهم صالحًا فستكون المكافأة عظيمة؛ وإن أهملتموه يكون العقاب عظيمًا. فقد هلك عالي بسبب إهماله تربية ابنه... إذ لم يرغب في أن يتألموا فأهلك نفسه وإياهم".^١

أنت مسئول!

❖ إننا نقرأ عن عالي الكاهن الذي لم يُسر الله به بسبب خطايا أولاده.

لقد أوصانا الرسول ألا يُختار أسقف إن كان أولاده فاسدين غير وقورين.

وعلى العكس كتب عن المرأة أنها "ستخلص بولادة الأولاد إن ثبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل" (١ تي ١٥:٢).

إن كان الآباء مسئولين عن أبنائهم حتى وهم ناضجون ومعتمدون على أنفسهم، فكم بالأكثر تكون مسئوليتهم إن كانوا لا يزالون غير مفطومين وضعفاء، أو كقول الله غير قادرين على تمييز يمينهم من شمالهم (يونان ١١:٤)، أي غير قادرين على تمييز الخير من الشر؟!

إن كنت تحرصين على ابنتك لئلا يعصها خنزير، فلماذا لا تعطينها ذات الحرص في حفظها من "مطربة الأرض كلها"؟! فتمنعينها من الشرب من كأس بابل الذهبية؟! وتحفظينها من الخروج مع دينا لترى أبناء الأرض الغربية (تك ٣٤)؟! وتتقدينها من الرقص الرشيق بثوب مدبّل؟!

^١ In 1 Tim. Hom. 9.

لماذا تقولين: إننا نقرأ: "الابن لا يحمل إثم الأب، والأب لا يحمل إثم الابن" بل "النفس التي تخطئ هي تموت" (حز ٢٠: ١٨). فإنني أجيب أن هذا القول يشير إلى من لهم تمييز، كذلك الذي قال عنه والداه في الإنجيل "هو كامل السن... فهو يتكلم عن نفسه" (يو ٩: ٢١).

فالأبوان مسئولان عن أعمال الابن إن كانت صالحة أو شريرة مادام طفلاً أو لا يزال يفكر كطفل، حتى يبلغ السن الذي فيه يقدر أن يختار أي الطريقين.^١

القديس جيروم

❖ ليأت الصغار، ليأت المرضى إلى الطبيب، ليأت الذين هم مفقودون لمخلصهم، ليأتوا ولا يُمنع أحد عن المجيء..

إن كانت الفروع (الأطفال) لم ترتكب أية خطية بعد، لكنهم هلكوا بسبب أصلهم، "يبارك الرب الصغار مع الكبار" (مز ١١٥: ١٣). ليلمس الطبيب الصغار مع الكبار...

إذ كان فقدان شاملاً هكذا ليكون الخلاص عاماً. كلنا قد ضعنا، لنوجد جميعنا في المسيح... ليت لا يُعزل أحد عن خلاصه.^٢

القديس أغسطينوس

أنت مسئول حتى عن خلاص الابن غير الشرعي

النفس ثمينة جداً في عيني الله، لذا يصعب تقدير مسؤولية الإنسان عن خلاص أولاده الذين هم موضع حب الله شخصياً. ويؤكد القديس باسيليوس الكبير مدى هذه المسؤولية حتى إن كان الطفل ثمرة خطأ الإنسان، أي كان ابناً غير شرعي، إذ يقول: [المرأة التي تلد طفلاً وتتركه في الطريق، إن كان في استطاعتها أن تنقذه وأهملت، إن ظننت إنها بذلك تخفي خطيتها، أو تتركه بدافع حيواني غير إنساني، إنها تُحاكم كقاتلة].^٣

^١ Ep. 107:6.

^٢ Ser. On N.T. 65: 4.

^٣ Ep. 217 to Ampiloichius. 52.

الوالدية

بين

الرب والسلطة

عالم الطفولة

للأطفال عالمهم الخاص الذي يليق بالوالدين - كما بالقادة - أن يتعرفوا عليه لكي يدخلوه لا بربح السلطة في الامتلاك، ولا بربح الاستخفاف به والاستهانة، وإنما بربح الحب والالتزان والوقار لكي يعيشوا معهم في "عالم الطفولة" ويتدرجوا بهم إلى "عالم المراهقة" ثم "عالم النضوج"، حيث يتدرّب الأطفال جنبًا إلى جنب مع مربّيهم، وينمو الجميع معًا في المعرفة والخبرة.

لكي ندخل "عالم الطفولة" من بابه دون اقتحامٍ له، ولكي يمارس الوالدان حبهما الحق، يلزمنا مراعاة المبادئ الأساسية التالية:

١. سلطة الوالدية لأجل الأبناء

كان السيد المسيح في حبه للمتألّمين يشفي المرضى حتى في يوم السبت مؤكّدًا أن "السبت إنما جُعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت" (رو ٢: ٢٧)، إذ يرى أن الإنسان هو أثمن من كل شيء، لأجله وُضعت الوصية. بهذا المفهوم يمكننا القول بأن السلطة الوالدية هي من أجل الأبناء، وليس الأبناء لأجل السلطة الوالدية. يليق بالآباء وكل القادة في الكنيسة أو في المجتمع مراعاة أن حياة الطفل ونموه وبنيان شخصيته أعظم من كل سلطة أو كرامة. عملنا أن نرتقي به إلى النضوج، لا أن نؤكد سلطتنا عليه، ورسالتنا أن يتمتع بحرية مجد أولاد الله (رو ٨: ٢١).

من أجل بنيان كل طفلٍ صُلب السيد المسيح لا ليسيّط عليه، بل ليدخل إلى قلبه ويضمّه إلى مملكة محبته. هكذا إذ نحمل مسيحنا المصلوب، محب الأطفال، يليق بنا أن يُصلب فينا حب السيطرة، فنستعبد أنفسنا لهم، وندخل إلى عالمهم بربح الحب الحقيقي، نتفهم أحاسيسهم، ونقدّر مفاهيمهم، ونتعرف على أسرارهم في وقارٍ. ندخل إلى جَوْهم،

ونشاركهم حياتهم بغير استخفافٍ، فتنفتح قلوبهم، ويقبلون شركتنا معهم في عالمهم الخاص. على سعيد الواقع، إن شعرت باستياء طفلك من مشاركتك له ولو بالتلميح، راجع نفسك لعلك يوماً ما استهنت بلعبه، أو لم تجبه على أسئلته الخاصة، أو حسبت تصرفاته مضیعة للوقت، أو استخففت بأصدقائه الخ. مسيحنا نزل إلى عالمنا، ولم يحتقر حياتنا، بل شاركنا آمالنا ومشاعرنا، لذا تنفتح قلوبنا له بالحب! هكذا لنسلك مع أطفالنا كما سلك ربنا معنا، فيقبلوننا في عالمهم وينصتون إلينا بالحق!

٢. عملك هو تهيئة الطريق لا الامتلاك

يقول الأستاذ كوستي بندلي^١ إنه يليق بالوالدين أن يكون موقفهما من أطفالهما كموقف القديس يوحنا المعمدان الذي بعدما مهّد الطريق للسيد المسيح تتخّى بفرح، قائلاً: "من له العروس فهو العريس. وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه، يفرح فرحاً من أجل العريس. إذا فرحي هذا قد كمل" (يو ٣: ٢٩).

غالبًا ما يشعر الوالدان بملكيتهما لأطفالهما. في القانون الروماني كانت حياة الطفل قيد رحمة والده، له أن يميته أو يستبقه^٢. وإلى يومنا هذا يريد كثير من الآباء أن يبقى أطفالهم تابعين لهم في كل شيء حتى بعدما يتزوجون. الوالدان الحكيمان يسلكان كيوحنا المعمدان، يهيئان الطريق كصديقين للطفل، يخدمانه ويفرحان بنموه الحقيقي، حتى إن اختلفت عنهما في المواهب أو القدرات. إنهما لا يطلبان من طفلهما أن يكون صورة لهما بل إنسانًا ناضجًا له شخصيته المستقلة وكيانه الخاص.

٣. تربية متبادلة

بإنجاب الأطفال يدخل الزوجان إلى خبرات جديدة، فمع كل طفل يولد يلزم أن تنتهي نفسية كل من الوالدين للتمتع بالتعلم واختبار ممارسة الوالدية عبر مراحل الطفل المتغيرة. عمل الوالد (أو الوالدة) لا إصدار الأوامر والنواهي، ولا تشكيل الطفل حسب هواه، بل أن يتعلم الحب والصلاة والقراءة وطلب المشورة كيف يتعلم مع طفله، بل وما هو أهم أنه يتعلم من طفله الكثير. فالتعلم متبادل خلال دائرة الحب.

١٥. مواقف الآباء ومشاكل البنين، منشورات النور بلبان، ص ٣٤-٣٥.

١٦. راجع سليمان نسيم: تاريخ التربية القبطية، الصليب ١٦٠.

يرى القديس كبريانوس^١ وهو أسقف له شهرته أنه كان دائم التعلم مع شعبه، يعلمهم ويتعلم منهم. أب الاعتراف الحكيم الروحي يتفاعل مع المعترفين تحت قيادة روح الله ويتعلم أيضًا منهم. لننصت لأطفالنا ولنهتم بتصرفاتهم الظاهرة والخفية لا لنتحكم فيها، وإنما ونحن نوجههم بالحب نلتقط منها ما هو لنفعنا!

٤. طاعة متبادلة

يبدأ الطفل من الشهر الثامن عشر يمارس "اللا"، لأنه يتحول من نفسية الطفل الصغير الذي لا يسعه إلا أن يفعل ما تطلبه منه والدته، بكونه وإياها واحدًا، إلى الدخول إلى حالة تمييز "أنا" الخاص عن "الأنث" الذي كان سابقًا مندمجًا به. لكي يحقق هذه الذاتية التي تبدأ في الاستقلال يقول لأمه "لا" ليفعل "نعم". هذا معناه: "لا، لأنك تطلبين أنتِ هذا الأمر مني"، وفي نفس الوقت "أفعل نعم، لأنني أريد أن أفعله"^٢. ليتنا لا نفهم "اللا" هنا بمعنى العصيان والعناد، وإنما الرغبة في النضوج وتكوين شخصيته، التي لها إرادتها المستقلة عن الوالدة، لذا عوض مقاومتها نكشف له بالحب عن مفهوم الطاعة بطاعتنا له فيما هو حق ومناسب، فيدرك أن النضوج يتحقق لا باللا بل بالحب وقبول الحق. لسنا نعني بهذا رضوخنا للطفل في كل طلباته وأوامره، وإلا تحولت الطاعة إلى فوضى، والحب إلى تسيب.

ما أجمل أن تتحني الأم بالحب لتتصت للطفل، وتطيع بروح الحب، وما أعظم أن ينحني الكاهن لسمع لصوت الشعب بروح التقوى والحكمة. لا تعجب من سماعك عن طاعة الوالدين والقادة للطفل، وتقديرهم له ولشخصه. فقد علمنا الله نفسه ذلك، هذا الذي يخضع له كل السمائيين والأرضيين، إذ يقول لموسى النبي: "هذا الأمر أيضًا الذي تكلمت عنه أفعله، لأنك وجدت نعمة في عيني، وعرفتك باسمك" (خر ١٧: ٣٣).

٥. روح الحوار

الطفل ليس دُمية جميلة نقتنيها ونعتز بها، ولا هو بالشيء الثمين جدًا الذي نحفظ به، لكنه هو كائن حي له شخصيته ومفاهيمه وقدراته وذكائه. يلزم أن نحترمه ونتعامل معه

١٧. المؤلف: الحب الرعوي، ١٩٦٥، ص ٨.

^٢ كوستي بندلي، ص ٥٥.

Dr. Françoise Dolto: *Lorsque l'enfant paraît*, pp. 148 et 151, Seuil, is, 1977.

كشخصٍ مع شخصٍ. لتتعلم من الله نفسه العالم بكل شيء كيف يتعامل معنا، إذ قيل: "ويكلم الرب موسى وجهًا لوجه كما يكلم الرجل صاحبه" (خر ٣٣: ١١).

نحاوره لا لكي نُملّي عليه مفاهيمنا ونُلزّمه بالطاعة، وإنما لكي ننصت إليه ونسمع أسئلته باهتمام شديد ونقدّر أفكاره ومفاهيمه، ونتعرف على ما وراء تصرفاته.

فالطفل في حوالي الثالثة من عمره يبدأ في التساؤل عن ماهية كل شيء يقابله وعن مصدره. هذه الأسئلة تدل على عطشه نحو اكتشاف العالم الذي حوله، وعن شوقه نحو المعرفة، كما قد يكون الدافع من ورائها الخوف والقلق. القلب الوالدي يتسع لسمع في اهتمام ورعاية، ويجب بلا كذب، في بساطة مملوءة صراحة بالقدر الذي يتفهّمه الطفل لبنائه دون أن يسيء الفهم. وبقدر ما يحترم القادة فكر الطفل، ويعطونه اهتمامًا مهمًا بدا لهم تافهًا، ينقلونه إلى المعرفة السليمة في كل ما يدور حوله، ويثق فيهم فلا يكتّم أمرًا ما في داخله، ولا يلجأ فيما بعد إلى استشارة الغير، خاصة في مرحلة المراهقة. وقد قدم الدكتور ملاك جرجس^١ أمثلة لأسئلة الأطفال وبماذا نجيب عليها؟

أما من جهة الأسئلة الخاصة بالأمور الجنسية، فيلزمنا أن ننصت إليها دون توبيخ أو إظهار شيء من الاشمئزاز، بروح بسيطة حكيمة هادئة نشرح للطفل قدر ما يستطيع أن يحتمل، مقدمين له الحقيقة في قدسية.

في هذه المناسبة أذكر كلمات سيدة قالت لي: إن أحد المناظر التي لها أثرها الفعّال في حياتي أنني دخلت الكنيسة فوجدت أبانا بيشوي كامل يضع يده على كتف طفلة وينحني انحناءً لسمع لها! لقد عرف كيف يصعد إلى عالم الطفولة!

٦. الصعود إلى عالم الطفولة

لا نستطيع أن ندخل إلى عالم الطفولة ما لم نتفهّم ما وراء تصرفات الأطفال من مفاهيم قد تكون غائبة عنّا. اقتبس هنا بعض أمثلة ذكرها الدكتور كوستي بندلي عن وقائع جاءت في كتابات بعض علماء التربية:

١. طفلة في العشرين شهرًا من العمر تتعمد توسيخ يديها في الفحم لتأتي إلى الخادمة كي تغسل يديها. ثارت الأم في البداية، لكنها بعد تروّ أدركت أن الطفلة تريد أن تتعلم أن تغسل يديها بنفسها، والخادمة تصرّ أن تغسل لها يديها. إذ بدأت الأم تعلم

^١ سلسلة مشاكل الصحة النفسية للأطفال وعلاجها، ج ٦، مكتبة المحبة.

طفلتها غسل اليدين بنفسها توقفت الطفلة عن توسيخ يديها.

ب. دخل طفل بعجلة "درّاجة" الحديقة المتسخة بالطين إلى حجرة الاستقبال، وإذا ثار الأب أن يرجع بها ضرب الطفل بقدمه على الأرض مجيئاً بالرفض. قال له الأب: "ألا تشعر بأن العجلة بها طين، والحجرة نظيفة؟" فلم يبال الطفل. لكن سرعان ما ابتسم الأب وقال لطفله أنه سيستضيف صديقه الطفل ليقضي معه الليلة، وأنه لا يليق أن يرى صديقه السجاد قذراً في الضيوف، للحال أدار الطفل ظهره ليعود بالعجلة إلى الحديقة، وعاد لينظف السجاد!

ج. إصدار أمر لطفل أن يترك لعبه ليأكل أو ينام فوراً، فقد ينصاع الطفل للأمر، لكنه يشعر بالفشل والإحباط وفقدان الثقة في النفس، مع شعور بنوع من العدوان نحو الغير. فقد اقتحم الغير عالمه وهو في قمة السعادة يتخيل نفسه حصاناً أو فيلاً أو يقوم بدور طائر، ولم تُعط له فرصة زمنية إلى دقائق ليستعد نفسياً لتقبل الأمر.

د. إصدار أوامر ونواهٍ في لحظات غضب يوقظ في الطفل رد فعل عدواني. فالفائدة الذين في عبودية الأعصاب الثائرة لا يقدرّون على إيجاد جيلٍ حرٍّ من العصبية.

لنتنا في تصرفاتنا مع الأطفال لا نقف عند المظهر الخارجي بل ندخل إلى الدوافع الداخلية للأطفال، أذكر على سبيل المثال:

أ. نتهم طفلاً بالعنف لأنه وهو يلعب أخاه الأصغر يغدر به في غيبة والديه، ويمكننا منعه بالعنف، لكن يبقى روح العدوان مكبوتاً في داخله. لقد كان الابن الوحيد، ملك البيت، وموضع اهتمام كل الأسرة. وبمجيء الابن الأصغر اغتصب منه عرشه، لذا فالغيرة أمر طبيعي، إن كبتها تتحول إلى رغبة في تعذيب الحيوانات أو الطيور أو الحشرات، وربما تتحول فيما بعد إلى رغبة في تعذيب الغير حتى والديه حين يصير في سن المراهقة المتأخرة، وقد تلازمه كل حياته. قام أحد المربين بتقديم دمية لطفل كهذا، وطلب منه أن يضربها فلم يقبل، وبعد أيام إذ فقدت الدمية قيمتها في عينيه صار يضربها حتى مرقها. وإذا تفاهم معه المربي أدرك خطأه، وصار محباً حتى لأخيه!

ب. قد تُلزم أم ابنتها على مقابلة الأصدقاء لتخلصها من الخجل، لكن دون جدوى. لذا وجب إدراك سرّ خجلها، ربما كان السبب حادث معين أثار فيها الخوف من كل ما هو حولها، أو ربما كان السبب هو شعور الطفلة بالفشل نتيجة نقد الوالدين المستمر لها، خاصة أمام الغير.

ج. قد نتهم طفلاً بالسرقة لأنه يأخذ ما ليس له، بينما في الحقيقة هو نكوص إلى الطفولة المبكرة التي فيها يشعر الطفل أنه مالك كل شيء. فشله يردّه إلى سن مبكر ليمارس تصرفات أقل من سنه كمحبته للامتلاك أو التبول اللاإرادي الخ.

د. قد نتهم طفلاً بالكذب بينما لا يفرّق هو بين الحقيقة والخيال، فما نظنه كذباً هو تعبير عن أحلام اليقظة التي تظهر فيها رغبات الطفل واشتياقاته.

٧. اكتشاف مواهب الطفل وقدراته بروح التشجيع

المربّي الحكيم هو الذي يعرف مواهب الطفل وإمكانياته، فيوجهه للعمل لتفيس طاقاته وإنمائها واكتشاف مواهب جديدة في حياته، على أنه يجب مراعاة سنه وقدرته ونفسيته، فلا ننعتّه قط بالغباء لئلا يتغابى، ولا نحمله أكثر من طاقته لئلا يفشل.

يقول السيد المسيح: "أبني يعمل حتى الآن وأنا أعمل" (يو ١٧: ٥). والعمل هو أول وصية قدّمت للإنسان حين كان في جنة عدن مع بدء الحياة البشرية. وكأن العمل في حياة الإنسان - طفلاً كان أم شيخاً - أساسى، بدونه يفقد حيويته، ويخسر سلامه، وتهوى نفسه في هوة الملل والضجر.

للعمل بركاته الخاصة في الطفولة، إن وجه توجيهها سليماً، نذكر منها:

أ. **يزيد من خبرته، فيعلمه دائماً شيئاً جديداً، لهذا طلب القديس جيروم من الأم أن تهتم بشغل وقت طفلها فيما ينفعها، فكتب في رسالة وجهها إلى أم:** [احضري لها مجموعة من الحروف مصنوعة من الخشب أو العاج، وأعطي لكل حرف اسم مناسب له... ليكن لعبها في هذه الأمور، لكي تتعلم شيئاً جديداً حتى في لعبها].^١

ب. **التشجيع على النمو بفرح:** يحتاج الآباء إلى الحكمة في توجيه أبنائهم، فيشجعونهم على العمل مع بعث روح الثقة والفرح، ولا يلجأون إلى التوبيخ، خاصة أمام الغير حتى لا يسقطوا في اليأس. بهذا يثيرون فيهم حب العمل والتعليم بشغف. وكما يقول القديس جيروم: [قدّمي لها هدايا من أجل نطقها السليم، وشجّعها بالهدايا التي يفرح بها الأطفال الذين من دورها (في مثل سنّها). ليكن لها أصدقاء أثناء دراستها، يثيرون فيها المنافسة، فتثار عندما يمدحونها. لا توبّخها إن أبطأت في التعليم، بل شجّعها حتى ينتعش عقلها، فتبتهج عندما تسمو على الآخرين، وتحزن عندما يسمو الآخرون عليها. وفوق هذا كله احذري أن تقدمي لها الدروس بلا طعم، لئلا تمتد كراهيتها للدروس من

^١ Epistle 107:4.

الطفولة إلى النضوج^١].

ج. أن يكون للعمل الروحي نصيب خاص في سن الطفولة، إذ يبقى لهم ذخيرة حياة كل أيام حياتهم. يعترف القديس أغسطينوس أنه في أثناء صنعه الشر كانت كلمات أمه له في طفولته مثل مناحس في قلبه.

رَكَز الآباء الأولون على الاهتمام بتعليم الأطفال التسابيح الكنسية والمزامير. ضمن كلمات القديس جيروم إلى أم: [كافئها على التسبيح بالمزامير حتى تحب أن تتعلمه. ليكن عملها مبهجاً لا تفعله عن تغصّب^٢].

د. امتصاص طاقات الطفل للبنیان: كثيراً ما نسمع عن الطفل "المشكّل" العنيف والذي يميل إلى التخريب. إنه يحمل طاقات لا تجد من يوجهها. يحتاج إلى والدين حكيمين يعرفان كيف يساهم طفلهم في العمل المنزلي، كما يمكنه أن يقوم بدوره في الكنيسة أو في التربية الكنسية لينمو عضواً حياً نافعاً لبنیان نفسه والغير، بلا كبت ولا ضيق، ودون استهتار. الطفل "المشاغب" يصلح أن يصير قائداً حياً وفعالاً.

هـ. المشاركة في الحياة العائلية: فالبيت بالنسبة للطفل هو المدرسة الأولى التي تخلق منه إنساناً حياً عاملاً، متسع القلب، محباً للرب والناس، أو تخلق منه إنساناً ميتاً سلبياً ضيق الصدر لا يستطعم الشركة مع الله ومحبة الناس.

ولما كان البيت المسيحي امتداداً للكنيسة وجزءاً حياً منها، ترتفع أنظارنا إلى يوم الخمسين إذ حلّ الروح القدس على التلاميذ على شكل ألسنة نارية استقرت على كل واحدٍ منهم، صار لكلٍ منهم لسان خاص، وموهبة خاصة، وعمل خاص يكمل بعضه البعض. فالكنيسة مع وحدانيته تقدم لكل ابن من أبنائها لساناً، أي تؤمن بشخصيته المميزة بمواهب ووزنات خاصة. وهكذا تعيش الكنيسة بالحب في وحدة دون أن تصب الجميع في قالبٍ واحدٍ، بل تقدم لكل واحدٍ عملاً، وليس بينهم من هو بلا عمل.

هكذا أيضاً بالنسبة للبيت المسيحي، فإنه يليق بالآباء أن يدركوا أن أبناءهم ليسوا آلات صماء جامدة تستجيب لطلباتهم وأهوائهم بلا نقاش، بل هم أعضاء حية، لهم أفكارهم وإمكانياتهم وأحاسيسهم ومواهبهم. وما عمل الآباء إلا أن يوجهوا الأبناء للعمل في البيت، كلاً حسب موهبته وقدراته، حتى يشعر الابن بعضويته في البيت ويتسع فكره وقلبه وتنمو مواهبه وتتقوى قدراته، فيخرج ابناً حياً عاملاً في كنيسته وبلده وكل المجتمع.

¹ Epistle 107:4.

² Epistle 128:1.

٨. الاهتمام بكيانه الكلي

إذ نؤمن بكيان الطفل الشخصي يليق بنا أن نهتم بكل جوانب حياته دون مبالغة في جانب على حساب الآخر، أقصد حياته الروحية، وصحته الجسدية والنفسية، وممارساته للرياضة أو اللعب، وعلاقته بالغير، وعضويته في الأسرة وقدراته العقلية ودراساته الخ. هذا الاهتمام لن يتحقق ما لم يجد في أسرته توازنًا حقيقيًا في كل جوانب الحياة، يشعر بدفع الحب العائلي، خاصة بين والديه، ويتلمس اتكالهما الحق على الله بفرح دون أن تتسلل الكآبة والتذمر والضيق إلى الأسرة، ويختبر الجو الكنسي الروحي الحق في روحانية والديه التي لا تغيب عن ملاحظات الطفل.

امتلاك أم إطلاق

يقدم الدكتور كوستي بندلي سؤالاً صريحاً أمام الوالدين وهو، هل حبهما لطفلهما هو "امتلاك أم إطلاق؟"، وقد سبق لي الحديث عن علاقة الوالدين بالمراهقين في كتاب "دعوني أنمو" مقدمًا ذات الفكر تحت عنوان: "لا تشتريني بالمال... إني إنسان!"^١ لا تقوم العلاقة الأسرية السليمة على حب أناني يخنق ويحطم ويقتل، بل على حب يحرر ويحيي. من حق الوالدين أن يملكا طفلهما إن قبل أن يملكهما طفلهما، فلا يكتمان طاقاته. الملكية المتبادلة القائمة على الحب والحرية هي ملكية مقدسة، ظل لعلاقتنا مع السيد المسيح، حيث نتغنى قائلين: "حبيبي لي وأنا له" (نش ١٦:٢). فقبلما يملكنا الحبيب قدم نفسه ملكاً لنا! بهذا نرى في الرب المخلص أنه يقدرنا لا كأشياء ثمينة اقتناها ويحركها، وإنما كأشخاص محبوبين لهم إرادتهم ومواهبهم وقدراتهم. هذه جميعها وإن كانت هبات من عنده لكنها صارت جزءاً لا يتجزأ من كياننا، يقوم بتقديسها وتتميتها.

بهذا الروح يليق بالقادة أن يعطوا الطفل حق النمو حسب طبيعته الخاصة، لينطلق كشخصية مستقلة، يوجهونها بالحب الحازم، لكن دون امتلاك وقهر واستبداد. يقدمون لها ما لبنيانها، كما يقدرونها ويكرمونها.

في اختصار يقدم لنا رجال التربية أسباب رغبة القادة، خاصة الوالدين، في امتلاك الطفل ليبقى دوماً تحت ظل حمايتهم لا حول له ولا قوة، أو ليكون نسخة مطابقة لأحدهما،

^١ كوستي بندلي، القسم الأول، ص ١٧ الخ.

^٢ المؤلف: دعوني أنمو، ١٩٩٠، ص ٧٦ الخ.

أو ليعمل حسب أمرهما، حتى عندما يبلغ سن البلوغ^١.

١. **الحاجة إلى الشعور بأننا مهمون**، فنستغل تبعية الطفل لنا، يطلب رعايتنا، لنوقف نموه، فنقيم منه إنسانًا عاجزًا لا يثق في عمله وإمكانياته. ندفعه أحيانًا إلى الخجل والبلادة، ونحسب ذلك تأديبًا وهدوءًا؛ وقد ندفعه إلى العنف واللامبالاة وعدم القدرة على تحمل المسؤولية.

٢. **نتصرف أحيانًا كأنصاف آلهة**، نحطم إرادة أطفالنا، لنثبت إرادتنا عوض مساعدتهم على تحقيق ملء إنسانيتهم. ونحن بهذا نسيء إلى الله، لأنه وهو خالق الكل لا يمارس سطوة على خليقته بل يقدم لهم الحب القائم على روح التفاهم المتبادل والحوار. **استخدام السطوة قد يحقق احترامًا ظاهريًا مؤقتًا** يخفي وراءه شعورًا بالعدوان، ينفجر في سن المراهقة وما بعدها حيث يعلن الشخص نقمته صد أسرته وكل سلطة بشرية أو إلهية، ولو كانت على حساب تحطيم حياته كلها!

٣. **يمارس الوالد حبه للامتلاك حين يتجاهل شخصية طفله الحقيقية** وخصائصه الفريدة، فيود أن يحقق أحلامه في طفله التي لا تتفق مع شخصيته أو ميوله أو ظروفه. فيدفع بابنه إلى طريق لا يناسبه، وينتقل به من فشل إلى فشل حتى يحطم مواهبه تمامًا. فأستاذ الجامعة يود في طفله أن ينمو سريعًا، ويسلك ذات طريقه ليقدم له كل خبراته وإمكانياته في ذات المجال الذي قد لا يتفق مع ميول ابنه أو ابنته.

وقد يجد الوالد في ابنه المجال لتعويض ما حُرِم منه وما عاناه في طفولته أو حدثته، فالأب الذي حُرِم من عطف والده يدلل ابنه جدًا بشكلٍ مفرط، ولا يضع حدودًا لرغباته، فيفقد الشعور بالمسؤولية. والأم التي حُرِمَت من زوج له مواصفات خاصة في ذهنها تدفع ابنتها منذ الطفولة لكي تتمتع بما حُرِمَت منه!

٤. **لعل من أخطر ما يمارسه الوالدان من رغبة في ملكية الطفل بأن يحباه لا لأجل نفسه، وإنما كامتداد لهما**، خاصة إن وُجد خلاف عائلي، كل طرف يود أن يحتويه ويقدم له كل طلباته، متغاضيًا عن كل أخطائه، الأمر الذي يفقده شخصيته واستقلالها وقدرتها على تحمل المسؤولية.

أحيانًا في الخلافات العائلية يجد الوالد في ابنته بديلاً عن زوجته، والأم تجد في طفلها بديلاً عن زوجها. فيستولى الوالدان على الأطفال، ولا يكتمل نموهم النفسي.

^١ كوستي بندلي، القسم الأول، ص ١٧ الخ.

٥. امتلاك الشخص لطفله خلال علاقته النرجسية به، إذ يرى فيه صورته الذاتية،
يريده نسخة مطابقة له كامتداد لوجوده، وتخليدًا له على الأرض.
الآن لیتنا نفكر جدیًا في أطفالنا وفي صدق حبنا لهم، لنعرف كيف نحب بلا تدليل
مفرط؛ نهتم بهم دون أن نحطم إرادتهم وشخصياتهم وكيانهم الذاتي في الرب.

الوالدية والحب المقدس

تحدثنا عن الوالدية كظلٍ لأبوة الله الحقّة تحمل حبًّا لا سلطة، وتحدثنا من خلال الكتاب المقدس عن التربية في جانبها الإيجابي والسلبي، وقد جاء علم النفس الحديث يحمل إلى حد ما ذات الاتجاه الكتابي، حيث يطلب الحب الحقيقي الحازم، حتى لا يعاني الطفل من عنف الوالدين أو تدليلهم المفرط. هنا أود أن أؤكد أن الحب الحق ليس إلا وجهًا آخر للحياة المقدسة الحقّة التي تقوم على إخلاص القلب ونقاوته، ولا تقف عند شكلية العبادة أو السلوك الظاهر وحده.

الوالدية وقديسية الوالدين

رفع السيد المسيح أنظاره إلى الآب، قائلاً: "من أجلهم أنا أقّـدس ذاتي". ابن الله القدوس الذي لم يعرف خطية، مقدّس النفوس ومنقّـذها من الفساد، يعلن لنا أنه من أجلنا يقدّس ذاته لنكون نحن مقدسين فيه. إنه القدوس الذي بتقدّيس ذاته يعني أنه خصّص حياته لأجل تقدّيسنا وخلصنا.

هكذا نرى في السيد المسيح المثل الأعظم والفريد لكي نحن بدورنا يلزمنا أن نتقدّس لأجل تقدّيس الجيل الجديد جنبًا إلى جنب مع نمونا نحن في الحياة المقدسة. فتربية الطفل وتدريبه يبدأ بحياة والديه أنفسهم حتى قبل إنجابهما إيّاه.

تربية الطفل تبدأ من مخدع الوالدين في عشرينتهما السرية الحية مع الله القدوس، وارتباطهما معًا برباط الحب الحقيقي في الله. سئل أحد علماء التربية: "متى أبدأ بتربية ابني؟" فأجاب "قبل أن تتجيبه بعشرين عامًا". والكتاب المقدس منذ العهد القديم يركّز على حياة الوالدين بكونهما الينبوع الذي يفيض على الأبناء.

أقول أكثر من هذا إن بعض الأبناء خُرموا من تربية والديهم وعطفهم لسببٍ أو آخر، لكن بركة والديهم وصلواتهم ترافقهم في الطريق.

لقد وُلد العظيم في الأنبياء صموئيل كثمرة حبٍّ بين والديه، وثمرة صلاة منسحقة من أمه.

وجاء يوحنا المعمدان ابن البارين، وفارقه والداه وعاش في البرية تسنده بركتهما

وصلواتهما!

وَحَرَمَ **موسى** من والديه، اللهم إلا لسنوات قليلة في الطفولة كانت ترضعه أمه في بيت فرعون، ثبتت فيه روح الإيمان الذي لازمه إلى النهاية رغم البيئة الوثنية التي عاش فيها والإغراءات التي كانت تحيط به في القصر.

وعلى العكس كثيرون حاولوا أن يربوا أولادهم في أحضان الله بعنفٍ ليعيشوا في مخافة الرب، لكن حياة الوالدين المبنية على الرمل بلا أساس، المتوقفة عند حدود المظهر، التي بلا جذور ولا عمق، جعلهم نافرين من كل ما يمت للدين بصلة، بل وكثيرًا ما وقفوا يضادون الكنيسة ويقاومون الحق!

إن سر نجاح باولا Paula هو قداسة حياة أمها لثيئا التي قال لها **القديس جيروم** في رسالته إليها:

[إجابة لطلباتك وطلبات مارسيلا المقدسة، أود أن أرسلك كأم، وأعلمك كيفية تربية باولا Paula العزيزة علينا، هذه التي تقدّست للمسيح قبل ميلادها، ونُذرت لخدمته قبلما يُحبل بها.

ها هو في أيامنا نعيد القصة التي رواها لنا الأنبياء عن حنة التي وإن كانت في بدايتها عاقراً لكنها صارت بعد ذلك مثمرة...
إنني أثق أيضًا إنكِ إذ تقدمين البكر للرب تصيرين أما لأبناء كثيرين، ففي الشريعة يُقدم البكر للرب (خر ١٣: ٢).^١

إيجاد جو كنسي

في إنجيل سرّ الزواج يسمع العروسان قول الإنجيل: "في البدء كان الكلمة... كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان... وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنين باسمه. الذين وُلدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله" (يو ١).

هكذا لما كانت غاية الزواج بعد التمتع بروح الوحدة والحب هو إنجاب الأطفال ليعيشوا في ظل الحب بروح الكنيسة، تؤكد الكنيسة للعروسين في لحظات اتحادهما أن من ينجبانهم هم من الله، الذي "به كان كل شيء"، وأنهم ليسوا ثمرة التصاق جسدي أو شهوة ماء، إنما هم عطية الله المقدسة. ترفع أنظارهما ليقدا أولادهما، لا كأولادٍ هم ملك لهما، بل

^١ Epistle 107:3.

"أولاد الله" الذين يُولدون من الماء والروح.

عندما يهب الله الزوجين ابناً يقدمانه بدورهما لله، ليصير ابناً له خلال سرّ المعمودية، يعود فيقدمه لهما الرب ابناً لهما يتعهدانه بروح الله، ليعيش ابناً للكنيسة. بهذا يلتزم الوالدان أو الإشييين بتربية المعمّد في جو الكنيسة، خاصة وأنه صار هيكلاً للروح القدس.

يوصي الكاهن الوالدين، قائلاً لهما:

[اليوم يا أحبائي صار أولادكم وارثين الحياة مع السيد المسيح!

اليوم اشتمل أولادكم بعربون الحياة، وصاروا ثابتين في الإيمان الأرثوذكسي السليم. اليوم الذي وُلدوا فيه كانوا عبيداً وليسوا من الأحرار، وأما اليوم فإنهم صاروا فائزين من كيد الأشرار...

الآن يا أحبائي اعلّموا أنكم تسلمتم أولادكم على المعمودية المقدسة الطاهرة الروحانية، وأنه يطالبكم بهم إذا غفلتم عنهم وعن تأديبهم وردّهم عن الأمور غير المرضية. اجتهدوا في تعليمهم حفظ تلاوة الكتب المقدسة التي هي أنفاس الله، وملازمة الكنيسة باكر وعشية والأوامر الرسولية... احتفظوا بأولادكم ولا تمكنوهم من المضيّ إلى الأماكن غير المرضية، كي يحرسهم الرب من التجارب الشيطانية.

وازرعوا فيهم الخصال الجميلة، ازرعوا فيهم البرّ والتسبحة، ازرعوا فيهم البتولية الخ.].

❖ من المعتاد أن يسمى الأشابيين آباء روحيين¹.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إننا نؤمن ونصدق بتقوى وصواب أن إيمان الوالدين والأشبايين يفيد الأطفال.

❖ يحضر الأطفال لنوال النعمة الروحية، ليس بواسطة الذين يحملونهم على أيديهم... إنما الذين يحضرونهم هم الجماعة الجامعة التي تضم القديسين والمؤمنين (أي أن الأشبايين يتقدمون كممثلين للكنيسة الجامعة)².

القديس أغسطينوس

¹ E. C. Whitaker: Documents of the Baptismal Liturgy, 1970, p 33.

² Epist 89:5.

❖ يتم الطقس بالنسبة للذين يُعمدون خلال شخص يسمى الإشبين، هذا لا يلتزم بالمسؤولية عن أخطائهم المستقبلية، لأن كل إنسان يجيب عن خطاياه أمام الله، لكنه يحمل شهادة عما فعله الموعوظون، وأنهم بالحقيقة قد استعدوا في الماضي وصاروا مؤهلين للمدينة (الساوية) والمواطنة فيها. بحق يُدعى ضامناً لأنه خلال شهادته يتأهل الموعوظون لقبول المعمودية¹.

❖ يجيب الإشبين عنكم ويصير مرشداً لكم في المدينة الساوية وقائداً لأجل مواطنكم فيها².

الأب ثيودور

الوصايا كثيرة لكنها تتلخص في أمر واحد هو نشأة الابن في أحضان كنيسته وبروحها. وفيما يلي بعض الوصايا التي قدمها بعض الآباء ليحيا الأبناء في جو كنسي، وينعموا بأمومة الكنيسة خلال البيت المقدس.

❖ نشأ صموئيل كما تعرفين في الهيكل، وتدرّب يوحنا في البرية. الأول كنزير الرب ترك شعره، وخمراً ومسكرًا لم يشرب، وفي طفولته تكلم مع الله. وترك الثاني المدن، وكان لباسه من وبر الإبل، وطعامه جرّادًا وعسلًا بريًا (مت ٤:٣) ... هكذا ينبغي أن تهذب النفس التي هي هيكل الله.

يليق بها أن تتعلم ألا تسمع ولا تتطّق بشيء إلا ما فيه مخافة الرب، فلا تفهم الكلمات الدنسة، ولا تكون لها معرفة بأغاني العالم. يلزم أن يستعذب لسانها حلاوة المزامير³.

❖ عندما تنمو باولا Paula كعريسها، في الحكمة والنعمة أمام الله والناس (لو ٥٢:٢) فلتذهب مع والديها إلى هيكل أبيها الحقيقي، لا تدعوها ترجع معهم من عنده، بل ليبحثا عنها بين الأقرباء والمعارف في طرق العالم الزمنية فلا يجدانها (لو ٤٣:٢-٤٦) إلا في خزانة الكتب المقدسة، تسأل الأنبياء والرسل عن معنى العرس الروحي الذي نذرت له.

اجعلها تقتدي بمريم التي وجدها جبرائيل الملاك بمفردها في غرفتها (تصلي)،

¹ E. C. Whitaker: Documents of the Baptismal Liturgy, p 45.

² E. C. Whitaker: Documents of the Baptismal Liturgy, p 45.

³ Epistle 107:3, 4.

فاضطربت (لو ٢٩:١) إذ نظرت رجلاً في حجرتها!

اتركيها تتمثل بتلك التي قالت: "مجد ابنة الملك من داخل" (مز ١٣:٤٥).

لنُجرح بسهام الحب، فتقول لحبيبها: "أدخلني الملك إلى حباله" (نش ٤:١).

لا تتركها تخرج خارجاً، لئلا يجدها الحراس، ويأخذون منها برقع العفة (نش

٦:٥)، ويتركونها عارية في دمها (جز ١٠:١٦-١٠)، لا بل بالحري لتقل لمن يقرع بابها

(نش ٢:٥): "أنا سور وثدياي كبرجين" (نش ١٠:٨)، "غسلت رجلي كيف أوسخهما؟!"

(نش ٣:٥)...

❖ علميها من الآن ألا تشرب خمراً "الذي فيه خلاعة" (أف ٨:٥)...

❖ لتكن صماء عن سماع صوت الأرغن، ولا تعرف استخدام المزمار والقيثارة (في

الأغاني الزمنية)...

❖ ليكن عملها اليومي أن تقطف لك الأزهار التي تنتقيها من الكتاب المقدس^١.

❖ يليق بها أن تستيقظ بالليل لتحفظ الصلوات والمزامير، وتتغنّى بالتسبيح في الصباح

وفي وقت الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة، لتأخذ مكاناً بين صفوف المحاربين لأجل

المسيح. وأخيراً لتشعل مصباحها وتقدم تقدماتها المسائية.

بهذه الأعمال تقضي يومها، وإذ يأتي الليل تجد نفسها منهكة بهذه الأمور.

لتنبع القراءة بال صلاة، وأيضاً الصلاة تتبعها القراءة، فإن الوقت يبدو لها مقصراً،

وتجد نفسها منهكة في أعمال كثيرة هكذا ومتنوعة.

[تحدث بعد ذلك عن الأعمال اليدوية... فإنه يلزم أن ينشأ الأطفال منذ صغرهم

على العمل والمثابرة.]

❖ لتُميت جسدها بالأسهار والأصوام وتُخضعه.

بالعفة الباردة تطفئ لهيب الشهوة وتخمد حرارة رغبات الصبى.

❖ لا تكن كنوزها حرائر وجواهر بل مخطوطات وكتب مقدسة...

❖ ليكن ثوبها وحلتها يليقان بمن كُرسَتْ له!

لا تأذي أذنيها أو تطلّي وجهها الذي تقدس للمسيح بما هو أبيض وأحمر...

^١ Epistle 107:7-9.

لتكن جواهرها من نوع آخر، أما مثل تلك الجواهر فلتقم ببيعها فيما بعد في هذا العالم وتشتري عوضاً عنها الجوهرة "كثيرة الثمن" (مت ١٣: ٤٦).

❖ لتبدأ بتعلم المزامير، ولتجمع حكمة السلوك في الحياة من سفر الأمثال لسليمان، ولتقتن عادة الازدراء بالعالم وأباطيله من البشر. لتتمثل بأيوب في الفضيلة والصبر. لتعبر على الأناجيل ولا تتركها ما دامت تقع بين يديها! لتشرب أعمال الرسل والرسائل بقلبٍ راضٍ. وإذا يمتلئ مخزن ذهنها بهذه الكنوز فلتتذكر الأنبياء، والـ *Heptateuch* [أي الأسفار الستة من التكوين حتى القضاة]، وأسفار الملوك وأخبار الأيام وعزرا وإستير... إذ تكمل هذا كله فلتقرأ بطمأنينة سفر نشيد الأناشيد، لكن لا تقرأه قبل ذلك، لأنها إن قرأته في البداية تفشل في إدراكه. فإنه وإن كان قد كُتِب بلغة مادية إلا أنه أغنية الزواج بالعريس الروحي، فيتأذى منه من لم يفهمه... لتجنب الكتب المزورة...

ليكن في يدها على الدوام كتابات كبريانوس. لتدرس رسائل أثاناسيوس ومقالات هيلاري دون أن تخافي عليها من التعثر^١.

القديس جيروم

❖ لتسكن فيكم "كلمة المسيح بغنى، وأنتم بكل حكمة معلمون ومنذرون بعضهم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية بنعمة، مترنمين في قلوبكم للرب" (كو ٣: ١٦). يقول: "تسابيح وأغاني روحية"، بينما ينطق أولادكم بأغاني الشيطان ورقصاته... إنه لمخجل حقاً أنه ليس منهم من يعرف مزموراً!... علمه أن يهتم بالمزامير المملوءة محبة للحكمة والتي تمس العفة والابتعاد عن مصاحبة الأشرار... ليتعلم بعد المزامير التسابيح الإلهية، فإن القوات العلوية تتغنى بها^٢.

القديس يوحنا ذهبي الفم

الاهتمام بشخص المربي والخادم والصديق

تتكون شخصية الإنسان في سنوات طفولته الأولى، على أساسها يعيش حياته كلها. لهذا اهتمت الكنيسة عند تسليم أبنائها الأطفال لوالديهم أن توصيهم بالمربين والخدام

^١ Epistle 107:11-12.

^٢ In Colos 9..

والأصدقاء وكل من يتعامل معهم، ألا يكونوا منحرفين لئلا يتشرب للأطفال منهم روح الفساد.

❖ الضرر الذي يصيب الخُر من إقامة عبيد فاسدين عليهم لهو ضرر لا يُحصى^١.

القديس يوحنا ذهبي الفم

❖ لتعزل باولا Paula عن الأولاد بأفكارهم الدنسة، بل ويليق بوصيفاتها والمساعدات لهن أن يعتزلن المجتمعات العالمية (الهزلية)، لأنهن متى تعلمن أمورًا خاطئة فيعلمن إياها بها أكثر^٢.

❖ اهتمي ألا يقود ابنتك نساء شريرات، فتعتاد معهن على اقتضاب الكلمات (كنوعٍ من الميوعة) أو التحلي بالذهب والأرجوان. فبالأولى يفسد حديثها، والثانية تقسد شخصيتها. يلزم ألا تتعلم في طفولتها ما لا يليق أن تتعلمه بعد ذلك^٣.

الموثرات المبكرة يصعب على العقل التخلي عنها. فالصوف الذي يُصبغ مرة بلونٍ أرجواني من يقدر أن يعيد إليه بياضه الأول؟! والجرة التي لم تستخدم زمانًا طويلًا يبقى فيها طعم ما قد امتلأت منه سابقًا ورائحته.

ويحدثنا التاريخ اليوناني عن الإمبراطور الإسكندر الذي كان يسود العالم أنه لم يكن يستطيع أن يتخلص من الآثار الأخلاقية السلوكية التي بثها فيه الحاكم لوندوس في طفولته.

إننا دائمًا مستعدون لتقليد ما هو شر، وسرعان ما تتطبع الأخطاء فينا أما الفضائل فتبدو لنا صعبة، لذلك ينبغي ألا تكون مربية Paula داعرة أو فاسدة أو بلهاء. ينبغي على من يحملها أن يكون محترمًا، ومربيها ذا سلوك جاد. عندئذ إذا ما رأَت جدها تقفز على صدره، وتحيط عنقه بذراعيها، وتغني في أذنيه قائلة: "هللوا" أراد أو لم يرد (إذ لا تتعلم الأغاني بل التسابيح)^٤.

❖ لا تدعها تلتقي بالعامّة إلا في صحبتكما، ولا تذهب إلى كنيسة أو مكان شهيد إلا مع

^١ In Colos 9..

^٢ Epistle 107.

^٣ اعتادت بعض الأمهات والمربيات أن يعلمن الأطفال الصغار بعض الشتائم والألفاظ النابية، ويفرحن إذ ينطق بها الطفل في بساطة. لكن يليق بنا ألا نعلم أطفالنا ما لا نريدهم أن يتعلموه في سن الصبا أو النضوج.

^٤ Epistle 107:4.

والدتها.

لا تتركنا شابًا يحييها بالابتسامات، ولا متحذلًا له خصلة في شعره يقدم لها التحيات...

❖ لتختبر لنفسها بعض العذاري المسنات لهن الإيمان المُذكى والشخصية القوية والعفة ليكن مثالاً لها، فليعلمن إياها بالكلام والقُدوة^١.

القديس جيروم

❖ افكر معلمونا الروحيون في هذا الأمر، ورأوه موافقًا أن يُقبل الأطفال على هذا الوجه الشريف، أعني أن يسلم الوالدان الطبيعيان ابنهما إلى مُربٍ صالح، يبقى تحت رعايته كأنه تحت عناية أبٍ إلهي كفيلاً لخلاص مقدس. عند ممارسة السرِّ يرفع المربي الابن وهو يعترف بالحياة المقدسة، جاحدًا الشيطان ومعتزفًا بالإيمان^٢.

القديس ديونيسيوس الأريوباغي

قداسة عملية

يرى القديس يوحنا الذهبي الفم أن يهتم الآباء بالأبناء، لا ليمارسوا الحياة المقدسة فحسب، وإنما ليتهيأوا أيضًا للحياة الزوجية المقدسة^٣. فالطفل في بيته كما في مدرسة يتهيأ للعمل، وهو إقامة "بيت" جديد. بمعنى آخر إن عمل الوالدين هو خلق جيلٍ يقوم بتهيئة جيل يخلفه... هذه النظرة يلزم ألا تفارق الوالدين قط.

هذا يستلزم أن يتمرس الأبناء على حياة الاحتمال والصبر ومواجهة الضيقات بإيمان حيٍّ إذ يقول:

❖ ليتنا ندرب أولادنا أن يكونوا هكذا قادرين على احتمال كل تجربة، ولا يستغربون ما قد يحل بهم^٤.

القديس يوحنا ذهبي الفم

القُدوة الحسنة

قدسية حياة الوالدين تمثل قدوة صالحة، يلمسها الرضيع الصغير والطفل والشاب.

¹ Epistle 107:11.

² رئاسة الكهنوت ١١:٧، ١٢.

³ In 1 Timothy 9.

⁴ In Ephes. 20.

فالأبناء يتعلمون من آبائهم ليس خلال الأوامر والنواهي، بل خلال الحياة التي يعيشونها. لذلك اهتمت الكنيسة أن تعيش البيوت المسيحية في حياة طاهرة بروح كنسية روحية عميقة. الابن قادر على تفهم كذب والديه وغضبهم وريائهم في العبادة وكل نقط ضعفهم، الأمر الذي يفقد قدرتهم على توجيهه وإرشاده. فعمل الوالدين أن يقدموا للأبناء مدرسة حياة للإيمان العملي وصورة روحية بلا زيف لما يرغبان أن يكون عليه أبناؤهما، عندئذ لا يحتاج الأبوان إلى إصدار أوامر كثيرة، بل في حب يتقبل الأبناء نصائحهما بتفهم وتعقل.

❖ "مقدمًا نفسك في كل شيء قدوة للأعمال الصالحة" (تي ٧:٢).

يقول الرسول أن تعظ العجائز الحداث، والرجال الشباب، لكي يتعقلوا. ليكون الجميع مدرسة ونموذجًا عامًا للفضيلة. فضياء سيرتك موضوع أمام الجميع في الوسط كمنظرٍ أو صورةٍ تحمل كل جمالٍ، يأخذ منها بسهولة من يريد نموذجًا للأمور الصالحة.

القديس يوحنا ذهبي الفم

❖ يليق بك أن تكوني مدرسة لها، ونموذجًا لما تريدينه أن تكون عليه في طفولتها. لا تسمحان لها - أنتِ ووالدها - أن تنتظر فيكما أمرًا إذا قلدتكما فيه تخطئ! تذكر أنكما والدا عذراء مكرسة، وبسيرتكما تعلمانها أكثر مما تعلمانها بوصاياكما^١.
القديس جيروم

^١ Epistle 107:9.

الوالدية والحزم

العاملان مع الله!

الوالدان مسئولان أمام الله عن تقديم ابنهما تقدمه للرب بلا عيب. يقدمانه خلال الكنيسة وبعمل الروح القدس ومثابرتهم ورعايتهما عضوًا حيًا يعيش للرب منفتح القلب لكل البشر.

حقًا ما أخطر مسئولية الأب والأم، فإنهما يحتاجان إلى مؤهلات خاصة من جهة النضوج الروحي والذهني وتفهم واجباتهما وفهمهما لنفسية أولادهما وطاقتهم وقدراتهم ومواهبهم^١.

ولكن يطمئننا القديس يوحنا الذهبي الفم فيقول: [لنطلب من الله أن يساعدنا في هذا الأمر، فإنه إن رأنا مهتمين بهذا الأمر، مشغولين به، فإنه يعيننا، إما إن رأنا لا نبالي بالأمر فإنه لا يقدم لنا يده. فإنه لا يهب معونته ونحن نائمون، بل عندما نعمل].

الحب بين الحنو والحزم

في حديثنا عن "الوالدية بين الحب والسلطة" رأينا أن الحب ليس تدليلاً مفرطاً، لكنه حنو هادف نحو بنيان النفس ونمو الشخصية، وأن نتائج التدليل المفرط لا تختلف كثيرًا عن ثمار العنف والقسوة. بمعنى آخر الحب واللفظ والحوار مع الأبناء هذا كله لا يتعارض مع التأديب الحكيم الهادف.

الله في أبوته لنا يؤدبنا، ليس انتقاماً بل عطفاً علينا، وترفقاً بنا لأجل بنياننا، إذ يقول الحكيم: "لأن الذي يحبه الرب يؤدبه، وكأب بابن يسر به" (أم ٣: ١٢).

فالحزم في الأبوة يختلف عن القسوة التي بلا أبوة، إذ تتبع عن حب صادق. وقد سبق لنا الحديث بتوسع عن "حزم الأب الروحي في رعايته لأولاده"^٢ الأمر الذي يلزمنا ألا نكرر ما سبق كتابته.

يلزم أن نضع في اعتبارنا أنه قبل أن نؤدب يتسع قلبنا بالحب، كقول القديس

^١ راجع قداسة البابا شنودة الثالث: الوصايا العشر (وصية ٢).

^٢ راجع للمؤلف: تلمذتي لأب اعترافي، طبعة ١٩٦٥، ص ١٧٠-١٩٢.

أغسطينوس: [التوبيخ يجب أن تسبقه الرحمة لا الغضب.]

وفي نفس الوقت لنضع أمام أعيننا هذه النصوص والأقوال:

"من يمنع عصاه يمقت ابنه، ومن أحبه يطلب له التأديب" (أم ١٣: ٢٤).

"أدب ابنك لأن فيه رجاء، ولكن على إمانته لا تحمل نفسك" (أم ١٨: ١٩).

"لا تمنع التأديب عن الولد، لأنك إن ضربته بعصا لا يموت. تضربه أنت بعصا

فتتقذ نفسه من الجحيم" (أم ٢٣: ١٣-١٤).

"العصا والتوبيخ يعطيان حكمة، والصبي المطلق على هواه يُجخل أمه" (أم

١٥: ٢).

❖ لتكن المحبة ولكن غير رخوة!

ولتكن القسوة، ولكن غير شديدة!

ولتكن الشفقة، ولكن مطابقة لمقتضى الحال، أي غير مُغالي في التسامح!

الأب غريغوريوس

❖ أيها الآباء علّموا أبناءكم بالرب، وربوهم بأدبٍ ومعرفةٍ بالمسيح، وعلموهم صناعات

تليق، لئلا يتهموا بالتفرغ...

لا تخافوا من انتهارهم وتعليمهم بهيبة، لأنكم لا تقتلونهم إذا علمتموهم بل تحبونهم.

قوانين ابن العسال

❖ لا تخافوا من أن تنتهروهم وتعلموهم الحكمة بحزم، لأن تأديبكم لا يقتلهم، بل بالأحرى

يحفظهم... من يهمل في نصح ابنه وتعليمه يكرهه^١.

قوانين الرسل

وقد سبق لنا إيضاح شروط التأديب^٢:

١. عدم التسرع في التأديب، لئلا يخطئ الأب في تصرفه.

٢. إظهار المحبة في التأديب، حتى يتقبله من غير تذمر.

٣. إظهار الحق قبل التأديب، حتى يأتي التأديب بالثمر المطلوب.

٤. أن يكون التأديب بقدر، حتى لا يكون جامدًا.

^١ Constitutions of the Holy Apostles 4: 2: 12.

^٢ راجع تلمذتي لأب اعترافي، ص ١٨٥-١٩٢.

لا تغيظهم

إن كانت الوصية الموجهة للأبناء: "أيها الأولاد أطيعوا والديكم في الرب، لأن هذا حق. أكرم أباك وأمك..."، فإن الآباء أيضًا ملتزمون ببقية الوصية: "وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم. بل ربوهم بتأديب الرب" (أف ٦: ١-٤).

ويعلق القديس يوحنا ذهبي الفم على هذه الوصية قائلاً:

❖ إنه لم يقل: "حبوهم"، لأن الطبيعة ذاتها تدفعهم لهذا حتى ولو بغير إرادتهم. فلو قيل هذا لكان من الفضول أن تُوضع وصية كهذه.

لكنه ماذا يقول؟ "لا تغيظوا أولادكم"، كما يفعل كثيرون بواسطة حرمانهم من الميراث أو التبرؤ منهم أو معاملتهم بتصلفٍ كأنهم عبيد لا أحرار...

إن الأمر الرئيسي هو أن (الرسول) يظهر لهم كيف يقتادونهم إلى الطاعة مظهرًا مصدرها... وذلك بذات الطريقة التي بها كشف للزوج علة طاعة زوجته له. إذ أعطى النصيب الأكبر من الوصايا للرجل، ناصحًا إيّاه أن يجتذبها إليه بقوة الحب. وهنا أيضًا يشير إلى ذات القوة الفعالة (الحب) بقوله: "ربوهم بتأديب الرب وإنذاره".

ها أنت ترى كيف يتبع الربط الروحية الرابطات الطبيعية!

أتريد أن يكون ابنك مطيعًا؟ ابدأ بتربيته بتأديب الرب وإنذاره!

القديس يوحنا الذهبي الفم

تنشئة الأطفال والمجد الباطل

قدم لنا القديس يوحنا الذهبي الفم عظة أو مقالاً بعنوان: "عن المجد الباطل والطريق القويم للآباء لتنشئة أطفالهم".

"On Vainglory and the Right Way for Parents to Bring up Their Children"

لقي هذا المقال اهتماماً كبيراً من بعض الدارسين الأرثوذكس وغيرهم، لأنه يمس حياة الأسرة المسيحية والكنيسة الجامعة، بل والمجتمع، إذ يقدم نظرة جادة نحو تقديرنا للطفل ودوره الحي في حياة الأسرة والكنيسة والمجتمع. لقد ضم المقال ٩٠ فقرة، جاء منها ٧٤ فقرة يعالج فيها موضوع تربية الأطفال، مقدماً للآباء نصائح رعوية وسيكلوجية وتعليمية على أساس كتابي كنسي روحي.

وقد خصصت هذا الفصل لتقديم فكر القديس ونظريته خلال هذا المقال الذي يستحق كل اهتمام من الجميع مع تعليقات بعض الدارسين عليه.

حقاً يلجأ كثير من الآباء إلى معلمين وأساتذة علم النفس وعلم الاجتماع وإلى الأقرباء والأصدقاء لإرشادهم ومساندتهم في تربية الأطفال. هذه المصادر دون شك لها أهميتها الكبرى، خاصة في تقديم نظرة عميقة للحياة. لكن يليق بالوالدين أولاً وقبل كل شيء أن يرجعوا إلى السيد المسيح نفسه وإلى الكنيسة للتعرف على حقيقة مسؤوليتهما نحو أطفالهما، وتقديم حياتهما قدوة صادقة لهم، حتى يقوموا بتربيتهم كأعضاء في الأسرة الإلهية، أي الكنيسة^١.

المجد الباطل وتنشئة الأطفال

يقول Richard J. Vincent في تحليله لهذا المقال أن الذهبي الفم خصص السدس (١/٦) الأول من عظته هذه يندب الانحطاط المبالغ فيه في الجو المحيط به حيث تسوده خطية المجد الباطل. هذه الخطية كان لها أثرها على الكنيسة "دمرت... ومزقت الجسد الواحد... وحطمت الحب" (فصل ١). المجد الباطل جذاب إذ له إغراءاته الكثيرة

^١ Kathleen Haverlack: *Using Saint John Chrysostom's Views to Raise Children in the Orthodox Faith*

(فصل ٢)، لكنه في النهاية هو مدمر، لا يقدم إلا ما هو فراغ وباطل (الفصلان ٣، ٤). يبذل الناس جهودًا ضخمة من أجل نوال مديح، لكن لا يقتنون منه شيئًا، بل سرعان ما يهجرهم الآخرون وينسونهم (فصول ٥-٨). جنون المجد الباطل يحمل في ذاته الدمار وسرعة الزوال.

يفتح القديس مقاله هذا بالحديث عن المجد الباطل، ربما لأن كثيرين في تربيتهم لأبنائهم ما يشغلهم ليس خلاص أبنائهم وبنينهم الداخلي ونجاحهم الحقيقي، وإنما يتطلعون إلى أبنائهم من خلال مجدهم الباطل، فيريدون نجاحهم في أعمالهم وغناهم ونوالهم مراكز اجتماعية عظيمة، لا لهدفٍ سوف الافتخار بهم، فيصير الأبناء وسيلة للمجد الباطل لأبنائهم. هذه الضربة نلمسها في مجتمعاتنا المعاصرة، فما قد فشل فيه الوالدان يريدان في أبنائهما أن يحققاه لا لشيءٍ سوى الافتخار بهم!

يعتبر الفصل الخامس عشر هو حلقة الوصل ما بين الحديث عن المجد الباطل وتنشئة الأطفال. يرى القديس يوحنا الذهبي الفم أن فشل الآباء في تدريب الجيل الجديد في الفضيلة يؤدي إلى دمار خطير يتجلى في جنون المجد الباطل. عندما يهتم الآباء بالأكثر بالمظاهر الخارجية لأبنائهم عوض اهتمامهم بالفضيلة الداخلية، فيستسلمون للمجد الباطل (فصل ١٦).

لقد أدرك القديس أن كثيرين يستخفون بكلماته بكونها تافهة: [لا يفكر أحد في أبنائه. ليس من يناقشهم في البتولية والوقار والاستخفاف بالغنى والشهرة، أو بالوصايا الواردة في الأسفار المقدسة] (فصل ١٧).

أهمية تربية الأطفال

يرى القديس يوحنا الذهبي الفم أن ذبيحة الشكر التي يقدمها الآباء لله عن أطفالهم هي أن يقوموا بتربيتهم بما يُسر الله، فلا يضع الآباء في أذهانهم أنهم يقومون بهذا العمل لكي يسروا الأطفال أو يبتهج والديهم أو بلدهم بل يسروا الله (فصل ٩٠)، خلال هذه المسرة يتمتع الكل بالسرور.

ميلاد الطفل هو بركة من عند الله، هبة يقدمها للوالدين، فيليق بهما أن يكرساه لله الذي يحبانه ويعرفانه بكونه خالقهما وأباهما. بدون هذا لا يظهران حبهما لله. يقول القديس يوحنا إن كل طفل يصير بالمعمودية والميرون والإفخارستيا ابنًا لله بالمسيح بواسطة الروح القدس الساكن فيه. فمسؤولية الوالدين هي أن يبقى ابنًا لله، وأن يتبع وصايا المسيح وتعاليمه

وأن يجاهد في فضائل الحياة المسيحية. وقد قدم **الذهبي الفم** نصائح للوالدين تساعد على نمو الطفل مع إزالة العقبات التي تواجه الطفل في نموه، مقدماً الجوانب الإيجابية والسلبية.

تربية الأطفال عمل مقدس!

يتطلع رئيس الأساقفة **الذهبي الفم** إلى دور الآباء في تربية أطفالهم أنه عمل مقدس، يمارسه الآباء ليقدموا لله ذبائح شكر موضع سروره وبهجته. يؤكد أنه لا يطلب أن يمارس كل طفل الحياة الرهبانية أو أن يُعد لها، إنما يعلم الآباء أبناءهم أن "يكونوا وقورين من شبابهم المبكر" (فصل ١٩).

❖ أن يكون (للشخص) أطفال هذا يمس الطبيعة، أما تربيتهم وتعليمهم في الفضائل فهو أمر يخص الفكر والإرادة.

❖ لا أعني بالالتزام بالتنشئة هو ألا يُترك الأطفال يموتون جوعاً فحسب، كما يقف كثيرون عند هذا الحد بخصوص أطفالهم، فإن هذا تعلنه الطبيعة نفسها كما بصوت عالٍ، ولا يحتاج إلى كتبٍ أو سننٍ لتعليمه. إنما ما أتكلم عنه هو الاهتمام بقلوب الأطفال والتقوى. هذا واجب مقدس، من ينتهكه يرتكب بصورة ما جريمة قتل للأطفال.

❖ هذا الالتزام يخص الآباء كما الأمهات أيضاً. يوجد آباء يضحون بكل شيء لكي يؤمنون لأطفالهم معلمين للتمتع بالملذات ويجعلون منهم ورثة أغنياء. أما أن يصير الأولاد مسيحيين ويمارسوا التقوى، فلا يبالون كثيراً بهذا. يا للعلمي الذي يُحسب جريمة! إنه إهمال سخيف مسئول عن الارتباك الذي يجعل المجتمع في مرارة. لنفترض أنك تُعد لهم ممتلكات عظيمة. فإنهم إن كانوا يجهلون كيف يسلكون في حياتهم، فحتمًا لن تدوم هذه الممتلكات معهم. إنها ستتبدد، وتهلك مع أصحابها، ويصير ميراثاً غاية في الخطورة!

❖ سيكون أبنائك في غنى بما فيه الكفاية على الدوام، إن تقبلوا منك تنشئة صالحة، قادرة أن تدبر حياتهم الأخلاقية وسلوكهم. هكذا ليتك لا تجاهد لتجعلهم أغنياء بل لتجعلهم أتقياء، سادة على أهوائهم، وأغنياء في الفضائل. علمهم ألا يفكروا في احتياجات مخادعة، فيحسبون أنهم يُكرمون حسب مستواهم الزمني (العالمي المادي). راقب بلطف تصرفاتهم، ومعارفهم وأصدقاءهم - ولا تتوقع أية رحمة تحل من عند الله

إن لم تتم هذا الواجب.

لتقتدوا بالآباء المهتمين بأبنائهم

❖ لتقتدوا بأبواب الذي كان يهتم باستمرار بأبنائه، وقدم ذبائح لأجل الرحمة من أجل أي فعل خاطئ ربما ارتكبه خفية (أي ١: ٥).

لتقتدوا بإبراهيم الذي لم يشغل نفسه بطلب الغنى مثل انشغاله بحفظ كل عضو في بيته شريعة الله، والذي شهد الرب له. "لأنني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برًا وعدلاً" (راجع تك ١٨: ١٩).

داود، إذ قارب من الموت أراد أن يترك لسليمان ميراثًا أكيدًا، دعاه ليكرر على مسمعه التعاليم التالية الحكيمة: "لكي يقيم الرب كلامه الذي تكلم به عني قائلاً: إذا حفظ بنوك طريقهم، وسلخوا أمامي بالأمانة من كل قلوبهم وكل أنفسهم قال لا يُعدم لك رجل عن كرسي إسرائيل" (١ مل ٢: ٤).

هذه أمثلة يلزمنا أن نقتدي بها في حياتنا حتى النفس الأخير.

الاهتمام المبكر بتربية الطفل

يطالب رئيس الأساقفة شعبه أن يبكروا في تربية أطفالهم قدر المستطاع. فإن الطفل في بدء حياته يكون أكثر استعدادًا لقبول التوجيه (فصل ٢٠). فإن تأخر الشخص في بدء التربية يصعب تغيير شخصية الطفل وتوجيهها إلى ما هو أفضل (فصل ٢١).

❖ إن كان الرسول يأمرنا أن نهتم بالآخرين أكثر من اهتمامنا بأنفسنا، وإن كنا نحسب مخطئين متى أهملنا ما هو لنفعهم، ألسنا بالأكثر نكون مخطئين إن كان هذا يخص من هم قريبين منا؟

سيقول لنا الرب: "ألسنت أنا الذي أعطيت لهؤلاء الأطفال مكانًا في عائلتكم؟ ألسنت أنا الذي عهدت بهم لرعايتكم، وجعلتكم سادة وحراسًا وقضاة عليهم؟ لقد أعطيتكم سلطانًا كاملاً عليكم. سلمتهم بالكامل لأيديكم من أجل تنشئتهم.

ستخبروني أنهم لم يريدوا أن يحنوا رقابهم للنير، وأنهم طرحوه عنهم. لكن هذا كان يُمكن تجنبه من البداية ذاتها. كان يليق بكم أن تحنوا نفوسهم الصغيرة تحت نير الالتزام، وتعودوهم على ذلك، وتعلموهم هذا، وتضمدون الجرح في بداية انفتاحه.

كان يليق بكم أن تقتلعوا الزوان عندما بدأ يظهر حول النبات، وما كان يليق بكم

أن تنتظروا حتى تتعمق جذوره، فصار لا يمكن ضبط الأهواء وترويضها بتقويتهم تدريجيًا خلال تكوينهم ونموهم.

❖ يقول ابن سيراح: "هل لك أبناء؟ علمهم، واحني رقابهم من صباهم" (سيراح ٧: ٢٥). أما الرب لم يحثنا فقط بهذه الوصية خلال شفتي نبيه، بل أخذ جانبنا، وتمم هذه الوصية بعقوبةٍ مخيفةٍ تنتظر هؤلاء الأبناء الذين لا يخضعون لسلطان والديهم. كل إنسان يسب أباه أو أمه يموت موتًا (لا ٢٠: ٩) ... إنهم متمرّدون ضد الله نفسه، وعاصون لوصاياه، ومع هذا فأنت تتطلع إلى هذا دون إظهار أي اشمئزاز، دون تقديم أدنى نقدٍ لأبنائك!...

❖ الأبناء الخاضعون والمخلصون لله في طاعتهم لشريعته يجدون مصدر فيض للسعادة حتى في هذه الحياة الزمنية. الرجل الفقير مع أخلاقيات مسيحية يوحى للآخرين بتقديم الوقار له والحب. بينما من كان له قلب شرير منحرف، لن يُنقذك كل غناك من غضب كل أحد حولك وبغضه لك.

❖ الشاب الذي تهبه نشأة صالحة ليس فقط يتمتع بتقدير عام، وإنما سيصير عزيزًا جدًا لك أنت أيضًا. سيكون التصاقك به ليس عن انجذاب طبيعي مجرد، وإنما لثمرة فضائله. لهذا فإنك في شيخوختك تتقبل منه ثمرة خدمات محبته البنوية. سيكون عونًا لك. وكما أن الذين لا يوقرون الرب يستخفون بوالديهم، فإن الذين يوقرون الله - أب كل البشر - سيقدمون كل احترامٍ للذين أعطوهم الحياة.

نصائح للوالدين

١. اختيار اسمه

يرى القديس أن أول درس يقدمه الوالدان لطفلها هو اختيار اسمه، فقد عالج هذا الموضوع في شيء من الإطالة، مطالبًا ألا يُدعى الطفل باسم أحد أفراد الأسرة، بل باسم أحد الشهداء أو الرسل أو الأساقفة (فصل ٤٧). وكأنه أراد من الوالدين أن يدركا أن طفلها ينتسب للأسرة السماوية أكثر مما لهما أو لعائلتهما. فالطفل يعتز باسمه الذي ناله ليتشبه بالشهداء والرسل والأساقفة، مقدمًا قلبه بالكامل مكرسًا للرب.

تتكون علاقة حب بين الطفل والقديس حامل اسمه في الرب، تنمو هذه العلاقة مع

الزمن، ويود الطفل أن يتشبه به، ويطلب صلواته عنه، لكنه لا يصير صورة مطابقة له، لأن لكل مؤمن شخصيته الفريدة، إنه ابن فريد للرب!^١ بناء على هذه النصيحة يرى البعض أن أول هدية تقدم للطفل في عيد ميلاده (أو عماده) هي أيقونة القديس الذي يحمل الطفل اسمه. وإذا كان عيد القديس في يوم غير عيد ميلاد الطفل أو عماده، تقيم الأسرة احتفالاً بعيد القديس بكونه عيداً خاصاً بالطفل حامل اسمه.

٢. تعليمه الرضا والقناعة

اهتم القديس بتوجيه الوالدين لطفلهم نحو الرضا والقناعة، وكما يقول الحكيم: "القليل مع مخافة الرب خير من كنزٍ عظيم مع همٍّ. أكلة من البقول حيث تكون المحبة خير من ثورٍ معلوفٍ ومعه بغضة" (أم ١٥ : ١٦-١٧).

٣. توجيهه نحو الأسفار المقدسة

يطالب القديس يوحنا الذهبي الفم الآباء أن يوجهوا أطفالهم إلى التمتع بالكتاب المقدس ودراسته. فالوالدان يجنيان أول ثمرة من هذا التوجيه، حيث يدرّبهما الكتاب المقدس على الطاعة للوالدين. فيجد الوالدان في أبنائهما روح الوداعة والطاعة لهما. ومن الجانب الآخر، يبدو أن بعض الآباء كانوا يخشون من اهتمام أبنائهم بالكتاب المقدس أن يميلوا إلى الحياة الرهبانية. لذلك يوضح القديس أن الأطفال الذين يعيشون في العالم متى نما في القامة صاروا في حاجة إلى التدريب على كلمة الله أكثر من الرهبان، لأنهم يواجهون مواقف مثيرة وتجارب أكثر منهم. فإن كان كثيرون يهتمون بتعليم أبنائهم لينالوا مراكز سامية في القصر الملكي أو خلافه يتعرضون لروح الكبرياء والعجرفة، فمن يستطيع أن يروضهم عن هذا الفكر؟ إنهم في حاجة إلى الكتاب المقدس أكثر من الرهبان لأجل ترويضهم.

❖ لما كان تقديم النصيح للأبناء ضرورياً يوجه الرسول خطابه إلى الآباء، قائلاً: "وأنتم أيها الآباء... ربوهم بتأديب الرب وإنذاره" (أف ٦ : ٤).
أتريد أن يكون ابنك مطيعاً؟ ربّه من البداية على تعليم الرب وتهذيبه.

¹ Kathleen Haverlack: Using Saint John Chrysostom's Views to Raise Children in the Orthodox Faith.

لا تظن أنه ليس من الضروري أن يصغي الطفل إلى الأسفار المقدسة، فإن أول ما يسمعه منها هو: "أكرم أباك وأمك" (خر ٢٠: ١٢)، وفي الحال تبدأ تجني مكافأتك.

لا تقل إن الكتاب المقدس للراهبان، هل أريد أن أجعل ابني راهبًا؟ لا. ليس من الضروري أن يكون راهبًا. اجعله مسيحيًا!

لماذا تخاف من أمر صالح؟ فإنه يليق بكل أحد أن يعرف التعاليم الكتابية، وهذا أمر حقيقي لازم للأطفال... لنقدم أنفسنا قدوة لهم، فمنذ سنواتهم المبكرة نعلمهم أن يدرسوا الكتاب المقدس.

❖ مع من يتحدث الراهب؟ مع حوائط قلأيته، أم مع بطانيته (غطائه)؟ مع الصحراء أم مع الشجيرات؟ مع التلال أم الأشجار؟

هكذا إنه ليس في حاجة إلى ذات التعليم بالرغم من الحقيقة أنه يصارع لكي يصير كاملاً في ذاته - وليس أن يعلم الآخرين، بل يعلم نفسه.

ما هو الموقف بالنسبة للذين يعيشون في هذه الحياة (في العالم)؟ إنهم في حاجة ماسة إلى هذا التعليم، لأن الإنسان في العالم يواجه مصادر كثيرة للتجارب، أكثر من الراهب.

وإن أردتم أن تعرفوا فإنه يمثل هذا التعليم يكون الشخص موضع السرور أكثر من الكل. يبدأ الكل يوقره عندما يرونه أنه ليس بالغضوب، ولا بطالب السلطة.

إذ تعرفون هذا، دربوا أبناءكم على معرفة الرب وإنذاره!

وإن كان الإنسان فقيراً فما الموقف؟... فإن هذا التعلم لن يسيء إليه لأنه لا يخدم بين رجال الحاشية الملكية، بل بالعكس يصير موضع إعجاب الآخرين... فإن كان المظهر الخارجي (للفلاسفة) وحده، ظل الفلسفة المجرد، يمكنه أن يرفع من شأن الإنسان، فماذا يُقال عن الحب نحو الحكمة الحقيقية واهبة الاستنارة؟ أما يبدأ كل أحد يحترم مثل هذا الإنسان؟ أما يثقون فيه دون تحفظ، فيأتمنونه على بيوتهم ونسائهم وأطفالهم؟

❖ اخبروني، أي الأشجار هي الأفضل؟ ألسنا نفضل الأشجار القوية في الداخل، فلا تؤذيها عواصف الأمطار أو البرد أو عواصف الرياح أو أي نوع من الجو القاسي، بل تتعرض لهذا كله دون حاجة إلى أسوار أو حوائق تحميها؟ من يحب الحكمة بالحق

يكون هكذا، ويكون له غناه الذي سبق لنا وصفه. ليس لديه شيء وهو يملك كل شيء؛ لديه كل شيء وليس لديه شيء. السور لا يحمي القوة الداخلية ولا يكون الحائط سندًا طبيعيًا، بل هما حماية صناعية... الإنسان الغني بالحق هو المحب الحقيقي للحكمة، لا يحتاج إلى شيء من هذه الأمور، ولهذا ينصحنا الرسول الطوباوي أن نربي أولادنا بتأديب الرب وإنذاره (أف ٦ : ٤)...

❖ لنربي أولادنا بإنذار الرب وتعليمه، فتكون لنا مكافأة عظيمة محفوظة لنا. فإنه إن كان الفنانون الذين يصنعون تماثيل ويرسمون صورًا للملوك يصير لهم تقدير عظيم، أليس الله يبارك ربوات المرات الذين يعلنون ويزينون صورته الملكية (لأن الإنسان صورة الله)؟

عندما نعلم أولادنا أن يكونوا صالحين ولطفاء، ومسامحين (فإن هذه كلها سمات تُنسب لله)، وأن يكونوا أسخياء، ويحبوا الناس زملاء هم، ويحسبوا هذا الزمن الحاضر كلاً شيء، فإننا نغرس الفضيلة في نفوسهم ونعلن صورة الله فيهم. هذا إذن هو واجبنا: أن نعلم أنفسنا وأولادنا في تقوى، وإلا بماذا نجيب أمام كرسي المسيح للحكم؟ أن كان الإنسان الذي له أبناء عصاة لا يتأهل ليكون أسقفًا، فكيف يتأهل لملكوت السماوات؟

٤. سلمه في يدي الرب!

❖ لماذا ترفضون الإقتداء برجال ونساء العهد القديم القديسين؟ أخبروني! خاصة أنتن أيتها الأمهات، فلتفكرن في حنة كمثال، أنظرن ماذا فعلت. لقد أحضرت ابنها الوحيد صموئيل إلى الهيكل حينما كان لا يزال طفلاً!

من منكن لا تريد أن يكون ابنها مثل صموئيل الذي هو أفضل من ملكٍ على العالم كله ربوات المرات؟ تقولين: "هذا مستحيل"، فإن ابني لن يكون عظيمًا هكذا مثله! لماذا هذا الأمر مستحيل؟ لأنك بالحقيقة أنت لا تريدين هذا. أودعيه في يدي ذاك القادر أن يجعله عظيمًا. ومن هو هذا؟ الله! أودعت حنة صموئيل في يدي الله.

لم يكن رئيس الكهنة عالي قادرًا بالحقيقة أن يشكّله، فقد فشل في تشكيل ابنه. إنه إيمان الأم وغيرتها جعلت كل شيء ممكنًا.

لقد كان ابنها البكر والوحيد. لم تكن تعرف هل سيكون لها ابن آخر غيره، ومع هذا لم تقل قط: "سأنتظر حتى يكبر، ويذوق مباحج العالم، على الأقل في صبوته". لا، فقد رفضت مثل هذه الأفكار كلها. كان لها هدف واحد، كيف أنها من البدء استطاعت أن تتركس بهجة قلبها لله.

لتدخلوا أيها الرجال أمام حكمة هذه المرأة. لقد قدمت صموئيل لله، وعند الرب تركته. بهذا تبارك زوجها بالأكثر لأن غايتها الأولى هي الأمور الروحية. لقد كرس بكر رحمها لله، فنالت بعد ذلك أبناء كثيرين. لقد رأت صموئيل مكرماً حتى في هذه الحياة.

إن كان الناس يردون التكريم بالتكريم، أما يرد الله بالأكثر لمن يكرمه؟ إنه يعطي الكثير جداً حتى للذين لا يكرمونه نهائياً!
إلى متى نبقي هكذا ككتل جسدية؟
إلى متى نلتصق بالأرض؟
ليصر كل شيء في المرتبة التالية بعد اهتمامنا بأولادنا، فنربهم في تعليم الرب وإنذاره (أف ٦: ٤).

٥. اهتمام الله نفسه بتربية الأبناء

يحدثنا القديس يوحنا الذهبي الفم عن اهتمام الله نفسه بتربية الأبناء، فإن هذه النفوس ثمينة في عينيه. فهو الذي خلق في الوالدين الأبوة والأمومة، خلال هذا الدافع "الوالدية" يشعر كل من الأب والأم بالالتزام بتربية الطفل.

هذا وقد وضع الله في الناموس وصايا وشرائع تكشف عن اهتمامه بتربية الأبناء. يرى الذهبي الفم أن من اهتمام الله بتربية الأطفال أنه طالب الأبناء بالطاعة للوالدين ليقدم بنفسه المكافأة للمطيعين، ومن جانب آخر ليعث في الوالدين اعتزازاً أكثر بأطفالهم. فالأطفال هم موضع اهتمام الله نفسه.

❖ يعطي الله نفسه اهتماماً عظيماً بتربية الأبناء. هذا هو السبب الذي لأجله وضع مثل هذا الانجذاب الطبيعي في الوالدين نحو أطفالهما - وذلك لكي يضع الوالدين في مركز يلزمهما برعاية أطفالهما بالضرورة.

لقد شرع قوانين خاصة بهذا الاهتمام، وأسس أعياداً تأمرنا أن نوضح معانيها. لقد لخص معنى الفصح في التعليم التالي: "وتخبر ابنك في ذلك اليوم قائلاً: من

أجل ما صنع إليّ الرب حين أخرجني من مصر" (خر ١٣ : ٨).

صنع نفس الأمر بخصوص الشريعة. فعندما تحدث عن البكر أضاف مرة أخرى: "ويكون متى سألك ابنك غداً قائلاً: ما هذا؟ تقول له: بيدّ قوية أخرجنا الرب من مصر من بيت العبودية. وكان لما تقسى فرعون عن إطلاقنا أن الرب قتل كل بكرٍ في أرض مصر، من بكر الناس إلى بكر البهائم، لذلك أنا أدبح للرب الذكور من كل فاتح رحم، وأفدي كل بكرٍ من أولادي" (خر ١٣ : ١٤-١٥).

خلال هذا كله يأمره الله أن يقود أطفاله إلى معرفة الله.

حتى بالنسبة للأطفال أنفسهم أمرهم الله كثيراً بخصوص الوالدين، مكافئاً المطيعين ومجازياً العاصين، حتى يجعلهم في موضع أكثر اعتزازاً عند الوالدين.

٦. تقدير قيمة الطفل وقدراته

يتطلع القديس الذهبي الفم إلى الطفل في تقديرٍ عجيبٍ واعتزازٍ به، فيرى في الأطفال فلاسفة في تكوينهم، مصارعين في تداريبهم، ومواطنين يتشكلون ويتهيأون للسكنى الأبدية في السماء (فصل ٣٨، ٣٩). يرى فيهم القديس قدرات عظيمة تتحقق خلال التداريب الجادة.

يرى القديس في الطفل مدينة ذات أبواب أو مداخل كثيرة. فالنفس يقطنها حكام أو قضاة صالحون وأيضاً أشرار غير موقرين. لذا يحتاج الطفل إلى نواميس تضبط التصرفات الخاطئة. فالتسيب يقود إلى دمار المدينة (فصول ٢٣-٢٦). أما أبواب المدينة التي تحتاج إلى حراسة فهي الحواس الخمس: اللسان (التذوق والكلام) والنظر والشم واللمس والسمع (فصل ٢٧-٣٧).

٧. التحذير من العقوبات البدنية!

حقاً يوضح القديس أن وضع قواعد للسلوك دون تحقيقها عملياً تجعلها قواعد باطلة (فصل ٢٦)، وأيضاً التهديد بالعقوبة دون التنفيذ لغو (فصل ٣٠). فالتأديب والحزم أمران هامان، لكن ليحذر الآباء من استخدام العقوبات البدنية. ففي رأيه أن الأب الحكيم (أو الأم) يلزمه أن يكف عن الاستخدام المستمر للعقوبة البدنية، أو ما يدعوها بالعصا. فإن استخدام العصا يقود الطفل إلى الاستخفاف بها وعدم المبالاة بالعقوبة، كما لا تولد فيه محبة الفضيلة. ليخشى الطفل العقوبة، لكن لا يسقط دوماً تحتها (فصل ٣٠).

٨. ليكن تعليم الطفل وتدريبه حسب قدراته

يرى القديس في قول الرسول: "لا تغيظوا أولادكم" (أف ٦: ٤؛ كو ٣: ٢١) دعوة إلى عدم مطالبة الطفل بأكثر من قدراته وإمكانياته، فلا يليق المبالغة في تعليمه (فصل ٥٢) حتى لا يحل به الرعب.

٩. التعليم بالقُدوة

ركز القديس على دور الوالدين كقدوة في حياة أبنائهما، وإذ يطلبان منهم أن يكونوا فلاسفة ومصارعين ومواطنين سمائيين، يليق بالوالدين أن يكونا هكذا حتى يتمثل بهما أبنائهم عملياً.

١٠. الاهتمام بمن لهم تأثير على الطفل

يؤكد القديس ضرورة اهتمام الوالدين بالتدقيق في اختيار من لهم تأثير على أبنائهما، فلا يسمحان لمن يلتصق بهم أن يروي لهم قصصاً تافهة وخزعبلات، بل يسمع أبنائهما قصصاً من الكتاب المقدس بطريقة مبهجة، مع إعطاء الفرصة للحوار والنقاش. هذا ولا يليق تجاهل الحديث عن الجانب التأديبي من قبل الرب للأشرار مع توضيح محبة الله لنا.

١١. الاهتمام بتقديس حواس الطفل

رأينا كيف يهتم القديس بالحواس بكونها أبواب مدينة النفس الرئيسية. بدأ بالحديث عن اللسان.

لم يتكلم عن حاسة الشم كثيراً إلا أنه أكد ألا يبالغ الوالدان في الروائح العطرة، فإن غاية الأنف أن تستنشق الهواء لصالح الجسم لا أن تنتعم بالروائح العطرة. يرى البعض أن هذا الأمر تافه، لكن القديس يؤكد ما هو خلاف ذلك (فصل ٥٤).

١٢. نقاوة القلب

ركز القديس على اهتمام الوالدين بتوجيه طفلهم نحو نقاوة القلب الداخلي، فيعلماه المحبة وطول الأناة خاصة مع الخدم (فصول ٦٦-٦٩) ومع إخوته الأصغر منه (فصل ٧٤)، وأن يعامل الخدم كأخوة له (فصل ٧٢).

١٣. العفة والطهارة في حياة أبنائنا

يطالب القديس الوالدين ألا يسمحا لطفلهما بالذهاب إلى المسارح حتى لا يتسلل الانحلال الجنسي إليه (فصل ٧٧). هذا من الجانب السلبي، أما من الجانب الإيجابي فيليق بهما مساندته بحفظ صوم يومي الأربعاء والجمعة ليتمتع بحياة الطهارة والعفة. يطالبهما أن يشجعه على الزواج المبكر بعد أن يتمتع بالحياة الناضجة المستقيمة لحفظ طهارته.

١٤. أولوية الحكمة في تربية الأبناء

يبرز القديس أهمية دور الوالدين في تمتع الطفل بالحكمة التي تهبه ضبط النفس (فصل ٨٥)، وتقدم له مفاهيم سليمة للثروة والشهرة والقوة، حيث تزرع في قلبه مخافة الرب (فصل ٨٥)، ويشتهي السماويات لا الأرضيات. بالحكمة يكون مواطنًا صالحًا يمارس الشؤون السياسية دون أن يخطئ (فصل ٨٩).

❖ إن علمناهم من البداية حب الحكمة الحقيقية، ستكون لهم ثروة أعظم وأفضل مما يجلبه الغنى. إن تعلم طفل التجارة أو نال تعليمًا عاليًا في مهنة مربحة للغاية، فإن هذا كله يُحسب كلا شيء إن قورن بغن التخلي عن الغنى. إن أردت أن تجعل طفلك غنيًا علمه هذا. يكون بالحقيقة غنيًا ذاك الذي لا يشتهي الممتلكات العظيمة ولا يحيط نفسه بالثروة، بل لا يطلب شيئًا!

❖ لا تسأل كيف يمكنه أن يتمتع بعمرٍ طويلٍ هنا، بل كيف يتمتع بحياة أبدية لا نهائية في الحياة العتيدة. قدم له الأمور العظيمة، لا التافهة. لا تجاهد لتجعل منه خطيئًا بارعًا، بل علمه أن يحب الحكمة الحقيقية. إنه لا يعاني من شيء إن كانت تنقصه كلمات بارعة، لكن إن نقصته الحكمة، فإن كل بلاغة العالم لا تقدر أن تعينه... لست أقصد أن التعليم الزمني بلا قيمة وأن نتجاهله، وإنما يلزم ألا نرتبك به في مبالغة!

١٥. حفظهم من العادات الوثنية

أشار القديس يوحنا الذهبي الفم في مقاله هذا إلى ضرورة حفظ الأطفال من العادات الوثنية.

هذه الوصية لازالت لها أهميتها في هذا الجيل بطريقٍ أو آخر. فإننا نلاحظ ما قد تسلل إلى الكنيسة في الغرب مثل فكرة Santa Claus الذي يقدم الهدايا في عيد الميلاد المجيد Christmas، وأرناب القيامة Easter Bunny، حتى كاد هذا الأمر يقضي على

المفهوم الروحي لعيد الميلاد والقيامة (الفصح المسيحي)، وقد بدأ يتسلل الأمر ذاته إلى الشرق.

يليق بنا في عيد الميلاد التركيز على ميلاد السيد المسيح كهبة قدمها الآب للبشرية مع توضيح أن قصة Santa Claus محرفة عن شخصية القديس نيقولاوس المحب للعطاء. أما في عيد القيامة فنهتم أن نقدم في أحد الشعانين السعف مع عمل صلبان وقلوب منها وتوضيح دخول السيد المسيح إلى قلوبنا، وأورشليم الداخلية، وتأكيد عمل الفداء والخلاص للعالم كله.

١٦. عدم بث مفاهيم خاطئة في أذهان الأبناء

يحذر القديس الآباء من إعطاء أسماء لامعة لأخطاء جسيمة وتصرفات غير لائقة، مما يفسد حياة الأبناء ويدفعهم إلى الانحلال والتسيب.

❖ إنه لأمر شرير بما فيه الكفاية أن تحت أبنائك على ممارسة ما هو ضد وصايا المسيح، بل وتلبس هذه الممارسات قناعًا تحت أسماء براقّة. فتدعو حضور سباقات الخيل والمسارح بصورة مستمرة "حياة اجتماعية"، واقتناء الغنى "حرية"، والتهور "انفتاحًا"، والإسراف والتبذير "ممارسة إنسانية". والظلم "رجولة". وكأن هذا الخداع ليس فيه الكفاية فتدعو الفضائل بأسماء مهينة، فالاحتشام تدعوه "نقصًا في التعليم"، والوداعة "جبنًا"، والعدالة "ضعفًا"، والتواضع "خنوعًا"، وعدم الغضب "عجزًا". وكأنك تخشى أن يسمع ابنك الأسماء الحقيقية للفضائل والردائل فيهرب من الردائل بكونها وباءً...

وما هو أشر أنك تحثهم على فعل الشر ليس فقط بكلماتك بل وبأفعالك... التي تنظم نفوسهم...

إنك تبذل كل الجهد لكي تمد ابنك بخادم وفرس وملبس فاخر، لكنك لا تريد أن تفكر أن يكون هو نفسه صالحًا. لا، إنك تهتم بالصخور والأشجار، ولا تعطي أدنى اهتمام للنفس. تفعل كل شيء لتطمئن أن يوجد تمثال جميل وسقف ذهبي لبيتك، أما النفس التي هي أئمن من كل التماثيل الذهبية فليس لها اعتبار لديك...

عندما ترى ابنك مريضًا في الجسد لا تحتاج إلى من يسألك لكي يكون في صحة جسمية كاملة وقوية. على العكس فإنك تستخدم كل وسيلة حتى يصير جسمه في صحة جيدة ولا يعود إليه المرض ثانية.

لكن عندما تكون نفوس الأبناء مريضة يقولون أنهم ليسوا في حاجة إلى علاج،
وبعد هذا يتجاسرون ويدعون أنفسهم آباء!

١٧. اهتم بخلاص أولادك!

❖ إننا لا نبخل عن بذل كل جهدٍ واستخدام كل وسيلة لتعليم أطفالنا العلوم الزمنية، حتى يخدمون السلطات الزمنية حسنًا. أما معرفة الإيمان المقدس وخدمة الملك السماوي فهي أمور ليست بذات قيمة عندنا.

نسمح لهم بحضور المسارح، ولا نهتم بذهابهم إلى الكنيسة والوقوف فيها بوقارٍ. إن كنا نحاسبهم عما تعلموه في المعاهد العالمية، فلماذا لا نسألهم عن ما سمعوه في بيت الرب؟

١٨. الاهتمام بتعليم الأبناء وتدريب الأمور الزمنية

تركيز القديس على الحكمة السماوية وتدريب الأبناء خلال كلمة الله لا يعني تجاهل تعليم الأبناء بالعلوم الزمنية وتدريب الأمور الزمنية لهم.

❖ تقول: "ماذا؟ هل نطلب الحكمة ونترك كل ما هو أرضي؟" لا، أيها المكرمون جدًا، فإن هذا ليس فيه حب للحكمة بل نقص لها، مما يدمر كل شيء ويفسده.

١٩. تشجيع الأبناء على التكريس

كما أن الآباء القديسين يسندون أبناءهم، وتبقى بركة هؤلاء الآباء تسند أحفادهم إلى أجيال كثيرة، هكذا الأبناء القديسون الذين يكرسون قلوبهم وحياتهم يكونون سنًا لأبائهم. فمن أجل داود النبي بارك الرب ابنه سليمان وبعض أحفاده كحزقيا الملك، وأيضًا كان صموئيل النبي الذي جاء ثمرة صلوات أمه هو سرّ بركة أيضًا لأمه.

❖ لنسمح لأبنائنا أن يخدموا الله، نقودهم ليس فقط إلى الهيكل كما حدث مع صموئيل، وإنما إلى السماوات عينها لخدموا معًا مع الملائكة ورؤساء الملائكة. فإنه يمكن لأي شخص أن يرى ذاك الذي يكرس حياته لمحبة الحكمة بالحق سيخدم مع الملائكة. لهذا فإن مثل هؤلاء الأبناء يقفون بدالة عظيمة ليس عن أنفسهم فقط، وإنما أيضًا عنا نحن. فإن كان بعض الأبناء ينالون عونًا من الله من أجل آبائهم، فبالأكثر ي nمكن للآباء أن ينالوا عونًا من أجل أبنائهم. ففي الحالة الأولى يأتي العون من

خلال الطبيعة، أما في الحالة الثانية فيأتي العون من خلال التربية، التي هي أهم بكثير من الطبيعة.

إنني آتي إليكم ببراهين من الكتاب الإلهي. حزقيا، الملك الفاضل التقى لم تكن له دالة بأعماله ليواجه الخطر العظيم الذي هددته، فقد خلص بواسطة الله من أجل فضيلة أبيه كما قال الله نفسه: "سأدافع عن هذه المدينة كدرع، من أجلي ومن أجل عبدي داود" (٢ مل ١٩ : ٣٤). يقول بولس في رسالته إلى تيموثاوس عن الوالدين: "ولكنها (الأم) ستخلص بولادة الأولاد أن تثبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل" (١ تي ٢ : ١٥). يمتدح الكتاب المقدس أيوب لأنه كان مستقيماً بلا عيب، باراً وتقياً ويحيد عن الشر (أي ١ : ١) كما أيضاً لأجل اهتمامه بأبنائه (أي ١ : ٥).

٢٠. رب ابنك فلا يرببه الزمن!

❖ إن جاهد الآباء الصالحون ليقدموا لأبنائهم تربية صالحة، فإننا لا نحتاج إلى شرائع وقضاة ومحاكم ولا إلى عقوبات. فإن الذين ينفذون العقوبات إنما وجدوا بسبب عدم وجود أخلاقيات فينا.

٢١. جريمة الإهمال في تربية الأبناء

كثيراً ما حذر القديس يوحنا الذهبي الفم الوالدين من الإهمال في تربية أبنائهم، مظهرًا مدى خطورة هذه الخطية التي يحسبها أحد الخطايا الخطيرة للغاية، فلم يتردد عن أن يدعوها قتلًا للأطفال.

❖ لنفترض أنك تتمم وصايا الناموس في كل الأمور الأخرى، لكنك غير أمين في هذه الوصية الواحدة، فإنك تُعاقب بشدة.

أصغ إلى هذا من خلال تاريخ الشعب القديم. فإنك ترى أية عقوبة مرعبة حلت على الآباء الذين أهملوا في تربية أبنائهم. كان بين اليهود كاهن موقر بسبب شخصيته الوديعه، اسمه عالي. كان لهذا الكاهن ابنان سلما نفسيهما لكل رذيلة. لم يبال الأب بهذا الأمر بل استخف به، وقد تعدى فسادهما الحدود فانتهرهما لكن ليس بحماس لائق وسلطان. كان يلزم أن يعاقبهما بحزم شديد حتى يوقف هذا الاعتداء. لم يفعل شيئاً من هذا. إنما اكتفى بتقديم نصيحة قائلاً: "لماذا تعملون مثل هذه الأمور؟ لأنني أسمع بأمورك الخبيثة من جميع هذا الشعب" (١ صم ٢ : ٢٤). هل هذا هو ما

كان يجب أن يقوله؟ لقد عصيا ذاك الذي هما مدينان له بوجودهما، ومع هذا لازال يقبلهما كعضوين في أسرته. كانت نصيحته باطلة بلا نفع. لا، بل كان يلزمه أن يرعبهم ليقتلع هذا العمى من قلوبهما. يا لها من نصيحة باطلة! لم يكن ابنا عالي ينقصهما مثل هذه النصيحة. إنها كلمات بلا فائدة! يا لها من وداعة أثيمة بها صارا ضحيتين! لقد بدأت الحرب، وصار البائسان غنيمتين للأعداء. وإذ علم الأب عما حل بهما من نكبة سقط على الأرض، وانكسرت رقبته ومات (١ صم ٤: ١٨)!

لقد قلت لكم حالاً إن الآباء الذين لا يهتمون بتربية أبنائهم في نشأة مسيحية هم قتلة لأبنائهم. أليست هذه حقيقة؟! من ينبغي أن يلومه عالي بسبب موت ابنه؟ يلزمه أن يلوم نفسه! حقاً أن سيف العدو قتلهم، لكن إهمال أبيهما الباطل هو الذي صوّب ضدهما الضربة. إذ فارقهما العون السماوي ظهرا عريانين أمام سهام الفلسطينيين. لقد دمر الأب نفسه ودمرهما. غير أننا نرى ذات الأمر أماناً يومياً.

كم من آباء لا يريدون أن يأخذوا على عاتقهم هذا العمل بإصلاح عقوق أبنائهم وجموحهم؟ أنهم كمن يخشون مضايقة أبنائهم لئلا يسلطان الكلمات القاسية يسيطرون على الميول الفاسدة. وما هي النتيجة؟ يزداد اعتلالهم، وتقودهم حصانتهم من العقوبة إلى ارتكاب معاصي جنائية. ينقادون إلى المحاكم ويموت هؤلاء البائسون على أيدي المعاقبين. أنتم ترفضون حقوقكم الشخصية عليهم، فتدفعون بهم إلى عقوبات مدنية وتقتص العدالة البشرية حقها العنيف منهم. أنتم تخشون من إهانتهم بعقوبة خفيفة في حضوركم، ولكن أية إهانة مرعبة تحل عليكم عندما لا يعود يرى الأب ابنه حوله، والذين يتهمونه يلاحقونه في كل موضع، ولا يجسر بعد أن يظهر في أي مكان!

❖ الإهمال في تربية الأبناء هو أحد الخطايا العظمى. هو أعلى درجات عدم التقوى... إن لم نهتم بخلاص أولادنا نسقط تحت أقسى أنواع العقوبة. أنتم تعرفون قصة عالي رئيس الكهنة الواردة في الأسفار المقدسة. كان شيخاً مسناً، كاهناً معروفاً، حكم الأمة اليهودية بلا خطأ لمدة عشرين عاماً، عاش في وقت لا يحتاج إلى حزم شديد في الحياة. ومع هذا لم يستطع أن يبرر نفسه، بل على العكس هلك بطريقة مرعبة في كارثة، لأنه لم يهتم بسلوك ابنه كما ينبغي. حُسب ذنب إهماله خطأ فادحاً غطى على كل سمات عالي وأعماله الصالحة. فكم تكون دينونتنا نحن الذين نعيش في

عهد مملوء بالأكثر نحو حب الحكمة، ولسنا نمارس فضائل عالي؟

❖ لا يأتي فساد الأطفال من فراغ بل من الجنون الذي يلحق بالآباء نحو الاهتمامات الأرضية. الاهتمام بالأرضيات وحدها، واعتبار كل شيء غيرها ليس بذي قيمة، يدفعهم لا إرادياً نحو إهمال نفوس أطفالهم. أقول، إن هؤلاء الآباء (ولا يظن أحد أن هذه الكلمات تتولد في غضب)، أشر من قتلة الأبناء. الأول يفصل الجسم من النفس، أما الآخر فيطرح كليهما معاً في نيران جهنم. الموت أمر محتّم حسب النظام الطبيعي، أما المصير الثاني فيمكن للآباء تجنبه لو لم يؤدي إهمال الآباء إليه. الموت الجسماني يمكن أن ينتهي في لحظة بالقيامة حينما تحل، لكن لا توجد مكافأة تنتظر النفس المفقودة. إنها لا تنعم بالقيامة، بل تعاني آلاماً أبدية. هذا يعني أنه ليس بغير عدل ندعو هؤلاء الآباء أشر من قتلة الأبناء. إنه ليس بالأمر القاسي أن تسن سيقاً وتمسك به باليد اليمنى لتغرسه في قلب طفلٍ مثلما أن تحطم النفس وتذلها، فإنه ليس من شيء يعادل النفس.

٢٢. يهيئهم للزواج المقدّس

يبدو كما رأينا أن البعض كانوا يخشون على أولادهم من دراسة الكتاب المقدّس لئلاً يعشقوا الحياة الرهبانية الزاهدة، فأوضح لهم القديس أن الإنسان الذي يعيش في العالم - إن صح العبارة - أكثر احتياجاً إلى كلمة الله لكي تهذبه وتقّده، فيحيا مقدّساً وناجحاً في حياته وفي معاملاته مع الغير. الآن يؤكد القديس حاجة الأبناء إلى التربية المقدسة لتهيئتهم للزواج المقدّس.

❖ إن وضعنا حدوداً (للأبناء) من سنٍ مبكرٍ، فلا نحتاج بعد إلى مجهودٍ عظيمٍ هكذا، بل بالعكس يصير ذلك عادة وقانوناً لهم. لا نسمح لهم أن يمارسوا ما فيه لذة، وفي نفس الوقت ضار، لن نسرهم لمجرد أنهم أطفال، فإن هذا يضرهم أكثر من أي شيء وهم شباب...

لنأخذ لهم زوجات في سنٍ مبكرٍ، حتى يتحدوا مع عرائسهم بأجسام طاهرة غير فاسدة...

من كان عفيفاً قبل الزواج هكذا بعد الزواج. أما الذين تعلموا الزنا قبل الزواج فيفعلون ذات الأمر بعده. مكتوب في الأسفار الإلهية "كل خبزٍ حلو للزاني" (سيراخ

٢٣ : ١٧). لهذا السبب يوضع تاج على الرأس (في الهيكل)، علامة النصر، أنهما داخلان إلى حجال العرس غير منهزمين، ولا مقهورين بالشهوة. أما من ينكب على محبة اللذة مسلمًا نفسه للزواني، فما الحاجة لأن يوضع التاج على رأسه حيث أنه منهزم؟ لنغرس هذا فيهم، ولنعلّمهم ذلك، ونهددهم بكل الطرق.

آباء محبون

حب في الرب!

إن كان الإنسان وحده دون سائر المخلوقات الأرضية قد أعد له ملكوت السماوات، لذا يليق بالآباء ألا ينصب حبهم عند حدود الجسد أو المستقبل الزمني، بل يبلغون بهم إلى الحياة الأبدية.

فلا يقف عمل الآباء عند حدود العمل والجهد لإعالة أبنائهم، ولا رفع الصلوات وتقديم القرابين من أجل حصولهم على شهادات دراسية أو لتوظيفهم أو تزويجهم، لكنهم يطلبون لهم أولاً ملكوت الله وبرّه، وهذه كلها تزداد لهم وتكمل.

يوبخنا القديس يوحنا الذهبي الفم قائلاً:

❖ إننا نهتم بممتلكاتنا من أجل أبنائنا، أما أبنائنا أنفسهم فلا نبالي بهم قط!

أية سخافة هي هذه؟

شكل نفس ابنك باستقامة، فينال كل ما يبقى بعد ذلك. فإنه متى كان بلا صلاح لا ينتفع شيئاً من الغنى، أما متى كان صالحاً، لا يصيبه ضرر من الفقر. أتریده غنياً؟! علمه أن يكون صالحاً!...

أيتها الأمهات، شكّلن (بناتكن) بهذه الكيفية، فإنكن بهذا تتقنونهن ليس وجاهد، بل وتتقن من يتزوجون بهن، وليس فقط أزواجهن بل وأولادهن، وليس فقط أولادهن بل وأحفادهن! لأن الجذر الصالح يخرج أغصاناً صالحة تصير إلى حالة أفضل، وعن هذا تتالون مكافأة!

إذن لنفعل الأشياء التي لا تقيد نفساً واحدة، بل تقيد نفوساً كثيرة خلال النفس الواحدة^١.

❖ وانتن أيتها النساء على وجه الخصوص قلدن النساء العجيبات.

هل لدى إحداكن طفل؟ قلدي حنة (١ صم ٢٤:١)!

تطلعي، ماذا فعلت؟ لقد أحضرته أولاً إلى الهيكل.

^١ In 1 Tim hom 9.

من منكم لا تريد أن يكون ابنها "صموئيل"، فيكون أفضل من ملكٍ على كل العالم ربوات المرات؟!

ربما تقولين: وكيف يمكن أن يصير هذا مثله؟
لماذا تتظيرين إلى هذا الأمر أنه مستحيل، إلا لأنك لم تختاري أن يكون هكذا، ولا عهدتي به إلى ذاك القادر وحده أن ينشله؟!
ربما تقولين: من هو هذا الواحد؟
إنه الله: إذ تضعينه في يده!...
إن إيمان أمه وغيرتها الشديدة تفعل هذا كله!

لقد كان (صموئيل) بكرها ووحيدها، ولم تكن تعرف أنه سيكون لها أبناء غيره، ومع ذلك لم تقل إنني انتظر الولد حتى يكبر ويتذوق طعم الحياة، فاسمح له أن يكون له فترة لهو في السنوات طفولته...

لا، فقد جحدت المرأة كل هذه الأفكار، إنما كانت مُستغرقة في أمرٍ واحدٍ: كيف من البداية تقدس صورة الله الروحية؟
أما يليق بنا نحن الرجال أن نخجل أمام هذه المرأة؟!
لقد قدمته لله، وهناك تركته!...

لذلك صارت مثمرة وأنجبت غيره، ورأته مكرماً حتى في العالم. لأنه إن كان البشر يردون الكرامة لمن يكرمهم، أفليس بالأولى يفعل الله هذا، ذلك الذي يكرمنا حتى دون أن نكرمه؟!...

ليت كل شيء يحتل مركزاً ثانوياً بعد الاعتناء بأبنائنا لكي نربيهم بتأديب الرب وإنذاره! فإنه متى تعلم منذ البداية أن يكون محباً للحكمة الحقيقية، فسينال ثروة فوق كل ثروة، ويحصل بالأكثر على اسمٍ مهيب!...
لا تطلب له التمتع بحياةٍ طويلةٍ، بل بالحياة المقبلة غير المحدودة اللانهائية! هبة الأمور العظيمة لا التأفهة!¹

❖ لا تظن أنه أمر غير ضروري أن يكون مستمعاً للكتب الإلهية، متيقظاً لها، لأن أول ما يسمعه هو "أكرم أباك وأمك".
لقد وُضع هذا من أجلك أنت!

¹ In Eph. hom 20.

لا تقل إن هذا عمل الرهبان، أأخلق راهباً؟!
لماذا تخاف من أمر كهذا مملوء تقدماً عظيماً؟!
ليكن مسيحياً، فإن هذه (الكتب المقدسة) لازمة للشخص العلماني.
كيف ترسل أبناءك للتجارة والدراسة، باذلاً كل ما في وسعك بخصوص هذه
الأمور ليس باطلاً، ولا تربيتهم بتأديب الرب وإنذاره؟!
لهذا السبب فإننا بحق نحن أول من نجني الثمار، عندما نرى أبناءنا متصرفين
ومتكلمين وعصاة ومتشردين.
ليتنا لا نربيهم هكذا، بل نربيهم بتأديب الرب وإنذاره!
لنكن مثلاً لهم!
لنجعلهم يواظبون على قراءة الكتاب المقدس منذ نعومة أظفارهم^١.
القديس يوحنا الذهبي الفم

آباء محبون في الرب

كشف لنا الكتاب المقدس والتاريخ الكنسي صورة حية لآباء محبين، تفهموا الأبوة
الصادقة في الرب، نذكر منهم على سبيل المثال:

١ - حنة أم صموئيل^٢

وهنا نذكر بمزيد من الفخر أم صموئيل النبي، التي ربت ابنها في مخافة الرب،
وهبته لخدمة الهيكل، وقالت عبارتها الجميلة: "لأجل هذا الصبي صليت، فأعطاني الرب
سؤلي الذي سألته من لدنه، وأنا أيضاً قد أعترته للرب، جميع أيام حياته هو عارية للرب" (١ صم ١: ٢٧-٢٨).

٢ - افنيكي أم تيموثاوس

إذ أرسل القديس بولس الرسول إلى تلميذه القديس تيموثاوس قائلاً: "أتذكر الإيمان
القديم الرياء الذي فيك، الذي سكن أولاً في جدتك لوييس وأمك إفنيكي، ولكنني موقن أنه
فيك أيضاً" (٢ تي ١: ٥).

^١ In Eph. hom 20.

^٢ الوصايا العشر لقداسة البابا شنودة الثالث، وصية ٣.

٣- أم موسى النبي

بالرغم من ضالة الفترة التي قضتها مع ابنها موسى الذي عاش بين يدي ابنة فرعون استطاعت أن تضع فيه بذور الإيمان ليرفض كنوز العالم وامتعته بالرغم من البيئة الوثنية التي عاش فيها. لقد أعدت رضيعها لعمل الله ليكون نبياً.

٤- عائلة باولا Paula

كشف لنا القديس جيروم في رسائله إلى السيدة باولا وعائلتها كيف عاشت هذه العائلة متقدة بالحب الحقيقي في الرب. لقد أخلتني هذه السيدة عندما قالت للقديس، إنها إن أرادت أن تقترض يمكنها ذلك (لأنها من أشرف روما)، أما الفقير فإن أراد لا يجد من يقرضه فيموت جوعاً ويطلب دمه منها، لهذا كانت تفضل أن تقترض برّاً لتعطى المحتاجين. إنها - كما تقول - تشتهي ألا يجد أبنائها يوم انتقالها ما يشتركون به أكفانها من أجل الفقراء...

وتكتب السيدة ليتا Leata زوجة ابنها إلى القديس ليرشدها كيف تربي ابنتها الوحيدة Paula (على اسم جدتها) لتكون عذراء مقدسة للرب^١. وقد أظهرت الجدة Paula حبها العميق لأولادها في الرب كما كتب القديس جيروم في رسالته إلى ابنتها استوخيوم:

[انني أعلم أنه عندما كانت تسمع عن مرض أحد أبنائها مرضاً خطيراً وخاصة توكسوتيوس Toxotius الذي كانت تحبه جداً، كانت أول كل شيء تتممه بنفسها القول: "انزعجت فلم أتكلم" (مز ٧٧: ٤). ثم تصرخ بكلمات الكتاب المقدس: "من أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني" (مت ١٠: ٣٧)، وتصلي للرب قائلة: "يا رب احفظ أولادك الذين كتبت عليهم الموت، أي هؤلاء الذين من أجلك يموتون كل يوم جسدياً".]

٥- محبة مونيكا لأغسطينوس

كانت تصلّي بدموع ليلاً ونهاراً قرابة عشرين عاماً لأجل رجوع ابنها وتوبته بغير يأس، مفضلة أن يفقد شهرته العظيمة وأمجاده الزمنية عن أن يفقد حياته مع الرب! يكفي

^١ St. Jerome: Epistle 107.

أن نذكر قليلاً مما كتبه ابنها نفسه عنها إذ يقول:
[أمي المؤمنة بك كانت تبكي إليك من أجل، وكان بكاؤها عليّ يفوق بكاء الأم
الثكلى على فقد وحيدها.

لقد كانت أمي مؤمنة بك وممتلئة من الروح القدس، فأدركت خطر الموت الذي
كنت أنا ممسكاً به! وأنت يا رب استجبت لها، ولم تسخر بدموعها، لأنها عندما كانت
تصلي كانت تروي بدموعها أرض المكان الذي تصلى فيه...

لقد توصلت أمي إلى مقابلة ذلك الأسقف (القديس أمبروسيو). وقد زادت في
إلحاحها عليه بتوسلات ودموع كثيرة، لعله يراني ويتحدث معي، حتى إذا ما أزعجته
لحاجتها أجابها: "انصرفي إلى بيتك. الرب يباركك. إنه لن يمكن أن يهلك ابن هذه الدموع".
آية إجابة مثل هذه حصلت عليها أمي؟!]

لقد ذكرت ذلك مراراً في حديثها معي. فقد كانت تعتقد أنها التقطتها من السماء.

٦- محبة أم لابنها البطريرك

جاء في سيرة البابا مقاريوس التاسع والخمسين أنه مرّ على بلدته لافتقاد والدته،
فلما سمعت بقدومه لم تخرج. ولما دخل البيت وجدها تغزل دون أن تلتفت إليه ولا سلمت
عليه، فظن أنها لا تعرفه فقال لها: ألا تعلمين إنني أنا ابنك مقاريوس الذي رقى درجة سامية
ونال سلطة رفيعة وأسمى سيّداً لأمة كبيرة؟!]

فأجابته وهي دامعة العين: إنني لا أجهلك، وعارفة بما صرت إليه، ولكنني كنت
أود يا ابني أن يؤتى بك إليّ محمولاً على نعشٍ خير من أن أسمع عنك أو أراك بطريركاً.
ألا تعلم أنك قبلاً كنت مُطالباً بنفسك وحدها. أما الآن فقد صرت مُطالباً بأنفس رعيتك.
فأيقن أنك أمسيت في خطرٍ...

وكانت هذه الكلمات واعزاً له على الجهاد والسهر كل أيام رعايته.

٧- محبة الشهداء لأولادهم

يكشف الشهداء عن حبهم الحقيقي لأولادهم، فمن الشهداءات من كن يرفضن
الاستشهاد حتى يروا أبناءهن يستشهدون أمامهن، لكيلا يدخلن الفردوس في حين أولادهن
ينشأون في تربية وثنية، فيحرمون ممن يعلمهم الإيمان المستقيم، ويفقدون أبديتهم.

٨- محبة طوبيا لابنه

رأى القديس كبريانوس فيه حبًا عجيبيًا تجاه ابنه، إذ وهو في شدة الضيق يوصي ابنه بالالتصاق بالرب، إذ يقول:

[إنك لا تليق أن تكون أبًا، فإنك خائن إن لم تهتم بإرشاد أولادك، ما لم تهتم بحفظهم في الإيمان والتقوى.

يا من تحرص على ممتلكاتهم الأرضية أكثر من حرصك على ممتلكاتهم السماوية، فتوصيهم بالشيطان لا بالمسيح. وبذلك تخطئ خطيئتين، وترتكب جريمة مزدوجة، إذ لا تمد أولادك بمعونة الله أبيهم، كما أنك تعلمهم أن يحبوا ممتلكاتهم أكثر من المسيح.

الأحرى بك أن تكون أبًا كطوبيا. أوصي ابنك كما أوصى طوبيا ابنه قائلاً: "اسمعوا يا بني لأبيكم. أعبدوا الرب بحق، وابتغوا عمل مرضاته. وأوصوا بنيكم بعمل العدل والصدقات، وأن يذكروا الله ويباركوه كل حين بالحق وبكل طاقاتهم" (طو ١٤: ١٠، ١١).

وقوله: "وأنت فليكن الله في قلبك جميع أيام حياتك، واحذر أن ترضى بالخطيئة وتتعدى وصايا الرب إلينا. تصدق من مالك، ولا تحول وجهك عن فقير. وحينئذ فوجه الرب لا يحول عنك..."]

٩- تشجيع الآباء لأبنائهم على التكريس

سجل لنا التاريخ الكنسي ولا يزال يسجل إلى يومنا هذا عن حب كثير من العائلات لله، فتتبارى في تقديم أولادها مكرسين للرب خاصة كرهبان وراهبات، حاسبة هذا شرفًا عظيمًا لا تستحقه، وموهبة خاصة يسمح الله بها.

فرهينة الابن ليست بالأمر الهين - في نظر الكثيرين - إذ تحمل قطعًا لصلته بالأسرة ماديًا وعاطفيًا... هو قدوم اختياري لحمل الصليب حتى الموت، يصعب على الآباء قبوله أو الرضا عنه، ما لم يكن حب الله قد تغلغل في أعماقهم الداخلية.

لهذا لا نعجب إن رأيناهم لا يقدرّون لهم موافقة صريحة على الرهينة، ولا نحزن إن رأينا مشاعر الأبوة وحنان الأمومة قد بعثا الوالدين إلى البكاء، لكن ما يحزننا ويخجلنا هو ما نراه في عائلاتنا - بكل أسف - من إصرار على الرفض، واستخدام وسائل العنف والقسوة الأدبية...

يا للحفاف الروحي الذي انتابنا!

يا للأناية التي سيطرت علينا، فأحب الآباء أولادهم، لا بل أحبوا ذواتهم أكثر من إلههم وأولادهم!! أليست سعادة الأب أن يجد ابنه سعيدًا في حضن إلهه؟!

لقد جاء في سيرة الأنبا بيشوى أن ملاكًا ظهر لوالدته يقول لها: "الرب يقول لك أعطيني أحد أولادك يخدمني" فأجابته: "خذ يا سيدي من تريده..."
واذ رأى والد الأنبا شنودة ابنه يميل إلى التعبد والانفراد، فمع غناه أخذه وسلمه بيده إلى خاله بيجول رئيس أحد أديرة سوهاج لتربيته...

أمثلة لمحبة زمنية

١- محبة والد أغسطينوس: الذي يقدم لنا مثالاً لآلاف بل ملايين من الآباء والأمهات الذين يحبون لأولادهم مجرد نجاحهم الأرضي، إذ يقول الابن:
[في السادسة من عمري، في تلك الفترة التي تعطلت فيها الدراسة بسبب حرج المركز المالي لوالدي، كنت أعيش مع أسرتي، فازدادت وخزات الرغبات النجسة. فكنت أذهب إلى الحمامات، وهناك يراني أبي، فيذهب إلى أمي مسرورًا ويخبرها بفرح عما كان يشاهده!]

لقد كان يود أن أشب على شاكلته، فكانت تسعده الأحاسيس الرديئة التي كنت أشعر بها، هذه الاحساسات التي جعلت العالم ينساك أيها الخالق.]

٢- أم تدفع ابنتها في تيار العالم الجارف

❖ لقد حدث في الأيام الماضية أن السيدة Practextata صاحبة المكانة قد أبدلت ثوب ابنتها العذراء، وصفتت شعرها حسبما يطلب العالم، كأمر زوجها هيميتيوس Hymettius خال يوستخيوم، الذي أراد أن يهزم عزيمة العذراء نفسها ورغبات أمها الواضحة. وفي نفس الليلة رأت ملاكًا في الحلم، وبنظرات مرعبة قال: "هل تجاسرتِ فجعلتِ وصايا زوجكِ قبل وصايا المسيح؟! هل تجرأتِ ووضعكِ تلك الأيدي التي تدنس ما هو مقدس فوق رأس العذراء؟! إن أصررتِ على البقاء في شرك أحرمكِ من زوجكِ وأبنائك".
وهكذا يعاقب السيد المسيح برهبة الذين ينتهكون هيكله، وفي غيرِ يدافع عن جواهره الثمينة^١.

القديس جيروم

^١ Epistle 107:5.

البنوة المسيحية

إذ جاء الابن الوحيد بالجسد إلينا عرّفنا ببنوة فريدة من نوعها، فيها الابن والآب جوهر واحد وطبيعة واحدة. وخلال ارتباطنا بالابن نتفهم البنوة قدر ما يتسع قلبنا للاتحاد به، فنتذوق عذوبة الخضوع لأبائنا، وطاعتهم في الرب حتى الموت. والجميل في محبة الله اللانهائية، أنه وهو الخالق قَبْلَ أن يكون ابناً للعذراء مريم بالجسد، وأن يكون موضع تبني القديس يوسف، وهكذا يحملنا معه في طريق البنوة حتى للأباء الجسديين في طاعة وخضوع لهما.

سمات الأبناء المحبين

١ - الطاعة للوالدين

قيل عن السيد المسيح: "مع كونه ابناً تعلم الطاعة مما تألم به" (عب ٨:٥). ونحن كأعضاء جسده، إذ نتحد به، نُحسب بالحق مطيعين، إذ نحمل شركة سماته. من جانب آخر نفهم الطاعة لا كخنوع ومذلة أو تقليل من شأننا بل هي اتحاد مع المسيح الذي أطاع الآب وهو واحد معه في الجوهر، وأطاع القديسة مريم والقديس يوسف وهما من صنع يديه. هكذا نفهم الطاعة الحقيقية اتحاداً مع السيد المسيح ونضوجاً.

❖ يقول الكتاب "كان خاضعاً لهما". فلمن كان يسوع خاضعاً؟! ألم يكن خاضعاً لأبويه؟! فبكونه ابن الإنسان خضع لكل من أبويه (القديس يوسف أبيه حسب الشريعة، والقديسة مريم والدته)...

ليعلم الأبناء وصاياهم: وهي الطاعة والخضوع لأبائهم. فقد كان العالم خاضعاً للمسيح، وكان المسيح خاضعاً لأبويه^١.

القديس أغسطينوس

❖ [في رسالة كتبها إلى أم وابنة تعيش كراهبة، وقد قام بينهما نزاع.]
إن أحببتما بعضكما بعضاً فإن عملكما هذا لا يستحق المدح. أما إن أبغضتما

^١ Sermons on the N.T. 1.

بعضكما بعضًا فتكونا قد ارتكبتما جريمة!

كان الرب يسوع خاضعًا لوالديه (لو ٥١: ٢). لقد احترمت تلك الأم التي كان بنفسه أبًا لها!

لقد كرم أباه حسب التبني، هذا الذي كان المسيح بنفسه يعوله! إنما كان يعلم أن الأولى قد حملته في بطنها، والثاني حملته على ذراعيه...
حقًا، إنني لا أقول للأُم شيئًا، لأنه ربما في كبر سنّها أو ضعفها أو وحدتها ما يعطيها عذرًا كافيًا، لكنني أقول لك أيتها الابنة: هل منزل أمك أصغر من أن يحتملك، هذه التي لم تكن بطنها صغيرة عن حملك؟!

عندما عشت معها تسعة شهور في رحمها "البطن" أما تقدرين أن تعيشي يومًا واحدًا في الآخر "المنزل"؟ أم أنك لا تحتملين أن تلتقي مع نظراتها؟!...
ربما تجيبين قائلة: إن أمي سلوكها شرير! إنها تطلب الأرضيات! تحتقر الأصوام! إنها تكحل عينيها بالإثم! إنها تحب السير بملابس خلية! لذلك لا أستطيع العيش معها!
ولكن قبل كل شيء حتى إن كانت هي هكذا كما تقولين، فسيكون لك مكافأة برفضك البحث عن أخطائها.

لقد حملتك في بطنها، لقد ربّتك، احتملت طفولتك بعطف مملوء نبلاً. غسلت خرقك، في مرضك عطفت عليك... لقد جاءت بك حتى صرت امرأة (شابة) وقد علمتك محبة المسيح. فينبغي ألا تضجري بسلوك والدتك التي كرستك كعذراء تخدمين عريسك "الرب يسوع".

القديس جيروم

٢- طاعة في الرب

يطيع المؤمن والديه وإخوته أيضًا لأجل الله. لكن إن كان في طاعة أحد عصيان لله، فطاعة الله أهم. لذلك يوصينا الرسول: "أيها الأولاد، أطيعوا والديكم في الرب لأن هذا حق".

وقد قدم لنا الكتاب المقدس والتاريخ الكنسي أمثلة على ذلك:

(أ) بنو ركاب يعصون النبي

أراد الرب أن يقدمهم مثلاً للطاعة "في الرب"، ليوبخ بهم شعب بنى إسرائيل

العاصي، فأرسل إليهم إرميا النبي يقول لهم: "اشربوا خمراً". فقالوا: "لا نشرب خمراً" (إر ٦:٣٥). قالوا "لا" للنبي، فصاروا نموذجاً سامياً لطاعة الرب وتنفيذ الوصية حتى وإن خالفوا في هذا نبياً! وكما يقول القديس بولس: "إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فليكن أناثيما" (غل ١:٨). ويؤكد الرسول بطرس: "ينبغي أن يُطاع الله أكثر من الناس" (أع ٥:٩).

(ب) الشهيدة دميانة تزجر والدها

عاشت الشهيدة دميانة في خوف الله، وتعلمت كيف تطيع والدها وتخضع له. لكنها في اللحظة التي سمعت عن إنكار والدها الإيمان أسرعته إليه ودخلت عليه بغير تحية أو سلام، وقالت له: "ما هذا الذي سمعته عنك؟ لقد كنت أود أن يأتيني خبر موتك من أن أسمع عنك أنك تركت عنك الإله الذي جبلك من العدم إلى الوجود، وسجدت لمصنوعات الأيدي؟! ألا فأعلم أنك إن أصررت على ما أنت عليه الآن ولم تترك عبادة الأحجار، فلست بوالدي، ولا أنا ابنتك"، ثم تركته وخرجت.

(ج) أخت تنهر أخاها

جاء في السنكسار (السادس من برمهات) أن شخصاً يدعى ديسقورس من الإسكندرية أنكر المسيحية فعلمت بذلك أخته بالفيوم، فأرسلت إليه تقول: "كنت أشتي أن يأتيني خبر موتك وأنت مسيحي، فكنت أفرح بذلك، ولا يأتيني خبر تركك المسيح إلهك... واعلم أن هذا الكتاب هو آخر صلة بيني وبينك، فمن الآن لا تعد تريني وجهك ولا تكاتبني".

❖ "أيها الأولاد أطيعوا والديكم في الرب" (أف ٦:١)، أي حسب الرب. إنه يقصد أن يقول: "أطيعوهم بما يأمركم به الرب". ولكن ماذا يكون لو أمروا بأمر غبية؟!... على أي الأحوال صنع الرسول حيطة بقوله: "في الرب"، حتى لا تعصى الله. لهذا إن كان الأب أممياً أو هرطوقياً يلزمنا ألا نطيعه (فيما يخالف الرب) إذ هو لا يأمر "في الرب"^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

^١ In Ephes. hom. 21.

❖ إن كان بولس قد قدم توجيهات خاصة بالآباء، أمرًا إيانا أن نطيعهم في كل شيء لا نتعجب، فإنه في هذا كله يقصد الطاعة لهم مادام هذا كله لا يعوق التقوى. حقًا إنه واجب مقدس أن نرد إليهم كل كرامات، لكنهم إن طلبوا ما هو أكثر من الواجب، فلا يليق الطاعة لهم في ذلك. من أجل هذا جاء في لوقا: "إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضًا فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا" (لو ١٤: ٢٦)، ليس موصيًا إيانا ببغضهم، فإن في هذا مخالفة للناموس، لكنه أراد ألا يحب المرء أحدًا أكثر منه وإلا يبغضه في هذا، لأن هذا مهلك للمحب والمحبيب أيضًا. لقد نطق بهذا لكي يزداد الأبناء عزيمة ويزداد الآباء نبلاً^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إن سمعت أبي أو أمي أو أخي يقول شيئًا ضد سيدي المسيح فإنني أكسر تجديدات فمه كما لو كانت خارجة من فم كلب مجنون... فمن يقول للأب أو الأم إنني لا أعرفكما (بسبب إنكار إيمانكما) يكون قد نفذ إرادة الرب، فمن أحب أبًا أو أمًا أكثر من المسيح لا يستحقه (مت ١٠: ٣٧).

القديس جيروم

❖ لكنك تقول إنني أخشى غضب من هم أعلى مني! اعمل كل وسيلة ألا تغضبهم حتى لا تغضب الله. يا من تخاف أن تكدر من هم أعلى منك، أنظر عما إذا كان هناك إله أعلى من الذين تخاف تكديرهم، فبكل وسيلة لا تغضب الأكبر منك. هذا مبدأ ثابت، لكن أليس من الواضح أنه يلزم بأي حال من الأحوال ألا تغضب من هو فوق الجميع؟!... والدك ووالدتك هما أول من هم أكبر منك. فإن كانا قد علماك الحق، وأحضراك إلى المسيح، فلتسمع لهما في كل شيء، وينبغي طاعتهم في كل أمر. ليتهما لا يوصيان بما يخالف أمر من هو فوقهما حتى يُطاعا!^٢

^١ In Matt. hom. 35:3.

^٢ عظات على فصول منتخبة من العهد الجديد.

❖ في هذه الحالة الفريدة يلتزم الابن بعدم طاعة والده، إن أمره بما يخالف الرب إلهه.

حقًا يليق بالأب إلا يغضب عندما يُفضل الله عنه!

ولكن عندما يأمر الأب بما لا يناقض الرب، فيلزم الاستماع إليه كما لله، لأن طاعة المرء لأبيه أمر إلهي¹.

القديس أغسطينوس

❖ [كتب القديس جيروم في سنة ٣٧٣ أو ٣٧٤ م إلى هيلودوريوس *Heliodorus* يحثه

على الرهبنة بالرغم من رفض والديه، نقتطف منها:

"لقد سألتني وأنت راحل أن أدعوك إلى الصحراء حيث أنا مقيم... لذلك أدعوك الآن: تعال. تعال سريعًا.

لا تذكر بعد الرباطات القديمة. فإن الصحراء ليست إلا لهؤلاء الذين تركوا كل شيء! لا تدع ثقل أسفارك القديمة تؤخرك. إنك تؤمن بالمسيح. آمن بكلماته: "أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تتراد لكم" (مت ٦: ٣٣). ولكن ما هذا؟ لماذا ألح عليك بغاوة مرة أخرى؟!

إنني لن أعود إلى التوسلات، فسأضع حدًا للملاطفة.

لقد امتهنت طلباتي، فربما تتصاع لاحتجاجي. ما الذي يجعلك لا تزال في بيت أبيك أيها الجندي المدلل؟! أين هي الحواجز والخنادق التي لك؟!...

أذكر اليوم الذي فيه سُجل اسمك، عندما دفنت مع المسيح في المعمودية. فقد تعهدت بالوفاء له، معلنًا أنك من أجله مستعد للانفصال عن أبيك وأمك.

هوذا كل رتب العدو تنتهد في حسرةٍ بسبب الهبة التي نلتها عندما دخلت في خدمة المسيح! هل ابن أخيك (أو ابن أختك) الصغير يعانقك؟! لا تعطه التفاتًا.

هل أمك بوضعها الرماد على رأسها وتمزيقها ثيابها تظهر لك الصدر الذي رباك؟! لا تتصاع لهذا. هل يتمدد والدك على الباب؟! أعبر إلى الطريق.

لنتنظر بعيونٍ جافةٍ إلى الصليب، ففي مثل هذه الحالات تكون القسوة هي المحبة الحقيقية.

إنه سيأتي اليوم - حقًا سيأتي - ذلك اليوم الذي فيه تعود منتصرًا إلى المدينة الحقيقة وتسير في أورشليم السمائية، متوجًا بتاج البسالة... عندئذ ستطلب مثل هذه

¹ On the Psalms 71:1.

الرحلة لوالديك. عندئذ تطلب من أجلي أنا الذي حفظتك لتعبر طريق النصر.

❖ إنني لست أجهل تلك القيود التي قد تحتج بها كعوائق تمنعك. إن صدري ليس من

حديد، ولا قلبي من حجر، لست مولوداً من حجر صوان ولا رضعت من بيرة! ^١

أنا أيضاً اجتزيت ضيقات مشابهة لضيقاتك!

الآن أختك الأرملة تعانقك بذراعيها لملاطفتك، والعبيد إخوتك يصرخون "لأي سبب

تتركنا؟" والمربية المسنة والخادمة... يقولان: "انتظر فقط حتى نموت وتذهب بنا إلى

المدافن!" حب الله والخوف من الجحيم يقطعان مثل هذه بسهولة!

❖ يأمرنا الكتاب المقدس بطاعة والدينا، ولكن من يحبهما أكثر من المسيح يخسر نفسه

(مت ١٠: ٣٧). هوذا العدو يحمل سيفاً ليقتلني، فهل أفكر في دموع أمي؟!

أو هل احتقر خدمة المسيح من أجل أب، بينما لو كنت خادماً للمسيح لا أرتبط

بدفنه، مع أنني كخادم حقيقي للمسيح مدين بهذا للجميع...

إن آمنوا فليأمروني في أمان الله فأذهب لأحارب (روحياً بالذهاب إلى الدير للجهاد

أكثر) لأجل اسمه، أن لم يؤمنوا به فدع الموتى يدفنون موتاهم...

القديس جيروم

٣- قبول التأديب

الأبوة الحقيقية تستلزم اهتمام الأب بتأديب ابنه للبنان، والبنوة الصادقة تحمل قبول

التأديب في محبة ورضا، كما يقول الحكيم:

" اسمع يا بني تأديب أبيك، ولا ترفض شريعة أمك، لأنها إكليل نعمة لرأسك

وقلائد لعنقك"

" اسمعوا أيها البنون تأديب الأب، وأصغوا لأجل معرفة الفهم".

" الوصية مصباح، والشريعة نور، وتوبيخات الأدب طريق الحياة".

"حافظ التعليم هو طريق الحياة، ورفض التأديب ضال".

"من يحب التأديب يحب المعرفة، ومن يبغض التوبيخ فهو بليد".

"الابن الحكيم يقبل تأديب أبيه، والمستهزئ لا يسمع انتهازاً".

"فقر وهوان لمن يرفض التأديب... ومن يلاحظ التوبيخ يُكرم".

^١ البير نوع من السباع الهندية، وهو أبيض البطن والجانبين ومخطط بخطوط سوداء.

"مبغض التوبيخ يموت".

"من يرفض التأديب يرذل نفسه، ومن يسمع للتوبيخ يقتني فهمًا".

"التوبيخ الظاهر خير من الحب المستتر، أمينة هي جروح المحب، وغاشة هي قبلات العدو".

"العين المستهزئة بأبيها، والمحتقرة إطاعة أمها تقورها غربان الوادي، وتأكّلها فراخ النسر".

(أم ١: ٨، ٩؛ ٤: ١؛ ٦: ٢٣؛ ١٠: ١٧؛ ١٢: ١؛ ١٣: ١؛ ١٣: ١٨؛ ١٥: ١٠؛ ١٥: ٣٢؛ ٢٧: ٥، ٦؛ ٣٠: ١٧).

٤ - إعالة والديهم

تقدم السيد المسيح كابن للعذراء مريم حسب الجسد، وفي بنوته لها أعلن عن اهتمامه بها حتى في لحظات الصليب إذ وهبها اهتمامًا عظيمًا، مسلمًا إياها في عناية تلميذٍ محبوبٍ لديه جدًا.

وإذ اخترع اليهود لأنفسهم تعليمًا من أنفسهم به يتهربون في بخلهم من إعالة والديهم بتقديم تقدمات للرب تحت دعوى أنها تعفيهم من مسئوليتهم تجاه والديهم، وبخهم الرب على تقليدهم البشرى الخاطئ.

❖ إنه لم يقل لهم "تقليد آبائكم" بل "تقليدكم"، إذ كانوا يعلمون الشبان احتقار آبائهم تحت دعوى التقوى. كيف؟

"إن قال أحد الآباء لابنه: اعطني هذه الغنيمة أو ذلك الثور أو أي شيء من هذا القبيل، اعتاد القول: إنها هدية لله هذه التي تنتفع بها مني، ولا تأخذها.

إنهم يهينون آباءهم تحت اسم النقدمة، وكأنهم يهينون آباءهم من أجل الله، ويهينون الله من آبائهم. مع أن الله لم يقل مثل هذا قط.

أنصت إلى الشريعة التي أشار فيها الله إلى رغبته المتقدمة في تكريم الوالدين، إذ يقول: "أكرم أباك وأمك لكي تطول أيام حياتك على الأرض" (مر ١١: ٧، ١٢). وأيضًا: "من شتم أباه أو أمه يقتل قتلاً" (خر ٢٢: ١٢، أف ٦: ١).

فمن شتمهم بكلمة يُعاقب هكذا فكما بالأكثر من يشتمهم بالعمل؟!¹

¹ In Matt. hom. 1:2

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما كان معلقاً على الصليب، أمر تلميذه أن يهتم بأمه، ذاك الذي كان ملتصقاً به دائماً قبل الآلام.

القديس جيروم

❖ ينبغي على كل شخص أن يهتم بخاصته بالأخص المؤمنين. يقول الرسول في رسالته الأولى إلى تيموثاوس: "وإن كان أحد لا يعتني بخاصته ولاسيما أهل بيته، فقد أنكر الإيمان وهو أشر من غير المؤمنين" (١ تي ٥: ٨).

الشهيد كبريانوس

أب عجيب وأبناء وبنات في الرب

أثناء مراجعتي لهذا الفصل بدأت أكتب تفسيرًا عن سفر أيوب، فأحسست بالالتزام في أعماقي أن أسجل بندًا خاصًا عن هذا الأب العجيب وأبنائه وبناته في الرب^١. صورة رائعة لرجل غني جدًا لم يشغله ولا شغل أبنائه الغنى والثروة، بل أن يجتمع الكل بروح الحب والوحدة مع التدبير الحسن، فيقيمون وليمة في بيت كل ابنٍ بالتتابع مع شركة مع الأخوات! كان بنوه يقومون بعمل ولائم دورية، بروح المحبة والوحدة. فكان كل ابنٍ يقيم الوليمة في دوره، حيث يجمع إخوته وأخواته. يقول الميرتل: "هوذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الإخوة معًا" (مز ١٣٣: ١).

ويلاحظ في هذه اللوائم الآتي:

١. كانت تقام في البيوت، لا في أماكن عامة، ربما لكي تحتفظ الأسرة بطابعها المقدس حتى في اللوائم ووسط المسرات.
 ٢. دعوة الأخوات مؤشر على أن اللوائم كانت عائلية، وغالبًا ما كانت قاصرة على أسرة أيوب.
 ٣. لم يذهب أيوب إلى اللوائم، ليس عن تزمّت، فهو يطلب مسرة أولاده وبهجتهم مادامت في الرب، فوجوده وهو شيخ ربما يكون فيه نوع من عدم إعطاء الحرية للشبان أن يمرحوا بعد، حتى وإن كان في الرب.
- ❖ عادة ما يكون الغنى العظيم علة للخلافات بين الإخوة. يا له من مديح لا يُقدر لتربية أب كهذا! لقد أعلن عن غنى الأب وسلام الإخوة معًا، فبينما تُوزع الثروة بينهم لم ينقسم الحب، بل يملأ قلوب الكل!

البابا غريغوريوس (الكبير)

٤. مع عدم اشتراك أيوب في اللوائم جسديًا اشترك بروح الأبوة الحانية والحب روحياً. كان

^١ عن تفسير سفر أيوب، الأصحاح ١.

غيورًا على خلاص نفوسهم، يخشى لئلا يتنجسوا ولو بالفكر، بهذا يُحسبون كمجدفين على القدوس. يقول الكتاب: "وَكَاْنَ لَمَّا دَارَتْ أَيَّامُ الْوَلِيمَةِ، أَنَّ أَيُّوبَ أَرْسَلَ فَقَدَّسَهُمْ، وَبَكَرَ فِي الْغَدِّ، وَأَصْعَدَ مُحْرَقَاتٍ عَلَى عَدَدِهِمْ كُلِّهِمْ، لِأَنَّ أَيُّوبَ قَالَ: رُبَّمَا أَخْطَأَ بَنِيَّ، وَجَدُّوْا عَلَى اللَّهِ فِي قُلُوبِهِمْ. هَكَذَا كَانَ أَيُّوبُ يُفْعَلُ كُلُّ الْأَيَّامِ" (أي ١: ٥).

كان أيوب كاهن الأسرة، يؤمن أنه يعجز عن تقديس أولاده، وإنما هذا من عمل الله، لذا كان يقدم محرقات على عددهم. كان يفعل هذا لا في بدأ الوليمة فحسب، ولا في نهايتها فقط، بل كل أيام الوليمة، وكل أيام السنة. "هكذا كان أيوب يفعل كل الأيام". ولعله كان يقدم ذبيحة محرقة عن كل العائلة كل يوم، أما في أيام الولائم، فكان يقدم محرقة عن كل واحد، لأن الخطايا - خاصة الفكر - تجد في الولائم جوا مناسبًا للتسلل إلى الداخل.

❖ قدم ذبائحه من أجل خطاياهم الخفية، وأخطائهم التي لم يعترفوا بها. إن كان أيوب يأخذ حذره هكذا من جهة الخطايا الخفية التي بغير معرفة، فكم تظن بالنسبة للأخطاء الظاهرة. لاحظوا كيف يترجم كلمات الرسول إلي عمل: "وأنتم أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم، بل ربوهم بتأديب الرب وإنذاره" (أف ٦: ٤)، أي يهتم الشخص بأولاده. إنها ممارسة للحماية الوالدية. لاحظوا إلي أي مستوى من الكمال أراد أن يقودهم...

فبالنسبة للأخطاء الظاهرة كان يمكنه أن يصلحها، ولكنه ماذا يمكنه أن يفعل بالنسبة للخطايا السرية؟ مع هذا قيل لموسى: "السرائر للرب إلهنا، والمعلنات لنا ولبنينا إلي الأبد" (تث ٢٩: ٢٩). على أي الأحوال لم يتجاهل أيوب حتى الأخطاء السرية في علاقته بالله، بل ألزم نفسه أن يصحح الموقف شخصيًا بوسيلة علاجية. فإن هذه الوسيلة تسمح له أن يضرب بالأخطاء فينتزعها، وأن يعلم أولاده أيضًا...

ها أنتم ترون أنه لم يصحح من تقصيراتهم في الأعمال فحسب، ولكن أيضًا ما يخص الأفكار، متممين عمليًا كلمات المسيح: "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة... هذه هي التي تتجس الإنسان" (مت ١٥: ١٩-٢٠) ... ها أنتم ترون هنا تطهيرًا ليس موسويًا، ولا بالناموس، بل بطريقة رسولية حيث يطلب تطهير أفكارهم يوميًا، ليس فقط بنصحهم وتقديم المشورة لهم، وإنما أيضًا بحمايتهم والصلاة لله عنهم. هذا ليس عمل الأب فقط بل وعمل الكاهن، وإن كنا نعلم أنه لم يكن يوجد كاهن بعد...

يرى البعض أنه كان يوجد كهنة في تلك الأيام أيضًا مثل ملكي صادق لم يختبرهم الشعب.

- ❖ هكذا طهر أيوب أولاده، لأن من يقدم ذبائح عن الخطايا السرية، كم بالأكثر يهتم بخصوص الخطايا الظاهرة؟^١
- ❖ استخدم أيوب علاجًا حتى عن أفكار بنيهِ.^٢

القديس يوحنا الذهبي الفم

- ❖ تنسب هذه العبارة لأيوب تقوى عظيمة للغاية. فإن أناسًا كثيرين اعتادوا أن ييكرروا لممارسة أعمال أرضية، وكل ما يفكرون فيه خلال الليل هو الوسيلة لتكريس ثروة أو مجد أو كرامات، فيسرعون في القيام لتحقيق أفكارهم عمليًا. يعبر النبي في أنشودة مرثاة ما يلزم أن يُقال عن هؤلاء: "ويل للمفتكرين بالباطل، والصانعين الشر على مضاجعهم، في نور الصباح يفعلونه" (مي ٢: ١). أمّا عن أيوب فلم ينشغل بهذا، وإنما كان في الفجر يقدم لله خدمة، هذا الذي يجعل النور مشرقًا... فإن الذبيحة الحقيقية هي حفظ الناموس وممارسة الفضائل (ابن سيراخ ٣٥: ١-٣). تخدمنا في هذا كلمات رسالة بولس إلي العبرانيين كمثال: "فلنقدم به في كل حين لله ذبيحة التسبيح... ولكن لا نتسوا فعل الخير والتوزيع، لأنه بذبائح مثل هذه يُسر الله" (عب ١٣: ١٥-١٦).
- "لأن أيوب قال ربما أخطأ بني، وجدفوا على الله في قلوبهم". استقامة أيوب واضحة! يكمل برّه نحو الصلاح. إنه أب حكيم وسيد مختبر، برج (من الكواكب) يتسم بالتعقل، مرشد صالح كمن يمسك بلجامٍ خارجيٍ ليلجم الشهوات الداخلية... لم يقتنع داود بالترنم بتلك الكلمات: "من يدرك آثامه؟ من الخطايا المستترة أبرئني" (مز ١٩: ١٢)، وإنما وضع أيضًا وصية الإنجيل في العمل. نقول بأن أيوب سلك حسب الناموس والنعمة، وحسب وصية الإنجيل: "...الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلبٍ جيدٍ صالحٍ" (لو ٨: ١٥). إنه لم يكن مستهينًا بذلك. لقد كتب يوحنا اللاهوتي في هذا: "تُسكن قلوبنا قدامه، لأنه إن لامتنا قلوبنا، فالله أعظم من قلوبنا، ويعلم كل شيء. أيها الأحباء، إن لم تلمنا قلوبنا فلنا ثقة من نحو الله" (١ يو ٣: ١٩-٢١) والرب نفسه يقول: "لأن من القلب تخرج أفكار شريرة: قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف، هذه التي تتجس الإنسان، وأما الأكل بأيدي غير مغسولة فلا يُنجس الإنسان" (مت ١٥: ١٩-٢٠). إذن لنتطهر من هذه الأفعال. لنطلب كل يوم الثمر من نفوسنا، فقد كان

¹ The Gospel of St. Matthew homily 42:3.

² The Gospel of St. Matthew homily 86:4.

أيوب "حقًا وبلا لوم"، متطلعين أيضًا إلي ما كُتِب: "هكذا كان أيوب يفعل كل الأيام".

الأب هيسيخيوس الأورشليمي

❖ "وبكر في الغد، وأصعد محرقات على عددهم كلهم" [٥]. عرف القديس أنه ينذر إقامة وليمة دون وجود معصية. عرف أن مرح الولائم يجب تطهيره بالذبائح. وما قد ارتكبه الأبناء من وصمات في أشخاصهم أثناء ولائهم قام الأب بغسلها بتقديم ذبيحة... إذ غالبًا ما تصحب الحفلات الشهوات، فإذا يكون الجسم في تراخٍ بالملذات يخضع القلب للفرح الباطل. فقد كُتِب: "جلس الشعب للأكل والشرب، ثم قاموا للعب" (خر ٣٢: ٦).

البابا غريغوريوس (الكبير)

كان أيوب مستريحًا لتصرفات بنيهِ وبناته من جهة محبتهم لبعضهم البعض ووحداية الروح والانسجام معًا، كما كان مطمئنًا لتصرفاتهم وكلماتهم، لكنه لا يعلم ما يدور في أفكارهم وقلوبهم. إنه لم يقف موقف الديان، فيحكم على ما في داخلهم، كما لم يقف في تهاونٍ، معتبرًا نفسه غير مسئول عما في قلوبهم، إنما في حبٍ مملوء حكمة التجأ لله بتقديم ذبائح روحية ومحرقات عن كل واحدٍ منهم. فهو وحده عارف بالأسرار الخفية وقادر على تقديس الأعماق.

الحب الجامع

أو

دور الشعب كنسيًا

١. الحب الجامع.
٢. حب للجميع.
٣. عمل الكنيسة أن تحب.
٤. غاية الوصية: خلاص النفوس.
٥. رسالة الشعب كنسيًا.
٦. خدمة الشعب للخطاة.
٧. صور كنسية لحب حيّ.

الحب الجامع

❖ يريد البعض أن يضعوا حدودًا للحب بأفريقيا! إن أردت أن تحب المسيح فأبسط يدك بالحب على كل العالم، لأن أعضاء المسيح منتشرة في العالم كله^١.

القديس أغسطينوس

كثيرًا ما ترددت في اختيار العنوان المناسب لهذا الكتاب، أو لهذا الفصل من مجلد "الحب الأخوي"... إذ أشعر أنه ليس من عنوان يقدر أن يترجم بدقة ما أقصده في داخلي.

لقد بدأت في الكتاب الأول بالحديث عن حاجتنا إلى الحب وما هو مفهوم الحب ودرجاته.

وفي الكتاب الثاني عرضت للحب الزوجي بكونه صورة حية لعلاقة الحب التي تربط الله بشعبه أو كنيسته معلنة خلال الحياة الزوجية المقدسة في الرب.

وفي الكتاب الثالث تحدثت عن العلاقات المتبادلة بين أعضاء الأسرة المقدسة. والآن أود أن أكتب عن حق كل عضو في الكنيسة - كاهنًا أو غير كاهن - في الشهادة لله الحب الحقيقي من خلال ممارسة الحب. فالحب هو رسالة الكنيسة في كل عضو من أعضائها، خلاله يشترك الكل أن ينتشل كل نفس من هاوية البغضة والظلمة لتتعم بحب الله المتجلي على الصليب.

هذه هي غاية هذا الكتاب الذي دعوته في الطبعة الأولى: "حبنا للخروف الضال"، وإذ أردت أن أكشف عن الهدف بأكثر وضوح في الطبعة الثانية دعوته: "الحب الحي أو رسالة العلمانيين في الكنيسة"، لكنني إذ أقوم بإعادة طبعه أشعر بخطأ التعبير الأخير، فإن كلمة "علمانيين" لا تليق بالمؤمنين، إذ هي ترجمة خاطئة وغير دقيقة لكلمة الشعب.

^١ Tr., on 1 Johm 10:8.

هذا الشعب ليس له دور في الكنيسة فحسب، وإنما هو الكنيسة بعينها، يعمل عمل الكنيسة الذي هو "الحب" مترجماً حسب مواهب كل عضو فيها وإمكاناته ودوره في الجماعة المقدسة. لأن الحب لا يمكن إلا أن يوجد عمل يعبر عنه.

❖ لا يمكن للحب أن يكون خاملاً. إن استطعت أرني حباً عاطلاً لا يفعل شيئاً^١.

❖ هل نقول لك: "لا تحب شيئاً"؟ حاشا! فإنك أن لم تحب تكون متبلد الحس، ميتاً، مكروهاً، وبائساً. حب؛ لكن اهتم أن تعرف ماذا تحب^٢.

القديس أغسطينوس

هذا ما أقصده بالحب الجامع، أي الحب الذي للكنيسة الجامعة. هو التزام يجب على كل عضو ممارسته، بل هو حق يليق بكل عضو أن يتقبله بالروح القدس، ليعيشه ملتهداً بروح الحب، مشتاقاً إلى خلاص العالم كله.

والآن قبل أن أتحدث عن هذا الحب الكنسي الجامع الحي في حياة كل عضو من الشعب، أود في هذه المقدمة أن أبرز مفهوم كلمة "الشعب" وخطأ كلمة "العلمانيين" ودور الشعب كنسياً.

شعب أو لاؤس Laity

إذ أود أن أوجه هذا الحديث لكل عضو في الجماعة المقدسة ليغتصب بنعمة الله حقه في ممارسته للحب على مستوى كنسي، أي على مستوى لائق بجسد المسيح يليق بي أن أوضح في اختصار مفهوم كلمة "شعب" أي "لاؤس".

أولاً: كلمة "شعب" في اليونانية "لاؤس" نُقلت إلى كثير من اللغات منها الإنجليزية Laity أو Lay، لكن للأسف تُرجمت في العربية خطأ إلى "علمانيين". وقد شاع استخدام هذا التعبير بيننا لنقصد به كل المؤمنين غير الكهنة والرهبان.

ولما كانت كلمة "علماني" مشتقة من "العالم" فربما قُصد بها أحد أنماط الكنيسة الثلاثة، النمط الأول هم رجال الكهنوت الذين تركوا كل شيء لحساب الكرازة والخدمة، فكرسوا كل وقتهم وطاقاتهم وإمكاناتهم للعمل الكرازي. وقد جاءت كلمة "إكلييريكي" مشتقة عن الأصل اليوناني "كليروس" التي في معناها الحرفي تعني "نصيب" أو "ميراث"^٣، إذ أراد

¹ On Ps. 31.

² On Ps. 32.

³ Yves Congar, O. P.: Lay People in the Church, 1976, p. 3.

هؤلاء أن يكون الرب نصيبهم، وهم من نصيب الرب، كما قيل عن اللاويين في العهد القديم.

والنمط الثاني هم الرهبان الذين التهب قلوبهم بحب العبادة، فتركوا كل شيء ليكرسوا حياتهم للعبادة على مستوى ملائكي، هؤلاء لم يكونوا في الكنيسة يمثلون جزءاً من العمل الكهنوتي، بل خرجوا من العالم للتمتع بالحياة الملائكية، وهم بعد في الجسد.

أما النمط الثالث فهو الشعب الذي يلتهب روحياً بالإيمان، لكنه يشهد للرب لا خلال العمل الكهنوتي أو الرهباني، إنما خلال العمل في وسط هذا العالم بروح الحق وبفكر سماوي. من الخطأ أن ندعو هؤلاء المؤمنين "علمانيين"، لأن كل مؤمن - كاهناً أو راهباً أو من الشعب - لا يمكن أن يكون علمانياً في حياته الداخلية أو سلوكه حتى وإن عاش وسط العالم، إنما يحمل روح مسيحه القائل: "لأنهم ليسوا من العالم كما إني أنا لست من العالم، لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل تحفظهم من الشرير... كما أرسلتني إلى العالم أرسلهم أنا إلى العالم" (يو ١٧: ١٤-١٨).

فإن كان السيد وهو ليس من هذا العالم قد جاء فدية عن العالم. هكذا يليق بكل مؤمن وهو يقول مع بقية إخوته: "نحن لم نأخذ روح العالم" (١ كو ٢: ١٢)، يقدم حياته ليس فقط ليغسل أقدام العالم، وإنما ليبدل كل نسمة فيه بالحب من أجل العالم.

بهذا الفكر لا يمكن أن يكون المؤمن الحقيقي علمانياً، إنما جميع المؤمنين من كهنة ورهبان وشعب، وهم شعب واحد يعمل معاً بالعبادة كما بالخدمة الملتحمة بالعبادة من أجل تقديس كل نفس في العالم، لذا أرجو أن أستبدل كلمة "علمانيين" بكلمة "الشعب".

ثانياً: ماذا يُقصد بكلمة الشعب "لاؤس"؟ هل يقصد بها "المؤمنون" جميعاً من كهنة وشعب، أو رعاة ورعية، أي الكنيسة كلها كشعب الله المقدس؟ أم يُقصد بها جماعة المؤمنين دون الكهنة والرهبان؟

اهتم كثير من الدارسين بتحليل الكلمة لغوياً ودراسة استعمالاتها عند اليونان وفي الكنيسة الأولى وانحاز البعض إلى الرأي الأول والآخر إلى الرأي الثاني. لكننا نستطيع القول بأن كلمة الشعب تحمل تارة معنى الكنيسة ككل، وأخرى معنى غير الكهنة من المؤمنين. ففي العهد القديم حينما يتكلم عن "شعب الله" يقصد بالشعب تمييزه عن بقية الشعوب الوثنية، وكأن كلمة "شعب" هنا تعني كنيسة العهد القديم في مجملها: كهنة ولاويين وشعباً يكون الكل يمثل شعب الله المفرز لحسابه، كما استخدم العهد القديم أيضاً

كلمة "الشعب" بمعنى كل المؤمنين دون الكهنة واللاويين، بمعنى أن كلمة الله استخدمت هذا التعبير تارة بالمعنى الواسع الشامل وأخرى بالمعنى المحدد.

يرى كثير من الدارسين أن لفظ "لاؤس" لغويًا يعني المعنى الواسع، فيضم كل الشعب المقدس لله من كهنة وغير الكهنة، لكن الكنيسة الأولى منذ انطلاقتها حتى العصور الوسطى غالبًا ما استخدمت هذا التعبير بمعنى المؤمنين من غير الكهنة¹. حقًا لقد استخدمه القديس يوستين بالمعنى الشامل²، لكنه أيضًا استخدمه بالمعنى المحدد³. أما كتابات القديس إكليمنضس السكندري⁴ والعلامة أوريجينوس⁵ والعلامة ترتليان⁶ والشهيد كبريانوس⁷ فجاءت بمعنى الشعب دون الكهنة.

ومع هذا فلا نستطيع عزل الكهنة عن الشعب أو الشعب عن الكهنة، فحينما اشتقت أن أكتب عن الحب الرعوي، قلت أن الكاهن وهو يتعبد أو يخدم لا يعزل نفسه عن شعب الله. فلا يقف كمن على منبر متعال، إنما فيما هو يتعبد ممارسًا الليتورجيات الكنسية يمارس هذه العبادة لأجل نفسه أيضًا، كواحدٍ من الشعب، يحتاج بالأكثر إلى التقديس. فيقول سرًا في صلوات الإفخارستيا: "أقبل هذه الذبيحة عن خطاياي وجهالات شعبك"... وحينما يعظ تجلس نفسه في الصف الأول لتقدم التوبة مع بقية النفوس، فتتعلق كلمات وعظه إلى نفسه أكثر مما للنفوس الأخرى. بهذا نفهم أنه لا انعزالية ولا طبقية في الكنيسة، فالكهنة مرتبطون مع الشعب بكونهم معًا "شعبًا لله".

دور الشعب الايجابي

لست الآن في مجال للحديث عن دور الشعب الإيجابي وتكامله مع دور الكهنة في كل شيء بالتفصيل، إذ أترك هذا الأمر للحديث عنه في مجال آخر إن أراد الرب، إنما ما أود تأكيده هنا هو أن الكنيسة قد حملت منذ العصر الرسولي نمطين واضحين هما نمط الرعاية والخدام ونمط الشعب، لكنها عاشت كنيسة متكاملة ومتلاحمة، لا تعرف السلبية في حياة أي عضو من أعضائها. حقًا كان للأسقف عمله وأيضًا للقس والشماس وكان

¹ Alvora Del Protillo: Faithful and Laity in the Church, Ireland, 1972, p. 15-7.

² Dial. 123.

³ 1 Apol. 67.

⁴ Stromata 3: 12.

⁵ In Jerem. hom 11: 3.

⁶ Praescr 41: 8; De exhort. Castitatis 7; De monogamia 12.

⁷ Ep. 45: 2; De unitate 17.

للشعب أيضًا دوره الإيجابي، في عبادته كما في شهادته للمصلوب خلال الكرازة. في دراستنا لسرّ الإفخارستيا^١ رأينا الشعب ليس مستمعًا في العبادة بل هو مشارك وعامل. فالليتورجيا ليست هي عبادة الكاهن وحده عن الشعب، إنما هي عمل الكنيسة كلها، كهنة وشعبًا، من أجل تقديس العالم كله. فإن وقف الشعب مستمعًا دون شركة الشكر والتسبيح والصراخ والطلبية تفقد الليتورجيا عملها الحق، ويكون الشعب قد جهل رسالته أو تنازل عن حقه الإيماني في الشركة المقدسة، أو يكون الكهنة قد اغتصبوا حق الشعب في الشركة فأفسدوا العمل الكنسي الحي. وما نقوله عن الليتورجيات نكرهه في كل أنواع العبادة، وأيضًا في الشهادة للسيد المسيح المصلوب. ففي سفر الأعمال نرى الشعب الذي تشتت بسبب الضيق تاركًا أورشليم، انطلق يكرز بالكلمة ويشهد للحق. إن كان للشعب حق الشركة الإيجابية في العبادة والكرازة، فبالأولى في ممارسة "الحب" الذي هو موضوع حديثنا هنا.

^١ راجع كتابنا: "المسيح في سرّ الإفخارستيا".

حب للجميع

الإنسان كما رأينا لا يقدر أن يعيش بغير الحب، إنه يعطش إليه، بل يحتاج أن يُحَبَّ ويحب. بدون الحب يفقد المرء طعم الحياة، ويضطرب سلامه الداخلي، ويخسر رجاءه، ويصير تائهاً لا يعرف ما يشبعه ويرويه.

هذا الحب، الذي هو صُلب الحياة البشرية، اختلط في أذهان الناس، فعرّجوا بينه وبين الغريزة الجنسية واللذة، وبينه وبين العاطفة، وبينه وبين الميل الاجتماعي...

هكذا صارت البشرية في حاجةٍ إلى تفهم "الحب الحقيقي"، ليس خلال الوراثة والطبيعة ولا على ضوء وصايا وشرائع، إنما احتاجت أن تتعرف عليه وتتذوقه، فجاءها "ابن الإله الوحيد" الحب الحقيقي، ولبس بشريتنا، وحلّ بيننا، مقدّمًا لنا الحب في أسمى درجاته، إذ "أحبنا وأسلم ذاته من أجلنا".

تجسد "الابن"، وقبل بشريتنا، لكي نتعرف على الحب، فنقبل حبه ونتجاوب معه فنحب، نحمل فينا طبيعة محبته!

نقول إن "المسيا" ما جاء ليقدّم شرائع ووصايا مجردة، ولا ليقم فلسفات فكرية وعقائد نظرية، ولا ليخلق جماعة خاصة منزوية، وإنما تقدم ليعلن حبه الإلهي في أعماقه، إذ صار من أجلنا عبدًا وفدية وخلصًا!

خلال هذا العمل الإلهي يتذوق الإنسان الحب الحقيقي ويقبله ويعيش به، وعلى أساسه تقوم كل العلاقات، فينتهم الروابط الزوجية والأبوية والأمومة والبنوة، لا على أساس غريزي طبيعي، إنما على أسس سماوية روحية تجرف معها الغرائز والعواطف وتسمو بها وترتفع فوقها بلا حدود.

هذا ما رأيناه خلال الكتب الثلاثة السابقة، أما الآن فنود أن نتفهم علاقتنا مع بني البشر ككل: أحياء كانوا أم مضايقين، مؤمنين أم غير مؤمنين، أبرارًا أم خطاة.

لقد أحبنا ربنا، وفي حبه بذل ذاته من أجل العالم، لا من أجل إنسانٍ دون آخر، أو فئة دون سواها، إنما بلا تحيز ولا تمييز ولا محاباة، تقدم حمل الله يحمل خطايا العالم كله.

هذا ما سلمه إلينا مسيحنًا، لكي به يتسع قلبنا على مثاله فنحب بلا حدود، ونبذل بغير تعصب، ونترفق بغير محاباة.

هذا هو النور الذي ينير به السيد المسيح له المجد فينا، ليستتير به العالم.
هذا هو العمل المعجزي الذي وحده قادر أن يشهد لمسيحنا فينا ويظهر رائحته الذكية أمام المؤمنين وغير المؤمنين.
هذه هي شهادة الكنيسة لمسيحها الحي العامل فيها والعاملة به، ليتجلى مسيحها الصاعد إلى السماء في الكنيسة المنظورة على الأرض.
أقول، هذا هو عمل الكنيسة كلها: عمل آبائها وأبنائها، كهنتها وشعبها، رجالها ونسائها، أطفالها وشيوخها، أن يحبوا ويُحبوا.

❖ حيث أن الحب الحقيقي هو أن نحب الكل، فإن عرف أحد أنه يبغض لو شخصًا واحدًا يلزمه أن يسرع ويتقيأ هذه اللقمة المرة حتى يتهيأ لقبول عذوبة الحب نفسه^١.
الأب قيصر يوس أسقف آرل

❖ انظر، فإنه يُقال إننا نحب بعضنا بعضًا. ولكن إن كان أحد له صديقان وآخر له ثلاثة، فإن هذا ليس حبًا من أجل الإله، بل من أجل المحبوبين.
الحب الذي من أجل الإله لا يحمل هذا كأساس للحب، بل كإنسانٍ يميل نحو كل البشرية، يحب من لهم إيمانه بكونهم إخوة حقيقيين ويحب الهراطقة والوثنيين واليهود^٢ بكونهم إخوة بالطبيعة متأسفًا عليهم عاملاً بتعبٍ وباكيًا من أجلهم.
بهذا نكون على مثال الله لا بصنع أعمال عجيبة، بل إن أحببنا كل البشر حتى أعدائنا.

إننا ندهش من الله إذ يظهر عجائب، وبالأكثر جدًا عندما يُظهر حبًا للإنسان، عندما يظهر طول أناته علينا.
إن كان هذا يستحق الإعجاب في الله، فكم بالأولى يستحق البشر الإعجاب (بحبهم للجميع)^٣.

القديس يوحنا الذهبي الفم

^١ Sermons 23:4.

^٢ تميز الكنيسة بين محبة الإنسان لعدوه الشخصي وبين أمانته لوطنه.

^٣ In Hebr. 3: 11.

عمل الكنيسة أن تحب

كل ما تراه الكنيسة في إلهها هو "الحب". تراه صنع كل شيء من أجل الإنسان، وعندما سقط أرسل له الأنبياء ودبر له الحوادث والرموز ليتقبل الخلاص الإلهي الذي يقدمه له ابن الله الحي على الصليب.

أمام هذه الصورة التي لا تفارق عيني الكنيسة يتساءل كل إنسان حي: ماذا أرد للرب؟ كيف أرد له الحب بالحب؟ فيجيب الرب: "هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضًا كما أحببتكم" (يو ١٥: ١٢)، أي بذات الحب الذي قدمته لكم.

رسالة الكنيسة أن ترد محبة المسيح لها بالحب للبشر من أجل الله، تحبهم لا بدافعٍ نفعي، ولا بقصد آخر سوى إعلان حب السيد المسيح لهم.

يلتهب قلب المؤمن بالحب نحو إخوته في البشرية، فلا يستريح قلبه حتى يجد كل إخوته الذين أحبهم المسيح ومات عنهم قد شاركوه هذا الحب الإلهي وأدركوه معه.

لقد وجد أندراوس أخاه سمعان بطرس فقال له: "لقد وجدنا المسيا الذي تفسيره المسيح"، وأحضره إلى الرب يسوع (يو ١: ٤١). ويعلق القديس يوحنا الذهبي الفم قائلاً: [إن في قوله "لقد وجدنا" يعبر عن نفس مشغولة بحلول (المسيح)، وباحثة عن مجيئه من فوق، وإذ رأت ما قد تحقق، فامتألت فرحًا وأسرعت لكي تشرك الآخرين معها في الأخبار السارة الصالحة^١].

فيلبس أيضًا في حبٍ دعا نثنائيل. ومتى صنع وليمة للعشارين والخطاة ليتذوقوا حب ربنا يسوع والسامرية في فرحها بالمسيا دعت السامرة كلها. وكثيرون في حبٍ كاملٍ قدموا للبشرية المسيح المحب لا لشيء سوى بقصد خلاصهم، من أجل ذاته.

لذلك لست أغالي إن قلت إن كل مسيحي يشعر بفاعلية الخلاص في حياته ويدرك عربون الحياة الأبدية ويتذوق عذوبة السلام الداخلي، أقول أن مثل هذا لا تصير له غاية كل أيام غربته مثل الوصول بكل نفسٍ إلى أحضان الإله الحي.

إنه في كل وقت، مناسب وغير مناسب، وفي كل مكان، وفي كل عمل، شهوة

^١ In Ioan hom. 19: 1.

قلبه أن تتسع قلوب بني البشر بالحب الإلهي، يقبلونه ويتجاوبون معه.

بين الحب والتعصب

مسيحنا ما جاء ليفرز جماعة معينة ترتبط معًا بروح تعصبية ضيقة، ولا جاء ليقدّم للعالم ديانة جديدة تضاف إلى ما يسمونه ديانات أخرى كالبودية أو الوثنية. وإنما جاء يقدم للبشرية قلب الإله المتسع لكل البشر ليعيش الكل ويختبرونه، فوق كل حدود الزمان والمكان، يعيشون من أجل الأبدية، ويتذوقون عربونها. وعلى هذا كل إنسان يلتقي مع ربنا خلال دائرة الإيمان الحقيقي يتسع قلبه على صورة معلمه، فيحب كل البشر، ولا يتعصب لفئة على حساب أخرى. من يتلامس مع الحق ويتحد به لا يخاف الباطل ولا يرهبه، لذلك فهو لا يتعصب مع المؤمنين ضد غير المؤمنين، لا في داخل نفسه ولا في الخارج. على العكس، المسيحي الحقيقي يشعر بضعف غير المؤمنين ويحس بحاجتهم بالأكثر للقلب المتسع والحنو والترفق، حتى وإن أظهر بعضهم عنفًا أو مضايقة أو متاعب للمؤمنين.

وتظهر الكنيسة الأولى في عدم تعصبها أنها لا تقبل غير مؤمنٍ يصير مسيحيًا من أجل الارتباط بزوجة مسيحية أو مداينة لرئيس أو عظيم أو لحب الاستطلاع. إنما تقدم المسيحية الإيمان للبشرية من أجل الأبدية، من أجل الإله المحب، من أجل الأبوة السماوية. هذا ما أكدّه القديس كيرلس الأورشليمي في القرن الرابع الميلادي في مقالاته للموعوظين وطالبي العماد.

على العكس إن ما قدمته المسيحية للعالم أن يقبلوا مسيحا مصلوبا، يشاركونه آلام الحب، والصلب المحيي.

قدمت لهم إنكار الذات ورفض الملذات والتخلي المستمر وقبول الآلام والضيقات بشكر.

قدمت لهم صلب الجسد كشهوة يطلبونها للعبور للأبدية، ومع هذا كانت ولا تزال المسيحية جذابة بمسيحها المصلوب ووصاياها الصعبة، لأنها تقدم إلها محبا لعالم متعطش إلى الحب والصداقة الحقيقية.

لم تستخدم الوعود الزمنية ولا التهديد، بل استخدم مسيحا وتلاميذه حبا وأيمانا حيا عمليا.

حقًا بالقلب المتسع المحب اشتاق الآباء الأولون إلى خلاص كل نفس لكن بغير تعصب أو تحيز أو ضيق صدر، بل على العكس كانوا منذ البداية يقطعون كل دابرٍ للتعصب فيقول أحدهم:

❖ إن رأيت حمارًا ساقطًا، فإنك تقيمه دون أن تسأل عن صاحبه، أليس بالأكثر جدًّا بالنسبة للإنسان الساقط ألا تسأل لمن هذا؟ إنه ملك لله، حتى وإن كان وثنيًا... حتى وإن كان غير مؤمنٍ، فإنه يحتاج إلى عونٍ!

القديس يوحنا الذهبي الفم

¹ In Hebr. hom 10: 8.

غاية الوصية: خلاص النفوس

الوصية التي قدمها السيد المسيح لكنيسته هي الحب الذي فوق كل اعتبارات زمنية، والذي لا يعرف التعصب ولا الأنانية ولا الذاتية، إنما تتقدم به الكنيسة كعريسها للبدل والصلب من أجل كل إنسان.

نستطيع أن نقول في جسارة أن كل ما كانت تتسم به الكنيسة الأولى أنها كنيسة محبة، متلهفة على خلاص كل أحد، لا بقصد تكوين حزب لها أو طائفة أو لكثرة في العدد، إنما بسبب إدراكها قوة الصليب في حياة البشر، ومعرفتها لقيمة كل إنسان مات المسيح عنه، واشتياقها أن يتجاوب الكل مع الحب الإلهي.

❖ التقرب بنفسٍ واحدةٍ إلى الله بالتوبة أفضل عند الله من جميع القرايين إذ ليس في العالم عند الله أفضل من النفس الإنسانية. لأن كل ما في العالم يزول إلا النفس المذكورة فإنها لا تزول.

القديس يوحنا الدرجي

❖ فليعلم أن من يرد خاطئاً عن ضلال طريقه يخلص نفساً من الموت ويستتر كثرة من الخطايا (١ يو ٥: ٣٠). إن كان الذي يخلص أحداً من الموت الجسداني، مع أنه إن لم يجده الموت اليوم يموت غداً، يستحق مكافأة عظيمة، فأية مكافأة يستحقها من يخلص نفساً من الموت الأبدي، ويسبب لها حياة مجد أبدي لا تخسر أبداً.

الأب غريغوريوس

❖ يرضى الله بهذا العمل كثيراً، فلو مارس الإنسان كل التقشفات، ولو قمع جسده بكل نسك، ولو صام حياته كلها ونام على التراب، ولو وزع كل مقتنياته على الفقراء والمساكين، هذه كلها لا توازي غيرته على خلاص النفس.

❖ الغيرة من أجل خلاص النفوس في عيني الله أفضل من صنع المعجزات، كالتى فعلها موسى حين أخرج الشعب من مصر، لأن هذه كلها لا توازي غيرته الإلهية ومحبه المضطربة حين يشفع عند الله من أجل الشعب قائلاً: "والآن إن غفرت خطيتهم، وإلا

فامحني من كتابك الذي كتبت" (خر ٣٢: ٣١). فموسى لم يتشرف بجميع ما صنعه من عجائب قدر ما تشرف بهذا الكلام العجيب.

❖ لنلولو عليهم أشد من ولولة النساء النادبات، لأنهم يجهلون خلاصهم، لأن المرأة لا تحب الرجل هكذا كما نحب نحن كافة الناس لنجذبهم إلى الخلاص.

❖ إن كان يونانياً (أممياً) أو أيا من كان فلننجح عليه، لأن ذكر الصليب عنده جهالة، مع أنه حكمة الإله وقوته!

❖ إن رأيت أعمى سيسقط في هوة، أما تمد يدك إليه وتسندة حالاً، فكيف إذن يسوغ لنا أن نرى إخواننا ساقطين في مثل هذه المخاطر ولا نمد إليهم يد الإعانة وهم مشرفون على السقوط في الحفرة الجهنمية الخالدة؟

❖ كما أن الأطباء لا يلزمون المرضى بالحضور إليهم، بل يذهبون إليهم... هكذا عالج نفوس إخوانك المتألّمة بداء آلام الخطية كما تعالج نفسك، عالماً بأن زمان حياتنا الوقتي نذر يسير. فإننا إن لم نربح هذا الكسب النافع للنفس... لا يحصل لنا هناك خلاص لنفوسنا البتة. لأنك إذ تتفقد نفساً من رق الخطية، تكون قد رفعت عن نفسك أوثاقاً صعبة من الخطايا العظيمة، وتُوجد يوم الدينونة مكللاً...

أيها الإخوة، نحن ملتزمون أن يجاهد كل منا من أجل خلاص أخيه حتى نستقبل المسيح يوم الدينونة بوجوه ثابتة، وبدالة، جزيلة، مقدمين له تلك الهدايا التي لا يوجد أفضل منها، وهي نفوس الخطاة والضالين التي رددناها إليه بوعظنا وتهذيبنا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

الإحساس بالأخوة

سبق أن قلنا إن المسيحي في شوقه إلى خلاص الكل لا يقوم بهذا بدافع تعصبي أعمى بل في حب، حب للإله الذي بذل ابنه الوحيد من أجل كل إنسان، وحب أيضاً لزميله في البشرية. فالمؤمن يتوق أن يرتبط بكل بني البشر الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم، بالمعاصرين له والراجلين والأتين من بعده. يرتبط بهم في وحدانية الحب الحقيقي، في قرابة روحية تسمو فوق كل رابطة جسدانية أو دموية. يرتبط معهم في الرأس "يسوع المسيح" ويكون الكل شركاء معاً في كل شيء إلى الأبد.

اسمع ماذا يقول القديس يوحنا الذهبي الفم للمؤمنين والموعوظين:

❖ ليتنا نحن الذين تأهلنا لمثل هذه الأسرار نظهر حياة تليق بالعطية، أي نظهر سلوكًا غاية في الامتياز!...

فإن كان الإنسان أبًا أو ابنًا أو أخًا أو في أي قرابةٍ أخرى، فإنه لا يُحسب قريبًا حقيقيًا مثلما تكون القرابة نابعة عن علاقات علوية. أي نفع للارتباط بعلاقات عائلية أرضية دون الارتباط بعلاقات روحية؟! أي فائدة إن كنا أقرباء على الأرض وغرباء في السماء؟! لأن الموعوظ غريب عن المؤمن، إذ ليس له ذات الرأس، ولا نفس الأب، ولا عين المدينة، ولا ذات الطعام أو الثوب أو المائدة أو المنزل، إنما يكون مغايرًا له (يقصد الأمور الروحية).

هذه الأمور تكون للموعوظ على الأرض (أي ينشغل بأمورٍ عاديةٍ أرضيةٍ)، أما الآخر فيطلبها (كأمورٍ سماويةٍ) في السماء.

واحد له المسيح ملكًا، الآخر طعامه اللحوم التي تفسد وتنتهي!

واحد له ثياب يفسدها العث، الآخر له رب الملائكة!

واحد مدينته السماء، الآخر الأرض!

فإذا ليس لنا شيء مشترك، ففي ماذا تكون لنا الشركة؟! هل نحن توائم، ولدنا من

رحمٍ واحدٍ؟! فإن هذا يعجز عن إقامة قرابة غاية في الكمال.

إذن لنجاهد أن نكون مواطنين للمدينة العلوية!^١

القديس يوحنا الذهبي الفم

^١ In loan. hom 25.

رسالة الشعب كنسيًا

اتسمت الكنيسة الأولى بالنمو السريع المطرد، وسرّ هذا يكمن في حيوية كل عضوٍ من أعضائها.

كل عضو، كاهن أو من الشعب، معلم أو تلميذ، شيخ أو طفل، رجل أو امرأة، شاب أو فتاة، صبي أو صبية، متزوج أو بتول؛ الكل أعضاء حية فعالة، يشهدون بأمانة وحق لمسيحهم الحيّ المحيي. الكل أصحاب رسالة واحدة هي الشهادة للرب، وإن اختلفت الخدمات والأعمال والمواهب!

الكل يحترق حبًا بذاك الذي أحبهم ومات عنهم، والكل يتوق أن يحمل مسئولية حمل نير الرب، والخضوع للصليب، والتقدم للموت كل يوم من أجل الرب. هكذا عاشت الكنيسة، وهكذا كانت تربي أولادها على الحياة الإيمانية العاملة الحية، يسندون بعضهم بعضًا، ويكملون بعضهم البعض في الشهادة للرب بالحب.

لستُ كاهنًا

قد يعتذر أحد عن حمل نير الشهادة للرب وسعيه لخلاص إخوته قائلاً: إنني لست كاهنًا، فليس من عملي الجمع مع الرب يسوع، خاصة وإنني لم أنل موهبة الوعظ، ولا أعرف كيف أحدث الناس عن شخص المسيا.

حقًا إن العمل الأول للآباء الذين نالوا موهبة الكهنوت هو البلوغ بكل نفسٍ إلى فاديها. لكن هذا لا يوقف عمل الرعية، الحب تجاه كل إنسان. فكل عضو حيّ، في جسد الرب السري، أي كل مؤمن حقيقي تذوق حلاوة حب الإله يجد نفسه ملتزمًا بالشهادة عن هذه العذوبة أمام الغير.

يقول الرسول "لأنه مكتوب افرحي أيتها العاقر التي لم تلد، اهتفي واصرخي أيتها التي لم تتمخص، فإن أولاد الموحشة أكثر من التي لها زوج" (غل ٤: ٢٧؛ إش ٤٩: ١٢). افرحوا يا من تظهرون كعواقر، لكن بسيرتكم الحلوة وحياتكم الداخلية وتصرفاتكم وأحاديثكم تجتذبون نفوسًا للرب يسوع، فصار لكم أبناء، إذ تتعجبون قائلين: كيف لنا هؤلاء الأبناء؟ "من ولد لي هؤلاء وأنا تكلّي وعاقر، منفية ومطرودة؟! هؤلاء من رباهم؟!" (إش

٤٩: ٢١).

فليس الكاهن وحده ملتزمًا بالشهادة للرب، بل الكل من حقه أن يعلن رائحة المسيح الذكية الجذابة فيه مبشرًا بكلمة الحق.

ففي الكنيسة الأولى حدث اضطهاد عظيم في أورشليم، وتشتت الجميع ماعدا الرسل، وماذا فعل هؤلاء المشتتون؟ جالوا يبشرون بالكلمة! (أع ٨: ١-٤). بهذا تتحقق الوصية الربانية "من لا يجمع معي فهو يفرق" (مت ١٢: ٣٠؛ لو ١١: ٢٣).
يحث القديس يوحنا الذهبي الفم شعبه على الخدمة قائلاً:

❖ يجب علينا أن نظهر الحب الأخوي والتدبير اللائق نحو بني طبيعتنا، ونتحملها بالمحبة التي هي رأس الفضائل، التي بدونها لا يستطيع أحد أن ينجو. لهذا لا تقتر أيها الحبيب أبدًا، بل كن ناصحًا لأخيك، ولو قذفك وأرهبك بالضرر والخسارة. فاطهر له جناح الحنو وأطل أناتك عليه، حتى تريح نفسه، ولو بالغ في عدائه لك. فعليك أن تفرح، إذ يكون الإله نفسه محبًا وصديقًا، لأن النفس ثمينة جدًا ولن يوازئها العالم بأسره. ورجوع نفسي واحدة إلى طريق الحق والصواب أفضل من ربوات الأموال التي تقدمها رحمة...

ومتى رأيت إنسانًا محتاجًا إلى شفاء روحي أو جسدي، لا تقل في نفسك أن هذا من عمل فلان أن ينقذه من شره ويشفيه، فإنني من الشعب لي زوجة وأولاد، وهذا من عمل الكهنة والرهبان.

أجيني يا هذا: هل لو أوجدت وعاءً مملوءً ذهبًا تقول في نفسك لم لا يأخذ هذا الوعاء فلان أو فلان؟... بل تبادر كالذئب الخاطف وتأخذه قبل أي إنسان! ليكن لك هذا الاشتياق نحو إخوتك الساقطين، واضعًا نفسك أنك وجدت كنزًا ثمينًا جدًا، هو اعتناءك بأمر خلاص أخيك. هوذا الإله ذاته يقول على فم رسوله أنك أنقذت إنسانًا ضالًا تخلص نفسك من الموت (١ يو ٥: ٢٠).

❖ لا تقل أيضًا لم لم أحظ بموهبة التعليم، فإنه لو أنعم الإله بها عليّ لنفعت كثيرين... إن لم يكن لك حسن منطق وبلاغة وقدرة على استنباط المعاني، لكنك على كل حال تعرف الأمور العامة المتعارف عليها (أي معرفة بالخلاص في بساطة)، فإذا لم يكن لك القدرة أن تعظ في الكنيسة في حضرة الجماعة وتستنبط المعاني في التعليم، فلك أولاد وجيران وخالص وأقرباء وإخوة وأصدقاء تستطيع الحديث معهم... فلا

تحتاج إلى إحكام قوانين الخطابة في هذا الموضع، ولا أن تستعد في المقال، ولكن كن في هذا كما لو كنت بليغاً خطيباً... فإنك إن لم تحرص على اليسير الطفيف فكيف تؤمن على الخطير الشريف؟!^١

القديس يوحنا الذهبي الفم

إيجابية الكنيسة

لا يعرف الحب السلبي بل يدفع المرء للعمل، فلا يحتج من كان من الشعب بعدم مسؤوليته، ولا يعزل التوحد الراهب عن الكنيسة العاملة، بل على العكس يزيد من ارتباطه بها ويشعره بأحاسيسها واحتياجاتها، ولا يتهرب أحد من العمل... وإن كان لكل واحد منهم رسالته.

ولماذا نتحدث عن الكهنة والرهبان والشعب في إيجابيتهم، بل وحتى الملائكة السمايين، الذين هم ليسوا من طبعنا ولا إخواننا في الطبيعة ولا شركاء معنا في المسكن أو العمل. إذ هم مملوون حباً، لا يقفون سلبين تجاه البشرية. شاركوا البشرية في مجيئهم بالرسالات الإلهية من قبل الإله كما جاء الملاك جبرائيل لدانيال وللسيدة العذراء مريم. شاركونا فرحنا بالخلاص يوم ميلاد الرب ويوم قيامته، ويعينوننا بأمر الرب في الجهاد ضد إبليس وجنوده.

هكذا يفعل الحب، وهكذا تفعل الكنيسة المحبة، لا تعرف خمولاً ولا انعزالاً ولا سلبية، بل تتركز رسالتها في تقديم المواهب الإلهية للبشرية والكشف عن قوة هذه الإمكانيات التي يمكن أن تعمل في كل عضو، لكي لا يعيش مؤمناً خاملاً يقف إيمانه عند الشهادة بالفم أو التعصب باللسان، بل يسمو فوق هذا كله لينطلق قلبه بالحب لله وللشعب إخوانه. رسالة الكنيسة توجيه كل عضو من أعضائها حتى المرضى والمقعدين، الأرامل والمتزوجين والمتبتلين، الفقراء والأغنياء، المرؤوسين والرؤساء، الشيوخ والأطفال. توجه كل فرد وتساعد لتستثير عينا ذهنه، فيعلم ما هي عظمة قدرة الإله الفائقة نحو المؤمنين حسب عمل شدة قوته (أف ١: ١٨-١٩). يدركون إمكانية عمل الله معهم، ليعملوا بنعمته ما هو لبنيان أنفسهم وبنيان الكل. وإليك مثالان لذلك^١:

١. الشاب الساقط تحت ثقل الشهوة العنيفة، هذا لا تزدرى به الكنيسة، ولا

^١ راجع الكتيبين اللذين صدرا من كنيسة مار جرجس باسبورتج: سنعود بقوة أعظم، ورسالة تعزية للقديس يوحنا الذهبي الفم.

تستخف به، بل ولا تقنع بعودته إلى حياة الطهارة، إنما عليها أن تكتشف تلك الحقيقة، أنه بقدر بشاعة سقوطه يكون قيامه أعظم، وبمقدار تحطيمه لنفسه يمكن بالأكثر أن يبني نفسه بالنعمة الإلهية ويقيم معه ساقطين على مثاله. لأنه كلما ازدادت الشهوة في عنفها ففي هذا إعلان عن إمكانية نشاط وحب تكمن فيه، لكنها خاطئة التوجيه.

مثل هذا الإنسان يحطمه الراعي الذي يطلب منه مجرد الامتناع عن الشر، لأن الكنيسة لا تقبل كبت أولادها ولا تقف عند السلبية، إنما تؤمن بالتوجيه والتسامي. فمثل هذا نعلن له أولاً أن يحب الإله فتنبذ شهوته، بمعنى آخر تذوب الشهوة في الحب.

هذا ما صنعه الذهبي الفم في توجيهه للراهب تادرس الساقط حين أعلن بوضوح أنه بمقدار سقوطه سيكون قيامه أعظم، بل ويقيم الإله بواسطته كثيرين.

حقاً أن الكنيسة لا تطبق الخطية، لكنها تسند الخطاة لكيلا يضعفوا ويخوروا، لتجعل منهم طاقات حية عاملة بلا توقف.

٢. كذلك بالنسبة للأرامل: فقد نظن أن رسالة الكنيسة نحوهن تتركز في مواساتهن على نكبتهن مع مراعاة أحوالهن والاهتمام باحتياجاتهن النفسية والمادية.

أقول في خجل، أن هذه نظرة العالم، لكنها في الحقيقة نظرة جامدة تدفع فئة الأرامل نحو الموت الأدبي والنفسي. أما الكنيسة فلا ترى في الترميل نكبة يعمل الرعاة على مواساة الأرامل، بل هو بركة وقوة وإمكانية جديدة، به قد تحررن الأرامل من الاهتمام والانشغال بالواجبات المنزلية والزوجية، لتتطلق نفوسهن بحرية أعظم في عبادة الرب وخدمته. فرسالة الرعاة نحوهن أن يكشفوا بصائرهن عن العريس الحقيقي الرب يسوع.

هكذا لا ينظرن إلى أنفسهن كفئة منكوبة تتلمس العطف والترفق، فيعشن منكسرات القلب، لا بل فئة تحتل الصف الثالث بعد رجال الكهنوت والمبتلين، لهن عملهن العظيم ورسالتهن الفعالة في الكنيسة. وبهذا ترفع روحهن المعنوية وتتقبل الكنيسة خدماتهن. بهذا تنمو الأرامل في الشركة مع ربنا يسوع التي تعوضها بفيض عن فقدان حياة الشركة الزوجية.

حقاً إن سرّ ضعفنا اليوم في نظرتنا الضيقة إلى فئة الخدام - رجال الكهنوت وخدام التربية الكنسية - أنها الفئة الوحيدة العاملة في الكنيسة. هذا المفهوم كفيل أن يقضي علينا بالجمود. فالكنيسة في حيويتها لا تقبل هذا الروح، بل تنطلق بالأطفال الصغار شهوياً للسيد المسيح بين إخوتهم، والشباب يجذبون إخوتهم، والنسوة في زيارتهن

لبعضهن البعض قدرات أن يعملن على نمو بعضهن البعض روحياً، بل حتى المريض الحي قادر أن يربح نفوس زائريه، وكبار السن لهم عملهم في الكنيسة. أخيراً ليسمع كل منا ما ينصحنا به أحد آبائنا، قائلاً:

❖ من أجل هذا جاءنا (الرب) بتعاليمه السماوية العلوية لكي ينزع عنا أفكارنا ونتمثل به ما أمكننا، ولكن كيف نتمثل بالمسيح؟

عندما نعمل في كل شيء ما هو للصالح العام، ولا نطلب مجرد نفعنا الشخصي. يقول بولس: "لأن المسيح أيضاً لم يُرض نفسه، بل كما هو مكتوب تعبيرات معيريك وقعت عليّ" (رو ١٥، ٣، مز ١١٩: ٩).

إذن لا نطلب كل واحد ما لنفسه (أي لا يكن سلبياً)، إنما بالحق يطلب ما هو لخير نفسه متى اهتم بما لإخوته، فإن ما هو لخيرهم، إنما هو لخيرنا نحن، لأننا جسد واحد وأعضاء بعضنا لبعض...

فإنه وإن لم يكن قريباً ولا صديقاً، لكنه كإنسان يشاركك نفس طبيعتك، وله نفس الرب، عبد رفيق لك، زميلك في رحلتك، وُلد معك في ذات العالم^١.

❖ لا تلقوا كل العبء على معلمكم، لا تلقوه بأكمله على من يقودكم... إن أردتم تستطيعون أن تعلموا فيما بينكم أكثر منا، فإن لديكم فرصاً أكثر للالتقاء معاً، وتعرفون ظروف بعضكم أكثر منا، ولا تجهلون بعضكم بعضاً، لديكم أيضاً حرية أعظم في الحديث والحب والمودة، هذه الأمور ليست بقليلة في التعليم...

أنتم أقدر منا أن ينتهر الواحد الآخر وينصحه...

أتوسل إليكم ألا تهملوا هذه الموهبة، فإنه لكل واحد منكم زوجته وصديقه وخادمه وقريبه...

إن كان لازماً أن تذهب إلى جنازة أو وليمة أو تساعد قريبك في أمر ما فكيف تفعل هذه الأمور بقصد تعليمه الفضيلة؟ أرجوكم ألا يهمل أحداكم هذا، فإنه يتقبل من الله مكافأة عظيمة...

تقول لي: لست بصاحب كلام! لكن لا حاجة إلى الكلام ولا إلى الفصاحة... أسنده لا بكونك إنساناً تفعل كل شيء كما يليق، أي كمن يسلك بلا خطية، ولا كمعلم له بل كصديق وأخ له...

^١ In Ioan: hom 15: 3.

هذه هي الصداقة: "أخ يعين أخًا يصير مدينة محصنة" (أم ١٨ : ١٩).
ليست الصداقة أكلاً وشراباً، فإن مثل هذه توجد حتى بين اللصوص والقتلة. لكننا
إن كنا حقيقة أصدقاء فليعتن كل واحدٍ بالآخر...
"احملوا بعضكم أثقال بعض وهكذا تمموا ناموس المسيح" (غل ٦ : ٢).

❖ كل واحد منكم - إذ أراد - فهو معلم...

أنا أعرف عائلات كثيرة نالت نفعا عظيماً من فضائل خدمهم.

أوجه حديثي للجميع بصفة عامة، كما لكل فرد على وجه الخصوص، ليهتم كل
واحد بخلاص أقربائه... فإن في هذا العمل نفعا عظيماً، ليس فقط يصير العمل خفياً
على المعلم، بل يشترك كل تلميذ في الآلام ليصير قادراً أن يكون معلماً...

❖ يمكننا أن نعتبر كل مؤمن راعياً لبيته وأصدقائه وخدمه وزوجته وأولاده.

❖ اجعل بيتك كنيسة.

❖ ليس كل شيء يجعل الإنسان مثل المسيح كاهتمامه بأقربائه.

❖ لا أقدر أن أصدق خلاص إنسان لا يعمل من أجل خلاص أخيه.

❖ ليس شيء تافهاً مثل مسيحي لا يهتم بخلاص الآخرين.

القديس يوحنا الذهبي الفم^١

^١ In Hebr. hom 30: 4; In 2Thes. Hom 5; In Rom. P G: 60: 660; In Gen P G: 54: 607; In 1Cor. hom 25: 3; De sacer. 3: 10; In Acts hom 20: 4.

خدمة الشعب للخطاة

تركز عمل الإله المتجسد خلال ظهوره لنا في الكشف عن أعماق الحب الإلهي تجاه البشرية التي أنهكتها الخطية وأفسدها العصيان. لقد دعوه "محب الخطاة والعشارين"، إذ رآه يبحث عن الساقطين ليجذبهم بحبه، يجاذبهم الحديث ويتفرق بهم، يسافر الساعات الطويلة من أجل امرأة سامرية خاطئة، ويوقف موكبًا بأجمعه ليستضيف نفسه لدى زكا رئيس العشارين، ويقف محامياً وحيداً لامرأة أمسكت في ذات الفعل حكم الكل برجمها، ويبرر المرأة الزانية الباكية التي استنكف زميلها في البشرية أن يدخلها بيته.

هذا ما فعله الرب يسوع حاملاً في داخله الكنيسة جسده المقدس، أما وقد صعد التزمت الكنيسة المنظورة أن تكمل رسالة الحب حاملة المسيح الخفي في داخلها. من أجل هذا وهب كنيسته الروح القدس، روح الحب، ليعيش الكل مترققين بالخطاة محبين الكل.

فالمؤمن - بالروح القدس - صوت المسيح الصارخ تجاه البشر أن يعدوا طريق الرب ويصنعوا سبله المستقيمة. هذا الصوت هو صوت الحب الباذل.

الآن ماذا تفعل لتخدم إخوتك؟

١- لتحبه بلا عتاب

سأل ربنا يسوع المسيح تلميذه: "يا سمعان ابن يونا أتحبني؟... إرغ غنمي" (يو ٢١: ١٦). إنها كلمات محب الخطاة إلى التلميذ الجاحد، المتمسك بذاتيته هذا الذي ظن في نفسه أنه قادر على التمسك بمحبة معلمه إلى الموت، لكنه إذ جحد سيده وسبه بقسم أمام الجواري. لم يقدر أن يلتقي بمن غمره بمحبته، فجاءه ربنا يسوع دون أن يعاتبه ولا يجرح نفسه الحزينة بكلمة واحدة، بل سندها بكشفه جانباً جميلاً من جوانب قلب سمعان الضعيف.

لقد تفرق به، وأعلن له ما هو حلو في قلبه دون توبيخ عما تعثر به. وهكذا يقدم لنا الرب مثالاً حياً للمؤمن الذي يجذب إخوته بتجاهله ضعفاتهم والستر على نقائصهم. ديان العالم كله لا يعاتب أحداً ممن اعترفوا بخطاياهم، بل يويخ بصرامته الذين لم يشعروا به

كالمرائين والشكليين في العبادة. لهذا وبخ باعة الحمام والصيارفة والفريسي الذي دعاه للوليمة، بينما ترفق بالزانية التي خجلت من مقابلته لشعورها بثقل خطاياها... لذلك قيل عنه: "قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة مدخنة لا يطفئ". فابتسامته التي شهد عنها بيلاطس بنطس^١ لم تفارق شفتيه عند مواجهته للأشرار والآثمة.

وقد أكتسب المؤمنون من ربنا يسوع الساكن فيهم ترفقه بالخطاة. لذلك استخدمهم الروح القدس كآلات لجذبهم إلى حظيرة ربنا يسوع.

أمثلة لأناس محبين

جاء عن أخوين أن أحدهما سقط في حرب الزنا، فقال لأخيه: "يا أخي إني منطلق إلى العالم". فأجابه الأخ باكياً: "إنني لن أتركك تذهب إلى العالم، لئلا تتلف رهنبتك وبتوليتك". فلما سمع الأخ ذلك قال له: "إما أن تتركني أذهب إلى العالم، أو تذهب معي". ولما استشار الأخ أحد الآباء أجابه: "أذهب معه، فإن الله من أجل تعبك لا يتركه يسقط في الخطية". فنفذ الأخ الوصية، وكان عند نزولهم إلى القرية أن الله رفع الحرب عن الأخ بسبب محبة الأخ له.

❖ جاء عن الأب جلاسيوس، أنه كان عنده كتاباً مقدساً يقدر بـ ١٨ ديناراً، وقد سرقه أحد الإخوة من الكنيسة، وعندما ذهب إلى المدينة لبيعه، جاء الذي أراد شراءه إلى الأب جلاسيوس ليقدر له قيمة الكتاب وهل يساوي ١٦ ديناراً، المبلغ الذي طلبه السارق منه، فعرف أنه كتابه. لكنه لم يخبر المشتري بذلك بل أجابه أنه يساوي أكثر من هذا. فلما عاد المشتري إلى السارق أفهمه أنه عرض الكتاب على الأب جلاسيوس، وعندئذ اضطرب الأخ قائلاً: "ألم يقل لك الشيخ أمراً آخرًا؟"، أجابه بالنفي. وللحال رفض السارق أن يبيعه، وذهب إلى الأب جلاسيوس نادماً على السرقة. فرفض الأب أن يأخذ الكتاب، لولا إصرار الأخ وقوله: "إن لم تأخذه مني فلن أجد راحة". وعندئذ قبله، وقد تتلمذ هذا الأخ علي يدي الأب إلى يوم انتقاله.

❖ جاء عن أحد الرهبان أن أتاه بعض اللصوص، حيث قالوا له أنهم جاءوا ليأخذوا كل ما في قلايته. فأجابهم: "خذوا ما شئتم أيها الأولاد". فلما أخذوا كل ما وجدوه مضوا وقد نسوا مخلاة كانت مخبأة. فلما رآها أخذها وجرى بسرعة وراءهم منادياً: "يا بني، خذوا ما

^١ في التقرير الذي كتبه لهيرونس وأرسله حين أرسل السيد المسيح إليه.

قد نسيتهم". فحجلوا لما رأوا وداعته وعدم تبيكته لهم. وللحال ردوا كل ما سرقوه، قائلين: "بحق إنك رجل الله". وقد تابوا عما صنعوا ولم يعودوا إلى السرقة.

❖ جاء عن أحد الإخوة أنه كان يسرق كل ما يجده عند أحد الآباء، ولم يكن هذا الأب يرغب في توبيخه أو معاتبته، بل يكثر من عمل يديه قائلًا: "لعل الأخ يفعل هذا لاحتياجه". ولما حضر يوم انتقاله لم يهن عليه هلاك هذه النفس، فناداه وطلب منه أن يدنو منه وعندئذ أخذ يقبل يديه قائلًا: "يا إخوة إنني شاكر هاتين اليتين اللتين بهما أدخل ملكوت السماوات"، فلم يفهم الإخوة شيئًا، أما الأخ فرجع إلى نفسه وندم على خطيته.

❖ جاء عن الأنبا يحنس الذي من أسيوط أنه أقام ثلاثين عامًا في مغارة، حيث كانوا يقدمون له الطعام من طاقة، فالتف حوله كثيرون. فلما رأى أربعة لصوص كثرة الجموع ظنوا أن المغارة بها أموال كثيرة. فجاءوا ليلاً ليسرقوها. فإذا أرادوا أن يتقبوا الباب أصابهم العمى حتى الصباح، فقبض عليهم الشعب وأرادوا الذهاب بهم إلى الوالي ليقتلهم، أما هو فلأول مرة يتكلم منذ ٣٠ عامًا قائلًا في محبة: "إن لم تتركوا هؤلاء الناس فنعمة الشفاء تذهب عني".

بستان الرهبان

❖ عند إصلاح أحد ومنعه من ارتكاب الشرور ليحذر الإنسان لئلا في لومه الآخرين ينسى نفسه، لذلك ينبغي عليه أن يفكر في قول الرسول: "إذا من يظن أنه قائم فلينظر أن لا يسقط" (١ كو ١٠: ١٢). **ليكن صوتك في نغمات التخويف كصوت الأطفال.** **لتكن روح المحبة والوداعة ثابتة داخلك.** وكما يقول الرسول: "إن أنسبق إنسان فأخذ في زلة فأصلحو أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة، ناظرًا إلى نفسك لئلا تجرب أنت أيضًا. احملوا بعضكم أثقال بعض، وهكذا تمموا ناموس المسيح" (غل ٦: ١، ٢). وفي موضع آخر يقول: "عبد الرب لا يجب أن يخاصم، بل يكون مترفعًا بالجميع، صالحًا للتعليم، صابرًا على المشقات، مؤدبًا بالوداعة المقاومين عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق، فيستفيقوا من فخ إبليس إذ قد اقتنصهم لإرادته" (٢ تي ٢: ٢٤-٢٦). فلا توافقوا الشرير على شره بل انتهروه... ولكن لا تتكبروا في انتهاركم له بإهانتكم إياه.

القديس أغسطينوس

٢- انتهره في وداعة بلا غضب

حيناً للخطاة وترفقنا بهم لا يعني مراعاتهم ولا مدهانتهم، فلا نقدر أن نقول عن الخير شراً، أو عن الشر خيراً، لكن في حكمة، وفي الوقت المناسب، وبترفقٍ ووداعة يلزم أن نعمل على أن يتكشف الخاطئ خطيته، ويدرك حاجته إلى المخلص دون أن نغضب عليه ونثور ضده.

❖ لقد سمعنا عن أناسٍ يحاولون تبرير هذا المرض الخطير (الغضب) على الروح... بتفسيرهم الكتاب المقدس تفسيراً خطيراً، فيقولون بأن الغضب لا يكون ضاراً متى وُجه ضد المخطئين. فالله نفسه يغضب على الذين لم يعرفوه لكنهم ازدروا به. "حمى غضب الرب على شعبه" (مز ١٠٦: ٤). فلو فهمنا الغضب بالمعنى الحرفي في صورته المادية (أي كأنفعالٍ مثل البشر) لفهمنا معنى القول: "لماذا تتغافى يا رب؟ انتبه" (مز ٤٤: ٢٣) أنه ينام. وفهمنا في قوله "السموات كرسي والأرض موطئ قدميه" (إش ٦٦: ١) أن الله يجلس... فعندما نقرأ عن غضب الله لا نأخذه بالمعنى التافه للانفعالات البشرية، بل بالمعنى القيم الخاص بالله المتحرر من جميع الانفعالات. فنفهم غضب الله بكونه الديان والمنتقم من الأمور الشريرة التي تحدث في هذا العالم.

لذلك فمن ينبغي الكمال ويرغب في الجهاد قانونياً في الحرب الروحية، ينبغي عليه أن يتحرر من كل خطية: الغضب والسخط وينصت للوصية التي قالها الإناء المختار: "لينزع منكم كل غضب وكل سخط وصياح وكلام رديء مع كل خبث" (أف ٤: ٣١). فعندما يقول: "لينزع منكم كل غضب" لا يستثني شيئاً مهما كان لازماً أو نافعاً. فإن كان هناك حاجة فعلية المصلح أثناء معالجته لأخيه المخطئ الذي ربما يكون مريضاً بحمى خفيفة، عليه أولاً أن يحذر لئلا يورط نفسه في الغضب، فيسقط في مرض العمى الخطير، لأن من يريد أن يعالج جرح أخيه، يلزم أن يكون هو في صحة تامة، متحرراً من كل ضعفٍ، لئلا ينطبق عليه قول الإنجيلي: "أيها الطبيب اشف نفسك أولاً" (لو ٤: ٢٣)، أو لئلا عند رؤيته للقذى التي في عين أخيه لا يرى الخشبة التي في عينه، فكيف يستطيع بخشبة الغضب التي في عينه أن يبصر، ليخرج القذى من عيني أخيه؟! (مت ٧: ٣-٥).

القديس يوحنا كاسيان

❖ إن أردت أن تقلع القذى من عيني أخيك لا تستخدم آلة ضخمة مثل الكلام القاسي

والحركات غير المهذبة... بل استعمل آلة الطب، آلة تعليم اللطف وإصلاح صادر عن محبة ونصح أخوي.

القديس يوحنا الدرجي

❖ إن أردت أن توبخ إنساناً ووجدت الغضب قد تحرك فيك، فاشفِ ألمك أولاً، ولا تهلك نفسك في تخلص آخر.

القديس مقاريوس الكبير

❖ أزل عنك الكراهية حتى تستطيع إصلاح من تحبه. حسناً يقول الرب: "يا مرائي"، لأن الإنسان المحب هو وحده الذي له أن يشتكي من خطايا الآخرين، أما الشرير (الغضوب) فمتى اشتكى من الآخرين يكون مرائياً، إذ يظهر نفسه بصورة غير التي عليها... فهناك صنف من المتصنعين يشتكون من خطايا الآخرين كالكراهية والضعينة بقصد الظهور بمظهر أصحاب المشورة... لنحذر لئلا نسقط في هذا. كذلك إذا اضطررنا إلى الكشف عن أخطاء الغير أو انتهازمهم، فلننظر إلى أنفسنا إن كنا نرتكب نفس الخطايا أو سبق أن ارتكبناها... لذلك وجب علينا أن نكن المحبة لا الكراهية لمن نُكشف أخطأؤهم... ولنحذر لئلا نشتغل بخطاياهم... فلا نلوم الخاطيء ولا نننهره، بل نحزن بشدة على حالنا هذه، غير طالبين منه أن يطيعنا بل يجاهد معنا.

❖ لنخرج من أعيننا خشبة الحسد أو الحقد أو الرياء، حتى نتمكن من الإبصار، فنخرج القذى من عيني أحننا لننظر إلى القذى بعيني الحمامة اللتين لعروس المسيح (أنظر نش ٤ : ١) التي اختارها الله لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن، أي نقية لا غش فيها (أنظر أف ٥ : ٢٧).

القديس أغسطينوس

❖ لا يكن (تقويم أخيك) بغضبٍ ولا بحنقٍ، لأن كل الأشياء قد تتحقق بغير غضب. فابدل كل جهدك ألا يكون لك ذلك بغضبٍ. انظر فيما تريد أن تشفي آخر من أمراضه النفسية، تصير في أمراضٍ ليس لها برء وتعطي نقصاً لصلاتك. اهتم ألا تؤلم أحداً من الإخوة عندما تصلحه، وإلا تكون في كل زمانك غير متخلص من شيطان الكآبة، وتكون لك عثرة في كل حين الذي تصلي من أجله.

الأب أوغريس

❖ الذي يقوم الآخرين باستعماله الغضب ليس بمتواضع.

❖ الذي يحقد أو يحزن أو (يثور) من أجل الحق ما عرف الحق ولا الحق عرفه.

مار اسحق السرياني

❖ "أتضرع إليكم أيها الإخوة باسم ربنا يسوع المسيح أن تقولوا جميعكم قولاً واحداً ولا يكون بينكم انشقاقات" (١ كو ١ : ١٠). يجب أن يكون التبكي قليلاً وبلطف. هذا ما قلته دائماً، وهذا ما يفعله الرسول بولس، لأنه لما عزم على الدخول إلى موضوع ممثلي بالمخاطر كاد أن يقتلع الكنيسة من أساساتها، استعمل هذا الخطاب بوداعة كثيرة. لأنه يقول: "أتضرع إليكم"، وهو يتضرع باسم السيد المسيح، لأن تضرعه بمفرده غير كافٍ لإطاعته. إنه يستخدم اسم السيد المسيح مساعداً، أما اسمه هو فمحتقر ومهان. فالخطية تجعله قاسياً، لذلك إذا وبخته بقسوة، يصير في الحال من التوبيخ جافاً ووقحاً. وإن تلطفت معه انحنى عنفه وزالت منه الجسارة، ويصير نظره مطرقاً نحو الأرض.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٣- لا تزدري به

الخطية مخجلة للغاية، حتى بالنسبة لمرتكبيها، لذلك عندما سقط آدم وحواء شعرا بالخل من نفسيهما. فالخاطيء لا يحتاج لمن يزدري به، أي يخل منه، بل من يشجعه على التوبة، لذلك نجد ربنا يسوع حبيب الخطاة يحتضنهم رغم ازدراء المجتمع لهم، فلم يستنكف من الدخول إلى بيت رئيس العشارين، ولا منع الزانية من تقبيل قدميه، ولا نازفة الدم (النجسة) من لمس ثيابه، بل مدّ بنفسه يده ولمس الأبرص النجس.

❖ اهتم بالساقط أكثر مما كنت تهتم به في حالة سلامته. وتواضع أمامه قليلاً بمعرفة بعد إقراره.

القديس يوحنا الدرجي

٤- لا تأخذ موقف المعلم البار

ما أصعب على النفس الساقطة أن تجد إنساناً يقف أمامها موقف البار المتكبر الذي يأمر ويرشد وينتهر. إنها تحتاج إلى إنسان يشعر بضعفها ويحس بأحاسيسها. تحتاج إلى قلب مفتوح مملوء حباً فتفتح هي أيضاً وتمتلئ رجاءً، متقبلة محبة المسيح للخطاة.

أمثلة

❖ وهب الله قسيس القلاية أن ينظر الأرواح النجسة، فرأى جماعة من الشياطين خارج إحدى القلايات يرقصون ويغنون... فتنهد الأب قائلاً: "بلا شك يوجد داخل هذه القلاية راهب في أتون النار". لم يدخل الأب القلاية لينتهر الأخ على شروره ويوبخه على سقطاته، بل في محبة ذهب إلى الكنيسة وصلى عن الأخ الساقط ثم عاد إلى القلاية، وبدأ يقول له: "أيها الأخ أتيت إليك اليوم لعلني أجد عندك راحة، لأن القلاية التي أقيم فيها مملوءة بالشياطين، وقد اغتصبوها مني، لأنهم وجدوا فيها راحة، لأنني أطيعهم كل يوم بصنعي ما يريدونه، وأما اليوم فما استطعت البقاء معهم بسبب سوء فعلي، فأسألك أيها الحبيب من أجل المسيح أن تصلي عني كل يوم صلاة، لعلني أجد راحة، فقد أوشك الرجاء أن ينقطع مني". فلما سمع الأخ كلام الأب لطم على وجهه، وأثار التراب على رأسه قائلاً: "أيها الأب أنت مصباح البرية وضياؤها. وتقول لي هذا الكلام. آه لو علمت ما أنا فيه".

وإذا بدأ يخبره بسقطاته، ضرب له الأب مطانية راجياً ألا يذكر له شيئاً، وأن يذكره في صلواته.

فلما خرج الأب أخذ يصلي من أجله ويقول: "أيها الشقي، أنت قائم لتصلي لأجل القديسين. آه صل لأجل نفسك". وبدأ يبكي وينوح ويضرب مطانيات ويزرف الدموع الكثيرة...

❖ ذهب أخوان إلى مدينة ليببعا عمل أيديهما، فلما دخلا المدينة افترقا عن بعضهما البعض بحيلة من عدو الخير، فسقط أحدهما في الخطية، ولما انتهيا من عملهما التقيا، فقال الأخ للساقط: "هيا بنا نمضي إلى الدير" فأجابه الثاني بالنفي... قائلاً: "إنني لما افتترقت عنك سقطت في الخطية". فأراد أخوه أن يريح نفسه فلم يوبخه، ولا وقف موقف المعلم البار، بل قال: "أما أنت فلم تبق على خطية، لأنك اعترفت بخطيتك، وأما أنا فأني سقطت في الخطية، ومن عظم الكبرياء امتنعت عن أن أقول لك، ولكن امضي بنا إلى الدير لنطلب التوبة". فأتيا إلى الدير ومضيا إلى الآباء، وأعلماهم بالأمر وطلبا التوبة، فوضع عليهما تأديباً (قانوناً)، وكان الأخ الذي لم يرتكب الخطية ينفذ القانون، قائلاً: "هذا التعب ليس لي فيه شيء، بل أحسبه يا رب بدلاً من أخي". فلما نظر الله محبته لأخيه كشف لبعض الشيوخ أمرهما، حيث قيل له في الرؤيا: "من أجل محبة

الأخ الذي لم يخطئ غفر الله للذي أخطأ".

بستان الرهبان

(بتصرف)

٥ - هذبه على إنفراد

إن كان الراعي يلتزم بأن يوبخ الخاطيء وينتهره في محبة على إنفراد وليس أمام الآخرين أكثر من مرة حتى لا يجرح مشاعره ولا يدفعه إلى العناد، فكم بالأكثر يليق بالعلماني المحب متى أراد أن يوجه أخطأ أو ابنًا له أخطأ في أمر ما؟

❖ من ثقف أخاه وقدمه في خزانته (قلايته) وعلى إنفراد، فإنه يعالج شره الخاص، وأما من يبكت إنسانًا في مجمع فإنه يزيد جراحاته. من شفي أخاه خفية فقد أوضح قوة محبته، وأما من فضحه في أعين رفقاءه وأصدقائه فقد دل على قوة حسده. **المحب الذي يبكت ويؤنب خفية هو طبيب حكيم.**

مار إسحق السرياني

٦ - أخبر مرشدك

يقف بعض الإخوة موقف الحيرة عندما يسمع عن أخيه أنه أخطأ في خطية معينة... هل يخبر أب الاعتراف أم يعتبر هذا نسيمة أو إدانة؟ إن الحب يدفعنا بل ويلزمنا أن نخبر أب الاعتراف المهتم بخلاص هذه النفس، فنحن لا نصنع هذا من أجل إدانته ولا عن نسيمة بل في حب لأجل علاجه.

❖ إن كتمانك لخطية أخيك وعدم إخبار المرشد بها، ليس إلا حث للمريض إلى الموت الموجه إليه سريعًا. لأن الخطية الخفية المستورة بمنزلة قرحة باطنة، فإنها إذ أخرجت (صديًا) في الداخل لحقت بالقلب وقتلت المريض. فإن وجد من يظهرها ويستخرج سمها الكامن فيها، ولو كان ذلك بألم شديد، يكون قد أحسن إليه إحسانًا عظيمًا، ونعتبره لذلك محبًا عظيمًا.

وهكذا إن كان الأمر بالعكس، أي إذا لم يقبل أن يظهر تلك القرحة، ولا يستخرج منها موادها العفنة إلى الخارج شفقة عليه من التألم، فإنه يحسب عدوًا مبينًا، لكونه سمح بموته.

القديس باسيليوس الكبير

❖ لا تظن أنك تخطيء إذا كشفت هذا الأمر للرئيس، بل تخطيء إن لم تكشفه، لأن كشفك عن زلة أخيك يسبب له صحة وإصلاحًا، وأما سكوتك عنه فيعتبر دمارًا وهلاكًا. قل لي لو كان في جسد أخيك بثورًا، وهو لا يريد أن يُعالج ويُشفى خوفًا من الكي... أما كنت تُعتبر قاسيًا عليه إن سكت عنه؟ أما إن أشهرتها تكون قد صنعت معه فعل المحبة والرحمة. فإن كان هذا أمر الجسد، فكم بالحري إن كنت ما تفعله خاصًا بالبثور الروحية؟

القديس أغسطينوس

٧- اخدمه باستمرار

يهتم ربنا يسوع محب الخطاة بخدمتهم جسديًا وروحيًا، فهو الذي يُمطر على الصالحين والأشرار، بل يغمر الخطاة المبتدئين عنه بخدماته وعطاياه حتى يشعروهم بحبه لهم، فيتوقون إليه. فبالرغم من اهتمام ربنا يسوع بخلاص النفس وانتشار ملكوت السماوات، لكنه كان يطوف في كرازته، وخدمته المادية والنفسية تلازماته. "وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب" (مت ٤: ٢٣). على أن خدمته لم تكن مجرد راحة لمحبيه جسديًا بل كعلامة عن حبه، متى شعروا بها اهتموا بالملكوت السماوي.

أمثلة:

❖ جاء إلى القديس أخيلادوس ثلاثة شيوخ، وكان أحدهم سيء السيرة وقد طلب كل منهم منه شبكة، فاعتذر للثلاثين بسبب كثرة مشاغله، أما الثالث فللحال استجاب لطلبه. فسألاه الأولان: "لماذا لم تجبنا لطلبنا، بينما استجبت لطلب الثالث؟" فأجابهما قائلاً: "لقد رفضت طلبكما لأنني أعلم أنكما لا تحزنان، والحقيقة إنني لم أكن متفرغًا لعمل الشباك وقتئذ، أما ذاك فلو رفضت طلبه لقال في نفسه: إن هذا الشيخ قد سمع بخطيتي، لذلك لم يجب طلبي، فيحزن وينقطع رجاؤه، ففعلت هكذا حتى لا يهلك من الحزن واليأس".

❖ سأل أخ الأب بيمين: "إن رأيت أخًا سمعت عنه أمرًا رديًا، فهل من الواجب ألا أدخله قلايتي؟ وإن رأيت أخًا صالحًا فهل أفرح به؟" فأجابه الأب بيمين: "إن صنعت مع الأخ الصالح خيرًا، فاصنع ضعفه مع ذاك، لأنه مريض".

القديس بلاديوس

٨- استر خطاياها

دُعي الرب الديان بساتر الخطايا... ولما كان أمر إدانتنا لإخوتنا من الخطايا المشاعة، لذلك فضلت الحديث عن الإدانة، وشروعها، وعلاجها الخ، كموضوعٍ مستقلٍ.

٩- الصلاة من أجله

عَبثًا يحاول مخلوق ما، مهما حسب في نفسه من قوة الشخصية واللباقة في الحديث...، أن يحوّل شريعًا عن طريقه، فهذا من عمل الخالق نفسه القادر على تغيير الطبيعة البشرية الساقطة. فخدمة العهد الجديد هي خلق إنسانٍ جديدٍ بالمعمودية، وتجديد المعمودية بالتوبة، وكلا العاملين يتطلبان تدخل الروح القدس.

فالمؤمن مهما بدا ناجحًا، مهما كسب من أناسٍ لن تجدي خدمته ما لم تؤيدها صلوات كثيرة، أي ما لم يسلمها للخالق، ليعمل صاحب الخدمة ذاته في نفوس أولاده. هذا ما علمنا إياه صاحب الكرم ذاته، الذي كان يقضي نهاره في الخدمة وليله في الصلاة. وهذا ما تعلمنا إياه أمنا الكنيسة، فنقرن كل قراءاتها في قداس الموعوظين من بولس وكاثليكون وأبركسيس ومزامير والإنجيل بصلواتٍ خاصة، حتى يفتح الرب أذهان الموعوظين. أقول الحق إن كنيسةنا في عبادتها وخدماتها كنيسة صلاة.

❖ ليعلموا أن الذئب سيرعى مع الخروف، وأن الأسد سيأكل تبنًا مع الثور. الرب قادر أن يحول هذا الأسد إلى حمل وديع... صلوات جماعتنا تنفعنا كثيرًا، إذا كانت صادرة من قلوب خاشعة.

❖ أتشاء أن تهذب أحدًا؟ متى رأيته مهملاً في خلاص نفسه ابك إلى الله، وتضرع بشأنه، واصحبه على انفراد وأرشده إلى ما يرضي الله ودبره بتواضعٍ وخضوعٍ، كما كان يفعل الرسول بولس، حيث يقول: لئلا "يذلني إلهي عندكم إذا جئت أيضًا وأنوح على كثيرين من الذين أخطأوا من قبل ولم يتوبوا عن النجاسة والزنا والعهارة التي فعلوها" (٢ كو ١٢: ٢١). فافعل هكذا واطهر صدق المحبة للأثيم... واحذر أن تدينه بأنه قد أخطأ وسقط، بل اسجد له على الأرض، وقبّل يديه ورجليه، ولا تستحي من هذا، لأن هذا يسهل عليك إن كانت لك غيرة حارة من أجل شفاء الناس.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا تمقت الخاطي، لأننا جميعًا خطاة آثمة، وإن تحركت عليه من أجل الله، فابك وصل

لأجل نفسه، ولا تبغضه يا هذا، بل جدير بك أن تبغض زلاته، وتتضرع من أجله لتكون مشابهاً للمسيح، لأنه اتكأ مع الأثمة... أما ترى كيف انتحب على أورشليم؟!

❖ الصلاة التي تُقدم لله من القديسين لأجل الخطاة، تشبه الدواء الذي يقدمه الطبيب للمرضى.

مار إسحق السرياني

❖ ليس فيه غيره الله حقاً إلاً ذاك الذي يشتهي أن يمنع الشرور التي يراها... وإن كان لا يستطيع ذلك، فليُنح باكياً نادياً، كما كان صموئيل النبي يندب شاول الملك حين أسف الله على تملكه على إسرائيل (١ مل ١٥: ٣٥).

القديس أغسطينوس

١٠- احذر الجدل معه

إذا رأى العدو نفساً محبة، تلتهب شوقاً نحو خلاص إخوتها، حاول إخمادها بالمناقشات الغبية، الخاصة بالأُمور الإدارية أو مشاكل الكنيسة عامة أو أخبار الرعاة أو حتى النقاش الجدلي العقائدي الجاف.

أقول، إن ظهور الطوائف قد ساهم في خلق هذا الجو، حتى حفظ كثير من الصبيان من نصوص الكتاب المقدس، لا لأجل الحياة بها، بل لمجرد الجدل والنقاش وإقناع الغير أو حتى لمجرد التدريس بها، وكأن المسيحية فلسفة نظرية تحتاج إلى فلاسفة يدافعون عنها ويؤيدونها.

على هذا، كن يقظاً في حديثك وعظائمك وأثناء زيارتك، لا أن تدافع عن العقائد كمتعصبٍ أو كمحامٍ بل اشهد لعقائد كنيستك بالسيرة الطيبة والحديث الروحي الذي نعيش فيه. فالكنيسة في قرونها الأولى كانت تعيش في عقائدها وطقوسها، ولم تكن محتاجة إلى من يدافع عنها. أما الآن فقد طغى الغرب بماديته على بعض المسيحيين، حتى صاروا في حديثهم الروحي والتفسيري والعقائدي والطقسي والتاريخي جافين... وقد كثرت الكتابات الجدلية والتحليلية الجافة التي لا تكسب نفساً للمسيح.

لا أعني بهذا ألاً نفهم تفسير الكتاب وطقوس الكنيسة وعقائدها، لكن لنفهم هذا كله كحياة نعيش بها ونختبرها. الخطورة هي أن ينشغل الإنسان بالمناقشات والجدال، فلا يرى ما يراه القليلون... لذلك يقول الرسول: "وعبد الرب لا يجب أن يخاصم، بل يكون

مترفعًا بالجميع صالحًا للتعليم صبورًا على المشقات، مؤدبًا بالوداعة المقاومين عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق" (٢ تي ٢: ٢٤، ٢٥).

❖ كما أن المياه الأسنة تجعل حتى أحسن الخمر غير صالحة للشرب، وكذلك المناقشات الشريرة تفسد الناس الفضلاء في السيرة. ولذا حينما تقابل إنسانًا يحب المجادلة ويتناقش معك ضد ما هو حق وواضح من ذاته فاقطع الحديث وانسحب عنه سريعًا.

القديس انطونيوس الكبير

١١. كن مستعدًا للمجابهة

يليق بالمؤمن أن يهرب من المجادلات الغبية التعصبية العمياء أو التي غايتها السخرية، لكن بالأكثر يليق به أن يكون متمسكًا بإيمانه عالمًا مكنوناته، مستعدًا لمجابهة من يسأله عن سبب الرجاء الذي فيه.

❖ إن كان (غير المؤمنين) متيقظين هكذا حتى يقولون بهذا ضدنا، أي عفو نستحقه نحن إن كنا لا نعرف حتى كيف نرد الهجمات التي علينا؟

❖ اسمع ما يقوله الرسول: "كونوا مستعدين لمجابهة من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم" (١ بط ٣: ١٥).

❖ ينصحنا بولس بنفس الطريقة قائلاً: "لتسكن كلمة المسيح فيكم بغنى" (كو ٣: ١٦).

❖ يجيب الكسالى بهذا: "طوبى للنفس البسيطة" "من يسلك ببساطة يسلك في أمان" (أم ١٠: ٨)

❖ لم يقصد الكاتب بـ"البسيط" الإنسان الغبي أو الجاهل، بل الإنسان الذي يتحرر من الشر، غير صانع للإثم، الحكيم.

❖ لا لم يكن الأمر هكذا وإلا باطلاً قيل: "كونوا حكماء كالحيات، وبسطاء كالحمائم" (مت ١٠: ١٦).

القديس يوحنا الذهبي الفم

١٢ - علمه وهذبه بالحب والقُدوة

المؤمن المحب لأخيه أو غير المؤمن لا يهذبه الوعظ الكثير والوصايا قدر ما يعلمه الحب والقُدوة الحسنة. وكما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم إن العمل المعجزي الذي به تجتذب النفوس للسيد المسيح ليس صنع أعاجيب وأشفية، إنما بالأكثر اتساع القلب بالحب والسيرة النقية الطاهرة التي تنير وسط العالم، والتي تمجد الله وتملح النفوس.

❖ إلى الآن لا يوجد شيء يعثر الوثنيين إلاّ عدم وجود الحب!

❖ لا تقدر المعجزات أن تجتذب الوثنيين مثل طريقة الحياة، وليس ما يجعل الحياة مستقيمة مثل الحب!

❖ ليس شيء يقيم احترامًا في الوثنيين مثل الفضيلة، ولا شيء يعثرهم مثل الرذيلة.

❖ نحن السبب في إبقائهم في الخطأ، إذ يعجبون بتعاليمنا ويتعثرون بسلوك حياتنا¹.

القديس يوحنا الذهبي الفم

نستطيع أن نتلمس أهمية القدوة الحسنة من الرسالة التي كتبها البابا السكندري ثاؤنا إلى أحد أبنائه الذي يعمل في البلاط الإمبراطوري إذ جاء فيها: [إن الذي يعظ بالكلام لا بالأعمال يقدم النفوس نحو الخلاص باليد الواحدة، ويؤخرهم باليد الأخرى. بواحدة يبني، وبالأخرى يهدم. هؤلاء هم الكتبة والفريسيون الذين وبخهم السيد بقوله بأن الويل لمن يقول ولا يعمل، لأن مثل هؤلاء لا يحركون قلوب الخطاة، ولا يأتون في تعاليمهم بالثمار.]

❖ لا السماء والنهار ولا الليل تمجد الله كما تمجده النفس القديسة. فكما أنه إذا تأمل إنسان زينة السماء يقول: "المجد لك يا الله فيما صنعت"، هكذا إذا ما رأى الفضيلة في إنسان يمجده بالحري كثيرًا.

❖ من الذي لا يذهل عندما يرى إنسانًا يشاركه في الطبيعة البشرية لكنه يتصرف بين الناس كالماش؟ فلا يميل قط نحو الشهوات، بل أشد صلابة من الحجر الماس، إذا وُجد بين النار والحديد والوحوش، يغلبهم بحسن العبادة، وإن شتم يبارك، وإذا قالوا عنه شيئًا رديئًا يمدحهم، وإن أساء إليه أحد يصلى من أجل الذين يضطهدونه؟! هذه وأمثالها تمجد أكثر من السماوات... لأنهم إذا أبصروا قديسًا مظهرًا الحكمة يستحون منه وينسبون الويل لأنفسهم لأن مشاركتهم في الطبيعة صار أعلى منهم أكثر من علو السماء عن

¹ In Ioan hom 72: 5.

الأرض. وهم بهذا يلتزمون بإدراك أنه توجد قدرة إلهية صنعت هذا.

❖ فلنقدمهم بمعيشتنا، فإن كثيرًا من العوام أدهشوا عقول الفلاسفة. فإذ أوضحوا فلسفة الأعمال وسيرتهم وفضيلتهم، اظهروا صوتًا يفوق هتاف البوق، وأوفر بلاغة من اللسان.

❖ عندما أنطق بما يجب أن تحتقره ثم أصنع شرورًا كثيرة باليوناني (الأممي)، فكيف يمكنني أن أجتذبه إلى الإيمان؟ إنني أطرده بالأقوال والأعمال. لذلك فلنقتنصهم بسيرتنا وتصرفاتنا.

❖ ذاك الذي أقوله دائمًا إن من يعلم الفضيلة ويتحدث عنها، يجب عليه أن يعمل بها في ذاته أولاً، فيرغبه السامعون.

❖ سبيلنا أن نكون مرغوبًا فيهم حتى نرد اليونانيين (الأمميين) إلينا بصدق وإيمان. هذا يتم إذا ما كنا لا نصنع رديًا، بل نكون مستعدين أن نحتمل الرديء.

❖ إنه ولا وقتئذ (في أيام الرسل) آمنوا بآيات فقط بل بالسيرة، لأنه يقول: "قليضيء نوركم قدام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة، فيمجدوا أباكم الذي في السماوات" وكان للجميع قلب واحد ونفس واحدة".

❖ عندما يكون بعضنا متوانٍ في الفضيلة... كيف نملك على الأعداء؟ لأنه ولو وجدت المعجزات إلى أننا لا نستطيع أن نخضعهم.

❖ من يصغى إلينا من الذين هم في الخارج إذا ظهرت رذائل لنا؟ فالسيرة الحسنة الطاهرة تسد فم الشيطان نفسه وتبكمه.

❖ هذه الأقوال أتحدث بها للرؤساء والمرؤوسين وقبل الكل لنفسي، لنوضح سيرة توجب التعجب.

❖ أتريد أن تعرف كيف يتمجد الله بسيرة عبده، وكيف يكون ذلك أفضل من صنع المعجزات؟! لقد طرح بختنصر الثلاثة فتية في الأتون، وإذ رأى أن النار لم تمسهم قال: مبارك الله الذي أرسل ملاكه وأنقذ الفتية من الأتون، لأنهم اتكلوا عليه... فتمجيد الله لم يكن مجرد حدوث المعجزة، بل لأجل سيرة من ألقوا في الأتون... إذ هي ليست بأقل من حدوث المعجزة. لأن قبولهم الدخول في الأتون معجزة ليست أقل من نجاتهم منه. لقد احتقروا الموت، لأن المسيح كان عتيذًا أن يظهر معهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

احذر العثرة لأجل خلاص أخيك

❖ "فيهلك بسبب عملك الأخ الضعيف، الذي مات المسيح من أجله" (١ كو ٨: ١١). يوجد شيء مخيف أكثر من كل شيء، وهو أن المسيح لم يمتنع عن الموت من أجل أخيك، وأنت أفما تطيق أن تتنازل من أجله؟! إنه لم يطالبك أن تموت من أجله، ولكن الذي مات المسيح لأجله، أما تحسبه شيئاً، حتى أنك ولا من مائدة نجسة تبتعد عنها من أجله، بل تتركه يهلك بعد هذا الخلاص، بسبب طعامك. إنه لم يقل إنك تهلكه بسبب كمالك أو معرفتك بل بسبب طعامك، وبهذا تكون زلاتك أربعة عظيمة وهي أنه أخوك، وهو ضعيف، وقد اعتنى المسيح به حتى مات من أجله، وبعد هذا أهلكته بسبب طعامك.

❖ هكذا إذ تخطئون إلى الإخوة، وتجرحون ضميرهم الضعيف، تخطئون إلى المسيح، لذلك إن كان طعام يعثر أخي، فلن آكل منه إلى الأبد لئلا أعثر أخي" (١ كو ٨: ١٢، ١٣). فأأي شيء يشكك أخي، ولو كان مسموحاً به لنا في سلطاننا أن نأكله، لكنني امتنع عنه لا يوماً بل كل أيام حياتي.

❖ هذه الأقوال لم يقلها الرسول لأهل كورنثوس فقط، بل يحق أن ينطق بها لنا نحن الذين نحترق خلاص القريب، فنقول الأقوال الشيطانية التي تهلكه: "ماذا يهمني إن شك فلان أو هلك فلان؟" إنها أقوال قاسية لا إنسانية فيها، بالرغم من أن الهلاك بسبب ضعف المتشككين، وليس منا.

❖ إننا قد ننحط حتى نخطئ بما يشكك الأقوياء، كأن نضرب ونخطف ونستعبد الأحرار... فمن لا يشك بسبب هذه الأعمال؟!

❖ هذه الأقوال إذا ما سمعناها يا أحبائي، لا نستهيئ بمن يتشككون، وإلا نكون عائقاً لبشارة المسيح... فإن اتفق أن ما قد سمح لك به يسبب ضرراً لأحد، امتنع عنه، كما فعل بولس أيضاً، إذ لم يأخذ ما قد سُمح له المسيح أن يأخذه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

صور كنسية لرب حي

١- محبة سجين لخلص قاضيه

سمع الرسول بولس السجين بحضور أغريباس الملك إلى قيصرية، وأدرك أنه سيلتقي معه في الغد في محفل لسمع شكواه. لم ينشغل الرسول المحب بإعداد الدفاع عن نفسه، ولا قضى الليل متوسلاً أن يعطيه الرب نعمة أمام الملك لعله ينقذه ويعتقه من السجن، بل كان طوال ليلة المحاكمة مشغولاً بالصلاة من أجل خلاص نفس الملك ونفس فستوس الوالي وجميع الحاضرين.

❖ اسمع ما يقوله بولس للذين اقترب وقت محاكمته في ذلك القضاء الذي لا يعرف الحق: "إني أحسب نفسي سعيداً أيها الملك أغريباس إذ أنا مزعم أن أحتج اليوم لديك عن كل ما يحاكمني به اليهود" (أع ٢٦ : ٢). فكلماته هذه لم تكن لإطرائه إنما بسبب وداعته وحبه، لكي يربح أحداً ويجتذبه، حتى أراد ربح القاضي نفسه.

❖ فلما غلب الملك من هذه المحبة والوداعة اعترف بصوت جهوري أمام المجمع قائلاً: "بَلِيلِ تُقْنَعْنِي أَنْ أَصِيرَ مَسِيحِيًّا". فَقَالَ بُولُسُ: "كُنْتُ أَصْلِي إِلَى اللَّهِ أَنَّهُ بَلِيلٌ وَبِكَثِيرٍ لَيْسَ أَنْتَ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً جَمِيعُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَنِي الْيَوْمَ يَصِيرُونَ هَكَذَا كَمَا أَنَا مَا خَلَا هَذِهِ الْفُيُودَ" (أع ٢٦ : ٢٩).

❖ انظر كيف تحرر حديثه هذا من التملق، فإنه لم يقل: "إنني لم أقصد هذا"، بل يقول "كنت أصلي ليس من أجلك فقط، بل من أجل جميع الذين يسمعونني"... يا لها من نفسٍ صارت مجنحة بالحب السماوي؟!

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢- محبة أطفال لإخوتهم

الرب الذي ساد بين الأطفال المسيحيين فيما بينهم وحبهم للآخرين جذب أنثاسيوس للكنيسة... فرأى كاهناً يعمد واشتاق أن يكون مثله. أخذ في محبة يقوم بذات الدور على الشاطيء، فرآه البابا الكسندروس، الذي دهش منه وأعجب به، فاستدعاه وإذ رأى استعداداه لم يتركه، بل في محبة تلمذه، فيخرج لنا أنثاسيوس البطريرك الذي استحق أن

يدعى بالرسولي مبدداً هرطقة الأريوسيين.

والقديسة أجنس في الثانية عشر من عمرها عشقت ربها وبشجاعة نادرة هزت قلوب الوالي وجنوده والمشاهدين لها أثناء استشهادها. وبسبب محبتها آمن كثيرون واستشهدوا على اسم القادي.

وفي العهد القديم شهدت الفتاة الصغيرة المأسورة كعبدة لدى نعمان السرياني. فبالرغم من تغريبها عن أرضها وأهلها وعشيرتها وحرمانها من وسائل العبادة العامة، لكنها بحبها ووداعتها كانت موضع ثقة الكل حتى استمعت لها سيدتها وقبلت أن تخبر زوجها الأبرص لكي يذهب إلى أورشليم ويشفيه أليشع نبي الله.

٣- محبة مسبيين لشعبهما

عاش مردخاي الأسير عاملاً في القصر الملكي أما قلبه فكان مع شعبه يشاركهم أحاسيسهم ويتضايق لآلامهم فلم يترك فرصة تفلت من يديه لم يخدم فيها، وبدونه ما كانت استير قد تشجعت وأنقذت شعبها.

ونحميا المسبي والعامل في القصر كان دائم السؤال عن إخوته، وإذ سمع إنهم في شر عظيم وعار يقول: "جلست وبكيت ونحت أياماً وصمت وصليت أمام إله السماء". لم يكن نبيًا ولا قاضيًا ولا كاهنًا، لكن الحب دفعه أن يعرض نفسه للإعدام إذ قابل الملك وهو مكمد الوجه من أجل إخوته، وعمل الكثير رغم المقاومات الداخلية والخارجية.

٤- محبة الشهداء لخلاص قاتليهم

تقدم رب الشهداء إلى الصليب من أجل الحب، وعلى الصليب أعلن محبته للبشرية قائلاً: "يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون". واسطفانوس الشهيد الأول سلك بروح ربه فقال في لحظات رجمه: "لا تقم لهم هذه الخطية..." وكثير من الشهداء كانوا يطلبون زيادة فترة الاستشهاد لتكون سبب خلاص وبركة للمضطهدين أنفسهم.

هكذا لم تشغل الآلام والعذابات الشهداء عن بهجتهم برينا يسوع وحبهم حتى لمضايقيهم. بالحب الذي حملوه حتى نحو مضطهديهم تحولت الذئاب الخائفة إلى خراف بعد ما افترست الخراف، وكما يقول الآباء:

❖ يقول ربنا يسوع: "ها أنا أرسلكم كغنم وسط ذئاب" لا تقتربوا من الذئاب بل تكونوا في

وسطهم... لقد كان هناك قطيع من الذئاب وقلة من الغنم وإذ افترست الذئاب الكثيرة الغنم القليل تحولت الذئاب وصارت غنماً.

❖ لقد كان شاول (الطرسوسي) عدوًا للكنيسة، وكانت الكنيسة تقيم صلوات من أجله ليصير صديقًا لها، فلم يكف شاول عن اضطهاد الكنيسة فحسب، بل وصار يجاهد لمساعدتها... لقد أقيمت الصلوات ضده، لكنها ليست ضده كإنسان بل ضد افتراءاته... فلنكن صلواتكم لا ضد أعدائكم بل ضد افتراءاتهم حتى تُباد، أما هم فيحيون، لأنه إن مات عدوكم تفقدونه كعدو، لكنكم تخسرونه كصديق أيضًا. أما إن ماتت عداوته، فتفقدونه كعدو وفي نفس الوقت تكسبونه صديقًا^١.

القديس أغسطينوس

❖ ما هذا الذي تقوله: أيشتمك وأنت تحبه؟! أيريد أن يقتلك وأنت تحسن إليه؟!

❖ هل هذه الأمور تجعلك تحبه أكثر مادامت المحبة من أجل السيد المسيح؟!

❖ إن حالة العدو تحتاج إلى مودة أكثر وملاحظة أفرط^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

هكذا كانت الكنيسة الأولى، وهكذا كانت تعلم أولادها أن يحبوا الجميع، ويشتهوا خلاص الكل حتى المضايقين والمضطهدين لهم.

٥- محبة عذراء لخالص شاب

نستطيع أن نتلمس مقدار التهاب كل قلب نحو خلاص الكل ما خبرنا به التاريخ الكنسي عن فتاة محبة عفيفة هادئة في منزلها، أحبها شاب فلم يكف عن التردد على منزلها... فلما شعرت بذلك حزنت جدًا على نفسه التي أسرها عدو الخير.

وفي إحدى المرات إذ جاء كعادته فتحت له الباب وكان معها مخراز، فقالت له: "ما الذي أتى بك إلى هنا يا إنسان؟" أجابها "هواك يا سيدتي".

قالت له: "وما الذي تهواه في؟"

أجابها: "عيناك فتنناني، فإذا أبصرتك التهب قلبي".

وللحال أعلنت محبتها بأن ضربت المخراز في إحدى عينيها وقلعتها وألقته

^١ Ser. on N. T. Lessons

^٢ المؤلف: القيم الروحية لعيد النيروز، طبعة ١٩٦٥، ص ٦٠.

بصرامة، وأسرعت في اقتلاع الأخرى لو لم يسرع ويمسك بيديها.
هكذا كشفت عن حبها لخلاص أخيها ولو أدى الأمر إلى اقتلاع عينيها اللتين
تعثّر بهما، وتسببان له فقدان أبعده.
لقد شعر الشاب بمحبة هذه الفتاة لخلاصه، فندم على ما فرط منه، وللحال خرج
إلى البرية وترهب.

الحب والعطاء

حبنا لآخوتنا الفقراء

١. مفهوم العطاء في المسيحية.
٢. عطاء بلا حب.
٣. فاعلية العطاء.
٤. يا لعظمة الفقراء!
٥. حول خدمة المساكين.
٦. بين العطاء والتقدم.
٧. يا لعظمة العطاء.
٨. العطاء والرهبنة.
٩. التوحد والعطاء.

مفهوم العطاء في المسيحية

يلذ لنا أن نذكر دومًا أن الإنسان مخلوق على صورة الإله "المحبة"، يود أن يحب ويُحَب، ولا يقدر أن يشبع إلا بالحب الحقيقي العميق!

والمسيحية في جوهرها لا عمل لها أكثر من أن تقدّم للمرء ينبوع حب فياض، خلالها يتلمس محبة الإله "محب البشر"، ويتقبل إمكانية الحب ليردّ الحب بالحب.

بهذا المفهوم نتحقق ما في المسيحية من طقوس وعبادات وعقائد وقرارات وأسهار وأتعاب، أنه ليس إلا بخور حب متقد يرفعه الإنسان للإله الذي سبق فأعلن له عن محبته حتى الموت موت الصليب.

وللصدقة شأن خاص وفهم روحي فريد، سره أن المرء انشغل قلبه بالعالم وتفاعل معه، فأحب العالم وخاصة المال بديلاً عن الإله، إذ صار موضوع انشغاله وهمه وحبّه. لذلك أعطى رب المجد للصدقة اهتماماً خاصاً حتى قدّمها عن الصوم والصلاة (مت ٥، ٦). ليس لاحتياج الرب أو الكنيسة أو الرعاة، إنما تحمل في طياتها عودة بالقلب عن الارتباط بالعالم والمادة، لكي يتحرّر منطلقاً تجاه الله والحياة الأبدية.

بمعنى آخر، الصدقة تحمل في مظهرها التخلي عن الماديات وتقديمها لربنا يسوع في شخص إخوته المحتاجين، وفي جوهرها تحمل تقريباً للقلب الداخلي عن محبة العالم وامتلأته بمحبة ربنا يسوع الساكن فيه.

هذا هو المفهوم الأساسي للصدقة، وإن كانت تحمل من خلال هذا المفهوم مفاهيم أخرى منبعثة منه نذكر منها:

١. إنها بخور حب متقد يقدم للإله.
٢. إنها تحرر من عبودية العالم.
٣. هي مشاركة لأعضاء جسد الرب المتألّمة.
٤. الصدقة وزنة يلزم إضرامها بأمانة.
٥. الصدقة علامة صادقة عن التوبة.

١. الصدقة بخور متقدّم يقدم للإله

أرسل الرب تلميذه ليحضر الأتان والجحش ابن أتان، قائلاً لهما إن سألهما صاحبهما يقولان له إن "الرب محتاج إليهما". وفي حديثه مع السامريّة أظهر الرب نفسه محتاجاً قائلاً: "أعطيني لأشرب". وعند صندوق النذور وقف الرب منتظراً فلسيّ الأرملة. في هذا كله كان الرب محتاجاً، لا إلى العطية بل إلى قلب الإنسان العاطي، إذ يشتم فيه حباً طيباً وبخوراً ذكياً.

على هذا تُقاس الصدقة في عيني الرب حسب الحب الدافع لها. فقد يهب المرء كل أمواله للمساكين، ويحتجز قلبه عن الرب، فتكون صدقته كصدقة الفريسي الذي ظنّ فيها أنها قادرة أن تبرّره، وصدقة حنانيا وسفيرة اللذين أعطيا نصيباً من ثمن الحقل للرب، لكنهما احتجزا قلوبهما مشغولاً بالجزء الباقي مع حب الكرامة أمام الناس. أما من يقدم قلبه أولاً فيطوّبه الرب كتطويب الأرملة التي أعطت الفيلسفين، مقدّمة قلبها كله له، والمرأة التي قدّمت قارورة طيب كثيرة الثمن بالرغم من نجاساتها الماضية. لهذا لم يطلب ربنا من زكّا صدقة، إنّما ملأ قلبه حباً، فصرخ للحال قائلاً: "ها أنا يا رب أعطى نصف أموالى للمساكين، وإن قد وشيت بأحد أردّ له أربعة أضعاف" (لو ١٩: ٨).

ولنفس السبب لما طالب بولس الرسول أهل فليبي بالصدقة، قال: " ليس إنني أطلب العطية بل أطلب الثمر المتكاثر لحسابكم... قد امتلأت إذ قبلت من أبفروتس الأشياء التي من عندكم نسيم رائحة طيبة ذبيحة مقبولة مرضية من عند الله" (في ٤: ١٧-١٨).

هكذا أيضاً تطلع الآباء الأولون إلى الصدقة فقالوا عن فلسيّ الأرملة:

❖ حبها كان أعظم من قربانها (فلسيّ الأرملة)، لأن الحب يحسن أكثر من الذبائح الكاملة... من أجل هذا غلبت بقربانها الأغنياء.

كهنة الشعب يقبلون النذور من الذين يتقدمون بكثرة، ورب الكهنة جلس كسادج لم يشعر به. الأحبار الشريهون يهتمون بالذبائح، وربنا طلب الحب داخل النفس... ابن الإله يفرح بالذي فيه الحب.

❖ استطاعت الأرملة أن تعرف أن العلي غير محتاج إلى قربان، بل يطلب سبباً ليغنيهم. فكّرت أنه لو أراد لجعل التراب ذهباً، ومياه البحر مرجئاً، وقالت في نفسها أنه لا

يطلب الذهب لاحتياجه، بل ليشاركه الناس بقرابينهم. لأن الذهب والفضة له، فكما هو مكتوب إن كانت الذبيحة عظيمة وحب مقربها قليل يردلها.

هذه وحدها عرفت أن تفرز وتقرّب بقلب طاهر نذرًا كاملاً بإفراز (تميز)... بحبٍ نقيٍّ عرفت كيف تقرّب!

هذه قرّبت نذرها الكامل أفضل من يعقوب، لأنها لم تفرز العُشْر من مقتنياتها، بل أحبت هذه الطوباوية الرب أكثر من نفسها!

القديس مار يعقوب السروجي

وعندما حثنا القديس يوحنا الذهبي الفم على الصدقة ركّز أنظارنا تجاه محبة الإله قائلاً:

❖ كثيرًا ما نعاني من شدائدٍ عسيرةٍ بسبب محبتنا لأصدقائنا وأقربائنا، محتملين خسائر جسيمة... أمّا لأجل محبة الله فلا نسمح بأقل كمية من الفضة! أفلا نقبل أن نرفض الأمور الزائلة لأجل محبة يسوع الذي قدّم نفسه للموت عنا، وسفك دمه الكريم بسببنا نحن عديمي الشكر!

لقد وضع المسيح ذاته للموت عنا، والفقير يموت جوعًا ونحن نرى ذلك لكننا نحول وجهنا عنه، ونهرب منه. وكان الأولى بنا ألا نقدّم فضة ومقتنيات لأجل الإله، بل لو كان لدينا ربوات الأنفس لقدّمناها له!

❖ سيّدك أهل الكل لهذه المائدة، مع أنها مهوبة وتغوق كل الموائد وتسمو عليها، وأنت أتظن أن الفقراء غير مستحقّين مائدتك الصغيرة الحقة؟!...

سيّدك أسلم ذاته من أجلك، وأنت أمّا تعطي الفقير طعامًا لأجل ذاتك؟!...! المسيح أعطى الكل على السواء قائلاً: "خذوا كلوا". ذاك أعطى جسده للجميع على السواء، وأنت أمّا تعطي الكل على السواء ولا حتى الخبز العادي؟!!

القديس يوحنا الذهبي الفم

بهذا الفهم للصدقة يفرح المسيحي بالأكثر عندما يعطي لمن هم أكثر احتياجًا، المدعوين بالأكثر "أصاغر"، مقدّمًا عطيته لربنا نفسه أخيهم البكر، وكما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم:

❖ بقدر ما يكون الإنسان من "الأصاغر" هكذا بالأكثر يأتيك المسيح خلاله لأن من

يعطي إنسانًا عظيمًا يفعل هذا بزهو، أما من يقَدِّم للفقراء فبنقاوة يفعل هذا أجل المسيح^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الآن يقول بالنبى: "هذه هي راحتي، أعطوا راحة المتعبين" (إش ٢٨: ١٢ LXX). هذه راحة الرب. آه أيها الإنسان سوف لا تحتاج إلى القول: "اغفر لي"؛ أعط راحة للمتعبين، أزر المرضى، وأعط الفقراء، فإن هذه الأعمال هي حقيقة صلاة. كما سأشرح لك يا عزيزي، أنه في كل مرة تمارس راحة الرب هي صلاة^٢.

القديس أفرايم

٢. الصدقة تحرّر من عبودية المال

الصدقة هي حب لربنا يسوع، لأن الحب يلزمه بذل. فالرب يسوع أحبنا حتى بذل جسده عنا على الصليب. ونحن إذ نحبه نشاق إلى بذل أجسادنا وكل ما وهبنا من أجل محبوبنا. نتوق أن نتقدّم على مثاله للذبح في كل يوم. نبذل كل ما في استطاعتنا من صدقة وصوم وأسهار ومثابرة مع نية تقديم وبذل الجسد كله من أجله.

بهذا المفهوم نقول إنه إن كانت الصدقة من الناحية الإيجابية هي انشغال القلب بكامله بشخص السيد، فمن الناحية السلبية الملازمة للإيجابية هي تحرّر له من سلطان المادة وعبوديتها، هي إعلان عن ملء بمن أحبه وتقريغ ممّا يراه تافهًا! الصدقة في حقيقتها رفع القلب عن الأرضيات نحو السمائيات. وكما يقول الآباء:

❖ إن دفن الإنسان كنزه في الأرض، يطلب قلبه الأرض السفلية، أما إذا حفظ كنزه في السماء فسيكون قلبه مرتفعًا.

لذلك إن أراد المسيحيون أن "يرفعوا قلوبهم" إلى فوق يلزمهم أن يدّخروا ما يحبّونه هناك.

فبالرغم من وجودهم بالجسد على الأرض، إلا أنهم يقطنون مع المسيح بالقلب. وإذا صعد رأس الكنيسة أمامها، هكذا يليق بالمسيحي أن يصعد قلبه قدامه. وإذا تذهب الأعضاء إلى حيث ذهب المسيح قدامها، هكذا يذهب كل إنسان في القيامة إلى حيث تقدّمه قلبه.

¹ In Acts, homily 45.

² Demonstrations 4:14.

لنذهب إلى السماء بذلك العضو (القلب) الذي يستطيع الذهاب الآن، وعندئذ سيتبعه إنساننا الكامل، ويذهب إلى حيث ذهب القلب....
ينبغي أن يُهزم مسكننا الأرضي، فإن مسكننا السماوي أبدي، لنرسل أمتعتنا مقدّمًا إلى حيثما نستعد للرحيل^١.

القديس أغسطينوس

٣. الصدقة مشاركة لأعضاء الجسد المتألّمة

إذ نحمل في أعماقنا ربّنا يسوع، بل صرنا جسده المقدس، لذا يليق بنا أن نحس باحساساته، فنشاركه آلام أعضائه كما لو كانت آلامنا، نتوق أن نحملها عنهم. وهكذا نتمثل برّبنا يسوع المسيح الذي حمل تعبيرات المعيّرين وأثقال المحتقرين والمردولين، فبكى مع الباكين، وشعر بضغوط الساقطين، وشارك الفرحين.

هذه هي مشاعر ربّنا يسوع فيك، فإن تركته يعمل فيك بالعطاء الذي هو حب حي للمحتاجين وعطف داخلي عميق، يكشف لك عن عمل الرب فيك تتذوّقه وتختبره.
بهذا ترتفع الصدقة عن كونها عطاءً ماديًا صرفًا إلى سرّ حبي عميق يربط أعضاء المسيح ببعضها ببعض.

❖ آلامنا هي هكذا قد بلغت إلى أقصى العالم المسكون، متى تألم عضو تتألم معه كل الأعضاء^٢.

القديس باسيليوس الكبير

❖ "إن تألم عضو واحد، فجميع الأعضاء تتألم معه، وإن كُرم عضو واحد فجميع الأعضاء تفرح معه" (١ كو ١٢: ٢٦).

فحينما تدخل شوكة ما، تهتم العين في طلبها، والجسد كله ينحني ليجدها، واللسان يتساءل: أين هي؟ واليد تبادر إلى اقتلاعها... والسبب في هذا كله أن الأعضاء تهتم ببعضها ببعض، وإذا تألم عضو واحد تألمت معه بقية الأعضاء. فعلى هذا المنوال إذا ينبغي أن نتصرّف مع إخوتنا، أي نهتم بهم، فنفرح بخيرهم ونتألم لمصائبهم كما لو كان مصابنا.

يقال عن الغزلان أنها عندما تتجول في المراعي أو عندما تقوم لتصل إلى مكان

¹ Sermons on the N. T. Lessons. 36:1.

² Letter 242 to the Westerners.

آخر من الأرض، تسند ثقل رؤوسها على بعضها البعض، بحيث أن الغزالة الأولى تتقدم الباقيين، والكل يتبعها، وكل واحدة تسند رأسها على التي أمامها، والتالية تسند رأسها على سابقتها، وهكذا إلى نهاية القطيع على أن المتقدمة التي تحمل ثقل رؤوس الكل متى تعبت فإنها ترجع إلى المؤخرة وتستريح من التعب، بأن تسند رأسها على التي أمامها كما يفعل الباقون وهكذا، كل منها بدورها.

أليس هذا نوعاً من الإيل الذي يخاطبهم الرسول قائلاً: "احملوا بعضكم أثقال بعض، وهكذا تمموا ناموس المسيح" (غل ٦ : ٢)؟!

❖ إن قُطع إصبع، أما ترتعب كل أعضائك؟ أما تُسرع إلى الطبيب لكي يعيد الإصبع إلى موضعه؟ بالتأكيد يحدث هذا، عندئذ يكون جسمك في حالة جيدة حينما تكون كل الأعضاء متفقة معاً، الواحد مع الآخر. تعتبر نفسك في صحة وأن حالك حسن^١.

❖ حاشا لنا أن نرفض الاستماع إلى ما هو مَرٌّ ومُحزن للذين نحبه. لا يمكن لعضو أن يتألم دون أن تتألم بقية الأعضاء معه^٢.

❖ إذ نتأمل راحتكم الدائمة التي تتمتعون بها في المسيح، نحن أيضاً وإن كنا نتعب مضاعفة ونواجه مصاعب إلا أننا نجد معكم راحة أيها الأحباء. إننا جسد واحد تحت رأس واحد، فتشاركوننا أتعابنا ونحن نشارككم راحتكم، لأنه "إن كان عضو واحد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه؛ وإن كان عضو واحد يُكرَّم فجميع الأعضاء تفرح معه"^٣.

❖ يهدأ الألم الذي يعاني منه عضو بطريقة لا أستطيع تفسيرها، وذلك عندما تتألم كل الأعضاء معه. تتحقق هذه التهدئة لا بالممارسة الفعلية في المعاناة من الكارثة، وإنما خلال قوة الراحة التي للحب. فإنه وإن عانى البعض من ثقل التعب واقعياً يشاركهم الآخرون تعبهم خلال معرفتهم أن هذه يجب احتمالها إلا أن الكل يشترك في احتمالها معاً... في ذات الخبرة وذات الرجاء والحب والروح الإلهي^٤.

❖ نشتهي بشغف أن نعرف حالكم، وإن كان الله قد وهبكم شيئاً من الراحة قدر ما يمكن

^١ The Usefulness of Fasting, 6.

^٢ Letter, 99.

^٣ Epistle 48:1.

^٤ Epistle 99:2.

أن يهب في هذا العالم، لأنه "إن كان عضو واحد يُكرّم، فجميع الأعضاء تفرح معه".
هكذا هي خبرتنا الدائمة أنه في وسط اضطراباتنا نحول أفكارنا إلى بعض إخوتنا
الذين يعيشون في راحة نسبية لكي يشاركنا مشاع الآمنا، فنتجدد إلى حد ليس بقليل،
كمن نحن نتمتع فيهم بسلام أعظم وحياة هادئة!^١

القديس أغسطينوس

❖ يوبخنا قائلاً: "سيدكم سلم نفسه من أجلكم، وأنتم لا تشاركون حتى بطعامٍ قليلٍ مع
أخيك لأجل أنفسكم"^٢.

❖ "إن كان عضو يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه، وإن كان عضو يكرم فجميع
الأعضاء تفرح معه" (١ كو ١٢: ٢٦) ...
يطلب هنا ثلاثة أمور:

عدم الانقسام بل يتحد الكل معاً في الكمال.

كل يهتم بالآخر كما يليق.

اعتبار أن الكل يعملون معاً^٣.

❖ عندما تدخل شوكة في عقب إنسانٍ غالباً ما يشعر بها كل الجسم ويهتم بها. فالظهر
ينحني والبطن وما يرتبط بهما، واليدان تتحركان كحارسين وخادمين لسحب ما دخل في
العقب، والرأس تنحني نحوه، والعينان تلاحظان ما يحدث بكل عناية. فمع كون القدم
هي الأقل من حيث عجزها عن الارتفاع ولكن بانحناء الرأس إليها تظهر المساواة
بينهما، وتنعم بذات الكرامة خاصة عندما يُسبب القدم للرأس أن ينحني وينزل إليه.
ليس كمن يقدم إحساناً بل لارتباطه بالقدم... الرأس يُكلل، فيُكرم الجسم كله. الفم يتكلم
والعينان تضحكان وتبتهجان^٤.

❖ إن كان أحد ممتازاً في حديثه لا يمدحونه وحده بل يمدحون الكنيسة كلها^٥.

❖ الشيطان حسود لكنه يحسد البشر، لكن وأنت إنسان تحسد البشر، وتتجح في مقاومة
حتى الذين من عشيرتك وأسرّتك، الأمر الذي لا يفعله شيطان. أي عفو تناله وأي عذر

^١ Epistle 145:2.

^٢ In 1 Corinth., hom. 27:5.

^٣ In 1 Corinth., hom. 31:5.

^٤ In 1 Corinth., hom. 31:5.

^٥ In 1 Corinth., hom. 31:6.

❖ لحزنك عند رؤيتك لأخٍ في غنى عوض أن تتوج نفسك وتفرح وتتهلل لنجاحه؟^١
❖ المشاركة العامة في كل شيء، الأمور الصالحة والمحزنة، هي الطريق الوحيد لبلوغ
كمال الشركة.^٢

❖ كل فعل أو نفع يعود على الجسد كله، ويخدم كافة الأعضاء، فإن عاد النفع على
عضوٍ واحدٍ فقط كان هذا العضو غريبًا عن الجسد، هكذا بالنسبة للأموال.
فالقوت الخاص بالجسد الذي ينتفع منه الأعضاء عامة، لو أعطى لعضوٍ واحدٍ
فقط لصار العضو زائدًا، لأنه إن لم يستطع أن يرسله إلى بقية الأعضاء يكون غريبًا.
وأما إذا صار مشاعًا فينتفع هو وكل الأعضاء معه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ متى كان لنا هذه المعرفة أو بالحري ذلك الإيمان الذي سبق أن عالجتَه، بمعنى أن
نعتقد بأن كل الأمور تحدث لنا بسماح من الله، وأنها مرتبة لأجل خير أرواحنا، فإننا
ليس فقط لا نحترقهم، بل ولا نكف عن الصلاة من أجلهم كأعضاء منا، وأن نحنو
عليهم بكل قلوبنا وكل جوارحنا. فإن كان عضو واحد يتألم، فجميع الأعضاء تتألم معه
(١ كو ١٢: ٢٦)، إذ نحن نعلم أننا لا نقدر أن نكمل بدونهم بكونهم أعضاء منا. وذلك
كما نقرأ عن السابقين لنا أنهم لا يقدر أن ينالوا تمام المكافأة بدوننا إذ يقول الرسول:
"فهؤلاء كلهم مشهودًا لهم بالإيمان لم ينالوا الموعد، إذ سبق الله فنظر لنا شيئًا أفضل،
لكي لا يكملوا بدوننا" (عب ١١: ٣٩، ٤٠).^٣

الأب سيرينوس

❖ الخبز الذي تخزنه هو من حق الجائعين؛ الثوب الذي تلقي به في المخزن خاص
بالعرايا؛ والذهب الذي تخفيه في الأرض خاص بالفقراء.

القديس باسيليوس الكبير

٤. الصدقة وزنة يلزم إضرارها بأمانة

"لم ندخل العالم بشيء، وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء" (١ تي ٦:
٧) ... يشهد الرسول بولس، بل والحياة ذاتها، أننا لا نستطيع أن نمتلك شيئًا، فنحن لسنا إلا

^١ In 1 Corinth., hom. 31:7.

^٢ In 1 Cor., hom., 31:5.

^٣ Cassian: Conferences 7:30.

وكلاء على وزنات سلمها الإله لنا.

والصدقة تعلن عن أمانتنا فيما وُكِّلنا عليه، وتشهد عن عدم اعتصابنا لما هو للموكل. وبذلك يحق لنا سماع صوته الإلهي: "كنت أميناً على القليل، فأقيمك على الكثير". لقد سلمك الرب بركات كثيرة، أنت ملتزم باستخدامها وإضرارها، سواء كانت البركة هي أموال أو حكمة أو ذكاء أو قدرة على التعليم الخ. فإن الصدقة هي إضرار كل ما وهبك الرب متذكراً قوله: "مغيوط هو العطاء أكثر من الأخذ"، قائلاً: "منك الجميع ومن يدك أعطيناك" (١ أي ٢٩: ١٤).

❖ إن كان (الذي جاءك) مسكيناً فلا تصرفه من عندك فارغاً، بل أعطه من البركة التي أعطاك الله إياها. واعلم أن كل شيء لك ليس ملكك فأعطه من أجل الرب.

الأنبا إشعياء (عن بستان الرهبان)

❖ الأشياء كلها لله، فعندما يوصينا أن نأخذ منه، لا نهرب من وصيته كالعبيد الخائنين فنسرق ما لسيدنا.

إن كانت نفسك ليست ملكاً لك، فكيف تكون الأموال ملكك؟!

كيف تتفق ما هو ليس ملكك فيما لا يجوز الإنفاق فيه؟!

أما تعلم أننا عتيدون أن نحاسب على استخدامها الرديء؟!

لذلك يجب علينا أن ننفقها على شركائنا في العبودية، لأنها ملك سيدنا وليست ملكنا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ نحن الذين اتحدنا بالقلب والنفس لن نتردد في المشاركة في الأشياء.

العلامة ترتليان

❖ إنه لأمر سخي ومخزي أن يعيش إنسان في فخخة وترف بينما كثيرون جائعون.

❖ يلزمنا ألا نلقي بأشياء يمكن أن تنفع قريبنا. دعيت الأشياء صالحة لأنه يمكن استخدامها في الصلاح. إنها أدوات للصلاح في أيدي الذين يستخدمونها كما يليق.

القديس إكليمنضس السكندري

٥. الصدقة علامة صادقة عن التوبة

❖ حقًا أن التوبة عن الخطايا تُصلح البشر، لكنها إن كانت عقيمة عن أعمال الرحمة لا يكون فيها نفع.

هذا ما يشهد به الحق على لسان يوحنا الذي قال للآتين إليه: "يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا أثمارًا تليق بالتوبة، ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أبًا، لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم، والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر، فكل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا تقطع وتلقى في النار" (لو ٣: ٧-٩).

فمن لا يصنع هذه الثمار التي تليق بالتوبة ليس له أن يفكر أنه سينال غفرانًا بتوبة عميقة. وقد أعلن يوحنا بنفسه ما هي هذه الثمار. لأنه بعد نطقه بما سبق سأله الجموع: "وماذا نفعل؟" أجابهم: "من له ثوبان فليعط من ليس له. ومن له طعام فليفعل هكذا".

القديس أغسطينوس

❖ دعا الرب الذين رأهم يساعدون الفقراء ويعولونهم أولاد إبراهيم. فعندما قال زكا: "ها أنا يا رب أعطى نصف أموالي للمساكين، وإن كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف"، أجابه يسوع قائلاً: "اليوم حصل خلاص لهذا البيت إذ هو أيضًا ابن إبراهيم" (لو ١٩: ٨-٩). فإن كان إبراهيم قد آمن بالله فحسب له برًا، فمن يعطي الصدقات حسب وصية الله بالتأكيد يكون مؤمنًا بالله. ومن له صدق الإيمان يتمسك بخوف الله. ومن يتمسك بخوف الله يُعطى اعتبارًا لله برحمته للفقراء، إذ يعمل هكذا لأنه يؤمن، عالمًا بما أمرت به كلمة الله الحقيقي وإن الكتاب المقدس لن يكذب وهو أن الشجرة غير المثمرة - أي الإنسان غير المنتج - تُقطع وتلقى في النار. أما الإنسان الرحيم فيُدعى للملكوت. وفي موضع آخر دعا العاملين والمثمرين مؤمنين، رافضًا إيمان غير المثمرين والعواقر قائلاً: "إن لم تكونوا أمناء في مال الظلم فمن يأتينكم على الحق. وإن لم تكونوا أمناء في ما هو للغير فمن يعطيكم ما هو لكم؟!" (لو ١٦: ١١-١٢).^١

الشهيد كبريانوس

^١ The Treatises of Cyprian, Treatise 8 (10 in Oxford edition), 8 ترجمة المرحوم سامي عبد الملك

عطاء بلا حب

"لو أطعمت كل أموالي... ولكن ليست لي محبة فلا انتفع شيئاً" (١ كو ١٣: ٣).
إن فقد العطاء عنصر (المحبة)، فقد كيانه ووجوده، وتحول إلى عملٍ بشريٍّ ذاتيٍّ، يعطل
حياة الإنسان ونموّه.

لقد حدّرتنا الكنيسة من مثل هذا العطاء فحدّرتنا من:

١. الصدقة من أجل المجد البشري لا عن حب

❖ تأمل كيف ابتدأ الرب يخاطب سامعيه محدّراً إليّهم من أصعب الوحوش نكايّة... إذ
قال: "احترزوا أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم" (مت ٦: ١).
قد يوجد من يقدّم صدقته قدام الناس لكنه يتحاشى التظاهر بها، ويوجد أيضاً من
لا يقدّمها قدام الناس لكنه يتباهى بها سرّاً. فالله لا يجازي عن الصدقة بحسب صنعها،
إن كانت قدام الناس أو لا، بل بحسب نيّة فاعلها.

❖ إن كنت تشتهي أن يكون لك أناس ينظرون صدقتك، فإنه لن يعدمك هذه الشهوة في
الوقت المناسب، بل يُشبع لك هذه الشهوة بزيادة كثيرة... فإن الله يشيد بها ويذكرك في
حضرة أهل المسكونة كلها...

❖ إن أردت أن تظهر أعمالك فأظهرها لأبيك قبل كل الناس، ولاسيّما إن كان أبوك ربّاً.

❖ إذا اتفق أن تصدّقنا على فقيرٍ بشيءٍ زهيدٍ، نطيلُ له ونزمر... مع أن أكثر الوسائل
أماناً لحفظ كنز الأعمال الحسنة هو نسيانها.

فكما أننا إذا بسطنا ثيابنا الفاخرة في السوق العام نعرضها للمكائد والأخطار، بينما
لو أخفيناها نحفظها في مأمن من اللصوص، كذلك أعمالنا الصالحة، فإننا إن لم نكف
عن ترديدها في خاطرنّا ننثر غضب السيّد، ونسلّح عدوّنا ضدّنا، ونستدعي السارق.

❖ إذا ما رأيت الصدقة قد فسدت تألمت جدّاً لأنني أرى السبح الباطل يغتالها كما تغتال
المريّة إحدى بنات الملوك وتفسد أخلاقها، فتجعلها تتجاسر بالثورة ضدّ أبيها وتحسن
لها التهاون به، والترّين لأجل إرضاء رجال ربّما كانوا أشراراً يستحقّون البصق على

وجوههم. فتلبسها الثياب السمجة التي يستحسنها الغريب، ويستقبحها والدها. والصدقة في هذا المثال هي ابنة الملك، والملك هو الإله، وحب الظهور والرياء هما المربّية الشريرة، والأجانب التي تتزيّن لهم حسب رغبتهم لا كما يريد الملك، هم الذين تتصدّق أمامهم لأجل تمجيدك.

فالملك يأمر بعدم ظهورها حتى للأقرباء الذين بمثابة اليد الشمال، والمربّية هي الكبرياء التي تطالبنا بإظهارها أمام العبيد والغرباء.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢. صدقة المتكبرين

لا يقدر الإنسان الطبيعي أن يتصدّق، لأنه لا يقدر أن يحب. بالجهد أن يعطي مالاّ أو عقارًا، لكن يستحيل عليه أن يعطي قلبه. والإنسان الطبيعي إذ يحب العالم ويتفاعل معه، لذلك إن أعطى يظن أنه يميّن بذلك على الله والناس. وأما المؤمن إذ يعطي يشعر أن الحب الذي فيه ليس منه بل من الرب يسوع، وإن ما يعطيه ليس ملكه لأنها وزنات ربنا يسوع، معطيًا للرب لا لإنسان. بهذا فإن قدّم كل ما وهبه الله لا يسقط في الكبرياء، بل يشعر في أعماق قلبه بعدم استحقاقه للعطاء الذي يقدّمه ممّا لله.

أما من يقدّم الصدقة ويظن أنها من عنده يميّن بها على الله فهذا يشبهه القديس مار يعقوب الرهاوي بالشجرة المورقة التي بلا ثمر.

٣. صدقة غير المؤمن

الصدقة، إذ هي تقديم للقلب ذاته، لذلك يرفض الله تقدمات الأشرار المصريّن على شرهم، ليس رفضًا لهم، لكن لئلا يقفوا عند تقديم الصدقة دون القلب. لذلك أمرت الدسقولية^١ ألا تُستخدم تقدمات غير المؤمنين والأشرار إلا في شراء الخشب والحطب وقودًا للنار، ولا تُدفع للأرامل، ولا يُبنى بها كنائس، ولا تنفق في الخدمة الخ.

❖ يجب أن يكون الأسقف عارفًا من يجب أن تُقبل غلّته منه ومن لا يجب، وخير أن يتحفّظ من أصحاب الحانات الذين هم تجار، ولا يُقبل منهم شيئًا لأنهم يتبرّرون من الإثم...

ليهرب أيضًا من الزناة، فقد قال: "لا تأتِ للرب إلهك بأجرة زانية" (تث ٢٣: ٨)

^١ الدسقولية، باب ١٥.

وليتحفظ أيضًا من الغاصبين والمحبين للأرباح والفسقة، لأن قرابين هؤلاء نجسة أمام الله.

أبعد أيضًا عن القرابين التي يؤتى بها إلى هيكل الله بنية سوء، فقد قال: أبعد عن الظلم، وعندئذ لا تخف ولا ترتعد أن تقرب (قرايبك).

إذا قلت إن هؤلاء الذين يدفعون الرحمة^١ إذا لم نأخذ منهم فمن أين نعول الأرامل؟ ونربّي الأيتام والمحتاجين الذين في الشعب؟...

إذ كنتم في الكنائس تصنعون هكذا، الأصلح أن يموت واحد ويهلك من القحط أكثر من أن يأخذ من أعداء الله، لأنه يصير عازًا وهزءً بين أصحابه. فلأجل هذا قال النبي: "زيت الخطاة لا يدهن رأسي" (في ٦: ٦-٧، عا ٥: ٢١-٢٢).^٢

الدسقولية

٤. صدقة الظالمين

من يتصدق بأموال ظلم بها إخوته، لا يحمل في صدقته حبًا روحيًا، ولا حتى بشريًا، إذ يعطي إنسانًا ويظلم آخر.

❖ إذا قدّمت للإله جزءًا مما اقتنته ظلمًا واغتصابًا فلن يقبل الإله عطيتك...
فلترحم من ظلمته صانعًا معه رحمة ومحبة، عاملاً بالصلاح، وبذلك تقدّم رحمة وحقًا. فالله لا يشاركنا جشعنا ولا يشاطر اللصوص والسالبين، ففي استطاعته أن يطعم الفقراء الذين عهد لنا بهم، لكنه يطلب ثمار البرّ ومحبة الناس.

البابا أناسيوس الرسولي

❖ إن كان قايين الذي قدّم أفضل ما لديه لم يقبله الله مع أنه كان من تعبه... فكيف لا يصيبنا شرّ أعظم ممّا أصاب قايين إن قدّمنا له قدّاسات وقرابين من مال نلناه ظلمًا من الآخرين؟!

لماذا تسبّ الرب بتقديمك له قرابين وهدايا نجسة؟!...
أولى بك ألا تعرّي أناسًا لتكسي آخرين، أفلمست تظلم من تعرّيتهم؟! فإنك إن ظلمتهم، ولو أعطيت ما أخذته منهم للغير فليس هذا رحمة.

^١ تعبير "الرحمة" كما ورد في الدسقولية بدلاً من "الصدقة" تعبير أجمل.

^٢ الدسقولية، باب ١٤.

❖ إذا اختطفتم أموالاً وأعطيتموها للغير... فما هو عذرك؟

أتريد أن تعلم مقدار ما تصنعه من الشر؟ اسمع ما يقوله سليمان إن الذي يقرب ذبيحة من أموال الفقراء كمن يقتل أمام الأب ابنه!

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أعطوا ممّا تملكونه بالبرّ، لأنكم لا تقدرون أن تقدّموا رشوة للمسيح قاضيكم.

القديس أغسطينوس

❖ اهرب أيضاً يا أسقف ممّن يضيق على الأرملة، وممن يتقوّى على اليتيم، ومن يقسو أيضاً على عبيده بضربٍ أو قحطٍ أو مملكة سوء، قرايبنهم مبعوضة لا تقبلها^١.

الدسقولية

٥. صدقة بلا سرور

❖ إذا بسطت يدك وكان قلبك خالياً من الحنو، فإنك لست تعمل شيئاً. العبرة ليست في العطاء وإنما في السرور في العطاء، وإن لم توجد إمكانية للعطاء فالحنو وحده كافٍ لمن نحب.

القديس أنبا أنطونيوس

❖ إنها النية هي التي تجعل العطية قيّمة أو زهيدة^٢.

القديس أمبروسيوس

❖ إن كنت حزيناً وأنت تعطي، فأنت تفقد كلاً من الخبز والاستحقاق، لأن الله يحب المعطي المسرور^٣.

القديس أغسطينوس

^١ الدسقولية، باب ١٤.

^٢ Duties of Clergy 1: 30.

^٣ Robert Llewelyn, *The Joy of the Saints, Spiritual Readings throughout the Year*, Springfield, Illinois, 1989, p. 37.

فاعليّة العطاء

عظيم هو عمل العطاء، وكثيرة هي بركاته، فبالعطاء:

١. أحد مقومات البرّ.
٢. نتمثل بالله صانع الخيرات.
٣. تصير لنا دالّة عند محب البشر وملائكته.
٤. نُعتق من الدينونة.
٥. ننال بركات زمنيّة وحياة أبدية.
٦. بالصدقة نقرض الرب.
٧. بالصدقة نُشفى من مرض الطمع

١. أحد مقومات البرّ

❖ بعد أن قال ربنا في الإنجيل: "احذروا أن تنموا أعمالكم الدينية أمام الناس لكي ينظروها (راجع مت ١: ٦) - حتى لا نقيس نصيبًا في الحياة بحدود المجد البشري - أكمل شارحًا البرّ نفسه، لكنه أشار فقط إلى ثلاثة من المقومات له: الصوم والصدقة والصلوات. بالصوم أشار إلى خضوع جسد الكامل؛ وبالصدقة أشار إلى أنواع الإرادة والعمل سواء في العطاء أو العفو، وبالصلاة أشار إلى كل قوانين الرغبة المقدسة... في هذه الحالة نسعى لكي نكلل بكل ربح (١ كو ٩: ٢٤) ^١.

القديس أغسطينوس

٢. نتمثل بالله صانع الخيرات

يفيخ الإله الحيّ صانع الخيرات بمحبته على البشر، وهكذا إذ تمتدّ يدنا بعمل المحبة لإخوتنا نكون قد تشبّهنا به، وكما يقول الآباء:

❖ ليس شيء يجعلنا هكذا مقربين من الله وعلى شبهه مثل العمل الصالح ^٢.

❖ ما الحاجة إلى ذكر فضائل هذه الصناعة ومآثرها؟ إنها تعلمك كيف تصير شبيهًا

¹ On Man's Perfection in Righteousness 8:18.

² In Rom., hom. 19.

بِالله، وهذا رأس كل الخيرات.

❖ الصدقة قويّة وذات سلطان حتى تحلّ القيود والأغلال، وتبدّد الظلام، وتخمد سكير نار جهنّم، وتؤهل فاعليّتها للتشبه بالله، لقوله: "كونوا رحماء كما أن أباكم الذي في السماوات هو رحيم".

القديس يوحنا الذهبي النعم

❖ الرحمة بالآخرين فضيلة سامية، يسرّ بها الله. وهي صفة عالية تتسم بها النفوس الصالحة، تزيدها فخراً ونبلاً.

إنها من صفات الله، فكونوا رحماء كما أن أباكم الذي في السماوات هو رحيم.

القديس كيرلس السكندري

٣. تصوير لنا دالة عند محب البشر وملائكته

قدر ما يتسع القلب لمحبة الإخوة يفرح به الأب ويأتمنه على كل ما يملك، حتى أدق أسرارهِ.

وكما يقول القديس إيرونيموس^١ أن كرنيليوس قائد المئة الإيطالي الأممي صارت له دالة لديّ الرب إذ قبله كأول فاتح لباب الإيمان والمعمودية للأمم، إذ كتب عنه أنه إنسان ورع يخاف الرب مع كل بيته، يقدّم صدقات كثيرة ويصليّ إلى الله على الدوام (أع ١٠: ١-٢).

❖ أعط المساكين، وهلمّ بدالة قدّم صلواتك، أي تحدّث مع الإله كما يتحدّث الابن مع أبيه، فليس شيء يقدر على دنو القلب إلى الباري مثل الرحمة.

مار اسحق السرياني

❖ تُصعد الرحمة الإنسان إلى علوٍ شامخ، وتعطيه دالة بليغة عند الله. فكما أن الملكة متى أرادت الدخول إلى موضع الملك، لا يجسر أحد من رجال البلاط أن يمنعها أو يسألها عن المكان الذي تريد الذهاب إليه، بل جميعهم يستقبلونها بابتهاج، هكذا من يصنع الرحمة والصدقة يمثل أمام عرش الملك بدون عائق، لأن الإله يحب الرحمة حباً شديداً، وهي تبقى بالقرب منه، لذلك قال الكتاب: "قامت الملكة

^١ Epistle 79:2.

عن يمينك". وذلك لأن الرحمة مفضّلة عند الإله، إذ جعلته يصير إنسانًا لأجل خلاصنا.
القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عملان للرحمة يجعلان الإنسان حرًا: اغفر يُغفر لك، أعطِ فتتال.

❖ ماذا يشحذ منك الفقير؟ خيرًا. ماذا تشحذ من الله؟ المسيح القائل: "أنا هو الخبز الحيّ
النازل من السماء".

❖ إن أردت أن تطير صلواتك مرتفعة إلى الله، هب لها جناحين، هما الصوم والصدقة¹.
القديس أغسطينوس

❖ من يترحم على إنسان يصير باب الرب مفتوحًا لطلباته في كل ساعة.
الشيخ الروحاني

❖ بالعطاء للفقراء نفتتني رضا الملائكة وسائر القديسين².
القديس أمبروسيوس

٤. نعتق من الدينونة

أعمال الإنسان - مهما بلغت - تعجز عن الوفاء عن خطاياهم. وإنما نؤمن بربنا
يسوع المسيح الذي "أسلم من أجل خطايانا وأقيم لأجل تبريرنا" (رو ٥: ٢٥)، هذا الإيمان
ترافقه الأعمال التي نعملها بالمسيح الذي فينا، والتي بدونها لا نكون أبناء نور. إذ كنا قبلاً
أبناء ظلمة، وأما الآن فنور في الرب، لذلك يليق بنا أن نسلك كأولاد نور (أف ٥: ٨)

لكننا نتساءل: هل للعطاء قدرة على عتقنا من الدينونة؟

يجيب الكتاب المقدس بإفاضة بالإيجاب، نذكر منه قوله: "بالرحمة والحق يستر
الإثم" (أم ١٦: ٦).

"فارق خطاياك بالبرِّ وأثامك بالرحمة للمساكين لعلّه يطال اطمئنانك" (دا ٤: ٢٧)
"الصلاة جيّدة مع الصوم والصدقة، لأن الصدقة تتجّي من الموت، وتطهر من
الذنوب" (طو ١٢: ٨-٩).

"أعطوا ما عندكم صدقة وهوذا كل شيء يكون نقيًا لكم" (لو ١١: ٤١).

¹ Robert Llewelyn, *The Joy of the Saints, Spiritual Readings throughout the Year*,
Springfield, Illinois, 1989, p. 37.

² In Luc 16:1-13.

"الماء يطفئ النار الملتهبة، والصدقة تكفر الخطايا" (حكمة يشوع ٣: ٣٣).

هذا لا يعني أن الصدقة في ذاتها تقدر أن تكفر عن الخطيئة، وإلا لما كان هناك حاجة للفداء، إنما لأن الصدقة تعلن عن قلب قابل للخلاص وامتلأ بالرب يسوع "المحبة"، فأحب المحتاجين والمتألمين. ومن جانب آخر، فإن الذي يحب الآخرين يستحق التمتع بالحب الإلهي المعلن على الصليب للجميع.

❖ من أجل أنك لم ترحم الآخرين، فلا يُصنع بك رحمة أيضًا، ولأنك أغلقت باب بيتك إزاء المساكين، فلا يفتح لك الإله باب ملكوته...
إن كنتم قد هربتم من الرحمة، فالرحمة تهرب منكم. وإن رذلتم الفقراء، يرذلكم ذاك الذي صار فقيرًا حبًا لكم.

القديس باسيليوس الكبير

❖ أحبائي... في أوقات كثيرة أذكركم وأعترف لكم بما يدهشني كثيرًا فيما ورد في الكتاب المقدس، وهو ينبغي علي أن ألفت أنظاركم إليه كثيرًا.
أتوسل إليكم أن تتأملوا ما قاله ربنا يسوع المسيح عن نفسه، أنه عندما يأتي في يوم الدينونة، في نهاية العالم، سيجمع كل الأمم أمامه، ويقسم البشر قسمين: قسم عن يمينه والآخر عن يساره.

يقول للذين عن اليمين "تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم". وأما الذين عن اليسار فيقول لهم "اذهبوا عني... إلى النار الأبديّة المعدّة لإبليس وكل ملائكته".

ابحثوا عن علّة هذا الجزاء العظيم أو العقاب المريع... لماذا يرث الأولون الملكوت؟ "لأنني جعت فأطعمتموني". ولماذا يذهب الآخرون إلى النار الأبديّة؟ "لأنني جعت فلم تطعموني"...

لم يقل الرب لهؤلاء: "تعالوا رثوا الملكوت، لأنكم عشتُم أطهارًا، لم تخذعوا إنسانًا، ولا ظلمتم فقيرًا، ولا اعتديتم على تخم أحد، ولا خدعتم أحدًا بقسم"...

بل قال "كنت جوعانًا فأطعمتموني". يا لامتياز الصدقة عن بقيّة الفضائل جميعها، لأن الرب لم يُشر إلى الكل بل إليها وحدها!

كذلك يقول للآخرين: "اذهبوا إلى النار الأبديّة المعدّة لإبليس وملائكته"، ومع أن هناك أشياء كثيرة يمكن أن يثيرها ضدّ الأشرار عندما يسألونه: "لماذا نذهب إلى النار

الأبدية؟" لكنه لا يجيبهم: "لماذا تسألون هكذا أيها الزناة والقاتلة والمخادعون ومنتهكو حرمة المعابد والمجدفون وغير المؤمنين؟" ... بل يقول لهم: "لأنني جعت فلم تطعموني". أراكم تتعجبون مثلي، وحقاً إنه لأمر عجيب، فقد كتب: "الماء يطفئ النار الملتهبة، والصدقة تكفر عن الخطايا"، "أغلق على الصدقة أخاديرك فهي تنقذك من كل شر، لذلك أيها الملك لتحسن مشورتني لديك، وافقد خطاياك بالصدقة" (راجع حكمة يشوع ٣: ٣٣؛ ٩: ١٥).

توجد شهادات كثيرة من الوحي الإلهي يظهر فيها ما للإحسان من فوائد كثيرة في إخماد الخطايا وإزالتها، لذلك سيلصق الإحسان بهؤلاء الذين على وشك أن يدينهم الله، بل بالحري سيتوجههم. وكأنه يقول لهم: أنه ليس من الصعب علي أن أجد عليكم علة لإدانته متى امتحنتكم ووزنتكم بدقة وفحصت أعمالكم، لكن ادخلوا الملكوت لأنني كنت جائعاً فأطعمتموني، فستدخلون الملكوت ليس لأنكم لم تخطئوا، لكن بإحسانكم أزلتم خطاياكم.

كذلك كما لو كان يقول للآخرين: اذهبوا إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته... إنه ليس بسبب ما تفكرون فيه من خطايا، بل لأنني كنت جائعاً فلم تطعموني، فلو ابتعدتم عن أفعالكم الشريرة هذه، والتفتتم إلي لخلصتم من كل جرائمكم وخطاياكم بإحساناتكم. لأنه "طوبى للرحماء، لأنهم يُرحمون" (مت ٥: ٧). ولكن الآن اذهبوا إلى النار الأبدية "لأن الحكم بلا رحمة لمن لم يعمل رحمة" (يع ٢: ١٣).

القديس أغسطينوس

❖ يتكلم الروح القدس في الكتب المقدسة ويقول "بالصدقة والإيمان يُستر الإثم" (راجع أم ١٦: ٦)... وأيضاً بقوله: "الماء يطفئ النار الملتهبة والصدقة تكفر الخطايا" (ابن سيراخ ٣: ٣٣). وهنا يوضح أنه كما تُطفئ نار جهنم بماء الخلاص، هكذا بالصدقات والبر يخمد لهيب الخطايا. فإذا توهب في المعمودية مغفرة الخطايا مرة واحدة عن جميع الخطايا، فإن العمل المستمر الذي بلا انقطاع - تابعاً مثال المعمودية - يهب مراحل الله مرة أخرى.

وقد علمنا الرب أيضاً بهذا في الإنجيل، لأنه عندما أشير إلى التلاميذ أنهم يأكلون بدون غسل أيديهم، أجاب قائلاً: "الذي صنع الخارج صنع الداخل أيضاً. بل أعطوا ما عندكم صدقة، وهذا كل شيء يكون نقياً لكم" (لو ١١: ٤٠-٤١). إنه يُعلم بغسل

القلب لا الأيدي، وأنه بالأولى انتزاع دنس الداخل لا قذارة الخارج، وأنه متى تنقى الذهن، عندئذ يبدأ الإنسان في تنظيف جسده. وإذ ينصحنا بكيفية الاغتسال والتنقية قال بضرورة تقديم الصدقات.

يعلّمنا ذاك الحنون، ويحثنا على العطف. فإذا هو يبحث عن خلاص أولئك الذين قدّم عنهم تضحية هذا مقدارها، أشار أيضًا عن الذين بعدما نالوا نعمة العماد وصنعوا الخطيئة أنه يمكنهم أن يتطهّروا من جديد.

إذن ليتنا أيها الإخوة الأحباء نعرف تلك العطية واهبة الشفاء التي للرحمة الإلهية، نحن الذين لا يمكن أن نوجد بلا جراحات من جهة الضمير...

ليتنا نشفي جراحتنا بأدوية روحية مطهّرة، غاسلة للخطايا.

ليته لا يتملّق الإنسان نفسه متوهّمًا أن قلبه نقي مختون، معتمدًا على برّه الذاتي، حاسبًا أن جراحاته غير محتاجة إلى دواء بينما مكتوب: "من يقول إنّي زكّيت قلبي تطهّرت من خطيئتي؟! (أم ٢٠: ٩).

وأخيرًا أيها الإخوة الأحباء، إن النصائح الإلهية في الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد لم تكف عن حث شعب الله دائمًا وفي كل موضع لفعل أعمال الرحمة. ففي حزم الروح القدس ينصح كل من يتعلم أن يكون رجاءه في الملكوت السماوي بتقديم صدقات.

لقد أمر الله إشعياء قائلًا: "نادِ بصوت عالٍ، لا تمسك، ارفع صوتك كبوق وأخبر شعبي بتعديهم وبيت يعقوب بخطاياهم". وإذا أوصى بأن خطاياهم صارت عليهم وإن سخطه قد اشتدّ على آثامهم، قال إنه ليس بالتوسّلات أو الصلوات أو الأصوام يمكن التكفير عنها، ولا بالمسوح والرماد يسترضوا غضبه، إنّما أظهر في النهاية أنه يمكن أن يعفو عنهم بالصدقات وحدها، قائلًا:

"أليس أن تكسر للجائع خبزك، وإن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك. إذا رأيت عريانًا أن تكسوه، وأن لا تتغاضى عن لحمك، حينئذ ينفجر مثل الصبح نورك، وتنبت صحتك سريعًا، ويسير برّك أمامك، ومجد الرب يجمع ساقتك. حينئذ تدعو فيجيب الرب، تستغيث فيقول هأنذا..." (إش ٥٨: ١-٩).^١

❖ أمرنا الرحوم أن نُظهر رحمة، وإذ يطلب أن ينقذ الذين خلّصهم بثمرٍ عظيم، أمر الذين

^١ Treatise 8:2-4.

تدنسوا بعد نوالهم نعمة المعمودية أن يتطهروا جيّدًا من جديد^١.

الشهيد كبريانوس

٥. تنال بركات زمنية وحياة أبدية

يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [من له نفس محبة رحمة يكون كمن له كنز من البركات، إذ تكون ينبوعًا لاحتياجات إخوته، ومصدر تمتع بكل المكافآت التي أعدها الإله^٢.]

لقد وعد الرب أن من يترك من أجله يأخذ هذا العالم مئة ضعف وفي العالم الآخر حياة أبدية. هكذا لا يترك الرب نفسه مدينًا دون أن يفي دينه مضاعفًا.

❖ لنزرع تلك البذور الصالحة بسخاء حتى نحصد في الوقت المناسب بسخاء. الآن هو وقت للزرع، حيث أسألكم ألا تتجاهلوا، حتى يمكننا في زمن الحصاد أن نجتمع ثمار ما زرعناه هنا، ونستمتع بالحنو المترفق من قبل الرب^٣.

❖ إن دعوت صديقًا يبقى يشكرك حتى المساء، لكن الصداقة تبقى إلى حين وتنتهي سريعًا جدًا، فلا توازي ما تكلفته من مصاريف. أما أن دعوت فقيرًا أو مشوهًا، فإن الشكر لا يفسد، لأن الله يذكره لك أبدًا، لن ينساه، إذ يكون هو نفسه مدينًا لك^٤.

❖ إن كنا لا نبالي بالأمور المنظورة (نستهين بالعطاء...) فكيف يعلن لنا الله ما هو غير منظور؟^٥

❖ الأمور الزمنية تُدعى أمورًا خارجيّة، لأنها خارج عنا. لنحولها إلى أمور داخلية؛ فإن كنا لا نستطيع أن نحمل غنانا معنا عندما نرحل من هنا لكننا نستطيع أن نحمل محبتنا. حريّ بنا إذن أن نرسلها أمامنا فتعد لنا موضعًا في المساكن الأبدية^٦.

❖ إن خدمت القديسين (الفقراء) فستشاركهم مكافأتهم^٧.

القديس يوحنا الذهبي الفم

^١ Catena Aurea.

^٢ In Rom. Homily 19.

^٣ In Gen. Hom., 43:8.

^٤ In Colos hom 1.

^٥ In 1 Tim hom 5.

^٦ In 1 Tim. Hom. 11.

^٧ In Phil. Hom 1.

❖ ليكن شغفنا نحو الأمور المقبلة ثابتاً، لنخزن الرجاء في الأمور العتيدة ككنزٍ لنا. لنجمع أمامنا لأنفسنا كل هذه الأمور التي بها نتأهل لعطايا الله.¹

القديس كيرلس الكبير

❖ إن لم تعطِ العشور فسيؤخذ منك التسعة أعشار.

القديس أمبروسيو

❖ من واجبك أن تكسي المسيح في الفقير، وتزوره في المريض، وتطعمه في الجائع، وتأويه فيمن ليس له مأوى، خاصة الذين هم من أهل الإيمان، فتسند جماعات البتولين وتهتم بخدام الله الذين هم مساكين يعيشون الحياة الملائكية وينطقون بتسابيح الله وهم على الأرض.²

القديس جبريل

❖ على أي الأحوال لا يوجد طريق أكثر أماناً من أن يخزن الشخص نصيباً من مصادره في أفواه الفقراء.³

❖ في وضوح، إذ نعين البؤساء نعطي لأنفسنا. توزيع مصادرها هو مكسبنا. فإنك إن تضع في اعتبارك المكافأة المقبلة فإن كل ما تعطيه للفقراء يُحسب ربحاً.⁴ لذلك، إن كان الذي يزرع بالشح فبالشح يحصد كما ترون، هكذا من يوزع قليلاً ينال القليل، من لا يزرع شيئاً لا يخزن شيئاً... هكذا إن أردنا أن نجمع حصداً من الفرح فلنزرع الآن بفيض بدموعنا.⁵

الأب فاليريان

❖ إذا يقول الرسول نفسه: "الآن أقول إن من يزرع بالشح..." يلزمكم أن تفهموا أن "الآن" هو "الزمن"، أي مادمنا في هذه الحياة، فلنسرع بغيرة ونقتني عطية الحياة الأبدية، فإنه إذا ينتهي العالم، فإن هذه العطية تُقدم فقط للذين اقتنوها لأنفسهم بالإيمان قبل أن يكونوا قادرين على رؤيتها.⁶

¹ In Luc Ser 91.

² Ep. 130: 14.

³ Homilies, 13:7.

⁴ Homily 8:2 (Frs. of the Church).

⁵ Homily 9:1 (Frs. of the Church).

⁶ Letter, 268.

❖ بتوزيع ثروتهم بين الفقراء، هكذا يخزنوها في أكثر الأماكن أمانًا في كنز السماء.
إن وُجد عائق يمنعك من صنع هذا بسبب التزامات أسرتك، فأنت تعرف نفسك أي حساب تقدمه لله عن استخدامك لغناك، فإنه لا يستطيع أحد أن يعرف ما يجتاز داخل إنسان إلا روح الإنسان الذي فيه.
يليق بنا ألا نحكم في شيء قبل الوقت، حتى يأتي الرب الذي سينير خفايا الظلام، ويظهر آراء القلوب، وحينئذ يكون المدح لك من الله (١ كو ٤: ٥).^١

❖ اصنع صدقة حقيقية. ما هي الصدقة؟ إنها الرحمة!
اسمع الكتاب يقول: "ارحم نفسك فتُرضي الله" (ابن سيراخ ٣٠: ٢٣). نفسك هي شحاذ أمامك. ارجع إلى ضميرك مهما كنت تعيش في الشر أو الجحود، فتجد نفسك تشحذ، إذ هي في عوز وفقر، إنها في حزن... أعطها خبزًا...
لو سأل الفريسي: أي خبز أقدمه لها؟ يجيب الرب: أعطها صدقة... (بمعنى آخر أحب نفسك كما يليق بأن تحب الآخرين، وتصدق على نفسك بأن تعطي الغير).^٢

القديس أغسطينوس

❖ كيف يمكننا أن نقيم لأنفسنا أصدقاء من المال، إن كنا نحب المال، ولا نحتمل فقدانه؟
فإننا بهذا سنهلك مع فقداننا للمال أيضًا!^٣

العلامة ترلتيان

❖ انظروا هذه المجموعة العظيمة من الأدوية! فرحمة الله تتقينا، وكلمته تطهرنا، كما هو مكتوب: "أنتم أنقياء بسبب الكلام الذي كلمتكم به" (يو ١٥: ٣)، كما تجد اللحن الشجي: "الصدقة تتجّي من الموت" (طو ١٢: ٩)، "حبّ الصدقة في قلب المسكين، يشفع عنك في الأيام" (سيراخ ٢٩: ١٢).

القديس أمبروسيوس

❖ هذه هي ذروة الفضيلة الكاملة الرسولية أن يبيع الإنسان كل ما يملك ويوزّعه على الفقراء (لو ١٨: ٢٢)، متحرّزًا من كل عائق ليعبر إلى الممالك السماوية مع

^١ Ep. 130:8.

^٢ Ser. On N. T.56:4.

^٣ On Patience 7.

^٤ In Luc 11:37-54.

المسيح^١ [خادم المسيح الكامل ليس له شيء بجانب المسيح^٢] [ترجم كلماته إلى عمل، فإنك إذ تتعري تتبع الصليب حيث العرس، وتصعد سلم يعقوب الذي يسهل صعوده لمن لا يحمل شيئاً^٣] كما يقول: [يعد الشيطان بمملكة وغنى ليحطم الحياة، أما الرب فيعد بالفقر ليحفظ الحياة^٤].

القديس جيروم

❖ إن كان الكنز في السماء، فيكون القلب والعقل والمشاعر في السماء، ولا يستطيع العالم أن يغلب الإنسان الذي ليس فيه شيء يمكن أن يغلب. إنك تستطيع أن تتبع الرب حرًا بلا قيود كما فعل الرسول - وكثيرون في أيامهم، الذين تركوا مالهم وأقرباءهم والتصقوا بالمسيح برباطات لا تنفك^٥.

❖ لنعط الرب الثياب الأرضية حتى نليس الحلة السماوية! لنعطه الطعام والشراب اللذين في هذا العالم، فنبلغ إلى أحضان إبراهيم واسحق ويعقوب في الموضع السماوي! لنزرع هنا بوفرة حتى لا نحصد قليلاً.

مادام يوجد وقت فلنهتم بأمر خلاصنا الأبدي، كقول الرسول بولس: "فلا نقش في عمل الخير لأننا سنحصد في وقته إن كنّا لا نكل. فإذًا، حسبما لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع، ولا سيما لأهل الإيمان" (غل ٦: ٩-١٠)^٦.

القديس كبريانوس

❖ لو أخبركم مهندس معماري أن منزلكم يسقط حالاً، أفلا تتحركون سريعاً قبل أن تتشغلوا بالنحيب عليه؟ هوذا مؤسس العالم يخبركم باقتراب دمار العالم، ألا تصدّقه؟... اسمعوا إلى صوت نبوته: "السماء والأرض تزولان" (مت ٢٤: ٣٥). استمعوا إلى مشورته!... الله الذي أعطاكم المشورة لن يخدعكم، فإنكم لن تخسروا ما تتركونه، بل تجدوا ما قدّمتموه أمامكم... أعطوا الفقراء فيكون لكم كنز في السماء! لا تبقوا بلا كنز، بل امتلكوا في السماء بلا همّ ما تقتنونه على الأرض بقلق. أرسلوا أمتعتكم إلى السماء.

^١ Ep. 130:4.

^٢ Ep. 14:6.

^٣ Ep. 58:2.

^٤ On Ps. hom 58:7.

^٥ On the lapses 11.

^٦ الأعمال والصدقة ٢٤.

إن مشورتني هي لحفظ كنوزكم وليس لفقدانها...

ينبغي علينا أن نضع في السماء ما نخسره الآن على الأرض. فالعدو يستطيع أن ينقب منازلنا، لكنّه هل يقدر أن يكسر باب السماء؟ إنه يقتل الحارس هنا، لكن هل يستطيع أن يقتل الله حافظها؟...

الفقراء ليسوا إلا حمالين ينقلون أمتعتنا من الأرض إلى السماء. إذن فلتعطوهم ما لديكم فإنهم يحملونها إلى السماء... هل نسيتم القول: "تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت... لأنني جعت فأطعمتموني... وكل ما فعلتم بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم" (مت ٢٥: ٣٤-٤٠).^١

القديس أغسطينوس

❖ قيل عن شيخ أنه كان كثير الرحمة، فحدث غلاء عظيم، لكنه لم يتحوّل عن فعل الرحمة حتى نفذ كل شيء له، ولم يبقَ عنده سوى ثلاث خبزات. فحين أراد أن يأكل أحب الله امتحانه، وذلك بأن قرع سائل بابه. فقال في نفسه: جيّد لي أن أكون جائعاً ولا أردّ أخ المسيح خائباً في هذا الغلاء العظيم فأخرج خبزتين له وأبقي لنفسه خبزة واحدة. وقام وصلى وجلس ليأكل، وإذا بسائل يقرع الباب، فضايقته الأفكار من أجل الجوع الذي كان يكابده. ولكنه قفز بشهامة، وأخذ الخبزة وأعطاهما للسائل قائلاً: "أنا أوّمن بالمسيح ربي إنني إن أطعمت عبده في مثل هذا الوقت الصعب، فإنه يطعمني هو من خيراته..." وبقي هكذا ثلاثة أيام لم يذق شيئاً وهو يشكر الله.

وبينما كان يصنع خدمة بالليل جاءه صوت من السماء يقول له: "لأجل أنك أكملت وصيتي، وغفلت عن نفسك، وأطعمت أخاك الجائع، لا يكون في أيامك غلاء على الأرض كلها". فلما أشرق النور وجد على الباب جمالاً محملة خيرات كثيرة، فمجدّ الله.

بستان الرهبان

❖ لا تظن أن أموالنا تنقص أو تبتدّد عندما نعطي منها صدقة للمساكين، بل تتضاعف متكاثرة وتتمو متزايدة، فالذي يضع أمواله في يد السيّد المسيح يحفظها من كل آفة وبليّة، لأنه لا يجسر أحد أن يختلسها من يد السيّد المسيح...
إن كان البارّي يعطي من غير أن يأخذ، فكم بالأولى يعطي لو أخذ؟

^١ Ser. on N. T. 10.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إن رحمتنا الآخرين نلنا أجزل مكافأة، فقد وعدنا السيّد المسيح بالكيل الملبد المهزوز، وفي موضع آخر كُتب: "بالكيل الذي تكيلون به يُكال لكم" ... "ومن يزرع بالشح فبالشح أيضًا يحصد، ومن يزرع بالبركات فبالبركات أيضًا يحصد. كل واحد كما ينوي بقلبه. ليس عن حزنٍ أو اضطرارٍ، لأن المعطي المسرور يحبه الرب" (٢ كو ٩: ٧).

القديس كيرلس السكندري

❖ مشورتني لكم هي هذه: "أعطوا الفقراء، فيكون لكم كنز في السماء" (مت ١٩: ٢١). لا تبقوا بلا كنز، بل ما اقتنيتموه بقلبي تمتلكونه في السماء بدون همّ. إنني أعطيتكم مشورة للحفاظ لا للفقدان... أنه ليس تبديدًا بل هو ادخار. لينقل البشر أمتعتهم إلى السماء، لأنكم لو وضعتم القمح على الأرض المنخفضة ثم جاءكم صديق له علم بطبيعة القمح والأرض... يقول لكم: ضعوه على أرض مرتفعة. أنكم تخشون من وضع قمحكم على الأرض المنخفضة، فهل تفقدون قلوبكم في الأرض؟

انظروا إلى الرب إلهكم الذي عندما قدّم مشورة خاصة بقلوبكم قال: "حيث يكون كنزك هناك قلبك أيضًا" (مت ٦: ٢١). ويقول: "ارفعوا قلوبكم إلى السماء حتى لا تفسد الأرض".

يليق بنا أن يكون لنا في السماء ما نخسره هنا على الأرض...

القديس أغسطينوس

❖ إن كان لأجل كأس ماء باردٍ تمنحه للضيف تتال ملكوت السماوات، فكم من الخيرات تتال لو دعوته للتمتع بغناك، وجعلته شريكًا لك على مائدتك؟ كيف لا نستيقظ من نومنا ونتنبّه إلى أننا مُقيمون في بلادٍ غريبةٍ (العالم)، وأننا عمّا قليل نعود إلى أوطاننا (السماء)، ونحن الآن غافلون عن حمل أموالنا ونقل أمتعتنا إليها؟!...

ما بالنا نجد هنا الذين ينقلون أموالنا بلا تعب ولا مشقة ولا أجرة ولا زاد، ويرسلونها إلى منازلنا سالمة من خطر الطريق، ومع ذلك نردّهم خائبين؟!

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ استأجر المساكين... فيعدّوا لك مكانًا عاليًا في عالم النور، تضع فيه خزائنك. هم بينون لك مقصورة عظيمة، ممثلة خيرات، لتدخل فيها وتسكن وتجد كل كنوزك. هم سيكونون زمرة محفوفة بك في الطريق، وبذلك التصريح العظيم يسألون عنك ويخلصونك...

هم يفتحون باب العريس قبل أن تقرر...
كن صديقًا لهم حتى يقبلوك في منازلهم...

مار يعقوب السروجي

❖ محب الفقراء يكون كمن له شفيح في بيت الحاكم! من يفتح بابه للمعوزين يمسك في يده مفتاح باب الله! من يقرض الذين يسألونه يكافئه سيّد الكل!^١

القديس يوحنا التبائسي

٦. بالصدقة نقرض الرب

❖ "من يرحم مسكينًا يقرض الرب"

لم يقل: "يعطي" بل "يقرض"، وذلك لأن الكتاب يعلمنا حب الاقتناء. فإننا لا نمل من الاقتناء، بل دائمًا ننتظر الزيادة ونطلبها، لذلك قال: "يقرض الرب"...

أما تقبل أن يكون الله مدينًا لك لا دائنًا، وأنت تعلم أن المدين يوقر الدائن، أما الدائن فلا يستحي منه المدين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يأمرك الله ذاته أن تكون مرابيًا، فيقول لك: "اقرض الرب"... لا يملك الفقير شيئًا يرده لك، ومع ذلك إذ يريد أن يكافئك لا يجد ما يكافئك به... لكنه عندما يصلي كأنه يقول: "يا رب لقد اقترضت هذا، كنت أنت ضامنًا لي". لا ترتبط مع الفقير لتلزمه بسداد ديونه، بل ترتبط مع الرب الضامن.

القديس أغسطينوس

^١ دير السريان: الآباء الحانقون في العبادة، العهد الجديد ١، ميمر ١.

❖ هل يقبل أحد الممولين أن يقرض إنساناً غير مؤتمن؟! لذلك اعتاد المقرض أن يطلب من المقرض وثيقة أو رهناً أو ضماناً، حتى يستأمنه على القرض... وإذ يعلم الله عدم إنسانية الممول، قدّم ذاته الشريفة وسيطاً، وصار ضامناً للقرض ورهناً للمقرض.

❖ الأشياء نفسها لن تبقى، إنما تبقى فاعليتها. لهذا يلزمنا ألا ننشغل ولا نحسب ما هو لدينا، بل نعطي بسخاءٍ. تطلعوا كم يُقدم الناس للممثلين والراقصين، لماذا لا تعطوا حتى النصف للمسيح؟^١

القديس يوحنا الذهبي الفم

٧. بالصدقة تُشفى من مرض الطمع

❖ إننا نؤكد أنه توجد طرق متعدّدة للسلوك الفاضل مثل الوداعة والتواضع وغير ذلك من الفضائل اللطيفة، فلماذا حذف السيد هذه وأمرهم بالترفق؟ أية إجابة نقدّمها؟ لقد كان الفريسيون طماعين، عبيداً للربح القبيح يجمعون الغنى بطريقة شرهة ويخزّنونه. تحدّث عنهم إله الكل قائلاً: "كيف صارت القرية (المدينة) الأمانة (صهيون) زانية؟ ملأته حقاً، كان العدل يبيت فيها، وأما الآن فقاتلون. صارت فضّتك زغلاً، وخمرك مغشوشة بماء، رؤساؤك متمردون ولغفاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا، لا يقضون لليтим ودعوى الأرملة لا تصل إليهم" (إش ١: ٢١-٢٣).

لقد تطلّع عن عمدٍ إلى مرضهم الذي سيطر عليهم ونزع طعمهم من جنوره ليخلصوا من شرّه وينالوا نقاوة الذهن والقلب فيصيروا عابدين حقيقيين. هكذا عمل المخلص في كل هذا بما يناسب خطّة الخلاص، وإذ دُعي إلى وليمة قدّم هو طعاماً روحياً لا لمستضيفه وحده بل لكل الذين معه في الوليمة^٢.

القديس كيرلس الكبير

^١ In 2 Cor. hom 19:23.

^٢ In Luc Ser. 83.

يا لعظمة الفقراء !

قيل عن أحد أبناء الله المبنيين على الإيمان الأقدس، المنقادين بالروح القدس، أنه ظهر له السيد المسيح مشجعاً إياه على جهاده، وإذا بأحد المساكين يقرع بابه، فأستأذن من السيد لأجله. ثم عاد يعتذر للسيد، فإذ به يجيبه: "مبارك أيها الحبيب، لأنك لو لم تتركني للقيام بخدمتك، لتركتك أنا من أجله".

هكذا لا يعرف قيمة المسكين إلا من كان له قلب ربنا يسوع الذي صار فقيراً، آخذاً صورة العبد من أجلنا، ليحررنا من عبودية الخطية، ويغينا بمواهب روحه القدس. كلما تطلعنا إلى الفقير يرتفع قلبنا إلى الرب الذي أحبنا وافقر ليغينا. وقد حدثنا آباؤنا الأولون عن الالتزام بالاهتمام بالفقراء وتكريمهم إذ:

أولاً: ترى فيهم شخص الرب يسوع

تشهد الأسفار المقدسة والتاريخ الكنسي كيف استطاع كثير من المؤمنين أن يستضيفوا ربنا يسوع خلال صدقتهم لإخوتهم مثل إبراهيم أب الآباء، والقديس الأنبا بيشوي الذي كان يظهر له الرب مراراً، فطلب منه أولاده الرهبان أن يروا الرب مثله. وفي إحدى المرات لما خرجوا إلى الجبل دق ناقوس الدير، فأسرع الكل بالعودة للصلاة، وإذا برجل عجوز يظهر لهم طالباً منهم أن يحملوه إلى الدير، فاعتذر كل واحدٍ منهم لضيق الوقت. أما الطوباوي بيشوي، الرجل المسن، فحمله وسار به، فوجده خفيفاً جداً. وعند الباب ثقل عليه جداً، فعرف أنه الرب، وللحال قال له: "أنت مالى السماوات والأرض كيف استطع أن أحملك؟!"

❖ كان رئيس دير أباً لمائتي راهب، هذا زاره السيد المسيح بصورة شيخ مسكين، فسأله البواب أن يقول للمعلم عنه. دخل فوجده يخاطب آخرين، ثم عرفه، فقال له: "دعنا في هذا الوقت"، فتأخر البواب.

وعند الساعة الخامسة زارهم رجل موسر، فتلقاه رئيس الدير بسرعة، فتقدم ربنا سائلاً قائلاً: "أنا أريد يا معلم أن أكلّمك"، أما الرئيس فدخل مع ذلك الغني مسرعاً ليعد له طعاماً بحجة أنه غريب. وبعد الأكل شيعه إلى الباب ونسي المسكين إلى المساء،

ولم يقبل الغريب المسكين. ثم انصرف الرب بعد أن راسله على لسان البواب قائلاً: "قل للمعلم إن كنت ترى كرامة وتشريعاً، فذلك لأجل سالف تعبك. إني مرسل لك أقواماً يزورونك من أربع جهات الدنيا، وأما خيرات ملكوتي فلا تذوقها. فعرف حينئذ أن الشيخ المسكين هو الرب، فندم وتألّم.

بستان الرهبان

❖ ليكن في كل أسرة موضع حيث يختفي المسيح فيه في أشخاص الجائعين والعطشى الغرياء.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يا لعظم مرتبة الفقراء، لكونهم نظير خدر الله، والباري يختفي فيهم. فالفقير يمد يده متسولاً، لكن الله هو الذي يقبل صدقتك.

إذا صنعت مع أحد رحمة، أمدّ يدي أيضاً مع ذلك المسكين وأتناول ذلك الفلس الذي أعطيته إياه.

لقد بلغك عني أنني متسرّبل بالنور كالرّداء، لكنك متى كسوت عرياناً، أشعر أنا بدفعٍ، وأنتي تسترت!

تعتقد أنني جالس عن يمين الله في السماوات، ولكنك متى ذهبت إلى السجن تفتقد المسجونين تراني جالساً هناك...

إذا كان السيّد المسيح خالقك لا يستحي أن يمد يده ويتناول الصدقة المعطاة للمساكين... فالأولى بنا ألا نأف من خدمة المساكين وإراحتهم، لأنه بخدمتهم تتقدّس أيدينا، فإذا رفعناها في الصلاة، ينظرها الله مباركة، فيتحنّن عليها ويعطينا سؤالنا تماماً.

❖ إن كنا نخجل من هؤلاء الذين لا يخجل منهم المسيح، فنحن نخجل من المسيح نفسه بخجلنا من أصدقائه. لتملأ مائدتك من العرج والمشوهين، فإن المسيح يأتيك خلالهم لا خلال الأغنياء¹.

❖ كلما كان أخونا متواضعاً يأتي المسيح خلاله ويفتقدنا. لأن من يستضيف إنساناً عظيماً غالباً ما يفعل هذا عن مجدٍ باطل... لبيتنا لا نطلب القادرين أن يكافئونا، بل نتبع القول: "فيكون لك الطوبى، إذ ليس لهم حتى يكافئوك".

¹ In 1 Thess. Hom.11.

ليتنا لا نضطرب حينما لا يُرد لنا اللطف باللطف، لأننا إن تقبلناه من الناس لا ننال ما هو أكثر، أما إذا لم يُرد لنا من البشر فאלله يرده لنا.

❖ يليق بك أن تستقبل (الفقراء) في أفضل حجراتك، فإن أحجمت عن هذا فلا أقل من أن تتقبل المسيح في الحجرات الدنيا حيث يوجد الذين يقومون لك بالأعمال الحقة والخدم. ليكن الفقير علي الأقل حافظاً بابك، لأنه حيث توجد الصدقة لا يقدر الشيطان أن يقتحمه ويدخل.

إن لم تجلس معهم، فعلى الأقل أرسل لهم الأطباق من مائدتك^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أية كنوز ليسوع أفضل من هؤلاء المساكين الذين يجب أن يُرى يسوع فيهم^٢؟

❖ اخدموا الفقراء تخدمون المسيح^٣.

القديس أمبروسيوس

❖ كل مرة تبسط يدك بالعطاء أذكر المسيح^٤.

❖ الهيكل الحقيقي للمسيح هو نفس المؤمن فلنزنيته ونقدّم له ثياباً، لنقدّم له هبات، ولنزجّب بالمسيح الذي فيه! ما نفع الحوائط المرصعة بالجواهر إن كان المسيح في الفقير في خطر الهلاك بسبب الجوع^٥؟

القديس جيروم

❖ ليكرم الأرامل والأيتام مثل المذبح.

تعاليم الاثني عشر رسولاً

❖ عندما يقترب إنسان من الموت ليت صديق ذلك الشخص الذي يموت يعد له الأكفان ويحث الراحل أن يترك شيئاً للمحتاجين. ليرسله بهذه الثياب إلى القبر، تاركاً المسيح وارثاً له^٦.

القديس يوحنا الذهبي الفم

¹ In Acts hom 45.

² Duties of Clergy 2:28.

³ Conc. Widows, 9 (54).

⁴ Ep. 54:12.

⁵ Ep. 58:7.

⁶ Homilies on Hebrews, hom. 27:9.

ثانيًا: ستخرج من العالم مثله عاريًا

عجبًا أن نفتخر على الفقير بالأكل الدسم والثياب الثمينة والمقتنيات الكثيرة، مع أننا جميعًا ندرك أننا: "لم ندخل العالم بشيء"، كما أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء، فأبي فخر لنا على الآخرين؟!

❖ قد تقول إنني لست مثل من يسألني شيئًا، فشتان ما بيني وبينه؟ واحد يلبس حرير أو ينتفخ متكبرًا في حديثه مع شخص مغطى بخرق...

أنظر أيها الغني واستدع ذاكرتك الأولى. أنظر إن كنت قد جلبت معك شيئًا. حقًا قد أتيت ووجدت هنا غني فادحًا، لكنني أتوسل إليك أن تخبرني: ماذا قد أحضرت معك إلى هنا؟ أخبرني، فإن كنت تخجل، اسمع ما يقوله الرسول: "لم ندخل العالم بشيء" (١ تي ٦: ٧) ... ولكن إن كنت لم تدخل العالم بشيء لكنك وجدت هنا الكثير، فهل تأخذ معك شيئًا إلى هناك؟ ... لتسمع عن هذا أيضًا، فيخبرك الرسول الذي لا يتملق أحدًا: "إننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء" ... إذن لماذا تنتفخ بنفسك على الفقير؟...

لتلد امرأة غنية مع أخرى فقيرة، ولندعهما لا يلاحظان طفليهما، لنخرجهما إلى فترة قصيرة ثم نرجعهما، وعندئذ ليعرفا طفليهما إن استطاعا!

أنظر إذن أيها الغني أنك لم تدخل العالم بشيء، وواضح أنك لا تقدر أن تخرج منه بشيء، وما قلته في حالة الميلاد أقوله فيما يخص الموت... فإن فتحت قبور قديمة لسبب ما، فليظهروا عظام الغني إن استطاعوا!

قد تقول: إنني حصلت على مأدبة غالية وأقتات بقوتٍ غالٍ، وأما الفقير فبماذا يقات؟ بطعام رخيص... حسنًا. ولكن بعدما تشبعان، عندما يدخل الثمين إلى جوفك، أسألك ماذا يكون حال دخوله؟! لو كان في داخلنا مرآة أما كنا نخل من كل الأطعمة الغالية التي شبعنا منها؟!

الفقير يجوع والغني أيضًا، الفقير يطلب شعبًا والغني أيضًا، الفقير يشبع بطعام زهيد والغني بقوتٍ غالٍ، لكن كليهما تشابها في الشبع...

أحدهما يبلغ رغبته بطريق قصير، والآخر بطريقٍ ملتوٍ. قد تقول أنني أتلذذ بالأكثر بطعامي الثمين. حقًا، بل ويصعب أن تكتفي وترضى بما أنت عليه. إنك لم تختبر اللذة التي يخلقها الجوع. لست أقول هذا لكي أخبر الغني أن يقات بطعام الفقير وشرابه، بل

فليعملوا بحسب ما اعتاد ضعفهم عليه، لكنهم يجب أن يحزنوا لعدم قدرتهم على العمل بخلاف ذلك (أي أكل الطعام الزهيد)... إن كان الفقير لا ينتخ بفقره، فكيف تنتخ أنت بضعفك. استخدم كل ما يحلو لك وكل الطعام الغالي، لأنك اعتدت عليه لا تستطيع أن تفعل غير هذا، لأنك تمرض إن غيرت ما اعتدت عليه...
إنكما تسلكان طريقاً واحداً، وهو لا يحمل شيئاً، أما أنت فمُنْقَل لل غاية. إنه لا يحمل شيئاً معه، وأنت تحمل فوق احتياجاتك، أعطه ممّا هو معك وبذلك تقوته، وفي نفس الوقت تخفّف من حملك¹.

القديس أغسطينوس

ثالثاً: يقدّم لك أبلغ العظات

أروع العظات تلك التي تعبر عن حقيقة الحياة المتغيرة، لكن مهما أوتي الواعظ من البلاغة، كيف يستطيع أن يتحدّث كالفقير الذي اختبر بنفسه حقيقة الحياة؟! ❖
لا يوجد طبيب حاذق في إزالة الفساد من جراحاتنا باستخدام الآلات مثلاً يفعل الفقير الذي يمد يده اليمين، ويحمل الصدقة، شافياً القروح التي سببت جراحاتنا.
وما هو مدهش بحق أنهم يقومون بهذه العملية الممتازة دون أن يحدثوا ألماً أو تعذيباً، فنحن الذين نقود الشعب، ونقدّم لهم نصائح قديمة، لا نستطيع أن نقدّم عظة مثل هؤلاء الذين يجلسون على أبواب الكنائس صامتين حاملين الألم.
فنحن كل يوم نبوّق لكم قائلين: "أيها الرجال، لا تتكبروا، فإن الحياة البشريّة ستنتهي، فهي تستعد للسقوط. إن شبابنا يسرع نحو الشيخوخة، وجمالنا ينتهي إلى القبح، وقوّتنا إلى الضعف، وكرامتنا إلى الهوان، وصحتنا إلى المرض، ومجدنا إلى لا شيء، وغنانا إلى فقر، واهتماماتنا تتجرف كما بتيارٍ شديدٍ دون أن تبقى".
إن نفس هذه العظة، بل وأعظم منها يقدّمها لنا هؤلاء بمظهرهم واختباراتهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

رابعاً: قد يغتني، وأنت تفتقر!

❖ نخطئ إذ نقيس الغنى بالمقاييس الماديّة الزائلة، فنحسب أنفسنا أغنياء وهم فقراء، مع أن ربنا يسوع نظر في الأرملة التي أعطت كل ما عندها أنها غنيّة جدّاً، وأما الأغنياء

¹ Sermons on the N.T. Lessons.

فرآهم فقراء بائسين.

يا للجهلاء الذين يلعنون الفقراء، ويزعمون أن الفقر يدنس المنازل ويقبحها. قل لي: ما الذي يدنس المنزل، هل عدم وجود الأسرة التي من العاج أو الأواني الفضية... أم تلك المنازل التي تحاكي أماكن الرقص؟

تعلم كيف يكون للمنزل جمال وزينة، أدخل إلي منزل زكا لتتعلم منه فإنه لما كان السيد المسيح مزمعاً أن يدخل فيه، لم يزينه زكا بإعارته أبواباً ديباجية وكراسٍ وأسرة عاجية، ولا أخرج من خزائنه الأبسطة العظيمة، بل زين المنزل بزينة تليق بالسيد المسيح، إذ قال: "سأعطي المساكين نصف أموالي، ومن وشيت به أرد له أربعة أضعاف..."

وكرنيليوس كان يزين منزله بالصلوات والصدقات، وهاهو اليوم مزهر ومتلألئ أكثر من قصور الملوك.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لقد أخطأت وخدعت نفسك إذ تحسب نفسك غنياً في هذا العالم. أنصت إلى صوت الرب في سفر الرؤيا، موبخاً من هم على شاكلتك، بتوبيخات مقدسة قائلاً: "لأنك تقول إني أنا غني وقد استغنيت، ولا حاجة لي إلى شيء، ولست تعلم أنك أنت الشقي والبائس وفقير وأعمى وعريان، أشير عليك أن تشتري مني ذهباً مصفى بالنار لكي تستغني، وثياباً بيضاء لكي تلبس فلا يظهر خزي عريتك. كحل عينيك بكحل لكي تبصر" (رؤ ٣: ١٧-١٨).

أيها الغني، اشتر لنفسك من المسيح ذهباً مصفى بالنار، حتى تصير ذهباً نقياً، فتحترق نجاستك كما بنار، إن غسلتها بالصدقات...

اشتر لنفسك ثياباً بيضاء، فتلبس ثوب المسيح الأبيض، يا من تعريت منذ آدم وصرت خائفاً ومخزياً.

يا من أنت غني وثري في كنيسة المسيح، كحل عينيك، لا بروائح الشيطان بل بكحل المسيح... لأن عينيك اللتين أظلمتا بظلام السواد وتظلمتا في الليل، لا تنظران المحتاج والفقير.

ليخجل الأغنياء من فقرهم وعدم إيمانهم، فالأرملة المحتاجة مادياً، ووجدت غنية في الأعمال. ومع أن ما قدم سيوزع على الأرامل والأيتام، فإن تلك التي لاق بها أن

تأخذ أعطت.

الشهيد كبريانوس

حول خدمة المساكين

أولاً: اخدم بنفسك

يذكر لنا التاريخ الحديث عن الأنبا صرابامون أسقف المنوفية أنه كان يسير متنكراً في الليل حاملاً سلة ثقيلة بها احتياجات الفقراء، حتى ظنّه أحد خدام البطركية بالقاهرة لصاً، فسار خلفه حتى رآه يقف ببابٍ ويقرعه، فانفتح له الباب وسلم السلة دون أن ينطق بكلمة واحدة، وعاد من حيث أتى. عندئذ تقدّم الخادم الذي يُدعى حنا النجار، وأمسك به، فما رآه حتى علم أنه الأنبا صرابامون، فقد كان يحمل الدقيق والقمح بنفسه إلى العائلات التي تخجل من أن تطلب صدقة. وهكذا من يدرك محبة المسيح له يشاق أن يخدمه في إخوته الفقراء بنفسه.

❖ كثيرون يقدمون الصدقة، لكن قليلين هم الذين يخدمون المساكين بأنفسهم في شوقٍ وباشتھاءٍ، لأن هؤلاء يحتاجون إلى شجاعةٍ وإلى نفسٍ قويّة.

❖ تأمل ما صنعه الشيخ المكرم إبراهيم في منتصف النهار وقت الظهيرة، حيث لم يجلس تحت سقفٍ، بل ترك ذلك الحسيب، أب الآباء، بيته وامراته وأولاده وغلماينه، وخرج باسطاً شباك رحمته لاقتناص محبة الغرباء، حتى لا يفوته إنسان أو يهرب منه غريب أو عابر سبيل دون أن يستضيفه.

انظر ماذا صنع إبراهيم؟ إنه لم يرسل عبده لينفذ أغراضه... لعلمه أن جنس العبيد ذو إهمال وكسل، ولئلا بتهاونه يفوته الصيد، ويتجاوز الغريب دون أن يشعر به، لهذا باشر الأمر بنفسه.

ثم دعا سارة امرأته لتشاركه محبة الغرباء، لأنه بالنسبة للمتقين في المحبة، للرجل والمرأة، يلزمهما أن ينفذا محبة الغرباء معاً... فقد قال لها: انهضي وأعدي الدقيق واخبزي خبزاً جيداً... أما سارة المحبة لإضافة الغرباء فلم تخالفه، ولا قالت له ما تقوله أكثر نساء زماننا: ما هذا الذي أصابني منك؟! ألعلي عاملة أو خبازة حتى أخبز خبزاً؟! ها الخادما كثيرات، فلم لا تأمرهن بذلك؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

ثانيًا: اعطِ بسخاءٍ وسرورٍ

القلب الذي امتلأ بالحب أي بالله لا يكف عن أن يعمل كأبيه الصالح "يعطي الجميع بسخاء ولا يعير" (يع ١ : ٥).

قلب المؤمن الحقيقي يشبع برّبنا يسوع المسيح حبيبته، فيكون محبًا للعطاء أكثر من الأخذ، يعطي بفرح وسرور، لا عن ضيق وتذمر أو تغصّب، بل يتوق لو باع جسده وقدم ثمنه للآخرين في رضى.

والقلب الذي قدّم ذاته أولاً للرب (٢ كو ٨ : ٥) لا يحتاج إلى من يوصيه بالعطاء بسخاء، إذ لا يملك حتى ذاته. ومع ذلك أوصانا الكتاب: "على قدر ما تسمح يدك أن تعطي كما يباركك الرب إلهك" (١٦ : ١٠)،

"أوص الأغنياء في الدهر الحاضر... أن يكونوا أسخياء في العطاء كرماء في التوزيع" (١ تي ٦ : ١٧-١٨).

"لتكون هي معدّة هكذا كأنها بركة لا كأنها بخل، هذا وإن من يزرع بالشرح فبالشرح أيضًا يحصد. ومن يزرع بالبركات فبالبركات أيضًا يحصد. كل واحد كما ينوي بقلبه ليس عن حزن أو اضطرار، لأن المعطى المسرور يحبه الله" (٢ كو ٩ : ٥-٧).

❖ لا يكفي أن نظهر رحمة، وإنما يليق بنا أن نقدّمها باتساع، بروح سميحة، وليس فقط بروح سميحة بل بروح فرحة مبتهجة...

وقد ركّز على نفس النقطة بقوة عندما كتب إلى أهل كورنثوس ليحثهم على الاتساع، إذ يقول: "من يزرع بالشرح فبالشرح أيضًا يحصد، ومن يزرع بالبركات فبالبركات أيضًا يحصد" (٢ كو ٩ : ٦). ولكي يصحّ مزاجهم يقول: "ليس عن حزنٍ أو اضطرارٍ" (٢ كو ٩ : ٧)... فإنك إن حزنت وأنت تصنع رحمة فأنت قاس وعنيف.

إن كنت حزينًا كيف تقدر أن تسند الذين هم في حزن؟... هذا هو السبب في قوله "الراحم فيسرور"، لأنه كيف يكون حزين الملامح من يتقبّل الملكوت؟! من يبقى كئيب النظرة وهو ينال غفران خطاياها؟ إذن لا تفكر في إنفاقك المال (عمل الرحمة) بل في الفيض الذي تناله خلال الإنفاق. فإن كان الذي يبذر يفرح مع أنه يبذر وهو غير متأكد من جهة الحصاد، كم بالأكثر من يُفلح السماوات؟ فإنك تعطي إنما القليل لتتال الكثير... بالفلسين حُسبت الأرملة أنها فاقت من قدم وزنات كثيرة وذلك بسبب روحها

المتسع^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

أمثلة

❖ قال أنبا يوسف مرةً بخصوص المحبة: إن أخًا جاء إلى أنبا أغاثون فوجد معه مسلةً خياطة، فأعجب الأخ بها لأنها كانت جيّدة، فما كان من الشيخ أنه لم يتركه يمضي إلا بها.

❖ مضى الأب أغاثون مرةً لبيع عمل يديه، فوجد إنسانًا غريبًا مطروحًا، ليس له من يهتم به. فحمله واستأجر له منزلًا، وأقام معه يخدمه ويعمل بيديه ويدفع أجره المسكن، وينفق على العليل مدة أربعة أشهر حتى شُفي. وبعد ذلك انطلق إلى البرية، وكان يقول: كنت أشاء لو وجّدت رجلًا مجذومًا، يأخذ جسدي ويعطيني جسده.

❖ حدث مرةً أن مضى إلى المدينة لبيع عمل يديه، فوجد إنسانًا مجذومًا على الطريق، فقال له المجذوم: اصنع معي رحمة وخذني معك. فحمله وأتى به إلى المدينة. ثم قال له المجذوم: خذني إلى حيث تبيع عمل يديك فأخذه. ولما باع عمل يديه سأله المجذوم: بكم بعت؟ فقال: بكذا وكذا. فقال له: اشتر لي شبكة. فاشترى له... ومضى وباع ثم عاد، فقال له المجذوم: بكم بعت؟... خذ لي كذا وكذا من الأطعمة، فأخذ له. ولما أراد المضى إلى قلايته قال له: خذني إلى الموضع الذي وجدتني فيه أولاً، فحمله وردّه إليه. فقال الرجل مبارك أنت من الرب إلهنا الذي خلق السماء والأرض. فرفع أنبا أغاثون عينيه فلم يره، لأنه كان ملاك الرب أرسل إليه ليجزيه.

بستان الرهبان

❖ إن سألك أخ أن تعيره إناءك فأعطه إيّاه، بالرغم من احتياجك إليه وعدم وجود غيره لديك، وإيّاك أن تجلس بعد ذلك متضايقًا مرتبكا، فخير لك أن يهلك أحد أعضائك من أن يذهب جسّدك كله إلى جهنم^٢.

أنبا إشعيا

وتكشف لنا رسالة الأب جيروم إلى يوستوخيوم عن سمات المسيحي الحقيقي في

^١ In Rom. hom. 21.

^٢ عن بستان الرهبان.

عطائه بسخاء، فقد تحدّث عن والدتها المنتقلة Paula قائلاً:

❖ إن رأيت Paula إنساناً فقيراً عالتة. وإن رأيت غنياً حتّته على صنع الخير. سخاؤها بلا حدود. حقاً، فقد كانت حريصة ألا تردّ فقيراً فارغاً، ولو اقترضت من أجله بالربا...
إنني كنت أخطئ عندما كنت انتهرها على إسرافها في السخاء، محدثاً إيّاها بكلمات الرسول القائل: "فإنه ليس لكي يكون للآخرين راحة ولكم ضيق. بل بحسب المساواة. لكي تكون في هذا الوقت فضلاتكم لأعوازكم لتصير فضالتكم لأعوازكم! حتى تحصل المساواة" (٢ كو ٨: ١٣-١٤).

أما هي فبتواضعها وبإجابتها المختصرة أفحمتني، إذ قالت: "الله شاهد علي، أن ما اصنعه إنما لأجل الله. إن طلبتي أن أموت شحادة لا أترك فلساً واحداً لابنتي، بل تقترض من الغرباء لشراء أكفاني". وقد ختمت حديثها بهذه الكلمات: "إنني إن شحذت أجد كثيرين يعطونني، أما هذا الفقير فإن لم يجد عوناً مني بأن اقترض وأعطيه يموت، وإن مات فممن تطلب نفسه؟"

كنت أرغب فيها أن تكون أكثر حرصاً في تدبير ممتلكاتها، لكن إيمانها كان أقوى من إيماني، ملتصقة بالرب بكل قلبها، فقد اتّبعَت بمسكنة روحها الرب في فقره، وردّت له ما أخذته منه لتصير فقيرة من أجله...

لقد أعطت أموالها لكل سائل بحسب احتياجه! لم تردّ فقيراً ما فارغ اليدين.
وهذا كله لم تستطع أن تصنعه بسبب كثرة غناها، بل بعنايتها في تدبيرها لثروتها.
دائماً تجدين على شفيتها أمثال هذه العبارات:
"طوبى للرحماء لأنهم يرحمون"
"كما أن الماء تطفئ النار، كذلك الصدقة تخدم الذنوب".

"اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم، حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبديّة!"
القديس إيرونيموس

ثالثاً: ادع المساكين إلى ولائكم

❖ ليكن مرافقوك والذين يأكلون معك أناساً فقراء وأحراراً، وليس خائنين ومغنيين، فيكون منزلك كنيسة لا مسرحاً، فيهرب الشيطان، ويدخل المسيح ومعه زمرة الملائكة.
❖ هذه المائدة التي للفقراء يكون فيها السيّد المسيح، وأما تلك التي للعظماء فيكون فيها العبيد... والإتكاء مع الله الملك يوجب اللذة أكثر من الإتكاء مع العبيد.

١. فأنتني أنا والذين معي اخترنا مائدة الفقراء لنكون في حرية وبهجة، لتتكلم ونسمع ما نشاء. أما أنتم يا من اخترتم مائدة العظماء، فتكونون كالجالسين في المدرسة وليس على مائدة غذاء...

٢. ومن جهة المصاريف فهذه المائدة أفضل، أما تلك فنفقاتها كثيرة... إذ يخشى المرء أن يعمل شيئاً بلا تمييز فيذمه الكثيرون...

٣. في الوليمة الأولى يفقد الشخص معرفه حالاً، أما الأخرى فيبقى الإله مدينه... لأن الطعام يُباد، أما النعمة فلا تُباد، بل تجعله مسروراً كل يوم أكثر ممّن يشربون الخمر.

٤. لننظر ماذا يحدث أثناء تقديم المائدة، ففي الوليمة الأولى نجد الآلات الموسيقية، أما الثانية فلا تجد شيئاً من هذا، بل نجد تسابيح وتراتيل. فهناك تسبحة للشياطين، وأما هنا فتسبحة الإله سيد الكل... كيف لا يكون أمراً رديئاً أن تجمع في دارك مغنيات، وتتلذذ كالخزيرة المترعة في الحمأة؟!

٥. أتريد أن تعرف نهاية الوليمة؟ الذين ينهضون عن تلك الوليمة يشبهون المصروعين والمجانين، فيضحك عليهم الخدام... أما مائدة المساكين فلا يُوجد مثلها، إذ تُرفع بالشكر...

٦. الذي يدعو المساكين يدفعه إلى هذا الحنو والوداعة، أما الذي يقدم تلك الوليمة فيقدمها بالمجد الفارغ...

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الدرس الذي تعلمنا إيّاه هو حب الفقراء، الأمر الثمين في عيني الله...

هل تشعر بالسرور عندما يمدحك أصدقاؤك وأقاربك الذين تستضيفهم في الوليمة؟ أخبرك بما هو أفضل، فإن الملائكة تمدح سخاءك، والقوات العلوية العاقلة والقديسون يفعلون ذلك، بل ويقبل هذا الله أيضاً الذي يسمو بالكل، ويحب الرحمة والحنو.

اقرضه ولا تخف، فسيرده إليك ومعه ربا، إذ قيل: "من يرحم الفقير يقرض الرب" (أم ١٩: ١٧). أنه يعرف القرض ويعد بالوفاء به (مت ١٨: ٢٣ الخ)... اقتنِ النعمة النابعة عن الله.

اقتنِ لك رب السماء والأرض صديقًا، فإنه بالحق يقتني الإنسان صداقة البشر غالبًا بذهبٍ كثيرٍ، فإن تصالح معنا أصحاب الرتب العالية نشعر بفرحٍ عظيمٍ بتقديم هدايا أكثر من طاقتنا بسبب نوالنا كرامة الالتصاق بهم، ومع هذا فإن هذه الأمور زائلة، تنتهي سريعًا تعبر كخيال الأحلام.

ألا يليق بنا أن نحسب عضويتنا في بيت الله تستحق أن نقتنيها؟
أما نحسبها أمرًا عظيمًا؟

فبالأكيد بعد القيامة من الأموات سنقف في حضرة المسيح، وتُقدّم المكافأة للمتفرقين والرحماء، وتكون الدينونة قاسيةً علي العنفاء الذين لم يكن لهم الحب الطبيعي... إذ قيل: "لأن الحكم هو بلا رحمة لمن لم يعمل رحمة" (يع ٢: ١٣).
القديس كيرلس الكبير

رابعًا: عطاء للمحطّمين والمحتاجين والمرضى والقديسين

لا يقف العطاء عند الجانب المادي، إنّما يلزمنا أن نسكب الحب كطيبٍ، ندهن به قدمي المخلص نفسه خلال هؤلاء الأصاغر، أي النفوس المحطّمة والمحتاجة والمرضى والفقراء من القديسين، هؤلاء الذين يُحسبون قدمي السيد المسيح.

❖ مات المسيح مرّة ودُفن مرّة واحدة، ومع هذا يؤدّ أن يُسكب الطيب على قدميه كل يومٍ. من هم الذي يُحسبون قدمين للمسيح، فنسكب عليهم الطيب إلا الذين قال عنهم: "بما أنكم فعلتم بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم". هاتان هما القدمان اللتان أنعشتهما المرأة المذكورة في الإنجيل، وغسلتهما بدموعها^١.

القديس أمبروسيوس

❖ لا يتحقّق العطاء بالمال وحده بل وبالأعمال، كأن يسند إنسان آخر أو يعاونه بالعمل، فإن الخدمة التي يقدّمها بالعمل كثيرًا ما تكون أفضل من العطاء النقدي.
قدّم كل أنواع العطاء!...

لا نقل أنني لست صاحب مال، بل انظر إلى ما تقدّمه كمن يقدّم ذهبًا^٢.

❖ الصدقة دواء لكل جرح. لكن الصدقة لا تُمارس بالعطاء المالي وحده، بل بكل ما يمكن

^١ Ep. 41:23.

^٢ In Acts, homily 25.

للإنسان أن يريح به آخر، فالطبيب يعالج والحكيم يقدم مشورة^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ تخطئ في حق كل من تقدر أن تعينه ولا تساعده.

القديس باسيليوس الكبير

❖ يظهر أنه بالحق الرحمة نحو الفقراء تسكب زيتاً على ذبيحة الله، أما الخدمة المقدمة للقديسين فتضيف عذوبة البخور^٢.

العلامة أوريجينوس

❖ عندما يركز شخص ما وأنتم تخدمونه، تشاركونه أكاليه. فإنه حتى في المصارعة لا يأخذ الإكليل من يغلب فقط، وإنما يشاركه فيه مدربه والحاضرون وكل الذين أعدوا حلقة المصارعة. فالذين يقودونه ويدربونه بحق يشاركونه نصرته... إن كنا نخدم القديسين بطيب قلب نشاركهم مكافأتهم. هذا ما يخبرنا به المسيح أيضاً: "اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم، حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبديّة" (لو ١٦ : ٩)^٣.

❖ يا لعظمة مديحه لهم (أهل فيلبي)! فإن أهل كورنثوس وروما يُثارون عندما يسمعون هذا منه، فقد فعل أهل فيلبي هذا دون أية كنيسة أخرى، وكانوا هم المبتدئين. إذ يقول: "في بداءة الإنجيل" أعلنوا دون غيرهم عن مساندتهم للرسول القديس، بكونهم المبادرين بالعمل دون وجود أي مثالي يقتدون به، حاملين هذا الثمر.

ولا يستطيع أحد أن يقول أنهم فعلوا هذا لأنه سكن معهم أو لأجل نفعهم، إذ يقول: "لما خرجت من مكدونية، لم تشاركني كنيسة واحدة في حساب العطاء والأخذ إلا أنتم وحدكم". ماذا يعني "العطاء"، و"المشاركة"؟ إذ لم يقل: "لم تعطني كنيسة واحدة"، بل "تشاركني في حساب العطاء والأخذ"؟ إنه موضوع شركة!

يقول: "إن كنا نحن قد زرنا لكم الروحيات، أفعظيم إن حصدنا منكم الجسديات؟ (١ كو ٩: ١١) مرة أخرى يقول: "تكون فضالتكم لأعوازهم" (٢ كو ٨: ١٤). كيف شارك هؤلاء؟ بالعطاء في الجسديات وقبول الروحيات. فكما أن الذين يبيعون ويشترون يشاركون بعضهم البعض بالعطاء المشترك مما لهم، هكذا الأمر هنا.

¹ In Act. Hom 25.

² Homilies on Leviticus 4:9:1.

³ Homilies on Philippians, homily 1.

إنه ليس أمر ما أكثر نفعًا من هذه التجارة والمقايضة. تبدأ علي الأرض وتتم في السماء. الذين يشترون هم على الأرض، لكنهم يشترون وينتفعون بما يخص السماويات، بينما يقدمون ثمنًا أرضيًا^١.

❖ قلت مرارًا أن الصدقة تُقدم ليس من أجل مستلميها بل من أجل الذين يعطونها، لأن الآخرين ينتفعون بها بطريقة أعظم.

هذا ما يظهره بولس هنا أيضًا. فأهل فيلبي أرسلوا إليه شيئًا بعد فترة طويلة، وفعلوا نفس الشيء مع أبفروتس. انظروا الآن كيف أنه إذ هو مزعج أن يرسل أبفروتس حاملاً هذه الرسالة يمدحهم، مظهرًا أن هذا العمل هو من أجل حاجة المُعطين، لا المستلمين لها. فعل هذا لكي ما لا ينتفخ الذين قدموا له إحسانًا بالزهو، وأن يصيروا في أكثر غيرة في ممارسة العمل الصالح. إذ هم بالحري ينالون نفعًا لنفوسهم، بينما الذين يتقبلون العطايا لا يندفعون بجسارة لينالوا العطية حتى لا يُقابلو بالنقد.

يقول الرب: "مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ" (أع ٢٠: ٣٥).

لماذا يقول: "ثم إني فرحت بالرب جدًا"؟ يقول ليس بفرح عالمي، ولا بفرح هذه الحياة، وإنما في الرب. ليس لأنني تسلمت قوتًا (معونة)، وإنما من أجل تقدمكم، فإن هذا هو قوتي. لهذا يقول "جدًا (فرحًا عظيمًا)"، حيث أن الفرح ليس جسدانيًا ولا من أجل قوت، بل من أجل تقدمهم^٢.

❖ إذ يرى الذين يقدمون العطايا من يتسلمها لا يتعاطف معهم بل يحتقر عطاياهم، يسقطون بالأكثر في حالة بلادة... لذلك عالج بولس هذا الأمر. فما قاله قبلاً حط من أفكارهم المتشامخة، وما جاء بعد ذلك أنعش استعدادهم للعمل، إذ يقول: "غير أنكم فعلتم حسنًا، إذ اشركتم في ضيقتي". انظروا كيف استبعد نفسه، ثم عاد فاتحد بهم. هذا هو دور الصداقة الروحية الحقيقية. يقول: "لا تظنوا لأنني في غير احتياج لست محتاجًا إلى عملكم هذا. إني محتاج إليه من أجلكم. لم يقل: "أعطيتكموني" بل "اشركتم"، ليظهر أنهم هم أيضًا انتفعوا، إذ صاروا شركاء في أتعابه. لم يقل "خفقتم" ضيقتي بل "اشركتم في ضيقتي" وهو أمر أسمى^٣.

¹ Homilies on Philippians, homily 15.

² Homilies on Philippians, homily 15.

³ Homilies on Philippians, homily 15.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما ساعد الإخوة الطوباوي الرسول بولس في احتياجات ضيقته قال إن هذه الأعمال الصالحة هي ذبائح الله... فإنه عندما يترفق أحد بمسكين يقرض الله، وعندما يعطي الأصاغر يعطي الله ذبائح روحية رائحة رضا¹.

الشهيد كبريانوس

❖ ليتنا لا نتجاهل المسيح بعدم اهتمامنا بمرض قريبنا فإنه يلزمنا أن نحب المرضى من أجل المسيح.

القديس أغسطينوس

خامسًا: هل نبحث عن استحقاقاتهم؟

الصدقة مقدمة شخصية للرب ذاته، بغض النظر عن مستلم التقدمة والمتصرف فيها، دافعها الحب الحقيقي الذي يربطنا بالرب ويربطنا ببعضنا البعض في الرب. جاء في بستان الرهبان:

❖ كان لراهب ثوب جيد، فتصدّق به علي مسكين، وبعد يوم مرّ الراهب بالمدينة، فأبصر ثوبه على زانية، فحزن جدًا. فترأى له ملاك الرب وقال له: لا تحزن لأن ثوبك لبسته زانية، لأنك ساعة أن دفعته لذلك المسكين لبسه المسيح، وإن كان ذاك قد أعطاه للزانية فهو يحمل إثمه على نفسه.

بستان الرهبان

❖ الأفضل لك أن يدعوك الكثيرون عاميًا، لأجل بساطة يدك في العطاء بقصد مخافة الرب، لا طلبًا للمديح، ولا يدعوك حكيمًا رزين العقل لأجل عدم إعطائك كل أحد. فإن مدّ إليك فارس يده طالبًا صدقة ما لا تردّه... لأنه في ذلك الوقت لا محالة محتاج كواحد من الضعفاء. وإذا منحته، فليكن ذلك بطيب نفس وبهجة وجه... لا تفحص غنيًا من فقير، ولا تعرف المستحق من غير المستحق، بل ليكن الناس كلهم عندك متساوين في الخير. لأنك بهذا تقدر أن تجذب إلى الخير غير المستحق... والدليل على ذلك أن الرب تقدّس اسمه شارك في موائد عشّارين وزواني، ولم يفرز غير المستحقين... لأنه بالشركة في الجسديّات جذبهم إلى الشركة في الروحيّات. لهذه العلّة

¹ Treatise 4 on the Lord's Prayer, 33.

ساوى بين الناس قاطبة في الخير والكرامة.

القديس مار اسحق السرياني

❖ أترى إن كان الفقير شريفاً قاتلاً ولصاً وصانعاً للرزائل وسألك قوتاً لتغذية جسده، أو شيئاً يسيراً من الفضة لنفقته، أفما يحسن لديك أن تعطيه سؤاله؟ أليس هو مخلوقاً من الله مثلك؟!

انظر كيف يشرق سيّدك يسوع المسيح شمساً عليه، وأنت لا تجعله أهلاً للغذاء يوماً واحداً؟!...

يا هذا، إن رأيت حملاً ساقطاً، فإنك تقيمه دون أن تفحص عن صاحبه... فكم بالحرى يجب أن تعتني بالإنسان دون أن تفحص عنه: من أي مكان هو؟ وما هو نسبه؟ بل يكفيك أنه مخلوق مثلك!

❖ إذا رأينا واحداً من الشعب قد وقع في ضائقة فلنساعده، ولا يكون حرصنا كله منصرفاً نحو مساعدة سكان الجبال وقاطنيها ومدبري الأديرة والقفار.

❖ الصدقة المنصرفة نحو الخطاة والمجرمين هي الرحمة بعينها، لأن الرحمة هي أن ترحم المذنبين لا مستقيمي السبل.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الصدقة تُعطى، لكن بحكمة للمستحقين لكي ننال مكافأة من العلي.

ومن الويل للذين يأخذون مظهرًا مخادعًا، والذين يقدرّون على مساعدة أنفسهم ويطلبون من الغير، لأن من كان لديه ويتظاهر بمظهرٍ مخادعٍ أو يطلب بسبب الكسل، فإنه يُدان¹.

القديس إكليمنضس السكندري

❖ اصنعوا الخير من نتاج أعمالكم - التي يعطيها لكم الرب - أعطوا جميع المحتاجين في بساطة، غير مترددين لمن تعطوا أو لا تعطوا... أعطوا الجميع، فالله يريد أن عطاياه توزع على الكل، والذين يأخذون سيعطون حساباً لله... لماذا ولأي سبب أخذوا، أما من جهة المحتاجين الذين أخذوا فسوف لا يدانوا، لكن الذين أخذوا بتظاهرٍ مزيفٍ سيُعاقبون. إذن فالمعطي غير مذنب.

¹ Fragments from the Hypostypses.

هرماس

خامسًا: اخدم بحكمة وتمييز

❖ كل من سألك فأعطه بغير مقابل (لو ٦ : ٣٠). فإن الآب يريد أن يشترك الكل في نعمنا. طوبى للذي يعطي حسب الوصية، إذ هو بلا لوم. ويل لمن يأخذ بغير احتياج. إن أخذ أحد عن عوزٍ يُحسب بلا لوم. أما إن أخذ عن غير عوزٍ فسيُعطي حسابًا عن السبب والهدف اللذين من أجلهما أخذ. إنه يُلقى في السجن، ويُسأل عن مسلكه، ولا يخرج من هناك حتى يوفي الفلس الأخير (مت ٥ : ٢٦). لكن قيل أيضًا في هذا الصدد: لئبئلك إحسانك بعرق يديك^١، حتى تعرف لمن تعطي^٢.

الديداكية

❖ قد يسأل أحد: على أي أساس يلزمنا أن نبيع مالنا؟ هل لأنها أمور ضارة بطبعها؟ أو لأنها تمثل تجربة لنفوسنا؟ نجيب علي ذلك أولاً بأن لو كان كل ما في العالم شريرًا في ذاته لما حُسبت خليفة الله، لأن خليفة الله صالحة (١ تى ٤ : ٤). ثانيًا أن وصية ربنا تعلمنا أن ننزع الشر الذي فينا لا أن نقدمه للغير، قائلًا "اعطوا صدقة"^٣.

القديس باسيليوس الكبير

سادسًا: لا تعتذر بضعف إمكانياتك

❖ لا يوجّه الحديث عن الصدقة نحو الأغنياء والعظماء فحسب، بل والفقراء والمساكين أيضًا، لأن الصدقة فيها نفع وخلص للجميع. ولو كان أحدكم في ضيقٍ مادي، أو حتى يعتمد في معيشته على التسول، فإنني أحثّه عن الصدقة، إذ لا يوجد أحد محتاج وفقير حتى لا يملك من حطام الدنيا ما يساوي فلسين مثل الأرملة المسكينة ذات الفلسين.

❖ من يعطي قليلًا من القليل الذي لديه أفضل ممّن يعطي الكثير من الكثير، إذ يكون كالأرملة، فالصدقة لا تقدر بمال العطاء، بل بإرادة المعطي وقوّته. لأن الله يلتفت للقصد وعليه يجزل العطاء...

^١ المصدر غير معروف. ربما كتبه عن التعبيرات المتداولة في ذلك الوقت ألاّ تقدم المحبة أو العطاء بغير تمييز.

^٢ Didache 1:5-6.

^٣ Catena Aurea.

❖ إننا نرتكب معاصي كثيرة يوميًا، لذا نحتاج إلى إظهار رحمة عظيمة. لكن الكثرة والقلّة لا تُقاس بكميّة العطاء بل بكميّة وسائل العاطي... فإن لم يكن لك شيء بالمرّة، ولكن لك نفس متحنّنة فإنك حتى عن هذا تنال مكافأة.

لهذا يأمرنا الرسول "بكاء مع الباكين" (رو ١٢: ٨)، وينصحنا أن نكون مربوطين مع المسجونين (عب ١٢: ٣).^١

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ قدّم شيئًا ما مهما كان قليلاً، فإنه ليس بالقليل بالنسبة للمعدم. ولا هو بالقليل عند الله، إن كنّا نقدّم قدر ما نستطيع.

القديس غريغوريوس النزينزي

❖ ليس الاعتبار في الكمية التي قدمتها (الأرملة)، وإنما في الكمية التي تركتها لنفسها، فإنه لم يعط أحد أكثر منها إذ لم تترك لنفسها شيئاً.^٢

❖ كانت هذه الأرملة غنية، لأنها ألقت فلسين في الخزانة، وقد قال عنها المسيح: هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من الجميع؛ لأن الله يطلب الإيمان لا المال.^٣

القديس أمبروسيوس

❖ وُجدت أرملة في عوزٍ من جهة الوسيلة، لكنها كانت غنية في العمل. مع أن ما يُقدّم يُوزع على الأرمال والأيتام لكن التي كان يليق بها أن تأخذ أعطت.^٤

الشهيد كبريانوس

❖ ألم تقق (هذه الأرملة) فيض غناك بسبب استعدادها الداخلي؟ كتب الحكيم بولس شيئاً من هذا النوع: "لأنه إن كان النشاط موجوداً (الإرادة حاضرة)، فهو مقبول على حسب ما للإنسان، لا على حسب ما ليس له" (٢ كو ٨: ١٢). ليس فقط الغني ينال نعمة من الله بتقديمه ثمرًا للإخوة، فإن مخلص الجميع يقبل ذبيحته، وإنما أيضًا يهب نعمة للذي يقدم قليلاً لأنه يملك القليل، ولا يخسر الأخير شيئاً بسبب قلة ما يملكه. فإن الله ناظر الكل يمدح استعداده الداخلي، ويقبل نيته، ويجعله مساوياً للغني، بل بالحري يهبه

¹ In Rom. Homily 19.

² Conc. Widows 5.

³ Conc. Repent. 2: 9(82).

⁴ On Works& Alms 15.

إكليلاً أعظم كرامة مما للغني^١.

القديس كيرلس الكبير

❖ أتقول ليس لك قدرة على تقديم أعمال رحمة؟... فَلَكَ لسان، أيا كان فقرك فلك قدمان بهما تزور المريض، فتفتقد من في السجن. لك سقف تستقبل تحته غرباء. ليس هناك عذر قط لمن لا يمارس عمل الرحمة^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ما اشتريت به الأرملة بفلسين اشتراه بطرس بتركه الشباك (مت ٤ : ٢٠)، وزكا بتقديمه نصف أمواله (لو ١٩ : ٨).

❖ أي شيء يا إخوة أكثر قدرة من أنه ليس فقط زكا اشترى ملكوت السماوات بنصف أمواله (لو ١٩ : ٨)، وإنما اشترته الأرملة بفلسين، ليملك الاثنان نصيباً متساوياً؟ أي شيء أقدر من هذا أن ذات الملكوت الذي يتأهل له الغني بتقديم كنوزه يناله الفقير بتقديم كأس ماء بارد! (مت ١٠ : ٤٢)

❖ قليل هو مالها، لكن عظيم هو حبها^٣.

القديس أغسطينوس

❖ من يقدم نفسه لله إنما يقدم كل شيء له دفعة واحدة.

❖ مع كونها أرملة فقيرة، لكنها كانت أغنى من كل شعب إسرائيل.

❖ مثل هذه التقدّمات لا تُقدّر بوزنها، بل بالإرادة الصالحة التي قُدمت بها^٤.

القديس جيروم

سابعاً: لا تعتذر بكثرة أولادك

❖ قد نقول لذيّ أولاد كثيرون... لكن كثرة أولادك يجعلك تقدّم صدقات أكثر، لأنك أب لورثة كثيرين.

لديك كثيرون تطلب من الله لأجلهم، لأجل غفران خطاياهم وتنقية ضمائرهم وتحرير أنفسهم... هكذا قدّم أيوب ذبائح كثيرة من أجل أولاده... وقد شهد الكتاب المقدس

^١ In Luc. Ser. 148.

^٢ In Heb. hom 31: 8.

^٣ On Ps. 50, 112, 129.

^٤ Ep. 53: 11, 54: 17, 118: 5.

بذلك قائلاً: أن أيوب أرسل فقّسهم وبكر في الغد وأصعد محرقات على عددهم كلهم (أي ٥ : ١)

فإن كنت بالحق تحب أولادك، إن كنت تظهر لهم كمال حلاوة الحب الأبوي، ينبغي أن يزداد تقديم الصدقات عنهم لأجل ارتباطهم بالرب^١.

الشهيد كبريانوس

❖ قد يقال: وماذا أفعل نحو أطفالي؟... (من جهة الميراث).
لتزد بالحري واحداً على أولادك، أعط للمسيح مكاناً بين أبنائك.
ليضاف ربك إلى عائلتك. ليضاف خالك مع ذريتك. ليضاف يسوع أخوك في عداد أولادك. لأنه بالرغم من وجود فارقٍ عظيمٍ بينه وبينهم لكنه تتازل ليكون أخاً. فبالرغم من كونه ابن الله الوحيد، فقد وهب أن يكون له من يشاركه في الميراث.
انظر بأي سخاء أعطى؟! أما تعطيه فيما هو محتاج؟ إن كان لديك ابنان فأحسبه ثالثاً، لديك ثلاثة فأحسبه رابعاً، فلتعطه نصيباً حيث تحسبه كنصيب ابن...
القديس أغسطينوس

❖ أيها الأحباء الأعزاء، ليته لا يمتنع المسيحي عن صنع الخير والبرّ متخيلاً أنه يُمكن أن يُعفي من ذلك لأجل فائدة أولاده... إذ علمنا وحذرنا قائلاً: "من أحبّ أباً أو أمّاً أكثر منّي فلا يستحقني، ومن أحبّ ابناً أو ابنة أكثر منّي فلا يستحقني" (مت ١٠ : ٣٧) ... لأنه إن أحببنا الرب من كل القلب، ينبغي ألا نفضل عنه حتى الآباء أو الأبناء. وهذا ما سجله يوحنا في رسالته بأن غير الراغبين في إعطاء الفقير ليس فيهم حب الله. "وأما من كان له معيشة العالم، ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشائه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه؟" (١ يو ٣ : ١٧). وإن كان بالصدقات التي نقدّمها للفقراء نقرض الرب، وعندما نعطي الأصاغر نقدّم للمسيح، فإنه لا يوجد موضع لتفضيل الأمور الزمنية على السمائية والأشياء البشرية عن الإلهية.

هكذا فإن الأرملة التي ذُكرت في سفر الملوك الثالث (١ ملوك) عندما امتنع المطر وحدثت المجاعة، وقد استنفذت كل ما لديها، كانت عازمة أن تعمل بالدقيق والزيت المتبقي كعكة على القش، وبعد ذلك تموت مع طفلها، فجاءها إيليا، سائلاً أن تقدّم له هو أولاً ما يأكله، وما يتبقى بعد ذلك تأكل منه هي وابنها. لم تتردد في طاعته،

^١ Treatise 3:18.

ولا فضّلت ابنها عن إيليا أثناء جوعها وفقرها. لقد صنعت في نظر الله أمرًا يبهجه، لذلك استجاب الله بسرعةٍ وسخاءٍ. لم تقدّم كمّيّة عظيمة، لكنها قدّمت الكثير من القليل، قدّمت طعامًا له قبل أن تقدّمه لطفلها.

إنها لم تحرم ولدها ممّا قدّمته لإيليا، بل بالحرى فضلت ما قدّمته عطفاً وشفقةً على ولدها... بالرغم من أنها لم تكن قد سمعت حتى تلك اللحظة عن المسيح ولا وصاياه، ولم تكن قد تخلّصت بصليبه وآلامه... من هذا يظهر ثقل خطايا الذين في الكنيسة وقد فضّلوا أنفسهم وأولادهم عن المسيح، محتفظين بثروتهم دون أن يساهموا بنصيب وافر لفقر المحتاجين.

❖ يليق بك أن تجعل الله الأبدي غير المتغيّر أبًا لأولادك الروحيّين.

سلّمه ثروتك التي تريد أن تدّخرها لهم. اجعله حارسًا عليهم وضامناً ومحافظاً عليهم بقدرته الإلهيّة ضد مصائب الزمن... بذلك تمد ورثتك الأعزّاء بتطويبات المستقبل. هذا ما تُملّيه عليك العاطفة الأبويّة لأجل الاعتناء بمستقبل وارثيك، معتمداً على قول الكتاب: "كنت فتى والآن شخت، ولم أجد صديقاً تخلّى عنه، ولا ذريّة له تلتمس خبراً" (مز ٣٧: ٢٥). وقوله: "الصديق يسلك بكماله، طوبى لبنيه بعده" (أم ٢٠: ٧)¹.

الشهيد كبريانوس

❖ لا تزال محبة المال تنصحه بأن يأخذ مشورة لأجل أولاده، لكننا ألا نجد رجالاً كباراً في السن محبين للمال رغم عدم وجود أولادٍ لهم؟!

❖ أَلَمْ تسمعوا "إذا وفّرت ثروتكم، فلا تميلوا إليها قلوبكم" (راجع مز ٦١: ١٠)؟! ها أنتم تتالون أعمالاً مثمرة لكنكم تقلقون باطلاً، وإذ تسألون: كيف نقلق باطلاً ونحن نملأ خزانتنا، وأسوارنا بالكاد تحفظ ما قد نلناه؟! "أنكم تدخرون ذخائر، ولا تدرون من يضمّها" (راجع مز ٣٩: ٦). أمّا إن كنتم تعرفون لمن تجمعون هذه الذخائر، فأتوسل إليكم أن تخبروني؟... إنها لأطفالنا. هل تتجاسرون بأن تقولوا هكذا عن هؤلاء الذين يقرب موتهم؟ تجيبون بأن الحب الطبيعي يوجب على الأب أن يجمع لأبنائه. إنه أكثر بطلاناً أن يجمع الذين اقترَب موتهم للذين سيموتون عن قريب أيضاً. فإن

¹ Treatise 3: 16, 17, 19

كنتم تجمعون لأنفسكم فلماذا تجمعون مع أنكم ستتركون هذه جميعاً عند موتكم؟! وإن كنتم تجمعونها لأطفالكم، فإنهم سيخلفونكم، ولكن لا يمكنون كثيراً. لست أتكلم عن أخلاق أولادكم فربما بالفجور يبذرون ما جُمع بالطمع... أو بكِدٍ عظيم. لكنني سأتغاضى عن هذا. إنهم سيكونون صالحين لا فاسقين... سيزيدون على ما تتركوه لهم ولا يبذرون ما آخرتموه. إنهم يتساوون معكم في الباطل، إن قلّدوكم في هذا أنتم آباؤهم. سأقول لهم ما قلته لكم... "يذخرون ذخائر، ولا يدرون لمن يضمونها" فإذا لم تعرفوا لمن تجمعونها هكذا هم أيضاً لا يعرفون.

القديس أغسطينوس

❖ إنك تخشى فقدان ممتلكاتك عندما تبدأ أن تعطي بسخاء، ولا تعلم أيها البائس أنك فيما تخاف على ممتلكات عائلتك، تفقد الحياة نفسها والخلاص. بينما تقلق لئلا تنقص ثروتك لا تدرك أنك أنت نفسك تنقص!... بينما تخشى أن تفقد ميراثك لأجل نفسك، إذا بك تفقد نفسك لأجل ميراثك!¹

القديس كبريانوس

ثامناً: موقف الذين يتقبلون العطاء

❖ انظروا كيف يطلب لهم أن تحل عليهم البركات كما يفعل الفقراء (حين يتقبلون عطية ما). فإن كان بولس يبارك أولئك الذين أعطوا كم بالأولي بنا ألا نخجل من ذلك. عندما ننال (عطية من أحد)، لیتنا لا نتقبل العطية كما لو كنا نحن أنفسنا محتاجين، فلا نفرح من أجل أنفسنا، بل من أجل المعطين. نحن أنفسنا ننال مكافأة إن فرحنا من أجلكم. وليتنا لا نتضايق عندما يحجم الناس عن العطاء، بل بالحري نحزن من أجلهم. فإننا نجعلهم في أكثر غيرة إن علمناهم أننا لا نعمل هذا من أجل أنفسنا، إنما ليملاً إلهي "احتياجكم" بكل نعمة أو بكل فرح "حسب غناه"، أي حسب هبته المجانية، فهي بالنسبة له سهلة وممكنة وسريعة².

❖ "إذ قبلت من أبفرودتس الأشياء التي من عندكم نسيم رائحة طيبة، مقبولة مرضية عند الله". انظروا من الذي رفع عطيتهم، يقول: لست أنا، بل الله خلاصي، فمع إنني لست في عوزٍ، اذكروا أن الله الذي ليس له احتياج قبل من أياديكم مثل هذه. حتى أن الأسفار

¹ Almsgiving 11,12.

² Homilies on Philipians, homily 15.

المقدسة لا تحجم عن أن تقول: "تنسم الرب رائحة زكية" (تك ٢١:٨) حيث تشير إلى من هو مسرور. حقًا أنتم تعرفون كيف أن نفوسنا تتأثر بالروائح الزكية، كيف تُسر وكيف تبتهج. فلم تحجم الأسفار المقدسة عن أن تستخدم كلمة بشرية، وتطبقها على الله. وهكذا لكي تظهر للبشر أن عطاياهم مقبولة. لأنه ليست الشحوم ولا الدخان (البخور) يجعل الذبيحة مقبولة، بل غاية فكر من يقدمها^١.

❖ يوجد فرق بين من كان في عوزٍ ولا يطلب شيئًا، وبين من يكون في عوزٍ ولا يحسب نفسه أنه في عوزٍ. يقول الرسول: "ليس إنني أطلب العطية، بل أطلب الثمر المتكاثر لحسابكم". لست أطلب ما هو لي. هل ترون أن الثمر صادر منهم؟ يقول: هذا أقوله لأجلكم، وليس من أجلي، وإنما لخلاصكم. فإنني لست أربح شيئًا عندما آخذ، إنما يتمتع الذين يعطون بالنعمة، والمكافأة قائمة في مخزن المُعطين، أما العطايا فيستهلكها الذين يستلمونها هنا^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

¹ Homilies on Philippians, homily 15.

² Homilies on Philippians, homily 15.

بين العطاء والتقدمات

تكمُن قوّة العطاء في كونه حبًا عمليًا لله، كذلك التقدمات من بخور وأواني المذبح والكتب والستور الخ، فإن قيمتها ليست في ماديتها، بل في الحب الدافع لتقديمها. لذلك عندما سكبت المرأة الخاطئة الطيب على قدمي السيّد، فبالرغم من أن يهوذا اشتّم فيه رائحة الإتلاف وأنه كان الأجدر أن يقدّم ثمنه للفقراء، لكن ربّنا يسوع اشتّم فيه رائحة حبّها له.

هذا لا يعني عدم اهتمام الرب بالفقراء، بل على العكس كان يطلب حبّنا لإخوتنا قبل تقديم التقدمة. فالكنيسة عروس المسيح لا تقبل تقدمة إنسان غير مصطلح مع أخيه، أو إنسان ظالم أو إنسان قاسٍ لا يرحم المتألّمين. فهي لا تُسر بالأواني الذهبية والفضية التي يُقدّم فيها جسد الرب ودمه... بينما إخوته، بل جسده يموت جوعًا!

لا يمنع القديس يوحنا الذهبي الفم الاهتمام ببيت الله، ولا يقلل من قيمة التقدمات، لكن ينبغي ألا تكون بمبالغة، ويلزم أن يرافق هذا حبّنا لإخوتنا، لنلا نتشغل الكنيسة بالأواني الفاخرة والمباني الشاهقة عن الاهتمام بالرعاية الحقيقيّة للفقراء مادياً وروحياً.

❖ لا تظن أنه يكفي... أن نمتنع عن إعانة الأرامل والأيتام ونقدّم إلى المائدة المقدّسة كأساً ذهبيّة مرصّعة بالأحجار فإنك إن أردت أن تكرم الذبيحة، فقدّم أولاً النفس التي من أجلها دُبحت الذبيحة...

لا تفكّر فقط كيف تقدّم أوافي ذهبيّة، بل كيف تفعل هذا مع النفس التي هي أئمن من الذهب والبعيدة عن الزيف، فالكنيسة ليست متجرًا لصياغة الذهب، ولا حانوتًا لصك الفضة...

لم تكن المائدة في وقت المسيح من فضة، ولا الكأس التي ناول التلاميذ منها ذهبًا، لكنها كانت نفيسة ومرعبة لأنها مملوءة روحًا!

أتريد أن تكرم جسد يسوع، لا تتغافل عنه وهو عريان. فلا تكرمه هنا في الكنيسة بثياب ديباج وفي الخارج تضرب عنه صفحًا، وهو يموت من البرد والعري. لأن الذي قال: "هذا هو جسدي" مثبّتًا في قوله بالفعل، هو نفسه قال: "كنت جائعًا ولم تطعموني... وما دمت لم تعملوا هذا بأحد هؤلاء الأصاغر، فبي لم تعملوا". إنه غير

محتاج إلى كأس ذهبية، بل إلى نفس نقيّة!

لست أقول هذا مانعاً القيام بهذا العمل (تقديم الأواني الذهبية)، إنّما سائلاً الرحمة مع تقديم الأواني أو قبل تقديمها... لأنّ التقدمة هنا قد تكون على سبيل الافتخار والكبرياء، أمّا تلك فهي رحمة للبشر وحب لهم. أي منفعة أن تكون المائدة مملوءة أوانٍ ذهبية وهو يموت جوعاً؟! أشبعه أولاً وبعد ذلك زين المائدة. أتصنع كأساً ذهبية، ولا تقدّم كأس ماء بارد؟

ليت شعري، لو رأيته لابساً ثياباً رثّة والبرد قارس. فلم تعطه ثوباً، بل أقمت عمداً من فضة وذهب، قائلاً: أنك تقيم هذه العمد إكراماً له، أمّا تكون تقدمتك هذه لهواً وعبثاً وسخرية منك به، ويكون هذا العمل سبباً له؟! كذلك إن طاف السيّد المسيح تائهاً غريباً وهو محتاج إلى سقفٍ، فتركت ضيافته وزيّنت الأرض والحوائط. ورؤوس العمد وعلقت القناديل بسلاسل فضيّة، ولم تشأ أن تبصره وهو في السجن مقيداً... فما المنفعة؟

لست بذلك أمنع تقديم هذه، بل أريد أن نصنع ذاك قبل هذه، لأنّه لا يشتكي قط أنه لم تصنع له هذه... فهذه الأواني قد يأخذها أحد الملوك الكفرة أو السلاطين أو اللصوص، أمّا ما تصنعه مع الأخ الجائع والغريب والعريان فلا يستطيع حتى الشيطان نفسه أن يسلبه.

❖ فإن قلت إنني اعتيت بعمل كؤوس الفضة وموائد الذهب وستور الديباج برسم الأسرار المقدّسة، أقول لك اسمع قوله: "إني أريد رحمة لا ذبيحة" (مت ٩: ١٣). وقوله (للأشرار): "السماء كرسيّ، والأرض موطن لقدمي. أي بيت تبنون لي يقول الرب؟" (إش ٦٦: ١). وأعلم أن الله يهتم بخلّاص النفوس أفضل من اهتمامه بالتحف النفيسة...

القديس يوحنا الذهبي الفم

تحذير

❖ إذا رأيت قوماً قد صنعوا أوانٍ فاخرة للقدس وقربوها، أو زينة للكنيسة وضعت على الحوائط أو الأرض فلا تأمر أن تُباع... لئلا تخمد نشاطهم، أمّا إن سألك إنسان قبل أن يفعل فأمره أن يعطي المساكين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ (يتحدّث عن ضرورة اهتمام الكنيسة بالفقراء لا بفخامة المباني الكنسيّة)
قدّس ربّنا بفقره فقر بيته، لذلك فلنفكر في صليبه ونحسب الغنى نغاية.
لماذا تعجب من قول السيّد: "مال الظلم"؟ لماذا نطلب ونحب ما افتخر بطرس بأنه
لا يمتلكه (أع ٣: ٦)؟

❖ (في حديثه عن السيّد *Proba*)
باعت ممتلكاتها واقتنت لنفسها أصدقاء من مال الظلم، ففتسلم ذلك في المساكن
الأبدية.
حسنًا، هل يسقط خدام الكنيسة، أيا كانت رتبته، والرهبان الذين هم رهبان
بالاسم، في العار باقتنائهم ممتلكات بينما تبيع هذه الشريفة ممتلكاتها؟^١
القديس جيروم

^١ Ep. 54:12; 52:10; 130:7.

يا لعظمة العطاء

❖ الصدقة صناعة حانوتها في السماء، ومعلمها ليس إنساناً بل الله.

الصدقة صناعة من أفضل الصناعات، فإن كان من خصائص الصناعة أنها تؤدّي إلى نفع، فأی نفع أعظم ممّا تؤدّيه الصدقة؟!!

الصدقة لا تصنع لنا أحذية ولا تنسج ثياباً، ولا تبني منازل ترابيّة، لكنها تقيّدنا بالحياة الأبديّة، وتخطف من يد الموت، وتجعل فاعليها في كلا الحياتين زاهدين، تبني المنازل السمائيّة، والمظال الدهريّة الخالدة. إنها لا تترك مصابيحها تنطفئ، ولا تظهرنا في العرس بثياب قذرة، بل تغسلها وتصيرها أنقى من الثلج... لا تتركنا نسقط حيثما سقط الغنى، ولا نسمع الأقوال المرعبة، بل ترشدنا إلى حضن إبراهيم.

كل صناعة عالميّة تنتج نفعا (فضيلة) واحداً، فالزراعة تطعم، والنسيج يكسو... لا بل إنها وحدها لا تستطيع أن تنتج هذا النفع الواحد... فالزراعة ما لم تساعدنا صناعة الحديد لإنتاج الرفش والمنجل والفأس... وتساعدنا النجارة حيث تهبّ لها النير والعجلة... فما تستطيع أن تنتج هذا النفع الواحد كذلك صناعة النسيج، إذا أنتجت شيئاً، إنّما تدعو صناعات كثيرة لمساعدتها... أمّا الصدقة فما تحتاج إلى شيء آخر، إنّما تحتاج إلى نيّة لا غير. فإن قلت أنها تحتاج إلى أموالٍ ومنازلٍ وثيابٍ وأحذيةٍ، فافراً ما يقوله السيّد المسيح عن الأرملة.

إن العامل بهذه الصناعة أفضل من أن يكون ملكاً يلبس تاجاً...

الخطباء (المحامون) يقفون أمام الناس يدافعون عن المظلومين، وربّما عن الظالمين، أمّا الصدقة فتقف أمام منبر السيّد المسيح، وما تقتصر على الدفاع بنفسها، بل تجعل الحاكم نفسه يدافع عن المحكوم عليه، فتتجج القضية... فإنّه يكلفه ويرفع اسمه... لأنه يقول: أعطوا صدقة، وكل شيء يكون لكم نقياً وطاهراً.

❖ أمّا تحسبه مجداً عظيماً أن تمسك الكأس التي يزعم المسيح أن يشربها؟!... تأمل من هو الذي تسقيه واجزع... إنك تناول السيّد المسيح بيدك ليس لحماً بل خبزاً، وليس دماً لكن كأس ماء بارد.

أعطوا صدقة، وسيكون لكم كل شيء، فإنها أعظم من الذبيحة، لأنه يقول: "أريد رحمة لا ذبيحة". إنها تفتح السماوات، لأنه يقول: "إن صلواتك وصدقاتك قد ارتفعت قدام الله. فهي أكثر ضرورة من البتولية، لأنه بدونها خرجت العذارى الجاهلات من الخدر، بينما دخلت الأخريات بسعة الصدر.

❖ إن قوة الرحمة خالدة عديمة الفساد، لا تهلك مطلقاً. كل الأعمال زائلة، وأما ثمرة الرحمة فلا تزول نضارتها، ولا تؤثر فيها تقلبات الزمان... فلا الأيام تمحوها، ولا الموت يهدمها، بل تكون في مأمن حتى بلوغها الحياة الهادئة.

❖ حسناً يشير إلى العطاء فيدعوه نعمة (٢ كو ٨: ٦)... فإنه صلاح عظيم وعطية من الله... هذه النعمة أعظم من إقامة الموتى. فإن إطعام المسيح وهو جائع أعظم بكثير من إقامة الموتى باسمه... فعند عمل آيات تكون أنت مديناً لله، وفي تقديم العطاء تجعل الله مديناً^١.

❖ إن ارتواء الظمان إلى المسيح أعظم من إحياء الموتى باسمه. لأنك إن أتممت الأمر الأول تحسن إلى المسيح، وإن أتممت الأمر الثاني يكون المسيح قد أحسن إليك. فالجائزة لمن يفعل الخير، لا لمن يتقبله من الآخرين. بصنعك العجائب تكون مديناً لله، أما بفعلك الرحمة فيكون الله مديناً لك. وقد يكتمل عمل الرحمة عندما تعطيها بطيب خاطرٍ وسخاءٍ، غير متوقعٍ أجراً ولا شكراً. بهذا نحصل على نعمة لأنفسنا لا خسارة^٢.

❖ الصدقة قوية وذات سلطان حتى تحل القيود والأغلال، وتبدد الظلام، وتخمد سكير نار جهنم، وتوهل فاعلها للتشبه بالله، لقوله: "كونوا رحماء كما أن أباكم الذي في السماوات هو رحوم".

❖ الرحمة بالآخرين فضيلة سامية، يُسر الله بها. وهي صفة عالية، تتسم بها النفوس الصالحة، وتزيدها فخراً ونبلاً. إنها من صفات الله.

❖ الصدقة هي أكثر الفنون مهارة؛ لا تبني لنا بيوتاً من الطين بل تخزن لنا حياة أبدية. في كل الفنون نحتاج إلى من يعيننا، أما بالنسبة لإظهار الرحمة فلا نحتاج إلا إلى الإرادة

^١ In 2 Cor. hom 16. PG 61: 556.

^٢ المطران أبيفانيوس: الأمالي الذهبية من مقالات لأبينا الجليل في القديسين يوحنا ذهبي الفم، ١٩٧٢، ص ١٥، ١٣٣.

وحدها^١.

❖ الصدقة أعظم من ذبيحة... إنها تفتح السماوات! فقد قيل: "صلواتك وصدقاتك صعدت تذكرًا أمام الله" (أع ١٠ : ٤). إنها أكثر أهمية من البتولية، فقد طردت عذارى خارج حبال العرس (بعدم الصدقة) بينما دخلت عذارى أخريات داخلًا^٢.

❖ الصدقة ليست علاجًا هنيئًا، فهي توضع على كل جرح... إنها أفضل من الصوم أو النوم على الأرض، إذ إن هذه الأمور مؤلمة وشاقة، أما الصدقة فأكثر نفعًا.

❖ تطلع كم وهبك الله، خذ منه احتياجك، وما تبقى وأنت لا تحتاج إليه يحتاج إليه الغير.

❖ قدّم له الكرامة التي يطلبها بنفسه، بتقديم مالك للفقراء.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يا له من جزاء عظيم أن يُطعموا السيّد المسيح عندما يكون جائعًا، ويا لها من جريمة كبرى أن يُزدري بالمسيح متى كان جائعًا!

القديس أغسطينوس

❖ بالحق بهجة الله هي في العطاء!^٣

القديس إكليمنضس الإسكندري

¹Catena Aurea.

² In Matt. hom 50:5.

³ Who is the rich man that shall be saved 31.

العطاء والرهينة

هل للراهب أن يتصدّق؟

إنّني أتجاسر فأتكلم عن الرهينة، ليعطني الرب فهمًا وحكمة لأتكلم من اختبارات آبائي.

الرهينة عشق لربنا يسوع، فهي عطاء، لأنها تقديم القلب لله وازدراء بالعالم لأجل ربنا يسوع. لذلك فالراهب بهذا المفهوم يحب كل الناس، فيتصدّق ويرحم إخوته ولو بالنية، على أن يترجم هذه النية عمليًا في صلواته وأعماله قدر ما يهبه الرب من إمكانيات، لأن الراهب الذي مات عن العالم، لا يملك حتى الكتاب المقدس الذي يقرأ فيه.

❖ ينبغي ألا يعمل أحد (من الرهبان) من أجل حاجته فقط، بل ليعطي المحتاجين أيضًا، فالمجتهد في عمل النهار والليل ليُوجد ما يعطي للمحتاجين هو رجل كامل. والذي يقول إن عمل يديه يكفي حياته، فعليه خطر القول: "ملعون من يتوكل على إنسان" (إر ١٧: ٥).

القديس باسيليوس الكبير

❖ أخرى بك أن تعمل بيديك ليصادف المسكين منك خبزة، لأن البطالة موت وسقوط للنفس.

القديس الأنبا موسى الأسود

❖ اعمل لكي ما تعطي المساكين من عرق جبينك، لأن البطالة موت وهلاك.

القديس الأنبا إشعياء

❖ قيل أنه حضر إلى الأب لوقيوس رهبان من أولئك الذين يدعون "المصلّين"، فسألهم عن عمل أيديهم، فقالوا له: نحن لا نهتم بعمل اليدين، إنّما نهتم بالصلاة الدائمة كقول الرسول. فقال لهم الأب لوقيوس: أما تأكلون وتنامون؟ قالوا: نعم. فقال لهم: فإذا ما جلستم تأكلون أو نمت، فمن يصلّي عنكم؟ فلم يكن لهم ما يجيبون به. فقال لهم: إنّني أجلس، بعون الله وأبلى خوصًا! وأضفر الصغيرة، وأقول "ارحمني يا الله كعظيم رحمتك، وكثرة رأفتك امح إثمي". أفما يُعتبر ذلك صلاة؟ وأعطي لمن على الباب فلسين (من

ثمن عمل يدي)... فيصلي من يأخذ الفلّسين عنيّ في وقت أكلي ونومي وبنعمة الله تكمل لي الصلاة الدائمة.

❖ سألوا الأنبا أنطونيوس: إن كان جيّدًا أن يكتفي الراهب بنفسه، إذًا فلا هو يخدم أحدًا ولا يدع أحدًا يخدمه كذلك؟ فقال: إن الرب علّمنا أن نخدم إخوتنا كما يخدم العبيد سادتهم، وكما شدّ هو وسطه، وغسل أرجل التلاميذ، فلا نمتنع عن أن نُخدم، لأن بطرس لما امتنع عن غسل رجليه، قال له السيّد "إن لم أغسلك فلن يكون لك نصيب معي".

❖ كان القديس تادرس المصري قد اقتنى لنفسه ثلاثة أناجيل ثمينة، فمضى إلى الأب مقاريوس وأخبره بأن لديه كتبًا جيدة. وسأله هل يبيعها لمنفعته ومنفعة الإخوة، أم يبيعها ويدفع ثمنها إلى المساكين؟ فقال له الأب: أمّا العمل جيّد، لكن ترك المقتنيات أفضل منه، فمضى وباع الكتب ووزّع ثمنها على المساكين.

❖ قال أحد الآباء: اهتم بعمل يديك ومارسه إن أمكنك ليلاً ونهارًا، لكي لا تثقل على أحد، وحتى يكون لك ما تعطي المسكين، حسب ما يأمر به الرسول، ولكي ما تصرع شيطان الضجر، وتزيل عن نفسك بقية الشهوات، لأن شيطان الضجر منكب على البطالة، وهو في الشهوات كامن.

بستان الرهبان

❖ واظب على عمل يديك ما استطعت وذلك لتعمل منه صدقة، لأنه مكتوب: "إن الرحمة تظهر الخطايا".

القديس الأنبا بيمين

❖ بلغني أن إنسانًا كسلان أخذ من خزانته الإنجيل من الساعة السابعة إلى غروب الشمس ولم يستطع أن يفتحه البتّة، وكأنه مربوط بالرصاص، أمّا أنطونيوس فإنه لم يفعل أمانًا هكذا، بل كان يعمل عملاً يدويًا كما أراه الملاك... حتى قال: يجب أن تكون أعمال يديك إلهية لا أرضية، ولتكن أثمانها مشاعًا بينك وبين المساكين.

القديس نيلس السيناوي

❖ إنه لأمر فظيع وقبيح بنا أن يتعب الشعب - ويعملوا ويعولوا أولادًا ونساء، ويدفعون

خراجًا وضريبة، ويحسنون إلى فقراء ومحتاجين حسب طاقاتهم، ويحملوا إلى بيت الله باكورات وقرايين، أما نحن فلا نفتني من أتعابنا حتى ولا حاجاتنا اللازمة لنا، بل نحبس أيدينا داخل ثيابنا، ونستجدي أتعاب غيرنا، ولا نصغي إلى الرسول القائل: "إن هاتين اليدين قد خدمتا حاجاتي وحاجات الذين معي"... ولذلك كان الآباء بإسقيط مصر لا يسمحون للرهبان لاسيما الشبان منهم، بأن يتقروا عن العمل، لا صيفًا ولا شتاء حتى ولا لحظة من الزمان، لأن الذي يمارس العمل يتخلص من الضجر ويتحصل على ما يُقيت به نفسه ويسعف منه المحتاجين.

القديس كاسيان الرومي

❖ قال أحد الإخوة: طلبت من الله أن يعطيني عملاً بدلاً من النعمة، لكي أعول جميع المنكوبين، لأنني بذلك أفرح.

القديس مار أفرام

❖ إذا ما طفت صحراء مصر تجدها أجمل جنّات العالم، وإنك لتري فيها أجواءً كثيرة من الملائكة بشكل بشري... ترى طغيان الشيطان قد كُسر شوكته، والمسيح يتجلى بكل مجده... إن السماء بطغمتها المتنوعة ليست أجمل من صحراء مصر، وهي على هذا الشكل، إذ ترينا مناسك الرهبان في كل مكان.

زهّدوا بالدنيا، وصلبوا ذواتهم للعالم، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فشغلوا جزءً كبيراً من أوقاتهم في أعمال يدويّة شاقة لإعانة الفقراء. إذ كانوا يصومون ويسهرون لم ينبذوا العمل. إذ كانوا يحيون الليالي في ترتيب التسابيح الإلهيّة، وكانوا يقضون النهار في الصلاة، بينما كانت أيديهم تعمل للبرّ، مقتدين بغيرة القديس بولس، فكانوا يقولون في أنفسهم: إذا كان هذا الرجل الذي أُسندت إليه العناية بالمسكونة لم يأنف من أن يمارس مهنة، ويعمل لتعزية الفقراء وإسعافهم... أفلا يجدر بنا، نحن الذين نعيش في الوحدة بمعزل عن ضوضاء المدن وضجيجها، أن نشغل أوقات الفراغ عاكفين على الأعمال الروحيّة؟

لنخجل كلنا أيها الفقراء والأغنياء، إذ ننظر إلى أولئك النساك الذين لم يملكوا شيئاً سوى أيديهم وجسدهم، وهذا الجسد إنّما كان وسيلة يتوسلون بها لإنشاء مورد لإعانة السائلين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

صدقة خارج الدير

لما كانت الأديرة الباخوميّة تقام بجوار القرى، لذلك يسهل على الرهبان أن يتصدّقوا، وقد ضرب لنا القديس باخوميوس مثلاً عاليًا في ذلك، كذلك القديس الأنبا شنودة رئيس المتوحّدين.

كانت أبواب الأديرة تُفتح يوم السبت لكل الشعب المحيط بالدير، فيجدون آباء منهم من تخصص في خدمتهم ماديًا وصحيًا وروحيًا. ويذكر لنا التاريخ كيف كانت تهتم الأديرة بالمدن والقرى التي هاجمها البربر، فكان الرهبان يقدّمون لهم الطعام ويخدمونهم ويعالجون المصابين منهم.

صدقة داخل الدير

إن كان لا يليق بالراهب الذي مات عن العالم إن ينزل إليه مرّة أخرى ولو بحجّة العطاء، فإن الأديرة نفسها تعتبر مجالاً خصبًا للصدقة، وبخاصة عندما كانت تضم الآلاف من الرهبان إذ قدر بالاديوس عدد تلاميذ القديس باخوميوس ٣٠٠٠ راهب في أثناء حياته و٧٠٠٠ راهب سنة ٤٢٠ م وهي السنة التي أتم فيها الكتاب "بستان الرهبان" وقد ذكر جيروم في القرن الخامس أن الرهبان الباخوميّين كانوا خمسين ألف راهب (مبالغ فيه إلى حد ما). وفي داخل الأديرة المرضى والشيخوخ... ويستطيع من يرغب في الصدقة خفية أن ينفذ. ❖ قيل عن القديس مقاريوس أن إنسانًا أتاه بعنقود مبكر، فلما رآه سبح الله وأمر أن يرسلوه إلى أخ كان عليلاً، فلما رآه الأخ فرح، وهمّ أن يأخذ منه حتى واحدة ليأكلها، لكنه قمع شهوته، ولم يأخذ منه شيئاً، وقال خذوه لفلان الأخ، لأنه مريض أكثر منّي. فلما أخذوا العنقود إليه رآه وفرح، لكنه قمع شهوته ولم يأخذ منه شيئاً، وهكذا طافوا به على جماعة الإخوة فكان كل من أخذوه إليه يعتقد أن غيره لم يره بعد، وهكذا لم يأخذوا منه شيئاً، وبعد ما انتهوا من مطافهم على إخوة كثيرين أنفذوه إلى الأب مقاريوس مرّة ثانية! بستان الرهبان

هل يجوز للراهب أن يتصدّق على عائلته؟

الله الذي أمرنا بمحبّة القريب كأنفسنا أي من كل القلب، أمرنا أن نعطي اهتمامًا خاصًا بالأقرباء حسب الجسد، فطالبنا "أكرم أباك وأمك". لذلك وبخ اليهود الذين أهملوا والديهم لأجل تقديم القران.

وهو بنفسه خالق كل البشر أعطى اهتمامًا خاصًا بأمه، فكان خاضعًا لها، وسمع لطلبها في عرس قانا الجليل، بل وهو في أحلك ساعات الألم على الصليب لم ينس أمه، بل سلمها ليوحنا الحبيب. وعندما أرسل التلاميذ طالبهم بالتبشير أولاً في أورشليم ثم اليهودية، فالسامرة، فالعالم كله.

وبولس رسول يسوع المسيح أعطى اهتمامًا خاصًا لأقربائه حسب الجسد، رغم دعوته ليكون رسولاً للأمم. وعندما كتب عن شروط الأسقفية طالبنا أن يكون الأسقف مهتمًا ببيته، لأن من لا يهتم ببيته، كيف يستطيع أن يهتم ببقية إخوته؟ فيخطئ كل إنسان يحسب أن السمو الروحي يستدعي الإهمال في حقوق والديه وأقاربه حسب الجسد.

لكن رجال الإكليروس والرهبان لهم وضع خاص، فيخشى من رجال الإكليروس أنه في إعطائهم لأقاربهم تتغلب عليهم محبة المال والتميز بين أولاده الروحانيين، فيعطي بسطاء لأقاربه حسب الجسد على حساب أولاده الآخرين.

أما الراهب فقد مات عن العالم كلبية، لا يعرف له أبًا ولا أمًا ولا إخوة ولا أقارب جسديين، بل يرى يسوع أباه والكنيسة أمه وكل إخوته المنقلين والمجاهدين إخوة بلا تمييز. لقد صلب الراهب العاطفة البشرية، فيحب أقاربه بنفس حبه لكل الناس، من كل نفسه.

تقول: ولماذا لا يتصدق على أقاربه إن احتاجوا دون أن ينظر إليهم كأقرباء جسديين؟ أقول لك بأنه إن صنع هذا فليصدق أولاً على كل المحتاجين حتى لا يبقى إنسان أفقر من قريبه هذا وعندئذ ليتصدق على إخوته... حتى هذا يخشى منه أن يفك رباطات العاطفة البشرية المصلوبة.

❖ أتسألني أيها الأخ بخصوص أخيك؟ إنني لا أعرف لك أخًا غير المسيح، فإن كان لك إخوة فاعمل معهم ما شئت، (فأنا ليس عندي كلام)، لأنه إن كان الرب نفسه قال: "من هي أمي ومن هم إخواني؟! فماذا أقول أنا لك؟! هل تطرح وصية الرب، وترتبط بأخيك، حتى ولو كان مفتقرًا إلى ثوب، وإن كنت قد ذكرت أخاك، فلم لم تتذكر المساكين الآخرين، بل لم لا تتذكر القائل عن نفسه: "كنت عريانًا ولم تكسوني؟" لكن الشياطين تلاعبك وتذكرك أيضًا بأولئك الذين كنت قد جددتهم لأجل المسيح، لكي ما تظهر مخالفًا لأوامره.

الأب برصنوفوس

❖ قال أحد الآباء: إن جددت انسابك بالجسد مع أمور الجسد لأجل الله، فلا تتخذع بالرحمة على والدتك أو ابنك أو أخيك أو أحد انسابك، لأنك قد تخلّيت عن هذه كلها. أذكر ساعة موتك، فلن ينفعك أحد منهم.

❖ كذلك قيل: سأل أحد الإخوة شيخاً وقال له: إن أختي مسكينة، فهل أعطيها صدقة، إذ ليس لها نظير في المساكين؟ قال له شيخ: لا... لأن الدم يجذبك إلى ذلك أكثر من وصية المسيح.

❖ قيل كذلك أن أحد الإخوة كانت له والدّة تقيّة، فلما حدثت مجاعة كبيرة، أخذ قليلاً من الخبز ومضى إليها، وبينما كان يسير جاء إليه صوت قائلاً: أتهتم أنت بوالدتك، أم أنا المهتم بها؟، فمیز الأخ قوّة الصوت، وخرّ على الأرض بوجهه، قائلاً: أنت يا رب هو المهتم بنا. ونهض راجعاً إلى قلايته. وفي اليوم الثالث جاءت إليه والدته وقالت له: إن فلاناً الراهب أعطاني قليلاً من الحنطة، خذها واصنع لنا أرغفة لنأكل، فلما سمع الأخ بذلك، مجدّد الله وقوي رجاءه.

❖ كان راهب فاضلاً جدّاً لدرجة أنه كان يخرج الشياطين بصلاته، وكانت له أم عجوز مسكينة، فحدثت مجاعة عظيمة، فأخذ الراهب خبراً ومضى ليتقّد والدته، وبعد أن رجع إلى قلايته، أحضر أمامه مجنون، فقام وصلى عليه كعادته، فأخذ الشيطان يهزأ به قائلاً: "ماما، ماما".

❖ قيل أيضاً: أراد والي البلاد في يوم من الأيام أن يشاهد أنبا بيمين، ولكن الشيخ لم يشأ ذلك، فقبض الوالي على ابن أخته بهذه الحجة وحبسه، كأنه قد عمل عملاً منكراً، وقال: "إن جاء الشيخ وسألني من أجله سوف أطلقه، فجاءت أخته باكية على الباب، فلم يجيبها بجواب البتّة. فكرّرت عليه قائلة: يا قاسي القلب ويا حديدي الأحشاء، ارحمني، فإنه وحيد، وليس لي سواه. فقال لها بيمين: ما ولدت أولاداً، فلما سمع الوالي قال وإن سألني بالمكاتبة فإني أطلقه. فأجاب الشيخ قائلاً: افحصه على ما يأمر به الشرع، فإن كان مستحقاً القتل فليقتل، وإلا فافعل ما تريد .

❖ أخبر أحد الرهبان بأن أباه قد مات، فأجاب الذي أتاه بالخبر قائلاً: كف عن التجديف، فإن أبي لا يموت.

بستان الرهبان

احذر الانشغال بالصدقة في غير أوانها

كثيرًا ما يفشل العدو في بث الأفكار الشريرة فينا كرهبان أو كهنة أو من الشعب، وعندئذ يحارب بسلاح أخطر، وهو أن يشغلنا بأمور حسنة، لكن ليس في مجالها، فيذهب الراهب بالصدقة ورحمة الآخرين بل والتبشير للآخرين حتى يسقطه في الملل والضجر ويشغله عن مناجاة ربنا يسوع والتفكير فيه.

وقد حارب هذا الفكر القديس مقاريوس الكبير خمس سنوات لكي يترك قلايته ويبتشر في روما.

والكاهن يحاربه العدو في القداس أو في الصلاة بإثارة مشاكل عائلية أو افتقاد إخوة ساقطين، ليس إلا لكي يتعطل عن الصلاة وينشغل بهذه الأمور عن ربنا يسوع. فإذا ما ذهب الكاهن شغله أيضًا هناك بأمور أخرى... وهكذا يعيش الكاهن في دوامة العمل مشغولًا بالخدمة ومشاكلها، لا بشخص ربنا يسوع.

وأيضًا من كان من الشعب أو كان خادمًا بمدارس التربية الكنسية، يثير أمامه مشاكل الفصل وافتقاد الأولاد أثناء العمل أو الدراسة، لا لخدم أو ليفتقد بل ليشنّت فكره. ليعطنا الرب حكمة وإفرازًا لنفهم أفكار الرب ونميزها عن أفكار العدو، فنقبل الأولى ونطرد الثانية رافعين القلب للرب عندما يثار الفكر أمامنا.

❖ إن داخلتك شهوة الاهتمام بغيرك بنوع الفضيلة حتى يشنّت ما في قلبك من السكون، فقل لها: طريق المحبة جيّد والرحمة لأجل الله مقبولة، ولكنني أنا من أجل الله لا أريدها.
مار اسحق السرياني

التوحد والعطاء

يدفع العشق الإلهي الراهب للتوحد، ويدفع الحب الإلهي من كان من الشعب أو الراهب الذي في شركة إلى العطاء ومحبة الآخرين، لذلك لا يُحرم المتوحدون من بركات العطاء، ولو لم يقدموه ماديًا، إذ يقدمون القلب بكامله لربنا يسوع مستلم العطاء. فنية العطاء والرحمة موجودة في قلب المتوحد وإلا فسدت وحدته وسكونه.

❖ قال أحد الشيوخ: إن كنت من الشعب فتدبر بالسيارة الحسنة التي للشعب. وإن كنت راهبًا تدبر بالأعمال الفاضلة التي للمتوحد. وإن كنت تريد أن تستنير في التدبيرين - أعني تدبير الشعب والراهبان - تسقط وتخبب من الاثنين. لأن عمل الراهبان هو هذا: التحرر من كل المحسوسات والمداومة مع الله بهيذ القلب وتعب الجسد بالصلاة. هل يمكن أن نقرن مع هذا الفضيلة العالمية؟! أو هل يمكن للمتوحد العمل في سيرة السكون أن يكمل التدبير الداخلي والخارجي؟ أعني الاهتمام بالله بقلبه والاهتمام من أجل الآخرين؟

❖ قال أحد القديسين: ليس هذا هو غرض سيرتك وقصدها، أن تشبع الجوع أو أن تكون قلايتك ملجأ للغرباء... لأن هذه السيرة تليق بالذين يريدون أن يتدبروا في العالم حسنًا. وليست، هذه للمتوحد المتحررين من جميع التطورات الذين قصدهم حفظ العقل بالصلاة.

❖ تكميل واجبات حب القريب براحة الأمور الجسدانية هو برّ العالم، والراهبان الذين هم خارج عمل السكون أو الذين في المجمع، المجتمعين بعضهم مع بعض يدخلون ويخرجون كل وقت. هذا يليق جدًا بهؤلاء، وليس بالمتوحد الذين بالحقيقة اختاروا البعد عن العالم بالجسد والعقل.

❖ تدبير المتوحد هو شبه الملائكة، فينبغي ألا نترك عمل السمائيات ونرجح البرّ بأمور أرضية.

❖ إن كان بحجة الصدقة يضطرب فيك الفكر، فاعلم أن الصلاة رُتبتها أعظم من

الصدقة.

❖ أنا أسألك ألا تتخذ، فإن الرحمة مشابهة لتربية الطفل، أمّا السكون فهو غاية الكمال.
مار اسحق السرياني

لماذا لا يعمل المتوحد بالرحمة؟

لأن عمل الرهبان هو هذا: التحرر من كل المحسوسات والمداومة مع الله بهذيب القلب وتعب الجسد بالصلاة.

❖ لأنه معلوم لكل أحد أن الذي ابتعد عن المحادثات والخلطة بالناس والقرب منهم بالكلية وصار مائتاً عنهم لأجل مفاوضته مع الله وحده، لا يطلب من مثل هذا أن يخدم الناس. الراهب الذي لا يحمل الرحمة فضيلة ظاهرة هو الذي يمكنه أن يقول للمسيح بوجه مكشوف (كمن يعيّه)، ما كُتِب: "ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك".

❖ الذي ليس له في الأرض مشيئة، ولا يملك عليها شيئاً، ولا يتعب نفسه في الأمور الجسدانية، ولا يخطر بباله شيء من هذه المرئيات جميعاً ولا يهتم باقتناء شيء، وإن أعطاه أحد شيئاً لا يأخذ منه إلا ما يحتاج إليه ولا يحفل بما يفضل عنه، وتكون سيرته كسيرة الطائر، هذا الذي صفاته هكذا، ما عليه الرحمة فضيلة، لأنه كيف يعطي غيره شيئاً قد تحرر هو منه؟!

مار اسحق السرياني

وحدة بلا محبة

تعرّض القديس مار اسحق السرياني المتوحد لسؤال من الأب سيمون: لماذا يترك المتوحدون الرحمة بالرغم من أن السيّد أمر بها على أنها طريق الكمال؟
أجاب القديس بأن المتوحد بدون الرحمة لا يكون متوحداً. فانعزاله وسكونه لا يعنيان قسوة قلبه، بل بالعكس يعني قلباً محباً رقيقاً، لكنه فضّل محبة الله فوق كل حب. فالمتوحد يلزمه أن يقدم الرحمة إن دعت الظروف، لأن قلبه مملوء حباً، لكن ليس عمله هو أن يعيش وسط الإخوة ليقدم الرحمة.

❖ ناسك غير رحيم كشجرة لا ثمر فيها.

❖ سؤال: لماذا حدّد سيّدنا الرحمة أن عملها تشبّه بالأب السماوي، بينما يختار

المتوحدون السكون أكثر منها؟

الإجابة: حسن هو قولك. وإجابتك لي هي من الإنجيل...

نحن لا نضاد وصية الرحمة، ولا نطلب إبطالها. فإن الرب حدّد الرحمة في تشبيهاً بالآب، ومن يتممها يقربهم إليه، فهذا أمر صريح لا شك فيه.

ونحن الرهبان لا نلزم السكون بلا رحمة، لكننا نبتعد عن الاهتمامات (بالأمور الزمنية) بقدر قوتنا...

إننا لسنا نريد أن نضاد الأمور الضرورية، لكننا نحصل على السكون حتى نصير ملازمين لله...

ونُعصب أنفسنا دائماً لنصير كاملين في كل وقت باستخدام الرحمة لسائر الطبائع الناطقة، لنرى في هذا تنفيذاً لتعليم السيد المسيح، وهذا هو إفراز (تميز) سكوننا. فليس السكون أمراً جزافاً ولا كيفما كان... فمتى دعا الموقف واضطرنا للعمل بشيء من الأمور الضرورية، فلا يليق بأحد أن يتهاون في إظهار محبته عملياً ظهوراً واضحاً.

قد يوجد إنسان قاسٍ، بعيد عن محبة البشر، مثل هذا يكون سكونه رياءً. فإن كنا خالين من محبة القريب لا يستطيع العقل أن يستند بالحديث والحب الإلهي.

فأي راهب من الرهبان الحكماء، إذا كان له ملبس أو مأكّل وينظر قربه جائعاً أو عارياً، ومع ذلك لا يتحرك للعمل... أو يشاهد أخاه مريضاً وليس له من يفتقده، ومع ذلك يشتهي السكون، ويؤسر قانون التفرد والتوحد والسكون أكثر من راحة أخيه وقربه؟!!

إذا لم تكن هذه الظروف موجودة، فلنحفظ محبة القريب ورحمته في عقلنا (في الداخل)، أما إذا وجدت حاجة لنا بالنسبة للآخرين، فلنفعلها بمحبة للقريب ورحمة به، لأن الله يطالبنا بتكميل (الحب الداخلي) وتنفيذه عملياً.

إذا لم نكن نملك شيئاً من المقتنيات، فما أمرنا الله أن نلقي أنفسنا في اهتمامات لأجل المساكين، بل يطلب منا أن نفعل ذلك قدر ما نستطيع. وإن كانت سيرتنا توجب علينا الابتعاد عن الناس وعن نظريتهم وسماعهم والاختلاط بهم والجلوس معهم، فما يليق بنا أن نترك (قلايتنا) وموضع توحدنا ونفردنا ونسلم أنفسنا لنطوف العالم ونتعهّد

المرضى ونشغل بهذه الأعمال. لأنه ظاهر أن هذه الأمور على انحطاط وانحدار من الأعلى إلى الدون.

فإن كان الراهب... يسكن بجوار الناس، ويجد راحة بتعب آخرين في زمان محنته ومرضه، فإنه يجب عليه هو أيضًا أن يعمل معهم كما فعلوا معه... فإذا راعى ابن جنسه وابن شكله وزميقه في ضيق، بل الأولى بنا أن نقول أنه يبصر السيد المسيح طريقًا متعبًا، فيهرب وينهزم ويختفي مختليًا بالسكون الكاذب، فمن كان هكذا فهو غير رحيم...

وإنني أذكر هذا الأب العظيم، إذ كُتب عنه لأجل إزالة حجج الذين يتهاونون بإخوتهم، أنه في بعض الأوقات مضى ليفتقد أخًا مريضًا، فلما سألته عما يشتهي، قال له أشتي جدًّا صغيرًا، فمضى ذلك الأب المستحق الطوبى من الإسقيط إلى الإسكندرية وكان ابن سبعين سنة ليحضر له الجدي، كما أبدل خبزه الجاف بخبز طازج.

وقد فعل قديس آخر من الآباء وهو الأب أغاثون، أكثر من هذا. هذا الأب الذي كان يلزم الصمت والسكون والهدوء كل أيام حياته أكثر من كل أحد. فقد مضى في إحدى المرات في الريف لبيع شغل يديه، فوجد في السوق إنسانًا غريبًا ملقى مريضًا، فاستأجر له بيتًا وأقام عنده يعمل بيديه وينفق عليه ويدفع له أجره المسكن ويخدمه ستة أشهر حتى شُفي. وكان يقول أيضًا إنني أشتي أن أعطي مجذومًا جسدي وأخذ جسده. هذه هي محبة الكاملين...

قلت هذا يا إخوتي، ليس لكي نهمل ونزدري بعمل السكون.

القديس مار اسحق السرياني

محبة الأعداء

١. محبة الأعداء والكمال.
٢. يا لنفع محبة الأعداء!
٣. أحبوا عدوكم، لا عداوته!
٤. حول محبة الأعداء.

محبة الأعداء والكمال

ليس ما يشغل قلب الله - إن صح التعبير - مثل أن يصير الإنسان أيقونة له، يبلغ إلى الكمال خلال نعمته الفائقة. في الفصل السابع من الكتاب الأول تعرضت لدرجات الحب، حيث يود الله أن يرتفع بنا لعلنا نحب إن أمكن كل البشرية، حتى أعداءنا.

محبة الأعداء والناموس^١

يقول السيد المسيح: "سمعت أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيك، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء الذي في السماوات..." (مت ٥: ٤٣-٤٥).
لم تأمر الشريعة ببغض العدو كوصية يلتزم بها المؤمن، في كسرهما كسر للناموس، وإنما كان ذلك سماحاً أعطي لهم من أجل قسوة قلوبهم. لقد ألزمت بحب القريب، وسمحت بمقابلة العداوة بعداوة مساوية، لكي تمهد لطريق أكمل، أن يحب الإنسان قريبه على مستوى عام، أي كل بشر. يظهر ذلك بوضوح من الشريعة نفسها التي قدمت نصيباً من محبة الأعداء ولو بنصيب قليل، فقيل: "إذا رأيت حمار مبغضك واقعاً تحت حمله وعدلت عن حله فلا بد أن تحلّ معه" (خر ٢٣: ٥). وقيل أيضاً: "لا تكره أდومياً لأنه أخوك، ولا تكره مصرياً، لأنك كنت نزيلاً في أرضه" (تث ٢٣: ٧)، مع أن الأدوميين والمصريين كان من ألد أعدائهم.

هذا من جانب ومن جانب آخر كان الشعب في بداية علاقته بالله غير قادر على التمييز بين الخاطي والخطية، لذا سمح الله لهم بقتل الأمم المحيطين بهم رمزاً لقتل الخطية، خاصة وأن اليهود كانوا سريعاً ما يسقطون في عبادة آلهة الأمم المحيطين بهم.

محبة الأعداء وسلم الكمال^٢

لقد طالب السيد المسيح المؤمنين أن يصعدوا بروحه القدوس على سلم الحب

^١ عن تفسيرنا: الإنجيل بحسب متى، الأصحاح ٥.

^٢ عن تفسيرنا: الإنجيل بحسب متى، الأصحاح ٥.

فيحبون حتى الأعداء، ويحسنون إلى المبغضين لهم، ويصلون لأجل المسيئين إليهم. وبهذا يحملون مثال أبيهم السماوي وشبهه.

إن كانت غاية الله فينا أن يرانا أولاده نحمل صورته فينا وننجذب إليه بالحب لنحيا معه في أحضانه الإلهية نعم بأمجاده، فإن غاية حياتنا الروحية ولقائنا معه هو أن ننعم بأبوته لنا ونتأهل لنصير على مثاله فنحسب كاملين كما هو كامل! يعلن السيد نفسه غاية ذلك ألا وهو الدخول في الحياة الكاملة والتشبه بالله نفسه، إذ يقول: "لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات. فإنه يشرق شمسك على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأجر لكم؟! أليس العشارون أيضًا يفعلون ذلك؟! وإن سلمتم على إخوتكم فقط، فأين فضل تصنعون؟ أليس العشارون أيضًا يفعلون هكذا؟! فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل" (مت ٥: ٤٥-٤٨).

إذ يصعد الإنسان إلى أعلى سلم الحب الحقيقي، ليس فقط يكون مستعدًا لقبول آلام أكثر وتعابير، وإنما يقدم عوضها حبًا عمليًا ويقف كأب مترفق بكل البشرية، يصلي عن الجميع طالبًا الصفح عن أعدائه والمسيئين إليه وطارديه، يكون متشبهًا بالله نفسه أب البشرية كلها.

يرى القديس يوحنا الذهبي الفم أن غاية مجيء السيد إلينا إنما هو الارتفاع بنا إلى هذا السمو إذ يقول: [جاء المسيح بهذا الهدف، أن يغرس هذه الأمور في ذهننا حتى يجعلنا نافعين لأعدائنا كما لأصدقائنا].^١

ليس شيء يفرح قلب الله مثل أن يرى الإنسان المطرود من أخيه يفتح قلبه ليضمه بالحب فيه، باسطًا يديه ليصلي من أجله! يرى الله فيه صورته ومثاله! إن كنّا في مياه المعمودية ننال روح التنبّي، ننعم بالسلطان أن نصير أولاد الله (يو ١: ١٢)، فإننا بأعمال الحب التي هي ثمرة روحه القدوس فينا، نمارس بنوتنا له، وننمو فيها ونزكيها. أبوته لنا تدفعنا إلى الحب، والحب يزكي بنوتنا له، يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [هذا هو السبب الذي لأجله ندعوه في الصلاة أبا، لا لنتذكر نعمته فحسب، وإنما من أجل الفضيلة، فلا نفعل شيئًا غير لائق بعلاقة كهذه].^٢

يطالبنا بفيض حب ينبع في الداخل دون انتظار مقابل، إذ يقول: "أحبوا

^١ In Matt. hom 18:6.

^٢ In Rom hom 19.

أعداءكم"، فنرد العداوة بالحب. هذا الحب يترجم إلى عمل محبة ورحمة: "أحسنوا إلى مبغضيك"، ويقوم خلال الحياة المقدسة والمباركة التي تبارك الآخرين ولا تلعن أحدا: "باركوا لاعنيكم"، ويمتزج بالعبادة فنشتهي خلاص المسيئين إلينا وشركتهم معنا في المجد بالصلاة عنهم لتوبتهم. بمعنى آخر، جاءت وصية الحب مرتبطة بكل كياناتنا في الرب، عميقة في النفس، مترجمة إلى سلوك وعمل، ممتزجة بالحياة المقدسة، ومُرتبطة بعبادتنا!

❖ إنه يقول: الذين تشكّلت أساليب فكرهم فصارت مترققة ومملوءة حبا نحو إخوتهم على مثال صلاح أبيهم، هم أبناء له!¹

القديس غريغوريوس النيسي

❖ إذ لا يمكننا أن نصير كالله في الجوهر، لكنّه بالتقدّم في الفضيلة نتشبه بالله، حيث يمنحنا الرب هذه النعمة!²

البابا أناسيوس الرسولي

❖ أذكر الحمل الوديع وكم صبر، فبالرغم من أنه لم يكن له خطيئة، لكنه احتمل الشتم والضرب وسائر الأوجاع حتى الموت.

القديس برصنوفوس

❖ من أراد أن يتشبه بالله فليكن وديعا هادئا بقدر ما يمكن للإنسان، وليتحمل بسبعة صدر ما يزعجه من الآخرين... إن تعرضت لإهانة ثقيلة لا تُطاق، وأخذ الغيظ والحمق يغليان في أحشاك، فأذكر وداعة المسيح لتحصل مع عدوك على فائدة عظيمة، وبوداعتك تجعله صالحا.³

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ للمسيح إخوة مشابهون له، يحملون صورة طبيعته الإلهية خلال طريق التقديس، لأنه هكذا يتشكّل المسيح فينا... الذين يصيرون شركاء الطبيعة الإلهية خلال شركة الروح القدس، يحملون ختم شبه المسيح الفائق ويشع في نفوس القديسين الجمال الذي لا يُعبّر عنه.⁴

¹ On Bapt. of Christ.

² Ad Afros 7.

³ المطران ابيفانيوس: الآمال الذهبية من مقالات لأبينا الجليل في القديسين يوحنا الذهبي الفم، ١٩٧٢م، ص٤٧، ٤٨.

⁴ Ad Nestor 3:2.

❖ "أحبُّوا أعداءكم" (لو ٦ : ٢٧). يقول بولس الحكيم وهو صادق فيما يكتب: "إن كان أحد في المسيح فهو خليفة جديدة" (٢ كو ٥ : ١٧)، لأن كل الأمور تجددت في المسيح وبالمسيح.

انظروا كيف تجدد نظام حياة أولئك الرسل الذين عهد إليهم نشر كلمة الخلاص للعالم أجمع. انظروا كيف يأمرهم السيد بمقابلة سيئات أعدائهم لهم وكانت مؤامرات مضطهديهم محبوكة الأطراف ودسائسهم لا تعرف رحمة ولا شفقة. طُلب إلى الرسل ألا ينتقموا لما يصيب أحبائهم من شرٍّ، حتى لا يُعطّلوا نشر الكلمة.

نصحهم أن يضبطوا أذهانهم بالصبر والهدوء، فلا يخرجوا عن حلمهم وطول أناتهم، محتملين بسرور كل ضررٍ يلحق بهم وكل أذى يصيبهم، متّخذين يسوع المسيح مثّلهم الأعلى في الصبر والصفح. فقد هزأ به اليهود، الكبار والصغار، وبالرغم من سخريّتهم صلّى إلى الله الأب قائلاً: "اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (٢٣ : ٣٤).

وقد جثا إسطفانوس المغبوط أمام الله والحجارة تتساقط حوله طالباً إلى الله القدير أن يغفر آثام راجميه، وصرخ بصوت عظيم: "يا رب لا تُقم لهم هذه الخطيئة" (أع ٧ : ٦٠). ويقول الحكيم بولس في هذا الصدد "تُسْتَم فَنُبَارِك، نُضْطَهَد فَنَحْتَمِل" (١ كو ٤ : ١٢).

كان تحذير المسيح إذن ضرورياً للرسل المقدسين ومفيداً لنا نحن المؤمنين، حتى نعيش باستقامة ونزاهة.

لهذا التحذير معنى فلسفي عميق، ففينا من الميول النفسانية الثائرة ما يجعل الطريق وعراً للسير حسب تحذير المسيح لنا، إلا أن المسيح سبق وأفهمنا ضرورة محاربة ميولنا الفاسدة، والفصل بين العاملين بمسرة والعاصين كلمته، إذ قال: "لكني أقول لكم أيها السامعون". ويضيف الرسول بطرس ثبات المسيح وعظيم صبره وطول أناته بالقول: "الذي إذ شتم لم يكن يَشْتِم عوضاً، وإذ تألم لم يكن يَهْدِد، بل كان يُسَلِّم لمن يقضي بالعدل" (١ بط ٢ : ٢٣).

ولكن قد يعترض أحدكم قائلاً: "كان المسيح إلهاً، أما أنا فإنسان ضعيف، ولي ذهن غير سليم، ولي من الميول النفسية ما يقف في سبيل إخماد روح الطمع والغلبة.

اعلم أيها الإنسان أن الله لم يجردك من روح رأفته ومحبتة، فهو بجوارك لا بل في داخلك، هو فيك بالروح القدس، لأننا نحن مسكنه وهو يسكن في نفوس محبيته ومريديه، هو الذي يعصّدك بيمينه، فلا تتزعزع ويمسك بك فلا تسقط. إذن "لا يغلبك الشر، بل اغلب الشر بالخير" (رو ١٢: ٢١).^١

❖ لنتبعه وهو مضطهد وهارب من عناء مقاوميه، حتى أننا نحن أيضًا "تصعد إلى جبل ونجلس معه". فترتفع إلى نعمة محببة، أسمى من كل شيء، ونملك معه. وكما قال بنفسه: "أنتم الذين تبغتموني في تجاربي متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده في التجديد، تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر" (مت ١٩: ٢٨؛ لو ٢٢: ٢٨).

القديس كيرلس الكبير

❖ عندما تعانون من قسوة عدوكم تذكروا قول الرب: "يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لو ٢٣: ٣٤).^٢

❖ إننا لن ندرك المعنى الحقيقي للصلاة المسيحية ما لم نتعلم الحب والصلاة لأعدائنا. ما هو كمال الحب؟ أن نحب أعداءنا، نحبهم حتى النهاية ليصيروا إخواننا... أحبوا أعداءكم وارغبوا أن يكونوا إخوانكم. أحبوا أعداءكم دعوهم للشركة معكم.^٣

❖ اسحب (بالحب)، اسحب عدوك، فبسحبه لا يعود بعد عدواً لك.^٤

❖ ماذا يعني ان تسير كما سار المسيح؟ هل تعني أننا نسير على البحر؟ لا! إنها تعني السير في طريق البر... إذ سمر على الصليب سار في الطريق... طريق الحب. "يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" لو ٢٣: ٣٤. هكذا إذن عندما تتعلموا أن تصلوا لعدوكم تسبّحون ذات الطريق الرب.^٥

القديس أغسطينوس

❖ صلّوا ألا يوهب لي إحسان أعظم من أن أقدم لله، مادام المذبح لا يزال معداً، ففي

^١ عظة ٣٢.

^٢ Ser. on N. T. 6-9.

^٣ Tr. on 1 John 1:9.

^٤ Sermon 90:10.

^٥ Tr. on 1 John 1:9.

اجتماعكم معًا بمحبة غنوا لله أغنية شكر للآب بالمسيح يسوع...
أطلب إليكم ألا تظهروا لي عطفًا في غير أوانه، بل اسمحوا لي أن أكون طعامًا
للوحوش الضارية، التي بواسطتها يوهب لي البلوغ إلى الله. اتركوني أطحن بأنياب
الوحوش لتصير قبرًا لي، ولا تترك شيئًا من جسدي، حتى إذا ما مُت لا أتعب أحدًا.
فعندما لا يعدُّ العالم يرى جسدي أكون بالحقيقة تلميذًا للمسيح.
توسلوا إلى المسيح من أجلي حتى أعدُّ بهذه الطريقة لأكون ذبيحة لله^١.
القديس أغناطيوس الثيوفورس

^١ In Ep. Ad Rom.

يا لنفع محبة الأعداء!

محبة الأعداء ليست وصية فحسب، وإنما هي هبة إلهية، تُقدّم للمؤمن الجاد في حياته، الذي يشتهي أن يتبارك قلبه وإرادته وأحاسيسه وكل كيانه في الرب. إنها وعد إلهي نطألب الرب أن يحققه فينا.

لقد جاءت الوصية الإلهية تأمرنا أن نحب أعداءنا، ونصلي لأجلهم، ونبارك الذين يضطهدوننا (مت ٥: ٤٤؛ لو ٦: ٢٨). وأوصانا الرسول: "باركوا على الذين يضطهدونكم، باركوا ولا تلعنوا" (رو ١٢: ١٤). فإننا إذ كنا نستحق اللعنة، حملها السيد المسيح عنا على الصليب، ليهبنا بركته عاملة فينا، يليق بنا أن نطلب حقنا في تنفيذ هذه الوصية، فنرد له هذا العمل في خليقته التي يحبها، فنحب الذين يضطهدوننا، مباركين إياهم...

لقد صارت حياتنا بالمسيح تحمل بركته، فلا نستطيع أن نلعن أحداً. لذلك يقول السيد المسيح: "طوبى لكم إذا أبغضكم الناس" (لو ٦: ٢٢). ويقول معلمنا يعقوب الرسول: "من الفم الواحد تخرج بركة ولعنة؛ ألع ينبوعاً ينبع من نفس عين واحدة العذب والمر؟" (يع ٣: ١٠-١١).

ليتنا نبذل كل الجهد أن نسالم إن أمكن كل البشرية، حتى الأعداء، فننعم بسلام أورشليم السماوية فينا، وكما يقول القديس جيروم: [من كان ليس في سلام مع أخيه فهو خارج تخوم أورشليم'.^١]

❖ لا تقيدنا الصلاة من أجل الأصدقاء بقدر ما نتفعلنا لأجل الأعداء!... فإن صليتنا من أجل الأصدقاء لا نكون أفضل من العشّارين، أمّا إن أحببنا أعداءنا وصليتنا من أجلهم فنكون قد شابهنّا الله في محبّته للبشر.

❖ يجب أن نتجنّب العداوة مع أي شخص كان، وإن حصلت عداوة مع أحد فلنسالمه في اليوم ذاته... وإن انتقدك الناس (على ذلك) فالله يكافئك. أمّا إن انتظرت مجيء خصمك إليك ليطلب منك السماح فلا فائدة لك من ذلك، لأنه يسلبك جائزتك ويكسب

¹ On Ps. hom 57.

لنفسه البركة^١.

❖ المحبة (الرحمة) كما لو كانت أسمى أنواع الصناعة، وحامية لمن يمارسها. إنها عزيمة عند الله، تقف دائماً بجواره تسأله من أجل الذين يريدونها، إن مارسناها بطريقة غير خاطئة!...

إنها تشفع حتى في الذين يبغضون، عظيم هو سلطانها حتى بالنسبة للذين يُخطئون!

إنها تحل القيود، وتبديد الظلمة وتطفئ النار، وتقتل الدود، وتزعج صرير الأسنان. تنفتح أمامها أبواب السماوات بضمانٍ عظيم، وكملكة تدخل ولا يجسر أحد الحجاب عند الأبواب أن يسألها من هي، بل الكل يستقبلها في الحال. هكذا أيضاً حال الرحمة، فإنها بالحق هي ملكة حقيقة، تجعل البشر كالله. أنها مجنحة وخفيفة لها أجنحة ذهبية تطير بها تبهج الملائكة جداً^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ حبك لإنسان هو عدوك تصير صديقاً لله؛ في الحقيقة ليس صديقه فقط بل وابنه، كما يقول الرب نفسه: "أحبوا أعداءكم أحسنوا إلى مبغضكم، هذا يبرهن أنكم أبناء أبيكم السماوي" (راجع مت ٥: ٤٤-٤٥)^٣.

الأب قيصريوس أسقف آرل

❖ ليت لا ينطق (البتول أو المؤمن) في مداينة مع شرير أو مع عدوه. وليجاهد ألا يكون له عدو على الإطلاق^٤.

القديس أفرايم

❖ إن أمكنك لا تجعل لك عدواً. وإن وُجد من يبغضك لا تحزن بهذا، لأنك لست وحدك من أبغضوه بل سيّدك قبلك قد أبغضوه...

يمكنك أن تنتفع من عدوك كما من صاحبك، جاعلاً من عدوك كمن هو نافع لك. لأن بسببه يتفاضل حبك عند الله، وتألّمك عليه يُكثر نفعك، لأن وصية سيّدنا تكمل بذلك فيه. فإن كان عدوك قد آذاك ولم تقدر أن تنتفع منه، فاعرف ضعفك،

^١ المطران أبيفانيوس الأمانى الذهبية من مقالات إكلييل في القديسين يوحنا الذهبي الفم، ١٩٧٢، ص ٤٩.

^٢ In Heb. hom 32:7.

^٣ Sermon 219:3.

^٤ Demonstrations, 6:8 (Of Monks).

وأبحث من أي شيء لم تقدر أن تنتفع، لأنه بماذا يُعرف صدقك مع سيّدك إذا لم يكن لك شيء يخالف راحتك، فتبقى كإنسان بلا جهاد^١.

القديس يوحنا التبائسي

^١ الآباء الحاذقون في العبادة، ج ٢، ص ١٩٨، ١٩٩.

أحبوا عدوكم، لا عداوته!

إنه يبغض الحق وليس شخصك!

❖ "طوبى لكم إذا أبغضكم الناس" (لو ٦: ٢٢). بين السيّد للرسل ما ينتظرهم من ضنك واضطهاد وهم يعلمون الناس، ووصف الإنجيلي عن طريق النبوة الولايات المروعة التي تصيب الرسل وهم يُعلنون رسالة الفادي، وينصحون اليهود أن ينبذوا عبادة الفرائض والناموس للتسربل بحلة الحياة المُتلى، ويُنبِرون للوثنيين طريق الحق والصدق حتى يقلعوا عن عيشة الفجور والرذيلة.

لكن لا يقبل عدو الفضيلة نصحا ولا إرشادا، فهو يثير على الناصح والهادئ حربا شعواء، حتى يكون الرسل على بينة من أمرهم وهم يكرزون بكلمة الإنجيل، فلا يقلقل أحدهم ولا يقنط، أظهر لهم المسيح نصيبهم الروحي وحلّاهم بلباس الغبطة السماوية في حالة اضطهاد الناس لهم، وبغض الأشرار لنصحهم وإرشادهم. وأوصاهم بأن كل ما يعملُه الخطاة الأثمة معهم من تشريد وتجريد ونفي وامتهان ومقت واضطهاد، كل ذلك لا يؤبه له ولا يُعنى به، فبتحمّلهم هذه الولايات والضيقات يسعدون روحيا وينعمون قلبيا.

وزاد السيّد وعلم تلاميذه بأن اضطهادهم في المستقبل ليس بالشيء الجديد؛ طالما اضطهد الأنبياء والرسل من قبل. فكثيرا ما قُتل الأنبياء ونُشروا، وضرب بعضهم بحد السيف وأهْلِكوا، فلا غرابة إن نسج الرسل على منوال سلفهم الصالح، وصبروا على عيشة المذلة والمهانة في سبيل نصرة الحق والعدل، ففي ذلك نصر لهم وظفر إذ يُتَوَجَّون بإكليل السماء ويشتركون في مجد القديسين المُنير^١.

القديس كيرلس الكبير

نمارس عملاً ملائكيًا

يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: إلم يقل: لا تكن شتاما ولا منتقما، وإنما سألنا ما هو أفضل: "باركوا على الذين يضطهدونكم"..... فإن إنسانًا يعمل بحكمة هكذا، يمارس

^١ عظة ٢٨.

عمل الملائكة. بعد قوله "باركوا" قال "لا تلعنوا"، لئلا نمارس الاثنين معًا. الذين يضطهدوننا يمدوننا بمكافأة لحسابنا. فإن كنت متعلقاً فلتنصف إلى المكافأة مكافأة أخرى تقدمها لنفسك. هو يهبك الاضطهاد، هب لنفسك مباركتك للآخرين، بهذا تقتني علامة عظيمة جدًا لمحبة المسيح. فمن يلعن مضطهده يظهر أنه لا يُسر باحتمال الآلام من أجل المسيح، هكذا من يبارك يظهر عظمة حبه للمسيح.¹

لتكره شره!

❖ لقد منعنا أن نحب الرذيلة التي فيه (في العدو)، وأن نرتبط بمحبة طبيعية معه.²
القديس أغسطينوس

اشته له الخير

تعلن الوصايا الخاصة بمحبة الأعداء عن ترجمة طاقات الحب عملياً، فإن أُصيب الإنسان في كرامته الزمنية كالضرب على الخد، أو في ممتلكاته الخاصة كسلب الرداء، يكون لديه الاستعداد لاحتمال أكثر فأكثر من أجل كسب أخيه الذي يعاديه. كأن غاية هذه الوصايا هو كسب الغير وإنقاذه من شروره.

❖ يليق بالإنسان البار النقي أن يكون مستعداً لاحتمال الضرر بصبر من الذين يريدونهم أن يصيروا صالحين، حتى يتزايد عدد الصالحين عوض أن يُضاف هو نفسه إلى عدد الأشرار، بكونه يثار لنفسه عمّا يصيبه من ضرر.³

القديس أغسطينوس

❖ لو لم يكن شريراً ما كان قد صار لكم عدواً. إذن اشتهوا له الخير فينتهي شره، ولا يعود بعد عدواً لكم. إنه عدوكم لا بسبب طبيعته البشرية وإنما بسبب خطيته!

❖ كان شاول عدواً للكنيسة، ومن أجله كانت تُقام صلوات فصار صديقاً لها. إنه لم يكف عن اضطهادها فحسب، بل وصار يجاهد لمساعدتها. كانت تُقام صلوات ضده، لكنها ليست ضد طبيعته بل ضد افتراءاته. لتكن صلواتكم ضد افتراءات أعدائكم حتى تموت، أما هم فيحيون. لأنه إن مات عدوكم تفقدونه كعدو ولكنكم تخسرونه كصديق أيضاً.

¹ In Rom. hom 22.

² In Ioan tr 87:4.

³ Ep 138:12.

وأما إذا ماتت افتراءاته فإنكم تفقدونه كعدو وفي نفس الوقت تكسبونه كصديق.

❖ عندما تكونون واحدًا مع من يهاجمونكم وتمتزوجون معهم تغلبونهم (بالحب والإيمان). وكما أن الخميرة المختفية في عجينة لا تهلك، بل بالحري تُغيّر طبيعة العجين، هكذا أيضًا في الكرازة بالإنجيل. لذلك لا تخافوا عندما أخبركم عن الضيقات أنها قادمة، لأن نوركم لا يقدر أحد أن يُطفئه، إنّما يغلب كل البشر^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لم يرد لنا أن نستخدم السيوف في مقاومة أعدائنا بل بالحري نستخدم الحب والوقار، فنكسب من هم ضدنا. يعلّمنا بولس تعليمًا مشابهاً بقوله: "هادمين ظنونًا وكل علو يرتفع ضد معرفة الله ومستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح" (٢ كو ١٠: ٥)، لأن الحرب من أجل الحق روحية والسلاح الذي يجعلنا قديسين عقلي ومملوء محبة الله^٢.

القديس كيرلس الكبير

❖ لنجاهد أن نعمل كأطباء نحو كل الأشرار. لنكره أعمالهم الشريرة، لا الناس أنفسهم. لنصلي من أجل كل الصالحين لكي ما يرتفعوا دومًا إلى حياة أفضل، ومن أجل الأشرار لكي ما يتمتعوا سريعًا بحياة صالحة خلال أدوية التوبة. عندما نصلي من أجل هذا، فإنه يهبنا نحن ذلك^٣.

❖ حزن (استفانوس) بالأكثر على خطاياهم أكثر من حزنه على جراحاته. حزن على شروهم أكثر من حزنه على موته. تصرف بحق؛ بالتأكيد يوجد في تصرفهم الشرير ما يلزم النوح عليه، بينما لم يوجد شيء في موته ليحزن عليه. الموت الأبدي تبع شرهم بينما الحياة التي بلا نهاية تبعت موته... ليتنا نحب اخوتنا في الكنيسة بذات الروح التي بها أحب استفانوس أعداءه^٤.

الأب قيصرىوس أسقف آرل

لا تتشبه بشره!

إذ يعتني الإنسان المسيحي بأمور حسنة حتى قدام جميع الناس، يهتم بالشهادة لله

^١ In Matt. hom 47.

^٢ In Luc. Ser. 148.

^٣ Sermon 219:3.

^٤ Sermon 219:1-2.

محب البشر، فلا يجد مجالاً لرد شر الآخرين بالشر. فإن هذا لا يتلاءم مع غايته ولا مع طبيعته الجديدة التي تمتع بها. يقول القديس أغسطينوس: [أيضاً أن العصافير وهي طيور أصغر في الحجم من الحمام بكثير تقتل الذباب لتأكله أما الحمام فلا يفعل شيئاً من هذا القبيل، فإنها لا تعيش على قتل غيرها، ولا تشبع على حساب الآخرين].
يوصينا الرسول: "لا يغلبنك الشر، بل اطلب الشر بالخير" (رو ١٢: ٢١)، فإن كان الشر يجعل الإنسان ضعيفاً فلا تقابل الضعيف بالضعف، إنما قابله باتساع القلب في نضوج الحب.

❖ بلطفنا نقهر غضبهم... الإنسان الضعيف لا يقدر أن يعين الضعيف، ولا من يعاني أمراً يقدر أن يشفي عيلاً مثله. أما من كان غير خاضع للضعف، فهذا يستطيع أن يقدم علاجاً للضعيف^١.

الأب يوسف

❖ إنه فوق كل شيء يعرف طبيعة الأشياء: أن الشراسة لا تُطفأ بالشراسة وإنما باللطف^٢.
❖ لنخجل إذ نفعل نحن العكس فنقف كذئاب ضد أعدائنا! مادامنا نحن غنم، فإننا سنغلب بالرغم من وجود ربوة من الذئاب تجول حولنا لافتراسنا، أما إذا صرنا ذئاباً فسنهزم إذ يفارقنا عون راعيها، الذي لا يعول الذئاب بل الغنم، بهذا يتركك وينسحب حيث لا تسمح لقدرته أن تظهر فيك.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يليق بنا ألا نصارع الآخرين، ولا أن نشتهي التمثل بالأشرار، إذ يحثنا أن نقود الناس بالصبر واللطف من العار ومحبة الشر^٣.

القديس يوستين

❖ لا يريدنا أن نستخدم سيوفاً في مقاومة أعدائنا، بل بالحري نستخدم الحب مع التعقل، فنغلب مقاومينا بقوة. ويقدم لنا بولس تعليماً مشابهاً بقوله: "هادمين ظنوناً وكل علو يرتفع ضد معرفة الله ومستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح" (٢ كو ١٠: ٥). لأن الحرب من أجل الحق روحية، والسلاح اللائق بالقديسين هو عقلي ومملوء بمحبة

^١ Cassian; Conf. 16: 22, 23.

^٢ In Matt. hom 33:3.

^٣ Apol. 1:16.

الله. يليق بنا أن نلبس درع البرّ وخوذة الخلاص، وترس الإيمان وسيف الروح الذي هو كلمة الله (أف ٦ : ١٤-١٧).

القديس كيرلس الكبير

تذكر الطبيعة البشرية المشتركة

❖ لا يمكن لأحد أن يحب أعداءه، ولا أن يحسن إلى مغيضيه، ولا أن يتألم من أجل المسيئين إليه. لكنه إن تذكر الطبيعة البشرية المشتركة بينهم لا يبالي بالآلام التي يسببونها له، فكلما ازدادوا قسوة عليه تفرق بهم. فالأب يحزن بالأكثر ويكتتب على ابنه المختل كلما ازداد جنون الابن وعنفه.

لقد شخّص بولس المرض الذي يسبب تلك الهجمات الشرسة ضده، فازداد اهتمامه بهم ورعايته لهم كمرضى.

نسمعه وهو يخاطبنا بلطفٍ وحنانٍ فائق عن الذين جلدوه خمس مرات (٢ كو ١١: ٢٤)، ورجموه وقيدوه وسفكوا دمه، واشتبهوا تقطيعه إربًا، فيقول عنهم: "لأنني أشهد لهم أن لهم غيرة الله، ولكن ليس حسب المعرفة" (رو ١٠: ٢). وأيضًا ضيق على الذين يُسيئون إليهم، قائلًا: "لا تستكبر بل خف، لأنه إن كان الله لم يُشفق على الأغصان الطبيعية، فلعله لا يُشفق عليك أيضًا" (رو ١١: ٢٠، ٢١). وحينما رأى الدينونة الواقعة عليهم لم يسعه إلا أن يعمل ما يقدر عليه، وهو أنه بكى وناح من أجلهم بلا توقف^١.

❖ ماذا بخصوص أعدائنا الوثنيين؟ أما يجوز لنا أن نبغضهم؟ لا! نحن لا نبغضهم، بل نبغض تعليمهم. لا الشخص بل سلوكه الشرير وفكره الفاسد. لا تعجب أن النبوات والألسنة ستنتهي، ولكن ماذا بخصوص المعرفة؟ واضح أن بولس يُضم المعرفة أيضًا^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إني أبغض شرورهم لكنني أحب عمل يديك؛ يا الله! هذا ما أعنيه أن تبغضوا بكرهية كاملة؛ أي لا تبغضوا الإنسان لحساب الرذائل، ولا تحبوا الرذائل على حساب

في مديح القديس بولس، عظة ١.٣

² In 1 Cor., hom., 35:2.

الإنسان^١.

القديس أغسطينوس

❖ يا أيها الأطباء، تلاميذ طبيبنا الحكيم، خذوا هذا الدواء الذي به تشفون جراحات المرضى... هذا هو حال من يتعب في الجهاد يا عزيزي. فإن جاء عدوه عليه وجرحه، يلزم أن نقدم له دواء التوبة، مادامت ندامة الجريح قوية. لأن الله لا يرذل التائبين. فقد قال في حزقيال: "لا أسر بموت الشرير، بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا" (حز ٣٣: ١١)^٢.

القديس أفراهاط

¹ On Ps 138:28.

² Demonstrations, 7: 2.

حول محبة الأعداء

تشبه السيد المسيح

على الصليب قال ربنا يسوع: "يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لو ٢٣: ٣٤).

❖ قال هذا ليس لأنه غير قادر على الغفران بنفسه، وإنما لكي نُعلمنا أن نصلّي من أجل مضطهدين، لا بالكلام فحسب وإنما بالعمل أيضًا. يقول: "اغفر لهم" إن كانوا يتوبون، فإنه رحوم بالنسبة للتائبين، إن كانوا يريدون أن يغسلوا بالإيمان خطاياهم الكثيرة التي ارتكبوها.

❖ احتمل يسوع، رب السماء والأرض سخرية الأشرار مقدمًا لنا نفسه مثالاً للصبر.
القديس يوحنا الذهبي الفم

اهرب من شر العدو

يوصينا الرسول: "لا يغلبنك الشر، بل اطلب الشر بالخير" (رو ١٢: ٢١)، فإن كان الشر يجعل الإنسان ضعيفًا فلا تقابل الضعيف بالضعف، إنما قابله باتساع القلب في نضوج الحب. وكما يقول الأب يوسف: [لطفنا نقهر غضبهم.... الإنسان الضعيف لا يقدر أن يعين الضعيف، ولا من يعاني أمرًا يقدر أن يشفي غليلاً مثله. أما من كان غير خاضع للضعف، فهذا يستطيع أن يقدم علاجًا للضعيف^١]. يقدم لنا القديس أمبروسيو أبانا يعقوب كمثال حي للهروب من وجه أخيه الذي حمل روح العداوة، إذ يقول:
[تمثل بالأب (يعقوب) الذي بمشورة الأم (رفقة) جعلته يهرب بعيدًا من هي هذه الأم؟ إنها "رفقة" التي هي "الصبر"....
لقد أحببت الأم ابنها لكنها فضلت أن يُحرم منها عن أن يحرم من الله (فأشارت عليه بالهروب من الغضب^٢).]

^١ Cassian: Conf. 16: 22, 23.

^٢ Ep. 63: 100.

[تعلّم مشورة الصبر، مفضلاً أن يهرب ليعيش في أرض غريبة عن أن يثير غضب أخيه، ولم يرجع حتى شعر أن أخاه قد هدأ. بهذا وجد نعمة عظيمة لدى الله^١.]

تجمع جمر نارٍ على رأسه

يقول الرسول: "فإن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسقه، لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه". ماذا يعني "تجمع جمر نار على رأسه"؟ هل نقدم الطعام للعدو الجائع والماء للظمآن بقصد إغاضته؟ رأينا في دراستنا للإنجيل متى (٥: ٤٤) أن الوصية بعيدة كل البعد عن هذا المفهوم، إنما تعني جمر نار روح الله الذي ينقي العدو بالتوبة حتى يدرك حبك مقابل عداوته.

❖ إنها تعني أنك تتقي عدوك من الخطية، لأن صبرك يغلب مشورته.

❖ بمعنى آخر، إنك تشفيه من رذائله بحرق حقه لترده بالتوبة.

❖ حتى الناموس يعلمنا أن نحب العدو، فإن سقط حيوان العدو يلزمنا أن نرفعه، ويخبرنا الرسول: "فإن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسقه، لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه" (رو ١٢: ٢٠)، لا بطريق اللعنة والإدانة كما يظن غالبية الناس، وإنما بتهذيبه وجذبه إلى التوبة، فيغلبه الحنو، ويذوب بدفع الحب، فلا يصير بعد عدواً^٢.

القديس جيروم

¹ Duties of Clergy 1: 21 (91).

² On Ps. hom 22, 41; adv. pelag. 1: 30 (See St. Aug: On Christian Doctrine 3: 16).

مقومات المحبة الأخوية

أولاً: طول الأناة أو الترفق

عدم الغضب

١. عدم الغضب.
٢. أضرار الغضب.
٣. أسباب الغضب.
٤. علاج الغضب.
٥. إلى أي مدى نطيل أناتنا؟
٦. الغضب المقدس.
٧. حول موضوع الغضب.
٨. غضب الله.

عدم الغضب

❖ فلنربط الغضب كأنه ظالم ضار بسلاسل الوداعة، ولنضربه بقسوة سياط التوبة، ولنجره برباط المحبة المقدسة.

القديس يوحنا الدرجي

طول الأناة أو عدم الغضب طريق الكمال

من يمارس طول الأناة على الآخرين، يكون قد تعلم كيف يحب الله والناس، لأنه إذ يرى إهانات إخوته له ولا يغضب، يكون قد سلك طريق الكمال، أي طريق الحب المقدس.

❖ لا يوجد شيء يفوق الحب، وبالتالي لا يوجد شيء أدنى من الغضب. يلزمنا ألا نهتم بشيء مهما بدا نافعا وضرورياً حتى نتجنب الغضب الذي يسبب اضطراباً، ولا نرتبك بالأمور حتى التي نحسبها ليست كمالية حتى نحفظ هدوء الحب والسلام بغير نقص، لأنه يلزمنا أن ندرك أن لا شيء مهلك مثل الغضب والتكدر، وليس شيء مفيداً مثل الحب^١.

الأب يوسف

❖ الحقد والكراهية يزيدان لهيب القلب، وأما الرحمة والوداعة فيطفئانه.

القديس أوغريس

❖ من يصبر على السيئات الواردة عليه بتواضع، فقد بلغ الكمال. ويفتن به الملائكة عجباً، لأنه لا توجد فضيلة أشرف من هذه ولا أعظم منها، وهي عسرة التثقيف. من يقدر على احتمال الظلم بفرح... يقبل العزاء دائماً من الله محسوساً بواسطة إيمانه دائماً به.

¹ St. John Cassian: Conferences ,16:7.

كل كلمة قاسية صعبة يحتملها الإنسان بإفراز (بتمييز) من غير سبب، يقبل إكليل شوك من أجل المسيح. وطوباه، لأنه يُتوج في وقتٍ لا يشعر به، بتاجٍ لا يلحق به فساد.

مار اسحق السرياني

❖ إن كنا نتمتع بحبنا لأعدائنا فمن هم الذين نبغضهم؟

العلامة تريليان

❖ "المحبة تتأني وترفق" (١ كو ١٣: ٤)

تأمل من أي نقطة بدأ الرسول، وماذا قال كأول مسبب لعظمة المحبة: "إنها طول الأناة". وطول الأناة أصل كل إنكارٍ للذات. وكما قال أحد الحكماء: "الإنسان الطويل الأناة له فهم عظيم، أما المتهور فعظيم في غيائه".^١

❖ وإذا قارنا طول الأناة بمدينة حصينة وجدناها أكثر حصانة منها. فهي سلاح ماضي وقلعة حصينة، يمكن بسهولة أن تقف ضد كل المضايقات. وكما أن الشرارة البسيطة إذا ما سقطت في جب لا تؤدي بل تنطفئ سريعاً. هكذا كل ما يسقط على النفس الطويلة الأناة سرعان ما يتلاشى، وأما النفس فلا تضطرب. لأنه بالحق ليس هناك أقوى من طول الأناة.

❖ ليس شيء مثل التأني! قد تتكلم عن الجيوش والأموال والخيول والحصون والأسلحة أو أي شيء يمكن أن يوجد، هذا كله يمكن للغضب أن يهزمه. لأن من ينشغل بهذه الأمور غالباً ما يغلبه الغضب، ويصير مكتئباً كطفلٍ تافه، ويمتلئ بالارتباك والهيّاج. أما المتأني فإنه كمن في ميناء، يتمتع بهدوء مملوء تعقلاً. فإن أحاطت به الخسارة، يكون كالصخرة لا يتحرك، وإن شتم يكون كالقلعة لا يهتز، وإن ضرب بالعصا فلن يُجرح لأنه أصلب من الماس.

أما بولس فلم يقف عند هذا الحد، بل أضاف أيضاً إحدى خصائص المحبة قائلاً "تترفق". لأن هناك من يمارسون طول الأناة، ليس إنكاراً لذواتهم، وإنما لمعاقبة من أثاروهم لكي يفجروا فيهم الغضب، لهذا يقول بأن المحبة لا تقبل هذا الانحطاط، لذلك أضاف "المحبة تترفق". فهو لا يقصد بطول الأناة إشعال النار فيمن أثاروا

¹ In 1 Corinth., hom , 32:8.

الغضب بمعاملتنا لهم بطول الأناة، بل بقصد إخماد الغضب وإبادته. فلننا نعالج الألم ونشفي جراحات الغضب باحتمالنا الآخرين بنبل، بل احتمالنا لهم بلطف وتعزية^١.

❖ يليق بنا ألا نحاول الهروب من الإهانات بل بالحري نحتملها، لأن مثل هذا الاحتمال هو الشرف بعينه. لماذا؟ لأنه في قدرتك أنت أن تحتمل، أما إصلاح الآخرين فهو من عمل الغير. أسمع صدى الضربات التي تسقط على الماس؟ قد تقول هذه هي طبيعة الماس. حسنًا، وأنت في مقدورك أن تتدرب على ما هو للماس بالطبيعة. ألم تسمع كيف لم تؤذ النار الثلاثة فتية؟ وكيف ظلّ دانيال في الجب سالمًا؟ فما حدث لهؤلاء ممكن بالنسبة لنا، إذ يوجد حولنا أسود الشهوة والغضب مستعدة لتمزيق من يسقط تحت قدميها. إذن كن كدانيال وثابت، فلا تجعل الانفعالات تنشب بأظفارها في نفسك. تقول: هذا من فعل النعمة. حقًا، لكن النعمة تنساب خلال تدريب الإرادة، فمتى كنّا مستعدين لتدريب أنفسنا على نمط هؤلاء الرجال، تنساب النعمة في داخلنا، عندئذ تقع الوحوش في مذلة قدامنا بالرغم من جوعها. فإن كانت الوحوش قد تراجعت أمام عبد، أفلا تتراجع بالحري أمام أعضاء جسد المسيح (أمانا)!^٢.

❖ تقول إن إنسانًا كهذا شرير قد أحزنني وسبب لي أضرارًا جسيمة. أتريد أن تنتقم لنفسك؟ لا تتأثر لنفسك، بل أتركه ولا تنتقم. هل تقف عند هذا الحد؟ لا، "بل كل حين اتبعوا الخير بعضكم لبعض وللجميع" (١ تس ٥: ١٥). هذا هو علو الفلسفة أننا لا نقابل الشر بالشر، بل نقابله بالخير. فإن هذا بحق هو انتقام يسبب لنفسك نفعًا، ويمكن للآخر أيضًا أن ينتفع إن أراد^٣.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ من يحتمل ظلمًا من أجل الرب يُعتبر شهيدًا.

الأنبا موسى الأسود

❖ كيف يقدر أن ينال كمال نقاوة القلب من لا ينفذ الوصايا التي يظهرها الرسول: "احملوا بعضكم أثقال بعض، وهكذا تَمُمُوا ناموس المسيح" (غل ٦: ٢)، ومن ليس لديه فضيلة المحبة التي هي: "لا تُفح... ولا تحتد... ولا تظنّ السوء... وتحتمل كلّ شيء...".

¹ In 1 Corinth., hom , 33:1.

² In Rom. Hom. 4.

³ In 1. Thess, hom., 10.

وتصبر على كل شيء" (١ كو ١٣: ٤-٧)؟! لأن "الصديق يراعي نفسه بهيمته، أما مراحم الأشرار فقاسية" (أم ١٠: ١٢).^١

الأب شيريمون

❖ سأل أخ شيخًا: إنني أريد أن أستشهد من أجل الله. فأجابه "من احتمل أخاه في وقت الشدة، فذاك أصبح داخل أتون الثلاثة فتية".

بستان الرهبان

❖ إن طول الروح هو صبر، والصبر هو الغلبة، والغلبة هي الحياة، والحياة هي الملكوت، والملكوت هو الله. البئر عميقة ولكن ماءها طيب عذب. الباب ضيق والطريق كرب؛ ولكن المدينة مملوءة فرحًا وسرورًا. البرج شامخ حصين ولكن داخله كنوزًا جليلة.

القديس مقاريوس الكبير

❖ إن كان الشخص يغضب بكونه إنسانًا، فإنه يضع حدًا للغضب بكونه مسيحيًا.

القديس إيرونيموس

❖ أتى إخوة إلى القديس أنطونيوس وقالوا له "يا أبانا قل لنا كيف نخلص؟" فقال لهم: "هل سمعتم ما يقوله الرب... من لطمك على خدك الأيمن حول له الأيسر؟"

فقالوا له: "ما نطيق ذلك".

فقال لهم: "إن لم تطيقوا ذلك فاصبروا على اللطمة الأولى".

قالوا له: "ولا هذه نستطيع".

فقال لهم: "إن لم تستطيعوا فكافئوا من يظلمكم".

فقالوا له: "ولا هذا نستطيع".

فما كان من القديس إلا أن دعا تلميذه وقال له "اصلح لهم مائدة واصرفهم لأنهم مرضى. إن هذا لا يطيقون، وذاك لا يستطيعون، ووصايا الرب لا يريدون. فماذا أفعل لهم؟!"

بستان الرهبان

¹ Cassian: Conferences 11:10.

عدم الغضب... صوم روحي!

❖ يوجد من يصوم عن اللحم والخمر وبعض المأكولات، ويوجد من يصوم ليقيم سياجاً لفمه، فلا ينطق بكلمات شريرة. ويوجد من يصوم عن الغضب، ويضبط شهوته فلا تغلبه¹.

القديس أفراهاط الحكيم الفارسي

عدم الغضب... ملح للأرض!

❖ الكاهن ملح. أنظر، لئلاً تغضب على قريبك، لئلاً يقول الذين في الخارج إن الملح فسد.

أنتم ملح الأرض... وبكم يصطالح الغاضب مع قريبه...

الدهن الطيب الذي مسح به الكاهن هو الحب الذي يركز به، رائحته من كل الأطياب.

الملابس التي يرتديها الكاهن داخل بيت المقدس هي الحب المبسوط على ضميره عندما يقرب.

إكليل الكاهن يركز للشعب، أن هذا هو الحب الذي يربط جميع الحسنات، الذي يستطيع أن يدخل بها إلى الله.

القديس مار يعقوب السروجي

¹ St. Aphrahat: Demonstration 3.

أضرار الغضب

❖ ليس شيء أكثر خطورة من الحنق، ولا أقسى من الغضب!

❖ يوجد سُكر بالغضب أكثر خطورة من السُكر بالخمير!^١

القديس يوحنا الذهبي الفم

الغضب في درجاته الثلاث، من انفعال وغضبٍ وحقد، يعتبر أخطر عدو يهاجم
حبنا لإخوتنا، بل حبنا لله، ولعل من أهم أضراره:

١- يفقدنا المحبة والتشبه بالله. ٢- يظلم عيوننا الداخلية.

٣- ينزع سلامنا وهدوءنا. ٤- يمنع إشراق شمس البر علينا.

٥- يفسد الصلاة ويحرمانا الغفران. ٦- يشغلنا عن هدفنا.

٧- يفسد رسالتنا. ٨- يؤدي إلى الحقد.

٩- يفقدنا كل فضيلة. ١٠- يؤدي إلى التجديف.

١١- أسرع أنواع الشرور. ١٢- تنتقم من نفسك.

١- يفقدنا المحبة والتشبه بالله والسمايين

❖ من كان غضوبًا فهو خالٍ من طول الأناة والمحبة، يقلق سريعًا من الأقوال التافهة،
ويثير الخصام لأمر يسير حقير، وحيثما لا يكون له مكان يطرح نفسه... فمن لا ينوح
على مثل هذا؟ فهو مرذول عند الله والناس.

مار أفرام السرياني

❖ قال شيخ: إن الذي يخاصمه أخوه، ولا يحزن قلبه فقد تشبه بالملائكة. فإن خاصمه
ثم رجع من ساعته وصالحه، فهذا هو عمل المجاهدين. أما الذي يحزن إخوته ويحزن
منهم، ويمسك الحقد في قلبه، فهذا مطيع للشيطان مخالف الله، ولا يغفر الله له ذنوبه ما
لم يغفر هو لإخوته.

بستان الرهبان

^١ In Matt. hom 10:7; 15:4.

❖ الوديع ولو صنعوا به شرًا لا يتخلى عن المحبة، لأنه من أجلها يتمهل ويصبر بصلاح. فإن كان فعل المحبة هو طول الروح، فهي غريبة عن الغضب، لأن الغضب يقيم البغضة والرجز. والمحبة تبطل الثلاثة (الغضب والبغضة والرجز). من أجل ذلك يُقال عن المحبة أنها عظيمة، لأنها تلجم الغضب، "مياه كثيرة لا تقدر أن تطفئ المحبة" (نش ٨: ٧).

الشيخ الروحاني

٢- يظلم عيوننا الداخلية

- يفتح القديس يوحنا كاسيان كتابه "في روح الغضب" بالكشف عن خطورة الغضب، إذ يصيب البصيرة الداخلية، فيفقدنا قدرتنا على رؤية الأمور كما ينبغي^١:
- لا نستطيع أن نحرز الحكمة، ولا يكون لنا الحكم السليم على الأمور، لأن "الغضب مستقر في حضن الجاهل" (جا ١٠: ٧).
 - لن نستطيع أن نكون شركاء في الحياة، أو داعين للبر، أو حتى يكون لنا قدرة على تلقي نور الروح الحقيقي، لأن أعيننا يربكها ظلام الغضب.
 - لا نستطيع إدراك الحياة الأبدية، لأن "الغضب يهلك ذوي الحصافة" (أم ٢: ١٥).
 - لن يتيسر لنا إحراز قوة البر، حتى إن كنا كاملين وطاهرين في نظر الجميع، لأن "غضب الإنسان لا يصنع برّ الله" (يع ٢٠: ١).
 - لن نستطيع أن ننال التقدير والإجلال اللذين كثيرًا ما نشاهدهما حتى في أبناء العالم، ولو كنا بمولدنا من طبقة الأشراف والنبلاء، لأن "الإنسان الغاضب مُحترق" (أم ٢٣: ١١).
 - لن نستطيع إحراز الفكر الناضج حتى إن توهم الناس أننا ذوو أهمية بالغة، لأن "السريع الغضب يعمل بالحمق" (أم ٢٧: ٤).
 - لا نستطيع التخلص من القلاقل الخطرة أو ننجو من الخطية حتى ولو لم تحل بنا أية قلاقل من الآخرين، لأن "الرجل الغضوب يهيج الخصام والرجل السخوط كثير المعاصي" (أم ٢٩: ٢٢).
- الغضب يفسد القلب، هيكل الله القدوس، والعين التي بها نعاين الله، ونرى الحكمة،

^١ راجع للمؤلف : القديس يوحنا كاسيان: حياته وكتابات وأفكاره، ١٩٩٧، ص ٤٨٠ الخ.

ونقدر على التمييز والإفراز... فإن شاب القلب غضب، انشغل بالانتقام، وبالتالي لا يستطيع أن ينشغل بربنا يسوع - المحبة المطلقة - ولا أن يلهج في شريعته.

❖ لا تظنوا أن الغضب أمر يُستهان به، إذ يقول النبي "تَعَكَرت (ذُبلت) من الغضب عيناى" (مز ٦: ٧). وبالتأكيد لا يستطيع متوَعك العينين أن يعاين الشمس. فإذا حاول رؤيتها تؤذيه ولا تبهجه.

❖ فلترتعبوا عند سماعكم "كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس" (١ يو ٣: ١٥).
إن وجدتم في منازلكم عقارب وأفاعي، ألا تجتهدوا في طردها حتى تعيشوا في أمان منها في منازلكم؟! ومع ذلك فما أنتم غاضبون، وهذا الغضب يتأصل في قلوبكم. وينمي فيها حقًا... وعقارب وأفاعي، ومع هذا فلا تتقون قلوبكم، التي هي مسكن الله!!
القديس أغسطينوس

❖ إنه لضرر عظيم أن نعر عین أنفسنا بالغضب، وإنه لأشد ضررًا أن نظهر الغضب بالكلام، ولكن لا شيء يفسد الحياة النسكية، التي هي عيشة ملائكية وإلهية بالتمام، وغير جدير بها - إلا الغضب الذي يحمل الرهبان على أن يتضاربوا.

القديس يوحنا الدرجي

❖ يجب قلع سم الغضب القاتل من جذوره في أعماق النفس، لأنه إذا بقي روح الغضب واستقر في قلوبنا أظلمت عقولنا وفقدت قدرتها على الرؤية، لأن الغضب يصيب بالعمى وبظلمة ضارة تجعل الرؤية الروحية مستحيلة. فلا تقدر على الحكم الصائب في أمر من الأمور، بل يتعذر علينا التأمل الصالح الذي ينمي الحكمة فينا، بل لا نقدر أن نثبت في الصلاح، أو نقبل النور الحقيقي الروحي، لأنه مكتوب: "عيني قد تعكرت من الغضب" (مز ٦: ٧).

وقد يمدحنا الناس كحكماء، ولكننا لن نكون حكماء إذا لازمنا الغضب، لأنه مكتوب: "الغضب يسكن مستريحًا في صدر الأحق" (جا ٧: ٩ LXX). وهو يعرضنا لفقدان ميراث الحياة الأبدية. وقد يظهر لنا أننا نفهم الطبيعة الإنسانية ونذكر أسرارها، ولكن إذا ظل الغضب فينا، تم فينا ما هو مكتوب: "الغضب يدمر الحكماء" (أم ١٥: ١ LXX). ويحرمنا الغضب من إدراك "برّ الله"، لأننا بسبب الغضب نفقد الإفراز، ومع أن الناس قد يقولون عنا إننا قديسون وكاملون إلا أنه مكتوب "غضب الإنسان لا يصنع

بَرَّ الله" (يع ١: ٢٠).^١

القديس يوحنا كاسيان

٣- ينزع سلامنا وهدوءنا

ينشغل الإنسان الغضوب بالانتقام، فيفسد هيكل الله القدوس، ويُحرم من عمل الروح القدس الساكن فيه، هذا الذي يملأ القلب سلامًا وفرحًا، ونعيمًا. أساس المنازعات هو حرمان القلب من السلام الداخلي، لهذا يقول القديس أغسطينوس: [في الحرب الروحية إذا انتصرنا على شهواتنا ننتصر على أعدائنا (الشياطين). لأنه متى قهرنا فينا الشهوات الأرضية، نقهر لا محالة العدو الذي يتسلط علينا بهذه الشهوات. فإذا قيل للشيطان (في شخص الحية) أن يأكل التراب، قيل للخاطيء (في شخص آدم): أنت تراب وإلى تراب تعود، وبهذا صار الإنسان طعامًا للشيطان. فإن أردنا ألا نكون هكذا يلزمنا ألا نكون ترابًا.]

❖ الغضب هو حركة للجنون، والذي يقتنيه لنفسه يحيره، ويجعل النفس مثل الوحوش. كما أن الماء يضطرب بقوة الريح، كذلك الغضوب يضطرب بأفكار الرجز. الرجل الوديع مثل ينبوع صافٍ يروي الكل بطبيعته، أما الغضوب فهو معكر في كل حين، ولا يعطي ماء للظمان. ينظر الغضوب في نومه خيالات مثل الأفاعي تسرع نحوه، أما الوديع فينظر في نومه القديسين، وتتكشف له الأسرار بالليل.

القديس أوغريس

❖ يُسمى الروح القدس سلام الروح، ويدعي الغضب قلق النفس، فلذا يجب أن نستنتج أن لا شيء يُبعد عنا حضور (عمل) الروح مثل الغضب.

القديس يوحنا الدرجي

❖ مغبوط هو الرجل المقتني طول الأناة، فمثل هذا مدحه الكتاب المقدس قائلاً: الرجل الطويل الأناة جزيل التعقل. فليس شيء أعظم من هذا، لأن الطويل الروح في سرور في كل آن، في فرح، في غبطة، لأنه قد ألقى اتكاله على الرب، ووضع فيه رجاءه. الطويل الأناة... يفرح بالأحزان، ويثابر في كل عمل صالح، ويتودد إلى من

¹ De institutis caenoborum, Book 8:1.

يحسده، وفي كل آن يشفي نفسه بطول الأناة.

وأما من ليس بطويل الروح فهو خالٍ من الصبر... يسقط سريعاً، وبسهولة يأخذ بالخصومات والشر محتدّاً... أقواله وأفعاله قلقة مضطربة، كأنها ورقة تحركها الرياح، لا يثبت في كلامه... فمن يا ترى يكون أشقى منه؟!

❖ طوبى لمن لا يغتاز بسهولة ولا يسرع إلى الغضب، فهو في السلامة كل حين. ومن طرد عنه روح الغضب والسخط، فهو بعيد عن الحرب والاضطراب، هادئ الروح كل حين، مسرور القلب، مبتسم الثغر.

❖ إن الغضوب والسريع السخط لأتفه الأمور، سيسمع ما قاله الإناء المختار: إن الغضب ينافي عدل الله. فمن ظفرت به هذه الآلام فهو تعيس في نكد. لأن الغضوب يود لو أنه يقتل نفسه ويهلكها، ويتصرف دائماً بالقلق والاضطراب، بعيد عن الهدوء، غريب عن السلام.

إنه عديم الصحة، لأن جسمه يذوب كل آن وآخر، ونفسه حزينة، وهيته كئيبة ونضارة محياة ذابلة، وعقله مختبل سقيم، وأفكاره تنبع كفائض الأنهار، وهو ممقوت من الكل.

مار أفرام السرياني

❖ القلب المتقدم بالغضب فارغ من العزاء المخفي، ومحروم أيضاً من المعزين الذين من الخارج، لأن العزاء الداخلي يقبل العزاء الخارجي، ويهتم به ويستريح فيه. فإن لم يكن فينا عزاء خفي، فلا موضع فينا للعزاء الخارجي لنستريح به.

❖ الرجل الشهواني - وإن كان ليس رزينا ولا هادئاً - لكن قد تقيض منه حلاوة الحب والرحمة.

الرجل الغضوب... يعمل فيه عكارة الدم الأسود للظلام، ونفسه مريرة ومملوءة كآبة وغيطاً، وهو متغير اللون وسيء المنظر.

مار اسحق السرياني

❖ اطرء ظلمة الغضوب الذي تراه بصمتك، وتعود أن تقتني الفرح في قلبك، والسلام في الإخوة والأخوات الذين يشبهونك في الفكر، والغيرة والاهتمام بحفظ كنائس الرب¹.

¹ Letter 65 to Atorbius.

القديس باسيليوس الكبير

٤ - يمنع إشراق شمس البرّ علينا

لا يطيق القلب الغضوب أن يشرق فيه ربنا يسوع - شمس البرّ - الهادئ الوديع "الذي لا يصيح ولا يسمع أحد صوته".

❖ تتبعث عاطفة الغضب هائجة من كل سبب تقريباً، فتطمس عيني النفس، وإذ تصيب بصرنا بخشبة مميتة لمرض أشد سوءً، تمنعنا من رؤية شمس البرّ. ليس ثمة فارق في أن يكون العائق الموضوع فوق جفوننا لوحاً من رصاص أو ذهب أو أي معدن تشاء، لأن قيمة المعدن لا تختلف في تأثيرها على ما يصيبنا من عمى^١.

القديس يوحنا كاسيان

❖ "لا تغرب الشمس على غيظكم" (أف ٤ : ٢٦). ومع هذا فقد غابت الشمس عنه مراراً كثيرة.

اتركوا غيظكم أيضاً حيث نحتفل بأيام الشمس (المسيح) العظيم (عيد القيامة المجيد)، هذه الشمس التي يقول عنها الكتاب: "لكم... تشرق شمس البرّ، والشفاء في أجنتها" (مل ٤ : ٢). ماذا يقصد بأجنتها؟ أي تحت حمايته. إذ قيل في المزامير: "وبطل جناحيك استرني" (مز ١٧ : ٨). وأما أولئك الذين يندمون في يوم الدينونة بعد فوات الأوان... فقد تنبأ عما سيقولونه في سفر الحكمة: "قد ضللنا عن طريق الحق، ولم يضيئ علينا نور البرّ، ولم تشرق علينا الشمس" (حك ٥ : ٩، ٦). تلك الشمس التي تشرق على الأبرار، وليست كالشمس التي نراها كل يوم، "يشرق شمسها على الأشرار والصالحين" (مت ٥ : ٤٥). فالأبرار يطلبون رؤية تلك الشمس، وهي تقطن بالإيمان في قلوبنا. فإن كنتم غاضبين، فستغرب شمس البرّ عنكم وتمكثون في الظلام.

القديس أغسطينوس

❖ ماذا نفعل في يوم الدينونة، نحن الذين لم تغرب الشمس على غضبنا يوماً واحداً بل سنوات كثيرة؟!

القديس جيروم

^١ Cassian: De institutis caenoboum, 8:6.

❖ إذا أكمل الإنسان جميع الحسنات وفي قلبه حقد على أخيه، فهو غريب عن الله.
القديس أنبا باخوميوس

٥ - يفسد الصلاة ويحرمانا من الغفران

في كل يوم نغيظ الله بخطايانا وتعدياتنا المتكررة، تارة بإرادتنا وأخرى بغير إرادتنا، دفعة بمعرفة وأخرى بغير معرفة، خفية وظاهرة، بالفعل أو القول أو الفكر... ومع هذا فهو يقبل صلواتنا، ويمحو آثامنا باستحقاق دمه المسفوك عنا، لعلمه بالضعف البشري، على شرط أن نغفر لإخوتنا الضعفاء مثلنا عن إساءاتهم لنا.

لذلك علمنا ربنا يسوع هذا المبدأ في الصلاة الربانية، وعاد فأكدته قائلاً: "إن غفرت للناس زلاتهم، يغفر لكم أوبكم السماوي. وإن لم تغفروا للناس زلاتهم، لا يغفر لكم أوبكم أيضاً زلاتكم" (مت ٦: ١٤، ١٥).

فكل إنسان، مهما ثقلت خطاياه، يستطيع أن يقف طالباً العفو، ماعدا الغضوب والحاقد على أخيه. فهذا قد تأكد أن خطاياه بلا غفران، إلا إذا عاد وصفح هو أولاً.
لهذا يقول الكتاب: "من انتقم يدركه الانتقام من لدن الرب، ويتربق الرب خطاياه. أغفر لقريبك ظلمه لك، فإذا تضرعت تُمحي خطاياك. أيقّد إنسان على إنسان ثم يلتمس من الرب الشفاء. أم لا يرحم إنساناً مثله، ثم يستغفر عن خطاياه. إن أمسك الحقد وهو بشر، فمن يكفر خطاياه" (ابن سيراخ ٢٨: ١ - ٥).

أمثلة من سير القديسين

❖ سأل أخ شيخاً قائلاً: "ماذا أعمل يا أباي، فإنني متضايق من أخي وليس في نيتي أن أغفر له؟" فلما سمع الشيخ هذا الكلام رفع عينيه إلى السماء وضرب صدره قائلاً له: "يا شقي إن كنت تُغضب رب السماء والأرض وهو يطيل روحه عليك ويغفر لك إذا ما تبت إليه، فكيف لا تغفر أنت لأخيك؟"

❖ جاء عن أخٍ أغضبه أخوه، فلما دخل إلى قلايته استحى أن يصلي إلى الله بسبب الألم المتقد في قلبه نحو أخيه. ولكنه لما انطرح أمام الله قائلاً: "يا سيدي، لقد غفرت لأخي من كل قلبي"، للحال جاءه صوت يقول له: "قد أخذت شبيهي. إذن فصل لي بدالة".

❖ جاء عن أحد الإخوة أنه ذهب إلى الأب سلوانس وأخبره بأن عدواً له قد كثر شره، وأنه يطلب إهلاكه، ويرغب في تسليمه للتأديب عند السلطان، فأجابه الأب أن يفعل كما

يشاء. فقال له الأخ: "صل من أجلي"، فقام الأب يصلي، ولما بلغ إلى قوله "أغفر لنا ذنوبنا"، قال: "لا تغفر لنا ذنوبنا كما لا تغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا". فقال له الأخ "لا تقل هكذا يا أبي" فأجابه الأب "إذا كنت تريد الانتقام ممن أساء إليك، فهذا ما يجب أن يقال يا ولدي وهكذا يكون" فصنع له الأخ مطانية وصفح عن عدوه.

بستان الرهبان

جاء في سيرة القديس الأنبا إبرام^١: حدث مرة أن أخطأ كاهن كنيسة المرقسية في أحد المطارنة، فانعقد مجلس كنسي لمحاكمته. وطلب من المطران أن يصفح عن الكاهن فأبى. وإذ وقفوا للصلاة طلب من المطران أن يصلى الصلاة الربانية، فأخذ يتلوها حتى جاء إلى القول، "واغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا"، فقاطعه القديس الأنبا إبرام قائلاً: "إن كنت تعتقد بصحة ما تصلي به فقم وصافح أخاك وقيل رأسه، وإلا فأنت تكذب على الله عندما تتلو صلاتك"، فقام المطران وطلب الصفح^٢.

دعاه مرة البابا لكي يحضر المجمع لمحاكمة كاهن أوى في كنيسته أسقفاً محروماً، وقدم له طعاماً وأباته عنده. وإذ اجتمع المجمع تحت رئاسة البابا وقرأ الاتهام، أعلن البابا أنه مستحق للقطع، ثم أعطى الحكم لقليني باشا فهمي لكي يوقع هو أيضاً عليه ويعطى المستند لجاره... وكان القديس جالساً بجوار الباشا، الذي أخذ الورقة وقرأها، ثم قال: "لست أجد علة لقطع هذا الكاهن، وفرزه من الكنيسة، ألم يأمرنا يسوع المسيح أن نترفق بالفقراء ونهتم بالغرباء؟!..." ثم أعلن أنه لن يوقع على المستند. وإذ قال قليني باشا إن البابا هو الذي قرّر هذا وهو موافق لقانون الكنيسة، أجاب: "لماذا دعيت للمجمع إن كنت لا أصرح برأيي؟!..." عندئذ همس أحد الأعضاء في أذنه، قائلاً له: "ألا تعلم أن الذي تحدثه هو قليني باشا فهمي؟" عندئذ أجاب القديس: من هو قليني باشا؟ ألم يتحدث موسى مع الله نفسه؟... أتركني... عندئذ قام وترك حجرة الاجتماع ونزل إلى الدور الأرضي، وأرسل البابا أحد الأعضاء يسترضيه، فأجابه: "حي هو اسم الله! لن أصعد على سلم هذا الدار مرة أخرى كل حياتي إن لم تحضر لي الحكم هنا وأمزقه". وفعلاً خضع له البابا، وسامحوا الكاهن!

❖ قال شيخ: ليس من الخطايا ما يستمر وجودها بالفعل في الإنسان سوى الحق، فإن

^١ راجع للمؤلف: أنبا أبرام، صديق الفقراء، ١٩٩٣.

^٢ القس منسى يوحنا: تاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ١٩٢٤ - الأنبا إبرام.

القاتل مثلاً يكون زمان مباشرته بالفعل لخطيته أقل كثيراً من زمان تركه لها. وكذلك الزاني والسارق وغيرهم، أما الذي يحقد، فإنه إن كان جالساً أو راقداً أو واقفاً أو ماشياً أو متكئاً أو ساكناً أو صامئاً أو آكلًا، ففي سائر أحواله وأوقاته، لا يفارق الحقد قلبه. فمثل هذا الإنسان صلاته باطلة، لأنه يطلب الغفران وهو لا يغفر. فتعبه كله ضائع، حتى ولو سفك دمه كالشهداء، لأن الرسول قال بأن هذه كلها لا تفيد شيئاً مع عدم الحب. ولا حب مع الحقد.

❖ قال شيخ: من يحقد على أخيه فقد خزنَ ذنوبه في داخله وختم عليها.

بستان الرهبان

❖ كيف تطمع في نوال المغفرة إذا تضرعت إلى الله، وأنت لم تسامح بعد ذاتك بعدم مسامحتك الذين صنعوا بك الشر. فكيف إذن يصفح الله عن هفواتك؟!

❖ لنسمع يا معشر غير الرحومين والقساة... لأننا نحن لسنا قساة على غيرنا، بل على أنفسنا.

فإن أردت أن تحقد، فتأمل أنك تحقد على نفسك لا على غيرك. إنك تربط خطاياك لا خطايا القريب، لأنك مهما فعلت، إنما تفعله كإنسان في هذا الوقت الحاضر، أما الله فليس كذلك بل يعاقبك أكثر... لقد قال: "فهكذا أבי السماوي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحدٍ لأخيه زلاته" (مت ١٨ : ٣٤). وهنا لم يقل "أبوكم السماوي"، بل "أبي"، لأنه لا يجب أن يُسمى الله أباً لمن له صورة الخبث والبغضة للناس... فإن تشبثت بالغيظ والسخط، فسيلحقك الضرر لا من ذلك الشخص بل من نفسك. فلا تقل إنه شتمك، وأساء إليك، واستهزأ بك، وسبك، وصنع معك كل قبيح... لأنه قد أوجد لك فرصة لغسل خطاياك. فبمقدار تعديه عليك، توجد لك فرصة لأجل الصفح عن خطاياك.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كلما أردت أن تنتقم من الذين ظلموك، فإن هذا يصير لك عثرة في وقت الصلاة... إذا أردت أن تصلي كما يجب، فلا تؤلم قلب أحدٍ، لئلا يكون تعبك باطلاً. قال الرب: "أترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً اصططح مع أخيك وحينئذ تعال وقدم قربانك" (مت ٥ : ٢٤). لذلك إن تذكرت شر أخيك، فإنك تصلي وأنت مظلم العقل.

ألقِ عن نفسك أفكار الغضب، ولا تدع الرُّجز يسكن فيك، فما تقلق وقت الصلاة.
صلاة الغضوب هي بخور نجس مردول، وقربان الغضوب ذبيحة غير مقبولة.
القديس أوغريس

❖ وأن الغضوب أقام أمواتًا فليس هو بمقبولٍ عند الله، ولن يقبل إليه أحد من الناس.
الأنبا أغاثون

❖ إن كنت غير مذنب عند الله، فلا تغفر للمذنبين إليك. وإن كنت تعلم أنك مذنب، فاقتنِ
الرحمة، وقدمها قدامك. فإن الله يضاعف الرحمة للرحومين.

الأب غريغوريوس

❖ يستثمر الحقود من صلاته ما يستثمره الزراع في البحر من الحصاد. وكما أن شعاع
النور لا يمكن منعه عن الصعود إلى فوق، هكذا صلاة الرحومين لا يمكن إلا أن ترقى
إلى السماء. وكما أن جريان الماء يتجه إلى أسفل، هكذا قوة الغضب إذا ما وجدت
موضعًا في فكرنا.

مار اسحق السرياني

❖ كل ما تنتقم به من أخيك الذي أخطأ إليك سيكون كله وبالاً عليك في وقت صلاتك.
القديس نيلس السينائي

❖ إن زل بك صاحبك ولم تغفر له، فبأي وجه تطلب من الله أن يغفر لك؟
إن كنت مذنبًا، فأكثر الغفران لأخيك، وتعال اطلب هكذا من الله لتأخذ.
نسمع ههنا: بماذا يغفر المسكين؟ فإن الوصية تخص الأغنياء والمساكين... فمن
له ذهب، فليتركه للمدينين له...
وأما المسكين الذي ليس له حساب ولا ذنوب ولا انتقام... ليغفر، فإنه إن احتقره
أحد أو طرده أو لطمه... فليغفر عن هذا.
ليترك كل واحدٍ.
هذا يترك دينًا، وآخر حسابًا، وثالث غيظًا، ورابع شتيمة أو كلمة من صاحبه،
وخامس إهانة.

مار يعقوب السروجي

❖ إننا مدينون بالخطايا لا بالمال. ربما تقولون: "هل أنتم أيضًا هكذا؟" أجيب: "نعم نحن

أيضًا".

أأنتم أيها الأساقفة مدينون؟ نعم نحن مدينون أيضًا... "إن قلنا أنه ليس لنا خطية، نضل أنفسنا، وليس الحق فينا" (يو ١: ٨). إننا قد تعمدنا، ومع ذلك فنحن مدينون، ليس لأن المعمودية لم تغفر شيئاً ما، بل لأننا نصنع ما نحتاج إلى مغفرته يوميًا. فالذين اعتمدوا وانتقلوا في الحال من هذا العالم، خرجوا بدون خطية... وأما الذين اعتمدوا وبقوا في هذه الحياة، فإنهم يفعلون نجاسات بسبب ضعفهم الجسدي، هذه التي بالرغم من كونها لا تسبب غرقاً للسفينة (للنفس) إلا أنها تحتاج إلى مضخة لنزحها، لئلا يتسرب إليها (الشر) قليلاً قليلاً حتى يؤدي إلى غرقها.

فالصلاة هي استجاءنا بالمضخة، ولكن لا تكفي الصلاة، بل علينا أن نُحسِنَ أيضًا. لأنه عندما نستخدم المضخة... يحدث صوت مع عمل الأيدي فنحن نستخدم الصوت بقولنا: "اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا"، ونعمل بأيدينا... (تنفيذ هذه الصلاة والإحسان على إخوتنا).

لا تحسبوا أنفسكم أبرارًا... بالرغم من امتناعكم عن عبادة الأوثان وعن الالتجاء إلى المنجمين والاستشفاء بواسطة السحرة، وبالرغم من ابتعادكم عن القتل والفسق والزنا والسرقة والنهب وشهادة الزور وكل مثل هذه الخطايا...

فإنسان يخطئ بالنظر بلذة إلى ما لا ينبغي النظر إليه، ومن يستطيع أن يسيطر على سرعة عينيه؟ من يستطيع أن يضبط الأذن والعين؟... فإن أذانكم لا يمكن إغلاقها عن سماعها للشتيمة وكلمات النجاسة والتملق وكلمات الضلال...
يا لعظم خطايا اللسان. نعم إن بعضها قد يسبب منعنا عن المذبح، إذ به قد نجدف...

لتجعلوا أيديكم لا تخطئ وأرجلكم لا تجري نحو أي شر، وأعينكم لا تتجه نحو القبح، وأذانكم لا تسمع بلذة الحديث القبيح، وألسنتكم لا تتطق بأقوال معيبة، ولكن أخبروني: من يستطيع أن يضبط الفكر؟ إخواني، كم مرة نصلي ونحن مشغولون الفكر، كما لو نسينا أننا أمام الله واقفون؟

لنقل كل يوم "اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا" ويكون هذا القول بإخلاص قلبي، عالمين أن ما نقوله عهد وميثاق وارتباط بيننا وبين الله. فالرب إلهكم يقول لكم: اغفروا يُغفر لكم: فإن لم تغفروا تبقوا في خطاياكم ضد أنفسكم وليس ضدي.

❖ من يعيش هنا في الجسد دون أن يرتكب ذنباً؟!... قد ينتفخ (بأنه لا يصنع شرواً) لكنه لا يستطيع أن يتبرر، وكان خيراً له أن يقتدي بالعشار ولا ينتفخ كالفريسي الذي صعد إلى الهيكل متباهياً باستحقاقاته، خافياً جراحاته...
أنظروا أيها الإخوة. فقد علم الرب يسوع تلاميذه، الذين هم رسله الأولين العظماء، قادة قطيعنا، أن يقدموا هذه الصلاة: "وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا". فإن كان القادة يصلون من أجل غفران خطاياهم، فكم ينبغي علينا نحن الحملان؟!...!

لقد دخلنا مع الله في ميثاق وعهدٍ وارتباطٍ راسخ. لذلك اغفروا كل ما على الآخرين غفراناً تاماً من قلوبكم التي يراها الله.

القديس أغسطينوس

❖ لا تدع الملاك جبرائيل الذي يرفع الصلوات يخجل من أن يرفع مقدمة بها عيب.

عندما تصلي كي يغفر لك الله لا بد أن تغفر أنت أيضاً أولاً في داخلك، هل حقاً أنت تغفر أم أنك فقط باللسان تصلي أنك تغفر؟!...
يجب أن لا تكون مخادعاً للرب وتقول "أنا أغفر" وأنت عملياً لا تغفر، لأن الله ليس مثلك بشر يمكن أن تخدعه. "إذا أخطأ إنسان إلى إنسان يدينه الله. فإن أخطأت إلى الرب، فمن يصلي من أجلك؟" (١ صم ٢: ٢٥)
استمع مرةً أخرى لما يقوله الرب: "إن قدّمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فأترك هناك قربانك قدام المذبح، وإذهب إصططح مع أخيك، وحينئذ تعال وقم قربانك" (مت ٥: ٢٣-٢٤).

عندما تبدأ صلاتك لا تعود تتذكر أي غضب أو حنق ضد أخيك. فإن وُجد تذكر أن صلاتك متروكة أمام المذبح وأن جبرائيل الذي يرفع الصلوات لا يريد أن يرفع الصلاة من الأرض، إذ فحص الصلاة ووجد عيباً في تقدمتك. ولكن عندما تكون نقيّة يرفعها أمام الله. إن وجد في صلاتك الكلمات: "اغفر لي، وأنا أغفر للآخرين" عندئذ يقول جبرائيل رافع الصلوات: "أولاً أعفُ عن المدينين لك، وأنا أرفع صلاتك إلى الذي أنت مدين له".

سامح المدينين لك بمائة دينار" (مت ١٨: ٢٣-٢٥) في حالتك الفقيرة، فيعفو

عنك دائنك بالمقابل بمقدار عشرة آلاف وزنة حسب غنى عظمتة. فلا يسألك عن رد الدين أو الفوائد.

وإذا رغبت في الغفران للآخرين، حينئذ يستقبل جبرائيل رافع الصلوات تقدّمك ويرفعها إلى أعلى. وإن لم تغفر حينئذ يقول لك: "إنني سوف لا أضع تقدّمك غير الطاهرة أمام المذبح المقدّس". وبدلاً من ذلك خذ تقدّمك معك، وعندئذ يترك جبرائيل تقدّمك ويذهب. إسمع ما يقوله النبي: "ملعون الماكر الذي يوجد في قطيعه ذكر وينذر ويذبح للسيد عائباً للأرض" (مل ١: ١٤). لأنه يقول أيضاً: "قريب لواليك أفيرضى عليك أو يرفع وجهك؟" (مل ١: ٨) لذلك يجب أن تغفو عن مدينك قبل صلاتك، وبعد ذلك فقط صلي، وحين تصلّي ترتفع صلاتك أعلى أمام الله، ولا تبقى على الأرض^١.

القديس أفراهاط الحكيم الفارسي

٦- يشغلنا عن هدفنا

يرى الإنسان المسيحي أمامه أورشليم السماوية دائماً. فأفكاره وحياته كلها مشغولة برينا يسوع وملكوته، وهو ينظر إلى الحياة الزمنية كقنطرة يعبر بواسطتها إلى المدينة المنيرة. لذلك لا يقبل - مهما كلفه الأمر - أن يحول نظره عن هذا الهدف.

أما عدو كل خير، فيخلق النزاعات حتى يشغل المؤمنين بمطالبهم بما يدعونه بحقوقهم، والانتقام لأنفسهم ضد من أغضبهم، فلا تشغل قلوبهم برينا يسوع. فالمؤمن الذي يعلم مكائد إبليس وحروبه الخفية يحول خذه الآخر لمن لطمه، حتى لا ينشغل بالمماحكات والنقاش والجدل الفارغ، وهذا ما أوصى به الرسول تلميذه الأسقف تيموثاوس: "فكر بهذه الأمور مناشداً قدام الرب أن لا يتماحكوا بالكلام. الأمر غير النافع لشيء، لهدم السامعين... وعبد الرب لا يجب أن يخاصم" (٢ تي ٢: ١٤، ٢٤). ويقول الحكيم: "مجد الرجل أن يبتعد عن الخصام، وكل أحمق ينازع" (أم ٢٠: ٣).

❖ سؤال: "إن ارتاب فيّ أخ... أتؤثر أن أقدم له سجدة؟" الإجابة: "أسجد له سجدة، واقطع ذاتك منه، فإن أنبا أرسانيوس قال: أحب الكل وأنت بعيد عن الكل.

الأنبا إشعياء (عن بستان الرهبان)

¹ St. Aphrahat: Demonstration 4.

❖ يليق بالمتقدمين إلى الله أن ينظروا إليه وحده، ويلتجئوا إليه بورع هكذا، حتى لا يعيروا الشتيمة التفاتاً حتى ولو كانوا مظلومين ربوات من المرات.

أنبا أفراطس (عن بستان الرهبان)

❖ لنحتمل هنا حتى نستحق أن نكون هناك سعداء. ولننتهز الفرصة ولا ندعها تعبر بنا باطلاً. على أن ما نحتمله هنا فهو تعب زمني، أما الأجر الذي نستحقه به فأبدي. إن احتمال القريب وإسعافه أمران ضروريان حتى أن الحياة المسيحية متوقفة عليهما.

القديس أغسطينوس

٧- يفسد رسالتنا

في الحديث عن الحب الجامع رأينا أن المسيحي هدفه هو أن يكون رسالة ربنا يسوع المقروءة من جميع الناس، ورائحته الذكية التي تجذبهم نحوه. فمن لا يجمع معه، فهو يفرق. والغضوب إنسان لا يستطيع أن يشهد لربنا يسوع الوديع، طويل الأناة الذي يغفر بلا حدود.

❖ "وإن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما، إن سمع منك فقد ربحت أخاك" (مت ١٨ : ١٥). لقد قال: "إن سمع منك فقد ربحت أخاك"، بمعنى أنه إن سمع، أي لأم نفسه وأنكرها. إن عرف أنه أخطأ (بمجيئك له وعدم غضبك عليه) وأذعن لذلك، فإنك تكون قد ربحت أخاك. إنه لم يقل تكون قد عاقبته أو أجريت عليه قصاصاً، بل "ربحت". مظهرًا بأن في العداوة خسارة مشتركة بينكما وخسارة عامة، لأنه لم يقل: "قد ربح نفسه" بل أنت "ربحت". فقبل المصالحة، كان كلاكما خاسرين، أحدهما خسر أخاه، والآخر خسر سلامه وخلاصه...

إنه يطلب ممن حزن أن يذهب، لا الذي سبب الحزن... لأن المعتدي لا يأتي بسهولة ليقدّم الاعتذار.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٨- يتحول إلى حقد

يبرر الكثيرون غضبهم بأنه ثورة خارجية، أما قلوبهم فمملوءة حباً نحو الثائرين ضدهم، قائلين بأن الثورة في الخارج أفضل من كبته في الداخل. لكن كشف الآباء باختباراتهم لنا كيف يصحب الغضب الخارجي غضباً داخلياً، ينمو ويتزعزع إلى أن يصير

حقًا. وقد قسم القديس أغسطينوس الغضب إلى درجات ثلاث هي^١:

- أ- **الغضب الداخلي**، حيث يكون الانفعال في داخل القلب، دون أن يُعبر عنه بحركة ظاهرة "من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم" (مت ٥).
- ب- **الغضب المصحوب بكلمة تعبر عنه**، وإن كان ليس لها معنى شرير، سوى في دلالتها على وجود الغضب مثل "من قال لأخيه رفاً" (مت ٥: ٢٢).
- ج- **الغضب المصحوب بانفعال ظاهري مع كلمة ذم (الحقد)**: "من قال يا أحمق" (مت ٥: ٢٢).

وقد قسم الأب دوروثيوس الغضب تقسيمًا مشابهًا:

❖ الإنسان الذي يقيم سلامًا مع آخر للحال بعدما يكون قد ثار ضده، يعالج غضبه لكنه لا يعالج حقه، لذلك فإنه يبقى مستاءً من أخيه. لأن الغضب شيء، والحقد شيء آخر، **والتهيج (الثورة) شيء ثالث، والاضطراب شيء آخر**. ولكي تفهم الأمر بوضوح أكثر، أعطيك مثالاً: لكي يشعل الإنسان نارًا يأخذ قطعة من الفحم، وهذه هي الكلمة التي أساء بها أخوك إليك، إن احتملتها تكون قد أطفأت الفحم. ولكن إن فكرت: "لماذا يقول لي هذا ذلك القول؟ إنني أيضًا أرد عليه قائلاً كذا وكذا. إنه لو لم يقصد الإساءة إليّ ما كان قد قال لي هذا. لذلك يجب عليّ أن أرد الإساءة بالمثل". بهذا التفكير تضع بعض الوقود أو ما أشبهه لتبدأ النار. وبذلك ينتج دخانًا الذي هو **الاضطراب**. والاضطراب هو حركة في الأفكار وتقليب لها، تثير القلب وتهيج.

أما **التهيج** فهو عمل انتقامي ضد من أساء إليك. وهذا يبعث نحو الجسارة. وقد قال القديس مرقس: "سوء النية إذ تغذيها الأفكار، تهيج القلب، ولكن الصلاة تقيتها". مع أنك لو احتملت تلك الكلمات الصغيرة التي نطق بها أخوك، لأطفأت قطعة الفحم الصغيرة قبل أن تنتج اضطرابًا. ومع هذا فإنك إن أردت تقدر أن تطفئ حتى **الاضطراب في بدايته بالصمت والصلاة، بل وبمجرد انحناءه من القلب**. أما إذا داومت في التدخين، أي تهيج القلب وإثارته بالأفكار القائلة: "لماذا فعل بي كذا؟... وأنا أيضًا أرد له المثل، فإنه بهذا يشتعل القلب ويتولد التهاب التهيج. وإن أردت أيضًا تقدر أن تطفئ حتى التهيج قبل أن يبلغ إلى الغضب.

^١ هذا التقسيم يطابق تقسيم الأب سريبيون للغضب وذلك في مناظرته مع يوحنا كاسيان (المناظرة رقم ٥).

لكن إن داومت على إثارة نفسك وتهيجها، فإنك تكون كمن يضيف إلى النار وقودًا. وهكذا تنتج لهيبًا، الذي هو الغضب. والغضب إذا استمر يتحول إلى **حقْد**، الذي لا يقدر أن يتحرر منه الإنسان إلا ببذل دمه (أي عرقه وجهده وتعب نفسه)^١.

الأب دوروثيوس

لهذا لیتنا لا نسمح للغضب في أي درجة من درجاته أن يكون له موضع في قلوبنا أو على أفواهنا أو في حركات أعضائنا، أو حتى مجرد عبوره في فكرنا، حتى لا يتحول القذى إلى خشبة، فيصعب استئصاله.

❖ يوجد فرق شاسع بين الغضب والكراهية، كما هو بين القذى والخشبة، لأن الكراهية هي غضب مزمن، فبطول الزمن اشتد القذى (الغضب) حتى صار يُدعى بحق خشبة (الكراهية). فإنك إن غضبت على إنسان، ترغب في رجوعه إلى الحق، أما إذا كرهته فلا يمكن لك أن تشاق إلى رجوعه.

❖ لا تظنوا أن الغضب أمر يستهان به، إذ يقول النبي "تعكرت (ذبلت) من الغضب عيناى" (مز ٦: ٧). فمتوَعك العينين بالتأكيد لا يستطيع معاينة الشمس، وإن حاول النظر إليها أضرتة...

فإذا غضبتم لا تخطئوا، "اغضبوا ولا تخطئوا". فأنتم كبشر تغضبون متى تغلب الغضب عليكم، لكن يجب عليكم ألا تخطئوا بإبقائه في قلوبكم. لأنكم إن تركتموه في قلوبكم صار الغضب ضدكم، فيحرمكم من معاينة النور، لذلك اغفروا للآخرين. ما هو الغضب؟ إنه شهوة الانتقام.

وما هي الكراهية. إنها غضب مزمن... فالغضب هو "القذى"، وأما الكراهية فهي "الخشبة". فأحيانًا ننظر إلى غضب أخينا كخطية يرتكبها، بينما نحتفظ نحن في قلوبنا بالكراهية. لذلك يقول السيد المسيح: "لماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك، وأما الخشبة التي في عينيك فلا تفتن لها؟"

كيف ينمو القذى ليصير خشبة؟ إنه ينمو بعدم استئصاله سريعًا. فإذا تتركوا الشمس تشرق وتغرب على غيظكم تجعلونه يزمن... وإذا تسقونه بالشكوك الشريرة،

^١ توجيهات بخصوص التداريب الروحية، ٥٢.

تجعلونه يتنفس ويصير خشبة.

القديس أغسطينوس

٩- يفقدنا كل فضيلة

❖ النفس العاقر هي التي لبست الحقد، والغیظ، وضيق النفس، والكآبة، والضجر، والاضطراب، وتدين قريباها بجيدٍ ورديٍّ.

❖ الموضع الذي فيه حركة الغضب... لا يمكن أن تقام فيه الفضائل والصالح، وإن وجدت فإنها تُحجب بظلمة الغضب والغيرة والكبرياء.

مار اسحق السرياني

❖ الغضب المملوء عنادًا يجلب بالتأكيد ضررًا للنفس الغضوبية، أيا كان الشخص الذي تغضب عليه^١.

الأب يوسف

❖ من لا تأخذ فيه الحدة مكانًا يصير مسكنًا للروح القدس، ويستطيع أن يكون وديعًا وصبورًا ومتواضعًا...

❖ شقي وبائس من لم يكن صبورًا، لأن الكتاب الإلهي يتوعد غير الصابرين بالويل. فإن من لا صبر له يشبه ريشة تتلاعب بها أيدي الرياح، مثل هذا لا يحتمل شيئًا، بل تراه صغير النفس بوجه عام، سريع السقوط في الخصومات، متذمرًا على الرب، لا يطيع، يعجز عن الصلوات، واهي القوى في السهر، ضعيفًا في الأصوام، رديء الفعل من جهة الأعمال، لا يغلب في الخبث، شديد الفساد، شجاعًا في ضرب الكلام، ضعيف القوة في الصمت. فمن لا صبر له يتكبد خسائر كثيرة، ولا يعرف كيف يعمل فضيلة.

مار افرام السرياني

❖ لقد طلبت من الله أن يعرفني جواب سؤالك فقال لي: طهر قلبك من كل أفكار الإنسان العتيق وأنا أجيبك إلى سؤال قلبك، لأن مواهيي إنما تكون في الأطهار ولهم تعطي، ومادام قلبك يتحرك الغضب وبالحقد وبسائر الآلام العتيقة، فلن تدخل فيه الحكمة. إن كنت تشتهي أن تتال لقمتي ومواهيي فاخرج رجل العدو وأبعده عنك، ومواهيي

¹ Cassian: Conf. 16: 7

تأتي إليك...

فمن يشنق إلى مواهي فليقتني آثاري، لأنني مثل الحمل الذي لا شر فيه...
ومع أني أوصيتكم بأن تكونوا ودعاء مثل الحمام، إذ بي أجركم قد اتخذتم لأنفسكم
قسوة الآلام.

الأنبا برصنوفوس

❖ إن أصابنا أذى فإننا ممنوعون من الانتقام لأنفسنا، لئلا نسيء لأنفسنا. من يمكن أن
يصيبه أذى منا؟

العلامة تريليان

١٠ - يؤدي إلى التجديف

كثيرًا ما يثير الغضب تلك الأفكار: لماذا لا ينتقم الله لنا من الأشرار؟... وقد
يؤدي هذا إلى الشك في عناية الله وعدله... مما قد يؤدي بنا إلى التجديف على اسمه^١.

❖ لماذا الغضب؟! لماذا تجدف أو تكاد تجدف بسبب هذا الغضب؟! "كف عن الغضب
وأترك السخط" (مز ٩٨: ٨)، أيها "الرجل المجري مكائد ألتست تعرف إلى أين يجرك
هذا الغضب؟! إنك على وشك أن تقول عن الله أنه ظالم، هذا ما يجرك إليه الغضب.
إنك تقول: "أنظر لماذا يُنَجِّح الله هذا الرجل ويشقي ذاك؟" أنظر ما يله الغضب. أبعد
عنك تلك الآراء الشريرة... حتى إذا ما رجعت إلى صوابك تستطيع أن تقول "تعكرت
من الغضب عيناى" (مز ٦: ٧). وأي عين هذه التي تعكرت سوي عين الإيمان.
أنت تؤمن بالمسيح، لماذا؟ بماذا وعدك؟ إن كان قد وعدك بالسعادة في هذا
العالم، إذن فلتتذمر عليه، نعم تذمر عليه عندما تجد الأشرار ينجحون. لكن أي سعادة
وعد بها سوى القيامة من الأموات؟... ماذا كان يصيب المسيح في هذه الحياة؟! فهل
تحتقر أيها الخادم والتلميذ ما تحمله ربك ومعلمك؟!

القديس أغسطينوس

١١ - الغضب أسرع كل أنواع الشهوات

❖ الغضب أسرع كل أنواع الشهوات. فإن الإنسان يثور ويلتهب ضد من أساء إليه أو من

^١ يقصد هنا بالغضب أننا نغضب على حكم الله لا يدين هؤلاء الأشرار الذين يسيئون إلينا. فعدم محبتنا لإخوتنا تؤدي بنا
إلى التدخل في حكمة الله... الرب يحفظنا من هذا الشر.

يبدو كمن قد أساء إليه.

(أ) الغضب يقسي النفس شيئاً فشيئاً.

(ب) ويأسر الغضب العقل أثناء الصلاة، ويورد حالاً للذاكرة صورة المعتدي.

(ج) وفي بعض الأحيان يتباطأ الغضب في النفس، فينشأ عنه عداوة في القلب.

(د) ويسبب الغضب الأحلام (المقلقة)، فيصور له العذابات الجسيمة ومخاوف الموت وهجمات الحيات السامة والوحوش.

هذه المظاهر الأربعة تصاحب ميلاد العداء، وتجلب أفكاراً كثيرة كما يلاحظ كل إنسانٍ واعٍ لنفسه^١.

القديس أوغريس

١٢ - بالغضب تنتقم من نفسك!

❖ عندما تُفكر في الانتقام، أنظر فإنك تنتقم من نفسك لا من الآخرين، إذ تربط خطاياك لا خطايا أخيك... أي شيء أكثر خطورة من أن تكون منتقماً، إن كان هذا ينزع عنك عطية الله العظمى؟!^٢

❖ لا تقل أنه شتمك وافترى عليك وصنع بك شروراً بلا حصر، فبقدر ما تعددت هذه الأمور وبكونها صادرة عنه، تُعلن أنه نافع لك. إنه يقدم لك فرصة لغسل خطاياك، وقدراً تعظم الأضرار التي يصبها عليك، يكون علة لنوالك غفراناً عظيماً للخطايا^٣.

❖ إننا نعاقب أنفسنا بكراهيتنا للآخرين، كما نستفيد بحبنا لهم^٤.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ التخلص من الغضب يرفع الشياطين

أكبر سهم يمكن أن يوجهه المؤمن ضد الشيطان هو طول أناتنا على الآخرين وعدم الغضب عليهم. لذلك تسابق الآباء في الهروب منه، بل ومن المكان الذي يوجد فيه غضب، لأنه حيثما وُجد وجدت الشياطين.

^١ القديس أوغريس: إلى أنالوتيس عن الأفكار الثمانية، ٦.

^٢ In Matt. hom 61:4.

^٣ In Matt. hom 61:5.

^٤ In Matt. hom 61:5.

❖ سأل الإخوة مرة الأنبا اسيدوروس قس الإسقيط: "لماذا تفزع منك الشياطين؟" فأجابهم "لأنني منذ صرت راهبًا حتى الآن، لم أدع الغضب يجوز حلقي على فوق".

❖ حدث مرة أن كان القديس يوحنا القصير في الحصاد، فأبصر أختًا يغضب على آخر، فهرب وترك الحصاد.

بستان الرهبان

❖ مرة لما كنت ذاهبًا في طريق الإسقيط ببعض (الليف)، سمعت الجمال يقول لي كلمات على وشك أن يجعلني بها أغضب. ولكنني للتو تركت الليف وهربت.

القديس يوحنا القصير

❖ لا تكن رفيقًا للمخاصمين، لئلا تسكن جوقة الشياطين في بيتك. احذر من الحقود، لأنه شيطان متجسد^١.

الشيخ الروحاني (يوحنا الدلياتي)

❖ حتى متى يضاد أحدنا الآخر؟ إلى متى يحارب بعضنا البعض، فنفرح بذلك إبليس عدونا؟^٢

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ قال أبائنا إنه ليس من شيمة الرهبان أن يغضبوا، أو يسيئوا إلى أحد. وأيضًا قالوا: إن من يهزم الانفعال (ثورة الغضب) يهزم الشياطين، وأما الذي يهزمه هذا الألم فإنه غريب بالكلية عن الرهينة...

إذًا بماذا ندافع عن أنفسنا عندما لا نستسلم للثورة والغضب فحسب، بل ونستمر حانقين؟!

ماذا نقدر أن نفعل إلا أن نبكي من أجل دناءتنا هذه وقسوة قلوبنا؟! على أي الأحوال لیتنا نهتم بأنفسنا يا إخوتي بمعونة الله لكي نتحرر من مرارة هذا الألم الضار^٣.

الأب دوروثيوس

^١ رسالة ٢:٢١.

^٢ القيم الروحية لعيد النيروز، ص ٤٥.

^٣ توجيهات بخصوص التداريب الروحية، ٥١.

❖ مصارعتنا ليس ضد البشر الذين نراهم يغضبون علينا، إذ هم ليسوا إلاَّ أوانٍ يستخدمها غيرهم، هم أدوات في يد الآخرين¹.

القديس أغسطينوس

❖ حيث يوجد الغضب لا يوجد الرب. فإن الغضب الذي هو صديق إبليس، هذا الذي يثور باطلاً بين الإخوة، لن يهب تقدماً للكنيسة.

تعليم الاثني عشر رسولاً

❖ إذا رأت الشياطين إنساناً قد شتم، أو أهين، أو خسر شيئاً؛ ولم يغتم بل احتمل بصبر وجلد، فإنها ترتاع منه، لأنها تعتقد وتعلم بأنه قد سلك في طريق الله.

القديس مقاريوس الكبير

احذر الغضب

❖ نحن نساعد الشياطين في تحقيق أهدافها وكل مشوراتها الخبيثة، مساعدة عظيمة، عن طريق انفعالاتنا وتهيجنا (الغضب)، متى حدثت بطريقة تخالف الطبيعة (أي تحدث في غير الهدف الموضوع له).

لذلك لا تترك الشياطين أية فرصة لكي نقاتلنا بالليل والنهار. فإذا ما رأتنا أننا نقيدها بواسطة التواضع، تحل هذه القيود (التي للتواضع) بأن تثبت فينا أي ادعاء يبدو في المظهر صحيحاً، فإذا ما ثارت نفوسنا تجد الفرصة لزرع أفكارها البهيمية فينا. لذلك يلزمنا ألا ننشر هذه المشورات والرغبات في داخلنا، سواء بأسبابٍ صحيحةٍ أو غير صحيحةٍ، حتى لا نعطي (للشياطين) التي تحرضنا على الشر سلاحاً خطيراً. لكنني أعلم أن كثيرين يفعلون هذا (أي يثورون) لأتفه الأسباب، فيصيرون مشتعلين (بالغضب) غير مباليين بما هو لنفعهم.

اخبرني لماذا يحدث هذا؟ هل كنت تأخذ الموقف الثائر (الهيّاج والغضب) لو أنك تزدرى بالطعام والمال والشهرة؟!

لماذا تُطعم الكلب (أي الجسد) إن كنت قد تعهدت ألا تقتتي شيئاً؟!
أليس في نباح الكلب وهجومه على الناس كشفاً على أن بداخلك شيئاً تريد الاحتفاظ به؟!

¹ Ser. on N.T. 17: 4.

إنني واثق أن مثل هذا الإنسان (الذي يغضب بسبب انشغاله بشيء في داخله) بعيد عن الصلاة النقية، لأنه معروف أن الغضب يفسد مثل هذه الصلاة. إنني أعجب كيف ننسى أقوال القديسين. فداود النبي يصرخ قائلاً: "كف عن الغضب وأترك السخط" (مز ٨:٣٧). والرسول يأمرنا أن تُرفع في كل مكان أيادي طاهرة بدون غضبٍ ولا جدالٍ (١ تي ٨:٢). وقد كانت العادات القديمة تحتم أن يطرد الإنسان الكلاب عن البيت أثناء الصلاة (أو عن مكان الصلاة)، لأن هذا يعني رمزيًا طرد الغضب أثناء الصلاة؛ بل زعم أحد الحكماء الوثنيين أن الآلهة لا تأكل الصفراء (المرارة) أو عظام الفخذ. وأنا لا أظن أنه كان يفهم ما يقوله، لكن في رأيي أن الصفراء تشير إلى الغضب، وعظام الفخذ إلى الشهوات^١.

القديس أوغريس

^١ عن الأفكار الشريرة الأخرى، ٥.

أسباب الغضب

❖ كما أن حمى الجسد أسبابها كثيرة، كذلك حمى الروح - أعني الغضب - أسبابه مختلفة. ولئلا نأخذ سبباً واحداً، فلا نجد له حداً واحداً، فإن سبيل المريض أن يذكر سبب مرضه لطبيب مجرب.

فقل لي أيها المسيء الذي لا يستحي - أي الغضب - من هو أبوك؟ وما اسم والدتك. ومن هم بنوك وبناتك؟ ومن هم أعداؤك؟

فقال: إن أبي هو الكبرياء... وأمّهاتي كثيرة: العظمة وحب الاقتناء والحنجرة وربما الزنا. أما أولادي فهم: الحقد والبغضة وتصديق كل ما يقال على العدو، ولو كان باطلاً. وأعدائي هم: التواضع والوداعة والصمت.

القديس يوحنا الدرجي (يوحنا كليماكوس)

١ - الكبرياء

وإن تعددت أسباب الغضب، بل وأسباب الخطية عامة، إنما تتركز في خطية واحدة أو علة أولى هي الكبرياء، التي أسقطت كوكب الصبح ليصير شيطاناً، وأدم في أرض الشقاء الخ.

❖ الذي يطلب الكرامة يتعظم قلبه جداً، حتى لا يحتمل كلمة شتيمة واحدة. محب المجد إذا شتم يحزن؛ وأما المتواضع فيحتمل بفرح.

القديس أوغريسي

❖ أمت هواك وحينئذ تحصل على السلام والصلح، لا مع إخوتك فقط، بل ومع الحيوانات أيضاً كما قال أيوب البار: "حيوانات القفر تسالمك".

القديس يوحنا كاسيان

٢ - فحص أعمال الآخرين

يرى القديس مار اسحق السرياني أن من أسباب الغضب فحص أعمال الآخرين، هل هي خير أم شر، ومحاسبتهم بالعدل، وبذلك نفقد الحب والسلام والتواضع والصبر.

❖ مدرستان نلتحق بهما: واحدة لمعرفة الخير والشر، والأخرى للتدريب على معرفة الحق المتعلقة بالحياة والنور.

أما مدرسة معرفة الخير والشر، فهي مختصة بأصول العدل والاختبار، وهذه تولد الغيرة والاضطراب والاحتداد والضيق والحسد والغضب ومحبة الغلبة مع بقية الآلام. أما مدرسة الحق، التي هي المعلمة عن النعمة، ففيها الحب والسلام والهدوء والتواضع والصبر مع بقية ثمار الروح التي كتب عنها بولس الرسول. فمن الثمرة تُعرف الشجرة. فالآن يجب عليك أن تميز في أي مدرسة أنت تتربى؟!

مار اسحق السرياني

٣- إصلاح الآخرين

يبرر البعض غضبهم بأن يدعونه "غضبًا مقدسًا"، قاصدين به أنه مُوجه لأجل إصلاح الآخرين، غير أن الغضب في ذاته خطية، فكيف نطرد شيطانًا بشيطانٍ؟ أو كيف نضمد جراحات الغير بتجريح أنفسنا؟

❖ يجب على كل راهبٍ ينشد الكمال ويرغب في أن يجاهد قانونيًا في قتاله الروحي، أن يتخلص من خطية الغضب والسخط بأكملها، وأن ينصت للتحذير الذي يُوجهه إليه "الإناء المختار"، قائلًا: "ليرفع من بينكم كل مرارة وسخط وغضب وصياح وتجديف مع كل خبث" (أف ٤: ٣١). وحين يقول: "ليرفع من بينكم كل غضب" لا يستثني أحدًا مهما كان، لما تقتضيه الضرورة أو لما هو نافع لنا، وإذا احتاج الأمر، فينبغي فورًا أن يُعالج أي أخ مخطئ بطريقة لا يكون من شأنها أن تجعله شبيهًا بشخصٍ ذهب يعالج مريضًا بحمى خفيفة فورط نفسه بغضبه وسخطه فيما أدى به إلى فقد بصره وبصيرته. ذلك لأنه ينبغي على من يريد أن يشفي جرح شخصٍ ما أن يكون سليمًا مُعافي، لا يشكو من أي ضعف، لئلا تُوجه إليه عبارة الإنجيل: "أيها الطبيب اشف نفسك" (لو ٦: ٢٣)، ولئلا وهو يرى القذى الذي في عين أخيه لا يرى الخشبة التي في عينه. إذ كيف يرى حتى يخرج القذى من عين أخيه، ذاك الذي في عينه خشبة الغضب؟ (مت ٧: ٣-٥).

القديس يوحنا كاسيان

¹ Cassian: De institutis caenoboum, 8:5.

٤ - محبة الماديات

❖ حيث تُستخدم الجملتان: "هذا لي، وهذا لك"، يوجد ينبوع الخصومات والانقسامات المستمرة.

وأما حيث يكون كل شيء مشتركًا، فيكون هناك صلح دائم واتفاق ثابت. ومن ثم كان الاتحاد في الكنيسة بين المؤمنين عظيمًا جدًّا، حتى كان لهم قلب واحد، ونفس واحدة. وسببه أنه لم يقل أحد منهم في الأموال أنها له بل هي للكل (أع ٤ : ٣٢)^١.

❖ فلنهرب إذًا من هذا الداء الغريب (حب الاقتناء). لنهرب من أصل الشرور. لنهرب من جهنم هذه، لأن شهوة هؤلاء هي جهنم.

لنكشف عن نفسية كل من يحتقر المال ومن لا يحتقره. أحدهما يشبه المجانين، لا يريد أن يرى أحدًا أو يسمعه، والآخر يشبه الميناء الخالي من الأمواج وهو محب للجميع.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أحسن إلى كل أحدٍ، وإن لم تقدر، فأحب كل أحدٍ. وإذا لم تستطع فلا أقل من أن لا تبغض أحدًا. ولن يتيسر لك شيء من ذلك مادمت تحب العالميات.

القديس أنبا أنطونيوس الكبير

^١ ملاحظة: كانت الكنيسة تعيش في اشتراكية كاملة، لكن لا يعني هذا إنكار الكنيسة للملكية الخاصة، بل الحب دفع المؤمن أن يقدم كل ما عنده لأجل إخوته الذين أحبهم كنفسه.

علاج الغضب

١ - بالصلاة والحب والتواضع ننتزع الحقد الداخلي

❖ يجب علينا أن نحاول تنظيف العفونة الداخلية تنظيفًا تامًا، لكي ما يُشفي جيدًا المكان الحساس دون أن يبقى لها أثر، بحيث يستحيل أن نقول بأنه كان فيه جرح قَبْلًا، ولكن كيف نحصل على هذا؟!

نحصل عليه بالصلاة من كل القلب من أجل المسيء، قائلين: "أعزُّ يا رب أخي، وأعني من أجل صلواته". فإذا صلى الإنسان هكذا، مظهرًا حنوًا وحبًا، وسؤاله العون من أجل صلوات أخيه تتواضع نفسه. حيث يكون الحنو والحب والتواضع، كيف يمكن أن يجد التهيج أو الحقد أو أي ألم آخر موضَعًا؟

قال الأب زوسيمّا: "لو أن إبليس أثار جميع مكائد شره وكل شياطينه، فإنه بواسطة التواضع تنهار جميع شروره الخبيثة وتتحطم، وذلك حسب وصية المسيح". وقال ناسك آخر: "من يصلي من أجل عدوه، لا يكون عنده حقد!"^١

الأب دوروثيوس

كشف لنا الآباء القديسون باختباراتهم كيف استطاعوا بالتواضع أن يسحقوا روح الغضب في داخلهم وخارجهم، أي في القلب أو الفكر أو باللسان والحركات.

أمثلة من سير القديسين:

١ - أعطانا القديس مقاريوس الكبير مثالاً عاليًا في ذلك. فإذا كان متواضعًا غير مهتم بدم الناس أو مديحهم نجده لم يضطرب ولا تار ولا غضب عندما اتهمته الفتاة الشريرة وأهلها بأنه قد أفسد عفتها، رغم ضربه حتى قُرب من الموت، مع استخدامهم كلمات التقرّيع، وربط عنقه بحبل فيه قدور قذرة مكسورة، وكانوا يجرونه من هنا وهناك كما لو كان مجنونًا، وكان الصبيان من خلفه يضربونه. أما هو فلم يدافع عن نفسه، ولا نطق بكلمة واحدة، بل كان يعمل أكثر قائلًا: "الآن يا مقارة قد وجدت لك امرأة وبنون. فينبغي عليك أن تعمل ليلًا

^١ توجيهات بخصوص التداريب الروحية، ٥٦.

ونهارًا لقوتك وقوتهم". وعندما أظهر الرب براءته هرب للحال حتى لا يُكرمه أحد.

٢- وجاء في سيرة القديس أنبا يحنس القصير أنه بينما كان ذاهبًا إلى الكنيسة للعبادة قابله أحد الشيوخ وقال له: "ليس هو وقت العبادة فارجع إلى مكانك يا قصير يا منحوس (تعبيرًا وتقريعًا)"، وطرده. فعاد إلى قلايته دون أن ينطق بكلمة. تبعه الشيخ ومن معه ليروا ماذا يفعل. وعلى أثر دخوله قلايته خرجت منه رائحة بخور وسمعوا من يقول له: "احفظ نفسك يا يوحنا، وداوم على التواضع، لتكون خليلًا لابن الله، لأن الله يعطي النعمة لمستقيمي القلوب، ولا يعوزهم شيء من الخير".

❖ أخبروا عن راهبين قديسين كانا أخين وسكنا البرية؛ فحرص الشيطان على أن يفرق بينهما. ففي أحد الأيام أوقد الصغير منهما سراجًا ووضع على منارة، وبحيلة من الشيطان سقط السراج وانطفأ، حينئذ غضب الكبير وضربه، فصنع الصغير له مطانية وقال له: "لا تضجر يا أخي، طول روحك عليّ وأنا أوقده مرة أخرى". فلما أبصر الرب صبر الأخ عذب الشيطان إلى الصباح.

وقد أخبر ذلك الشيطان رئيسه بما حدث، وكان كاهن الأوثان الذي كان يخدمهم موجودًا، فلما سمع الكلام ترك كل شيء وآمن وترهب، ومن بدء رهبنته كان يمارس التواضع الكامل، وكان يقول: "إن التواضع يقدر أن يقهر ويحل كل قوة العدو"، وقد سمعته يقولون لبعضهم البعض: "إنه كلما ألقينا الاضطراب بين الرهبان، نجدهم يتلقونه بالتواضع، ويعمل بعضهم لبعض مطانيات، فكانوا بذلك يبطلون قوتنا".

❖ قيل عن راهب إنه إذا شتم كان يجري نحو شاتمه ويقول له: "اغفر لي".

❖ قيل أيضًا: كان يوجد شيخ له تلميذ صالح. ومن الملل كان الشيخ يخرج خارج الباب ويزدري به. فكان التلميذ يمكث جالسًا خارجًا. ولما فتح الشيخ الباب في اليوم الثالث، وجده جالسًا. فصنع له الشيخ مطانية وقال له: "يا ولدي إن تواضعك وطول أناتك قد غلبا شري وصغر نفسي، فهلم الآن إلى داخل، ومنذ الآن، كن أنت الشيخ وأنا التلميذ".

❖ قال أخ للأنبا بفنوتيوس: "يا أبتاه. لقد أتى بعض الإخوة إليّ ولست قادرًا على السكنى معهم". فأجابه "لو كان فيك تواضع لاستطعت السكنى مع الوحوش، فكم بالحري مع الإخوة؟!".

❖ قال شيخ "إن أردت أن تتجح في إطفاء الغضب والرجز، فاقتن التواضع ولتكن لك

طاعة ورجاء في كل أحدٍ. لأن الغضب والزجر يسوقان الإنسان إلى الهلاك، ويبعدانه عن الله، أما التواضع فإنه يحرق الشيطان، والطاعة هي التي أحضرت ابن الله وجعلته يسكن في البشرية... فالذي يريد أن يخلص، عليه أن يقطع هواه في كل شيء، ويقتني التواضع، وليكن الموت بين عينيه دائماً".

بستان الرهبان

❖ المصالحة مع الأخ لا تتم بمجرد الذهاب إليه، بل أولاً بالمصالحة في الداخل بعواطفك حيث تخضع معتذراً لأخيك في حضرة الله الذي تريد أن تقدم له قربانك، وبذلك فإذا كان الأخ حاضراً... فإنك تستطيع أن تهدئه بفكرك الذي تنقى، وتعيده إلى محبته... وهذا يمكن أن يحدث إن كنت قد سبق وانسحقت أمام الله أولاً طالباً المغفرة، فتذهب إلى أخيك لا بخجل، بل مدفوعاً بحب قوي... لأن الانسحاق هو العلاج الوحيد للغضب.

❖ إن وقعت ضيقة على المتواضع، فإنه بسرعة يلوم نفسه بأنه يستحقها ولا يلوم أحداً ولا يوبخه، وهكذا يحتمل كل شيء يصيبه بسرعة، وبدون اضطراب، وبدون حزن، وبهدوء كامل. وهكذا لا يغضب من أحدٍ ولا يُغضب أحداً.

❖ كيف تدرك هذا؟ (أي كيف تعالج الغضب؟)

بالصلاة من كل القلب عن المسيء، قائلاً أعن يا ربي أخي وأعني من أجل صلاته. فبصلاتك هذه تتواضع، وحيث توجد الشفقة والحب والتواضع، كيف يمكن أن يوجد مكان للتهيج أو الحقد أو أي ألم آخر؟!

قال أنبا زوسيم: لو أن إبليس أثار جميع مكائد شره وكل شياطينه، فإن جميع شروره الماكرة تنهار وتتحطم بواسطة التواضع حسب وصية المسيح.

وناسك آخر قال: الذي يصلي لأجل عدوه لا يكون عنده حقد، فكل إنسان يريد أن يخلص لا يجب عليه أن يبتعد عن الشر، فقط بل ويصنع الخير أيضاً (مز ٣٩: ١٤). مثال ذلك إذا دفع إنسان للغضب، فيجب عليه ليس فقط ألا يغضب، وإنما يقتني الوداعة أيضاً.

القديس دورثيوس

❖ الوداعة والتواضع هما الصخرة الموضوعة على شاطئ الغضب التي عليها تُكسر أمواج ذلك البحر الهائج وهي ثابتة كالطود لا تتحرك.

الوداعة مفتاح باب المعرفة، لأن الله "يُعلم الودعاء طريقه".

في قلوب الودعاء يجلس الله ليحكم، والنفوس المنزعجة هي مجلس لإبليس وجنوده.

❖ كما أن النور يبدد الظلام، هكذا الغضب والحقد يختفيان من أنفسنا عندما يثير فيها التواضع عذوبة الجهاد. فأولئك الذين يهملون في استعمال الأدوية الضرورية (التواضع) لشفاء الغضب متعللين أنهم لا يبقون على الغضب طويلاً، ألا يفكرون في قول إشعياء النبي: إن وقت غضب المرء هو وقت هلاكه.

❖ لا نعتبر أنفسنا صابرين فقط عندما نحتمل عن طيب نفس توبيخات رؤسائنا المؤدية إلى التواضع، بل عندما نحتمل مخاطر احتقار الغير لنا وازدراءهم بنا. فاقبل من أخيك شرب هذه الكأس الدالة على التواضع كأنها ماء الحياة، حينئذ تزهو الطهارة الكاملة في قلبك، ولا ينطفئ النور الإلهي قط من نفسك.

❖ ليس من يذم ذاته ويلومها هو المتواضع، لأنه من الذي لا يستطيع أن يحتمل نفسه؟! وإنما المتواضع بالحقيقة هو ذلك الذي يحتمل تغيير ومذمة غيره ولا ينقص حبه له.

القديس يوحنا الدرجي

❖ المتواضع يكون دائماً فرحاً، وعنده الكل محبوبون، وتصحبه السلامة دائماً، وما يثيرون ضده حرباً. فإن شتمته أو قلت فيه ما قلت، يصمت ويعبر بوداعته ويملك السلام مع الكل، بمقدار لا يمكن النطق به. ويملك السلام مع الله أيضاً، لأن أوامر الله هي المسالمة مع الناس، وأن نجيز العمر كله مسالمين بعضنا بعضاً...
قل لي من صار أرفع شأناً من إبراهيم، مع أنه القائل عن نفسه إنه تراب ورماد، وهو القائل (للوط) إنه لا يكون بيني وبينك حرب، محتقراً الغنائم والفروسية والنصرات البربرية.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ اجعلوا الوداعة وبساطة القلب سلماً تنزلون عليه إلى أن تدركوا أقل أخ لكم في البشرية. وعليكم بالهدوء والتواضع والصبر حتى لا تغرقوا في بحر هياج الغضب. اجعلوا هذه فيكم كما كانت في المسيح.

المطران فيلارفت (مطران موسكو)

❖ إننا لا نحصل على الصبر الحقيقي والهدوء، ولا نحفظهما بدون تواضع عميق من

القلب... لأنه في هذه الحالة لا نحتاج إلى أي عونٍ خارجيٍّ من أي شيءٍ، طالما توجد فضيلة التواضع الداخلية، أم الصبر والحارسة له.

أما إذا اضطربنا من أي إنسان يهاجمنا، فيكون من الواضح أن أسس التواضع غير موجودة فينا بإحكام. لذلك إن هبَّت أقل عاصفة يهتز البناء كله ويهلك. لأن الصبر لا يستحق الإعجاب والتقدير إن احتفظ بالهدوء عندما لا يهاجمنا عدو، بل يكون عظيمًا ومجيدًا إن بقي بلا تأثر عندما تهاجمه عواصف التجارب.

الأنبا بيامون (مناظرات القديس يوحنا كاسيان)

❖ إن أردت أن تكون متواضعًا حقًا أشته الإهانة والاضطهاد وشهوة الجوع إلى الطعام. لأنك بالعدل تستحقها وليس هذا تنازلًا منك.

❖ إن أردت أن تكون متواضعًا حقًا فاعتبر نفسك دون الكل ومستحقًا أن تُداس من الجميع، لأنك دست وصايا الرب، وتمتحن كلامه بأعمالك.

الأب يوحنا (من كرونستادت)

❖ كمال التواضع هو احتمال الوقائع الكاذبة بفرح. إن كنت متواضعًا بالحقيقة، فإن ظلمت لا تضطرب... بل اقبل كلمات الظلم كأنها حق. ولا تصرف الاهتمام إلى إقناع الناس، بأنك اتهمت ظلمًا بل اسأل وأطلب المغفرة.

مار اسحق السرياني

❖ حتى هرون الذي كان قد مُنح شرف الكهنوت، وأخته مريم التي دفعته الغيرة الأنثوية أن تغير من التكريم الذي كرمه الله لموسى، تدمرا عليه بشكل أثار الله ليعاقبهما على خطيئتهما (عد ١٢: ١-١٥). وهنا أظهر موسى صبرًا يستحق الإعجاب، فعندما عاقب الله مريم على غيرتها التي بلا تعقل، جعل موسى طبيعته تسيطر على غضبه، وتوسل إلى الله من أجل أخته ليهدئ غضبه عليها^١.

القديس غريغوريوس النيسي

٢ - لا تهتم بمدح الناس أو ذمهم

^١ St. Gregory of Nyssa: The Life of Moses, 1:62.

الدرس الأول في المسيحية هو الموت مع المسيح عن العالم، فلا يعطي المسيحي اهتمامًا، لا لتكريم الناس له أو احتقارهم له. لأنه مات عن هذا كله. وهذا الدرس هو صورة جميلة من صور التواضع والانسحاق، كما أنه صورة من صور الانشغال بيسوع والسماويات مستنفها العالم بكراماته وإهاناته. وهو صورة من حب العروس لعريسها التي تنتظره وحده ولا تبالي بحكم الغير على جمالها وحسنها.

لذلك فإن أول درس يتعلمه الراهب قبيل رهبنته هو هذا الدرس. وفيما يلي أمثلة لذلك:

❖ أتى أخ إلى الأب القديس مقاريوس، وقال له: "يا معلم قل لي كلمة تتفني". فقال له القديس: "أمض إلى المقابر، واشتم الموتى". فمضى الأخ وشمهم ورجمهم، وعاد وأخبر الشيخ بما عمله. فقال له الشيخ: "أما خاطبك بشيء؟" فقال "لا". فقال له الشيخ: "أمض غداً وأمدحهم". فمضى الأخ ومدحهم قائلاً: "يا قديسين، يا أبرار، يا صديقين". وعاد فأخبر الشيخ بما صنعه، فقال له: "أما أجابوك بشيء؟" قال "لا". قال الشيخ "إن كنت حقاً قد مُت مع المسيح، ودفنت معه، فاصنع هكذا مثل أولئك الأموات. لأن الميت لا يشعر بكرامة ولا يهانته، وبذلك تستطيع أن تخلص".

❖ قيل أنهم (الأبنا أيوب والأبنا بيمين وإخوتهما) كانوا سبعة إخوة من بطن واحد، وصار الجميع رهباناً بالإسقيط، فلما جاء البربر وخربوا الإسقيط في أول دفعة، وانتقلوا من هناك، وأتوا إلى موضع آخر يدعى إبرين... حينئذ قال أبنا أيوب لأبنا بيمين: "لنسكت جميعنا كل من ناحيته، ولا يكلم أحداً الآخر كلمة البتة، وذلك لمدة أسبوع". فأجاب أبنا بيمين: "لنصنع كما أمرت". ففعلوا كلهم كذلك.

وكان في ذلك البيت صنم من حجر، فكان أبنا أيوب يقوم في الغداة ويردم وجه ذلك الصنم بالتراب وعند المساء يقول له "اغفر لي". وهكذا كن يفعل طول الأسبوع. فلما انقضى الأسبوع قال أبنا بيمين لأبنا أيوب: "لقد رأيتك يا أخي خلال هذا الأسبوع، تقوم بالغداة وتردم وجه الصنم وعند المساء تقول له: اغفر لي. أهكذا يفعل الرهبان؟"

فأجاب أبنا أيوب: "لما رأيتموني وقد ردمت وجهه، هل غضب؟... ولما تبت إليه، هل قال لي: لا أغفر لك؟... ها نحن سبعة إخوة، إن أردتم أن يسكن بعضنا مع بعض، فلنصر مثل هذا الصنم الذي لا يبالي بمجد أو هوان، وإن لم تؤثر أن تكونوا

هكذا فيها هي أربع طرق أمامكم وليذهب كل واحد حيث شاء". فأجابه إخوته قائلين: "نحن لله ولك. ونحن مطيعون لما تشاء".

❖ جاء عن أنبا أمونيوس الأسقف أنه مضى مرة إلى القديس أنطونيوس... فقال له أنطونيوس: "إنك تتجج بمخافة الرب" وأخرجه خارج القلاية، وأراه صخرة عظيمة وقال له "اشتتم هذه الصخرة وأضربها". فصنع كما أمره. فقال له أنطونيوس: "هل تكلمت الصخرة؟" قال: "لا". فقال له: "إنك تستطيع أن تكون هكذا فتخلص".

بستان الرهبان

❖ إن كنت تريد السلوك في طريق الله، فليكن عندك الذين يضربونك مثل الذين يكرمونك. ومهينوك مثل مادحيك، والمعتدون عليك مثل مباركيك، ومحزنوك مثل المفرحين لك. الأنبا برصنوفوريوس

❖ قال أنبا تيموثاوس: "إذا أكرمك الناس فخف جدًا، واکره نفسك وحدك، ولا تستح أن تقرر بذنوبك، واهرب من كرامة الكثيرين، لئلا يغرقوا مركبك".

بستان الرهبان

❖ لا تطلب كرامة من أحد، لكن تواضع لكل الناس. ولا تغضب من الذي يتعظم عليك، لأنه قليل المعرفة. لأن من نقص المعرفة يتعظم الأخ على أخيه... كن متألماً مع المتألمين. كن حزيناً من أجل المخطئين.

أنبا يوحنا القصير

❖ لا تحزن ولا تتألم ولو قليلاً على شيء في هذه الدنيا، ولا تقلق إذا شتمك جميع الناس، فهم يشبهون الغبار الذي تحمله الريح، بل احزن بالحري إذا ما عملت ما يستوجب الشتيمة.

❖ ما منفعة كلام الكرامة، فإنه إنما يطير في الهواء، وماذا يحدث من الخسارة العارضة من الشتيمة الصائرة بلا سبب؟ فهذا الناس يموتون وتموت كرامتهم وشتائمهم أيضاً تذهب معهم.

القديس أنطونيوس الكبير

❖ كن ساكناً بين إخوتك كمثلي ميتٍ عديم الغضب، لأنه من الغضب تأتي الخطية.

أنبا يوحنا القصير

لا تدم نفسك فقط، بل اقبل ذم الآخرين لك!

كثيرون يرددون على أفواههم: "أخطأت، خطيتي ثقيلة، أنا أول الخطة"، وهم يخفون في قلوبهم كبرياء في صورة تواضع. وتظهر حقيقتهم عندما يواجه إليهم الآخرون نفس هذه الكلمات، إذ قد تظهر عليهم علامات الثورة والتذمر.

❖ "قد أخطأت وعوجت المستقيم ولم أجأز عليه" (أى ٣٣: ٢٧)

كثيرون يقولون مثل هذا القول، فيذمون ذواتهم بالفم، وأما إذا ذمهم أحد على هذا النحو أو أخف مما ذموا به أنفسهم، فنراهم لا يحتملون...

أنهم عديمو التواضع بالكلية، إنما يريدون أن يحسبهم متواضعين. لأنهم لو كانوا متواضعين حقًا لما كانوا يستطيعون مذمة غيرهم حينما ينصحونهم أو يوبخونهم.

القديس غريغوريوس

٣- حارب المرض لا المريض

لو أصيب عضو بسبب عضو آخر في جسدنا، هل يهتم العضو المصاب كيف ينتقم من العضو الذي أصابه، أم يعمل معه ليعالج ضعفه؟! فإننا لم نسمع عن إنسان أنه قطع يديه لأنه شد شعره أثناء الحزن، ولا كسر أسنانه لأنه عض لسانه أثناء المضغ... هكذا لا يليق بالإنسان أن يفكر في الانتقام من أخيه الضعيف الذي سبه وشتمه، بل في محبة يطيل أناته عليه، مصليًا لأجله لكي يشفي الرب جراحاته.

❖ قال شيخ: "لأي شيء تُحزن الذي يظلمك، وتبغض الذي يحزنك؟ أعلم أنه ليس هو الذي ظلمك وأحزنك بل الشيطان، فيجب عليك أن تبغض المرض ولا تبغض المريض".

بستان الرهبان

❖ إذا تذكرت أن إنسانًا أساء إليك وأحزنك، فقم في الحال وصل من أجله من كل قلبك أن يغفر الله له، وبذلك تنطفئ عنك محبة مكافأة الشر بالشر.

أنبا أشعيا (بستان الرهبان)

❖ رأيت ثلاثة إخوة أُهينوا، أما واحد فغطته العظمة فسكت، والثاني فرح لربه نفسه وحزن لخسارة شاتمه. والثالث نظر في ضرر شاتمه بسببه فبكى كثيرًا. ففعل الأول من

الخوف، والثاني من المحبة، والثالث من كمال المحبة.

القديس يوحنا الدرجي

❖ أشفق على من يشتمك، فإنه خاضع لسيدٍ هو شبح رهيب، أي للحنق، ولشيطانٍ خطير أي الغضب¹.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٤ - لنلم أنفسنا

نخطئ إذ نبرر غضبنا بإثارة الآخرين لنا... فالحق أنه لو كان القلب مملوءاً هدوءً وسلاماً لما استطاعت قوة في العالم أن تثير في هذا القلب غضباً. فالقلب غير المحب ثائر ومتقد من الداخل، لذلك ينتظر أي سبب خارجي مهما كان تافهًا ليمسك به ويبرر ثورته. أما القلب المحب فيكون كيسوع الوديع الذي لن يثور، ولو وقفت أمامه امرأة أمسكت في زنا والكل يريد رجمها، ولن يفتح فاه بالرغم من هياج الشعب كله ومناداته "أصلبه، أصلبه". ويكون كيولس الذي يكتب عن الفرح والسلام وهو بعد في المقطرة في السجن الداخلي.

لقد شبه أحد القديسين الذين يثروننا بقطعة الجمر المتقدة التي لن تستطيع أن تبقى هكذا إن وُجد في داخلنا ماء، أما إن وجدت مادة قابلة للاشتعال فيزداد لهيبها. فالعيب ليس في الجمرة، بل في القلب الممتلئ بالمادة القابلة للاشتعال. ومن ناحية أخرى لو تأمل كل إنسانٍ بانترانٍ في تصرفاته، لشعر أنه هو المخطئ في حق أخيه، إذا برر موقف زميله بأي صورة كانت - إما لضعفه أو لظروفه العائلية أو لخسارة سبق أن لحقت به جعلته ثائرًا - وعندئذٍ يستطيع بقلبٍ محبٍ أن يكسب أخاه.

❖ قال شيخ: "لقد تركنا الطريق المستقيمة التي رسمها لنا آباؤنا، وهي أن نلوم ذواتنا، ورجعنا باللوم على قريبنا، وأصبح كل منا يحرص ويجتهد في إرجاع السبب على أخيه في كل أمر... كما صار كل منا متهاونًا؛ مطالبين قريبنا أن يحفظ الوصايا، وفي نفس الوقت لا نحفظ نحن شيئاً منها.

وقد حدث في أحد الأيام أن جاء أخوان إلى شيخ، فشكا إليه الأكبر قائلاً: "إني إذا أمرت أخي بعمل شيء، فإنه يحزن لأمره، كما أحزن لحزنه مفتكرًا أنه لو كان كاملاً

¹ In Matt. hom 87:3.

في محبته لي لكان يقبل ما أقوله له بفرح".

أما الأصغر فقال "يا ليتني يكلمني بحسب مشيئة الله، لكنه يأمرني بسلطة حسب مشيئته، ولذلك لا يوافقني قلبي على طاعته بحسب ما أوصى به الآباء".

فقال الشيخ: "يعلم الله إني متحير، كيف يلوم الاثنان كل منهما الآخر، كما يحزنان دون أن يلومهما أحد، فعوض أن يلوم الواحد منهما نفسه، قائلاً حقاً بسلطة أكلم أخي لذلك يحزن، نراه يقول العكس: إنه لم يكن كاملاً لي في محبته. كذلك الآخر عوضاً عن أن يقول: إن أخي يكلمني بحسب مشيئة الله لمنفعتي، نراه بالعكس يقول أيضاً: "إنه يأمرني بسلطة حسب مشيئته". وهكذا صار الاثنان حزينين بدون حق، وذلك لاستخدامنا أقوال آبائنا باعوجاج بسبب نيتنا الخبيثة. فكل منهما يلقي الذنب على رفيقه، ولذلك لا ينجح ولا يفلح".

❖ حدث أن ذهب راهبان إلى شيخ يحتكمان، فاشتكى الأكبر من الأصغر. فلما سأل الشيخ الأصغر عن صحة الشكوى، أجابه بالإيجاب، قائلاً: "نعم يا أبانا لأنني أحزنه". ثم فكر الشاب قليلاً، ثم ندم على قوله هذا متذمراً، قائلاً بأنه لم يحزن الأكبر... عندئذ صاح الشيخ، فسأله "لماذا تصيح؟" فأجابهما بأنه لما دخلا عنده رأى شبخاً في يده قوس يحاول أن يصيبهما به، وفي كل مرة كان القوس لا يمس سوى ثيابهما، ولكن لما تذر وتدمر وندم على لومه لنفسه كان الشبح قد ضرب بقوسه نحوه حتى كاد يقتله، فصرخ القديس.

❖ مضى البابا ثاوفيلس بطريرك الإسكندرية إلى جبل نتريا، وجاء إلى أب الجبل، وقال له: "ما هو أفضل شيء وجدته في طريق جهادك هذه يا أبتاه؟" فقال له الشيخ: "لا يوجد شيء أفضل من أن أرجع باللوم على نفسي في كل أمر". فقال البابا: "بالحقيقة هذه هي الطريقة الفاضلة التي لا يوجد قط أفضل منها".

بستان الرهبان

❖ يضطرب الناس... إما لأنهم في حالة غير حسنة، أو لأنهم يكرهون من يشتمهم أو لأسباب أخرى. ولكن السبب الأساسي للاضطراب هو أننا لا نلوم أنفسنا... قال أنبا بيمن: حيثما يلوم الإنسان نفسه، فإنه في أي ضرر أو إهانة أو أية ضيقة تحل به، يعتبر نفسه مقدماً أنه مستحق كل شيء غير سار. ولهذا فإنه لا يضطرب أبداً، فهل توجد حالة أكثر من هذه تخلصنا من الحزن؟!

ربما يقول البعض إن أساء إلى أخ وفحصت ذاتي، فوجدت أنني لم أصنع ما

يسبب ذلك، فكيف يمكنني أن ألوم نفسي؟!

في الواقع، إذا أختبر إنسان نفسه بخوف الله، فسيجد أنه كان السبب، إما بكلمة أو بفعل أو بنظرة. وعلى أي الأحوال إن ثبت أنه في هذه المرة لم يصنع ما يسبب ذلك، فلا بد أنه قد أساء إليه في وقت آخر، بطريقة ما، وربما قد أساء إلى آخر، فعليه أن يحتمل من أجل ذلك...

لذلك فإنني أقول أنه إن فحص إنسان نفسه بخوف الله وفي حزم يسأل ضميره، فإنه لا يمكن أن يفشل في أن يجد نفسه مذنبًا وهكذا يلوم نفسه.

القديس دوروثيوس

❖ إذا لام إنسان نفسه حينئذ يكون أخوه عنده أكرم منه وأفضل منه، وإذا ظن نفسه أن صالح، حينئذ يكون أخوه عنده حقيرًا ومهانًا ويقع فيه.

الأنبا بيمين

❖ إذا قيل فيك رديئًا وتعب ضميرك وتألم، فمهما قدمت من صلاة ودموع لا يتحرر ضميرك من التحرك بالغضب... إلى أن تعتقد تمامًا أنك أنت المخطئ والمسيء، سواء أخطأت أو لم تخطئ.

مار اسحق السرياني

❖ ينبغي لمن يُشتم، أن يعتقد في نفسه أنه هو السبب في شتمه لسوء فعله. فيصبح الشاتم مدللًا له من الخارج، في الوقت الذي يذل فيه نفسه بنفسه في الداخل. مثله في ذلك داود النبي الذي منع أصحابه من قتل شاتمته، إذ قال: "دعوه فإن الرب جعله يشتمني. دعوه حتى ينظر الرب ذلي ويرحمني".

الأنبا انطونيوس الكبير

❖ إن شتمك إنسان فلا تجبه حتى يسكت. وفتش نفسك بخوف الله، فانك ستجد أن ما سمعته كائن فيك، وأن العلة هي منك. فاصنع له مطانية مثل إنسان يعرف بالحقيقة أنه هو الذي أخطأ.

أنبا إشعيا (بستان الرهبان)

❖ يوجد في العقل ثلاثة مناطق: الطبيعة، الفائقة للطبيعة، والمضاد للطبيعة. فعندما يدخل العقل في منطقته الطبيعية، يجد نفسه أنه هو سبب الأفكار الشريرة

والآلام (أي يلوم نفسه دائماً)، ويعترف لله بخطاياها.

ولكن عندما يكون في المنطقة المضادة للطبيعة، فإنه ينسى عدل الله، فيحارب الناس، ظناً منه أن معاملتهم له غير لائقة. أما عندما يرتفع إلى المنطقة الفائقة للطبيعة، فإنه يجد في ذاته ثمار الروح القدس التي أظهرها الرسول "محبة، فرح، سلام..." (غل ٥: ٢٢).

القديس مرقس الناسك

❖ أخي العظيم هل تعلم كيف ينبغي علينا أن نحذر لئلا في وسط هذه المعاصي تدخل إلى القلب كراهية لأحد، فلا تحرمنا فقط من الصلاة لله بسبب باب حجرتنا المغلق، بل تغلق الباب على الله نفسه.

إن الكراهية تزحف إلينا خفية في الوقت الذي لا يقتنع أي إنسان غصوب بأن غضبه بغير حق. فالغضب عادة يلاطفنا ضد أي إنسان نكرهه، وبهذه العذوبة الممتزجة بمظهر الغضب المقدس (إذ نشعر بخطأ الآخرين وحققنا في الغضب)، تُعاق الكراهية في الإناء أكثر مما نرغب، حتى يفسد ما فيه بل والإناء نفسه يهلك.

القديس أغسطينوس

❖ مثلما إذا صُب الماء قليلاً قليلاً على لهيب النار ينطفئ، هكذا دموع النوح الحقيقية (بسبب الشعور بالخطية) تطفئ حدة الغضب.

القديس يوحنا الدرجي

❖ إذا غُلب إنسان بخطأ، واشتعلت فيه نيران الغضب، وجب عليه ألا يعتبر أن مرارة الإهانة الموجهة إليه هي سبب خطيته، بل بالحري ظهور ضعفه الخفي، وذلك طبقاً لمثل ربنا ومخلصنا الذي تحدث فيه عن المنزلين (مت ٧: ٥٤، ٥٩) أحدهما مؤسس على الصخرة، والآخر على الرمل. فقد قال عن الاثنين إن عواصف المطر والسيول والرياح هبت عليهما بالتساوي، لكن المؤسس على الصخرة الصلب لم يتأذى على الإطلاق من قسوة الصدمة، أما الذي تأسس على الرمل الناعم المتحرك للحال انهار وسقط، والسبب في سقوطه بالتأكيد لم يكن اصطدامه بالعواصف والسيول، بل لأنه بُني في غير حكمة على الرمل.

فالقديس لا يختلف عن الخاطي في أنه ليس مجرباً مثله، بل يختلف عنه في أنه

لا يُقهر حتى من الهجوم العنيف. أما الآخر فينهزم من أقل تجربة... "طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة، لأنه إذا تزكى ينال إكليل الحياة الذي وعد به الرب للذين يحبونه" (يع ١: ١٢)... ويقول الرب: "هأنذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة وعمود حديد وأسوار نحاس على كل الأرض لملوك يهوذا ولرؤسائها ولكهنتها ولشعب الأرض، فيحاربونك ولا يقدرون عليك، لأنني أنا معك يقول الرب لأنقذك" (إر ١: ١٨، ١٩).

فما لم يتقوّ ذهننا بقوة حماية الله الذي يقول في الإنجيل: "ملكوت الله داخلكم" (لو ١٧: ٢١)، فباطلاً نظن أننا نستطيع أن نتفادها (الخطايا) ببعد المكان (أي الانعزال عن الناس)، أو نتخلص منها بحماية الجدران لنا. فلنسا نحتاج إلى البحث عن سلامنا في الخارج، ولا نظن أن صبر الآخرين يكون مفيداً لأخطاء عدم صبرنا. لأنه كما أن "ملكوت الله داخلكم" كذلك أعداء الإنسان هم من "أهل بيته" (مت ١٠: ٣٦)، لأنه ليس هناك عدو لي أكثر من قلبي، الذي هو بالحق ألصق "أهل بيتي" إليّ.

بذلك إن كنا حريصين، فإنه لا يمكن بسهولة أن نتأذى من الأعداء الخارجيين، فإذا لم يقاومني أهل بيتي، عندئذ أضمن وجود ملكوت الله في سلام القلب.

فإن فحصت الأمر جيداً، أجد أنه لا يمكن أن يصيبني أي ضرر من إنسان مهما كان مؤذياً، ما لم أحارب نفسي بقلبي محارب. فإن لحقني ضرر فإن الخطأ ليس من جانب هجوم الآخرين بل بسبب عدم احتمالي. وذلك كما أن الطعام القوي الدسم مفيد للإنسان ذي الصحة الجيدة إلا أنه مضر للمريض، فهو لا يستطيع أن يضر الإنسان الذي يتناوله ما لم يسبب له المرض الضرر^١.

الأب بيامون

٥ - أقطع الألم في بدايته

يسهل على الإنسان جداً أن يطفئ ناراً عظيمة، لو لم يستهتر ببدايتها وأطفأ عود الكبريت الصغير، هكذا بنعمة المسيح يمكنك إخماد روح الغضب لو أطفأته في بدايته بعدم الاحتداد وسوء الظن، "المحبة... لا تحتد ولا تظن السوء" (١ كو ١٣: ٥). فليتنا لا نترك للشك وإساءة الظن مجالاً في قلوبنا، حتى يصعب على الغضب أن يثور أو يوجد فينا.

^١ مناظرات القديس يوحنا كاسيان.

❖ إن شئت أن تصون المحبة في قلبك وكمال الاتحاد مع إخوتك، لا تدع الشكوك أن تلج عقلك، لأنها سُم المحبة.

القديس أغسطينوس

❖ الآن وقد سمعت عن معنى الاضطراب والتهيج والغضب والحق. فهل رأيت كيف يصل البشر إلى هذا الشر بواسطة كلمة واحدة؟! فلو أنك لمت نفسك من الابتداء، واحتملت بصبر كلمة أخيك، ولم ترغب في أن تنتقم لنفسك منه بالرد على تلك الكلمة بكلمتين أو خمسة، وهكذا ترد الشر بالشر (فإنه لو حدث هذا) لكنت قد تحررت من هذه الشرور جميعها.

لذلك أقول لك: اقطع الآلام دائماً وهي ما تزال صغيرة، قبل أن تتأصل فيك وتقوى وتبدأ في إضعافك، لأنك عندئذ تقاسي منها الكثير. فإنه يوجد فارق بين جني ورقة عشب صغيرة، واقتلاع شجرة ضخمة من جذرها! الأب دوروثيوس

❖ إذا اتفق أن شتمك إنسان، وأتاك الفكر بأن ترد عليه، قل لفكرك: "إن أنا رددت عليه أحزنه وأعثرته، فلأصبر قليلاً والأمر يجوز بسلام". كذلك إن وجدت في داخلك فكراً بالشر من جهة إنسان، فقل ما يأتي: "إن الذي يفكر بالشر يعاقبه الله... فكما قال الآباء: "إن وجدت عقلك محارباً في الزنا فتعال به إلى القداسة... وإن حوربت بالبغضة، فتعال به إلى المحبة... وبذلك تصبح على الدوام في يقظة وحذر".

❖ إذا ما حركك فكر ضد إنسان، فقل في نفسك بطول روح. "أني قد أخضعت ذاتي لله لكيما أخدم آخرين"، فيكيف عنك الفكر. كن دائماً مستقصياً عن أفكارك لتبكتها، لأن الذي يبكت أفكاره ويقول إنه خاطئ، وهو في فعله ليس خاطئاً، فهذا هو غاية التواضع.

الأب برصنوفوس

❖ إن احتد أحد على أخيه وأحزنه، فلا ينام قبل أن يصالحه بحلاوة المحبة، فقد كتب "لا تغيب الشمس على غضبكم" وبقبلة المحبة والسلام يخزي عدو السلام ويفرح إله السلام

¹ توجيهات بخصوص التداريب الروحية، ٥٣.

وتكونوا أبناءه المغبوطين، لأنه قال: "طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يُدعون".

❖ إذا تأملنا في الشرور التي تقع علينا من الناس، فإننا نقطع من عقولنا قوة التأمل في الله.

❖ إن كنا نتذكر شرورًا، فإننا نضر ذاكرتنا.

القديس مقاريوس الكبير

❖ إن بدء الانتصار على الغضب هو أن تلجم اللسان بالصمت وقت اضطراب القلب، وإن نجاحه هو تسكين أفكارنا في تلك الاضطرابات عينها التي يشعر بها القلب وإن كان قليلاً، وأما كماله فهو هدوء النفس وقت التجربة التي يثيرها الشيطان كل ساعة مثل الرياح.

❖ إذا كان تمام الوداعة هو أن نحافظ على سكون الضمير وحنو المحبة في حضرة من يضرنا ويعاملنا بالسوء. فإن تمام الغضب أن تحتدم غيظًا في الكلام والحركات عندما نكون وحدنا (أي في غيبة الخصم).

القديس يوحنا الدرجي

٦- لا تتسرع في الرد

الصمت هو لغة السمائيين، أما اللغات البشرية فهي لغة العالم. لذلك قيل "كثرة الكلام لا تخلو من معصية". لهذا يعلمنا ابن سيراخ ألا نتسرع في الإجابة على الآخرين قائلاً: "قلوب الحمقى في أفواههم، وأفواه الحكماء في قلوبهم". بمعنى أن الجهلاء يجعلون قلوبهم خاضعة لألسنتهم، فيرضى بكل ما يتسرع به اللسان، أما الحكيم فما يتكلم به على لسانه إلا ما يقبله قلبه.

والطبيعة نفسها علمتنا عدم التكلم إلا بعد استشارة القلب، فجعلت للإنسان بايين هما الأسنان والشفاه، بعكس الأذن، إذ هي مفتوحة دائماً. وكما يقول الرسول: "إذن يا إخوتي الأحباء ليكن كل إنسان مسرعاً في الاستماع، مبطئاً في التكلم، مبطئاً في الغضب" (يع ١: ١٩).

❖ يجب على الإنسان عند الكلام أن يتأمل في نفسه "من هو؟"، "مع من يتكلم؟"، "في

حضرة من يتكلم؟"

القديس باسيليوس الكبير

❖ يلزم لكل كلمة تقال، أن تؤخذ على مبرد قبل خروجها إلى اللسان، أي ينبغي أولاً أن تولد في القلب ثم تسن على مبرد العقل قبل أن تخرج من الفم.

القديس أغسطينوس

❖ كما أن الرجل العفيف لا يقذف ما يأكله إلى معدته إلا بعد مضغه في فمه، هكذا الإنسان الحكيم المفرز، فإنه لا يخرج كلمة من فمه إلا بعدما ينتقدها في قلبه. لأن الخصومات من شأنها في غالب الأوقات أن تبرز من الكلام غير الموزون وغير المنتقد (في الداخل).

القديس كبريانوس

❖ إن الكلمة الخارجة من الفم تخرج كحجر مرشوق باليد، هيهات عودتها أو ضبطها... فلهذا يلزم التأمل فيما سيقال قبل أن يخرج الكلام. لأنه بعد خروجه يكون التأمل فيه باطلاً.

القديس إيرونيموس

٧- تأمل يسوع طويل الأناة

❖ إذا شُتِمت فأنظر وأعلم أنه أيضاً شُتم من أجلك ودُعي مجنوناً وسامرياً. وإن كانوا يعيرونك ويستهزئون بك، فأنظر إلى مخلص الكل، كيف كانوا يستهزئون به ويعيرونه ويتقلون على وجهه ويسقونه الخل والمرارة، وكانوا يقرعون رأسه بقصبة.

القديس مار فيلوكسينوس

❖ كن وديعاً بقلبك، واذكر الخروف الوديع، وكم صبر. وبالرغم من أنه لم تكن له خطية، لكنه احتمل الشتم والضرب وسائر الآلام حتى الموت. اتعب وجاهد ليبعد عنك الغضب... بمعونة الله الحق، إلهك المسيح الذي أحبك له المجد دائماً إلى الأبد. آمين.

أنبا بارصنوفوس

٨- أيقظ يسوع النائم فيك

نسمع تنهدات الكثيرين وتساؤلهم:

هل يمكن لإنسان أن يعيش في هذا المجتمع دون أن يغضب أو يثور؟

هل يمكن لي أن أغير طبيعتي التي لا تعرف الوداعة وطول الأناة؟

أجيبك أنك في المعمودية أعطيت لك إمكانية عظيمة، إذ حلَّ الروح القدس في داخلك. وصار يسوع عاملاً فيك - إن أردته أن يعمل - لكننا كثيراً ما نتركه نائماً فينا بينما نترنح سفينة حياتنا بأمواج بحر هذا العالم ورياح الغضب ولا نوقظه!

صل إلى ربنا يسوع الوديع، فيعطيك وداعته وطول أناته وغفرانه لمن يسيء إليه.

❖ البحارة هم النفوس التي تعبر هذا العالم في السفينة التي هي رمز الكنيسة. في الحقيقة

كل إنسان هو هيكل الله، وقلبه هو السفينة التي تبحر ولا تغرق إن كانت أفكاره صالحة.

لقد سمعت إهانة. إنها ريح.

إنك غضوب. إنها موجة.

عندما تهب الرياح (الإهانات)، وتعلو الأمواج (الغضب)، تصير السفينة في خطر،

ويكون القلب في تهلكة يترنح هنا وهناك...

عندما تسع إهانة تشتاقي إلى الانتقام، وإذ تكون منتقماً وتسبب ضرر الآخرين عندئذ

تهلك، ولماذا يحدث هذا؟ لأن المسيح نائم فيك. ماذا يعني هذا؟ لقد نسيت المسيح.

أيقظه إذن - أي تذكره - دُع المسيح يستيقظ فيك. نبهه إلى اشتياقك (الانتقام)... إن

النائم فيك لا يريدك أن تكون منتقماً. أيقظه إذن، أي تذكره... وتكون ذكره بتذكر

كلماته. ذكره تكون بتذكر وصاياه...

إذن، فلتوقظ المسيح. دعه يتكلم فيك... فإن الريح والبحر جميعاً تطيعانه (مت ٨:

٢٧)... إذن فلتقلد الرياح وأيضاً البحر، أطع الخالق.

أصغى البحر لأمر المسيح، وأنت أفما تستمع لأمره؟

البحر سمع والرياح هدأت، وأنت ألا تهدأ بعد؟... لا تدع الأمواج تسيطر على

اضطرابك القلبي. فمع أننا لسنا إلا بشرًا، لكننا لا نياس متى دفعتنا الرياح، وثار

عواطف أرواحنا. لنوقظ المسيح حتى نبحر في بحر هادئ، ونصل إلى موطننا.

القديس أغسطينوس

❖ قال شيخ: متى أحزنك أحد في شيء، فلا تنطق البتة، على أن تسكن قلبك بالصلاة، ثم

بعد ذلك استعطفه.

بستان الرهبان

❖ هل شتمك أحد؟ ارسم العلامة على صدرك وتذكّر كل ما حدث (أثناء الصلب) وإذ بكل شيء ينطفئ^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

تدريب: درب نفسك أن تصلي قائلاً: "يا رب علمني بماذا أتكلم" قبل أن تجيب أي إنسان أو تتحدث معه.

٩- تذكر أنك تستعد للرحيل

أيام غربتنا قليلة مقصرة وشريرة، فلا نضيعها في الخصام. وكما يقول الأنبا إفراطس: [يليق بالمتقدمين إلى الله أن ينظروا إليه وحده، ويلتجئوا إليه بورع هكذا، حتى لا يعيروا الشنمية التقاءً، حتى ولو كانوا مظلومين ربوات من المرات^٢].

للمؤمن هدف واحد في حياته إلا وهو محبة ربنا يسوع. ولأجل هذه المحبة يستعد للرحيل دائماً، حتى حيث يكون المسيح في بهاء مجده يكون هو أيضاً. إنه بين لحظة وأخرى ينتظر الخروج من هذا الجسد الكثيف القابل للفساد. لذلك يهون عليه أن يحتمل أتعاب الآخرين ومضايقاتهم، بل ويتقبلها بفرح لأجل الفادي.

جاء في سيرة القديس الأنبا يحنس القصير أنه بينما كان يتحدث بنفس منسحقة وروح متواضعة عن الرهينة، أجابه أحد السامعين: "إنك تشبه المرأة الفاسدة التي تزين ظاهرها وتطيب ذاتها بالطيب الفاخر، لكي تسقط الناس في شركها". فأجابه القديس قائلاً: "حقاً يا أبي إني رجل خاطئ". ولما خرج الإخوة سأل الأنبا بمويه: "لعل قلبك تألم من كلام الشيخ". فأجابه: "كلا يا أبي، لأنه مكتوب: طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم... افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السماوات" (مت ٥: ١١، ١٢). وأنا أشبه إنساناً تحت شجرة عظيمة أبصر وحوشاً ضارية وهي تقترب منه، فإذا وجد في نفسه عدم المقدرة على ردها، هرب إلى أعلى الشجرة وتخلص منها. هكذا أنا في قلّيتي إذا دنت مني الأفكار الرديئة... وسمعت ما لا أرضاه أهرب إلى الله بالصلاة وأتخلص. لقد وظنت نفسي أن أقبل لأجل المسيح كل أنواع التضحية والعذاب، فلا الشتائم ولا الاحتقار أيا كانت تحزني مادام إيماني

^١ In Matt. hom 87:3.

^٢ بستان الرهبان.

كاملاً".

❖ من أنا الذي أهدد الآخرين؟ ربما أموت قبل أن أنتقم. وفي آخر أنفاسي أترك جسدي وأنا مشتعل بالغضب ومتعطش للانتقام، فلا يقبلني المسيح الذي لا يريد الانتقام. لا يقبلني ذلك الذي قال: "أعطوا تعطوا. اغفروا يغفر لكم" (لو ٦: ٣٧، ٣٨). لذلك أمسك نفسي عن غضبي وأعود إلى هدوء قلبي. لقد أمر المسيح البحر فعاد إليه الهدوء.

القديس أغسطينوس

١٠ - عمل الخير وتقديم الهدايا

يرى العالم أن الشر لا يرد إلا الشر، أما الله صانع الخيرات، فعلمنا أن الشر لا يغلبه إلا الخير.

❖ جاء عن الأب يوحنا السرياني انه قد قصده أناس أشرار خبثاء، فأخذ ماء في طشت وغسل أقدامهم، فما كان منهم إلا أن احتشموا من إكرامه لهم وتابوا.

بستان الرهبان

❖ اهتم بعمل الخير حسب قوتك من أجل الله، لاسيما مع المسيئين إليك ومبغضيك، لكي تغلب الشر الذي فيهم من نحوك.

القديس أنبا أناسيوس الرسولي

❖ مائدة الحب تحل الحقد، والهدية النقية تلين النفس.

❖ إذا سمعت أن أحًا لك شتمك وأهانك في غيبتك أو حضورك فأظهر له حبك.

❖ علامة زوال الحقد من قلبك، ليس بأن تصلي فقط لأجل من أحنك، ولا بأن تفرحه بالهدايا ولا بأن تدعوه إلى مائدتك. لكن بأن يبلغك لأنه قد ناله أمر محزن فتحزن معه كما تحزن لو نالك.

القديس يوحنا الدرجي

❖ كثيرًا ما نضطرب لغضب الآخرين علينا مما يثير الغضب في نفوسنا، لكن لتستغل كل المناسبات لتقديم الخير والهدايا لهم...

❖ الهدايا تعطل الغضب. ويقنعك بذلك يعقوب حين التقى مع عيسو بالهدايا عند خروجه

للقائه ومعه أربعمئة رجلٍ.

القديس أوغريس

١١ - أنظر إليه كطبيب

الله طبيب نفوسنا لن يسمح لإنسان أن يخطئ في حقنا، أو يعادينا ما لم يكن ذلك لإبراء جراحاتنا أو لتهيئتها للإكليل السماوي.

❖ إذا توبخ أحدنا من أحد إخوته ولم يقبل ذلك بل يحقد عليه، تغتال الشياطين نفسه. لست أقول هذا فقط، بل وإن لم تعتبره كطبيبٍ معالجٍ فقد ظلمت نفسك، لأنه ماذا تقول فيما أصابك؟ ألست تعلم أنه قد نظف أوساخك؟ فسيلك أن تعترف به كطبيبٍ أرسله إليك المسيح. فإن كنت تحب المرض، فلا تحتج على الشفاء، أما هذا الألم الذي حدث فيك فذلك دليل ضعفك، وإلا ما كنت تحزن من الدواء. لذلك ينبغي أن تعترف بالفضل للأخ، لأن به قد عرفت مرضك القاتل. فعليك أن تقبله مثل دواءٍ شافٍ مُرسل من عند يسوع المسيح، فلو أنك لم تقتصر على عدم شكره له فقط، بل خلقت حوله شكوكًا، كأنك تقول ليسوع المسيح: "لست أريد أن تشفيني ولا أشاء أن أقبل شيئًا من أدويةك!"

الأحزان هي عمليات كي بواسطة يسوع، فمن أراد أن يبرأ من أسقامه يلزمه حتمًا أن يصبر على ما يرد عليه من الطبيب، ولعمري أن المريض ليس من شأنه أن يستلذ بالكي والبتر وشرب الدواء النقي، بل من طباعه أن يبغض الأدوية، ولكنه ليقينه أنه لن يحصل على الشفاء بلا علاج، يدفع ذاته للطبيب، عالمًا أنه بالأدوية المرة يتخلص من الأمراض الضارة الرديئة.

القديس باخوميوس

هل الانعزال (الانطواء) علاج للغضب؟

يظن البعض أن هروبهم من الناس يجنبهم السقوط في الغضب. لكننا رأينا أن الغضب مرض داخلي يصيب القلب قبل أن يظهر على اللسان أو في التصرفات. فيحتاج إلى دواء داخلي، وليس إلى مجرد هروب خارجي من الظروف التي تحيط بنا.

❖ قال شيخ: "إذا كان ألم ما يقاقلك في موضعٍ ما، فتترك ذلك الموضع ظنًا منك أن يخف عنك دون أن تقاقله، فاعلم أنك إذا لم تغلبه حيث قاتلك، فسوف يسبقك إلى كل موضع تمضي إليه. لأنني أعرف أخًا كان ساكنًا في دير. وكان مداومًا على السكوت. إلا أنه

كان كل يوم يتحرك فيه وجع الغضب. فقال في نفسه: "أمضي وأسكن وحدي في قلاية، وحيث انه لن يكون هناك أحد ساكنًا فسوف أهدأ، ويخف عني الوجع". فخرج وسكن وحده في مغارة، وفي أحد الأيام ملأ (القلة) ماء، ووضعها على الأرض ولوقتها تدرجت، وانسكب ما فيها، فأخذها وملأها مرة ثانية ووضعها فانسكب كذلك، فملأها دفعة ثالثة، فانقلبت أيضًا فغضب وأمسكها وضرب بها على الأرض فكسرها، فلما هدأ قلبه علم أن الشياطين سخرت به، فقال "هوذا قد انقلبت وأنا في الوحدة كذلك. فلأذهب إلى الدير لأنه في كل موضع يحتاج الإنسان إلى جهاد وصب ومعونة من الله" ثم قام ورجع إلى موضعه.

بستان الرهبان

❖ سؤال: يا أباي إن الأخ يحتقني جدًا وأحاول أن أبدله بتلميذ أو أبقى وحدي، لأن فكري يقول لي "لو كنت وحدك ما كنت تحزن".

الإجابة: لا يجب أن تقبل تركية نفسك، ولا تقل: "لو كنت وحدي ما كنت أحزن، لأنه لا يكون خلاص بدون أحزان، لأنك بقولك هذا تُبطل الكتاب القائل "كثيرة هي أحزان الصديقين ومن جميعها ينجيهم الرب".
أما بخصوص استبدال تلميذك بآخر، فالأمر واحد، لأنك إذا اتخذت آخر، وصادفك منه ما يحزنك، فماذا تعمل؟ يجب عليك أن تحتل التلميذ الذي لك، وسياسته، ويلزمه هو القبول منك، على أن تحتل ثقله بخوف الله.

أبنا برصنوفوس

❖ إنسان راهب من شدة التجارب والمحن المتكاثرة عليه قال: "لنمضي من هنا"، فبينما هو يلبس نعاله أبصر رجلاً مقابلته يلبس نعاله هو أيضًا، فقال له: إلى أين أنت ماضي؟ أجابه قائلاً: "إلى الموضع الذي أنت ماضي إليه، لأنني من أجلك أنا مقيم في هذا الموضع. فإن أردت الانتقال من هنا فسوف أنتقل بدوري. لأنني ملازم لك حيثما سكنت".

بستان الرهبان

❖ عندما يُثار الجزء القابل للإثارة في النفس، لسبب أو آخر، تقدم لنا الشياطين "التوحد" كنصيحة نافعة، لكي به ننزع عنا أسباب الضيق، لكننا لا نكون قد تحررنا (داخليًا) من

دافع الغضب.

وبالعكس عندما تلتهب الشهوة فينا، تحركنا الشياطين نحو حب الناس (حب الاختلاط بهم)، وتصور لنا الانعزال عنهم بربرية وقسوة، وذلك لكي نلتقي بأجساد أخرى فنشتهيها.

فليتنا لا نصدق الشياطين في شيء، مجاهدين بكل طاقتنا ضد ما تمليه علينا^١.

القديس أوغريس

عرض القديس يوحنا كاسيان في كتابه الثامن من "مؤسسات نظام الشركة" عن روح الغضب، وقد اهتم بالإجابة عن هذا السؤال. هل يمكن للصحراء في ذاتها (الهروب من الناس) أن تعالج الغضب؟ فقال^٢:

❖ في بعض الأحيان عندما نقع فريسة للكبرياء ونفاد الصبر، ونريد إصلاح سلوكنا الجاف البغيض، نشكو بأننا في حاجة إلى العزلة، كما لو كنا سنجد فضيلة الصبر والاحتمال هناك حيث لا يثيرنا أحد. ونعتذر عن إهمالنا قائلين إن علة اضطرابنا لا تصدر من نفاد صبرنا ولكن من خطأ إخوتنا. مادمننا نحمل الآخرين وزر أخطائنا، لن نستطيع قط أن نبلغ بغيتنا في الكمال والقدرة على الاحتمال.

لزاماً علينا ألا نعلق الجزء الأكبر من إصلاح تفكيرنا وهدوء أنفسنا على إرادة أي شخص آخر، الأمر الذي لا يمكن بحال أن يكون خاضعاً لسلطاننا. إذ هو يكمن بالحرى في ضبطنا لعواطفنا. وهكذا ينبغي ألا يكون عدم غضبنا نتيجة لكمال الآخرين، بل بسبب فضيلتنا الخاصة التي نحرزها لا عن طريق احتمال أي إنسان آخر لنا، ولكن لطول أناتنا وقدرتنا على الاحتمال.

إن الكاملين والمتطهرين من جميع الأخطاء هم الذين ينبغي أن ينشدوا الصحراء. عندما يستأصلون تماماً كل هفواتهم وهم وسط اخوتهم، عليهم أن يدخلوها ليس بدافع من الفرار والجبن، إنما بغية التأمل المقدس. ورغبة في إحراز بصيرة أكثر عمقاً للتغلغل بها في الأمور الإلهية، التي لا يتيسر إلا للكاملين أن يحصلوا عليها في العزلة والانفراد بأنفسهم. ذلك لأن أية سقطات تأتي بها إلى الصحراء قبل شفائنا منها نجد أنها باقية خفية فينا وليس بوسعنا التخلص منها. فعندما تصلح طباعنا، عندئذ فقط تفتح لنا

^١ القديس أوغريس: توجيهات إلى أنالوتيس عن الحياة العاملة، ١٣.

^٢ Cassian: De institutis caenoboum, 8:16-19.

العزلة أبواباً أنقى لضروب التأمل على مصراعيها، وتلهم معرفة الأسرار الروحية لدى النظرة الصافية. العزلة لا تستبقى فقط، بل وتقوي أخطاء أولئك الذين لم يصلحوا أنفسهم من قبل. فالواقع أن المرء يبدو لنفسه صبوراً متواضعاً مادام بعيداً عن الاحتكاك بأي شخص آخر، لكن سرعان ما يرتد إلى طبيعته الأولى كلما وقع ما يستدعي الإثارة من أي نوع، أعني أن تلك الأخطاء تطفو إلى السطح فوراً بعد أن ظلت مخفية. وكخيل مطلقة العنان، معنيّ بإطعامها خلال فترة طويلة جداً من البطالة، تنطلق متخفية الحواجز بمزيد من اللهفة والشراسة لتحطم سائق المركبة التي تجرها.

عندما تزول فرصة ممارسة أخطائنا بين الناس، تتزايد في أعماقنا أكثر فأكثر، ما لم نكن قد تطهرنا منها قبل ذلك. إن مجرد ظلال الصبر الذي يبدو حين نختلط بإخوتنا كأننا نمتلكه، في القليل بدافع من الاحترام لهم وحسن السمعة، نفقده بالكامل بسبب الكسل والإهمال اللذين كانا علة ترك العالم.

هذا يشبه كل أنواع الأفاعي السامة والوحوش الضارية التي لا تؤذي مادامت وحيدة داخل أوجرتها. ذلك لأنه لا يمكن في الواقع الزعم بأنها غير مؤذية لأنها لا تؤذي بالفعل أحداً. لأن هذا ناتج لا عن أي شعور بالخير، إنما بسبب ما تفرضه العزلة. وحين تنهيا لها الفرصة لإيقاع الضرر بأي أحد، سرعان ما تنفث السم المختزن فيها، وتكشف عن شراسة طبعها.

هكذا في حالة الذين يبتغون الكمال، لا يكفي ألا يغضبوا من الناس، فإننا نذكر أننا حين كنا نعيش في عزلة، كان يتسلل إلى نفوسنا شعور الغضب ضد القلم الذي نستعمله لزيادة طوله أو زيادة قصره، أو ضد المطواة لعدم حداثتها، أو ضد حجر القداحة إذا طارت منه شراره تعطلنا عن المطالعة. فلا نتخلص من اضطراب ذهننا بسبب مادة جامدة أو الشيطان. وهكذا باطلاً نظن بلوغ الكمال لعدم وجود من يثيرون غضبنا. فمادام لم يتم نوال الصبر فإن مشاعر السخط التي مازالت كامنة في قلوبنا يمكن إطلاق العنان لها ضد جماد أو شيء تافه، ولا تتيح لنا بلوغ حالة دائمة من السلام، أو التخلص من رواسب سقطاتنا، اللهم إلا إذا اعتقدنا أننا قد نحرز بعض النفع، ونحقق لوئاً من الشفاء من انفعالاتنا، إزاء الواقع من أن الأشياء العديمة النطق والحياة لا تستطيع الرد على سبنا لها وسخطنا عليها أو أن تدفع نوبات غضبنا المطلقة العنان لأن تنفجر في ثورة عارمة مخبولة أسوأ وأنكى.

القديس يوحنا كاسيان

❖ كل إنسان يعرف أن "الصبر" يأخذ اسمه من الآلام والاحتمال، بهذا يتضح أنه لا يمكن أن يدعى إنسان صبورًا إلا ذاك الذي يحتمل كل ما يحل به من متاعب دون أن يتضايق. هكذا لم يمدح سليمان مثل هذا الإنسان بغير بسبب، إذ يقول: "البطيء الغضب خير من الجبار ومالك روحه خير ممن يأخذ مدينة" (أم ١٦: ٣٢). وأيضًا "بطيء الغضب كثير الفهم، وقصير الروح معلى الحمق" (أم ١٤: ٢٩).^١

الأنبا بيامون

❖ قد يحدث أن يكون إنسان جالس في الوحدة والسكون في سلام، ولكن يأتيه أخ آخر وفي كلامه معه يقول شيئًا غير سار، فيضطرب المتوحد في الحال، ويقول بعد ذلك: "لو لم يكن قد جاء هذا ليزعجني ما كنت قد أخطأت".

أي نقاش مضحك هذا؟! هل الذي تكلم معه هو الذي قدم الألم إليه، أم أن الألم الذي كان موجودًا فيه من قبل خرج إلى السطح؟! والآن بدلًا من المرارة ضد أخيه، كان يجب أن يتوب عن ألمه ويلوم نفسه.

هذا الإنسان مثل خبزه عفنة، فإن كسرهما أي شخص يظهر عفونتها. أو هو يشبه أنية نظيفة من الخارج، ومملوءة من الداخل من القذارة والنتانة، لهذا فإن من يفتحه يتحقق في الحال من نتانته... بنفس هذه الطريقة كان هذا الشخص عائشًا كما يبدو - في سلام - غير عالمٍ بالألم الموجود في داخله. فإن كان يريد أن ينال رحمة، يجب عليه أن يتوب لائئًا نفسه. بهذا فقط ينال النقاوة ويتقدم. أما عن الأخ فكان يجب أن يشكره إذا كان نافعًا له.

القديس دوروثيوس

^١ Cassian: Conferences 18:13.

إلى أي مدى نطيل أناتنا؟

إلى سبع مرات سبعين مرة

❖ "حينئذ تقدم إليه بطرس وقال: يا رب كم مرة يخطئ إليّ أخي وأنا أغفر له. هل إلى سبع مرات" (مت ١٨ : ٢١).

لقد ظن بطرس أنه يقول شيئاً عظيماً، وقد كان متباهياً بالكرم، فماذا أجابه السيد المسيح ربنا محب البشر، المولى الجواد؟ "لا أقول لك إلى سبع مرات، بل إلى سبعين مرة سبع مرات"، ولم يقل هذا عدداً لكن يقصد ما لا نهاية. ولئلا يظن أحد أنه يأمرنا بأمر عظيم، حملها شاق، أضاف (مثل الملك الذي عفا عن مدينه، لكن مدينه لم يعف عن أخيه)... حتى تتعلم بالقياس أنك إن سامحت سبعين مرة سبع مرات، وإن غفرت سائر الخطايا للقريب، فإن محبتك للبشر ناقصة بالنسبة لجود الله وخيره اللانهائي، كنقصان نقطة الماء بالنسبة للجة غير محدودة، بل وأكثر بكثير.

القديس يوحنا الذهبي الفم

أغفر تماماً

كثيراً ما يتظاهر الإنسان بطول الأناة وعدم الغضب ومسامحة الآخرين، لكن قلبه يغلي غيظاً وحقداً في الداخل، ولا يظهر ذلك الداخل إلا عندما تخطئ إليه مرة أخرى، فيذكر لك الخطأ الأول والثاني.

❖ أغفروا كل ما على الآخرين غفرائاً تاماً من قلوبكم. أغفروها من قلوبكم التي يراها الله. فأحياناً يغفر الإنسان لأخيه، لكنه يحتفظ بها في قلبه. يغفرها بالفم لأجل البشر، ويحتفظ بها في القلب حيث لا يخاف عين الله.

القديس أغسطينوس

❖ أولئك الذين يتظاهرون عن مكر أنهم يحتملون بصبر إهانة ما ويحفظون ذكرها في صدرهم، يخال إليّ أنهم أتعس من هؤلاء الذين يشتعلون غيظاً.

القديس يوحنا الدرجي

❖ ماذا أقول عن الذين لا يضع غروب الشمس ذاته حدًا لحقدهم، بل يطيلونه بضعة أيام، ويغذون شعور الغل والكراهية في أنفسهم ضد الذين أثاروهم، وعلى الرغم من ذلك يقولون أنهم غير غاضبين، لكنهم في الواقع وبالفعل مضطربون إلى حد الإسراف؟ (لا أستطيع ذكر ذلك دون أن أشعر بالعار من جانبي)... لأنهم لا يتكلمون معهم بلطف ولا يلتزمون بأبسط قواعد المجاملة عند مخاطبتهم لهم، ويظنون أنهم لا يخطئون بهذا التصرف. لأنهم لا ينشدون الأخذ بالثأر عن مضايقتهم. إن كانوا لا يتجاسرون على ذلك، أو على أي وجه لا يقدر على الإفصاح عن غضبهم، وإطلاقه من محبسه، فإنهم يمتصون سم الغضب ويرعون سرًا داخل قلوبهم، مسيئين إلى أنفسهم أبلغ إساءة، دون محاولة لتتقية عقولهم من هذه النزعة العابسة المتبرمة، لكنهم بمرور الأيام يهضمونها في أحشائهم، وبعد حين تتلطف حداثتها نوعًا ما.

يبدو أن هذا ليس هو خاتمة المطاف لكل إنسان، لكن البعض يستطيعون فقط إشباع سخطهم واستيائهم إذا هم أفصحوا عن ثورة الغضب ما استطاعوا. وهذه كما نعلم هي حالة الذين يكتبون مشاعرهم، لا بغية تهدئتها، إنما لعدم سنوح فرصة الانتقام، ذلك لأنهم غير قادرين أن يفعلوا شيئًا للساخطين عليهم سوى إغفال قواعد المجاملة المعتادة عندما يخاطبونهم، أو يبدو أن الغضب لا يتيسر تلطيفه إلا بالفعل فحسب، دون استئصاله من مكنه الخفي في صدورنا. هكذا في قتام ظلاله السوداء نعجز ليس فقط عن تقبل النصيحة الرشيدة والمعرفة الصحيحة، بل نخفق أيضًا عن أن نكون هيكلاً للروح القدس، مادام روح الغضب ساكنًا فينا، ولكن السخط الذي يتربع ويتغذى داخل القلب، مع أنه قد لا يؤدي الواقفين عن كتب، فإنه يطمس بهاء تألق الروح القدس، كالسخط الذي يطلق له العنان سواء بسواء¹.

❖ لماذا نصرف مزيدًا من الوقت في الاستشهاد بالوصايا الرسولية والإنجيلية، في حين أن الناموس القديم الذي يُظن أنه متساهل بعض الشيء يحذر من نفس الشيء، حين يقول: "لا تبغض أخاك في قلبك"، وأيضًا: "لا تحتد على أبناء شعبك" (لا ١٧: ١٩، ١٨). وكذلك يقول: "طرق الذين يحتدون تؤدي إلى الموت" (أم ٢٨: ١٢). هكذا ترى أن الشر منهى عنه ليس بالفعل فقط، بل ومن خفايا الفكر أيضًا، وفقًا للوصية التي تنص على

¹ Cassian: De institutis caenobium, 8:11-12.

استئصال الشر من القلب، لا الانتقام عن الإساءة إلينا فحسب، بل ومجرد التفكير فيها^١.

القديس يوحنا كاسيان

لا تغضب على جمادات

كشف لنا القديس يوحنا كاسيان كغيره من الآباء أن الوصايا الخاصة بنزع الغضب، ليست مجرد تشريع لبث روح الود بين البشر أو لحفظ كيان الأسرة أو الجماعة في أي حدود، لكن ما هو أعمق من هذا. إنه يقصد نزع كل جذور الخطية من القلب، حتى يستطيع بنعمة الله أن يعاين الله.

فقد أعيش كإنسان ذي أخلاق حميدة في المجتمع، قد لا أثور على رؤسائي ولا مرؤوسي، لكن هذا لا يكفي، إذ ينبغي التخلص من الغضب في كل صورة. ألا تجد موظفًا لا يستطيع الإجابة على رئيس استدعاه، فيأخذ صورة الوداعة، لكنه حالما يعود إلى مكتبه يلقي بالقلم الذي في يده على المكتب فيكسره. ألا يحدث هذا كثيرًا في بيوتنا، عندما يعجز الابن عن مواجهة والده بحقيقة مشاعره الداخلية. لذلك لا يكفيك التخلص من مظاهر الغضب بل من جذوره المتأصلة في القلب.

من واجبنا ألا نستبقي غضبنا حتى ولو لحظة واحدة

❖ كيف يمكننا الاعتقاد أن الرب قد يسمح باستبقائه ولو إلى لحظة واحدة، في حين أنه لا يأذن لنا أن نقدم قرايين صلواتنا الروحية إذا تذكرنا أن ثمة أحدًا يشعر بمرارة من نحونا قائلاً: "إن قدمت قربانك إلى المذبح، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك، فأترك هناك قربانك قدام المذبح، واذهب أولاً: اصطاح مع أخيك، وحينئذ تعال وقدم قربانك" (مت ٥: ٢٣، ٢٤). كيف إذن نظل مخاصمين أحياناً لنا؟ لن أقول لبضعة أيام، بل حتى إلى غروب الشمس، مادام غير مصرح لنا برفع صلواتنا إلى الله بينما يوجد من له شيء علينا؟ ومع ذلك فالرسول يوصينا قائلاً: "صلوا بلا انقطاع" (١ تس ٥: ١٧). وأيضاً: "في كل مكان رافعين أيادي طاهرة بدون غضب ولا جدال" (١ تي ٢: ٨). إذن إما أننا لا نصلي على الإطلاق، محتفظين بهذا السم في قلوبنا، ونصبح مذنبين فيما يتعلق بهذه الوصية الرسولية أو الإنجيلية التي أمرنا بها أن نصلي في كل مكان ودون

^١ Cassian: De institutis caenoboum, 8:15.

انقطاع، وإلا إن تجاسرنا على تقديم صلواتنا، خادعين أنفسنا، وغير آبهين بوصيته،
فلزأما علينا إدراك أننا لا نقدم أية صلوات لله، إنما نقدم سلوكًا عنيدًا بروح متمردة^١.
القديس يوحنا كاسيان

^١ Cassian: *De institutis caenoboum*, 8:13.

الغضب المقدس

الغرائز هي عطية من الله صانع الخيرات. وكل ما وهبنا هو جيد وحسن، لكننا بشرنا حولنا ما هو صالح ليصير شريرًا. فالغضب عطية عظيمة بدونها لا نقدر أن نحارب عدو الخير، الشيطان، ونحارب الخطية التي نرتكبها، لكننا وجهنا هذه البذار الجميلة توجيهًا شريرًا، فصرنا نغضب على إخوتنا، لا على العدو.

قد عرض القديس غريغوريوس أسقف نيصص في شرحه لمثل صاحب الحقل الذي زرع حنطة وفي الليل جاء العدو وزرع زوانًا، فلما نميا معًا طلب الحصادون أن ينزعوا الزوان، فأمرهم صاحب الحقل أن يتركاها ينميان معًا حتى وقت الحصاد، لئلا إذا اقتلعوا الزوان انتزعوا الحنطة معها. وقد شرح ذلك في ثوبٍ رمزي، فقال: الحقل هو النفس التي كثيرًا ما نطلب من الله أن ينزع منها المحبة والغضب، بسبب استخدامنا لها استخدامًا شريرًا، فإن نزعنا هذه فقدت النفس جمالها.

الغضب المقدس والغضب الشرير

❖ عمل الغضب الطبيعي هو شن الحرب ضد الشياطين والصراع ضد كل نوعٍ من أنواع اللذة الشريرة.

فالملائكة تحثنا نحو اللذة الروحية، وتجعلنا نتنوق بركاتها، وتوجّه غضبنا ضد الشياطين.

وأما الشياطين فتجذبنا نحو الشهوات الأرضية، حتى تجعلنا نستخدم الغضب ضد الناس، الأمر الذي يخالف الطبيعة، وهكذا إذ تختل الطبيعة يظلم (القلب) ويصير مستهينًا، خائنًا للفضائل^١.

القديس أوغريس

❖ إن أردت أن تغضب وتحقد وتبغض، فاغضب على جسدك، واحقد على الشيطان، وابغض الخطية.

القديس يوحنا الدرجي

^١ القديس أوغريس: إلى أنالوتيس عن الحياة العاملة، ١٥.

❖ لو بترنا طبيعتنا من هذه العواطف، كيف نستطيع الحصول على المباحج السماوية؟ فلو نُزعت عنا المحبة، كيف يمكننا الاتحاد مع الله؟! وإن تبدد الغضب، كيف نحارب العدو؟ لهذا يترك الله صاحب الحقل، تلك البذار المشوشة في داخلنا، لا للتغلب على البذار الجيدة، بل يترك للتربة... أن تُذبل الأولى وتتمي الثانية حتى تزهر وتثمر.

❖ ينبغي أن يكون السخط والغضب والكراهية مثل كلاب الحراسة التي لا تتهض إلا لمهاجمة الخطايا (أي نغضب على أنفسنا بسبب الخطية، لا على الآخرين). فينبغي عليها أن تقوم بعملها الطبيعي ضد اللص والعدو، اللذين يزحفان ليسرقا ويمزقا ويخربا. **القديس غريغوريوس أسقف نيصص**

❖ لنا استعمال للغضب، مغروس بامتياز فينا، الذي وحده مفيد ونافع لنا أن نقتنيه، أعني عندما نكون غاضبين وحائقين على عواطف قلوبنا الشهوانية، ونكون متكدرين، لأن الأشياء التي نخجل من صنعها أو النطق بها أمام البشر قد قامت في خفايا قلوبنا... فمثل هذا الغضب يعلمنا إياه النبي، الذي طرد الغضب من مشاعره كلية حتى لا ينتقم ولا من أعدائه، أولئك الذين أسلمهم الله بين يديه "اغضبوا ولا تخطئوا" (مز ٤: ٤). فإذا انتهى داود ماء بئر بيت لحم، وقد أعطى له الماء بواسطة رجاله الجبابرة، محضرين الماء من وسط معسكر الأعداء في الحال سكب الماء على الأرض. وفي غضبه أحمَد لذة شهوته... فسكبه للرب دون أن يرضي شهوته، معبراً عن ذلك بقوله "حاشا لي يا رب أن أفعل ذلك. هذا دم الرجال الذين خاطروا بأنفسهم" (٢ صم ١٧: ١٨).

❖ حرك الغضب قبالة الشهوة، ليساعدك لتهدأ وتزيل إغراءاتها.

القديس مار فيلوكسينوس

❖ لا بد من التسليم بأنه ثمة فائدة للغضب قد عُرفت ببراعة فينا، وهي وحدها التي تستطيع أن توفر لنا النفع والإفادة. ذلك مثلاً عندما نغضب ونسخط على نجاسات قلوبنا، وعندما نتضايق جداً، لأن الأشياء التي نخجل من فعلها أو ذكرها أمام الناس قد أخذت لها من حنايا قلوبنا بؤرة ووكراً، إذ نرتعد عند حضور الملائكة وفي حضرة الله نفسه، الذي يخترق أستار كل شيء في كل مكان، ويشد فزعه لعلمه أن أسرار

قلوبنا لا يمكن أن تُخفى عليه^١.

❖ الوصية موجهة للبعض بأن "يغضبوا" على نمطٍ سليم، بمعنى أن يوجهوا الغضب إلى أنفسهم، وإلى أفكارهم الشريرة التي تبرز. "وَأَلَا يَخْطِئُوا"، بأن يوجهوها مثلاً توجيهاً رديئاً. وأخيراً فالآية التالية تفسر هذا المعنى بكل وضوح "الذي تقولونه في قلوبكم اندموا عليه في مضاجعكم" (مز ٥:٤)، أي أن كل ما تفكرون فيه بقلوبكم، عندما تدهمكم الانفعالات المتوترة المفاجئة أصلحوها بالحزن النافع، ثم ارقدوا على فراش الراحة، وطاردوا بتأثير المشورة الصالحة كل صخب السخط وعجيج. وأخيراً فإن الرسول المبارك حين استشهد بهذه الآية قائلاً: "اغضبوا ولا تخطئوا" أضاف إليها: "لا تغرب الشمس على غيظكم، ولا تُعطوا إبليس مكاناً" (أف ٢٦:٤). فإن كان من الخطر أن تغرب شمس البرّ على غيظنا، وإذا كنا حينما نغضب نُعطى مكاناً لإبليس في قلوبنا، فكيف إذن يطلب إلينا أن نغضب قائلاً: "اغضبوا ولا تخطئوا"؟ أليس من الواضح أنه يعني "اغضبوا على سقطاتكم وحدة طباعكم"؟ لئلا إذا استسلمتم لها يشرع المسيح شمس البرّ في الغروب عن عقولكم المظلمة، وحين ينصرف عنكم تصبح قلوبكم مرتعاً لإبليس؟^٢

القديس يوحنا كاسيان

❖ سأل أخ أنبا بيمين قائلاً: "ما معنى عبارة "إن غضب أحد على أخيه باطلاً" (مت ٥: ٢٢)؟

فأجابه: "إن استخدم معك أخوك الظلم والإساءة والاحتيال، فغضبت بسببه، فغضبك هذا يكون باطلاً، لأنك غضبت لأجل أشياء بباطلة. وإن مزق عينك اليمنى أو قطع يدك اليمنى فغضبت معه، يكون غضبك أيضاً باطلاً، ولكن إن أراد أن يبعدك عن الله، فحينئذ إن غضبت يكون ذلك شيئاً حسناً.

بستان الرهبان

^١ Cassian: De institutis caenoboum, 8:7.

^٢ Cassian: De institutis caenoboum, 8:9.

حول موضوع الغضب

لا تشك، بل سامح!

العالم وكل رجال المجتمع بل والبشر عامة لا يستسيغون شكوى الإنسان ضد أخيه، فيحاولون أن يوفقوا فيما بينهما، ناظرين أنه لا يليق بإنسان أن يشكو أخاه إلا فيما يحسبه خطيئاً ومضراً للغاية، متنازلاً عن حقوقه البسيطة من أجل المحبة والوفاق. فكم يليق بالإنسان الذي امتلأ قلبه بالله، فأحب الجميع واستتفه كل الأمور المادية البسيطة، حاسباً حبه لأخيه فوق كل مادة؟ كم يليق بمثل هذا أن يتنازل عما قد يظنه حقاً له؟!!

يخجل المؤمن أن يطالب مديناً محتاجاً بدين اقترضه، أما المدين المستغل، المحب للسلب والنهب، فمحتاج إلى إنسان حكيم يعلمه كيف يترك الظلم ومحبة المقتنيات قبل أن يطالبه برد الدين. على كلٍ يجب علينا أن نضع ربحنا لأخينا قبل كل شيء.

❖ احتمل أذاك طوعاً، ولا تخاصمه لكي تأخذ ثوبك. وإن أراد أحد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك، فاترك له قميصك أيضاً، وكن متفقاً مع خصمك سريعاً مادمت معه في الطريق. ما الحاجة أن أتكلم بهذا، فإن القضاة الذين هم من خارج يساعدوننا على التنازل... إذ يكررون القول بأنه من الأفضل أن تصطليح خارج المحكمة. (أي أن رجال القضاء أنفسهم يسعون إلى الصلح أولاً بين الفريقين).

لكن يا لقوة الأموال!

لا بل يا لعشقها الرديء!

فإنها تُفسد كل هذه الأمور، وتُصير هذه الأقوال كلها هذياناً وخرافات بسبب الأموال...!

لتعرف لمن وُضعت الشرائع. اسمع ما يقوله بولس الرسول: "إن الناموس لم يُوضع لصديقين، بل للأئمة وللذين لا يخضعون". فإن قيل هذا عن ناموس موسى، فكم يكون الأمر بالنسبة للشرائع الخارجية؟...

فإنك إن ظلمت واحتملت بالحري يكون هذا من سمة الصديق، ولا تكون في حاجة إلى الشرائع الخارجية...

لذلك قال الرسول بولس: "قالاآن فيكم عيب مطلقاً، لأن عندكم محكمات بعضكم مع بعض. لماذا لا تُظلمون بالحري؟ لماذا لا تسلبون بالحري؟" (١ كو ٦: ٧). فالمظلوم يغلب أكثر من الذي لا يحتمل الظلم...

قل لي: من الذي غلب، العدو الحاسد أم الجالس على المزبلة؟! من الذي انهزم، أيوب فاقد الموجودات أم الشيطان الذي انتزعها منه؟!... من الذي غلب، الشيطان الذي ضرب، أم أيوب الذي صارت فيه القروح؟! حقاً أننا نعجب من أيوب الذي لم يستطع أن يضبط الأموال المفقودة ولا يخلص أولاده... ولا أن يشفي جسده، ومع ذلك فهو الغالب! الذي ترك الموجودات، وفقدها كلها، لم يمكنه أن يصون الأموال، لكنه حفظ حسن العبادة باحتراز وحرص... فلو لم يظلمه الشيطان لما غلب تلك الغلبة المشهورة! فلو كان في ظلمنا شيء رديء ما كان يسمح الله به، لأنه لا يأمر بالرديء.. أما تعلمون أنه الإله المحب، الذي لا يريد أن يلقي علينا حزنًا ولا سخرية ولا خسارة، بل بسبب أصدادها أمر بأننا نُظلم؟

❖ ماذا تقول؟ لقد ظلمني الآخرون في ممتلكاتي، وتأمروني بالسكوت؟ أسقطت في المحنة، وتشير عليّ بالاحتمال؟ أن الأمر يصير هيناً لو نظرت إلى السماء وزينتها وتقطنت فيما وعدك الله... محتملاً ظلم الآخرين بحلاوة... تقطن أنك صرت شبيهاً بالجالس هناك على الشاروبيم، لأنه هو أيضاً شتم واحتمل، عيروه ولم يحقد. ضربوه وما انتقم بل كافأ بأضداد ذلك. منعماً على الذين فعلوا به هكذا بإحسانات كثيرة. وأمرنا بأن نكون مقتدين به. افتكرك أنك عرياناً خرجت من بطن أمك، وإلى هناك عرياناً تمضي، أنت والذي ظلمك. أما هو فيمضي وبه جراحات كثيرة مملوءة دوداً... لقد صيرك أشد قوة، فقد جعل ألمه (محبة الفضة) رديئاً، أما ألمك فقد صار طفيفاً، إذ أخذ غذاء الوحش، ونجاك من الاهتمامات والاضطرابات والانزعاج والخوف الدائم. لقد جمع على رأسه أوثاق الشرور، أما أنت فإن قلت أنني أصارع مع الجوع، فإنك تقاسي مع بولس الرسول القائل: "حتى هذه الساعة نجوع ونعطش ونعري". قد تقول أن بولس احتمل هذا لأجل الله، وأنت أيضاً تحتملها لأجل الله، لأنك تعفو

عن ظالمك لأجل الله.

القديس يوحنا الذهبي الفم

لا تظلم أحداً

يخجل الإنسان أن يوصي أخاه المسيحي ألا يظلم أحداً، لأنه إن كان الله يطالبنا بمحبة الأعداء، فكم تكون خطايانا إن ظلمنا إنساناً لم يخطئ في حقنا؟

❖ إن كانت القرابين وكذلك الصلاة والصوم وبقية الفضائل لا تُقبل مع الحق، وإن كان الذي يغضب أخاه باطلاً، والقاتل عليه قولاً رديئاً نصيبه العذاب في جهنم، فكم تكون عقوبة الذين يسيئون إلى إخوانهم، الظالمين إياهم، السالبيين أموالهم، التاركين الاهتمام بمصالحهم؟

❖ أن خفة الأمر تنقل الذنب، لأنه بمقدار ما كان يسهل عليك أن تنتصر على ذاتك، يزداد ذنبك، إذ رفضت الانتصار. "هل عينك شريرة، لأنني صالح؟" هل لأن أخاك ضابط لعنان آلامه، يليق بك أنت أن تلقي عنك رباط الأدب؟

❖ إذا رأيت بيت المسكين سلبه إنسان، أبك لا على المسكين الذي فقد ماله، بل على الذي سلب، لأنه بدلاً من أن يُعطي المسكين صنع شروراً، لأنه أعدم الفقير الحاضرات، بل طرح ذاته من الخبرات التي لا يُنطق بها. لأنه إن كان الذي لا يعطي المساكين يذهب إلى جهنم، فماذا يصيب الذي يأخذ أموالهم؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إذ تعلم الشياطين أن كل من يحب أخاه فهو يحب الله، لذلك يخدعوننا بألف حيلة ومكر، حتى يبغض كل منا الآخر، إلى أن يصبح الواحد منا في حالة لا يريد فيها أن ينظر أخاه أو يكلمه بكلمة واحدة؛ وذلك كله لبغضهم الفضيلة.

القديس أنطونيوس الكبير

تقديم القرابين والغضب

❖ إذ كنا كثيرًا ما نمتن إخواننا الذين نؤذيهم ونحزنهم ونستصغر شأنهم، ونقول إننا لم نضرهم بأي خطأ من جانبنا، فإن شافي النفوس، المطلع على جميع أسرارنا، لرغبته الكاملة في أن يبدد من قلوبنا كل أثر للغضب، لا يوصينا فقط بأن نغفر لمن يسيئون

إلينا، ونصالح إخوتنا، وألا نحتفظ في ذاكرتنا بأية إساءة أو تعديات ارتكبوها ضدنا، إنما يكلفنا أيضًا بأننا إذا شعرنا بأن لهم أي شيء ضدنا، سواء كانوا على حق أو على غير حق، أن نترك قرباننا. بمعنى أن نرجئ صلواتنا ونسارع أولاً لاسترضائهم ومصالحتهم. وعندما يتم علاج هذا الأخ نستطيع عندئذ أن نقدم قربان صلواتنا دون عيب، لأن الرب إله الجميع لا يعنيه كثيرًا قرباننا قدر ما يعنيه فقده شخص ما، بسبب تركنا للسخط يتحكم فينا. لأن خسارة أي إنسان يصيب الله، إذ هو يريد ويبحث عن خلاص جميع خدامه بخط واحد لا يتغير^١.

القديس يوحنا كاسيان

الإساءة إلى الغير ولو بنظرة

❖ قد يظن إنسان أنه لا يرد الشر بالشر بالعمل، لكنه في الحقيقة يرده بكلمة أو عبارة أو إشارة أو نظرة. فإن هذه كلها قادرة على الإساءة إلى الغير، وبالتالي يكون فيها ردًا على الشر بالشر. وآخر لا يحاول أن ينتقم بالفعل أو بكلمة أو عبارة أو إيماءة، ولكنه يحتفظ في قلبه بالحق ضد أخيه، وفيه مرارة ضده.

وآخر ربما لا يحمل مرارة (في نفسه) ضد أخيه، لكنه إن سمع آخر يسبه أو ينتقده أو يقلل من شأنه، فإنه يبتهج لذلك، وهكذا يرد الشر بالشر في قلبه. وآخر لا يغذي حقًا في قلبه، ولا يبتهج بسماع كلمة تحقير لمن أساء إليه، بل قد يتألم لشتمه، ولكنه لا يفرح بنجاحه. مثال ذلك: يتضايق إذا مدحه آخر أو أعطاه كرامة. هذا أيضًا نوع من الحق، ولو أنه أقلهم خطورة^٢!

الأب دوروثيوس

نسيان خطأ الغير مؤقتًا

❖ يحدث أحيانًا أنه إن أساء أحد إلى آخر، فإنهما ينحنيان الواحد للآخر ويصطلحان. وهكذا يعيش كل منهما في سلام مع من أساء إليه ولا تكون في قلبه أفكار ضده. ولكن يحدث بعد مضي بعض الوقت أن يقول هذا المسيء شيئًا ضارًا بأخيه. فبدأ الآخر يتذكر له الإساءة الأولى، فلا يضطرب بسبب الإساءة الثانية فقط، بل وبسبب الأولى

^١ Cassian: De institutis caenoboum, 8.

^٢ توجيهات بخصوص التداريب الروحية، ٥٤.

أيضًا.

مثل هذا الإنسان يشبه شخصًا قد غطى جرحه بقطعة من "اللزقة". ومع أن الجرح قد التأم، لكن موضعه لأزال حساسًا. ولذلك إن رمى أحد حجرًا عليه فإن هذا الموضع يكون أكثر أعضاء الجسد تعرضًا للإيذاء، وللحال يبدأ يدمي... هذا يعني أن الجرح قد غُطي، لكنه لم يُشفَ بالتمام. إنه لا يزال يوجد أثر للحقد، بسببه يفتح الجرح بسهولة إذا ارتطم بأقل شيء!^١

الأب دوروثيوس

لا تبدأ المساء وأنت غضوب!

❖ يقدر الكثيرون منا أن يسكنوا غضبهم أثناء النهار، ويتغلبوا عليه، أما في الليل، فالمرء عند إنفراده، يرخي العنان لأفكاره، إذ يشتد هياج الأمواج وتتور الزوبعة بعنفٍ عظيم. فلكي نتلافى ذلك يطلب منا بولس الرسول أن نستقبل الليل مسالمين لكي لا يغتتم الشيطان فرصة إنفرادنا فيشعل فينا نار الغضب.^٢

القديس يوحنا الذهبي الفم

^١ توجيهات بخصوص التداريب الروحية، ٥٥.

^٢ المطران ابيفانيوس: الأمالي الذهبية في مقالات لأبينا الجليل في القديسين يوحنا الذهبي الفم، ١٩٧٢، ص ١٣٩، ١٤٠.

غضب الله

لا يحمل الله انفعالات بشرية

يبرر البعض غضبهم بما ورد في الكتاب المقدس أن الله نفسه "يغضب"، وهم يخطئون إذ يفسرون مثل تلك العبارات حرفيًا، بينما لا يحمل الله انفعالات بشرية، إذ هو "حب"!

❖ لقد سمعنا البعض يحاولون تبرير هذا المرض البالغ الضرر الذي يلحق بالنفس، ملتجئين إلى طريقة منقّرة في تفسير الكتاب المقدس لهذا التبرير، كقولهم بأنه ليس من الضرر في شيء أن نغضب على إخوتنا الذين يخطئون، مادام الله ذاته، على حد قولهم، قد ذكر عنه أنه يسخط ويغضب على أولئك الذين لم يعرفوه أو عرفوه ثم رفضوه، وفقًا للنص: "فحمي غضب الرب على شعبه، وكره ميراثه"، أو وفقًا لكلمات النبي وهو يصلي، قائلاً: "يا رب لا توبخني بغضبك، ولا تؤدبني بغضبك" (مز ٦: ١)، غير مدركين أنهم إذ يريدون تلمس الأعذار لارتكاب خطية بالغة الأذية، ينسبون إلى العزة الإلهية ومصدر كل نقاء إحدى وصمات الانفعال البشري. لأن هذه الأشياء التي نُقال عن الله.

فإذا فُسرت حرفيًا بصورة مادية يمكننا القول أيضًا أنه ينام، وفقًا للنص: "استيقظ يا رب لماذا تتغافى؟" (مز ٤٤: ٢٣)، مع أنه قيل عنه في مكان آخر: "إنه لا ينعس ولا ينام حافظ إسرائيل" (مز ١٢١: ٤). وأنه يقف ويجلس، إذ يقول: "السموات كرسي والأرض موطئ قدمي" (إش ٦٦: ١)، مع أنه "كال بكفه المياه وقاس السماوات بالشبر". وهو "معيط من الخمر" حسب قوله "واستيقظ الرب كنائم، كجبار معيط من الخمر" (مز ٦٥: ٧٨)، في حين أنه هو "الذي وحده له عدم الموت، ساكنًا في نور لا يُدنى منه" (١ تي ١٦: ٦). ولا داعي لذكر "الجهل" و"النسيان" اللذين كثيرًا ما يرد ذكرهما في الكتاب المقدس.

وأخيرًا وصف أعضاء الجسد التي نُسبت إليه كما لو كان إنسانًا، كالشعر والرأس والأنف والعينين والوجه واليدين والذراعين والأصابع والبطن والقدمين. إذا عمدنا إلى

أخذها جميعًا وفق معناها الحرفي العادي، يلزمنا أن نفكر في الله بما يتفق مع صورة الأعضاء وشكل الجسم، وهذا أمر بشع حقًا حتى مجرد الكلام عنه، ويتحتم أن نستبعده تمامًا عن أفكارنا...

حين نقرأ عن غضب الرب وسخطه، ينبغي ألا نفهم اللفظ وفق معنى العاطفة البشرية غير الكريمة. إنما بمعنى يليق بالله، المنزه عن كل انفعالٍ أو شائبة. ومن ثم ينبغي أن ندرك من هذا أنه الديان والمنتقم عن كل الأمور الظالمة التي ترتكب في هذا العالم.

وبمنطق هذه المصطلحات ومعناها ينبغي أن نخشاه بكونه المخوف المجازي عن أعمالنا، وإن نخشى عمل أي شيء ضد إرادته. لأن الطبيعة البشرية قد ألفت أن تخشى أولئك الذين تعرف أنهم ساخطون، وتفزع من الإساءة إليهم، كما هو الحال مع بعض القضاة البالغين ذروة العدالة.

فالغضب المنتقم يخشاه عادة أولئك الذين يعذبهم اتهام ضمائرهم لهم، بالطبع ليس لوجود هذه النزعة في عقول هؤلاء الذين سيلتزمون بالإنصاف في أحكامهم. لكن بينما هم في غمرة من هذا الخوف، فإن ميول القاضي نحوهم تتسم بالعدالة وعدم التحيز واحترام القانون الذي ينفذه. وهذا مهما سلك بالرفق واللطف، موصوم بأقسى نعوت السخط والغضب الشديد من أولئك الذين عوقبوا بحق وإنصاف^١.

القديس يوحنا كاسيان

نحن نلقي بأنفسنا تحت العدالة

❖ لاحظوا دقة التعبير: "تذخر لنفسك غضبًا" (رو ٢: ٥)، موضحًا أن الدينونة لا تصدر عن الديان، إنما هي نتيجة لعمل الخاطي، إذ لا يقول: "يذخر الله لك" وإنما "تذخر نفسك"... إنه يحاول اجتذابك بكل وسيلة، فإن ظللت على عنادك تذخر لنفسك غضبًا في يوم الغضب، واستعلان دينونة الله العادلة. ولكن لا يتبادر إلى ذهنك أن غضبه انفعال عنيف إنما هو العدالة، هو "استعلان"، حيث ينال كل إنسان ما يستحقه^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

^١ Cassian: De institutis caenoboum, 8:2-4.

^٢ In Rom. hom 5.

الله يغضب لكي يرحم بغضبه الإنسان

❖ تطلع الاستعلان من الله على (يونان) النبي، ليذهب يرد الشعوب الأممية إلى التوبة.

أرسله إلى نينوى ليدعو بانقلاب خيراتها، لكي بتهديدها تبطل الشرور.

قال له: قم، أمضي، وأكرز هناك لأهل نينوى، وتكلم في آذانهم بالكرازة التي أقولها

لك...

لو أراد الله أن يضرب نينوى بسبب كثرة آثامها، لما أرسل إليها لتبتعد عن

الشرور.

لو وضع وجهه ليؤذيها حقيقة، لأرسل الغضب بغتة وضربها.

أرسل إليها لكي تشعر بالموقف، وتطلب المراحم لتخلصها.

رفع يده ليضرب ويهلك النائمة، ودعاها وأيقظها حتى لا تُلطم في نومها...

استيقظت الغيرة على العدالة ضد الشقية، وأرسل إليها بالنعمة لتستيقظ بالتوبة.

خرج الغضب على المدينة ليهلكها، وتقدم الحنان وغلق الأبواب ولم يدخله.

لولا وجود هذه المراحم، ما الحاجة أن يُرسل الكارز.

أرسله إلى المكان ليرده من الشرور، وبالتوبة يكون له راحة، ولا يحل الفساد...

لما عرفوا أن الغضب حال من العلي هربوا منه واستمروا بالتوبة...

جاهدوا بصفوف الصوم ضد الغضب، ولبسوا المسوح ليدخلوا الحرب التي ثارت

ضدهم. أقاموا جانب البُز بصومهم، ولبس الكبير والصغير الآلام بسبب الرعب... سأله

الملك فلم يداهنه. طلب منه فلم يهدأ من تهديداته.

يا عبد الرب تكلم معنا بمسرة فنتعلم منك إن كانت هناك وسيلة فنُشفى من آلامنا.

بماذا يرضي سيدك الغاضب كما تقول؟ إن أمكن اسأل معنا من أجل الغضب،

وعن الأسباب التي أعدت الحربة لتهديدنا. عملنا بأية وسيلة يبطل الغضب عنا...

أدرك (الملك) إن هذه المعركة ليست كالمعارك المعتادة، فجمع شعبه وحثهم على

الجهاد. جمع جنوده وصفهم للطلبة، وموّن صفوف الجنود بالصلوات ليسّج الأبواب.

جعل الرجال والنساء والأطفال يمسون بالصوم، كل واحد حسب قوته ليصطفوا للقتال

مقابل الغضب...

صوم عظيم يبطل الغضب العظيم! كل الشعب يلبسون المسوح، هم وبهائمهم...

بالطلبة الكثيرة يستريح رب الديون. الرماد هو الغنى، هذا يليق بالملك ليتزين به.

البكاء هو الذهب، به تُمحي جميع الصكوك...

قم أيها النشيط من الطلبة وافرح معنا.

أيها الحكيم غيّر مسوحك، لأن الغضب قد بطل.

قم من الرماد لأن الرب ارتضى بتقربنا إليه. اختتم طلبتك، لأن المدينة تغطت بالمراحم.

القديس مار يعقوب السروجي

مقومات المحبة الأخوية

ثانياً:

عدم الحسد

- ١ . عدم الحسد.
- ٢ . خطورة الحسد.
- ٣ . علاج الحسد.
- ٤ . لا تحسد، فإن نصيبك لن يقل!
- ٥ . الغيرة والحسد.

عدم الحسد

❖ قبل كل شيء يليق بالإنسان الذي وُضع عليه
النير أن يكون ثابتًا في إيمانه... ليطرد عنه
الحسد والغضب، وينزع الشفاه المخادعة^١.
القديس أفراهاط الحكيم الفارسي

المحبة... لا تحسد (١ كو ١٣: ٤)

المحبة هي إنكار للنفس أو إماتة للذات ليحل الله مكانها كما على عرشه. فالمحبة
لا تطلب ما لنفسها، بل ما هو للآخرين. فمن يحب يفرح ويُسر لنمو الآخرين روحيًا
وجسديًا، ويشتاق لو أُعطي له أن يتخلّى عن كل ما اكتسبه من بركات أرضية وسماوية
لأجل إخوته. فيوناثان لما أحب داود (١ مل ١٨: ١) كان يشتهي أن يرى إكليل أبيه على
رأس داود أكثر ممّا يشتهي أن يراه على رأسه، إذ قال له: "أنت تملك على إسرائيل، وأنا
أكون معك ثانيًا" (١ مل ٢٣: ١٧). والأم إذ تحب أولادها تشعر أن نجاحهم وحصولهم
على شهادات دراسية هو نجاح لها شخصيًا.

❖ لماذا المحبة لا تحسد، ذلك لأنها لا تتفخ، فحيث يوجد الكبرياء يتبعه الحسد، لأن
الكبرياء هو والد الحسد^٢.

القديس أغسطينوس

❖ "لا تحسد". إذ يمكن للإنسان أن يتأنى ويحسد في نفس الوقت فيُفسد سمو التاني، أما
المحبة فتمنع حدوث هذا^٣.

الشهيد كبريانوس

لماذا دخل الحسد إلى العالم؟

^١ Demonstrations, 6:8 (Of Monks).

^٢ Letter to Honoratus, 22.

^٣ In 1 Corinth., hom , 33:1.

كثيرون، بل ربما الجميع، يشعرون أحياناً بنقل أفكار الحسد في داخلهم رغم تأكدهم تماماً من الشرور التي يجلبها الحاسد على نفسه، وعجزه عن إضرار المحسود. لعل سرّ العجز في التخلص منه هو عدم معرفة أسباب دخوله فينا. لما سقط الشيطان شعر بالفراغ يملأ قلبه، وإذ لم يستطع إشباعه من الله بدأ يحسد الشبايعي (بالله). وسقط آدم وذريته وصارت القلوب فارغة تريد أن تشبع! فإن لجأت النفس إلى يسوع المسيح مصدر شبعها امتلأت، وأحببت الكل، واشتقت لو أخذت آخر صفوف البشر في هذا العالم والعالم الآتي.

ففي هذا العالم، مهما اشتاقت أن تتراجع خلف البشرية، فستجد ربنا يسوع المسيح محتلاً آخر صف، ليس له أين يسند رأسه، مبصوفاً على وجهه، مطروداً، مجدّفاً عليه، مصلوباً كاحقر لص.

وإن أردت أن تتراجع إلى الوراء طالبة خلاص إخوتها أولاً، تجد موسى يسبقها قائلاً: "والآن إن غفرت خطيئتهم، وإلاً فامحني من كتابك" (خر ٣٢: ٣٢)، وبولس قائلاً: "فإني كنت أود لو أكون أنا نفسي محروماً من المسيح لأجل إخوتي" (رو ٩: ٣). أما إن بحثت عن ينبوع آخر من ينابيع العالم ازداد ظمأها أكثر، فإن طلبت أمجاد العالم وممتلكاته تحسد كل من يملك أو ينال أكثر منها، بل وتحسد من هم أقل منها، لأن النفس العطشى تطلب كل العالم لعله يُشبعها.

ولا تقف خطورة الحسد عند هذا الحد، بل يتغلغل أكثر بين المؤمنين وأكثر جدّاً بين الرعاة. والسبب في ذلك أن المؤمن يخطئ فهم المسيحية، فيظن أن الصوم في ذاته أو مجرد الصلاة في ذاتها أو الطقس في ذاته... يستطيع أن يشبع نفسه. فيقف في سباق مع الآخرين لا نحو الشبع من يسوع بل نحو الشبع من وسائل النعمة في ذاتها، أو حتى في الفضائل ذاتها. فليس في حياة المؤمن هدف آخر غير لقائه هو وإخوته مع يسوع. قد يرغب الإنسان في إشباع نفسه، لا من ربنا يسوع، ولا من الفضيلة، بل من مديح الناس، فيصوم ويصلي ويدرس ويتأمل ويعظ ويخدم، لأجد الناس! فأمثال هؤلاء يدخل الحسد إلى قلوبهم.

نوجز القول بأن الحسد يدخل قلب إنسان لم يذق حقيقة الخلاص، ولا تأمل في السمائيات، ولا ارتفع عن تفاهات الأرضيات. لهذا يليق بالمؤمن أن يبحث عن خلاص نفسه مع إخوته، فيهرب منه حب العالم، ويتبدد قدامه المجد الباطل، فلا يكون للحسد فيه

مكان. ما تحسده عليه، سواء من أجل مديح الناس له أو دخوله في صداقات مع الأغنياء والعظماء هو علة مرارة خفية في أعماقه، تدفعه ليعيش في عبودية قاسية لمحبة المجد الباطل ونظرة الأغنياء إليه، فلا يعيش في حرية حقيقية.

❖ الحسد أمر مخيف، يقود الناس نحو الازدراء بخلاص نفوسهم. فقاين والشيطان الذي أسقط والده (آدم)، كلاهما دمرا نفسيهما بالحسد. كذلك شاول سمح للشيطان أن يدخله ليقف ضد نفسه، وعندما دخله حسد طبيبه داود. لأن هذه هي طبيعة الحسد، فإنه قد عرف شاول أن داود قد خلصه، ومع ذلك أراد أن يهلك نفسه ولا يرى من أنقذه في كرامة. أي شيء محزن أكثر من هذا الألم؟ لا نخطئ إن قلنا إن الحسد من ذرية الشيطان.

فالحسد يثمر المجد الباطل، بل بالحري هو جذوره أيضًا، لأن كليهما قد اعتادا أن يُنتج أحدهما الآخر. وهذا بالحقيقة ما حمل شاول على الحسد، عندما قالوا: "ضرب شاول أُلوفه، وداود ربواته" (١ صم ١٨: ٧).

❖ لماذا تحسد؟ أخبرني! لأن قد مدحه آخرون. لكن كان يجب عليك أن تفرح. ومع هذا من أعلمك أن مدحهم هذا حقيقي؟ فهل نحزن لئلا يكون قد مُدح بالرغم من كونه غير مستحق للإعجاب؟! فلتشفق عليه.

فإن كان هذا الشخص صالحًا، ليس من حَقك أن تحسده إن مُدح، بل تنضم إلى صفوف المادحين له. وإن لم يكن الأمر، كذلك فلماذا تتمرر؟ لماذا تبرز سيفك على نفسك؟ هل لأنك تطلب إعجاب الناس بك؟ ولكن الذين يعيشون اليوم لا يُوجدون غداً. هل لأنك تُسر بالمجد؟! أخبرني أي مجد تريد؟ ذلك المجد الذي يقول عنه النبي "زهر العشب" (إش ٤٠: ٦).

هل تحسد الآخرين لأنك لا تحمل أي ثقل أو حمل من العشب؟ يبدو أنك مستعد أن تحسدكهم لأجل هذا. فلماذا لا تحسد الحطاب الذي يحمل الحطب كل يوم إلى المدينة؟ فإن ذاك الحمل (المجد) ليس أفضل من هذا الحمل (الحطب)، بل بالحري أردأ منه. فحمل الحطب في الحقيقة مؤلم بالنسبة للجسد، أما حمل المجد فغالبًا ما يضر النفس ويسبب انزعاجًا أكثر من السرور...

إنك تحسد (أخاك) لأنه في صداقةٍ مع السلاطين (العظماء). لكن هذا الأمر فيه خطر وحسد... لأن ما تشعر أنت به من نحوه، يشعر به الآخرون أيضًا من نحوه.

إنك تحسده لأنه دائماً ممدوح، وهذا يسبب له مرارة، لأنه لا يتجاسر أن يصنع شيئاً مما ينبغي عليه أن يفعله لصالحه، لئلا يتعارض مع من يمجّدونه، فإن هذا الامتياز هو عبودية قاسية بالنسبة له، فيقدر ما يعرفه الكثيرون يصير له سادة كثيرون...

فقد تطغي عليه بعض الأمور التي تبدو ضرورية حتى لا تجعله يتجاسر بالوقوف في الميدان ما لم يحط به خدمه، ويكون مع فرسه، ويصطف أمامه بقية أتباعه. يفعل كل هذا لئلا يزدري به سادته.

وإن رأى بعض أصدقائه الحقيقيين، لا يتجاسر على مخاطبتهم على قدم المساواة، لأنه يخشى من سادته لئلا يقللوا من تمجيده. فيقدر ما يزداد تمجيده يزداد استعباده.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ توجد أمور كثيرة ينبغي أن تأخذها في الاعتبار. فكّر في الفردوس الذي لم يدخله قايين، الذي بالحسد قتل أخاه.

فكر في ملكوت السماوات الذي لا يسمح الله بدخوله إلا لذوي القلب الواحد والفكر الواحد.

اذكر أن صانعي السلام يدعون أبناء الله، هؤلاء الذين بالميلاد السماوي والشرعية الإلهية قد صاروا واحداً وصاروا شبه الله...

اعلم أن عين الله تراقبنا، وأن الله نفسه بنظراته متتبع تصرفاتنا وحياتنا ويحكم، حتى أننا في النهاية نستطيع أن ننال التمتع به. فإن أبهجنا الذي يرانا بأعمالنا الآن، إن أظهرنا له أننا نستحق رضاه ولطفه... إن جعلناه يُسر بنا ونحن في العالم، فإنه سيُسر بنا دائماً في ملكوته.

الشهيد كبريانوس

❖ لا يعتبر الحسود الكوارث التي تحل به محنة، بل المحنة عنده هو الخير الذي يحل على غيره، وبالعكس النجاح ليس هو أن يكون سعيداً، بل أن تحل المحن بغيره. يحزن الحاسد لرؤية الأعمال الطيبة للناس، ويسر بالكوارث التي تحل بهم. ويقال أن الجوارح التي تلتهم الجثث الميتة تقضي عليها الرائحة الطيبة (العطر)، فإن طبيعتها تتفق مع ما هو شرير وفاسد. وأي شخص يقع تحت سيطرة هذا المرض (الحسد) تقضي عليه سعادة أقربائه وجيرانه، ولكنه إذا رأى تجربة شريرة يطير إليها ويضع منقاره المعوج فيها

ويخرج الكوارث المخفية^١.

القديس غريغوريوس النيسي

عدم الحسد ثروة لا تُسلب

❖ عندما تفكر في الله كن ورعًا، متحررًا من الحسد، صالحًا، عفيفًا، وديعًا، سخيًا قدر المستطاع، صديقًا، غير مجادلٍ، وما أشبه ذلك. فإنك إذ ترضي الله بهذا كله إنما يكون لنفسك ثروة لا تُسلب^٢.

القديس أنطونيوس الكبير

تجارب الأفكار والحسد

❖ تجرب بعض الشياطين النجسة الإنسان كإنسانٍ، وبعضها كحيوانٍ أبكم. النوع الأول (من التجارب) يبث فينا أفكار المجد الباطل أو الكبرياء أو الحسد أو الدينونة، هذه التي لا تصيب أي حيوان أبكم. أما النوع الثاني فيثير فينا الغضب والشهوة، وهذه الأمور نشترك فيها مع الحيوانات غير الناطقة، وهي مخيفة، تحط من الطبيعة العاقلة^٣.

القديس أوغريس

احذر حسد الشيطان!

❖ أقام (الله الإنسان) سيدًا تخافه جميع الخليقة، وبدأت تتحني وتسجد قدامه بأشكالها. وضع له حدودًا أن لا يرتفع بالعظمة، وحذره كثيرًا بوصية عدم الافتخار. حسده الغاش زرع فيه زرعًا مملوء موتًا، إذ بدأ يظن أن المجد من عنده. ظن أن مجده من ذاته وليس من آخر^٤.

القديس مار يعقوب السروجي

❖ إن كانت قطعة خشب منحوتة على صورة ملك تنال شرفًا فكم بالحري صورة الله العاقلة!؟

^١ The Life of Moses: 2:258, translated by Magdy Fahim Hanna.

^٢ الفيلوكاليا، ج ١، ١٩٣٣، تعريب القمص تادرس يعقوب ملطي، ص ١٦٩.

^٣ الفيلوكاليا، ج ١، ١٩٣٣، تعريب القمص تادرس يعقوب ملطي، ص ٣٧.

^٤ ميمر "على العظمة" يُقرأ يوم الأربعاء من الأسبوع الثاني من الصوم الكبير.

لكن إذ وضع هذا المخلوق العظيم في الفردوس سرعان ما طرده حسد إبليس.
ابتهج العدو بسقوطه فهل يتركه العدو مستمرًا في بهجته؟!^١
القديس كيرلس الأورشليمي

^١ Catech. Lectures 12.

خطورة الحسد

١. استهتارنا به

الحسد شرارة صغيرة، يحتقرها الكثيرون، لذلك خسائره فادحة. أو هو جرح مخفي يزدري به الإنسان، فيفسد الجسم كله. لذلك ينبهنا سليمان الحكيم قائلاً: "حياة الجسد هدوء القلب، ونخز العظام الحسد" (أم ١٤: ٣٠).

❖ أيها الأخ المحبوب إن حسدك لما هو خير، وغيرتك ممن هم أفضل منك، يدوان في نظر البعض كما لو كانا خطأ تافهًا وطفيفًا. وإذ يُنظر إليه (الحسد) كما لو كانا تافهًا وليس بذئ قيمة لا يُخشى منه... فيُستهان به. وإذ يُستهان به يصعب تحاشيه. ولهذا فإن الحسد ضرر مظلم وخفي. فإذ لا ندرك أنه ينبغي على الحكيم أن يتحاشاه، يتسرب خفية إلى العقل غير الحذر ويجعله مضطربًا.

أضف إلى هذا أن الرب أمرنا أن نكون حكماء، وأوصانا أن نلاحظ باهتمام بالغ لئلا يتسرب ذلك العدو، الذي يقف مترصًا دائمًا، فيزحف خفية إلى صدورنا، ويشعل من الشرارات لهيبها، ويضخم الأمور الصغيرة.

هكذا بينما نستنشق الهواء اللطيف والنسيم الناعم بلا حذر، إذ بالعواصف والزواج تهب، فتعمل على إفساد الإيمان، وتدمير الخلاص والحياة.

لهذا ينبغي علينا أيها الأخ الحبيب، أن نكون حذرين متسلحين بكل القوى، مراقبين بدقة كاملة، حتى نطرد العدو الثائر الذي يصبو أسهمه إلى كل جزء من أجزاء جسدنا الذي يمكن أن يُضرب أو يُجرح، وذلك كما يحذرنا الرسول بطرس، ويعلمنا في رسالته قائلاً: "اصحوا واسهروا، لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتصقًا من يبتلعه هو" (١ بط ٥: ٨).

❖ لو نظر أي إنسان بدقة إلى (سهام الحسد)، فسيجد بأنه لا يوجد ما ينبغي أن يُحذر منه ويراعيه أكثر من أن يُؤخذ أسيرًا بواسطة الحسد والحق.

فليس أحد يسقط في الإشراف الخفية للعدو الخبيث بحيث يرتد من الحسد إلى الكراهية إلا ويهلك بسيفه هو شخصيًا دون أن يعلم.

❖ يكون الضرر تافهًا والخطر بسيطًا عندما تُجرح الأطراف بسيفٍ، فيكون الشفاء هيئًا مادام الجرح واضحًا ويُستخدم الدواء. فالقرحة التي تُرى يُمكن علاجها بسهولة. أما جراحات الحاسدين فهي خفية وسرية، ولا تقبل علاجًا لشفائها، فتغلق على نفسها آلامًا مخفية داخل مكامن الضمير.

الشهيد كبريانوس

٢. أسقط الملائكة

❖ منذ بداية العالم كان الشيطان هو أول من أهلك نفسه ودمّر الآخرين. لقد انكسر بالغيرة مع الحسد المملوء ضغينة ذاك الذي كان في العظمة الملائكية، مقبولاً أمام الله ومحبوباً عنده.

إنه لم يرشق الآخرين بغريزة الغيرة قبل أن يرشق نفسه بها، ولا بالأسر قبل أن يُؤسر، ولا بالدمار قبل أن يهلك. وفي إغرائه بالغيرة، أفقد الإنسان نعمة الخلود الموهوبة له، وهو نفسه فقد تلك التي كانت له سابقًا.

يا لها من شرور عظيمة أيها الإخوة الأحباء، فقد أسقط الحسد الملاك، وأزال مجداً عظيماً وبهيماً، فذاك الذي خدع به الآخرين هو نفسه خُدع به.

الشهيد كبريانوس

٣. يجعلك تعادي الله

❖ أخبرني أيها الحاسد: لماذا تحسد أخاك؟ هل لحصوله على بركات أرضية؟ فمن أين حصل عليها؟ أليست من الله؟ فمن الواضح إذن أن بحسدك تجعل الله موضوع العداوة، فتخطئ في حقه لأنه واهب العطية. انظر أي شر ترتكبه، وكيف تجمع لنفسك إكليلاً من الخطايا؟ وأية حفرة للانتقام تحفرها لنفسك؟

❖ اعتاد بعض اليهود الحاقدين أن يحسدوا أقرباءهم علي البركات التي تُوهب لهم. محاولين إيجاد خطأ يوجهونه ضد السيد المسيح في صنعه للمعجزات. فأحياناً من جهة الزمن (أنه كاسر للسبت) وأحياناً من جهة سلوك من تصنع معهم المعجزة. لو كان هذا نبياً لعلم من هذه المرأة التي لمستته، وما هي (إنها خاطئة) (لو ٧: ٣٩)، غير عارفين أن هذه هي علامة الطبيب أنه يضم الضعفاء ويراعي المرضى دون أن يجتنبهم أو يهرب منهم. وهذا ما عبّر عنه بقوله للمتذمرين: "لا يحتاج الأصحاء إلى

طبيب بل المرضي" (مت ١٢:٩).

القديس يوحنا الذهبي الفم

٤. يجعلك تعادي الكرازة بالإنجيل

❖ دعني أريك شاهدًا آخر لقوة الإنجيل الرائعة والمدهشة. سأتبث لك كيف أنها تزداد وتزدهر حتى وهي مُهاجمة. البعض بشروا بهذا الإنجيل في روما بينما كان بولس مضطهدًا. راغبين في زيادة عداوة نيرون لبولس لذلك فقد قاموا بكراسة الإنجيل حتى أنه مع انتشاره وزيادة أتباعه يستحث غضب الطاغية وتزداد شراسته. بولس أخبر أهل فيليبي بهذا: "ثم أريد أن تعلموا أيها الإخوة أن أموري قد آلت أكثر إلى تقدم الإنجيل حتى أن وثقتي صارت ظاهرة في المسيح في كل دار الولاية وفي باقي الأماكن أجمع وأكثر الأخوة وهم واثقون في الرب بوثقي يجترئون أكثر على التكلم بالكلمة بلا خوف. أما قوم ففي حسد وخصام يكرزون بالمسيح أما قوم فعن حق. فهؤلاء عن تحزب ينادون بالمسيح لا عن إخلاص، طانين أنهم يضيفون إلي ضيقًا، وأولئك عن محبة عالمين أني موضوع لحماية الإنجيل. فماذا غير أنه على كل وجه سواء كان بعله أم بحق ينادى بالمسيح" (في ١٢:١ - ١٨). أنك ترى كم أن كثيرون قد بشروا عن خصام لكن رغم ذلك انتصر الحق خلال الله على أعدائه^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

٥. ينزع السلام الداخلي

❖ إن كان في الحسد معاداة لله ذاته، فكيف يمكن للسلام أن يسكن في القلب؟! لا توجد خطية تعزل الإنسان عن الله والناس مثل الحسد، لأن هذا المرض أشد خبثًا من محبة الفضة. لأن محب الفضة يفرح متى ربح شيئًا، أما الحاسد فيفرح متى خسر أحد شيئًا أو ضاع تعبهُ سُدى، ويحسب خسائر الآخرين ربحًا له أكثر من أي نجاح. فأأي شر أعظم من هذا؟ يتورط الزاني في الخطأ لأجل لذة مؤقتة، والسارق قد تكون له حجة الفقر، ولكن أي عذر تقدمه أيها الحاسد؟ يحصل الزاني على لذة زمنية أثناء ارتكابه الخطية، ثم يعود فيرفضها، فيتوب

^١ في مديح القديس بولس، ٩.

ويخلص، أما الحاسد فيُعَذِّب نفسه ولو لم يحدث له ضرر ممن يحسده. فلهذا خطية الحسد أشر الخطايا وأشنعها، لأن الحاسد لا يمكنه مغادرة خطيته، بل يصير كالخنزير المتمرغ في الحمأة، ويماثل بفعله الشيطان...

لهذا أقول لكم أنه ولو كان أحدكم يصنع معجزات، أو يحفظ البتولية، أو يكون صوامًا، أو باسطاً كفِّه في الرحمة، أو ينام على الحضيض، أو يصل بهذه الوسائط إلى فضيلة الملائكة؛ ولكن فيه آلام الحسد، فلا محالة يكون أشر من جميع الخطاة، وأردأ منهم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ مثل هؤلاء لا يهنأون بطعامٍ أو يتمتعون بشرابٍ. إنهم على الدوام يتأوهون ويتهدّون ويحزنون، فطالما لا يُطرد الحسد تتمزق قلوبهم نهائاً وليلاً بلا انقطاع. كل الشرور لها حدود، وكل خطأ ينتهي بارتكاب الجريمة. فالزاني تنتهي معصيته عند حد ارتكاب التعدي، واللص تقف جريمته عندما يقتل، والسالب يضع حداً لجشعه، والمخادع يضع نهاية لغشّه، أما الحسد فليست له حدود. إنه شر يعمل على الدوام، وخطية ليس لها نهاية.

الشهيد كبريانوس

❖ أشر ما في الحسد أنه داء يُطوى في الكتمان. ترى الحسود خافض البصر، كالح الوجه، يشتكى باستمرار من عذاب داخلي مما يذبل وجهه ويضني جسده، فيهزل ويضعف. فهو يستحي أن يقول: "إني حسود، اشعر بالمرارة والحزن للخير الذي حصل عليه إنسان غيري، وإني أتعذب لسعادة أصدقائي، ولا أطيق نجاح أترابي. إني أرى أن سعادة الآخرين سيف يمزق أحشائي ويطعنني في الصميم". هذا ما كان يجب أن يبوح به الحاسد. لكنه يفضل أن يحفظه في قلبه ويصمت، وهكذا يبقى الداء في ذاته، فيضنيه العذاب، ويفنى جسمه قليلاً قليلاً^١.

القديس باسيليوس الكبير

^١ راجع الأب الياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣٠٧. عظة ١١.

٦. الحسد ينزع سلام الجماعة

بالحسد يأخذ الإنسان موقفًا عدائيًا من قِبَل الله ذاته، وبالتالي يستحيل أن يستقر السلام في قلبه. وبناء عليه لا يمكن أن يوجد السلام في جماعة تُسَرِّب إليها داء الحسد. وقد عرض القديس إكليمنضس السكندري أمثلة لعمل الحسد وسط الجماعات فقال:

❖ انظروا يا إخوتي كيف أن الحسد والغيرة قد أفضيا بصاحبهما إلى قتل أخيه (قايين وهابيل).

وبسببه هرب أبونا يعقوب من وجه عيسو أخيه (تك ٢٧: ٤١).

الحسد علة ما أصاب يوسف من الاضطهاد حتى أشرف على الموت، ثم بيع عبدًا (تك ٣٧: ٢٧).

وهو الذي أكره موسى على الهروب من وجه فرعون ملك مصر حالما طرقت أذنيه من أحد مواطنيه: "من أقامك قاضيًا أو حاكمًا علينا؟ أتريد أن تقتلني كما قتلت المصري بالأمس" (خر ٢: ١٤)؟

وبسبب الحسد صار مسكن هرون ومريم خارج المحلة (عد ١٢: ١٤-١٥).

وهو الذي حمل داثان وأبيرام على أن يثيرا الشعب ضد موسى عبد الرب فابتلعتهما الهاوية (عد ١٦: ٣٢).

كذلك بسببه كان داود مبغضًا لا من الغرباء فقط، بل ومن شاول ملك إسرائيل الذي أنقذه أيضًا (١ مل ١٨: ٧).

لماذا نذهب بعيدًا أيها المجاهدون الروحانيون، نذكر تلك الأمثلة السامية التي قدمها لنا جيلنا الحاضر، فإن أعظم آباء الكنيسة وأكثرهم براءة اضطهدوا وحُكم عليهم بالموت بسبب الحسد والغيرة.

❖ لطالما فَرَّق الحسد بين الزوجات ورجالهن. فقد تناسوا القول الكريم الذي نطق به أبونا آدم: "هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي" (تك ٢: ٢٣). ولا غرو، فقد دمر الحسد والخصام مدناً عامرة وأفنى أمماً قوية.

القديس إكليمنضس السكندري

٧. الحسد يجعلنا أشر من الشياطين

❖ انظروا أيها الأخوة، إن من يحسد أخاه لا يحب. وهو خطية إبليس في ذلك الحين،

لأنه بحسد إبليس سقط الإنسان، فسقط إبليس وحسد القائمين، ولم يشأ أن يسقط الإنسان لكي يرتفع هو بل لأنه لا يريد أن يسقط بمفرده

القديس أغسطينوس

الحاسد أردأ من الوحوش الضارية، وأخبث من الشياطين، لأن غضب الوحوش وشرها ينتج عن جوعها أو خوفها منّا، أما الحاسدون فمن يحسن إليهم يكون كمن ظلمهم.

❖ تتألم الوحوش والطيور والدبابات لآلام أجnasها التي في الطبيعة، وتتعاون معًا ضد المضادين لها، أما الحاسد فيفعل عكس هذا، يفرح بسقوط الأخ والقريب والبعيد والنسيب والصديق.

❖ يحسب الحاسد مصائب الآخرين فائدة لنفسه أكثر من أي نجاح له... صائرًا كعدوٍ عامٍ ضد البشرية وصفعة لأعضاء الكنيسة. لأنه أي شيء أقرب إلى الجنون من الحسد؟! الحسد!

❖ الشيطان حاسد، لكنه يحسد البشرية، ولا يحسد شيطانًا آخر، أما أنت فإنسان تحسد أخاك الإنسان، وبالأخص الذين هم من عائلتك وعشيرتك، الأمر الذي لا يصنعه الشيطان.

❖ ليس داء أشر من الحسد والحقد فعلى أساسه دخل الموت إلى العالم (حك ٢: ٢٤)، لأن إبليس لما أبصر الإنسان مكرماً لم يحتمل حُسن حاله، فعمل كل ما أمكنه حتى قتله. وبالحسد دُبح هابيل، وقارب داود أن يُقتل، وقُتل آخرون كثيرون من ذوي البر، وصار اليهود قتلة المسيح.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ظهر الحسد على الأرض حتى أن الإنسان الذي يفسد بواسطته يطيع الشيطان مصدر هلاكه، مقلداً إياه في حسده، كما هو مكتوب: "بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم" (حك ٢: ٢٤).

الشهيد كبريانوس

٨. الحسد يجعلنا جسديين

سنجد في الحياة الأبدية "نجمًا يمتاز عن نجم"، ولكن لأن أولاد الله روحانيون لا

جسديون، أي محبون لا حاسدون، لذلك يشعر كل منهم أن أمجاد الآخرين هي أمجاده هو، فلا يفكر في ذاته أو كيانه أو مقدار المجد الذي ناله - إن صح التعبير - بل يود لو كان آخر الكل، ليشبع الكل من ربنا يسوع مصدر السعادة. لهذا ينبغي علينا أن نتخلص من هذا الداء، لأنه لا يليق بمن أُعد لهم الملكوت.

❖ ينصح الرسول الإنسان الذي امتلأ بالروح القدس وصار ابنا لله بالميلاد السماوي أنه ينبغي عليه ألا يهتم سوى بالأمور الروحية والسماوية، الأمور التي ذكرها قائلاً: "وأنا أيها الإخوة لم أستطع أن أكلّمكم كروحيين بل كجسديين، كأطفال في المسيح. سقيتكم لبنًا لا طعامًا، لأنكم لم تكونوا بعد تستطيعون، بل الآن أيضًا لا تستطيعون لأنكم بعد جسديون. فإنه إذ فيكم حسد وخصام وانشقاق أستم جسديين، وتسلكون بحسب البشر؟" (١ كو ٣: ١-٣)

ينبغي أن تتحطم الرذائل والخطايا الجسدانية، أيها الإخوة الأحباء، ويُداس الجسد الأرضي تحت الأقدام بالهمة الروحية، لئلا نرتد إلى الإنسان العتيق، فنسقط في فخاخ مميتة. وكما يقول الرسول: "فإذا أيها الإخوة نحن مدينون ليس للجسد لنعيش حسب الجسد. لأنه إن عشم حسب الجسد فستموتون. ولكن إن كنتم بالروح تميّتون أعمال الجسد فستحيون. لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله" (رو ٨: ١٢-١٤).

فإن كنا أولاد الله، وقد أعدنا لنكون هياكل له، وحصلنا على الروح القدس، فلنعش قديسين روحانيين.

إن كنا قد رفعنا أعيننا من الأرض إلى السماء، إن كنا رفعنا قلوبنا مملوءة بالله (الآب) والمسيح إلى الأشياء العالية السماوية، فلا نصنع شيئًا لا يليق بالله. وكما يوصينا الرسول: "فإن كنتم قد قمت مع المسيح، فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله. اهتموا بما فوق لا بما على الأرض، لأنكم قد متم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله. متى أظهر المسيح حياتنا، فحينئذ نظهرون أنتم أيضًا معه في المجد" (كو ٣: ١-٤).

دعنا نحن الذين في المعمودية قد متنا ودفنا بخصوص الخطايا الجسدية التي للإنسان العتيق، وقمنا ثانية مع المسيح في ولادة ثانية، أن نفكر ونصنع ما يليق بالمسيح.

لا يمكننا أن نظهر بالصورة السماوية، ما لم نُعَدُّ لأخذ شبه المسيح.

الشهيد كبريانوس

❖ "إذ فيكم وخصام وانشقاق أَلستم جسدّين، وتسلكون بحسب البشر؟" (١ كو ٣: ٣)...
فالحسد يجعل الناس جسدّيين. فليكن الكَل بنوحٍ عظيمٍ، ولنلبس المسوح ونفتش الرماد تحتنا، لأنّه من منا بريء من هذا الداء؟!

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لنذكر يا إخوتي جيّدًا أن الرسول قال بأن الحسد لا يمكن أن يوجد مع المحبة...
"المحبة لا تحسد" (١ كو ١٣: ٤). فقاين لم يكن يعرف المحبة. وما كان الله يقبل قرايين هابيل لو لم يعرف المحبة، لأن كليهما قدما القرايين. هل لأن واحدًا قدم من ثمار الأرض، والآخر من نتاج القطيع؟ حاشا. فإن الله لا ينظر إلى الأيدي وما تحملها بل إلى القلب. فالذي قدم التقدمة من قلبٍ محبٍ قبله الرب، أما الذي قرّب التقدمة من قلبٍ حاسدٍ، فقد أدار الرب وجهه عنه.

فالرسول في قوله: "لأن أعماله كانت شريرة، وأعمال أخيه بارة" (١ يو ٣: ١٢) قصد بأعمال هابيل الصالحة "المحبة" كما عني بأعمال قايين الشريرة كراهيته لأخيه، ولم تكن كراهية قايين لهابيل وحسده له يكفيا، فبدلاً من أن يقتدي به قام وقتله. وهكذا ظهر قايين كابنٍ لإبليس، وظهر هابيل كابنٍ بارٍ لله.

القديس أغسطينوس

٩. الحسد يعمي البصيرة

❖ لا يرى الحاسد النور، لأنه يلوم المضيئين ويعيبهم بحسده.

الشيخ الروحاني

❖ سمعتم اليوم أيها الأحباء فصل إبراء المجنون الأعمى والأخرس (مت ١٢: ٢٢-٢٨).
وقد عرفتم حكم العامة العادل بقولهم عن سيدنا له المجد: "ألعلّ هذا هو ابن داود؟" ثم انحراف الفريسيين عن العدل بقولهم عنه أنه لا يخرج الشياطين إلاً ببعلزبول رئيس الشياطين. ولابد لكم أن تتساءلوا فيما بينكم عن السبب الذي دفع الفريسيين لحكمهم الفاسد هذا، فأجيبكم: إنه الحسد وهو الحزن لخير القريب.

أنار سيدنا له المجد بصيرة الأعمى، وأما الحسد فأعمى بصيرة الفريسيين. لا

تتعجبوا من هذا لأن الأهواء النفسانية تظلم الإنسان بقدر ما ينير الله ذهنه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ألم يهلك اليهود بسبب الحسد، إذ آثروا حسدهم للمسيح عن الإيمان به؟ إذ حطّوا من قدر الأعمال العظيمة التي صنعها، مخدوعين بالغيرة العمياء، حتى أنهم لم يستطيعوا أن يفتحوا عيون قلوبهم بمعرفة الأمور الإلهية.

الشهيد كبريانوس

❖ نظرتك الأمم بالصليب يا عمانوئيل، وعرفت من أنت من أجل دهش جبروتك. العبرانيون أعماهم الحسد ولم يعرفوك، ولأنهم أبغضوك لم تحركهم القوات (العجائب) التي حدثت.

الصخور تشققت، والأموات قاموا، والشمس أظلمت وكرزت في الأرض جميعها من أنت.

من الخليفة الصامته التي تحركت بصليبك، تعلم العالم أنك أنت هو الله بالحقيقة.

❖ الأطفال يمجدون الملك (السموي) الآتي وباركونه، والعجوز تهتم بتنظيف أصنامها (حبهم للذات وكبرياء قلوبهم).

حزنت بمجيء وريث الأب. عرفت أنه يفضحها فبغضته ولم ترتضي أن يمجده الأطفال!

الحسد أبكم فمها، فبكمت صامته عن التمجيد، واهتمت أن تبكم الذين يمجدون!

❖ اضطرب الكتبة ضد البار أكثر من اضطراب الأمواج على يونان، وكان الفريسيون أكثر من اللجج التي على ابن متاي. تحرك الحسد من الصالبيين كالبحر العظيم.

القديس يعقوب السروجي

١٠. الحسد شرارة الشرور

❖ دخلت الكراهية الأولى إلى الأخوة الجديدة، حتى تم قتل الإخوة الممقوت، إذ حسد قايين الشرير هابيل البار... فإذا تسيطر ثورة الحسد على الشرير لا يمكنه أن يضع اعتباراً لشيء ما، لا حبه لأخيه، ولا جسامة الخطية، ولا خوف من الله، ولا عقاب الخطية. لقد ضُرب بعدم البرّ ذاك الذي أظهر أولاً البرّ، وحمل الكراهية لذاك الذي لم يعرف كيف يكره...

ونبعت عداوة عيسو لأخيه يعقوب عن الغيرة أيضًا. فإذ نال الأخير بركة أبيه، فإنه بجمرة الغيرة التهب الأول متنبعًا أخيه بالكراهية. ويوسف باعه إخوته بسبب الحسد...

علاوة على ذلك فقد كره شاول الملك داود، مقتنيًا آثاره مرارًا لقتله بالرغم من براءته وشفقته ورزاقته ووداعته؛ فما الذي أثاره سوى شوكة الحسد؟...

❖ علاوة على هذا فإنه لا يستطيع إنسان ما أن يجد أساسًا به يفترض أن شرًا كهذا يمكن أن يُحد في شكلٍ واحدٍ، أو يُقاوم بحدودٍ مختصرة في تخم ضيقٍ. فضرر الحسد كثير الأشكال، مضاعف الثمر، واسع جدًا. إنه جذر لكل الشرور، وينبوع كل المصائب، ومربي كل الجرائم، ومادة لكل المعاصي.

هنا تنشأ الكراهية فينتج الحقد.

الحسد يلهب محبة المال، فلا يقنع الإنسان بما عنده بينما يرى الآخر غنيًا... الحسد يجعل الوصايا مظلمة، ويخضع مراكز العقل الخفية تحت سلطانه، فيحتقر خوف الله، ويهمل تعاليم المسيح ولا ينتظر يوم الدينونة. وبالكبرياء ينتفخ، وبالقسوة يمرر الآخرين، وبعدم الإيمان يراوغ، وبعدم الصبر يهيج، وبالخصام يثور، وبالغضب يزيد الهياج. فمن يخضع لأي سلطان أجنبي لا يقدر أن يقاوم أو يتحكم في نفسه. بالحسد يُكسر رباط السلام الذي لربنا، ويُتعدى على المحبة الأخوية، ويُعش الحق، وتُكسر الوحدة، ويسقط البشر في البدع والانشاقات عندما يزدرون بالكهنة أو يحسدون الأساقفة. فيشتكي الإنسان قائلاً: ألم يكن هو أحق منهم بأن تُوضع عليه الأيدي؟! أو مستكفًا من أن يوجد من يكون أعلى منه.

الشهيد كبريانوس

❖ الحسد جرثومة وأصل الشرور، فمنه ينبعث القتل والبغضة والنميمة والسلب واشتواء ضرر الغير وما أشبه ذلك. فمن منكم لا يعرف أنه بالحسد يتشبه إبليس الذي بحسده دخل الموت إلى العالم.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يقوم الحسد بين الأزواج والزوجات، فينشأ الأطفال عصاة لوالديهم!... بالحسد يقتل

الإنسان أخاه بلسانه، ويسحب آخر إلى الهلاك بغير رحمة^١.

الأب أفراوات

❖ الذي يصدق أن من الشرارة الصغيرة تشتعل النار، فليحذر لئلا يجمع داخله نار الحسد... لأنه حيث تجد مادة تلتهب وتفسد أفراس أرض قلبه، ودخانها يعمي أعين كثيرين.

مار اسحق السرياني

❖ لننظر الدور الذي مارسه إبليس بحسده، وما هي نتائج خطته الماكدة ضد السيد. لقد غرس في رؤساء مجمع اليهود حسداً ضد المسيح أنتج قتلاً. فإن هذا المرض (الحسد) غالباً ما يدفع إلى جريمة القتل. هذا هو الطريق الطبيعي لهذه الرذيلة، كما حدث مع قايين وهابيل، وأيضاً ظهر بوضوح في حالة يوسف وإخوته. لهذا السبب يجعل بولس الرسول هاتين الرذيلتين متجاورتين بوضوح، كأنهما ينتميان بصلة قرابة لبعضهما البعض، إذ يتحدث عن أناس مملوءين "حسداً وقتلاً" (رو ١ : ٢٩). هكذا طلب هؤلاء قتل يسوع بإيحاء من الشيطان الذي غرس الشر فيهم، وكان قائدهم في تدابيرهم الشريرة^٢.

القديس كيرلس الكبير

١١. الحسد داء يصعب شفائه

❖ بعد أن تبع موسى الله بهذه الطريقة، لم تعد هناك خطية تحدث من خلال الشر تقاوم من يتبع الله بهذه الطريقة. بعد ذلك أثارت هذه الأشياء الحسد ضد موسى من إخوته، والحسد شعور يسبب الشر، وهو أبو الموت، وكان به أول دخول للخطية، وهو أصل الشر ومولد للأسى، ويُعتبر والدًا للمصائب، وأساس المعصية وبداية العار. الحسد هو الذي أخرجنا من الفردوس بعد أن أصبح حية ليواجه حواء، وهو الذي حجبنا عن شجرة الحياة وخلع عنا الثياب الإلهية وقادنا إلى الخارج بعيداً في خجل، مكتسبين بأوراق التين.

سلح الحسد قايين على خلاف الطبيعة، وأسس الموت الذي ينتقم له سبعة أضعاف (تك ٤ : ٢٤). والحسد هو الذي جعل يوسف عبداً. والحسد هو اللدغة القاتلة

¹ Graffin: Patr. Syria. 1894.

² In Luc hom 140.

والسلاح المخفي، ومرض الطبيعة والسم الزعاف، والضعف الإرادي، والسهم المر، والمسمار الذي يُدق في النعش، ونار في القلب ولهب يحترق من الداخل^١.

القديس غريغوريوس النيسي

❖ من الجنون أن يتضايق الإنسان لخير أقربائه، فهذا من عمل الكلاب المصروعة الثائرة. إذ يتشبهون بهم، فيقفزون على وجوه كل الناس، محتدين بالحسد...

من الأفضل لنا أن تلتف حية في بطننا من أن يزحف الحسد في داخلنا. فالأولى يسهُل أن نتقيها بالأدوية... أما الحسد فلا يلتف في بطوننا، بل يكمن في عمق الأنفس، وهو سُم يصعب علاجه، لأنه في الحقيقة إن وُجدت حية في داخلنا لا تقترب إلى جسدنا طالما وجدت طعاماً، أما الحسد فحتى لو قدمت له وليمة غير متناهية، فإنه يلتهم النفس ذاتها، قارصاً كل جانب منها، ممزقاً إياها... ويستحيل علينا أن نجد ما يلطفه ويسكن جنونه إلا وسيلة واحدة، هي تدمير الناجحين. وعندئذ يُشفى، ولكن ليس نهائياً. لأنه حتى إذا أصاب المحسود خسارة، فإنه ينظر إلى آخرين ناجحين، ويلتقي بنفس الوخزات، فنجد في كل مكان جروحاً، وفي كل موضع ضربات. لأنه يستحيل أن نوجد في العالم دون أن نرى أناساً ذوي سمعة طيبة.

وأمثال هؤلاء الذين لهم هذا الطبع السيئ بإسراف، فإنه حتى إذا أهلك ضحاياه الموجودين فسيحسد الذين ماتوا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إن فحصت الأمر جيداً، تجد أنه لا يمكن أن يصيبني أي ضرر من أي إنسان مهما كان مؤذياً، ما لم أحارب نفسي... فإن لحقني الضرر، فالخطأ ليس بسبب هجوم الآخرين، إنما لعدم احتمالي. وذلك كالطعام الدسم جداً، مفيد للإنسان المتمتع بصحة جيدة إلا أنه مضر للمريض، فهو لا يضر الإنسان الذي يتناوله ما لم يكن هو مريضاً أصلاً. ومهما يكن الأمر، فعليكم أن تعرفوا أن خطية الحسد يصعب الشفاء منها أكثر من بقية الخطايا، فهي الوباء الذي رمز له النبي بالحيات: "لأنني هأنذا مرسل عليكم حياتٍ أفاعي لا تُرقى فتلدغكم يقول الرب" (إر ١٧: ٨).

بحق قارن النبي لدغات الحسد بسم الأفاعي المميت... فهي مصدر سموم، لكنها تَهلك وتموت بعد لدغها للشخص. فالحاسد لا يضر المحسود، بل يُهلك نفسه بنفسه

^١ The Life of Moses: 2:256-257, translated by MagdyFahim Hanna.

قبل أن يؤذي المحسود، يُهلك نفسه قبل أن يصب سم الموت على الغير، لأنه "بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم، فيذوقه الذين هم من حزبه" (حك ٢: ٢٤-٢٥). كما أن أول من هلك (إبليس) بواسطة الحسد لا يجد علاجًا للتكفير ولا الشفاء، كذلك الذين يسمحون لأنفسهم أن يكونوا حاسدين، تُستبعد عنهم مساعدة أي راقٍ مقدسٍ، لأنهم لم يُعذبوا بخطايا الآخرين، إنما تعذبوا بتفوق ونجاح من يحسدونهم. وهم يخلون من إظهار الحقيقة، فيبحثون عن عللٍ خارجيةٍ تافهةٍ يبررون بها الخطية، وإذ على الدوام يزيفون الحقيقة، لذلك يبقى رجاؤهم في الشفاء باطلاً، بينما يسري في شرايينهم السم المميت الذي لا يفرزونه "بل ينبعث فيهم بسبب نجاح الآخرين".

يصعب شفاء الحسد، لأنه بالبحث عن أسبابه، يصير إلى حال أردأ. يبحث في الأسباب الخارجية لا الحقيقة الداخلية، ويزداد شدة بتقديم الخدمات والهدايا للحاسد، لأنه كما يقول سليمان نفسه: "إنه يقف قدام الحاسد" (أم ٤: ٢٧). على قدر ما ينجح الآخر (المحسود) في الخضوع والتواضع أو في فضيلة الصبر أو الكرم، تزداد وخزات حسد الآخر، إذ لا يود إلا هلاك المحسود وموته.

أخيرًا لم يكن يوسف قادرًا أن يخفف من حدة حسد إخوته الأحد عشر، الراغبين في موته مع أنه لم يؤذهم في شيء.

من الواضح أن الحسد من أسوأ الخطايا وأصعبها شفاءً، لأنه يلتهب بنفس الأدوية التي بها تهلك بقية الخطايا، فمثلاً الإنسان الذي يحزن لخسارة قد لحقت به، يُشفى بتعويضها، والمتضايق بسبب خطأ أصابه فإن اعتذار متواضع كافٍ لرضائه، لكن ماذا تفعل لإنسان تزداد معصيته كلما ازدادت تواضعًا ورحمة، هذا الذي لا يغضب طمعًا في رشوة ينالها... أو ليحصل على خدمات، إنما يغضب بسبب نجاح الآخرين وسعادتهم؟ من ذا الذي يستطيع أن يُرضي الحاسد، الذي يتمنى ضياع ثروة الآخرين، ويعمل على فشلهم، أو يسبب لهم مصائب؟

إننا محتاجون إلى عون إلهي، الذي ليس لديه شيء غير مستطاع، حتى لا تُهلك الحية بعضتها الوحيدة ما هو مزدهر فينا، بل نحيا بحياة الروح القدس الفعالة وقوته!^١
الأنبا بيامون

❖ أظن أن الأخ الذي عرف الله بنعمة ربنا يسوع المسيح، تعتبر خطيته للموت إن كان

^١ مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية، ١٨: ١٦.
٤٤٢

يعمل على إفساد رابطة المحبة بين الإخوة، مندفعًا بذلك بنار الحسد ومقاومة النعمة التي سبق أن عملت فيه^١.

القديس أغسطينوس

١٢. الحسد يضر الحاسد ويفيد المحسود

أساء العامة فهم معنى كلمة "الحسد"، فظنوا أن يعني أن يراه آخر في خير فيحسده على الخير (صحة أو أولاد الخ.) فيزول الخير. كأن الحسد يصيب المحسود لا الحاسد. وقد رأينا أن الحسد هو ميل في قلب الحاسد نحو هلاك المحسود أو فشله، ولكن ليس لهذا الميل قوة على هلاك المحسود بل الحاسد. إذ يجرمه من السلام الداخلي... يبقى نهاره وليله متذمرًا، حاقدًا، يطلب هلاك الآخرين، يتوقف قلبه عن النمو أو التقدم، يعجز عن الصلاة، ويفقد صحته الروحية والنفسية والجسدية أيضًا.

لكن قد يحدث أن يصيب المحسود شرًا. هذا يعلله الفكر الشيطاني أنه بسبب الحسد "العين الحاسدة". لكننا نؤمن أن "شجرة واحدة من رؤوسنا لا تسقط بدون إذن أبينا"، فإن حدثت خسارة لا نبررها بالحسد، بل هي بسماع من الله لخيرنا. فالشيطان حسد أيوب لكن لم يكن في سلطانه أن يقترب إليه أو إلى أولاده أو ممتلكاته، لو لم ينل إذنًا من الله. لذلك لا تخف من حسد الآخرين لك، بل بالحري خف من حسدك للآخرين، لأن هذا يفقدك الحياة.

❖ إنك لست عدوًا لكائنٍ ما أكثر من عداوتك لنفسك. فأني إنسان تتعقبه بالحسد يمكنه الهروب منك، وأما أنت فكيف تهرب من نفسك؟ فحيثما كنت يكون الخصم معك، عدوك يكون دائمًا في صدرك، ضررك يكون مغلقًا عليه في داخلك، سترُبط وتُقيّد بأغلالٍ لا يمكنك التخلص منها. إنك أسير لظلم الحسد، فلا يمكن لأية تعزية أن تعينك... الحسد بلية بلا علاج، بها يكره الإنسان السعادة.

الشهيد كبريانوس

❖ [عرض القديس الأنبا بيامون أثناء حديثه مع القديس يوحنا كاسيان عن موضوع

الحسد وقد أورد قصة الأنبا بغنوتيوس والأخ الذي حسده، موضحًا كيف كافأ الرب

المحسود خيرًا والحاسد شرًا، فقد قال:

كان حتى في صبوته صالحًا ومملوء نعمة، حتى أعجب مشاهير الرجال

¹ Sermon on the Mount, book 1, chapter 22 (73).

وعظمائهم بهيبته واستقامته الدائمة، ورغم صغر سنه كان يُوضع في مصاف الشيوخ بسبب فضائله... لكن الحسد الذي سبق أن أثاره إخوة الأب (البطريك) يوسف ضد أخيه، أثار أحد الإخوة بغيرة متقدة آكلة. وإذا أراد الأخ تشويه جمال بفنوتيوس بوصمة... انتهاز فرصة تركه قلايته يوم الأحد لذهابه إلى الكنيسة، وتسلسل إليها وخبأ كتابه بين السعف...

لما انتهت الخدمة المعتادة، جاء ليشتكى أمام جميع الإخوة للقديس إيسيدورس الذي كان قسًا للبرية قبل رسامة بفنوتيوس هذا قسًا عليها، وأعلن بأن كتابه قد سرق من قلايته، فأثارت شكواه بليلة في عقول الإخوة وبخاصة القس، حتى توقف تفكيرهم، إذ غلبتهم الدهشة أن يسمعو عن جريمة لم تُرتكب قبلاً ولا سمعوا عنها، لأنها لم تحدث من قبل في هذه البرية... حث المدعى أن ينتظر الكل في الكنيسة ويرسل بعض الإخوة المنتخبين للبحث في قلالي الرهبان، راهبًا راهبًا. عهد القس الأمر إلى ثلاثة من الشيوخ الموثوق فيهم، فدخلوا قلايات الجميع، وأخيرًا وجدوا الكتاب في قلاية بفنوتيوس وسط السعف... فلما عادوا إلى الكنيسة أحضروا الكتاب أمام الجميع. أما بفنوتيوس فرغم نقاوته من جهة ضميره، لكنه كان كما لو كان إنسانًا كشفت جريمة سرقة، فطالب منهم تهذيب نفسه وتواضع طلب التوبة...

ولما خرج من الكنيسة في الحال لم يضطرب فكره، لكنه وثق في حكمة الله، فصار يذرف الدموع في الصلوات ويصوم ثلاثة أضعاف ما كان عليه، ويصنع مطانيات للإخوة في تواضع. وهكذا إذ أذل نفسه بكل أنواع الندامة من جهة الجسد والروح لمدة ١٤ يومًا، حتى جاء مبكرًا في صباح السبت وصباح الأحد لا ليشترك في الأسرار المقدسة، بل لي طرح نفسه على أرضية الكنيسة طالبًا العفو من إخوته.

لكن الله، الذي يعلم أسرار الأمور ويشهد لها، لم يتركه كثيرًا مُعتدًا عليه... لأن مرتكب الجريمة، اللص الشرير الذي سرق ماله (سرق كتابه هو ونسب السرقة للأب بفنوتيوس) صنع هذا بعيدًا عن الأعين البشرية، فكشفه الله بواسطة نفس الشيطان الذي بث فيه الخطية... فقد صرعه روح شرير عنيف، فاعترف بكل تفاصيل المكيدة السرية المدبرة... وقد بقي زمانًا طويلًا متألمًا من الروح النجس، حتى لم تستطع صلوات القديسين الساكنين هناك أن تشفه... بل ولا حتى الموهبة الخاصة التي للقس إيسيدورس... لأن المسيح كان يحفظ للشباب بفنوتيوس هذا المجد إذ لا يشفي الرجل إلا بصلوات من دُبرت

ضده المكيدة^١.

أنبا بيامون

❖ أنظر كيف لا يهتم الحاسد بخطاياهم، باحثًا عن فقدان الآخرين للخيرات، ولا ينال من هذا كله سوى التحرق والاضطراب، كما يخسر التمتع في الفردوس. ولماذا أقول إنه يخسر التمتع في الفردوس، فإنه حتى في هذا العالم لن يحصل على خيرٍ أو نعيمٍ. أليس الحسد هو الذي أرسل هابيل الصديق من غير اختياره ليمتثل بين يدي الله، بينما حشد قايين لنفسه ربوات من الشرور والموت الرديء. وما الذي أضرب يعقوب عندما حسده عيسو أخوه؟ أما صار يعقوب ممثلًا خيرات وعيسو مطرودًا من وطنه... لا يصحبه سوى الحسد؟

وماذا أستطاع أولاد يعقوب أن يصنعوا بيوسف الصالح، وقد بلغوا به حتى سفك دمه؟ أما كادوا أن يموتوا جوعًا وقد لحقتهم كل مصيبة. أما يوسف المحسود، فقد صار متسلطًا على مصر وتخومها؟

❖ كان داود هاربًا من شاول مطرودًا وهو يخائله إلى الموت، لكن لم يصبه أي ضرر، بل صار أبهى منه في الحرب، ومحبوبًا ليس لدى الناس فحسب بل ومن الله أوفر حبًا. وهوذا اسمه إلى اليوم ممدوحًا في الأقوال وترانيمه النبوية في سفر المزامير... وكما كان في الأرض مشرقًا ومضيئًا، ففي السماوات يكون أبهى وأبهج. فماذا أنفع شاول الشقي المسكين من حسده؟ ألم ينحط عن مملكته، ومات موتًا رديئًا مع ابنه؟، وهو الآن ينتظر العقوبات الجهنمية مخلدًا.

❖ وأنت يا من تتصف بالحسد، بقدر ما تحسد المنعم عليه تزداد خيراته، وأما أنت فتعد لنفسك عقابًا مؤلمًا مع الشيطان مدبرك. لأن الله فاحص القلوب والكلى ينظر أفعالنا جميعًا... فإن رأى المظلوم صابرًا شاكراً ضاعف له الإحسان أكثر من الآخرين وعاقب الظالمين أكثر.

❖ إنك لا تضر من تحسده، وإنما تضرب داخلك بالسيف^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

^١ مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية، ١٨، ١٥.

^٢ In Matt. hom 40:4.

❖ ليس شيء ينبع من النفس أكثر تدميرًا مثل ألم الحسد. فبينما لا يضر الآخرين تكون سطوته الشريرة على وجه الخصوص على النفس التي تتقبله. كما يفسد الصداق الحديد، هكذا يبدد الحسد النفس التي يسكنها ويهلكها تمامًا. كما أن الأفاعي يقال عنها أنها تولد بالتهاهما أحشاء أمها، هكذا يلتهم الحسد النفس التي تلده. الحسد هو ألم ينبع عن نجاح الغير، لهذا فإن الحاسد لن يعيش بغير ألم ولا تفارقه كآبة الذهن¹.

❖ ليس في قلب الإنسان هوى أَوْخَم من الحسد. إنه يلحق الضرر بالإنسان المصاب به. وكما أن الصداق يقض الحديد، فإن الحسد يقض ذاك الإنسان المصاب به. إن الحسد هو حزن تولده سعادة القريب. ولذلك لا يخلو الحسد أبدًا من فرص الحزن. هل حقل الجار خصيب؟ وهل داره ممتعة؟ وهل هو سعيد؟ كل ذلك يدفع الحسد إلى تنمية مرضه وإلى زيادة عذابه. إنه يشبه إنسانًا عاريًا يُسهم كل شيء في جرحه. هل هناك أحد قوي وفي صحة جيدة؟ إنها ضربة تصيب الحسد. وهل هناك إنسان جميل؟ إنه جرح جديد. وهل إنسان ذكي، ينجح في أعماله، ويصنع الخير؟ كل ذلك سهام تصيب الحسد في صميم قلبه.

وأشق ما في هذا المرض أنه مرض مُخجل. يشكو الحسد أمره وتتحط قواه، ولكن إن سألته عن سبب مرضه، يُخجل أن يعترف به: "إنني حسود، وأشعر بالمرارة في قلبي، وأتألم من سعادة صديقي. ولا أتحمّل نجاح الآخرين، وتبدو لي سعادة القريب مصيبة". هذا ما يجب عليه أن يقوله. لكنه يُفضل ألا يقول شيئًا من كل ذلك، وأن يحفظ في صميم قلبه مرضه الذي يُضنيه.

ليس هناك طبيب أو دواء يشفي هذا المريض، لأن الانسراح الوحيد الذي ينتظره هو خراب الذين يحسدهم. وليس لبغضه إلا أجل واحد، وهو أن يرى قريبه يتحول من سعيد إلى شقي. حينئذ ينهض ويُظهر صداقة حالما يجده يذرف الدموع. إنه لا يعرف أن يفرح مع الفرحين، بل أن يبكي فقط مع الباكين، وهو يأسف للكارثة التي حلت، لا عن شعور بالتعاطف، بل ليزيد من ثقل الألم بتذكير ما فُقد. يُثني على ولد بعد وفاته ويغمره بألف مديح: ما أطفه في حياته، وما أذكاه وما أكثر مواهبه! في حين كان لا يجد كلمة لطيفة، حين كان الولد على قيد الحياة! ومن جهة أخرى، إن رأى أن غيره يُثني على الميت، يغيّر موقفه ويستسلم للحسد.

¹ PG 31:372.

وَيُعْجِبُ كَذَلِكَ بِالْغِنَى حِينَ يُفْقَدُ، وَيُعْجِبُ بِالْجَمَالِ وَالْقُوَّةِ وَالْعَافِيَةِ، حِينَ يَحِلُّ الْمَرَضُ. وَبِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّهُ عَدُوُّ الْخَيْرَاتِ الْحَاضِرَةِ وَيَعِيشُ فِي مَاضٍ دَائِمٍ... لَا بَلْ يَفْقَدُ حَتَّى تَمَيِّزُ الْأُمُورَ الصَّحِيحَةَ. لَمْ يَبْقَ، فِي نَظَرِهِ، أَيْةٌ فَضِيلَةٌ وَجَمَالٌ وَقُوَّةٌ وَسِحْرٌ، وَأَيُّ شَيْءٍ يَسْتَحَقُّ الْإِعْتِبَارَ. كَمَا أَنَّ النُّسُورَ تَحُومُ فَوْقَ الْمَرْجِ وَالْأَمَاكِنَ الْمَمْتَعَةَ وَالْمَطْيِيَّةَ، وَلَا تَنْقُضُ إِلَّا عَلَى الْجَنَثِثِ، كَذَلِكَ الْحُسُودُ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَوَقَّفَ عِنْدَ بَهَاءِ حَيَاةٍ وَعَظْمَةٍ مَا تَمَّ مِنَ الْأَعْمَالِ، بَلْ لَمْ يَعِدْ يَرَى فِي كُلِّ ذَلِكَ إِلَّا الشَّوَائِبَ. وَإِذَا ارْتُكِبَ خَطَأٌ، وَهُوَ أَمْرٌ يَصْعَبُ تَجَنُّبُهُ فِي الْمَشَارِيعِ الْبَشَرِيَّةِ، فَإِنَّهُ يَذِيعُهُ عَلَى الْفُورِ، وَإِلَيْهِ يَسْتَدْتِدُ فِي تَعْرِيفِ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَكَأَنَّهُ رَسَامٌ هَزَلِي لَا يَرَى، فِي الْعُنَاصِرِ الَّتِي تَكُونُ صُورَةَ الْإِنْسَانِ، إِلَّا أَنْفًا مَشَوِّهًا، أَوْ حُدْبَةً فِي الظَّهْرِ، أَوْ شَطْبَةً طَبِيعِيَّةً أَوْ عَرْضِيَّةً فِي الْوَجْهِ. وَفَضْلًا عَنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ خَبِيرٌ فِي تِلْكَ التَّشْوِيهَاتِ الْخَدَاعَةِ الَّتِي تَمَكَّنُ مِنَ الْإِسْتِهْزَاءِ بِالْخَيْرِ، وَتَشْهِيرِ الْفَضِيلَةِ عَنْ طَرِيقِ النَّقِيصَةِ الْمَشَابِهَةِ. فَالْشَّجَاعُ يَصْبِحُ الْمَتَهَوِّرَ، وَالْحَكِيمُ الْغَبِيَّ، وَالْعَادِلُ الْقَاسِيَّ الْقَلْبَ، وَالْمَقْتَصِدُ الْبَخِيلَ. وَبِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، تَتَحَوَّلُ الْفَضَائِلُ، فِي نَظَرِهِ، إِلَى الرِّذَائِلِ الَّتِي تَنَاقُضُهَا^١.

الْقَدِيسُ بَاسِيلْيُوسُ الْكَبِيرُ

١٣. الحسد يفسد حياة الخدام

❖ أَعْزَاءُنَا، تَعْرِفُونَ مِمَّا كَتَبْنَا لَكُمْ، أَنَّهُ بَعْلَةُ الطَّمَعِ ظَهَرَ الْبَغْضُ وَالْحَسَدُ عِنْدَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِالشَّرِيعَةِ وَالْمُتَسَلِّطِينَ فِي شَعْبِنَا^٢.

الْقَدِيسُ أَفْرَاهَاطُ الْحَكِيمِ الْفَارْسِيِّ

❖ عَلَيْنَا أَلَّا نَسْتَعْمِدَ التَّوْبِيخَ إِلَّا نَادِرًا. وَإِذَا اضْطَرَرْنَا إِلَى اسْتِخْدَامِهِ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَسْعَى بِشَغْفٍ إِلَى خِدْمَةِ اللَّهِ لَا أَنْفُسِنَا. لِيَكُونَ لَنَا هَدَفٌ وَاحِدٌ، فَلَا نَفْعَلُ شَيْئًا بَقَلْبٍ مَزْدُوجٍ. لَنُخْرِجَ مِنْ أَعْيُنِنَا خَشْبَةَ الْحَسَدِ أَوْ الْحَقْدِ أَوْ التَّصْنَعِ، حَتَّى نَتِمَكَّنَ مِنَ الْإِبْصَارِ فَنُخْرِجَ الْقَذَى مِنْ عَيْنِي أَخِينَا. لِلنَّظَرِ إِلَى الْقَذَى بَعَيْنِي الْحَمَامَةِ، اللَّتَيْنِ لِعُرُوسِ الْمَسِيحِ (نَش ٤: ١)، الَّتِي اخْتَارَهَا اللَّهُ لِنَفْسِهِ كَنِيسَةً مَجِيدَةً لَا دَنَسَ فِيهَا وَلَا غَضْنَ. أَيْ نَقِيَّةٌ لَا غَشَّ فِيهَا (أَف ٥: ٢٧)^٣.

^١ الألب صبحي حموي اليسوعي: القديس باسيليوس الكبير، لبنان. عظة ١١.

^٢ Demonstrations, 14: 25.

^٣ Sermon on the Mount, book 2 (66).

القديس أغسطينوس

❖ الانتهاز النابع عن حسد هو سهم سام^١.

القديس مار اسحق السرياني

^١ Robert Llewelyn, *The Joy of the Saints, Spiritual Readings throughout the Year*, Springfield, Illinois, 1989, p. 171.

علاج الحسد

الشركة مع الله درع ضد حسد الآخرين

❖ حارب الحسد كثيرين ممن عاشوا قبل موسى، لكنه عندما هاجم موسى انكسر كما ينكسر إناء من الخزف عندما يرتطم بصخرة. وقد أظهر ذلك بوجه خاص التقدم الذي أحرزه موسى في رحلته مع الله. لقد جرى موسى في المكان الإلهي ووقف على الصخرة وأبقاه الله في الفتحة التي بها، وغطاه الله بيده، وسار وراء مرشده، ولم ينظر إلى وجهه بل إلى ظهره.

وصل موسى إلى ارتفاع جعله أعلى من أن يصيبه سهم الحسد. ويظهر ذلك أنه قد أصبح مباركًا عندما تبع الله. كان قوس الشر أكثر ارتخاء من أن يطلق عاطفة الحسد بحيث تصل إلى موسى من أولئك الذين أصيبوا بالمرض من قبل. ولكن هرون ومريم أصابهما التأثير الشرير. وأصبحا مثل قوس الحسد، يطلقان الكلمات على موسى بدل السهام.

لم يرتفع موسى فقط عن الانغماس في هذا الشر، بل إنه قدم العون لمن أصابهم مرض الحسد. ولم يقتصر الأمر على أنه لم يحاول الدفاع عن نفسه ضد من سببوا له الحزن والأسى، بل إنه تشفع لله طالبًا الرحمة لهم. وقد أظهر بما فعله أن الشخص المسلح بدرع الفضيلة لن تؤذيه السهام التي تطلق عليه.

كسر موسى حدة حراهم وجعلها تطيش بفضل صلابة درعه. والدرع الذي يقي من هذه السهام هو الله نفسه، الذي يلبسه جندي الفضيلة. ويقول الكتاب: "البسوا الرب يسوع المسيح (كدرع)" (رو ١٣: ١٤)، أي الدرع الكامل الذي لا يُخترق. كان موسى محميًا جيدًا بهذا الشكل، لذا كانت سهام الشر غير فعالة معه.

لم يسرع موسى بالدفاع عن نفسه ضد أولئك الذين سببوا له الحزن، بالرغم من أن الحكم غير المتحيز قد أدانهم، وأنه كان يعرف ما يجب أن يفعله. وبالرغم من ذلك فقد تشفّع لإخوته لدى الله. ولم يكن موسى يفعل هذا لولا أنه كان يتبع الله، الذي أظهر له

ظهره (أعماله) كمرشد آمن للفضيلة^١.

القديس غريغوريوس النيسي

السيد المسيح محطم الحسد!

❖ تقول النفس، المرأة الحيّة التي تملك الإرادة الحرة: "عندما أنظر إلى وجه حبيبي، ينعكس جمال وجهه عليّ". يقلد بولس هذه الكلمات بوضوح بقوله: "وفيما بعد لا أحيّا أنا بل المسيح يحيا في. أما الحياة التي أحيّاها الآن في الجسد، فإنما أحيّاها بالإيمان في ابن الله، الذي أحبني وبذل نفسه عني" (غل ٢: ٢٠). وعندما يقول "لأن لي الحياة هي المسيح" (في ١: ٢١)، يصرخ بولس أنه نقى نفسه من أي هوى بشري مثل الحزن، الغضب، الخوف، الجبن، الأهواء القوية، الكبرياء، الحمق، الرغبة الشريرة، الحسد، الانتقام، حب التملك والمكسب أو أية عادة قد تؤدي إلى تخريب النفس. هو وحده الذي يملأ نفسي، وهو ليس أي شيء مما سبق ذكره. لقد نُزعت عني كل طبيعتي الخارجية الظاهرة، ولم يبق بداخلي أي شيء غير المسيح. حقيقة الحياة عندي هي المسيح أو كما تقول العروس: "أنا لحبيبي وحبيبي لي" هذا هو الطهر والنقاء وعدم التلوث والنور والحق الذي يغذي نفسي^٢.

القديس غريغوريوس النيسي

بالتواضع تنتصر على الحسد

❖ تواضع يوسف، فانتصر على غضب إخوته الذين حسدوه وأبغضوه (تك ٥٠: ٢٠ - ٢١)^٣.

القديس أفراهاط الحكيم الفارسي

¹ The Life of Moses: 2:259-263, translated by MagdyFahim Hanna.

² Commentary on Song of Songs Sermon 5, translated by Dr. George Nawar.

³ Demonstrations, 9: 3.

لا تحسد، فإن نصيبك لن يقل!

الذي عرف ربنا يسوع وملاً قلبه منه يشناق ولو عرف الكل شخص ربنا مثله، ونالوا الميراث المعد لأولاده، وهو في هذا لا يخشى لئلا يقل نصيبه، لأن ميراثنا غير محدود. لا يتأثر بكمية العدد، بل تزداد الفرحه والبهجة بكمية المتمتعين بهذا الميراث.

❖ لقد وهبنا أن نكون إخوة له، لأن لمن يقول "فصلوا... أبانا الذي في السماوات"؟ من هو هذا الذي يريدنا أن ندعوه أباً لنا سوى أبوه هو أيضاً؟! هل يحسدنا على هذا؟! أحياناً يخاف الآباء عندما ينجبون طفلاً أو اثنين أو ثلاثة من أن ينجبوا بعد ذلك، لئلا يصيروا معوزين. أما الميراث الذي وعدنا به فكبير حتى أن امتلكه كثيرون لا يقل نصيب أحدهم، لهذا دعا يسوع الأمم إخوته.

فالابن الوحيد له إخوة لا حصر لهم، هؤلاء هم الذين يقولون: "أبانا الذي في السماوات"... أنظروا كم عدد إخوة الابن الوحيد، هؤلاء الذين صاروا بنعمته مشاركين له في الميراث، هؤلاء الذين مات لأجلهم.

القديس أغسطينوس

شارك المحسود في خيره بحبك له!

إن أتاك فكر الحسد نحو إنسان ناجح، صلي لكي يعطيه الرب نجاحاً أكثر ويهبك أنت تقدماً – أي حوّل الحسد إلى غيرة. وإن لم تستطع أن تتقدم مثله ارتبط معه برباط الحب فتصيران واحداً، ويصير نجاحه نجاحاً لك... بل يكفيك أنك نجحت بالمسيح يسوع في المحبة !

❖ داو نفسك بالتي هي الداء، أحبب أولئك الذين سبق فكرتهم. أكرم الذين حسدتهم فاحتقرتهم ظلماً. امثل بالصالحين إن استطعت أن تتبعهم. أما إن عجزت عن اقتفاء آثارهم، فعلى الأقل افرح بهم وهنيئ من هم أفضل منك. اجعل لك نصيباً معهم في رابطة الحب الذي يوحدكم. اجعل نفسك شريكاً لهم في تحالف المحبة ورباط الأخوة... فإن أفكارك وأعمالك توجهها السماء فتتهم بالبرّ والأمور الإلهية كما هو مكتوب: "دع قلب

الإنسان يفكر في البرّ، فخطواته يوجهها الرب".

الشهيد كبريانوس

ميراثك لا يقل بكثرة الوارثين!

❖ "الحسد يميّت الضعيف (الأقلّ little one)". يستحيل علينا أن نحسد إلا من نظن أنهم أفضل منا في جانبٍ معيّن. لذلك قيل "الأقلّ" يقتله الحسد. فإن الحاسد يحمل شهادة ضد نفسه أنه أقل من غيره، حيث يعذبه الحسد منه...

هكذا كان قايين الذي انحدر ليقول أخاه، فقد جُن حين رُفضت تقدمته، من ذاك الذي قبل الله تقدمته وفضل عنه (تك ٤)... وهكذا التهب عيسو باضطهاد أخيه، لأنه فقد بركة الباكورية، إذ حرم منها من أجل طبخة عدس (خضار). لقد انتحب انحطاطه بالنسبة لمن فاقه بميلاده (تك ٢٧: ٣٨؛ ٢٩: ٢٥). وهكذا باع الإخوة يوسف للإسماعيليين العابرين، إذ أخفي عنهم سرّ الإعلان، فوضعوا أنفسهم في موقف المقاومة لتقدمه، فلا يكون رئيساً عليهم (تك ٣٧: ٥-١١). وهكذا اضطهد شاول خادمه داود بأن رماه برمح (١ صم ١٠: ١١-١١)، إذ خشي أن يبلغ الرجل إلى قمة أعظم منه، إذ أدرك بلوغه النمو اليومي في الفضيلة... فمن اشتاق أن يكون كاملاً وصحيحاً فليتنجب سم الحسد، ويركز عواطفه على الميراث الذي لا يقل بكثرة الوارثين، هذا الذي هو ميراث واحد للكل، وكامل بالنسبة لكل أحد. والذي يظهر ميراثاً أعظم كلما زاد عدد الذين يمنحونه... فحينما لا يشتاق الشخص إلى الأمور الرديئة لا يوجد شيء يقف أمام الحب.

البابا غريغوريوس (الكبير)

الغيرة والحسد

كثيرًا ما نعبر عن الحسد في لغتنا الدارجة، بل وفي كتاباتنا بكلمة "الغيرة". غير أنه يمكن لنا أن نميز بين كليهما. فالحسد يعني شوق في داخل النفس نحو فشل الآخرين وفقدانهم ممتلكاتهم أو مواهبهم الخ. أي لا يعني الحسد مجرد اشتياقي نحو التقدم مع ترك الآخرين في تقدمهم، بل إحباطًا لهم ولو لم أتقدم أنا. أما الغيرة فإما أن نقصد بها الحسد، وفي ذلك تكون شرًا، أو يقصد بها ما يعني حبي للتقدم والنمو دون حرمان الآخرين من التقدم، فهي منافسة غير قاتلة. "حسنة هي الغيرة في الحسنى" (غل ٤: ١٨).

وللتمييز بينهما افترض أنني رأيت ثلاثة أشخاص أحدهم يمتاز بالوداعة، والثاني بمحبة الفقراء، والثالث بحبه للخدمة. فإن كنت حسودًا كلما أراهم أود أن أفسد جمال الآخرين دون أن أربح، فيزداد حنقي كلما رأيت نموهم. أما إن كنت أغير حسنًا فإنني أتمثل بهم وأتعلّم منهم، مصليًا لأجلهم ولأجل نفسي.

❖ إن قلت ما هو الحسد؟ أجبتك بأنه حزن قلب الحسود على الناس لكثرة أموالهم واغتمامه لسرورهم، أو هو حزن الحسود لخير يحدث لقريبه، وتمنيه بأن يكون هذا الخير له وحده دون سواه.

ولكن البعض يخلط بين الحسد والغيرة، وقد أخطأوا في ذلك. لأن الغيرة إنما هي دافع داخلي يدفع الإنسان إلى الإقتداء بالغير من ذوي الفضل. نعم إن الغيور يحزن كالحسود، لكن الفرق عظيم بين الاثنين. فالحسود يحزن لحصول الخير لقريبه، متمنيًا أن يكون له كما سبق القول. أما الغيور فيحزن على توانيهِ وعدم إحرازه ما أحرزه الغير من الخير. فالحسد إذن رذيلة، أما الغيرة ففضيلة. يقول الرسول: "حسنة هي الغيرة في الحسنى" (غل ٤: ١٨). هذا يختلف عن الحسد، الذي يقول عنه الحكيم: "من يقف قدام الحسد؟!" (أم ٢٧: ٤).

❖ إذا أردت منافسة أخيك، فأنتي لا أمنعك من هذا. نافسه، ولكن بقصد أن تتمثل بذاك الذي نجح، لا بقصد الحط من قدره، بل بارتقاعك إلى مكانته. هذا ارتقاع سليم. قلد غيرك بلا حدود دون أن تحزن على ما قد حصلوا عليه من خير، بل تكدر

على شرك. وهذا على عكس الحسد. فإهمالنا لشؤوننا لا نحزن عليه إلا برؤيتنا خير الآخرين. كالفقير الذي لا يحزن على فقره إلا عندما يرى ما لدى قريبه...
لذلك أتوسل إليكم أن تتركوا هذا الطريق الشرير، فتحولوه إلى غيرة صالحة، وبذلك تحصلون على بركات عظيمة. وقد استخدم الرسول هذه الغيرة ليقود الشعب اليهودي إلى الإيمان قائلاً: "علي أغير أنسبائي، وأخلص أناساً منهم" (رو ١١ : ١٤). فمن كانت غيرته كغيرة بولس لا يحزن عندما ينجح الآخرون، بل يسر عندما يرى نفسه آخر الكل.

❖ الحسد نوع من أنواع اليعسوب (ذكر النحل) يفسد أعمال الآخرين، ولا يرغب في الارتفاع بنفسه، إنما يبكيه نجاح الآخرين، فيصنع كل ما في وسعه نحو إسقاطه.
بماذا أشبه هذا الروح؟ أنه يشبه حملاً بليداً مليء الجسم يحمل مع حصان جيد نيراً. فلا يريد أن يتقدم، وفي نفس الوقت يعطل بتقل جسمه الحصان عن السير. فالحاسد لا يهتم كيف يتخلص من هذا الكابوس، بل يعمل بكل جهده أن يسقط من يرغب في الصعود إلى السماء، وبهذا يشبه الشيطان تماماً. فإذا رأى إنساناً في الفردوس، بدلاً من أن يُصلح نفسه يطلب طرح الآخر خارج الفردوس. وإذا رآه جالساً في السماء والآخرين يسرعون نحو الراحة، فإنه يستخدم نفس الخطة حارماً إياهم من الذهاب إليها، فيجلب على نفسه نازراً أشد.

القديس يوحنا الذهبي الفم

مقومات المحبة الأخوية

ثالثاً:

عدم الإدانة

- ١ . الإدانة والحب
- ٢ . الإدانة والبصيرة الداخلية.
- ٣ . الإدانة وروح التمييز.
- ٤ . الإدانة اغتصاب حق الله.
- ٥ . الإدانة تحجب النعمة.
- ٦ . الإدانة تفقدنا السلام.
- ٧ . الإدانة تشغلنا عن حقيقةتنا.
- ٨ . الإدانة تسقطنا في الدينونة.

الإدانة والحب

الإدانة ليست مجرد ذم الآخرين علانية أو خفية، ولا هي مجرد انتقادهم أو إساءة الظن بهم أو التسرع بالحكم عليهم. الإدانة في جوهرها هي حالة فراغ للنفس التي تنعزل عن الله مخلصها، فتعيش في تيه لا تعرف الاستقرار أو الراحة، فبدلاً من أن يحمل الإنسان في قلبه روح المسيح المحب، يشتهي أن يخدم كل إنسان، ويبذل ذاته كل يوم من أجل كل أحد، إذا به يدور حول نفسه، ولا يجسر أن يدخل إليها ويتعرف على حقيقتها، إنما يلهي نظره بالناس، يحكم على هذا ويدين ذاك، ناظرًا في الآخرين كل ضعف.

الإدانة هي حرمان النفس من الحب الحق، وهروبها من الله مصدر خلاصها أو قل هي عمى البصيرة الداخلية، وفقدان فكر المسيا الذي لأولاد الله.

يقول أيضًا الأب مار إسحق السرياني: [حينما تمتلئ النفس من ثمار الروح، تقوى تمامًا على الكآبة والضيق... وتفتح في قلبها باب الحب لسائر الناس... تطرد كل فكر يؤسوس لها بأن هذا صالح وذاك شرير، هذا بار وذاك خاطئ. تُرتب حواسها الداخلية، وتصلحها مع القلب والضمير، لئلا يتحرك واحد منها بالغضب أو بالغيرة على واحد من أفراد الخليقة. أما النفس العاقر الخالية من ثمار الروح، فهي لابسة الحقد على الدوام والغیظ والضيق والكآبة والضجر والاضطراب، وتدين على الدوام قريبها بجِدٍ ورديء].

❖ أصل الإدانة عدم المحبة، لأن المحبة تستر كل عيب؛ أما القديسون فلا يدينون أحدًا، لكنهم يتألمون معه كعضو منهم، ويشفقون عليه ويعضّدونه ويتحايلون في سبيل خلاصه، حتى ينتشلوه كالصيادين الذين يرخون الحبل للسكة قليلاً قليلاً حتى لا تخرق الشبكة وتضيع... فإذا توقفت ثورة حركتها حينئذ يحركونها قليلاً قليلاً.

الأب دوروثيوس

❖ الذين يشعرون بأنه ليس فيهم شيء صالح بينما هم يرتكبون خطايا ومعاصي كثيرة، يجدون تعزيزيتهم في تشويه شخصية الغير^١.

^١ In 2 Tim. hom 8.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ينصحنا الرب ألا نحكم على أحد بتهور أو بظلم، لأنه يرغب في أن نصنع كل شيء بقلب بسيط متجه دائماً نحو الله. هذا وإذ يكون استعداد من يحكم على الآخرين هو البحث عن خطايا الغير لتوبيخهم وإدانتهم، لا لإصلاحهم وتهذيبهم في محبة... كل هذا بسبب كبريائهم أو حسدهم، لذلك أضاف رب المجد: "ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك. وأما الخشبة التي في عينك فلا تفتن لها؟"

فلو سقط أخوك في خطية الغضب، تسقط أنت في خطية الكراهية (إدانتك له). وهناك فرق شاسع بين الغضب والكراهية كما هو بين القذى والخشبة. لأن الكراهية هي غضب مزمن، فبطول الزمن اشتد القذى (الغضب) حتى صار يدعى بحق خشبة (الكراهية). فإنك إن غضبت على إنسان فلا بد أنك ترغب في رجوعه إلى الحق، أما إذا كرهته فلا يمكن لك أن تشاق إلى رجوعه¹.

❖ أم كيف تقول لأخيك ضعني أخرج القذى من عينك، وها الخشبة في عينك؟ يا مرائي أخرج أولاً الخشبة من عينك، وحينئذ تبصر جيداً أن تُخرج القذى من عين أخيك. أزل عنك الكراهية حتى تستطيع إصلاح من تحبه. حسناً يقول الرب "يا مرائي" لأن الإنسان المحب، وحده الذي له أن يشتكي من خطايا الآخرين، أما الشرير، فمتى اشتكى على الآخرين يكون مرئياً، إذ يظهر نفسه بصورة غير التي هو عليها... فهناك صنف من المتصنعين يشتكون من خطايا الآخرين كالكراهية والضغينة بقصد الظهور بمظهر أصحاب المشورة... لنحذر لئلا نسقط في هذا، كذلك إذا اضطررت إلى الكشف عن أخطاء الآخرين أو انتهارهم، فلننظر إلى أنفسنا إن كنا نرتكب نفس الخطايا، أو سبق لنا ارتكابها. فإن كنا لم نرتكبها لنعلم أننا بشر معرضون للخطية. أما إن كنا قد ارتكبنا الخطية من قبل وقد تحررنا منها، فلنذكر ضعفنا على الدوام. لذلك وجب علينا أن نكمن لمن نكشف أخطاءهم المحبة لا الكراهية... ولنحذر لئلا نشتغل بخطاياهم... فلا نلوم الخاطئ ولا نننهره، بل نحزن بشدة على حالتنا هذه، غير طالبين منه أن يطيعنا، بل أن يجاهد معنا².

❖ علينا ألا نستخدم التوبيخ إلا نادراً. وإذا اضطررنا إلى استخدامه يجب علينا أن نسعى

¹ Sermon on the Mount 2:63.

² Sermon on the Mount 2:64.

بشغفٍ إلى خدمة الله لا أنفسنا. ليكون لنا هدف واحد، فلا نفعل شيئاً بقلب مزدوج. لنخرج من أعيننا خشبة الحسد أو الحقد أو التصنع، حتى نتمكن من الإبصار فنخرج القذى من عيني أخينا. للنظر إلى القذى بعيني الحمامة، اللتين لعروس المسيح (نش ١:٤)، التي اختارها الله لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن، أي نقية لا غش فيها (أف ٥:٢٧).^١

القديس أغسطينوس

^١ Sermon on the Mount 2:66.

الإدانة والبصيرة الداخلية

الخطية بطبعها تُفقد الإنسان بساطته، فلا يعود يرى كل شيء صالحًا، بل يتطلع إليه من خلال ضعفه، فيرى ضعفه متجليًا في كل ما هو حوله. وأبسط الأمثلة على ذلك تجد الشاب الذي ليست له خبرات في الأمور الجنسية يظن في كل الناس قديسين وأطهارًا. والإنسان الذي ألقى بنفسه في هذه الخبرات وتمرغ فيها لن يصدق وجود إنسانٍ عفيفٍ أو طاهر العينين.

أقول إن الإنسان يرى نفسه فيمن هم حوله دون أن يدري، فإن كانت بصيرته الداخلية - أي قلبه - شريرة، لا يرى إلا الشر حتى في أعظم القديسين. أما العين البسيطة فتري جمالاً في كل مخلوق، ولو كان لصاً في لحظات إعدامه. لذلك إن كان لفكر الإدانة فائدة، إنما يكشف لي ضعفي وشري. فإن حكمت على إنسان إنه زانٍ علمت بعبوديتي للزنا، وإن حكمت عليه بمحبة المال، أدركت أنني لا زلت محباً للمال.

نظرة يسوع القدوس

رأى الفريسي المتكبر في المرأة الزانية نجاسة لا تُطاق، وشرًا لا يُحتمل، حتى استكثر عليها أن تتجاسر وتدخل بيته. وكأنه يود لو طرد ربنا يسوع حتى لا يدخل معه أمثال هذه. أما ربنا يسوع فرأى في قلبها المنكسر ودموع عينيها حبًا كثيرًا فغفر لها خطاياها الكثيرة.

ورأت الجماهير في زكا رئيس العشارين إنسانًا خائنًا عابدًا للمال لا يستحق أن يعيش بينهم، أما السيد المسيح فرأى فيه شوقه للخلاص والتحرر من المادة، فيستحق دخول رب المجد لا إلى بيته فحسب، بل وداخل قلبه.

إن نظرة ربنا يسوع القدوس المحب للنفس المعترفة بسوداها، هي: "أنت جميلة يا حبيبتي. أنت جميلة" (نش ١ : ١٥). أما أخواتها فيرين سوداها، لذلك وبختهن قائلة: "لا تنتظرن إليّ لكوني سوداء، لأن الشمس قد لوححتني" (نش ١ : ٦).

هذه هي نظرة السيد المسيح المحب، الذي نزل إلينا يعلن جمال النفس خلال انعكاس نوره عليها. أما الإنسان، ففي جفاف قلبه يرى من خلال شره الشر لا في إخوته

فحسب، بل حتى في مصدر القداسة ذاته، فقد "خرجوا ليمسكوه، لأنهم قالوا أنه مختل العقل" و"قالوا إن معه بعليزبول، وأنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين" (مر ٣: ٢١ - ٢٢). أي منظار أشر من هذا؟

فالإدانة سرّها لا في ضعف الآخرين وشرهم، بل في فساد العين الناقدة وجفاف حبها وانفصالها عن "المسيا" مصدر حياتها.

قيل أن ثلاثة رهبان رأوا راهبًا خرج من قلايته بعيدًا، رآه الأول فقال: يا له من راهبٍ محب للمال، خرج إلى العالم يفتني مالا. والثاني ظن فيه أنه خرج بسبب شهوته. أما الثالث فظن أنه خرج بعيدًا عن القلاية ليختلي مع إلهه بالصلاة. فالواقعة واحدة لكن كلاً منهم رآه من خلال قلبه وحياته الداخلية.

لهذا يقول الآباء إن الكمال - في المسيح يسوع - يحجب أعيننا عن معاينة عيوب إخوتنا فلا نرى إلا ربنا، ولا نقدر أن ندين أحدًا.

❖ لقد اعتادوا أن يقولوا عن الأب مقاريوس الكبير: كما أن الله يستر الأرض كلها ويحتمل الشر، هكذا كان يسلك مقاريوس كإله بين الإخوة يستر خطاياهم التي رآها كأنه لم يرها، والتي سمعها كأنه لم يسمعها^١.

مارتين من براغ

❖ الكامل هو الذي يحسب أن كل الناس أفضل منه، وعديم المعرفة هو الذي يرذل رفقاءه بازدراء.

القديس يوحنا التبايسي

❖ قال شيخ: إياك أن تقول في قلبك عن إنسان إنك أفضل منه، أو أكثر معرفة منه أو أبر منه، بل اخضع لنعمة الله ولروح الحكمة والحب الذي بلا غش، لئلا تنطفئ بالعظمة وتقعد تعبك، لأنه مكتوب: يا من تظن أنك قائم، احذر لئلا تسقط.

بستان الرهبان

❖ يجب على المسيحيين أن يجتهدوا... أن لا يدينوا أحدًا حتى ولا زانية من الزانيات، ولا الأثمة المشهورين بخطاياهم، ولا قليلي النظام، بل يراعوا كل جنس البشر بسداجة النية

^١ مارتين، من رجال القرن السادس حمل معه في رحلته من الشرق إلى أسبانيا مخطوطات من بينها مخطوط يوناني يحوي جميعًا لقصص نساك مصريين.

وعين النقاوة، لكي يصبح الإنسان من طبيعته وأساسه لا يستخف بأحد ولا يدين أو يكره أحداً، حتى ولا يميز بين الناس. فإن رأيت رجلاً أعور فلا تحتقره في قلبك بل أعطه من الاهتمام حقه الذي كنت تعطيه له لو كان بلا عيب... لأن نقاوة القلب الصحيحة هي أنك إن رأيت الخطاة أو الضعفاء ترثي لحالهم، وتظهر لهم الرحمة. فإن هذا هو ما يناسب قديسي الرب أن يجلسوا في المحرس (حب ٢: ١؛ إش ٢١: ٨)، ويعاينون ضلال العالم وخداعه ويخاطبون الله بالإنسان الباطن.

القديس مقاريوس الكبير

❖ أن يعيش أحد حسب الجسد هو أن يحيا بطريقة شريرة، هكذا من يدين حسب الجسد يدين ظلماً^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ من كان ضميره دائماً يهذي بالصالحات لا ينظر إلى نقائص قريبه.

❖ النفس العاقر الخالية من ثمار الروح، فهي دوماً لابسة الحق والغيظ والضيق والكآبة والضرر والاضطراب، وتدين قريبها على الدوام بجدي وريء.

❖ ما هي العلامة التي تدل على أن الإنسان قد وصل إلى نقاوة القلب؟ حينما يرى كل الناس في نور جميل، فلا يتراءى له أحد أنه دنس أو نجس... وها تحققه كلمة الرسول: "حتى تفنكروا فكراً واحداً بنفس واحدة، مفكرين شيئاً واحداً، لا شيء بتحزب أو بعجب بل بتواضع، حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسكم".

الأب مار إسحق السرياني

❖ النفس النقية ترى الله في كل نفس أخرى، كما أعلم الله بطرس حين كان في يافا واقفاً على السطح ليصلي. لأنه ليس من أجل البهائم والوحوش صار له الصوت والرؤيا أن ما طهره الله لا تنجسه أنت، بل لكي ينظر إلى كل الناس أظهاراً. لذلك قال بطرس بعدما تلقن وتعلم من الروح القدس: "وأما أنا فقد أراني الله أن لا أقول عن إنسان ما إنه دنس نجس" (أع ١٠: ٢٨).

كذلك أنت يا محب الإله قم وصل لتتعلم نقاوة النفس لترى كل الناس أظهاراً. قم اصعد على سلم النفس وارتفع إلى الطابق الأول منها الذي هو أعمال الجسد وصنع

^١ Hom 52. PG 59:307.

الفضائل، وحينئذ يمكنك الارتفاع إلى الطابق الثاني من نفسك الذي هو ضبط العقل والتسلط على الأفكار، فإذا ضبطت فكرك بالطهارة وصار هذيك في الله فقط حينئذ ترتفع إلى الطابق الثالث الذي هو نقاوة النفس فتري وأنت قائم تصلي كمثلي بطرس على السطح كل شيء طاهرًا للظاهرين!

فإذا نظرت أناسًا أشرارًا وفاسقين أو نامامين وشتامين أو متوانين ومتكاسلين، فلا تظن أنهم من طبع البهائم خلقوا، بل اعلم أنهم من الله أتوا إلى الوجود! وحينئذ يصيرون أطهرًا في عينيك! وإذا نظرت أناسًا جهلة وزناة وعبداء أوثان فلا تقل في نفسك إنهم مثل الكلاب والخنازير، بل اعلم أنهم شبه الله خلقوا له إن قاموا أو سقطوا.

المسيح لما علمك أن تزور المسجونين، أراك أن تفهم أنه في الذين في الحبس. "كنت محبوسًا فأتيتم إلي"، لأنه "بما أنتم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم" (مت ٢٥: ٣٦، ٤٠). ونحن نعلم أنه لا يكون في الحبس غالبًا إلا صانعو الشر والسارقون والزناة والسحرة والقتلة. إذن أراد المسيح أن يعرفك أن تنظر إلى فاعلي الشر كالأبرار، وأن لا تحكم على أحد بأنه دنس أو نجس أو شرير... فهو يطلب نقاوة قلبك مع نقاوة عينيك...

وهكذا إذا نظرت جميع الخليقة بفكرٍ طاهرٍ ونفسٍ نقية ورأيت الجميع طاهرين أمام عينيك فاعلم أن المسيح حقًا ساكن فيك.

أندريناوس الأسقف

الإدانة وروح التمييز

روح الحب وروح التمييز

امتلاء القلب بالحب هو امتلاء بعمل روح الرب، الذي هو عمل روح الحكمة والتمييز أيضًا. فالحب لا يعرف الغباء، ولا بساطة القلب تعني الجهل، ولا عدم الإدانة يعني الخط بين الشر والخير. إنما أقول العكس قدر ما ندخل في شركة مع ربنا يسوع، نمتلئ بالروح القدس حبًا، وفي نفس الوقت نمتلئ إفرارًا وفهمًا، بهما نميز بشكلٍ قاطعٍ الخطية عن الخير.

لكن كما يقول أحد الآباء القديسين أن هناك فارق بين الحكم على الخطية كخطية وظلمة، وبين إدانة إنسانٍ والحكم عليه كخاطيءٍ وشريرٍ. فالخطية هي خطية، وويل للقائلين عن الشر خيرًا، لكن قد نرى إنسانًا يرتكب الخطية فلا نحكم عليه أو ندينه لأننا لا نعلم دوافعه الداخلية، أو ربما في لحظات ضعف تمر به وتنتهي، أو أخطأ عن جهل، أو لعله يخطئ اليوم وغداً يتوب! بهذا فإن الروح القدس يسكب حبه فينا، فلا نحكم على الناس كخطاة، بل وإن كنا نراهم يخطئون فإنني أحكم على نفسي إنني ارتكب هذه الخطية ومحتاج إلى عون المخلص. يستر الروح القدس عيوب الناس عن أعيننا، فنرى ضعفاتهم ضعفاتنا نحن، ونتوب عنها كأنها من فعلنا، لأنهم واحد معنا.

لندنُ الخطية لا الخاطي

❖ (في قصة المرأة الزانية): يسوع قد دان الخطيَّة لا الإنسان.

القديس أغسطينوس

لا يتطلع المحب إلى المخطئ وهو في حال الخطية فيحتقره، إنما ينظر إليه كإنسانٍ محتاجٍ إلى من يسنده ويقيمه، ليرث المجد المعد له، فيحبه ويترفق به. وكما علق القديس أغسطينوس على قول رب المجد للمرأة التي أمسكت في ذات الفعل "ولا أنا أدبتك" قائلاً: [ما هذا يا ربي؟ هل بهذا تسهل الخطية؟ حاشا! بل انظر ماذا قال: "اذهبي ولا تخطئي أيضًا". يسوع هنا دان لا الإنسان بل الخطية. فلو كان معضداً للخطية لقال لها:

"ولا أنا أدينك. اذهبي واخطئي ما شئت، وأنا بخلاصي أمحو كل ما ترتكبيه." [من يرفع عينيه إلى خلاص المسيح، والمجد الذي أعد للخاطئة التائبين لا يستطيع أن يحتقر أحداً أو يدينه، بل يحتقر الخطية ويدينها طالباً الخلاص لنفسه ولكل اخوته.

❖ لا تسيء إلى إنسان، الذي هو صورة الله، بسبب الشر الذي فيه، فإن الشر أمر عارض، هو محنة ومرض وتضليل شيطاني، أما كيانه، كصورة الله، فهو باقٍ¹.

الأب يوحنا كرونستادت

❖ الذين لم يشعروا بالغنى المُدخر للبشر بالميلاد الثاني، هم الذين يبغضون الناس ويحتقرونهم (وبالتالي يدينونهم). مثل أناس متمتعين بغنى كثير وكرامة وسلطان في مدينتهم، عندما يسافرون إلى مدينة أخرى، فإن الناس غير العارفين بعظمتهم وغناهم لا يقدرون أن يكرمهم بالحب، بل يتشامخون عليهم ويحتقرونهم. أما إذا وُجد عارفون بعظمة سلطانهم، فإنهم لا يستطيعون أن يتعظموا عليهم بل يكرمونهم بمحبة عظيمة.

وعلى هذا المنوال يبغض الناس بعضهم البعض، بكثرة شرورهم وتعظمهم بعضهم على بعض بطغيان الضلالة، لأنهم لم يشعروا بالمجد العظيم والشرف الذي لهم لدى نعمة الله. أما الذي شعر بكرامة البشر لدى الله، فإنه يتواضع لجميع البشر، لأنه لا ينظر إلى حالتهم الخارجية المسكنية في العالم، بل ينظر إلى عظمة مجدهم هناك، ومع أنه ينظر الناس منغمسين في سائر الشرور، فإنه لا يقدر أن يبغضهم أو يحتقرهم، لأنه يعرف أن الناس لو أحسوا بالنعم المزمع أن يعطيها لهم الله، لما أغضبوه بسبب شرورهم. وبهذا الفكر السامي، لا يقدر إنسان أن يظن في نفسه أنه أفضل منهم، لأنه يعرف أنهم سيكونون هناك بأفكارٍ غير مختلجة بالخطية...

أريد أن أعرفكم عن الكمال، لو كنتم تحسون الرجاء المزمع، لكنتم تعتقون من جميع الآلام المؤذية، ولامتلأت نفوسكم بمحبة الناس، مثل أناس يعيشون في قرية متعبين بالفقر والمسكنة، وأرسل إليهم الملك وعداً فاضلاً بأنه سرّ أن يدخلهم إلى بلاطه بمجدٍ وكرامة. فالذين أحسوا بهذا الوعد لا يقدرون أن يبغضوا أولئك المساكين ولا يحتقرونهم، كما كان الحال سابقاً، بل يعاملونهم بكل تواضع ومحبة. أما الذين لم يعرفوا الوعد الذي وعدهم به الملك فيزدرون بهم ويحتقرونهم.

على هذا المثال يعيش البشر في هذه الحياة بالشقاء والأحزان، والله برحمته وبغنى

¹ The Spiritual Counsels of Fr. John Kronstadt, 1966, p. 189.

نعمته أعطاهم مواعيد عظيمة وعرفهم الإنجيل المقدس. فلا ينبغي أن ننظر إلى الناس في خطاياهم الحاضرة، بل في الحالة المزعم أن يكونوا فيها بلا خطية^١.

القديس يوحنا التبائسي

المحبة لا الإدانة تصلح الخاطي

❖ قال شيخ: إن كنت تحب أخاك فلا تدنه، لأن بإدانتك له تكون غضبت وقسوت عليه ودنته، فكيف تستطيع بشرك هذا أن تتقذ أخاك؟! فقد جاء عن أحد الاخوة أنه شكا أخاً لأحد الآباء قائلاً: "ماذا أصنع يا أباي، فإن أخي يحزنني لأنه دؤار (لا يريد البقاء في قلايته مجاهدًا)؟" فأجابه الأب: "احتمله يا حبيبي، فإن الله قادر أن يرده إذا ما رأى تعبك وصبرك وترفقك به، وإياك والقسوة، فإن شيطاناً لا يطرد شيطاناً، فبترفقك وصبرك يرجع، لأن إنما يُرد الإنسان بطول روحه وطيب قلبه واحتماله".

❖ ادعى البعض على أخ في دير أنه زان، فترك لهم الدير وذهب إلى الأنبا أنطونيوس، فجاء اخوته الذين بالدير إليه، فبدأوا يوبخونه... أما هو فأجابهم أنه لم يفعل شيئاً مما يقولونه. واتفق أن الأنبا بفتوتيس كان هناك، فقال لهم مثلاً: "رأيت رجلاً على شاطئ النهر، وقد ألقوه في الطين إلى ركبته، فجاء قوم ليساعدوه فغطسوه إلى كتفيه"، قاصداً بذلك أنهم بدلاً من أن يعينوا الأخ على التوبة يسقطوه أكثر في الخطية بقسوتهم.

❖ قال شيخ: "إذا أردت أن ترضي الله... لا تدن أحداً، واجعل فكرك في الله، وإذا أبصرت أحداً يخطئ صل لله قائلاً: "اغفر لي، فإني أنا الذي فعلت هذه الخطية" فتنم فيك الكلمة المكتوبة: "ما من حب أعظم من هذا أن يضع الإنسان نفسه عن رفيقه".

بستان الرهبان

❖ ابسط رداءك على المذنب واستره، إن كنت لا تقدر أن تحتل وتضع أوزاره على نفسك.

مار إسحق السرياني

❖ اعترف أنني أخطئ كل يوم بخصوص هذا، فإنني لست أعرف متى وكيف ألاحظ حكم الكتاب المقدس: "الذين يخطئون وبخهم أمام الجميع لكي يكون عند الباقيين خوف"

^١ الآباء الحاذقون في العبادة - مطبوعات السيدة العذراء - السريان - ١٩٥٢، ج ٢، ص ١٨-٢٠.

(١ تي ٢٠:٥) والحكم: "اذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما" (مت ١٨:١٥)، وبين الحكم: "لا تحكموا في شيء قبل الوقت". فإنه لا يُعرف أحد من آخر بدقة كما يعرف الشخص نفسه. بل ولا يعرف الشخص حتى ذاته حتى يتأكد من سلوكه في الغد ماذا سيكون. لذلك فإنه بالرغم من أن كثيرين يُعرفون من ثمارهم، فالبعض يبهجون أقرباءهم بحياتهم الصالحة بينما يحزن الآخرون أقرباءهم بحياتهم الشريرة، إلا أن أذهان البشر غير مدركة وغير مستقرة، لذا فإنه من باب الحكمة العلوية أن يحتثا الرسول: "لا تحكموا في شيء قبل الوقت حتى يأتي الرب الذي سينير خفايا الظلام ويظهر آراء القلوب، وحينئذ يكون المدح لكل واحدٍ من الله".

القديس أغسطينوس

لا تستخف بالغير

وكما يقول القديس مقاريوس الكبير: [يجب على المسيحيين أن يجتهدوا ألا يدينوا أحدًا حتى ولا كانوا قليلي التدبير، بل يراعوا كل جنس البشر بسداجة النية وعين النقاوة، لكي يصبح الإنسان من طبيعته وأساسه ألا يستخف بأحدٍ، ولا يدين أحدًا أو يكره أحدًا^١.]

❖ أحيانًا لا ندين الآخرين فحسب بل ونستخف بهم. فإن الإدانة شيء والاستخفاف بالآخرين شيء آخر. الاستخفاف بالغير يعني أن الإنسان ليس فقط يدين الآخر بل ويحتقره ويزدرى به ويبعد عنه كما لو كان نجسًا وهذا أشر من الإدانة وأكثر ضررًا. الأب دوروثيوس

❖ النطق بشيء شيء، والإدانة أو التقليل من شأن الغير شيء آخر.

أن "تنطق بشيء" يعني أن تقول عن إنسان أنه قد كذب أو زنى أو كان غشوبًا أو صنع خطأ آخر. وهكذا فإن نطق الإنسان بشيء ضد أخيه يعني أن يتكلم عن عصيانه بأنفعال.

أما الإدانة فتعني أن تقول: "فلان" كذاب وزاني وسيئ الأخلاق. مثل هذا الإنسان يدين حاله نفس الغير ذاتها، مصدرًا حكمًا على حياته كلها، بقوله أنه كذا وكذا. ويصدر عليه هذا الحكم... وهذه خطيئة خطيرة.

الأب دوروثيوس

^١ للمؤلف: الحب الأخوي، الإسكندرية، ١٩٦٤، ص ٤٣٤-٤٣٥، راجع فصل عدم الإدانة ص ٤٣١-٤٥٥

افتراض أحسن قصد ممكن لأعمال الآخرين

❖ طالما يصعب علينا معرفة هدف الآخرين من اكتنازهم للأشياء الزمنية... فقد يكون قلبهم بسيطاً أو مزدوجاً، لذلك يليق أن يقال: لا تدينوا لكي لا تدانوا، لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون. وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم.

أظن أننا من هذه الوصية نتعلم ضرورة افتراض أحسن قصد ممكن لأعمال الآخرين التي يمكن أن نشك في نيتها. أما عندما كتب: "من ثمارهم تعرفونهم" فقد قصد بها الثمار التي لا يمكن الشك فيها مثل الدعارة والتجديف والسرقة والسكر وأمثال ذلك التي سمح بالحكم فيها (من الكنيسة) حيث يقول الرسول: "لأنه ماذا لي أن أدين الذين من الخارج. أستم أنتم تدينون من الداخل" (١ كو ١٢:٥). فلا ندين إنساناً على أكل معين، فقد يأكل بنية صالحة بدون شهوة، لهذا يمنع الرسول الممتنعين عن أكل اللحم وشرب الخمر عن إدانة من يأكلونه ويشربونه، قائلاً: "لا يزدِرْ مَنْ يَأْكُلُ بِمَنْ لَا يَأْكُلُ. وَلَا يَدِينُ مَنْ لَا يَأْكُلُ مَنْ يَأْكُلُ". كما يقول: "مَنْ أَنْتَ تَدِينُ عَبْدَ غَيْرِكَ. هُوَ لِمَوْلَاةٍ يَثْبِتُ أَوْ يَسْقُطُ" (رو ١٤:٣، ٤).

ويدخل ضمن هذا النوع من الأعمال التي يحتمل أن تُصنع بقصد صالح أو شرير قول الرسول: "إذاً لا تحكموا في شيء قبل الوقت، حتى يأتي الربُّ الذي سينير خفايا الظلام، ويظهر آراء القلوب. وحينئذٍ يكون المدح لكل واحدٍ من الله" (١ كو ٥:٤). فأبي حكم على هؤلاء يكون فيه تهور منا. ويقول الرسول في عبارة أخرى "خطايا بعض الناس واضحة تتقدّم إلى القضاء. وأما البعض فتتبعهم" (١ تي ٢٤:٥). فالخطايا الظاهر نيتها دعاها خطايا واضحة، لا يتهور القضاء في الحكم عليها. أما الخطايا الخفية فتتبعهم وهي لا تدوم مخفية. إذن فلنحكم (ككنيسة) على الأعمال الواضحة، أما الخفية فلنتركها لحكم الله، فسيأتي الوقت تتكشف فيه^١.

❖ ينبغي علينا ألا نحكم على الآخرين في أي حالة من الحالتين التاليتين:

(١) إذا كانت النية غير واضحة.

(٢) إذا كانت حالة الشخص المستقبلية غير ثابتة فهناك احتمال أن يصير صالحاً

أو شريراً.

مثال ذلك، لو أن إنساناً لم يرغب في الصوم بحجة مرض معدته. فإن لم تصدقه

^١ Sermon on the Mount 2:59-60.

تكون قد تهورت في حكمك، كذلك لو عرفت أن النهم والسكر رذيلتان واضحتان، فتوبخ من يرتكبهما كأنه لن يصلح بعد، تكون قد تهورت في حكمك.
ليتنا لا نحكم على الأمور الغير واضح نيتها، كما لا نحكم على الأمور الواضح نيتها، كأننا قد يؤسنا من رجوع من يرتكبها إلى الحق... لذلك قيل "لا تدينوا لكي لا تدانوا"^١.

القديس أغسطينوس

^١ Sermon on the Mount 2:61.

الإدانة اغتصاب حق الله

إذ تحدث الأب دوروثيوس عن "عدم إدانة قريبنا"^١ أفاض في الحديث عن التزامنا بعدم اغتصاب حق الله في الدينونة، إذ هو وحده يعرف كل نفس وقوتها وميولها، ومواهب الإنسان وتكوينه البيولوجي وطاقاته والظروف المحيطة به. وبناء على هذا كله فهو الذي يدين أو يبرر. حقًا قد نعرف إنسانًا أخطأ خطية معينة وربما واضحة لا تحتاج إلى بحث، لكن هل يمكن أن نحكم على الإنسان ككلٍ من أجل خطية أو خطايا ارتكبها في وقتٍ ما، ونحن لا نعرف أعماقه أو ظروفه؟! فمن كلماته في هذا الشأن:

[أنتم تعرفون بشاعة خطأ إدانة أخيك. أي شيء أخطر من هذا؟ وكما يقول الآباء: أي شيء أشر من هذا؟ ماذا يبغض الله وينفره مثل هذا؟! أي أمر أبشع من الحكم على الغير بتهور؟... ليس شيء يغضب الله أو يعزّي الإنسان أو يدفعه لهلاكه مثل اغتيابه أخيه أو إدانته أو احتقاره... إنه لأمر خطير أن تحكم على إنسانٍ من أجل خطيةٍ واحدةٍ ارتكبها، لذلك يقول المسيح: "يا مرائي اخرج الخشبة التي في عينيك، وحينئذ تبصر جيدًا أن تخرج القذى الذي في عين أخيك" (مت ٧: ٥). انظر فإنه يُشَبَّه خطية الأخ بالقذى أما حكمك المتهور فيحسبه خشبة.

تقريبًا أصعب خطية يمكن معالجتها هي إدانة أخينا... لماذا بالبحري لا ندين أنفسنا ونحكم على شرنا الذي نعرفه تمامًا وبدقة والذي نعطي عنه حسابًا أمام الله؟ لماذا نغتصب حق الله في الإدانة؟!...

الله وحده يدين، له أن يبرر وله أن يدين، هو يعرف حال كل واحدٍ منا وإمكانياته وانحرافاتنا ومواهبنا وأحوالنا واستعداداتنا، فله وحده أن يدين حسب معرفته الفريدة. إنه يدين أعمال الأسقف بطريقة وأعمال رئيس بطريرك أخرى، يحكم على أب دير أو تلميذ له بطريقة مغايرة، الشخص القديم (له خبراته ومعرفته) غير طالب الرهبنة، المريض غير ذي الصحة السليمة. من يقدر أن يفهم كل هذه الأحكام سوى خالق كل شيءٍ والعارف بكل الأمور؟]

يكمل الأب دوروثيوس حديثه عن عدم الإدانة بعرضه قصة يتذكرها، عن سفينة

^١ Eric P. Wheeler: Dorotheos of Gaza: Discourses and Sayings, 1977, p. 131F.

كانت تحمل عبيداً، إذ تقدمت عذراء قديسة إلى صاحب السفينة واشترت منه فتاة صغيرة حملتها معها إلى حبرتها لتدربها على الحياة التقوية كابنة صغيرة لها، ولم يمضِ إلا قليلاً حتى جاءت فرقة للرقص اشترت أخت هذه الفتاة الصغيرة لتدربها على أعمال اللهو والمجون والحياة الفاسدة. هنا يقف الأب دوروثيوس مندهشاً، أن الفتاتين أغتصبتا من والديهما، إحداهما تتمتع بمخافة الرب تحت قيادة قديسة محبة والأخرى بغير إرادتها أغتصبت لممارسة الحياة الفاسدة. لهذا يتساءل: أليس لله وحده أن يدين الفتاتين بطريقة يصعب علينا إدراكها؟! نحن نتسرع في الحكم أما الله فعالم الأسرار، طويل الأناة، وحده قادر أن يبرر أو يدين. هو ديان المسكونة، فمن تجاسر ودان أخاه يهين الديان نفسه. وكما يقول القديس أغسطينوس لا يقدر إنسان أن يدين أخاه لسببين:

١. عدم معرفته نية أخيه وأعماقه الداخلية.
 ٢. عدم تأكده من تصلف قلب أخيه، فربما يتوب في اللحظات الأخيرة. فبإدانته يكون قد حُكم عليه باليأس منه بينما لا يزال الله يعطيه مهلة للتوبة.
- يقول القديس كبريانوس: [إنه لكبرياء وتشامخ أن يتجاسر أحد يظن أنه قادر أن يفعل ما لم يهبه الله حتى للرسول، فيحسب أنه يستطيع تمييز الزوان عن الحنطة... ومن يفكر أنه يختار الأواني الذهبية والفضية ويحتقر الأواني الخشبية والخزفية ويحتقرها ويطردها، مع أن الأواني الخشبية لا تُحرق إلا يوم الرب بالنار الإلهية المحرقة، والأواني الخزفية لا يسحقها إلا ذاك الذي أُعطي له قضيب من حديد^١]. كما يقول: [إن كان يبدو وجود زوان في الكنيسة، لكن إيماننا ومحبتنا لا تُعاقا، فلا نترك الكنيسة لأننا نرى فيها زواناً، بل بالحري يليق بنا أن نجاهد لكي نصير حنطة، حتى متى أبتدئ في جمع الحنطة معاً في بيدر الرب ننال ثمرًا عن تعبنا وعملنا... لا يكون العبد أعظم من سيده، ولا يدّعي لنفسه ما أعطاه الأب للابن وحده، فيظن أنه قادر أن يأخذ المذرة ويذري الحصاد... أو قادر أن يفصل كل الحنطة عن الزوان بحكم بشري^٢].

أمثلة من سير القديسين

❖ حدث أن دان إسحق القس التبايسي أخاً على فعلٍ ما، وذلك بعد خروجه من الجماعة ليتوحد في البرية، فجاءه ملاك يقول له: "الرب يقول لك: أين تشاء أن تطرح

^١ Ep. 51: 52.

^٢ Ep. 50: 3.

نفس ذلك الأخ المخطئ الذي تدينه؟" فلما أدرك خطأه قال: "أخطأت. اغفر لي". أجابه الملاك: "الله غفر لك، ولكن ينبغي عليك أن تحفظ نفسك من الآن ولا تدين أحدًا من الناس قبل أن يدينه الله".

قال يوحنا السينائي: إنه في حال جلوسي في البرية الداخلية، جاءني أحد الإخوة متفقًا من الدير. فسألته: كيف حال الإخوة؟ فأجابني "بخير بصلاتك"، فسألته عن أخ كانت سمعته قبيحة، فأجابني: "صدقني يا أبي، إنه لم يتب منذ ذلك الوقت الذي أشيعت عنه تلك الأخبار". فلما سمعت ذلك قلت "إف". فعند قولي "إف" أخذني سبات، وكأن نفسي قد أخذت، فرأيت إنني قائم قدام الجمجمة، والمسيح مصلوبًا بين لصين، فتقدمت لأسجد له، ولكنه أمر الملائكة الواقفين قدامه بإبعادي خارجًا، قائلاً: "إن هذا الإنسان قد اغتصب الدينونة مني، وأدان أخاه قبل أن أدينه أنا". فوليت هاربًا، فتعلق ثوبي بالباب وأغلق عليه، فتخلّيت عن ثوبي هناك. فلما استيقظت قلت للأخ الذي جاءني: "ما أردأ هذا اليوم عليّ"، فأجابني: "لَمْ يا أبي؟"، فأخبرته بما رأيت وقلت: "لقد عذمت هذا الثوب الذي هو سترة الله لي".

ومنذ ذلك اليوم أقام القديس هكذا تائهاً سبع سنوات في البراري، لا يأكل خبزًا ولا يأوي تحت سقف، ولا يبصر إنسانًا، وأخيرًا رأى في منامه كأن الرب قد أمر أن يعطوه الثوب، فلما انتبه فرح فرحًا عظيمًا.

❖ قال شيخ: "إذا كان لا يعرف ما في الإنسان إلا روحه كقول الرسول، وإذا كنا نعلم أن كثيرين تابوا ولم نعلم بتوبتهم، إذن قد يتوب الإنسان في آخر حياته، وتقبل كتوبة اللص، فعليك إلا تدين أحدًا. فالديان هو الله وحده، فكيف يجسر أحد أن يتدخل فيما هو خاص بالله؟!"

بستان الرهبان

❖ لا تكن ديانًا لأخيك، لتؤهل أنت للغفران، فربما تراه دائمًا مخطئًا، لكنك لا تعلم بأية خاتمة يفارق العالم. فاللص المصلوب مع يسوع كان قاتلاً وسفاكًا للدماء، ويهوذا كان تلميذًا للمسيح ومن الأخصاء، إذ كان الصندوق عنده، إلا أنهما في زمن يسير تغيرا، فدخل اللص الفردوس، واستحق التلميذ المشنقة وهلك.

القديس أنسطاسيوس

❖ انظروا يا اخوتي أن عمل الخدام في عرس ابن الملك (مت ٢٢) لم يكن سوى جذب الصالحين والأشرار إلى الوليمة، ولم يقل الرب عنهم أنهم دانوا المدعوين وميّزوا بين الصالحين والأشرار، ولا قال عنهم إنهم وجدوا من ليس عليه لباس العرس، بل الملك نفسه هو الذي رآه، سيد البيت وحده هو الذي اكتشفه وأخرجه.

القديس أغسطينوس

❖ إن أبصرت إنسانًا قد أخطأ وشاهدته في الغد، فلا تنتظر إليه كخاطيء، فإنك لا تعرف إن كان في فترة غيابك عنه قد عمل شيئًا صالحًا بعد السقطة، إنما تصرع إلى الرب بزفرات وعبرات مرّة، مستعطًا إياه!

مار أفرام السرياني

❖ لماذا تدين أخاك؟ لماذا تزدري به؟ فإنك لم تؤمر بهذا يا إنسان، بل أمرت أن تختبر ذاتك. فلماذا تخطف منزلة السيد؟ الحكم له وليس لك. لذلك قال الرسول: "لكن الذي يحكم فيّ هو الرب. إذن لا تحكموا في شيء قبل الوقت حتى يأتي الرب الذي سينير خفايا الظلام ويظهر آراء القلوب، وحينئذ يكون المدح لكل واحدٍ من الله" (١ كو ٤: ٤، ٥).

ما هو هذا؟ أما يجب على المعلمين أن يفعلوا هذا؟ إنه يجب عليهم أن يفعلوا هذا في الوقت المناسب، عندما يتأملون من أجل الخاطيء، وليس كما فعل الكورنثوسيون أي بقصد المجد الفارغ... فالرسول يقول: كيف يمكن أن أكون مستحقًا لأن أحكم على خطايا الآخرين وأدين خطايا غيري، أنا الذي لم أعرف خطاياي بعد كما ينبغي؟

❖ "لا أدين أحدًا"، فإنني إن كنت أود أن أدين تكونون أنتم مُدانين... لكن وقت الدينونة لم يحل بعد. إنه يلمح بأنه ليس وحده يدينهم، بل والآب أيضًا يدينهم^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا يجوز لنا أن نسبق بالحكم مادام الرب نفسه هو الديان، إلا إذا كان سيصادق على ما قد حكمنا به الآن على الخطاة حتى إذا قدموا توبة صادقة وكاملة منهم.

الشهيد كيريانوس

❖ لما كنا لا نستطيع أن ننتحل لأنفسنا صفة القضاء بسبب خطايانا، وجب علينا أن

^١ Hom 52. PG 59:307.

نتنحى عن القيام بهذه الوظيفة، لأنه كيف ونحن خطاة نحكم على الآخرين وندينهم؟! إذن يجب علينا ألا يدين أحد أخاه، فإن حدثتكَ نفسك بمحاكمة الآخرين فاعلم أن الناموس لم يقيمك قاضيًا ومحاكمًا، ولذلك فانتحالك هذه الوظيفة يوقعك تحت طائلة الناموس، لأنك تنتهك حرمة...^١

إذن يجب أن نعني بفحص أنفسنا قبل الجلوس على منصة القضاء للحكم على غيرنا، خصوصًا إن كنا في وظيفة المرشد والمعلم.^٢

القديس كيرلس الكبير

❖ سيحكم الله في وقته المناسب. فإن القاضي يُهان متى ادعى خادم ونطق بحكم قبل معرفة قرار الحكم الذي للقاضي.^٣

أمبروسيوس

❖ هو لا يدين، فهل تدين أنت؟

إنه يقول: "من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة" (يو ١٢: ٤٧)، أي أنه إن كان في الظلمة لا يبقى فيها، بل يصلح خطاه ويصح نقائصه، ويحفظ وصاياه، إذ قلت: "لا أشاء موت الشرير بل إصلاحه" (راجع حز ١١: ٢٣). لقد قلت أن من يؤمن بي لا يُدان، وأنا أحقق ذلك لأنني لم آتٍ لكي أدين العالم، بل أن يخلص العالم بي. أود أن أعفو بسرعة، أغفر. "أريد رحمة لا ذبيحة" (هو ٦: ٦) ... "ما جئت لأدعو أبرارًا بل خطاة" (مت ٩: ١٣). الذبيحة هي تحت الناموس، والرحمة في الإنجيل. "الناموس بموسى أُعطي، وأما النعمة فهي بي" (راجع يو ١: ١٧).^٤

القديس أمبروسيوس

❖ الحكم على الآخرين يعتبر سلبًا للحق الإلهي بوقاحة، أما الانتهاز (بغير حب) فيهدم نفس الإنسان.^٥

القديس يوحنا الدرجي

^١ عظاته على إنجيل لوقا: عظة ٣٢، ٣٣.

^٢ CSEL 81:43.

^٣ Concerning Repentance, Book 1:12:54.

^٤ Ladder 10:14.

الإدانة تحجب النعمة

نعمة الله هي العاملة فينا، بدونها لا نقدر أن نخلص، ولا نستطيع أن نجاهد قانونيًا، هذه النعمة لا فضل لنا فيها، بل هي عمل إلهي مجاني. هي ثبوت في المسيح يسوع الذي يعمل فينا وبنا ومعنا. فإن حكمت على أخي بالضعف أكون بهذا قد أهنت نعمة الله، حاسبًا نفسي أنني قادر أن أقوم بنفسي أفضل من أخي. لهذا إن دقت في حياتك، تجد أنك تسقط حالاً في ذات الخطية التي تدين عليها أخاك، لأنك من نفس طبيعته، إن دنته يتركك الله لضعفك.

❖ استر على الخاطيء من غير إن تنفر منه لكي ما تحملك رحمة الله.

مار إسحق السرياني

❖ لا تفتري على أخيك ولو رأيته عاجزاً عن إتمام جميع الفرائض، لئلا تقع في أيدي أعدائك، وتفعل الخطية التي فعلها.

❖ إياك أن تعيب أحداً من الناس، لئلا يبغض الله صلاتك.

القديس أنطونيوس الكبير

❖ يوم تدين أخاك، تتقطع عنك نعمة الروح القدس، فتعثر بأخيك وتكون سبب عثرة.

الأنبا برصنوفوريوس

❖ من دان أخاه في قلبه، وتحدث في سيرته بلسانه، وفحص عن أعماله وتصرفاته، وترك النظر فيما يصلح ذاته... تتخلى عنه المعونة الإلهية فيسقط فيما أدان أخاه.

والإدانة أمر صعب جداً، لذلك شبه ربنا خطية الإدانة بالخشبة، والخطية المدانة بالقذى. من أجل ذلك قبل توبة زكا العشار وصفح عما فعله من آثامه. وشجب الفريسي، لأنه أدان غيره، مع ما له من صدقة وصوم وصلاة وشكر لله على ذلك. فالحكم على خليفة الله يليق بالله لا بنا فدينونة كل واحد وتزكيتة هي من قبل الله وحده... إذن الذي يريد الخلاص، ليس له أن يتأمل إلا نقائص نفسه. ذلك مثل الذي رأى أخاه (الأنبا يحنس القصير) يخطئ فبكى وقال: "اليوم أخطأ هذا الأخ وغداً أخطئ"

أنا، ربما يفسح الله له فيتوب، وقد لا يفسح لي أنا". فبالحقيقة ويل لمن يدين أخاه، فإنه يهلك نفسه بكونه صار ديناً، ولكونه يؤذي الذين يسمعون، وعنه يقول النبي: "ويل للذي سقى أخاه كأساً عكرة"، كذلك: "ويل للذي من قبله تأتي الشكوك"، أما أصل هذا كله فهو عدم محبة.

الأب دوروثيوس

❖ قيل كذلك: كان أخان في كنونيون (نظام الشركة)، واستحق أن ينظر كل واحد منهم نعمة الله في أخيه. فعرض لأحدهما أن يخرج يوم الجمعة خارج كنونيون. فرأى إنساناً يأكل مبكراً، فقال له: "إف، هذا الوقت تأكل يوم الجمعة؟" (أي دانه). فلما كان الغد رآه أخوه ولم يبصر النعمة التي كانت ترى عليه فحزن لذلك.

بستان الرهبان

❖ لا تكن قاسي القلب على أخيك، فإننا جميعاً قد تغلبنا الأفكار الشريرة.

❖ الذي يدين فقد هدم سوره بنقص معرفته.

أنبا موسى الأسود

❖ احذر من أن تكون جالساً وتفكر في إدانة أخيك، فهذا يستأصل جميع أعمال الفضيلة، حتى إن كنت قد ارتفعت إلى حد الكمال.

❖ الإنسان الذي يطلق لسانه على الناس بكل جيد ورديء لن يؤهل لنعمة الله.

مار إسحق السرياني

❖ لا تقل إن فلاناً رديء بطبعه، وفلاناً جيد في طبعه. لأنه إن كان صالحاً بطبعه ألا يمكنه قط أن يصير رديئاً، وإن كان رديئاً بطبعه ألا يمكن قط أن يصير صالحاً؟ وأما الآن، فنحن نرى الانتقال يصير بسرعة من حالٍ إلى آخر... هذا لم نره في الكتب فقط، أعني أن العشارين صاروا رسلاً، والتلميذ صار مسلماً لسيد، والزانيات صرن عفيفات، واللصوص صاروا من الفائزين، والمنجمين صاروا ساجدين لله، والكفار انتقلوا إلى حسن العبادة... فهذا حدث في العهد القديم والعهد الجديد، بل وفي كل يوم يمكن لكل أحد أن يرى الأمور حادثة... فلا يزعم أحد أن ييكت آخر قائلاً: أيها الشرير المستسلم لآلام الخطية.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ قال الأنبا زينون: إن كنت تريد أن تقطع عروق شيطان الزنا وتهلكه عنك، فكف فمك عن دينونة الناس كلهم، ولا تقع بواحدٍ من ورائه، وقر بخطاياك دائماً، فهذا هو عون لك وسلاح قوي.

بستان الرهبان

❖ جلب حام بن نوح على نفسه اللعنة، لأنه ضحك عندما رأى عورة أبيه. أما اللذين سترتا عورة أبيهما فقد نالا البركة^١.

القديس أمبروسيوس

❖ إن كان يُحسب شراً ألا يرى الإنسان خطاياه، فإن شرّه يكون مضاعفاً إذ يجلس على كرسي إدانة الآخرين بينما يحمل خشبة في عينيه^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كما أن النار والماء متنافران... هكذا إدانة الآخرين لا تتفق مع من يريد التوبة... إن رأيت إنساناً يخطئ في اللحظات الأخيرة قبيل موته فلا تدنه، لأن قضاء الله مخفي عن البشر، فقد سقط البعض في خطايا جسيمة جهراً لكنهم أدوا أعمالاً مجيدة سرّاً^٣.

القديس يوحنا الدرجي

^١ للمؤلف: الحب الرعوي، إدانة أبي الكاهن.

^٢ In Matt. hom 23:1.

^٣ Ladder 10:8.

الإدانة تفقدنا السلام

❖ ليس من ألم يهدم بسهولة بنيان فرح الفضائل الرئيسية التي للسلام، مثلما تكون جالسًا وتفكر في أخيك، لكي تعرف إن كان تدبيره حسنًا أم لا.

مار إسحق السرياني

❖ قال أحد الآباء: إن أخًا جاء إلى آخر، وتحدثا بشأن أخٍ لا يحفظ العفة. فأجاب الآخر وقال: "وأنا سمعت بهذا أيضًا". فلما مضى ذلك الأخ إلى قلايته لم يجد فيها الراحة التي اعتاد أن يجدها، فقام ورجع إلى ذلك الأخ وضرب مطانية، قائلاً: "اغفر لي، فإني لم أسمع شيئًا عن ذلك الأخ"، فقال له الآخر كذلك: "ولا أنا سمعت شيئًا"، فلما ندما على ما قالوا وجدا راحة.

بستان الرهبان

❖ إن كنت تريد أن تجد نياحًا هنا وفي الآخرة، فقل في نفسك في كل أمر: "أنا من أنا؟"، ولا تدن إنسانًا.

أنبا بيمين

❖ يحدث أحيانًا أن يفيض سم الإدانة من نفوسنا، ليصب في الآخرين. فإذا التقينا بآخر له سلام مع الجميع نسرع في إخباره بأن هذا حدث وذلك تم، ونصره بهذه الأقوال، ونبت في قلبه إدانة الغير... فنقوم بعمل الشيطان ولا نبالي. لأنه من هو الذي ينصب عمله في ضرر الآخرين وجعلهم مرتبكين إلا الشيطان؟!^١

الأب دوروثيوس

❖ سأل الأخ الأب بومين *Poemen*: ماذا أفعل، أفكاري تتعبني وأنا جالس في قلايتي؟ أجابه: "لا تزدر بأحدٍ، ولا تدن أحدًا، ولا تتحدث بسوءٍ عن أحد، فيعطيك الله راحة"^٢.

الأب مارتين من براغ

^١ الفيلوكاليا (قام بترجمتها المؤلف)، طبعة ١٩٦٦، ص ١٧٥.

^٢ *Sayings of the Egyptian Frs., p. 25.*

لا نلم الآخرين

❖ قد يحدث أن يكون إنسان في وحدة وسكون يعيش في سلام، ويأتيه أخ آخر وفي حديثه معه يقول شيئاً مُكْدِرًا، فيضطرب المتوحد في الحال؛ ويقول بعد ذلك، لو لم يكن قد جاء هذا (الأخ) ليقلقني ما كنت قد أخطأت". يا له من تبرير سخيف!! هل الذي تكلم معه هو الذي قدم إليه الألم (الغضب) أم أن ما صنعه هو إذ أخرج إلى السطح ذاك الألم الذي هو موجود فيه من قبل؟! لذلك كان يجب عليه أن يتوب عن ألمه ويلوم نفسه بدلاً من أن يحمل مرارة ضد أخيه.

إن مثل هذا الإنسان يشبه خبزة عفنة، تبدو من الخارج سليمة، ولكن من الداخل بها عفونة. لذلك فإن كسرهما أي شخص يكتشف عفونتها.

أو يشبه أناءً نظيفاً (من الخارج) مملوء في الداخل قذارة ومنتناً، فمن يفتحه يتحقق في الحال من نتته. بنفس الطريقة، كان هذا الشخص يعيش - كما كان يبدو له - في سلام، غير عالمٍ بالألم الموجود في داخله. فإن كان يريد أن ينال رحمة، يجب عليه أن يتوب لائماً نفسه. وبهذا فقط يحصل على النقاوة ويتقدم. أما بالنسبة للأخ فيجب عليه أن يشكره بحق، إذ كان نافعاً له.

الأب دوروثيوس

بخوف الله نلوم أنفسنا

❖ قد يقول القائل: إن أساء إليّ أخ، وفحصت ذاتي فوجدت إنني لم أكن أنا السبب، فكيف يمكنني أن ألوم نفسي؟! في الواقع إذا اختبر إنسان خوف الله، يجد أنه هو السبب، إما بكلمة أو بفعل أو نظرة.

على أي الحالات، إن ثبت أنه - في هذه المرة - لم يكن سبباً، فلا بد أنه قد أساء إليه في وقت آخر بطريقة ما، أو ربما يكون قد أساء إلى أخ آخر وعليه أن يحتمل من أجل ذلك، أو كما تكون الحال غالباً، أنه من أجل خطية أخرى. لذلك فإنني أقول إنه إن فحص إنسان نفسه بخوف الله، وفي حزم يسأل ضميره، فإنه لا يمكن أن يفشل في أن يجد نفسه مذنباً، وهكذا يلوم نفسه.

الأب دوروثيوس

الإدانة تشغلنا عن حقيقتنا

الإدانة هي ثمرة انشغال النفس بما حولها، وعدم قبولها الخضوع لروح الله الساكن فيها، لكي تدخل معه، وتدرك حقيقتها كما هي فتبكي على خطاياها وتشكر وتفرح وتبارك بالله مخلصها، وهي أيضًا تدفع بالنفس بالأكثر إلى هذا الاتجاه... الاندفاع إلى الخارج وعدم الدخول إلى العمق.

الإدانة تدفعنا إلى التظاهر بالبكاء على ميت أحيانا، بينما نترك ميتنا في داخلنا لا نبيكه.

❖ الذين يريدون أن يخلصوا يلزمهم ألا يفكروا في سقطات الآخرين، بل دائمًا يتطلعون إلى نفوسهم وهكذا ينمون.

الأب دوروثيوس

❖ قال شيخ: لو نظرنا إلى خطايانا لما نظرنا إلى خطايا غيرنا. لأنه من ذا الذي يترك ميته ويبكي على ميت غيره، وخطية الإنسان هي موت نفسه.

❖ قيل: أخطأ أخ في الإسقيط يومًا فانعقد بسببه مجلس لإدانته وأرسلوا في طلب أنبا موسى ليحضر، فأبى وامتنع عن الحضور، فأتاه قس المنطقة، وقال: "إن الآباء كلهم ينتظرونك"، فقام وأخذ كيسًا مثقوبًا وملأه رملاً وحمله وراء ظهره وجاء إلى المجلس. فلما رآه الآباء هكذا قالوا له: "ما هذا أيها الأب؟" فقال: "هذه خطايي وراء ظهري تجري دون أبصرها، وقد جئت اليوم لإدانة غيري عن خطاياها". فلما سمعوا ذلك عفوا عن الأخ ولم يحزنوه في شيء.

❖ سأل أحد الإخوة شيخًا: "ما السبب في إدانتني للإخوة دائمًا؟" فأجابه الأب: "لأنك لم تعرف ذاتك بعد، لأن من عرف ذاته لا ينظر إلى عيوب الآخرين".

❖ قيل أخطأ أحد الإخوة فطرد، فقام الأب ببساريون وخرج معه قائلاً: "وأنا أيضًا خاطي".
بستان الرهبان

❖ "لأنني أعترف بإثمِي وجنوحِي دائمًا" (مز ٥١: ٣). فلن أضع خلفي ما ارتكبته، لأنظر

إلى الآخرين متناسياً نفسي. لا أدعي أنني أخرج القذى من عين أخي بينما الخشبة في عيني (مت ٧: ٥). خطيتي أمامي وليست خلفي. فقد كانت خلفي عندما أرسل إلي النبي، ووضعها أمامي مثل نعجة الفقير (٢ صم ١٢). فنانان النبي قال لداود: كان هنا رجل غني جداً وكان له غنم كثير جداً، لكان هنالك فقير بجواره ولم يكن له إلا نعجة واحدة في حضنه، وتأكل من لقمته. فجاء ضيف إلى الرجل الغني، فبدلاً من أن يأخذ غنمه انتهى أن يأخذ نعجة الفقير، وذبحها للضيف. فماذا يستحق؟ أما الملك فقد حمي غضبه وهو لا يعلم أن المثل قيل عنه...

خطيته لم تكن أمامه بعد، بل كل ما ارتكبه كان خلفه لم يكن قد اعترف بإثمه بعد، لذلك لم يصفح عن خطأ غيره (إذ حكم على الغني بالموت). أما النبي فلماذا الغرض أخذ الخطية من خلف داود ووضعها أمام عينيه، ليرى أن الحكم الذي أصدره بغضبٍ شديد، قد نطق به على نفسه. لقد جعل لسانه سلاحاً يجرح به قلبه ويعصبه.

القديس أغسطينوس

❖ إذا علمنا أننا كلنا خطاة فلنحذر من أن نترك خطايانا وندين خطايا القريب، لأنه من الجهل حقاً أن يكون لإنسان في بيته ميت، فيتركه ويذهب ليكي على ميت جاره، فانظر إلى خطاياك أولاً.

القديس أنبا موسى الأسود

❖ ينبغي على كل واحد أن يدين نفسه، وأن يعتني ويهتم في كل الأشياء ألا يدين حياة الآخرين وسلوكهم، وذلك كوصية الرسول: "من أنت الذي تدين عبد غيرك، هو لمولاه يثبت أو يسقط". وكما قيل "لا تدينوا لكي لا تدانوا، لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تُدانون" (مت ٧: ١، ٢).

القديس يوحنا كاسيان

❖ "أما أنا فأقل شيء عندي أن يُحكم في منكم" (١ كو ٤: ٢). لست أعلم كيف دخل في الطبيعة البشرية، مع بقية الشرور، داء البحث الفارغ والتفتيش الباطل في أخطاء الآخرين، وذلك ما نهانا عنه السيد المسيح قائلاً: "لا تدينوا لكي لا تدانوا". الأمر الذي ليس فيه لذة كبقية الخطايا، بل فيه عذاب وعقاب. فنحن قد ارتكبنا شروراً كثيرة، وفي أعيننا خشب الخطايا دون أن نميز ذلك، باحثين بتدقيق عن القذى الذي في أعين

أقربائنا. وذلك كما حدث في كورنثوس، فبسبب عدم معرفتهم رذلوا الرجال الورعين ومحبي الله... ويتقدمون كحكام يحكمون بوقاحة بأن فلانًا مستحق وفلان أفضل من فلان، وهذا أحقر من ذلك... متغافلين عن النوح على شرورهم، صائرين قضاة على آخرين، وبذلك يثيرون حروبًا رديئة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا تلاحظ خطايا الغير... بل ضع خطاياك قدامك، وقدم توبة قلبية عما ارتكبتة، حاسبًا نفسك في الحقيقة أشر الناس.

❖ صل بمحبة من أجل الذين يخطئون، عالمًا أننا جميعًا ننحدر نحو كل خطية.

❖ لا تسخط على الذين يخطئون، ولا تعود نفسك على ملاحظة كل خطية في الغير وإدانتهم، فإننا نحن ننحرف مثلهم. وكل واحد منا يعطي جوابًا لله عن نفسه. صحح خطاياك وأصلح قلبك!^١

الأب يوحنا من كرونستادت

❖ إذا سمعت أخًا يدين آخر فلا تستح منه أو توافقه لئلا يغضب الله، بل قل بتواضع: "اغفر لي يا أخي، فإني إنسان شقي، وهذه الأمور التي تذكرها أنا منغمس فيها ولست أحتمل ذكرها".

الأب إشعياء

❖ إن كنت عاجزًا عن الحكم على نفسي، فكيف أدعى الحق في الحكم على الآخرين؟^٢
ثيودورت أسقف قورش

❖ كأن السيد المسيح يقول: قد أريتكم أيها الكتبة والفريسيين جرائمكم على شبه جرم هذه الزانية (يو ٩)، بل وأعظم منها كما تشهد عليكم ضمائركم. فإذا لا تلحوا على دينونة هذه المرأة الزانية بلجاجة وصرامة، بل تذكروا خطاياكم، وافحصوا عن جرمها، لأنكم أنتم خطاة ومجرمون، ومؤهلون للعقاب على شبهها، وإن كنتم تدينونها، فبالأولى أن تدينوا أنفسكم أيضًا، وإن أثرتم رجمها فبالأولى وجب رجمكم... إذن فقد أنقذ السيد المسيح المرأة الزانية من الموت، ولم يخالف الناموس، لأنه لم يزل قادرًا وحكيمًا ورحيمًا.

¹ The Spiritual Counsels, p. 190.

² Comm. On 1 Cor., 187.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أراد العاصون عن الناموس تنفيذ الناموس، بهذا صاروا مُهتَمين بإهماله وليسوا منفذين له، دينوا كزناة بواسطة العفة!

لقد سمعتم أيها اليهود، أيها الفريسيون، يا معلمي الناموس وحارسيه لكنكم لم تدركوا (يسوع) أنه معطي الناموس!

ماذا يعني عندما يكتب بإصبعه على الأرض؟

لقد كُتِبَ الناموس بإصبع الله، لكنه كُتِبَ على حجر بسبب قسوة قلوبكم (الحجرية). الآن يكتب الرب على الأرض لأنه يطلب ثمرًا...

هل بعقاب هذه المرأة يتم الناموس بالذين هم مستوجبون العقوبة؟

ليتأمل كل إنسان في نفسه، ليدخل إلى نفسه، ويصعد على كرسي الحكم الذي لذهنه، ويضع نفسه وراء قضبان ضميره، ويلزم ذاته بالاعتراف. فإنه يعرف أنه هو، إذ لا يعرف أحد ما للإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه. ليتطلع كل واحد بحرصٍ إلى نفسه فيجد نفسه خاطئًا.

نعم حقًا، إما تترك المرأة لسبيلها، أو تتألمون معها عقوبة الناموس.

لو أنه قال بأن الزانية لا تُرجم لبرهن أنه غير عادلٍ، وإن قال إنها ترحم لما ظهر أنه حنّان. ليقُل ما قاله كلطيفٍ وعادلٍ: "من كان منكم بلا خطية فليرجمها أولاً بحجر" [٧].

هذا هو صوت العدالة. لتُعاقب الخاطئة، ولكن ليس بواسطة الخطاة. ليُنْفِذ الناموس لكن ليس بكاسري الناموس^١.

القديس أغسطينوس

❖ لم يكفه (الفريسي) الازدراء بكل جنس البشر، لكنه هاجم أيضًا العشار. ربما كان خطأه أقل لو لم يهاجمه، لكن بكلمة هاجم الغائبين، وجرح من هو حاضر^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما كان الفريسي يصلي ويشكر الله من أجل فضائله لم يكذب بل نطق بالحق، ولم يُدِن من أجل هذا، لأنه يجب علينا أن نشكر الله عندما يعطينا أن نصنع خيرًا، طالما

¹ St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 33:5.

² De Poen hom 2.

أن الله قد أعاننا على صنعها.

إنه لم يُدن لأجل هذا... بل عندما التقت نحو العشار وقال: "إني لست... مثل هذا العشار" (لو ١٨: ١١). لقد ارتكب الإدانة، إذ أدان هذا الإنسان هكذا، مصدرًا حكمًا على حال نفسه، وعلى حياته بأكملها. لهذا السبب تبرر العشار دون الآخر (لو ١٨: ١٤).^١

الأب دوروثيوس

^١ توجيهات بخصوص التداريب الروحية ٣٦ [راجع الفيلوكاليا، ترجمة المؤلف].

الإدانة تسقطنا في الدينونة

❖ إذا إنشغلت عن خطاياك، سقطت في خطايا أخيك.

الأنبا إشعيا

❖ إن أخًا من الرهبان كان يسير بتوانٍ كثير. هذا وُجد على فراش الموت وهو في النزع الأخير بدون جزع من الموت، بل كانت نفسه عند انتقاله في فرحٍ كاملٍ وسرورٍ شامل. وكان الآباء وقتئذٍ جلوسًا حوله، لأنه كانت العادة في الدير أن يجتمع الرهبان أثناء موت أحدهم ليشاهدوه. فقال أحد الشيوخ للأخ الذي يموت: "يا أخانا. نحن نعلم أنك أجزت عمرك بكل توانٍ وتقريط. فمن أين لك بهذا الفرح والسرور وعدم الهم في هذه الساعة؟ فإننا بالحقيقة لا نعلم السرّ.

ولكن بقوة الله ربنا تقوّ واجلس واخبرنا عن أمرك العجيب هذا، ليعرف كل منا عظام الله". وللوقت تقوى وجلس وقال: "نعم يا آبائي المكرمين. فإني أجزت عمري كله بالتواني والنوم إلا أنه حدث الآن في هذه الساعة، أن أحضر لي الملائكة كتاب أعمالتي التي عملتها منذ أن ترهّبت، وقالوا لي: "أتعرف هذا؟" قلت: "نعم، هذا هو عملي، وأنا أعرفه، ولكن منذ أن صرت راهبًا ما دنت أحدًا من الناس قط، ولا نممت بأحدٍ قط، ولا رقدت وفي قلبي حقد على أحدٍ، ولا غضبت البتة، وأنا أرجو أن يكمل في قول الرب يسوع المسيح القائل: "لا تدينوا لكي لا تدانوا، اتركوا يُترك لكم". فلما قلت هذا تمزق للوقت كتاب خطاياي بسبب إتمام هذه الوصية الصغيرة". وإذ فرغ من هذا الكلام أسلم الروح، فانتفع الإخوة بذلك ومجدوا الله.

القديس أنسطاسيوس

❖ قال شيخ: لا تدن الفاسق أيها العفيف لئلا تصير مثله مخالفًا للناموس، لأن الذي قال لا تزن، قال أيضًا لا تدن. والرسول يعقوب يقول: إن من حفظ الناموس كله وزل في واحدة، صار مُطالبًا بالجميع.

بستان الرهبان

❖ الذين يريدون أن يخلصوا يلزمهم ألا يفكروا في سقطات الآخرين بل دائمًا يتطلعوا إلى

نفوسهم وهكذا ينمون.

مثل هذا الإنسان، إذ يرى أخاه يخطئ، يتأوه ويقول: "ويحى! إنه يخطئ اليوم، أما أنا فأخطئ غداً!!!"

هل تنتظر حكمة روحه، كيف وجد للحال وسائل تجنبه إدانة أخيه؟! لأنه بقوله: "أما أنا فأخطئ غداً" تتأهب نفسه للخوف لئلا هو أيضاً يخطئ فيتقطن لهذا، وبهذا يهرب من إدانة أخيه.

علاوة على هذا، فإنه لا يكتفي بالقول السابق بل ينحني عند قدمي أخيه، قائلاً: "هذا سيتوب عن خطاياها، أما أنا فقد لا أتوب كما يجب. إنني قد لا أنال توبة ولا أحصل على قوتها".

أترى مدى استنارة هذه النفس الإلهية؟!

الأب دوروثيوس

❖ قيل عن الأنبا مرقس المصري أنه مكث ثلاثين سنة لم يخرج خارجاً عن قلايته، وقد اعتاد قسيس أن يأتي إليه، ويقوم بخدمة القداس، فاحتال الشيطان في إيقاعه في ألم الإدانة، فأوعز إلى البعض فأتوا إليه بإنسان مجنون به روح نجس، طالبين أن يصلي عليه.

فقبل كل شيء بدأ المريض يقول له: "إن قسيسك له رائحة الخطية، فلا تدعه يدخل إليك".

فقال له الشيخ: أيها الولد إن كل الناس يطرحون الجيف والنجاسة خارجاً، أما أنت فقد أدخلتها إلي. أما كُتبت: "لا تدينوا لكي لا تدانوا"، فهو وإن كان خاطئاً، لكن الرب يخلصه، لأنه مكتوب: "إن هو سقط، فالرب يقيمه"، وقد كُتبت أيضاً: "ليصل بعضكم من أجل بعض لكي تشفوا". وإذ قال ذاك صلى صلاة، فهرب الشيطان من ذلك الإنسان، وصرفه خائباً.

فلما أتى القس كعادته قبله الشيخ بفرح، فلما أبصر الإله الصالح أمانة الشيخ، كشف له سرّاً وهو أن القسيس عندما اعتزم الوقوف قدام المائدة المقدسة، رأى الشيخ أن ملاكاً قد انحدر من السماء، ووضع يده عليه، فصار كعمود نارٍ. تعجب الشيخ من هذا المنظر، وإذا بصوت يأتيه قائلاً: "لماذا تتعجب؟ إن كان الملك الأرضي لا يرتضي أن يقف أحد خدامه بين يديه بلباسٍ قذرٍ، فكم بالحري ملك السماوات، فإنه يجلل خدامه

الواقفين بين يديه بالمجد"^١.

بستان الرهبان

❖ بينما يُطلب منَّا التعمق في فحص أنفسنا حتى ينطبق سلوكنا على أوامر الله وتعاليمه، نجد البعض يشغلون أنفسهم بالتدخل في شئون الآخرين وأعمالهم. فإذا وقفوا على خطأ في أخلاق الغير عمدوا إلى نهش أعراضهم باللسنة حدّاد، ولم يدروا أنهم بذم الآخرين يذمون أنفسهم، لأن بهم مساوئ ليست بأقل من مساوئ الغير في المذلة والمهانة. لذلك يقول الحكيم بولس: "لذلك أنت بلا عذر أيها الإنسان كل من يدين، لأنك فيما تدين غيرك تحكم على نفسك، لأنك أنت الذي تدين تفعل تلك الأمور بعينها" (رو ٢ : ١). فمن الواجب علينا والحالة هذه أن نشفق على الضعيف، ذاك الذي وقع أسيرًا لشهواته الباطلة وضاعت به السبل، فلا يمكنه التخلص من حبال الشر والخطية.

فلنصل عن مثل هؤلاء البائسين القانطين، ولنمد لهم يد العون والمساعدة، ولنسع في ألا نسقط كما سقطوا. فإنّ "الذي يذم أخاه، ويدين أخاه، يذم الناموس ويدين الناموس" (يع ٤ : ١١). وما ذلك إلا لأن واضع الناموس والقاضي بالناموس هو واحد، ولما كان المفروض أن قاضي النفس الشريفة يكون أرفع من هذه النفس بكثير، ولما كنا لا نستطيع أن نتحل لأنفسنا صفة القضاة بسبب خطايانا وجب علينا أن نتخلى عن القيام بهذه الوظيفة، لأنه كيف ونحن خطاة نحكم على الآخرين وندينهم؟!

إذن يجب ألا يدين أحد أخاه، فإن حدّثك نفسك بمحاكمة الآخرين، فأعلم أن الناموس لم يُقمك قاضيًا ومُحاكمًا، ولذلك فانتحالك هذه الوظيفة يوقعك تحت طائلة الناموس، لأنك تنتهك حرمة.

فكل من طاب ذهنه لا يتصيّد معاصي الغير، ولا يشغل ذهنه بزلاتهم وعثراتهم، بل عليه فقط أن يتعمق في الوقوف على نقائصه وعيوبه. هذا كان حال المرتل المغبوط وهو يصف نفسه بالقول الحكيم: "إن كنت تُراقب الآثام يا رب يا سيّد، فمن يقف" (مز ١٣٠ : ٣)، وفي موضع آخر يكشف المرتل عن ضعف الإنسان ويتلمّس له الصّبح والمغفرة إذ ورد قوله: "أذكر أننا تراب نحن" (مز ١٠٣ : ١٤)...

سبق أن بيّن السيّد الخطر الذي ينجم عن نهش الآخرين باللسنة حداد فقال: "لا تدينوا لكي لا تدانوا". والآن أتى السيّد على أمثلة كثيرة وبراهين دافعة تحضنا على

^١ بستان الرهبان، طبعة بني سويف ١٩٦٨، ص ٢٦٦.

تجنّب إدانة الآخرين، والحكم عليهم بما نشاء ونهوى، والأجدر بنا أن نفحص قلوبنا ونجرّدها من النزعات التي تضطرم بين ضلوعنا سائلين الله أن يطهّرنا من آثامنا وزلّاتنا.

فإنّ السيّد ينبهنا إلى حقيقة مرّة مألوفة، فيخاطبنا بالقول:
كيف يمكنك نقد الآخرين والكشف عن سيئاتهم وشروهم وفحص أسقامهم
وأمرضهم وأنت شرّير أثيم ومريض سقيم؟!
وكيف يمكنك رؤية القذى الذي في عين الغير، وبعينك خشبة تحجب عينك فلا
ترى شيئاً؟! ترى شيئاً؟!

أنك لجريء إذا قمت بذلك، فالأولى بك أن تتزع عنك مخازيك، وتطفئ جذوة
عيوبك، فيمكنك الحكم بعد ذلك على الآخرين، وهم كما سترى مذنبون فيما هو دون
جرائمك.

أتريد أن تتجلى بصوتك فتقف على مبلغ ما في اغتيال الآخرين من مقت وشر؟
كان السيّد يعمل خلال الحقول النضرة، فاقتطف تلاميذه المباركون سنابل
القمح وفركوها بأيديهم، ثم أكلوا ثمارها طعاماً شهياً لذيذاً، وما أن وقع نظر الفريسيين
على التلاميذ إلا واقتربوا من السيّد وخاطبوه بالقول: أنظر كيف أن تلاميذك يعملون في
السبت ما ليس بمحلّ مشروع. نطق الفريسيون بهذا القول وهم الذين عبثوا بخزنة
القدس وتعدّوا على وصاياهم وأوامره على حد نبوة إشعياء عنهم: "كيف صارت القرية
الأمنة زانية؟! ملأته حقاً كان العدل يبيت فيها، وأما الآن فالقاتلون، صارت فضتك
زغلاً، وخمرك مغشوشة بماء، رؤساؤك متمردون ولُغفاء اللصوص، كل واحد منهم يحب
الرشوة ويتبع العطايا، لا يقضون لليتيم، ودعوى الأرملة لا تصل إليهم" (إش ١: ٢١-٢٣).

بالرغم من هذه المنكرات المخزيات التي ارتكبتها هؤلاء الناس تمادوا في خزيهم
ومكرهم ودسّوا لتلاميذ السيّد المباركين، وأنهموهم بالتعدي على يوم السبت المقدّس. إلا
أن المسيح ردّ خزيهم إذ أجابهم بالقول: "ويلّ لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون، لأنكم
تعشّرون النعنع والشبث والكمون، وتركتكم أثقل الناموس والرحمة والإيمان، أيها
القادة العميان الذين يُصفّون عن البعوضة وبلعون الجمل" (مت ٢٣: ٢٣-٢٤).
كان الفريسي كما ترى مرأئياً غادراً، يحاسب الناس على التعديّات الواهية، بينما

يسمح لنفسه بارتكاب أشد المخازي نكراناً، وأعظم الشرور فجوراً، فلا غرابة أن دعاهم المخلص: "قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة، وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة" (مت ٢٣: ٢٧).

هذا هو شأن المرائي وهو يدين الآخرين ويرميهم بأشنع المساوئ والعيوب وهو عن نفسه أعمى، إذ لا ينظر شيئاً، لأن الخشبة في عينه تحجب الضوء عنه. إذن يجب أن نعني بفحص أنفسنا قبل الجلوس على منصة القضاء للحكم على غيرنا، خصوصاً إن كنّا في وظيفة المرشد والمعلم، لأنه إذا كان المرّي نقي الصفحة، طاهر الذيل، تزينة نعمة الوقار والرزانة، وليس على معرفة بالفضائل السامية فحسب، بل يعمل بها ويسلك بموجبها، فإنّ مثل هذا الإنسان يصح له أن يكون نموذجاً صالحاً يُحتذى به، وله عند ذلك حق الحكم على الآخرين إذا حادوا عن جادة الحق والاستقامة.

أما إذا كان المرشد مهملاً ومردولاً فليس له أن يدين غيره، لأن به نفس النقص والضعف الذي يراه في الآخرين. كذلك ينصحنا الرسل الطوباويون بالقول: "لا تكونوا معلّمين كثيرين يا إخوتي، عالمين أننا نأخذ دينونة أعظم" (يع ٣: ١). ويقول المسيح وهو يكلّل هامات الأبرار بالتيجان المقدسة، ويعاقب الخطاة بشتّى التأديبات: "فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا، يُدعى أصغر في ملكوت السماوات، وأما من عمل وعلم، فهذا يُدعى عظيماً في ملكوت السماوات" (مت ٥: ١٩)¹.

القديس كيرلس الكبير

❖ قد يحيرنا قول الرب "لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون، وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم". فهل إذا حكمنا على أحد بتهور يحكم الله علينا بتهور؟! أو إذا كلنا شيئاً بكيلاً ظالماً هل يرد الله لنا ذلك بكيلاً ظالماً؟!

إنه لا يمكن أن يحكم بتهور أو يجازي أحداً بكيلاً ظالماً، بل قال بهذه العبارة، قاصداً أننا بتهورنا نعاقب أنفسنا لا الآخرين. فقد نتصور أن الظلم يضر المظلوم، لكن بالعكس غالباً لا يضر المظلوم بل الظالم نفسه. فما هو الضرر الذي أصاب الشهداء من مضطهديهم؟! لا شيء، بل عاد الضرر على المضطهدين أنفسهم. فإن كان البعض عاد إلى الحق لكن أثناء اضطهادهم كانت شرورهم قد أعمتهم عن الحق.

¹ عظة عن إنجيل لوقا ٣٢، ٣٣.

وينفس الطريقة نفس "كلّ الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون" (مت ٥٢: ٢٦). فكم من كثيرين ضربوا بالسيف دون أن يهلكوا بالسيف كبطرس الرسول الذي ضرب أذن عبد رئيس الكهنة دون أن يموت بالسيف، لكن صلب حتى لا يظن أنه هرب من الضرب بالسيف بواسطة غفران خطاياهم. ومع هذا فماذا يقولون عن اللصين الذين صلبا مع السيد المسيح (لو ٢٣: ٣٣-٢٣)، فهل صلبا جميع الذين قتلوهم حتى استحقا الصليب؟! إنه من المضحك أن نقول بذلك. إذن ماذا يقصد بالعبارة: "كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون" سوى أن الروح ستموت بارتكابها للخطية مهما كانت هذه الخطية؟!^١

القديس أغسطينوس

^١ Sermon on the Mount 2:62.

مقومات المحبة الأخوية

رابعاً:

التواضع

وعدم الكبرياء

١. الحب الأخوي والتواضع.
٢. يا لعظمة التواضع!
٣. التواضع وتجلي النعمة الإلهية.
٤. التواضع والفضائل.
٥. محب للنصيب الأصغر.
٦. التواضع وحياة النصر.
٧. التواضع والسموات المفتوحة.
٨. التواضع وتكريم كل عضو.
٩. تداريب عملية لممارسة حياة التواضع.
١٠. يا لخطورة الكبرياء!
١١. حول التواضع وعدم الكبرياء.

الحب الأخوي والتواضع

الكبرياء يحطم الحب، والتواضع يحفظه

خلق الله الكائنات العاقلة لتحمل فيها طبيعة الحب. لكن كوكب الصبح، العظيم بين الطغمت السماوية، إبليس، تشامخ على خالقه، ظاناً أنه قادر أن يحتل عرشه السماوي، فصار في عزلة عن الله خالقه كما عن زملائه السماويين. فقد طبيعته بتشامخه، طبيعة الحب، وسرى في أعماقه سُم البغضة والكراهية والحقد ضد الخالق وكل خليقته.

تطلع إبليس الفاقد لطبيعة الحب إلى حب الله الفائق للإنسان، وأدرك أنه يستطيع أن ينمو في الحب، فيحتل مركزه. بث سُمه خلال الحية في الأبوين الأولين حواء وآدم، لكي يشاركاه روح الكبرياء، ويفقدا طبيعة الحب. بهذا يكون قد تبنّاهما، فيحملان صورة حقه، ويشاركانه هما ونسلهما عبر الأجيال مصيره الأبدي. يحملون صورة أبيهم الجديد، وتمتلى أعماقهم بسُم الحقد والنزاع المستمر.

هكذا يمكننا القول إن الكبرياء هي الوجه الآخر لرديلة الحقد، والحب هو الوجه الآخر لفضيلتي التواضع والوداعة.

بهذا لن نستطيع الحديث عن الحب الأخوي دون الحديث عن التواضع والوداعة، ولا يمكننا فصل البغضة والكراهية والحقد والحسد والإدانة الخ. الجوانب المتعددة لرديلة عدم المحبة دون الحديث عن الكبرياء.

❖ المتواضع لا يبغضه أحد ولا يوبخه ولا يحتقره، لأن سيده يحبه. يحب الجميع والجميع يحبونه ويشتهونه في كل مكان، وحيثما وُجد ينظرون إليه كملاكٍ نوراني، ويقدمون له الإكرام.

مار إسحق السرياني

❖ المحبة لا تعرف العجرفة، لهذا قال الحكيم "لا تستحي أن تسلم على قريبك" (ابن سيراف ٣١:٢٢).

القديس أمبروسيوس

الحب الأخوي والاهتمام بالأصاغر

في حديثنا عن "الحب والعطاء"، كان جوهر العطاء هو الالتقاء مع السيد المسيح نفسه في كل إنسانٍ نلتقي معه، خاصة الفقراء والمطرودين والمرذولين والمسجونين والمُضطهدين والمرضى، وفي اختصار مع "إخوة المسيح الأصاغر". كل عطية مادية أو روحية، وكل ابتسامة وحنو نقدمه لأحد إخوتنا الأصاغر إنما نقدمه للسيد المسيح نفسه.

❖ بقدر ما يكون الإنسان من "الأصاغر" هكذا بالأكثر يأتيك المسيح خلاله، لأن من يعطي إنسانًا عظيمًا يفعل هذا بزهو، أما من يقدم للفقراء فبنقاوةٍ يفعل هذا من أجل المسيح¹.

القديس يوحنا الذهبي الفم

¹ In Acts hom., 45.

يا لعظمة التواضع!

يا لصلاح التواضع!

❖ التواضع صالح في كل وقت، وهو ينجي الذين يقتربون منه من كل ضيق.
 ثمار التواضع عديدة، فهو يلد خيرات كثيرة. منه يُولد الكمال، وبه تزكى نوح أمام الله فخلصه، كما هو مكتوب أن الله قال له: "لأنني إياك رأيت باراً وكاملاً في جيلك" (أنظر تك ٧: ١).^١

القديس أفراهاط

يا لعظمة التواضع!

❖ إن سألتني ما هو أول شيء في التدين؟ أجيبك أول وثاني وثالث شيء هو التواضع.
 ❖ شهوة الشهرة تغوي حتى العقول السامية.
 ❖ يوجد شيء في التواضع يمجّد القلب بطريقة غريبة.
 ❖ ما هي كرامات هذا العالم إلا الزهو والفراغ وخطر السقوط؟
 ❖ بالحق ليس للتطويات أن تبدأ بغير هذه البداية، مادامت موضوعاً لأجل بلوغ الحكمة العالية "رأس الحكمة مخافة الرب" (مز ١١١: ١٠)، ومن الناحية الأخرى "الكبرياء أول الخطايا" (حكمة يشوع ١٠: ١٥). إذن لبحث المتكبر عن الممالك الأرضية ويحبها، ولكن "طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات".

القديس أغسطينوس

❖ صلوات العشار غلبت الله الذي لا يُغلب!

القديس جيروم

❖ احفظ الإيمان والتواضع داخل نفسك، لأنك بهما تجد الرحمة والمعونة، وتسمع أقوالاً إلهية في قلبك، ويرافقك ملاكك الحارس في الظاهر وفي الخفاء.

¹ Demonstrations, 9: 1.

❖ التواضع وشاح الألوهة، لأن الكلمة المتجسد تسربله، وكلمنا عنه من خلال أجسادنا، فكل من يلبسه يتشبه حقًا بذاك الذي انحدر من علوه، وغطى فضيلة عظمته بالتواضع، وستر مجده به كي لا تلتهب الخليقة بمنظره.

❖ التواضع قوة خفية يحصل عليها القديسون الكاملون بعد تمام سيرتهم، ولا تعطي النعمة هذه القوة إلا للكاملين في الفضيلة^١.

❖ من هرب من الكرامة جرت وراءه وتعلقت به، ومن جرى وراءها هربت منه.
مار إسحق السرياني

❖ اتبع التواضع، كمن يعشقه. حبه فيمجدك.

القديس باسيليوس الكبير

❖ للتواضع نحن أيضًا إلى حين فنخلص. فإن كُنَّا لا نستطيع احتمال متاعب كثيرة لأننا ضعفاء، فلنتواضع. فإنني بيقين أؤمن أن العمل القليل الذي يُمارس بتواضع يجعلنا برحمة الله نوجد في ذات الموضع الذي ناله القديسون بتعبٍ عظيمٍ كخدامٍ حقيقيين لله. نعم! إننا ضعفاء وعاجزون عن ممارسة أعمال كثيرة، لكن ألا نستطيع أن نتواضع؟ حقًا يا إخوة طوبى للإنسان الذي له تواضع حقيقي^٢.

الأب دوروثيوس

❖ ناقش التلاميذ في الطريق من يكون رئيسًا، أما المسيح نفسه فنزل ليعلمنا التواضع. فإن الرئاسات تجلب التعب، أما التواضع فيهب راحة^٣!

القديس جيروم

❖ يريدنا ألا نغتصب الرئاسات لأنفسنا، بل نبليغ العلويات السامية بالتواضع... يا لعظمة التواضع، إذ تريح (النفس المتواضعة) سكنى الآب والابن والروح القدس^٤.

الأب ثيوفلاكتيوس

❖ التواضع رفع موسى، أما المتكبرون فابتلعتهم الأرض.

^١ إسحق السرياني: نسكيات، منشورات النور ١٩٨٣، ص ٧٠، ٧٧-٧٩.

^٢ On Humility.

^٣ Catena Aurea.

^٤ Catena Aurea.

- ❖ التواضع هو أرض حاملة للفضائل، فإن نُزِعَ التواضع هلكَت كل الفضائل.
 - ❖ آباؤنا الجبابرة مهدوا لنا الطريق، إذ لبسوا التواضع الذي هو رداء المسيح، وبه رفضوا الشيطان وربطوه بقيود الظلمة.
 - ❖ البس التواضع كل حين، وهو يجعلك مسكنًا لله^١.
 - ❖ تسربل يا أخي بالتواضع كل حين فإنه يُلبس نفسك المسيح معطيه^٢.
- القديس يوحنا سابا
- ❖ كما أن الكبرياء هو ينبوع كل الشرور، هكذا التواضع هو أساس كل ضبط للنفس^٣.
 - ❖ يقول: "أَطْلُبْ إِلَيْكُمْ، أَنَا الْأَسِيرُ فِي الرَّبِّ، أَنْ تَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ لِلدَّعْوَةِ الَّتِي دُعِيتُمْ بِهَا" (أف ٤: ١).
- لكن ما هذه الدعوة؟ يُقال: لقد دُعِيتم جسده. صار المسيح رأسًا لكم، ومع أنكم كنتم أعداء، وارتكبتم شرورًا بلا حصر، غير أنه أقامكم معه، وأجلسكم معه (أف ٢: ٦). إنها دعوة عليا، دعوة لإمتيازات سامية، لا بدعوتنا لترك حالتنا السابقة فحسب وإنما بتمتعنا بإمتيازات كهذه...
- لكن كيف يمكن أن نسلك فيها؟ "بِكُلِّ تَوَاضُعٍ" (أف ٤: ٢). هذا هو أساس كل فضيلة. إن كنت متواضعًا وتأمّلت ما أنت عليه، وكيف خلصت، فإن هذه التأملات تدفعك لكل فضيلة. فإنك لا تنتفخ بالقيود ولا بهذه الإمتيازات التي أشرت إليها، وإنما تتواضع لأنك تعرف أن هذه جميعها إنما هي من قبيل النعمة.
- الإنسان المتواضع قادر أن يكون عبدًا كريمًا وشاكِرًا في نفس الوقت. فإنه "أي شيء لك لم تأخذه؟" (١ كو ٤: ٧). اسمع أيضًا قوله: "أنا تعبت أكثر منهم جميعهم، ولكن لا أنا بل نعمة الله التي معي" (١ كو ١٥: ١٠).
- يقول "بِكُلِّ تَوَاضُعٍ"، ليس فقط بالأقوال ولا بالأفعال وإنما بالاحتمال حتى في نعمة الصوت. لا تكن متواضعًا مع شخص وخشِنًا مع آخر. بل كن متواضعًا مع جميع البشر، سواء كانوا أصدقاء أم أعداء، عظماء أم محتقرين، هذا هو التواضع.

^١ مقال ٧، رسالة ٨، القمص بغنوتئوس السرياني، ص ٤٢، ٥٣، ٥٥.

^٢ رسالة ٤٠.

^٣ In Matt. hom 15:3.

كن متواضعًا حتى في أعمالك الصالحة. اسمع ما يقوله المسيح: "طوبى للمساكين بالروح" (مت ٥: ٣)، وقد وضع هذا في بداية (التطويات)^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

يرى القديس يوحنا الذهبي الفم أن الرسول بولس إذ يتحدث عن عظمة قوة نعمة الله، يتصاغر جدًّا في عيني نفسه، فيتطلع إلي نفسه كأصغر صغار جميع القديسين (Less than the least of all saints)، إذ يقول:
[إذ أوشك أن يتحدث عن عظمة نعمة الله، اسمع ماذا يقول: "لي أنا أصغر (من أصغر) جميع القديسين أعطيت هذه النعمة".

كان تواضعًا حقًّا، إذ كان ينتحب خطاياه السابقة مع أنها غُفرت له، فكان يذكرها، واضعًا نفسه مقياسًا حقيقيًّا حيث دعا نفسه: "مجدفًا ومضطهدًا ومفتريًّا" (١ تي ١: ١٣)... مرة أخرى يدعو نفسه: "السقط" (١ كو ١٥: ٨). أما أن يضع نفسه بعد قيامه بأعمال عظيمة صالحة فيدعو نفسه: "أصغر من أصغر القديسين" فهذا تواضع بالحقيقة عظيم وفائق.

لم يقل "أصغر الرسل" بل "من أصغر القديسين"، فإن التعبير الأول أخف.
يقول أيضًا "أنا لست أهلاً أن أدعى رسولاً" (١ كو ١٥: ٩)^٢.

❖ بعد العرش الملوكي يحل الموت، وبعد الحماية (التواضع) يأتي ملكوت السماوات.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا شيء يفيد النفس مثل التواضع. مكتوب: "ذبائح الله هي روح متواضعة" (مز ٥١: ١٧). التواضع صفة للصليب. أما الكبرياء فعزیز على الشياطين الأعداء. في التواضع لا مجال للسقوط إلى أدنى منه. إن أرادت الشياطين أن يسقطوا (المتواضع) من علو، لا توجد مسافة تحته لتسعه لو سقط!^٣

❖ إن ألم من هو متواضع بالندامة لأنه سقط أبسط من ألم الممتطي حصان الكبرياء، ويمشي بخيلاء، لأنه مارس سيرة روحية كما تُعرف بوضوح من مثل الفريسي والعشار^٤.

^١ In Eph. hom 9.

^٢ In Eph. hom 7.

^٣ الرسالة الخامسة.

^٤ الرسالة الثامنة والثلاثون.

❖ الآن فلتهتم قداستك يا سيدي، ليس باستئصال الزوان، لكن بتحويله ليصير حنطة. يستطيع تواضعك أن يجعل البواشق (من الطيور الجارحة) حمامًا، والذئاب حملًا^١.
القديس مار يعقوب السروجي

يا لعظمة المتواضعين!

❖ التواضع هو كل الكمال، لأنه عندما ينظر الإنسان الله يكون متواضعًا.
فقد كان موسى متواضعًا (عد ١٢: ٣؛ خر ٣: ١)، وكان عظيمًا في كل البشر. ونزل إليه الله إلى الجبل ليراه.
وأيضًا نرى التواضع في إبراهيم (تك ١٨: ٢٧)، فبالرغم من أنه عادل، فقد دعا نفسه ترابًا ورمادًا.
وأيضًا يوحنا كان متواضعًا، لأنه قال إنه غير مستحق أن يحل سيور حذاء العريس، سيده (مر ١: ٧؛ لو ٣: ١٦؛ يو ١: ٢٧).
بالتواضع، أصبحت القوة في كل جيل مغبوظة، لأنه الطريق العظيم الذي به نتقرب إلى الله.
لكن لم يوجد على الأرض كلها من كان متواضعًا مثل مريم، ولهذا لم يُرفع أحد مثلها.

بمقدار التواضع يرفع الله الإنسان، وقد جعلها أمه، ومن مثلها في التواضع؟
لو وجدت من هي أظهر وأرق منها، لسكن فيها، ولم يكن ليسكن في هذه.
لو وجدت روح أكثر روعة وقداسة، لاختارها وترك هذه...
عندما نزل ربنا إلى الأرض نظر إلى كل النساء، واختار واحدة لنفسه، التي كانت أكثرهم مسرة.
فتش قلبها، فوجد التواضع، والقداسة، والاشتياقات النقية، وروح تواقفة للبر، وقلبًا نقيًا، وكل مواصفات الكمال، لهذا اختارها إذ هي الأنقى والأجمل.
نزل من مكانه، وسكن في أكثر النساء مجدًا، ولم يوجد رفيق مساوٍ لها في هذا العالم.
هي وحدها المتواضعة النقية الشفافة بلا عيب، لهذا استحققت أن تكون أمه دون

^١ الرسالة الثانية والثلاثون.

غيرها من النساء...

بسبب تواضعها، ونقاوتها، واستقامتها وصلاح إرادتها كانت موضع مسرة الله، لذلك اختارها.

لو وجدت غيرها قد أرضت الرب أكثر منها، لاختار الأخرى، لأن الله لا يحابي الوجوه إذ هو عادل وصالح (٢ إي ١٩: ٧؛ أع ١٠: ٣٤؛ غل ٢: ٦).
لو وجد في داخلها دنس واحد أو عيب، لبحث لنفسه عن أمٍ أخرى تكون بلا عيب.
هذا الجمال الذي هو أنقى من كل جمال، يوجد في من امتلكته عن طريق المشيئة الصالحة.

وعلى هذا يحق لكل إنسان أن يتعجب من هذه المُمجدة، لأنها كانت مفرحة جدًا حتى إلى الله الذي اختارها لتكون أمه.

القديس مار يعقوب السروجي

❖ ينتظر المتواضعون العريس ويتكثرون للعالم. العجرفة بعيدة عنهم، والمستهزون في نظرهم مُبغضون. أعماق قلوبهم مملوءة بالكنوز الصالحة، وضمايرهم نقية من الغش. عيون قلوبهم ثابتة في العلا وهي تنظر جمال ربهم، وفي كل وقت يفرحون به. تحبل قلوبهم بكل جمالٍ، وتلد شفاهم ثمارًا صالحة.
يقبلون من ربهم زرعًا صالحًا، فيقتلعون أشواك الشر ويلقونها...
غرس فيهم التواضع، فأنبث ثمر الإيمان والمحبة.
لبسوا المسيح ثوبًا صالحًا، وحفظوه من كل نجاسة.
يسكن فيهم الروح الذي نالوه، يحبونه ولا يُحزنونه.
يهيئون هياكلهم للملك العظيم الذي يدخل ويحلّ في الهادئين والمتواضعين.
يجعلون ميناءهم على صخرة الحق، ولا يخافون الأمواج والرياح.
أعمالهم تضيء كالسراج، فيشع نورهم أمامهم.
يهيئون الهدية للعريس الآتي، وينتظرون أن يدخلوا في حجاله...
يفكرون ويتصرفون في هذا العالم كغرباء، وينتظرون المدينة التي في السماء.
أفكارهم محفوظة وموضوعة في السماء، وهناك ينتظرون أن يدخلوا بيت المقدس.
عيونهم مفتوحة وهي تتطلع إلي هناك، فتشاهد العريس الذي يهيئ نفسه...

تتدرب ألسنتهم على ترانيم المسيح، ليتلذذوا بأناشيده العذبة والحلوة^١.
المتواضعون هم أبناء العلي وإخوة المسيح، هذا الذي بُشر به، فجاء إلينا من أجل
السلام، وقبلته مريم من أجل تواضعها^٢.

القديس أفراهاط

يا لطوباوية المتواضعين!

❖ "طوبى للمساكين بالروح. لأن لهم ملكوت السماوات". نقرأ في الكتاب المقدس عن
التعب من أجل الأمور الزمنية "الجميع باطل وكآبة الروح"^٣ أما كلمة كآبة الروح
Presumption of spirit، فتعني الوقاحة والكبرياء والغطرسة ومن المعتاد أيضًا أن
يقال عن المتكبر أن به أرواحًا متعالية وهذا صحيح لأن الريح تدعى روحًا. وبهذا كتب
"النار والبرد والتلج والضباب الريح العاصفة *Spirit of tempest* (مز ١٤٨: ٨) حقًا
إن المتكبر يدعى منتفخًا كما لو كان متعاليًا مع الريح. وهنا يقول الرسول "العلم ينفخ
ولكن المحبة تبني" (١ كو ٨: ١)...

لنفهم بالحقيقة أن المساكين بالروح هم المتواضعون وخائفو الله أي الذين ليس
لديهم الروح التي تنتفخ.

بالحق ليس للتطويات أن تبدأ بغير هذه البداية، مادامت موضوعة لأجل بلوغ
الحكمة العالية "رأس الحكمة مخافة الرب" (مز ١١١: ١٠) ومن الناحية الأخرى
"الكبرياء أول الخطايا" (حكمة يشوع ١٥: ١٠).

إذن فليبحث المتكبر عن الممالك الأرضية ويحبها، ولكن "طوبى للمساكين بالروح
لأن لهم ملكوت السماوات"^٤.

القديس أغسطينوس

❖ الذين ينحنون أمامه بعنق عقولهم للطاعة يهبهم وصايا ويعطيهم نوااميس. ويوزّع
عليهم الميراث السماوي، ويقدم لهم البركات الروحية، فيكون بالنسبة لهم مخزنًا لعطايا لا
تسقط^٥.

¹ Demonstrations, 9: 4.

² Demonstrations, 9: 5.

³ حسب طبعة رومية، أما طبعة بيروت "الكل باطل وقبض الريح".

⁴ Sermon on the Mount, 1:3.

⁵ In Luc. Ser. 89.

❖ ليكن سمونا في تواضعنا، ومجدنا في عدم محبتنا للمجد، وليكن اشتياقنا منصباً فيما يُسر الله، واضعين في ذهننا ما يقوله لنا الحكيم: "إذ تصيرون عظماء تتضعون بالأكثر فتجدون نعمة لدى الرب" (ابن سيراخ ٣: ١٨). فإن الله يحتقر المتعجرفين ويحسب المتكبرين كأعداء له، لكتّه يكلّل الودعاء ومتواضعي الذهن بالكرامات^١.

القديس كيرلس الكبير

❖ لكي ننعم بالراحة هنا وفي الحياة العتيدة يلزمنا أن نجاهد في غرس أم كل الصالحات أي التواضع في نفوسنا. بهذا نستطيع أن نعبر بحر هذه الحياة بلا أمواج، وننهي رحلتنا إلى ذلك الميناء الهادي^٢.

❖ ليس شيء مقبولاً لدى الله مثل أن يحسب الإنسان نفسه آخر الكل، هذا هو المبدأ الأول للحكمة العملية، فإن المتواضع والمجروح في قلبه لا يحب المجد الباطل، ولا هو بغضوب، ولا يحسد قريبه، ولا يلجأ إلى أية شهوة^٣.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "إننا نقبل ملكوت الله مثل ولد" (لو ١٨: ١٧) إن كنا نتطّلع إلى تعليم ربنا كطفل تحت التدريب لا يُعارض معلّميه ولا ينازعهم، وإنما بثقة يتقبّل التعليم في ذهنه وبرغبة في التعلّم^٤.

القديس باسيليوس الكبير

❖ لنكن متواضعين ولطفاء، فنرت أرض الأحياء (مت ٥: ٤)^٥.

القديس أفراهاط

¹ In Luc. Ser. 143.

² In Matt. hom 3:9.

³ In Matt. hom 3:8.

⁴ Catena Aurea , Luke 18.

⁵ Demonstration, 6.

التواضع وتجلي النعمة الإلهية

التواضع عطية إلهية

إن كان المؤمن وهو يعطي يرى السيد المسيح متجليًا في إخوته الأصاغر، فمن جانب آخر، إذ يفتح العاطي قلبه بالحب، ويمد يده بالعطاء، إنما يرى اشتياقه للعطاء هو هبة مجانية من قبل الله، لا فضل له فيها. حبنا لإخوتنا ليس فضلاً منا، لكنه فضل من الله الذي يهبنا ذاته ساكنًا فينا، فلا نقدر إلاَّ أن نحُب، ونمارس كل فضيلة.

❖ يلزمنا أن نأتي إليه كل يوم نطلب قوة روحية (في ٢: ١٣). إذ نطلب قوة الله وليس قوتنا، فنصير متواضعين أمامه. لن يسمح لأي كبرياء حيث نظن ونتخيل أننا لسنا في حاجة إلى أمور روحية (يع ٤: ١٠).^١

❖ لا تقل إذن إن شيئًا (صالحًا) هو منك، بل في كل شيء مجد الله. لا تنسب شيئًا ما إلى إنسان.^٢

❖ ما كنا نصلي لكي لا ندخل في تجربة لو كانت إرادتنا فيها الكفاية لحمايتنا... لذلك تُقدم لنا الإرادة عندما نصير حكماء ببعطيته (الإلهية)، لكن يلزمنا أن نصلي لكي نصير قادرين على تحقيق ما نريده. في الواقع إذ تبدأ في ممارسة هذه الحكمة الحقيقية تجد مجالاً لتشكر: "أي شيء لك لم تأخذه؟ وإن كنت قد أخذت فلماذا تقتخر كأنك لم تأخذ؟"، إي إن كنت قادرًا أن تأخذ من عندك. إذ تعلم من أين أخذت هذه أسأل ذاك الذي ببعطيته بدأت أن تتال حتى تصير العطية كاملة.

❖ إذ هم متكبرون يظنون أنهم قادرون أن يسروا الله بذواتهم لا بما هو من الله، الذي هو إله المعرفة، لهذا يعلم الله ضمائر الناس وأفكارهم أنها باطلة، إن كانت من الناس وليست من عنده.^٣

القديس أغسطينوس

¹ St. Augustine: On Seeing God, 21.

² In 1 Cor. Hom. 5:4.

³ City of God 17:4.

❖ لا يمكن بإرادة أي إنسان أو رغبته مهما كانت غيرته واشتياقه للفضيلة أن يصل إلى مكافأة الكمال وشرف الطهارة المستقيمة، وإن تكون هذه الإرادة كافية، طالما هو مُحاط بالجسد الذي يحارب الروح ما لم تسنده مراحم الله.

ولكي يدرك رغبته العظيمة التي يسعى إليها عليه أن يدرك "أن كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار" (يع ١: ١٧)، "لأنه من يميزك وأي شيء لك لم تأخذه، وإن كنت قد أخذت، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ؟!" (١ كو ٧: ٤).^١

القديس يوحنا كاسيان

❖ "من هو كفاء لهذه الأمور؟" إذ يرى أنه نطق بهذه الأمور العظيمة، عاد ينطق بتواضع، مشيرًا إلى أن كل شيء هو من الله. فإن كل شيء هو من المسيح وليس شيء من ذواتنا... فإن كان لا يوجد أحد كفوء، فإن ما يُفعل هو من النعمة.^٢

❖ "كما من الله" بمعنى أننا لسنا نقول أننا نهبكم شيئًا من ذواتنا، وإنما من الله الذي يعطي الكل. بقوله "من الله" تعني أننا لسنا نتمجد في شيء كأننا نفعل أمرًا من ذواتنا، بل ننسب كل شيء لله.^٣

❖ انظروا مرة أخرى إلى تواضعه الزائد؟ ينسب الضعفات إلى نفسه، وأما الصالحات فلا ينسب منها شيئًا لنفسه بل يشير إلى كل الصالحات لله...، قائلاً: "لا أنا بل نعمة الله التي معي" (١ كو ١٥: ١٠).^٤

❖ عندما نسمع هذه الأمور لنفضح ضعفاتنا، ولا ننطق بشيء عن أمورنا الحسنة... ليت به هذا لا يسقط أحد في اليأس عندما يخطئ، ولا يعتد أحد بنفسه وهو في الفضيلة، بل ليخف الأول بالأكثر ولينقدم الثاني في الفضيلة. فإنه لن يثبت أحد متكاسل في الفضيلة، ولا يبقى أحد مجتهد ضعيفًا في الهروب من الشر.^٥

❖ لا نصنع شيئًا صالحًا بأنفسنا وإنما بمشيئة الله ننال هذا الخلاص؛ ونحن مدعوون

^١ Institutions 12:10.

^٢ PG 61: 468

^٣ In 2 Cor. Hom 5, PG 61:469.

^٤ In 1 Cor., hom 38:7.

^٥ In 1 Cor., hom 38:8.

(قديسين) ليس لأننا نستحق ذلك، وإنما لأن في ذلك مسرته^١.

❖ إنه يذكرهم بعدم طهارتهم التي حررهم منها، وهكذا يحثهم إلى تواضع الفكر، فإنه ليس بأعمالهم الصالحة تقدسوا بل بحنو الله^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "نعمة الله التي معي" (١ كو ١٥: ١٠): هذا هو المجد الكامل والتام في الله، لا أن يمجّد الإنسان برّه الذاتي، بل يحسب نفسه أنه ينقصه البرّ الحقيقي، وأن يتبرّر بالإيمان بالمسيح وحده. تمجد بولس باحتقاره لبرّه الذاتي. إذ كان يطلب البرّ بالإيمان الذي لله بالمسيح طلب فقط أن يعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه، إذ حُسب مشابهاً لموته، لكي ينال القيامة من الأموات... إن الله هو الذي يهب فاعلية لأتباعنا^٣.

القديس باسيليوس الكبير

التواضع ورجاؤنا في الرب

بروح التواضع نطلب الصلاة من أجلنا من إخواننا المجاهدين معنا والذين سبقونا في الجهاد وانتصروا وقد دخلوا الفردوس، وأيضاً من أصدقائنا الطغمت السماوية. بهذا التواضع المملوء حباً ووحدة على مستوى السمائيين والأرضيين نضع رجاءنا في مخلص العالم، رب السماء والأرض. فإن ظن أحد من البشر أو السمائيين أنه يسند إنساناً بقوته الذاتية يسقط، ويفقد نعمة الله العاملة فيه. من جهتنا نحن يليق بنا أن يكون رجاؤنا في الرب العامل في الكل، والقابل صلوات الكنيسة المجاهدة والمنتصرة من أجل خلاص العالم.

❖ إن كنا نجد أن سعادتنا تكمل في آخر لنقف قليلاً على الطريق ونضع رجاءنا في السعادة في إنسان أو ملاك. الإنسان المتكبر والملاك المتكبر بغير مبرر ينسبان هذا لأنفسهما، ويُسران أن يصير رجاء الآخرين مركزاً فيهما. على النقيض من ذلك فإن الإنسان القديس والملاك القديس عندما يجدان أننا متلهفون ومشاقون إلى الوجود معهما ونوال راحة فيهما يربطان طاقاتنا بالعون الذي ينالانه من الله لأجلنا كما لأجلهما. إنهما يحثاننا على الانتعاش بالسعادة التي تُقدّم للجميع في طريقنا نحو الله.

^١ In 1 Cor. Hom 1:1.

^٢ In 1 Cor. Hom 1:1.

^٣ On Humility, 20.

حتى الرسول يصرخ: "ألعل بولس صلب لأجلكم؟..." (١ كو ١: ٣). مرة أخرى يقول: "ليس الزارع شيئاً ولا الساقى بل الله الذي ينمي" (١ كو ٣: ٧). ويحث الملاك الإنسان الذي أراد أن يسجد له أنه يجب بالحرى أن يسجد لله الذي يخضع له هو أيضاً كعبدٍ شريكٍ له (رؤ ١٩: ١٠).

عندما تبتهج بإنسان في الله، تتمتع بالله لا بالإنسان. تتمتع بالله الذي به تصير سعيداً، وتُسَرُّ أن تأتي إليه، الذي تضع رجاءك في حضرته فرحاً^١.

❖ لكوني كنت جاهلاً بهذه الأمور، فقد هزأت بأبنائك وخدامك القديسين، ولكن لم أربح من وراء هذا سوى ازدرائك بي.

القديس أغسطينوس

التواضع ونمو المسيح فيّ

تهلل القديس يوحنا المعمدان حين أدرك أن كثيرين اقتربوا من السيد المسيح مخلص العالم، فرآه نامياً في حياة إخوته. مع كل خدمة وكرازة وعمل محبة يقدمها يوحنا المعمدان يرى سيده متجلياً في حياة إخوته، فيترنم قائلاً: "ينبغي أن ذلك يزيد وإنّي أنا أنقص" (يو ٣: ٣٠). فالتواضع الحقيقي هو الاختفاء في حياة السيد المسيح، لكي يتمجد في حياته كما في حياة إخوته المحبوبين لديه.

❖ "ينبغي أن ذلك يزيد، وأنّي أنا أنقص" (يو ٣: ٣٠). ما هذا: يلزم أن يتمجد هو وأنا أن أتواضع؟

كيف يزيد يسوع؟ كيف يزيد الله؟ الله لا يزيد ولا ينقص. لأنه إن كان يزيد فهو ليس بكاملٍ، وإن كان ينقص فهو ليس الله...

هل كان بحالته كإنسان حيث تنازل وصار إنساناً؟ كان طفلاً، ومع أنه حكمة الله رقد في المذود كرضيع. ومع أنه خالق أمه، رضع لبن الطفولة منها، ثم نما يسوع في الجسد، ولعلّه لهذا قيل: "ينبغي أن ذاك يزيد وأنّي أنا أنقص". ولكن لماذا هذا؟ إذ هما (السيد المسيح والقديس يوحنا المعمدان) من جهة الجسد كانا في ذات العمر، الفارق بينهما ستة أشهر، وقد نميا معاً... إذن ما هو معنى "ينبغي أن ذلك يزيد وأنّي أنا أنقص"؟

¹ On Christian Doctrine 33.

هذا سرّ عظيم!

قبل مجيء الرب يسوع كان البشر يمجّدون أنفسهم.

جاء كإنسانٍ ليقُلّ من مجد الإنسان، ويزيد مجد الله. الآن جاء بغير خطية، ووجد كل البشر في الخطية. إن كان هكذا قد جاء لينزع الخطية، فالله يعطي مجانًا، والإنسان يعترف. اعتراف الإنسان هو نزول به، حنو الله هو ارتفاع. لذلك إذ جاء ليغفر خطايا الإنسان، فليعترف الإنسان بانحطاطه، وليظهر الله حنوه.

"ينبغي أن ذاك يزيد وأنا أنقص"، أي ينبغي أن يعطي وأنا استلم؛ هو يتمجد، وأنا اعترف. ليعرف الإنسان حاله، ويعترف لله. لتسمع ما يقوله الرسول للإنسان المتكبر المتشامخ الذي يُفخم نفسه: "وأي شيء لك لم تأخذ؟ وإن كنت قد أخذت، فلماذا تقتخر كأنك لم تأخذ؟" (١ كو ٤ : ٧).^١

❖ ليت الله الذي هو دائمًا كامل ينمو، وينمو فيك. فبقدر ما تقهّمه يبدو ناميًا فيك، أما في ذاته فهو لا يزيد بكونه كاملاً أبدًا... هكذا أيضًا بالنسبة للإنسان الداخلي. إنه ينمو حقًا في الله، ويبدو الله متزايدًا فيه. لكن الإنسان نفسه يبدو كأنه ينقص حيث يسقط من مجد ذاته، ويقيم مجد الله.^٢

القديس أغسطينوس

تجسد الكلمة في العذراء بالنعمة المتجاوبة مع تواضعها

❖ الآن هل النعمة هذه التي أنزلت الابن إليها، أم أنها كانت جميلة جدًا حتى أنها صارت أم ابن الله؟

نزول الله إلى الأرض بالنعمة ظاهر وواضح، وبما أن مريم كانت طاهرة جدًا فقد استقبلته.

نظر إلى تواضعها ورقتها وطهارتها، وسكن فيها، لأنه يسهل عليه السكنى مع المتواضعين.

إلى من أنظر إلا إلى الوديع والمتواضع؟ (إش ٥٧ : ١٥؛ ٦٦ : ٢)

فقد نظر وسكن فيها، لأنها كانت متواضعة بين كل المولودين.

حتى قالت بنفسها أنه نظر إلى مذلتها وسكن فيها (لو ١ : ٤٨)، ولهذا ستكون

¹ St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 14:4.

² St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 14:5.

مطوّبة، لأنها كانت مفرحة جدًا.

القديس مار يعقوب السروجي

التواضع والفضائل

التواضع ينبوع كل برّ!

❖ من يحب التواضع يقتني بالتواضع مواهب كثيرة.

إذ تبحث عن الرحمة، تجدها في المتواضعين، لأن التواضع مسكن البرّ.

التعليم موجود عند المتواضعين، والمعرفة هي ينابيع شفاهم.

التواضع يلد الحكمة والفهم، والمتواضعون يقتنون الفطنة...

عذبة هي كلمة المتواضع، ووجهه مشرق وهو يضحك ويفرح.

الحب جميل لدى المتواضعين، وهم يعرفون أن يتدبروا به.

يصوم المتواضعون عن كل الشرور، فتشع وجوههم بصلاح قلوبهم.

يتكلم المتواضع فيليق به الكلام، وتضحك شفتاه، فلا يُسمع صوت ضحكه...

يتواضع المتواضع، أما قلبه فيرتفع إلي الأعالى العلوية. حيث يكون كنزه هناك

تكون أفكاره. عينا وجهه تنظران إلي الأرض، وعينا عقله إلي الأعالى العلوية^١.

القديس أفراهاط

التواضع يسند الفضائل

❖ يضع الإنسان عند بنائه بيتاً طيناً (مونة) فوق كل حجر، لأنه لو وضع حجراً على

حجرٍ دون أن يضع بينهما طيناً فستسقط الحجارة، وينهدم البيت. الطين (في بناء

النفس) هو التواضع، مادام مأخوذاً من الأرض وتحت أقدام الكل. وأية فضيلة تُمارس

بدون تواضع ليست بفضيلة. هذا أيضاً ما قاله الآباء: "كما أن السفينة لا يمكن أن

تُشيد بدون مسامير، هكذا لا يخلص إنسان بدون تواضع".

والبيت العادي له سقف. وسقف النفس هو الحب الذي هو كمال الفضائل، وذلك

كما أن سقف البيت هو كماله.

ويحاط السقف بجائط (سور)، كما تقول الشريعة (نت ٨:٢٢) حتى لا يسقط

الأطفال منه. وأسوار بيت النفس (التي فوق السقف) هي السهر واليقظة والصلاة،

^١ Demonstrations, 9: 1.

والأطفال هم الأفكار التي تقطن في النفس ويحميها السهر والصلاة.

الأب دوروثيوس

❖ من يريد أن يعبر البحر العقلي يلزمه أن يكون طويل الأناة، متواضعًا، ساهراً، ومتقشفًا. فإن حاول أحد أن يعبر البحر العقلي بغير هذه الفضائل الأربع، فإن كل ما يصنعه هو أنه يعذب قلبه دون أن يعبر البحر.

القديس مرقس الناسك

❖ قدر ما تظهر وداعة وتواضعًا تنال صبرًا يعينك علي تداريك¹.

القديس باسيليوس الكبير

التواضع أساس كل فضيلة

❖ قال ناسك: "إننا محتاجون قبل كل شيء إلى التواضع".

لماذا قال هذا، ولم يقل إننا محتاجون قبل كل شيء إلى ضبط النفس، مع أن الرسول يقول: "كل من يجاهد يضبط نفسه في كل شيء" (١ كو ٩: ٢٥)؟
أو لماذا لم يقل بأننا محتاجون قبل كل شيء إلى مخافة الرب، إذ يقول الكتاب المقدس: "مخافة الرب رأس المعرفة" (أم ١: ٧)؟
أو لماذا لم يقل إننا محتاجون قبل كل شيء إلى الرحمة أو الإيمان، حيث قيل: "بالرحمة والحق يُستَر الإثم" (أم ١٦: ٦)، و"بدون إيمان لا يمكن إرضاءه" (عب ١١: ٦)؟

لماذا ركز الناسك على التواضع وحده، تاركًا هذه جميعها إلى جنب رغم احتياجنا إليها؟ إنه بهذا يُظهر لنا أنه لا يمكن لمخافة الرب أو الرحمة أو الإيمان أو ضبط النفس أو أية فضيلة أخرى أن تنمو بدون التواضع، هذا بجانب ما للتواضع من قدرة على إفساد كل سهام العدو. فجميع القديسين سلكوا طريق التواضع وجاهدوا فيه: "أنظر إلى ذلي وتعبي، واغفر لي جميع خطاياي" (مز ١٨: ٢٥)، وأيضًا: "تذلت فخلصتني" (مز ١١٦: ٦).

الأب دوروثيوس

¹ Epistle 2: 5.

التواضع وروح الغضب

❖ قال الناسك ذاته: "التواضع هو ألا يغضب الإنسان، ولا يُغضب أحدًا".
التواضع يجذب نعمة الله إلى النفس... وهذه تعتقها من هذين الألمين الخطيرين،
لأنه أي شيء أخطر من أن تغضب من أخيك أو تُغضبه؟!
ولكن ماذا أقول: هل التواضع يحرر النفس من هذين الألمين فقط؟ لا بل ويحررها
من كل ألم (شهوة) وكل تجربة.
عندما رأى القديس أنطونيوس شباك الشيطان منصوبة، تنهد وسأل الله قائلاً: "من
يقدر أن يهرب منها؟" فأجابه الله: "المتواضع يهرب منها... بل ولا تقدر أن تقترب إليه".
أرأيت قوة هذه الفضيلة؟! حقًا إنه لا يوجد أعظم من التواضع، لأنه لا يوجد شيء
يقدر أن يغلبه.
فإن حلت بعض الأحزان بإنسان متواضع، للحال يلوم نفسه على أنه يستحقها، ولا
يلوم غيره أو يوبخه. وهكذا فإنه يحتل كل ما قد يحق به بهدوء كامل، دون أن
يضطرب أو يحزن. هكذا لا يغضب من أحد ولا يُغضب أحدًا.

الأب دوروثيوس

التواضع والحكمة العملية

التواضع الحقيقي هو الطريق الملوكي الذي به نلتقي مع السيد المسيح المتواضع،
حكمة الله، ونقتنيه في داخلنا، وبه نصير حكماء.
❖ ليس شيء مقبولاً لدى الله مثل أن يحسب الإنسان نفسه آخر الكل. هذا هو الأساس
الأول لكل الحكمة العملية^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ليس شيء يحث النفس العظيمة الحكيمة (صاحبة الفلسفة) علي ممارسة أعمال
صالحة مثل أن تتعلم أنها بهذا تصير على شبه الله. أي تشجيع يعادل هذا؟ لا شيء!
هذا ما يعلمه الرسول تمامًا عندما أراد أن يحثهم علي التواضع^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

^١ In Matt. hom 3: 8.

^٢ Homilies on Philipians, homily 6.

التواضع يجعل النير حلواً وخفيفاً

يشعر المؤمن بالالتزام بالخدمة، كما التزم موسى النبي أن يحمل أثقال إخوته الذين تحت العبودية القاسية، لينطلق بهم من العمل في اللبن والتراب، ليسيروا كموكبٍ إلهي نحو أرض الموعد. لكن ما كان يمكن لموسى أن يعبر بهذا الشعب من أرض العبودية دون تقديم خروف الفصح، فخلاص شعبه وسرّ فرحهم ونصرتهم ليس في إمكانية موسى الشخصية، إنما في ذبيحة الفصح الحقيقي، حتى يحملنا من التراب إلى السماء، من الطبيعة البشرية التي فسدت إلى طبيعة شبه ملائكية. هنا يقف كل خادم، بل وكل مؤمنٍ مختفياً في المسيح الذبيح ليعلم من حوله، مشتهياً أن يتمتع الكل بعمل المسيح نفسه. بهذا فإن الخادم والمخدومين معاً يشتركون في حمل صليب السيد المسيح، كنيرٍ مجيدٍ وحلو!

❖ إنه يشعر أنه مهما بلغت الثروة التي يأخذها معه من مصر، فإنه إن لم يحفظ الفصح فلن ينجو. الآن المسيح هو فصحنا دُبح لأجلنا، وليس شيء مثل ذبيحة المسيح التي تعلمنا بكل وضوح عن الدعوة التي يوجهها بنفسه إلى من يراهم في تعب بمصر تحت سلطان فرعون، فيقول: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم؛ احمّلوا نيري عليكم وتعلّموا مني، لأنني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم، لأن نيري هين، وجملي خفيف" (مت ٢٨: ١١-٣٠).

من هم الذين حملهم خفيف إلا الودعاء ومتواضعي القلب وحدهم، إذ لا تنفخهم المعرفة بل بالحب يبنون؟ إذن ليتذكروا أن الذين احتلوا بالفصح في ذلك الحين كانوا ظلاً عندما مسحوا قوائم أبوابهم بدم الحمل، مستخدمين الزوفا في ذلك (خر ١٢: ٢٢). هذا عشب وديع ومتواضع... في الزوفا رمز لفضيلة التطهير، فلا ينتفخ أحد بالمعرفة التي تنتفخ، ولا تقتخر باطلاً بالثروات التي أحضرها من مصر. يقول المرتل: "تنضح عليّ بزوافك فأطهر، تغسلني فأبيض أكثر من الثلج، تسمعني فرحاً وبهجة" (مز ٥١: ٧-٨). يضيف بعد ذلك مباشرة "فتبتهج عظامي المنسحقة"، مظهرًا أن الزوفا يشير إلى التطهير من الكبرياء^١.

القديس أغسطينوس

التواضع ومواجهة المتاعب والتجارب

¹ On Christian Doctrine 41.

إذ نحمل مسيحنًا محب البشرية في داخلنا، ننعم بالشركة معه في اتساع قلبه، فنشتهي أن نحب العالم كله. حقًا تواجهنا متاعب وتجارب وسط بحر هذا العالم، لكن ذاك الذي سار على المياه وهذا الأمواج يهبنا روح الغلبة والنصرة، إن سلطنا بروح التواضع، وقبلنا عمله فينا.

يقول **القديس كيرلس الكبير**: [قدم بطرس في حرارة غيرته إقرارًا بالثبات والاحتمال حتى النهاية، قائلًا إنه يقابل أهوال الموت بشجاعة ولا يبالي بالقيود، لكنه في هذا أخطأ عن الصواب. كان يليق به إذ أخبره المخلص أنه سيضعف شاكًا فيه ألا يعترض هكذا علانية، إذ لا يكذب "الحق"، بل بالبحري كان يليق أن يطلب منه القوة لينزع هذا الألم أو يخلصه سريعًا من السقطة... ليتنا إذن لا نفكر في أنفسنا بطريقة متكبرة حتى أن رأينا في أنفسنا أننا نتميز بالفضائل، بل بالبحري لنقدم للمسيح تسابيح الشكر، لأنه يخلصنا ويهبنا حتى الرغبة للعمل الصالح¹.]

❖ لهؤلاء يكمل الناموس، لذلك يأتي يسوع. كيف يأتي؟ ماشيًا على الأمواج، ضابطًا كل دوامات العالم التي تبتلعنا تحت قدميه، ضاغطة على كل مرتفعاته. هذا ما يحدث، فإذا يعبر الزمن وتمتد الأجيال، تزداد التجارب، وتكثر الكوارث والأحزان، كل هذه تتصاعد لتبتلع، لكن يسوع يعبر واطنًا بقدميه الأمواج... لقد وطأ أعالي العالم إلى أسفل لكي يتمجد بواسطة المتواضعين².

القديس أغسطينوس

❖ إذ لم تستطع الأدوية البشرية أن تشفيه (أيوب) شفاه الصبر والإيمان. لقد جلس في كومة مزبلة، أما نفسه فكانت تتجول في الفردوس³.

القديس جيروم

❖ هل تدركون أيها الأحباء كم كانت عظمة المكافأة التي للتجربة؟ كان جسمه رشيقيًا وسليمًا، لكنه صار أكثر وقارًا عندما طعن بالجراحات!... الملك الجالس على العرش ليس في شهرة هذا الرجل وهو جالس في الحمأة بمكانة عظيمة... فإنه بعد العرش الملوكي يحل الموت، ولكن بعد الحمأة ملكوت السماوات⁴.

¹ In Luc. Ser. 144.

² St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 25:6-7.

³ On Ps., homily 73.

⁴ Concerning the Statues, homily 5: 3.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ (بخصوص أيوب) أنزله من الكرسي الملوكي ليجلس في مزبلة. ومع مقاومته بالويلات التي أشرت إليها حالاً بقي سليماً. تمزق جسمه، لكنه احتفظ في أعماق نفسه بكنز التقوى غير منتهك^١.

القديس باسيليوس الكبير

❖ يا لك من إنسان فاسد (جسدياً)، لكنك بريء! يا لك من كائن موصوم (بالقروح)، لكنك جميل! مجروح، لكن نفسك مملوء صحة! تجلس على مزبلة وتملك في السماء! إن كنا نحب فلنقتد به، ولنجاهد لنتبع مثاله^٢.

الأب قيصريوس أسقف آرل

التواضع وخدمة الآخرين

طأطأ الرب السماوات ونزل، صار إنساناً وعاش بيننا كواحدٍ منّا، بل واحتل آخر صفوف البشرية كعبدٍ مصلوبٍ، حتى بتواضعه ندخل في سباق نحو المبادرة بالتنازلات لكي نحتل آخر الصفوف ونبسط أيدينا بالحب نحو كل إخوتنا. نشتهي أن يكون الجميع في راحة ونحن نتألم، نموت وهو يحيون، يكرّمون ونحن نحمل العار عنهم. نبادرهم بالحب، ونبحث عنهم.

يعلّق القديس أمبروسيوس على اهتمام السيّد المسيح بشفاء عبد قائد المائة وانطلاقه نحو البيت، ليهبه عطية الصّحة (لو ٧: ٤-١٠)، قائلاً: [تأمل معي تواضع رب السماء الذي لم يستنكف من افتقاد عبد صغير لقائد المئة معبّراً عن أعمال رحمته الإلهية وعن مشاعر تحنّنه. فكان انطلاقه نحو بيت قائد المئة ليس عن عجزه عن شفاء العبد من بعيد، وإنما ليعطيكم مثلاً في التواضع نمثّل به، ويعلمكم احترام المساكين كالعظماء^٣].

ويتحدث القديس أمبروسيوس عن هؤلاء الرجال الذين بروح الخدمة والتواضع جاءوا بالمفلوج إلى السيد المسيح ليشفيه (لو ٥: ١٨ الخ.)، قائلاً: [ينبغي أن يكون لكل مريض شفاء يطلبون عنه لينال الشفاء، فبشفاعتهم تتقوى عظام حياتنا اللينة ويستقيم اعوجاج أعمالنا بدواء كلمة الحياة. ليجد إذن مرشدون للنفوس يترققون بروح الإنسان التي

¹ On Detachment..

² Sermons, 114: 6.

³ In Luc 7: 1-10.

قيديتها ضعفات الجسد. فالكهنة يشكلون الروح، يعرفون كيف ترتفع وكيف تتواضع لتقف أمام يسوع، إذ "نظر إلى تواضع أمته" (لو ١: ٤٨)، ينظر إلى المتواضعين^١.

❖ من أراد أن يتشبه بالله فليكن وديعًا هادئًا بقدر ما يمكن للإنسان، وليتحمل بسعة صدر ما يزعجه من الآخرين... إن تعرضت لإهانة ثقيلة لا تُطاق، وأخذ الغيظ والحمق يغليان في أحشائك، فأذكر وداعة المسيح لتحصل مع عدوك على فائدة عظيمة، وبوداعتك تجعله صالحًا^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

التواضع واكتشاف الإنسان نفسه

❖ هؤلاء لأنهم كانوا ينظرون عظمة الله، ظهر لهم صغر أشخاصهم. كانوا ينظرون إلى أمواج بهائه، وصفاء طبيعته، وعجب أزلته، ومجد عظمتهم، وقوة عدم محدوديته، وجمال قداسته السامي، وإلى هذه الأمور الموجودة طبعًا منه وعليه وله وبه. فكانت أفكارهم مستنيرة ليروا نفوسهم، ويتأملوا أشخاصهم كما هو مكتوب. كانوا أيضًا محترسين لئلا يوجد جواب الإثم في قلوبهم أو التفكير الذي يؤدي إلى الظن أن صلاح شخصياتهم استحقوه بفضائلهم ليلبغوا إلى قمة عظمة الله^٣.

❖ لا تقدر نفسي أن تثبت في التواضع الحقيقي، وترى صغر ذاتها، وتفكر في فقر طبيعتها، ما لم تبهرها ثروات الله الخفية، ويحركها سمو منظرها. فالفقر يتحرك بالغنى، والظلمة تُبغض بإشراق النور. ويُشعر بتواضع النفس من سمو الله العجيب، من شعر بعظمة الله، يرى صغر ذاته^٤.

القديس مار يعقوب السروجي

^١ تفسير لوقا ٥: ١٧-٢٦.

^٢ المطران ابيفانيوس: الآمال الذهبية من مقالات لأبينا الجليل في القديسين يوحنا الذهبي الفم، ١٩٧٢م، ص ٤٧، ٤٨.

^٣ الرسالة الثامنة والثلاثون.

^٤ الرسالة الثامنة والثلاثون.

محـب للنصـيب الأصغر

الإنسان المحب يمتلئ قلبه بربنا يسوع المحب، أي يصير ربنا يسوع هو نصيبه، لذلك يستصغر كل شيء آخر غيره. يرى مجد العالم وشهاداته الدراسية ومقتنياته ومباهجه أمورًا تافهة... أنه يود لو انعدم نصيبه من هذه كلها!

والمحب يرى ربنا يسوع قد تواضع لأجل خلاصنا، فصار الأصغر في كل شيء، في مقتنيات العالم، إذ لم يكن له أين يسند رأسه، ومن مجد العالم حتى دُعي مختل العقل، ومن مباهج العالم، إذ كان يجوع ويعطش ويتألم... وهو رب السماء والأرض احتل آخر صفوف البشر. لذلك كلما اشتقنا إلى النصيب الأصغر اقتربنا إلى ربنا يسوع ذاته، وإن كان لا يعني هذا أننا متواضعون، لأنه لا يجوز تلقيبنا بكلمة "التواضع"، لأنها تعني "نزول"، ونحن ما هي مكانتنا حتى ننزل إلى مستوى أقل؟! إننا مهما اعترفنا بضعفنا، لا نصنع أكثر من أن نعرف ذواتنا وحقيقة نصيبنا. أما ربنا يسوع فهو وحده الذي تواضع حقيقة وتنازل، مختارًا النصيب الأصغر. أقصد بهذا أنه يخشى عند اختيارنا للنصيب الأصغر نتكبر حاسبين أنفسنا قد تفضلنا على الرب! فينقلب حتى ما قد يدعى "تواضع" إلى كبرياء!

هذا والتطلع إلى السماء وأمجادها يجعلنا نتوق إلى النصيب الأصغر والمكان الأخير. "من أراد أن يكون فيكم عظيمًا فليكن لكم خادمًا. ومن أراد أن يكون فيكم أولًا فليكن لكم عبدًا" (مت ٢٠: ٢٦-٢٧). لهذا يتبارى المسيحيون في احتلال المركز الأخير ونوال أقل نصيب. وإن كنا مهما رجعنا إلى الوراء نجد ربنا يسوع خلفنا يحتل آخر الكل. أكتفي الآن بذكر مثلين لاشتياق الآباء لنوال النصيب الأصغر في هذه الحياة.

❖ مضى أبو مقار دفعة إلى الوادي ليجمع سعةً، فلما جمع حاجته وقف عليه شيطان في زي راهب لابس إسكيمًا. وقال له: "هب لي جزءًا من هذا الخوص الذي جمعته". فقال له الشيخ خذ ما أحببت. فأجابه الراهب: "أريد نصفه". فقسم الشيخ الخوص إلى قسمين أحدهما صغير والآخر كبير، وقال للشيطان: "خذ ما شئت، فقال له الشيطان: "أنت قد تعبت، خذ ما أحببت"، فمد يده وأخذ الجزء الأصغر.

وللوقت لم يحتمل الشيطان تواضع الشيخ، لكنه تبدل إلى صورة مفزعة، وشبك

يديه على رأسه، وجعل يصيح: "الغوث منك يا مقارة، الغوث منك. قد غلبتنا بكثرة تواضعك. وما قدرت أن يكون فيك ولا نصيب واحد. لأن كثيرين قد أطغيتهم. وكثيرين قد أكسلتهم وأرختهم بفخاخي وأعمالى الدنيئة، وجعلت لهم حظًا في الجحيم". فقال القديس: "من أنت؟" فأجابه الشيطان "أنا شيطان محبة الجزء الأكبر بالأعمال الدنيئة العديمة القناعة". فقال له القديس: "الرب يهلكك". ولوقت صار دخانًا وغاب عنه.

سراييون أسقف تيموس (تمى)

سيرة القديس مقاريوس الكبير

❖ جاء عن الأنبا إشعيا الأسقيطي أنه بقي زمانًا في البرية عريانًا بلا ثوب، فأرشد الرب أحد الشيوخ ليمضي إليه بثوب ليستر عورته. فلما جاء الشيخ أخبره بالأمر. فقال له: "أما يوجد في العالم عريان غيري؟"

بالاديوس

التواضع وحياة النصرة

يا لنصرة المتواضعين!

❖ تواضع يعقوب، فانتصر على غضب عيسو أخيه والأربعمئة رجل الذين معه (تك ٣٣: ١-٤).

تواضع يوسف، فانتصر على غضب إخوته الذين حسدوه وأبغضوه (تك ٥٠: ٢٠-٢١).

بالتواضع انتصر موسى، وكسر كل كبرياء لفرعون (خر ٦: ٣٠).
تواضع داود هزم تشامخ جليات الذي اندفع نحوه في غضب (١ صم ١٧: ٤٥-٥١).

وانتصر تواضع حزقيا على تهديد سنحاريب الذي اندفع مجدًا.

وانتصر تواضع مردخاي على كل تشامخ هامان.

وانتصر دانيال وزملاؤه بتواضعهم على الأشرار الذين افترقوا عليهم^١.

القديس أفراهاط

التواضع والغلبة على الشيطان

اهتَزَّ القديس يوحنا الذهبي الفم أمام طول أناة السيد المسيح حتى في تعامله مع إبليس أثناء التجربة، إذ يقول: [لم يسخط ولا ثار، إنما برقة زائدة تناقش معه للمرة الثانية من الكتاب المقدس... معلما إيانا أننا نغلب الشيطان لا بعمل المعجزات، وإنما بالاحتمال وطول الأناة، فلا نفعل شيئًا بقصد المباهاة والمجد الباطل^٢].

❖ أين تكون حين تقترب إليك الشياطين؟ فإن التواضع يهدمهم من درجتهم.

إذ ينظرون متواضعا يهربون منك.

التواضع هو بيت اللاهوت، وحيث يوجد يسكن الله فيه.

أنظر في من أحلّ إلا في الوديع المتواضع الخائف من كلامي؟

¹ Demonstrations, 9: 3.

² In Matt hom 13:4.

للتواضع نفسك، فيأتِ الملك ويحل فيك، ولا تغلبك جميع قوة العدو.
لأن بيت الملك لا يسرقه اللصوص، لأن جنوده حافظون أبوابه باحتراس.
إن كنت متواضعًا يحل فيك بتلك المملكة، ولا يسرقك اللصوص.
إن تواضعت تقتلع شجرة الشر، وتغرس عوضًا عنها شجرة ربنا المباركة.
إن اشتعل فيك حب لاهوته يجعلك أصم وجميع الشرور (التي تحل بك) تكون
كالمصالحات. تتطلع إلي الإهانة والاستهزاء وجميع الشتائم المرة كأنها صالحات
وليست شرورًا...

❖ حبك أنزلك من المركبة إلى الجحش العادي.
عوض قوات الكارويم غير المفحوصة، يبجلك جحش متواضع في بلدنا!
أنزلتك المراحم من بين العجل والوجوه وأجنحة اللهب، لكي يبجلك ابن الأتان.
في المركبة يجاهر السمائيون ببهائك، وهنا الجحش الحقير المزدري به يحملك بين
الأرضيين.

كارويم النار يباركونك بترفهم، وهنا الأطفال يمجدونك بتسابيحهم!
ملائكة النور بريش النور يهيئون طريقه، والتلاميذ هنا يلقون قدامه ثيابهم!
نزل الجبار من عند أبيه ليفتقد مكاننا، وبإرادته بلغ إلى منتهى التواضع.
ركب الجحش ليفتقد بالتواضع شعبه.
ذكرى النبي حمل قيثارة الروح، وأسرع قدامه بترتيل نبوته بابتهاج. شد أوتاره، وحرك
صوته، وقال: افرحي يا ابنة صهيون، واهتفي اصرخي، لأن ملكك يأتي. وها يبلغ راكبًا
جحشًا ابن أتان (زك ٩:٩).

❖ أنزل أنت يا سيدي وصوّر كلمتي لتتكلم عنك،
أو لتصعدها حتى تبلغ إليك وترتل لك...
سهل عليك أن تتواضع وتعظم من يتبعك...
لأن لك يا سيدي العظمة والتواضع، فأنت ابن الله وابن البشر.
ومع الكل أنت كالكل. مع أبيك أنت مثله من أجل (أنت واحد معه)، ومعنا صرت مثلنا
من أجلنا.

من أجل أبيك، أنت واحد معه في المجد تشبهه.
ومن أجلنا تشبهت بنا، لكي تكون معنا...

القديس مار يعقوب السروجي

❖ كما أن المسيح "أخذ صورة عبد" (في ٢: ٧) وغلب الشيطان بالتواضع، هكذا فإنه في البداية سقط الإنسان عن طريق الكبرياء والمجد الباطل بخداع الحيّة؟^١

القديس مقاريوس الكبير

❖ بالتواضع تتبدد كل رذائل الشيطان وتتحطم كل المعضلات.

القديس دوروثيؤس من غزة

❖ لأن المتمرّد، خصمنا، يحارب بالكبرياء، ويريد أن ينتصر بالتعالي بغيا، قدم لنا ملكنا المنتصر سلاح التواضع.

بدون قوة التواضع التي لا تُقهر لا ينتصر أحد.

بالتواضع ينحني كبرياء المخادع، ويجعله مداس أرجل الودعاء المسالمين.
أنظر كيف شق آباؤنا الجبابة لنا الطريق، فلبسوا التواضع، حلة المسيح، وكيف أنهم غلبوا الثالّب، وربطوه بقيود الظلمة.^٢

الشيخ الروحاني (يوحنا الدلياتي)

❖ يجد الرب راحة في القلوب الودیعة، أمّا الروح المضطربة فهي كرسي للشيطان.
الودعاء يرثون الأرض، أو بالحري يسيطرون عليها، أمّا ذوو الخلق الشرير فيطردون من أرضهم.^٣

القديس يوحنا كليماكوس

❖ اعتزم المخلص أن يقهر إبليس لا بالجبروت (تحويل الحجارة خبزا)، وإنما بالتواضع.^٤

القديس جيروم

❖ ما احتاج إليه هو الوداعة التي بها يتحطم رئيس هذا العالم.

القديس أغناطيوس الأنطاكي

❖ من يتقدم في حياة تقوية، لا يسمح للشر أن يدخل إلى نفسه، وعندما تتحرر نفسه من

^١ Homilies, 27:5. ترجمة مركز دراسات الآباء بالقاهرة.

^٢ رسالة ٥١ (ملحق ٤).

^٣ Ladder 24:7,8.

^٤ In Matt. 4:6.

الشر يكون في سلام وأمان. مثل هذا الإنسان، ليس للشياطين الأشرار أو الحوادث الطارئة سلطان عليه، إنما يُخلّصه الله من كل شر، ويعيش في حماية غير منظورة، لأنه محب الله.

إن مدح أحد مثل هذا الإنسان، فإنه لا يكثرث بهذا، وإن سبّه أحد فلا يدافع عن نفسه ضد شاتميه، ولا يسخط على قول من أقواله.

القديس أنطونيوس الكبير

❖ لا تحارب الشياطين مع هذه الفئة التي ارتفعت بالتواضع. عندما تصير النفس ترابًا ورمادًا لا يسهل محاربتها عندما تحسب كل إنسانٍ أفضل منها، حتى العشارين والزناة؟ عندما تحتضن النفس التراب كما هو مكتوب (مز ٤٥: ٢٦) لا يسهل قهرها، لأنها من التراب فإلى أين تسقط؟ لو أنها كانت واقفة على العلو لسهل سقوطها^١.

القديس مار يعقوب السروجي

^١ الرسالة الثامنة والثلاثون.

التواضع والسماوات المفتوحة

الاهتمام المستمر ببناء برج سماوي

يرى القديس أغسطينوس أن دور المؤمن في هذه الحياة أن يصعد كما على برج تبلغ رأسه السماء. هذا البرج الصاعد من الأرض إلى السماء، يحتاج إلى حفر أساسات، ونزول في أعماقٍ بعيدة في الأرض. كلما ارتفع البناء احتاج بالأكثر إلى نزول بالأساسات إلى أعماق أكثر. فمن أراد إنشاء برج رأسه في السماء احتاج إلى ممارسة تواضعٍ أعمق فأعمق. بدون أساسات التواضع ينهار برج حياتنا الروحية، وعوض الصعود مع مسيحننا المتواضع إلى السماء تتحطم نفوسنا تمامًا!

❖ لنحسب حساب نفقة البرج الروحي الشاهق العلو، ونتعمق في ذلك مقدّمًا بحرص... لنأخذ في اعتبارنا أولاً الأخطاء بصورة واضحة، فنحفر ونزيل الفساد ونفايات الشهوات حتى يمكننا أن نضع أساسات البساطة والتواضع القويّة فوق التربة الصلبة... أو بالحري توضع الأساسات علي صخر الإنجيل (٦: ٤٨)، بهذا يرتفع برج الفضائل الروحيّة، ويقدر أن يصمد ويعلو إلى أعالي السماوات في أمان كامل ولا يتزعزع^١.
الأب اسحق

❖ إذ أعطانا وصايا عاليّة جدّا وسامية لذلك قدّم لنا مثل بناء البرج... إن أردنا أن نبني برج التواضع، يلزمنا أولاً أن نهيئ أنفسنا ضد متاعب هذا العالم^٢.

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ هل ترفض أن تتواضع وأنت بالفعل ساقط؟! شتان ما بين من يتواضع ومن هو بالفعل ساقط على الأرض. أنت ملقى على الأرض، أفلا تريد أن تتواضع؟!^٣

القديس أغسطينوس

❖ لقد وضع هذا (التواضع) كأساس يقوم عليه البناء في أمان، فإن نُزع هذا عنّا حتى وإن

^١ Cassian; Conf. 2: 9.

^٢ In Evang hom 37

^٣ Ser. On N.T. 32: 6.

بلغ الإنسان السماوات ينهار تمامًا، ويبلغ إلى نهاية خطيرة، بالرغم من ممارسته الأصوام والصلوات والعطاء والعفة وكل عمل صالح. بدون التواضع ينهار كل ما تجمعه داخلك ويهلك¹.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا يحصل طالب الكرامة على ما يطمع فيه إنما يعاني من خيبة أمل، وإذا يشغل نفسه بكيفية تنقله بكرامات إذا به يجد إهانات. وإذا لا يوجد شيء أفضل من التواضع، لذلك يقود السيد السامع له لا إلى رفض طلب الأماكن المرموقة، وإنما يوصيه بالبحث عن الأماكن المتواضعة².

القديس يوحنا الذهبي الفم

التواضع مركبة سماوية

❖ عندما أشرت أخيرًا إلى الفريسي والعشار، وافترضت أن لهما مركبتان هما الفضيلة والرذيلة، أشرت إلى حقيقة كل منهما، كم هو مفيد تواضع الروح، وكم هو مفسد الكبرياء!؟

فالكبرياء وإن لازمه البرّ والأصوام وتقديم العشور فإن مركبته تتقهقر، وأما تواضع الروح وإن لازمته الخطية، لكنه يسبق حصان الفريسي، ولو كان الذي يقوده فقيرًا (في أعمال البرّ)! لأنه من كان أشد من العشار، ومع ذلك إذ كانت روحه متواضعة ودعا نفسه خاطئًا، وهو بحق خاطيء، إلا أنه سما على الفريسي الذي كان له أن يتكلم عن أصوامه ودفع العشور...

لقد نُزعت الشرور عن العشار، إذ أنتزعت عنه أم كل الشرور، أي المجد الباطل والكبرياء. وعلى هذا الأساس يعلمنا الرسول بولس، قائلاً: "ليمتحن كل واحد عمله، وحينئذ يكون له الفخر من جهة نفسه فقط لا من جهة غيره" (غل ٦: ٤).

أما الفريسي فتقدم متهمًا العالم كله جهراً، حاسبًا نفسه أفضل من جميع البشر. ومع أنه ولو فضل نفسه عن عشرة فقط أو خمسة أو اثنين أو حتى عن واحد، فإن هذا ليس بمقبول؛ لكنه لم يقف عند حدّ تفضيل نفسه عن العالم كله، بل واتهم البشرية كلها، وبهذا تخلف عن الركب كله.

¹ In Matt. hom 15:3.

² Catena Aurea.

وكما أن السفينة إن جرت كثيرًا بسبب الأمواج غير المحصية والعواصف الشديدة، تتحطم على الصخور في داخل الميناء وتفقّد كل ما تحمله من كنوز، هكذا فعل الفريسي، إذ قدم أصوامًا، وصنع بفيض فضائله، إلا أنه لم يحكم لسانه، فتحطمت نفسه داخل الميناء، ورجع إلى بيته بعد الصلاة - أي في داخل الميناء - وقد أصابه دمارٌ عظيمٌ، وبدلاً من أن ينال نفعًا أدركه التحطيم!!

أيها الإخوة، إذ عرفنا هذا كله فلننظر إلى أنفسنا أننا آخر الكل، ولو كنا قد بلغنا قمة الفضيلة عينها، عالمين أن الكبرياء قادر أن يُسقط حتى السمايين إن لم يحذروا، بينما تواضع الفكر يرفع من هاوية الخطايا أولئك الذين يعرفون كيف يسمون، وهذا ما جعل العشار يسبق الفريسي.

الكبرياء، أقصد غرور النفس، أقوى حتى من القوات غير المتجسدة، أي الشيطان، بينما تواضع النفس ومعرفة الإنسان لخطاياها التي ارتكبها جعلتا اللص يسبق الرسل إلى الفردوس...

إنني لا أنطق بهذا لكي نهمل البرّ، وإنما لكي نتجنب الكبرياء، ولا لكي نخطئ، بل نسمو بأفكارنا، إذ تواضع الروح هو ينبوع الحكمة الخاصة بنا^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ **«كالتفاح بين شجر الوعر، كذلك حبيبي بين البنين. تحت ظله اشتهدت أن أجلس، وثمرته حلوة لحلي» (نش ٢ : ٣)** [ذاك الذي ظهر في غابة طبيعتنا البشرية بسبب حبه للبشر، أصبح تفاحة باشتراكه معنا في الجسد (اللحم والدم). وكل من هذه (اللحم والدم) يقابله أحد ألوان التفاح. فاللون الأبيض يمثل لون اللحم، أما اللون الأحمر فيمثل الدم. لذلك، عندما تفرح النفس في الأمور السماوية فإنها ترغب أن ترى تفاحًا على السقف، وهكذا ترى ما هو فوق وترکز على التفاح، فيقودها هذا إلى الطريق السماوي للحياة حسب تعاليم الإنجيل. الذي جاء من الأعالي والذي هو فوق الجميع أرانا الطريق من خلال ظهوره في الجسد، فقد كان لنا مثالاً عاليًا لكل فضيلة وصلاح. وكما قال السيد المسيح: "تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب" (مت ٢٩: ١١). وقد تكلم الرسول في نفس الموضوع عندما تحدث عن التواضع، ودعوني أقرأ النص لأوضح الحقيقة العامة: يقول بولس للذين ينظرون إلى أعلى "فليكن فيكم هذا الفكر الذي في

^١ انتضاع الفكر، طبعة ١٩٦٦، ص ١٠-١٢ (ترجمة المؤلف).

المسيح أيضًا. الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلصة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد" (في ٥:٢). لقد شاركنا حياتنا بالجسد والدم وبإرادته أخذ هذا، تقول العروس، "أنعشوني بالتفاح"، حتى أبقى باستمرار ناظرة إلى أعلى، فأرى على الدوام صور الفضيلة واضحة في عرسي. ففيه أرى الوداعة، الخلو من الغضب، التصالح مع الأعداء، حب الذين يسببون له الضيقات، مقابلة الشر بالخير، كما أرى القوة والنقاء والصبر وليس به أي أثر للمجد الباطل أو الخداع^١.

القديس غريغوريوس النيسي

^١ ترجمة الدكتور جورج نوار. Homilies on Song of Songs, 4.

التواضع وتكريم كل عضوٍ

التواضع وتكريم الآخرين

الإنسان الذي انسكبت فيه محبة الله بالروح القدس يُدرك حقيقة عضويته وعضوية إخوته في جسد الرب، لذلك لا يحتقر أحدًا ولا يزدري به، بل يحسب الكل مكرّمين لأجل الرب. فيشارك الرسول بولس مشاعره وهي أن "أعضاء الجسد التي تُحسب أنها بلا كرامة تُعطى كرامة أفضل. والأعضاء القبيحة فينا لها جمال أعظم، وأما الجميلة فينا فليس لها احتياج. لكن الله مزج الجسد، معطيًا الناقص كرامة أفضل، لكي لا يكون انشقاق في الجسد، بل تهتم الأعضاء اهتمامًا واحدًا بعضها لبعض" (١ كو ١٢: ٢٣-٢٥). ففي الكنيسة لا يزدري الأسقف أو الكاهن أو المتوحد أو الراهب في نظام الشركة أو العلماني (إن صح التعبير) ببعضهم البعض. بل كل منهم يعطي الآخر كرامة.

❖ لنوقف هذا التعالي الفائق للشعور والباطل، هذا الذي ينبع عن حب المجد الباطل أصل الكبرياء. فإن رغبة السيطرة على الآخرين، والنزاع لبلوغ هذا الأمر، يجعل الإنسان بالحق ملومًا، مع أنه لا يخلو تمامًا مما يستحق المديح. فإن السمو في الفضيلة يستحق التقدير (التكريم)، لكن الذين يريدون بلوغ هذا يلزمهم أن يكونوا متواضعي الفكر، لهم مشاعر متواضعة، لا يطلبون أن يكونوا الأولين وذلك خلال جهم للإخوة. هذا ما يريده فينا الطوباوي بولس، إذ كتب: "مقدمين بعضكم بعضًا في الكرامة" (رو ١٢: ١٠). هذه المشاعر يتأهل لها القديسون وبها يتمجدون، إذ تجعل تقوانا نحو الله مكرّمًا، وتمزق شبكة خبث إبليس وتحطم فخاخه المتعددة، وتخلصنا من حفرة الفساد، وتجعلنا كاملين في التشبه بالمسيح مخلص جميعنا. أنصت، كيف يضع نفسه أمامنا مثالاً للفكر المتواضع وللإرادة التي لا تطلب المجد الباطل، إذ يقول: "تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب" (مت ١١: ٢٩)¹.

القديس كيرلس الكبير

❖ "لا شيئًا بتحزب أو بعجب، بل بتواضع حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم" (في

¹ In Luc hom 143.

٢: ٣)... لم يقل أفضل من أنفسكم بل أفضل من أنفسهم... فماذا يقصد الرسول من هذا؟ إنه يقصد أن نعطي لكل واحد كرامة وتقديرًا واعتبارًا أكثر مما يستحق... نقدر الناس بأكثر مما يستحقون... "فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح"... إنه فكر التواضع. "فليكن فيكم"، أي ضرورة وجود هذا الفكر في حياتنا، لأنه هو العمود الفقري لكافة الأفكار المستقيمة، وهو الضمان الوحيد للهروب من التحزب والانقسام والخصام والعجب والكبرياء والمجد الباطل وتمجيد الذات...

لا تظن فيه أنه مجرد أعظم منك، بل هو "أفضل" منك، أي له سمو أعظم جدًّا، فلا تستعرب ولا تتألم إن رأيته يُكرم. نعم، حتى وإن عاملك باستخفافٍ، احتمل هذا بنبلي، إذ تحسبه أعظم منك. وإن شتمك، تخضع له. وإن عاملك رديًّا تحمل ذلك في صمتٍ. لأنه إذ يتأكد الإنسان تمامًا أن الآخر أعظم منه لا يغضب إن عامله رديًّا، ولا يسقط في الحسد لأنه لا يحسد أحدًا أعظم منه بكثير، بل ينسب كل شيء إلى سموه^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ بهذا عرفنا محبة الله، لأنه أسلم نفسه عوضًا عنا. فينبغي علينا نحن أيضًا أن نبذل أنفسنا عوضًا عن إخوتنا (١ يو ١٦: ٣). فإذا كان ينبغي أن يبلغ حبنا للمسيح إلى هذا الحد، أي إلى بذل أنفسنا عوضًا عن إخوتنا، بالحري إذن أن تبلغ بنا إلى أشياء كثيرة نصادفها كل يوم، وهي أقل كلفة بكثير عن بذل أنفسنا عنهم. فأحد هذه الأشياء وأحفظها؛ الذي تقتضيه المحبة منّا وتعيننا في حياتنا ونموها هو اعتبارنا للقريب، فهذا عليه يتأسس ويعتمد كل بنية المحبة الحقيقية...

فاعتبارنا لإخوتنا يجعلنا نحبه ونكرمهم ونخدمهم ونتمم نحوهم بقية ضرورات المحبة. فبمقدار ما يزيد فينا اعتبارنا لهم... تزداد فينا المحبة وتوابعها، لهذا يحث الرسول أهل فيليبي: "لا شيئًا بتحزب أو بعُجب بل بتواضع حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسكم" (في ٢: ٣). وقال أيضًا لأهل رومية: "وادين بعضكم بعضًا بالمحبة الأخوية، مقدّمين بعضكم بعضًا في الكرامة"^٢.

القديس باسيليوس الكبير

^١ Homilies on Philipians, homily 5.

^٢ In Reg. Fus. Dis. Int 30، 31.

❖ إنه لا يوجد شيء يمنحنا عونًا لتمكين المحبة أكثر من تقديم بعضنا بعضًا في الكرامة حسب تعليم الرسول، معتبرين القريب أفضل منّا. بهذا يُسر المرؤوسون بالخدمة، والرؤساء لا يتعاضمون بالرئاسة، ولا يغتاظ الفقير إذا قُدِّم عنه الغني، ويفرح الغني إذا جعل الفقير مساويًا له. والشريف لا يفخر بشرف أصله ونسبه... وأخيرًا لا تعتبر الثروة الكثيرة أفضل من الفضيلة الجزيلة والخصال الحسنة، ولا سطوة الأرباء وأقدارهم أكثر من استقامة الأبرار وسذاجتهم.

❖ المحبة لا تعرف العجرفة، لهذا قال الحكيم "لا تستحي أن تسلم على قريبك" (ابن سيراخ ٣١: ٢٢).

القديس أمبروسيوس

❖ إن كنت قد وُلدت بالمسيح حقًا، فكل مولود من المسيح هو أخوك. فإن أحببت نفسك أكثر من أخيك، فهذه الزيادة ليست من المسيح!

الشيخ الروحاني

❖ بهذا عرفنا محبة الله، لأنه أسلم نفسه عوضًا عنّا. فينبغي علينا نحن أيضًا أن نبذل أنفسنا عوضًا عن إخوتنا (١ يو ٣: ١٦). فإذا كان ينبغي أن يبلغ حبنا للمسيح إلى هذا الحد، أي إلى بذل أنفسنا عوضًا عن إخوتنا، فبالحري إذا أن تبلغ بنا إلى أشياء كثيرة نصادفها كل يوم، وهي أقل كلفة بكثير عن بذل أنفسنا عنهم. فأحد هذه الأشياء وأحقّها؛ الذي تقتضيه المحبة منّا وتعيننا في حياتنا ونموها هو اعتبارنا للقريب، فهذا عليه يتأسس ويعتمد كل بنية المحبة الحقيقية.

فاعتبارنا لإخوتنا يجعلنا نحبهم ونكرمهم ونخدمهم ونتمم نحوهم بقية ضرورات المحبة. فبمقدار ما يزيد فينا اعتبارنا لهم تزداد فينا المحبة وتوابعها، لهذا يحث الرسول أهل فيليبي: "لا شيئًا بتحزبٍ أو بعُجبٍ، بل بتواضعٍ، حاسين بعضكم البعض أفضل من أنفسكم" (في ٢: ٣). وقال أيضًا لأهل رومية: "وَدِّين بعضكم بعضًا بالمحبة الأخوية، مقدِّمين بعضكم بعضًا في الكرامة".

القديس باسيليوس الكبير

❖ أنظر كيف أن الرسول لم يقل أكرموا بعضكم بعضًا فقط، بل قال: "مقدِّمين بعضكم بعضًا في الكرامة" (رو ١٢: ١٠). فلا تنتظر أن يبدأ ذاك بإكرامك وتقديمتك عنه، بل

اجتهد أن تسعى أنت متقدمًا في إكرامه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

الكنيسة تحتاج إلى كل عضوٍ

❖ الكل غير كاملين، لا قواد الألف، ولا قواد المئة ولا قواد الخمسين ولا ما يشبههم، بل كلٌّ في رتبته يقوم بأداء المهمة الملقاة عليه من (الملك) أو القادة. فبدون الصغير في الرتبة لا يوجد العظيم، وبدون العظيم لا يوجد الصغير. إنه يوجد نوع من الخلطة في كل شيء، وبذلك توجد فوائد مشتركة.

لنأخذ جسدنا كمثال: الرأس بدون الرجلين ليس بشيء، كذلك الرجلان بدون الرأس. فكل الأعضاء حتى أصغرها وأحقرها ضرورية ومفيدة للجسم. فالكمل يعمل معًا في انسجام وتحت ضابط واحد، لأجل المحافظة على الجسد كله.

إذًا لنحافظ على سلامة الجسد في المسيح يسوع، خاضعين بعضنا لبعض، كل بحسب الموهبة التي نالها من الله. فالقوي لا يحتقر الضعيف، والضعيف يكرم القوي. والغني يشبع احتياجات الفقير، والفقير يشكر الله الذي وهبه إنسانًا يشبع احتياجاته.

القديس إكليمنضس الروماني

العضو الأصغر يعطي بهاءً للأكبر ويكمل عمله

❖ العضو الأصغر يضيف على الأكبر بهاءً، فالجفن البسيط هو جمال العين، لذلك من يُحارب أخاه (الأصغر) يحارب نفسه، فالضرر لا يحيق بمن يحاربه، بل يرتد عليه بضرر لا يقل عما أصاب المضرور.

ففي الكنيسة أعضاء كثيرون مختلفون، بعضهم ذوو كرامة والآخرين أقل كرامة. مثال ذلك توجد جوقة من المتبتلين، ومجموعات من الأرامل، وإخوة مرتبطون بزواج مقدس، وباختصار هناك درجات...

ونفس الأمر بالنسبة للعطاء. فكثيرون تركوا كل شيء، وآخرون اقتنعوا بالكفاف، والبعض يعطي ما يفضل عنهم، ومع هذا فالكل يكمل بعضهم بعضًا.

فلو ازدرت البتول بالمتزوجة تكون قد فقدت نصيبًا لا يُستهان به من جزائها، ولو احتقر من ترك كل شيء من لم يفعل هكذا، يكون قد أضاع الكثير من جهاده.

ولماذا أتكلم عن العذارى والأرامل والتاركين لكل شيء، فمن هو أحقر من

السائلين؟ ومع ذلك فهم يقومون بأعظم وظيفة في الكنيسة. فبدونهم لا يمكن أن يتم عمل الكنيسة الكامل. لقد وضع الرسل منذ البداية قوانين خاصة بكل الأمور، حتى الأرامل أعطوهن اهتمامًا عظيمًا، فخصصوا لهن سبعة شمامسة. فكما أحصى الأساقفة والكهنة والشمامسة والبتوليون والزاهدون كأعضاء في الكنيسة هكذا أيضًا الأرامل لأنهن يقمن بعملٍ ليس ببسيطٍ.

❖ "لا تقدر العين أن تقول لليد لا حاجة لي إليك، أو الرأس أيضًا للرجلين لا حاجة لي إليكما" (١ كو ١٢: ٢١). فقد تكون الموهبة أقل لكنها ضرورية، فإذا تعطل العضو تعطلت أعمال كثيرة. هكذا في الكنيسة بدون الآخرين (الأقل موهبة) يزول كمال الكنيسة.

لاحظ أن الرسول لم يقل: "لا تقول العين" بل قال: "لا تقدر العين أن تقول". فحتى إن أرادت العين أن تقول، وإن قالت فعلاً، فإنها تكون غير مستقيمة مع الطبيعة. أي شيء أحقر من القدم؟! أي شيء أكثر كرامة من الرأس؟ فإن الرأس هو الإنسان كله، لكنها بذاتها غير كافية، ولا تستطيع بمفردها أن تتفقد كل الأشياء. إذاً فالقدم عضو هام.

ولم يقف الرسول عند هذا الحد بل قال: "بل بالأولى أعضاء الجسد التي تظهر أضعف هي ضرورية. وأعضاء الجسد التي تُحسب بلا كرامة نعطيها كرامة أفضل. والأعضاء القبيحة فينا لها جمال أفضل". كأنه يقول لست أؤكد لكم فقط أن العضو الأعظم في حاجة إلى الأصغر، بل ضروري له، لذلك فإن وجد فينا عضو ضعيف، إن وجد فينا عضو نحسبه بلا كرامة، فإن له أهمية وكرامة أعظم، لذلك حسناً قال الرسول: "التي تظهر أضعف، التي نحسب أنها بلا كرامة"، مظهرًا أن هذا الحكم ليس من طبيعة العضو، لكن كما يبدو لنا، لأنه ليس فينا شيء بلا كرامة، إذ هو عمل الله، حتى الفقراء أنفسهم عند سيرهم عراة لا يظهرون هذه الأعضاء (التي نحسبها بلا كرامة) عارية، وهذه ليست حال عضو بلا كرامة.

❖ لا يقول إنسان: "العين جميلة"، بل يقول: "المرأة جميلة" فإن مدحت العين إنما تُمدح بعد مدح الجسد كله، وهذا ما يحدث بالنسبة للكنيسة، فإن كان هناك أشخاص حسنو السيرة، فهذا يُنسب للجماعة كلها... وإن كان هناك من هم أقوىاء في البيان، فإنهم لا يكرّمون كأشخاص، بل تكرم الكنيسة بأسرها، فيقال إن المسيحيين لديهم معلم قوي

القديس يوحنا ذهبي الفم

❖ قد يتفق أن ثلاثين نفساً يعيشون تحت سقفٍ واحدٍ، ولا يمكنهم أن يبقوا معاً نهائياً وليلاً كاملين، بل ربما ينشغل بعضهم بالصلاة لمدة ست ساعات ثم يميلون للقراءة. والبعض يستعدون للخدمة، والبعض يشتغلون أعمالاً كثيرة. إذاً مهما كان عمل الإخوة يجب عليهم أن ما يعملهم أحدهم للآخرين إنما يفعله بوجدٍ وانسراحٍ. فالذي يعمل يقول عن الذي يصلي: "إن الكنز الذي يجده أخي مشترك، فإن لي فيه نصيب" والذي يصلي يقول عن من يقرأ: "إن كل ما استفاد منه أخي من القراءة نافع لي". وليقل أيضاً ذو الأعمال: "إن كل ما أعمله من الخدمة هو لخير الجميع". فكما أن أعضاء الجسد كثيرة ولكنها جسد واحد (رو ١٢: ٤-٥؛ ١ كو ١٢: ١٢، ٢٤)، وبالطبيعة يساعد كل منها الآخر. هكذا كل واحد يقوم بوظيفته، غير أن العين تنتظر لأجل الجسد كله، واليد تعمل من أجل الأعضاء كلها، والقدم تمشي وتساعد جميعها. هكذا فليكن الإخوة، فالذي يصلي لا يدين العامل لقلة صلاته، ولا يشتكي العامل من المصلي قائلاً: إنه مستريح وأنا أعمل الشغل كله. ولا يذم الخادم غيره، بل ليفعل كل واحد ما يفعله لمجد الله... ولكن يوجد أيضاً شيء آخر ضروري، وهو أن يحصل الإنسان في نفسه على كنز، وعلى الحياة (يو ١: ٤)، وهو أن يكون الرب في عقله، حتى أنه سواء كان يشتغل أو يصلي أو يقرأ لا يزال حاصلاً على ذلك الذي لا يزول (أم ٨: ١٨) وهو الروح القدس.

القديس مقاريوس الكبير

لا تزدِرْ به بسبب مهنته أو وضعه الاجتماعي

يحدثنا القديس يوحنا ذهبي الفم عن عدم احتقارنا لعضوٍ بسبب مهنته.

❖ يدعو بولس العبدَ أحمًا، ولهذا إذ يصف نفسه بأنه عبد المؤمنين (٢ كو ٤: ٥)، يليق بنا أن نهبط نحن جميعاً بكبريائنا ولنطأ بأقدامنا ما لنا من افتخار^١.

❖ كان بولس الرسول خيَّامًا، لكنه امتلأ وقتئذٍ من النعمة بفيضٍ... وقد استعمل بعد ذلك صناعته. فلا يستح أحد من أصحاب الصناعات من صناعته، بل ليخجل البطالون الذين يعيشون بلا تعبٍ، هؤلاء الذين لديهم خدم كثيرون يخدمونهم. فمداومة العمل

^١ Homilies on Col., Hom. 12.

لأجل العوز هو نوع من الفلسفة، أي فضيلة. هؤلاء تكون نفوسهم طاهرة وضمايرهم سليمة. أما الإنسان البطال، فيتكلم بأقوال خاوية ويفعل أعمالاً باطلة. وإذا لا يعمل شيئاً يكون ممثلاً من الفشل. أما الذي يعمل فلا يقبل شيئاً فارغاً بسرعة، لا في عمله، أو أقواله، أو أفكاره، لأن نفسه بجملتها مندفعه في العيشة ذات الكد. فلا نحقر الذين يقتاتون من أعمال أيديهم بل بالحري نطوبهم على ذلك.

القديس يوحنا ذهبي الفم

❖ قال هذا لأنه غسل أقدام التلاميذ بالكلمة والمثال كسيد للتواضع. لكن يمكننا بعونه أن نمارس ما يحتاج إلى ممارسة دقيقة جداً، إن كنا لا نتباطأ فيما هو واضح بكمال^١.

القديس أغسطينوس

❖ يليق بالذين يحتلون المراكز الرئيسية أن يكونوا مستعدين أن يقدموا حتى الخدمة الجسدية على مثال الرب الذي غسل أقدام تلاميذه. لذا قيل "(ليكن) المتقدم كالخادم"^٢.

القديس باسيليوس الكبير

❖ غسل الجالس على الشاروبيم أرجل تلاميذه، وأنت يا إنسان أرضي، رماد وغبار وتراب، أنتعالي وتترفع ترفعاً عظيماً؟

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كونوا ممتثلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح (١ كو ١١: ١). من أجل هذا أخذ جسداً من جبلتنا حتى يعلمنا به الفضيلة. إذ أرسل الله ابنه في شبه جسدنا الخاطيء حتى تُدان الخطية في جسد الخطية (رو ١٨: ٣). كذلك يقول المسيح نفسه: "تعلموا مني، فإني وديع ومتواضع القلب" (مت ١١: ٢٩). هذا علمنا إياه لا بالكلمات وحدها وإنما بالأعمال أيضاً.

لقد دعوه سامرياً وبه شيطان ومخادعاً كما ألقوه بالحجارة، وأرسل إليه الفريسيون خداماً ليمسكوه، ومرة أخرى لكي يجربوه، وكانوا يشتمونه، وإذا لم يجدوا فيه خطأ كان يقدم لهم خيراً بالكلمات كما بالأعمال...

لنتطلع إلى ما يفعله الآن مع التلاميذ، وأية أعمال يظهرها نحو الخائن. لقد اختاره

¹ St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 59: 1.

² In Reg. Fus. Dis. Int 30، 31.

تلميذاً، وأشركه في المائدة والملح (الذي يمنع الفساد)، ورأى معجزات تستحق كل تقدير، ومع هذا صنع معه أمراً أخطر من كل شيء، ليس برجمه أو سبه وإنما بالخيانة، ومع استحقاقه الكراهية عامله السيد بصدقة وغسل قدميه، إذ أراد بهذا أن يمنعه من الشر.

كان في سلطانه - لو أراد - أن يجعله يابساً كشجرة التين، وأن يشقه إلى نصفين كما تشققت الصخور، وأن يمزقه كما انشق الحجاب، لكنه لم يرد أن يمنعه عن تحقيق خطته قهراً إنما اختياراً. لذلك غسل قدميه، ومع هذا لم يخجل هذا الشرير البائس^١.
القديس يوحنا الذهبي الفم

كرامة الأسقف

يكتب القديس باسيليوس الكبير إلى الأسقف يوسابيوس السميساطي ويذكر له قصة صديقه غريغوريوس النزينزي الذي دفعه ليكون أسقفًا على ساسيما الصغيرة، وكان يتمنى له أسقفية تتناسب مع مواهبه فيقول: "لا يتشرف الأسقف بمركزه، بل هو الذي يشرف مركزه. ومن صفات الرجل العظيم ليس فقط أن يكون بمستوى الأمور العظيمة، بل أن ينمي بقدرته الصغائر لجعلها كبيرة"^٢. فالعظمة تتبع من داخل الإنسان وليس من خارجه. [وكلما ازداد طلب العظمة والمجد، كلما ضعفت الكنيسة^٣.]

لهذا يعتبر القديس باسيليوس نفسه مساوياً لبقية الخدام في الكنيسة سواء كانوا شمامسة أو كهنة. فالشماس هو أخوه^٤، وابنه المحبوب^٥، والكاهن هو المحترم جداً^٦. وحتى للراهب أرابيكيوس يقول: [عندما تكتب لي لا تظن أنك بحاجة لتقديم أعذار. أنا أعرف مركزي، وأعرف أنه بالطبيعة لكل إنسان كرامة متساوية. والكرامة التي لي لم تأت إلي من عائلة أو غنى فائض أو وضع جسدي... بل أتت من مخافة الله. وماذا يمنعك من أن تخاف الله أكثر وتكون أعظم مني؟]^٧

❖ لا تدع رتبة الكهنوت تجعلك في خيلاء، بل بالحري تجعلك متواضعاً، فإن الانحلال

^١ Homilies on St. John 70: 1.

^٢ Epistle 98:1.

^٣ Epistle 239:3.

^٤ Epistle 265:3.

^٥ Epistle 156:2.

^٦ Epistle 271:3.

^٧ Epistle 262:3.

والخزي يُولدان من التشامخ. كلما اقتربت من الرتب العليا للنظام الكهنوتي المقدس يليق بك بالأكثر أن تتواضع، متذكراً بخوف مثال أولاد هرون معرفة الحياة المقدسة هي معرفة وداعة وتواضع. التواضع هو إقتداء بالمسيح. التعالي والتجاسر والوقاحة هو إقتداء بالشيطان. كن متمثلاً بالمسيح، لا بضد المسيح، بالله وليس بالمقاوم لله، بالسيد لا بالعبد الشارد، بالرحوم لا بالذي بلا رحمة، بالمحب للبشرية لا بعدوها، بشريكك في حبال العرس لا بساكن الظلمة. لا تكن توافاً لاستغلال السلطة على الجماعة، حتى لا تضع على عنك أثقال خطايا الآخرين¹.

❖ ليت ذلك الذي هو رئيس لا ينتفخ بسبب عمله، لئلا يهوي من طوباوية التواضع، وإنما يليق به أن يعرف التواضع الحقيقي كخدمة للكثيرين... ليت الأعظم يكون كالأصغر.

القديس باسيليوس الكبير

صور من تاريخ الكنيسة

١. القديسان بلامون وباخوميوس

عهد الرب بالقديس باخوميوس تلميذ بلامون القيام بإنشاء دير يسلك بنظام الشركة المعتدل من ناحية النسك حتى يتناسب مع الجميع، على أن يسمح بزيادة التقشف للمتقدمين. وكنا نظن أن يقف الأنبا بلامون ويخطئ باخوميوس لأنه اعتاد العزلة، وما سمع قط عن نظام الشركة، هذا مع كبر سنه الذي يعمل على رفض كل جديد. لكنه وقف موقف البطولة الحقيقية، فقد ذهب معه لبناء الدير، وأخيراً استأذن منه قائلاً "اعلم أيها الولد الأحب إليّ والأكرم عندي من سائر الأشياء، أن نفسي تنازعني بالعودة إلى قلايتي ومكان توحدي، وقد عرفت أن الله قلدك عمارة هذا الدير وأنا قد طُعننت في السن، وضعفت قوّتي، وقد حان وقت إنصرافي، وأرى أن توحدي أوفق لي. ولكن ألتمس بنوتك، وأطلب خالص محبتي ألا تعدمني رؤياك حيناً بعد حين وتزورني مرة وأنا مرة في الأوقات المناسبة مدة هذه الأيام اليسيرة التي تبقت لي".

هذا هو قلب متوحد محب يكرم قلباً آخر محب أوّتمن على الشركة.

٢. القديسان أنطونيوس وباخوميوس

¹On Renunciation of the World, (Frs. Of the Church, volume 9, p. 30-31).

إن كان كل راهبٍ يأمل في دخوله الدير إلى بلوغ الوحدة، فإن القديس أنطونيوس المتوحد لم يحتقر نظام الشركة، لموافقته لكثير من المتوسطين في الحياة الروحية، وقد أظهر ذلك عند حديثه مع زكاوس أحد تلاميذ باخوميوس.

ولم يحتقر القديس باخوميوس صاحب نظام الشركة النظام الأنطوني بل قال: "ظهرت في أجيالنا ثلاثة أمور مرضية ونامية بالرب. أولها البابا أثناسيوس أقدس أهل زمانه، وأكثرهم جهادًا حتى الموت دفاعًا عن الإيمان المستقيم، والثانية الأب أنطونيوس العظيم النموذج المثالي لحياة العزلة والتوحد، وثالثهما الشركة التي رسمها الله لنا".
يا لها من وحدة جميلة فيها يقدم كل عضو الآخرين في الكرامة!

تدريب عملية لممارسة حياة التواضع

التواضع يمس كياننا كله

التواضع الحقيقي هو تمتع بالشركة مع ربنا يسوع المسيح، سيد التواضع، فيهبنا شركة تواضعه، عميقة جدًا في إرادتنا التي يقَدِّسها بروحه القُدُّوس. التواضع يمس كياننا الداخلي، ولا يستطيع أن يحكم عليه غير فاحص القلوب والكلّي! غير أنه يليق بنا كسفراء عن السيد المسيح أن نترجم هذا التواضع، ليس فقط خلال الأفكار الداخلية، فيكون لنا فكر المسيح، وخلال القلب فيكون لنا القلب المتَّسع للجميع، وإنما أيضًا خلال كل تصرفاتنا الخفية والظاهرة. فالتواضع في الرب يوجه كلماتنا ونبرات صوتنا، وطريقة ابتسامتنا ومشينا وأصوامنا وصلواتنا وتسبيحنا وخدمتنا لله وللاخوة في الرب.

❖ ما أجمل فضيلة الوداعة، وما أعذب رَقَّتْها، حتى تبدو لا في تصرفاتنا فحسب، بل وفي كلماتنا أيضًا حتى لا نتجاوز الحدود اللائقة في أحاديثنا، بل وحتى لا تكون نبرات هذه الكلمات ونغماتها مستهجنة، بل تصبح كلماتنا مرآة تعكس صورة الذهن...
حتى في التسبيح والترتيل ينبغي أن ندرك أن الوداعة هي القاعدة الأولى الجديرة بالاتباع...

ومن أهم مظاهر الوداعة الصمت، حتى تستقر كل الفضائل الأخرى. ولا يُلام الصمت إلا إذا كان نابغًا عن روح الكبرياء أو أعمال الطفولة...
لا شك أن هناك وداعة في نظرات العين؛ وهذه الوداعة بدورها تنزع من المرأة تلك الرغبة في التملّي بطلعة الرجال، أو الرغبة في أن يتطلّع إليها الرجال...
وفي صلواتنا نفسها تكون الوداعة مقبولة ومرضية جدًا، وتكسبنا نعمة عظيمة لدى الله...

وأكثر من ذلك، يجب أن نتمسك بالوداعة في حركاتنا وملامحنا وفي طريقة سيرنا ومشينا، لأنه - في الغالب - تفصح حركات الجسد عن حالة العقل^١.

^١ بنيان النفوس (ترجمة القس موسى وهبة) ك ١، ف ١٨.

القديس أمبروسيوس

لينحن قلبك وفكرك مع جسدك

لينحن قلبك وفكرك مع جسدك عند قدمي أخيك، حاسبًا أنه أفضل منك.

❖ عندما ينحني عند قدمي أخيه، فإن الشعور بالتواضع يستيقظ في القلب أو يتقوى إن كان بالفعل موجودًا^١.

القديس أغسطينوس

❖ حثهم على التواضع والبساطة بنفس المنظر، لأن هذا الولد طاهر من الحسد والمجد الباطل ورغبة التراس^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ "غير مهتمين بالأمر العالمة، بل منقادين إلى المتضعين" (رو ١٢ : ١٦)، بمعنى انزل إلى تواضعهم وشاركهم.

سرّ معهم؛ لا تتواضع فقط من جهة الفكر، وإنما كن معيّنًا وابسط يدك إليهم، ليس كمن هم آخرون، بل كأنهم شخصك أنت، كما يهتم الأب بطفله، والرأس بالجسد. وكما يقول في موضع آخر: "كأنكم مقيدون معهم" (عب ١٣ : ٣)...

"لا تكونوا حكماء عند أنفسكم" (رو ١٢ : ١٦).

لا تظنوا أنكم تستطيعون العمل بذواتكم.

يقول الكتاب في موضع آخر: "ويل للحكماء في أعين أنفسهم، والفهماء عند ذواتهم" (إش ٥ : ٢١)...

ليس شيء ينفخ البشر ويجعلهم يحسبون أنفسهم مختلفين عن غيرهم من البشر مثل ظنهم أنهم قادرون أن يعملوا بذواتهم. لذلك وضعنا الله في مكان فيه يحتاج كل للآخر؛ فإن كنت حكيماً تشعر أنك محتاج للآخر، أما إن حسبت نفسك في غير احتياج إلى الغير فأنت أكثر الناس غباءً وضعفًا... لا تحسب نفسك أنك تتحط باحتياجك للغير، بل هذا بالأكثر يمددك، ويجعلك أقوى، وأكثر بهاءً، وفي أمان أعظم^٣.

القديس يوحنا الذهبي الفم

^١ St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 58: 4.

^٢ In Matt. hom 58.

^٣ In Rom. hom. 22.

لنتحرك بالصلاة في تواضع، ونطلب الحنو الإلهي

❖ تحرك بالصلاة وأطلب الحنان بتواضع، وخذ من واهب الحسنات...

إنه هو القابل كل الصلوات والطلبات، لا تدخل صلاة لأبيه بدونه، ولا تخرج عطية منه إلا بيديه...

لقد قبل صلاة حنة في هيكل القدس، وخرج إليها بالمراحم من بيت أبيه.
لقد أنصت إلى صلاة يونان في جوف الحوت، وادخلها إلى أبيه كتقدمة.
لقد أنصت إلى الفريسي والعشار في هيكل القدس، لما قاما للصلاة وسمع الطلبة...

إنه يسمع لجميع المسكونة، ولا ينسى أن يقدمها كما خُذمت... الخطايا جميعها بالخرزي تخزي أمام الله، أما الكبرياء فإنها تطلب أن تقاتل الله.

الرب هو عادل، ويطلب أن يسكن في المتواضعين.

والذي يرتفع عند الله يُفرز بالجلال. لأنه كتب أن الرب ملك ولبس البهاء.
إنه يبغض كل إنسان يتكبر ويتباهى. لهذا كُتِب أن المتعظم نجس قدام الله.
اهرب سريعاً من الكبرياء لأنها نجسة. التواضع مملوء من حسنات البر...
بالعقاقير شفي ربنا الجرحين، لأنه يسهل عليه أن يضمّد جراحات الأبرار والخطاة في مثل واحد.

قدم الطب ليعين الخاطي والبار.

ألقى على البار الرعب ألا يفخر لئلا تُسرق حسناته بكبريائه.

وعلم الخاطي أن يتألم، ويتواضع، ويعرف نفسه، ويجد رحمة قدام الله.

القديس مار يعقوب السروجي

أسلك كغريب أينما وجدت

❖ أسلك كغريب أينما وجدت، ولا تتوقع أن تكون لكلمتك سلطانها، فتصير في سلام.

❖ حتى وإن ظهر لك ملاك لا ترحب به بل تواضع، قائلاً: "لست مستحقاً أن أرى ملاكاً، فأني خاطي".

أحد آباء البرية

❖ إنه ليس بالتواضع الحقيقي إن أدرك إنسان أنها إرادة الله أن ينال رتبة (قيادة) على

آخرين ويرفض ذلك.

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ المسكين بالروح وديع، يخاف كلمة الله، ويعترف بخطاياها، ولا يغتر باستحقاقاته وبيزته. المسكين بالروح هو من يسبح الله حين يأتي عملاً صالحاً، ويشكو نفسه حين يأتي سوءاً.

المسكين بالروح هو من لا يرجو سوى الله، لأن الرجاء فيه وحده لا يخبب. المسكين بالروح يتخلّى عن كل ماله ويتبع المسيح... وإذ يتحرّر من كل حمل أرضي يطير إليه كما على أجنحة^١.

القديس أغسطينوس

لا تبرر خطاياك

❖ في هذه المعركة العظيمة، إذ يعيش الإنسان تحت النعمة فتعيّنه، وبالتالي يحارب حسناً ويفرح في الرب بمخافة، فإنه لا يحتاج إلى مقاتلين جبابة أو مهلكين عتاة لأجل إماتة أعمال الجسد، إنما يمكننا الشفاء من بعض جراحات الخطية بهذا القول اليومي: "وأغفر لنا ذنوبنا" (مت ٦: ١٢)، مجاهدين بهذه الصلاة ضد الرذائل وضد الشيطان رئيس الرذيلة بحرصٍ عظيمٍ جداً وحداقة بالغة، مبطلين مشوراته المميّنة التي يقدمها ألا وهي عدم إدانة الإنسان نفسه وتقديم أعذار يبرر بها خطاياها.

هذه المشورات (الشيطانية) ليست فقط تترك الجراحات بغير شفاء، بل تدفع بها إلى أضرار خطيرة ومهلكة.

وهنا تظهر الحاجة إلى عفة مملوءة حذراً، حتى تقمع شهوة الكبرياء البشرية، حيث يسر الإنسان بنفسه، ولا يريد أن يرى في نفسه أنه مستحق للوم. فإذا أخطأ يستكف من الاعتراف بخطئه، وبدلاً من أن يتهم نفسه بتواضعٍ مشفي، يبحث لنفسه عن عذر يقدمه بزهوٍ مميّ.

ولأجل أقماع هذا الكبرياء، نجد ذاك الذي طلب العفة من الله بقوله "ضع يا رب حارساً لقمي وباباً حصينا لشفتي، ولا تمل قلبي إلى كلام شر"، يخشى لنلا "يتعلل بعلل". فإن هذا "التعليل" أكثر من كلام الشر...

^١ خواطر فيلسوف في الحياة الروحية (الخوري يوحنا الحلو)، المطبعة الكاثوليكية بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٧٠.

فالشرير ينكر أنه شرير، بالرغم من ارتكابه الشر الذي لا يقدر أن ينكره. فإذا لا يقدر أن يخفي عمل الشر، لأنه واضح أنه قد ارتكبه، يبحث كيف ينسب الشر إلى غيره طائفاً بهذا أنه يُبعد نفسه عما يستحقه. وإذا لا يرغب في نفسه أن يكون مجرمًا، يضيف إلى خطئه خطأً بتقديمه تبريرات. وبدلاً من أن يتهم نفسه بخطاياهم يقدم أعذاراً دون أن يدري أنه بهذا ينزع عن نفسه العفو لا العقوبة^١.

القديس أغسطينوس

في تواضع أنسى ما وراء!

❖ أقول لك يا محب الفضائل، يحسن بك أن تفكر وتتأمل أن تتقدم نحو الأمام. ويجدر بك أن تحسب أنه توجد سيرة أعظم من سيرتك. لو فكرت أنك تسلفت بواسطة الفضيلة بقدر ما كان ينبغي أن تتسلق، لكان سعيك باطلاً، وتبدأ في الهبوط بسبب الادعاء الذي يخامر نفسك، فتتحد من جمال التواضع^٢.

القديس مار يعقوب السروجي

اغفر لأخيك وصل لأجله

❖ ليغفر كل واحد لأخيه أخطاءه ويصل من أجل أخطاء الآخر، بهذا يغسل الواحد قلمي الآخر^٣.

القديس أغسطينوس

الهروب من المتكآت الأولى

"وقال للمدعوين مثلاً، وهو يلاحظ كيف اختاروا المتكآت الأولى، قائلاً لهم: متى دعيت من أحد إلى عرس، فلا تتكأ في المتكأ الأول، لعل أكرم منك يكون قد دُعي منه، فيأتي الذي دعاك وإياه ويقول لك أعط مكاناً لهذا، حينئذ تبتدئ بخجل تأخذ الموضع الأخير" (لو ١٤ : ٧-٩).

❖ ربما تبدو مثل هذه الأمور للبعض تافهة ولا تستحق إعارتها الانتباه، لكن متى ركز

^١ العفة للقديس أغسطينوس، ١٣.

^٢ الرسالة الخامسة.

^٣ St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 58: 5.

الإنسان عيني ذهنه عليها فسيتعلم من أي عيب تخلّص الإنسان، وأي تدبير حسن توجده فيه. فإن الجري وراء الكرامات بطريقة غير لائقة لا تناسبنا ولا تليق بنا، إذ تظهرنا أغبياء وعنفاء ومتعطرسين، نطلب لا ما يناسبنا بل ما يناسب من هم أعظم منا وأسمى.

من يفعل هذا يصير مكروهًا، وغالبًا ما يكون موضع سخريّة عندما يضطر بغير إرادته أن يرد للآخرين الكرامة التي ليست له... يلزمه أن يعيد ما قد أخذه بغير حق. أما الإنسان الوديع والمستحق للمديح الذي بدون خوف من اللوم يستحق الجلوس بين الأولين لكنه لا يطلب ذلك لنفسه بل يترك للآخرين ما يليق به، فيحسب منتصرًا على المجد الباطل وسيقبل مثل هذه الكرامة التي تناسبه، إذ يسمع القائل له: "ارتفع إلى فوق".

إذن العقل المتواضع عظيم وفائق الصلاح، يخلص صاحبه من اللوم والتوبيخ ومن طلب المجد الباطل...

إن طلبت هذا المجد البشري الزائل تضل عن طريق الحق الذي به يمكنك أن تكون بالحق مشهورًا وتنال كرامة تستحق المنافس! فقد كتبت: "لأن كل جسد كعشب، وكل مجد إنسان كزهر عشب" (١ بط ١: ٢٤). كما يلوم النبي داود محبي الكرامات الزمنية، قائلاً لهم هكذا: "ليكونوا كعشب السطوح الذي يبس قبل أن يُقْلَع" (مز ١٢٩: ٦). فكما أن العشب الذي ينبت على السطح ليس له جذر عميق ثابت لذا يجف سريعًا، هكذا من يهتم بالكرامات الدنيويّة بعد أن يصير ظاهرًا في وقت قصير كالزهرة يسقط إلى النهاية، ويصير كلاً شيء.

إن أراد أحد أن يسبق الآخرين فلينل ذلك بقانون السماء، وليتكلم بالكرامات التي يهبها الله. ليسمو على الكثيرين بشهادة الفضائل المجيدة، غير أن قانون الفضيلة هو الذهن المتواضع الذي لا يطلب الكبرياء بل التواضع! هذا هو ما حسبه الطوباوي بولس أفضل من كل شيء، إذ كتب إلى أولئك الذين يرغبون في السلوك بقداسة: أحبوا التواضع (كو ٣: ١٢). وقد مدح تلميذ المسيح ذلك، إذ كتب هكذا: "ليفتخر الأخ المتضع (المسكين) بارتقاعه، وأما الغني فبتواضعه لأنه كزهر العشب يزول" (يع ١: ٩-١٠). الذهن المتواضع والمنضبط يرفعه الله، إذ "القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره" (مز ٥١: ١٧).

من يظن في نفسه أمراً عظيماً وسامياً فيتشامخ في فكره وينتفخ في علو فارغ يكون مرذولاً وتحت اللعنة، إذ يسلك على خلاف المسيح القائل: "تعلموا مني، لأنني وديع ومتواضع القلب" (مت ١١ : ٢٩). كما قيل: "لأن الله يقاوم المستكبرين، وأما المتواضعون فيعطيه نعمته" (١ بط ٥ : ٥). لقد أظهر الحكيم سليمان في مواضع كثيرة الأمان الذي يحل بالذهن المتواضع، إذ يقول: "لا تنتفخ كي لا تسقط" (ابن سيراخ ١ : ٣٠)؛ كما يعلن ذات الأمر بطريقة تشبيهية: "المعلي بابيه (بيتته) يطلب الكسر" (أم ١٧ : ١٩). مثل هذا يبيغضه الله بعدل إذ يُخطئ في حق نفسه ويود أن يتعدى حدود طبيعته بغير شعور...

أسألك، على أي أساس يظن الإنسان في نفسه أمراً عظيماً؟!... ليت كل إنسان ينظر إلى حاله بعينين حكيمتين، فيصير كإبراهيم الذي لم يُخطئ في إدراك طبيعته بل دعي نفسه تراباً ورماداً (تك ١٨ : ٢٧)¹.

القديس كيرلس الكبير

الاعتدال في العبادة

❖ لا تتقل حملك، ولا تضعف جسدك بسيرة تفوق طاقتك، لكن تواضع لأجل المسيح كما أنت، وأنفع الذين يلتقون بك، ولا تحرم من عشرتك أصدقاءك والذين يرونك ويستفيدون منك... ما طلبته منك أفعله، لئلا تطالب جسدك اليوم أن يحمل النقل الذي كنت تحمله في شبابك، لكن خفف عنه قليلاً الحمل الذي كان يحمله، لئلا يضعف ويسقط، فتصبح عاطلاً عن خدمتك الروحية².

القديس مار يعقوب السروجي

لنقتد بالمسيح المتواضع!

يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [لم يستتكف (يسوع المسيح) من الدخول إلى أكواخ صيادي السمك البسطاء، معلماً إياك بكل وسيلة أن تطأ الكبرياء البشري تحت قدميك³]. أكد ذلك القديس أغسطينوس بقوله: [لقد أرادهم أن يفهموا أعماله أنها ليست

¹ In Luc Ser 102.

² الرسالة التاسعة والثلاثون.

³ In Matt. hom 27.

بقصد الإعجاب وإنما قدمها عن حب لأجل الشفاء^١.

وعلق القديس أمبروسيوس على دعوة السيد المسيح للمتعبين من أجل راحتهم قائلاً: [إذ يحمل الرب نحونا حناناً يدعونا إليه ولا يرهبنا. جاء في وداعة، أتى في تواضع... إنه يلاطفنا ولا يطردنا أو يلقينا خارجاً. هكذا اختار أيضاً تلاميذ مناسيين يفسرون إرادة الرب إذ يجمعون شعب الله (بالحب) ولا يشتتونه (بالقسوة)].

❖ مهما بلغ تواضعك فهو كلا شيء، فإنك لن تكون في تواضع المسيح^٢.

❖ لنتبع المسيح ربنا، فإن من يقول أنه يؤمن به يلزم أن يسلك كما سلك ذاك (١ يو ٢: ٦). لقد جاء المسيح لخدم لا ليخدم. لم يأت ليأمر وإنما ليطيع؛ لم يأت لكي تغسل قدماه بل لكي يغسل هو أقدام تلاميذه. جاء لكي يضرب لا ليضرب، يحتمل ضعفات الآخرين ولا يصفع أحداً، ليصلب لا ليصلب... إذن لنتمثل بالمسيح، فمن يحتمل الضعفات يتمثل به، وأما من يضرب الآخرين فيتمثل بصد المسيح^٣.

القديس چيروم

❖ يقول الرسول: "حياتنا مستترة مع المسيح في الله"، فلا يجاهد أحد لكي يضيء، ولا يتكبر أحد ولا يفتخر أحد. فالمسيح لم يشأ أن يكون معروفاً من أحد هنا ولم يطلب أن يركز باسمه في الإنجيل وهو لا يزال على الأرض. بل جاء ليختبئ عن هذا العالم. فلنخف نحن أيضاً كذلك حياتنا كما فعل المسيح (مقتدين بما فعله هو). فلنكف عن الافتخار لنكف عن أن نشتهي أن نكون معروفين. فالأفضل أن نعيش هنا في تواضع، وهناك في مجد. إذ يقول "حينما سيظهر المسيح، فحينئذ سنظهر نحن أيضاً معه في مجد"^٤.

القديس أمبروسيوس

❖ ترى مم تعجب التلاميذ؟ من تواضعه الشديد وبُعده عن الكبرياء، إذ تبادل الحديث مع امرأة فقيرة بل وسامرية أيضاً^٥.

¹ In Ioan. tr 91: 3.

² Letter to Pammachius PL 22:646.

³ On Ps. hom 2.

⁴ Duties of Clergies, 3:5 (36).

⁵ Hom. on John, 33: 3.

❖ **"لأن تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاماً". (يو ٤ : ٨)** في هذا الموضوع لم يظهر فقط جهاده، وإنما أظهر تحرره من الكبرياء، ليس فقط بكونه كان متعباً ولا بجلوسه علي جانب الطريق، وإنما بتركه وحده وترك تلاميذه له. فكان في قدرته - إن أراد - ألا يرسلهم جميعاً، أو يترك البعض يذهب والآخرين يخدمونه. لكنه لم يرد هذا، فقد جعل تلاميذه يعتادون علي وطأ الكبرياء تحت أقدامهم. وأي عجب إن كانوا يسلكون باعتدال في اشتياقاتهم ما داموا كانوا صيادي سمك وصانعي خيام؟" نعم كانوا صيادي سمك وصانعي خيام، لكنهم في لحظة صعودوا حتى إلى أعالي السماء، وصاروا أكثر كرامة من كل الملوك الأرضيين، إذ حسبوا أهلاً أن يصيروا في رفقة رب العالم، وأن يتبعوا ذاك الذي يتطلع الكل إليه برعدة. وأنتم تعلمون هذا أي أن الذين كانوا على وجه الخصوص من أصل وضع عندما ينالون امتيازاً بسهولة شديدة ينتفخون في غباوة، إذ يجهلون تماماً كيف يحتملون كرامتهم التي نالوها فجأة. لهذا فلكي يحفظهم في تواضعهم الحاضر كان دائماً يعلمهم أن يكونوا معتدلين، ولا ينتظروا أحداً يستقبلهم (بكرامة)¹.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ **"احملوا نيري عليكم وتعلموا مني" (مت ١١ : ٢٩)**، لا في خلقه العالم، ولا في خلقه الأمور المنظورة وغير المنظورة، ولا في صنع المعجزات وإقامة الموتى في العالم الذي خلقه هكذا، وإنما "لأنني وديع ومتواضع القلب". أتريد أن تكون عظيماً؟ ابتدئ من الآخر! أتريد أن تقيم بناءً غالباً قوياً؟ فكر أولاً في أساس التواضع!... ما هي قمة تشييد هذا البناء الذي نؤسسه؟ إلى أين تبلغ قمة هذا البناء العالي؟ أقول حالاً إلى رؤية الله! ألا ترى كم هو عظيم أن تُعين الله؟! إن من ارتفع إلى هذا الأمر يقدر أن يفهم ما أقوله وما يسمعه!... وإذ القمة مرتفعة ففكر في الأساس. أي أساس؟ ماذا تقول؟ تعلموا منه لأنه وديع ومتواضع القلب. لتحفر فيك أساس التواضع هذا عميقاً، فتحصل على قمة المحبة!²

القديس أغسطينوس

❖ أيها المفرز، لا تبغ على قريبك.

¹ Homilies on St. John, 31:3.

² Ser. on N. T. , hom 19.

تواضع أمامه، واسجد قدام رجله إن قدرت!
صور قدام عينيك تواضع ابن الله.
كما تواضع هو، تواضع أنت أمام أصحابك.
انظر إلي تواضعه وغسله أقدام أهل بيته.
إذ الإله أحب التواضع، وأبغض الافتخار.
لا تقترب إلي ما يبغضه ابن الله، فإنك إن اقتربت إليه يقتلك ويفسدك.
ابغض العظمة التي رذلها ابن الله وأبغضها.
هذا هو الشر الذي تتبع منه جميع الشرور.

❖ اصطف تواضع المسيح ضد قمة الضلالة ليبطل الوثنية من الأرض بالتدبير الإلهي،
حتى يُشاهد العلي كم أنه تواضع ليحتقر الشياطين الذين أرادوا أن يتكبروا كثيرًا،
وتخلص بتواضع الابن مقتنيات الآب، ويفضح المتسلط الأثيم الذي تسلط على العالم
المظلم بالخطف. لأجل هذا تواضع ذاك السامي، ولبس التواضع لتحقر بواسطته
الكبرياء، ولنعرف الأب بتواضع ابنه^١.

❖ دعت النبوة "العجيب" (إش ٩: ٦)...

العجيب، لأنه نزل وصعد، وبنزوله هو سام، وبصعوده هو متواضع.
الآن الذي نزل هو نفسه الذي صعد. ولما نزل لم يخل السماء، ولما صعد لم يترك
العالم. "أنا معكم إلى انقضاء الدهر" (مت ٢٨: ٢٠؛ يو ٣: ١٢)^٢.

القديس مار يعقوب السروجي

تمثل بالسيد المسيح غاسل قدمي خائنه

"فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل
بعضكم أرجل بعض. لأنني أعطيتكم مثالاً حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً.
الحق الحق أقول لكم إنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله. إن
علمتم هذا، فطوباكم إن عملتموه" (يو ١٣: ١٤-١٧).

غسل الأقدام هو من تخصص السيد المسيح الذي يغسل أعماق النفس ويغفر

^١ الرسالة التاسعة عشر.

^٢ الرسالة الثالثة.

الخطايا. فمن بالحب والتواضع يغفر لمن يخطئ إليه إنما يشترك في إحدى سمات المسيح العظمى، ويُحسب متمتعًا بالحياة الجديدة المطوبة في المسيح يسوع. قول السيد: "طوباكم" (يو ١٣: ١٧) إنما يكشف عن المجد السماوي والحياة السماوية التي نختبرها بممارستنا لهذا العمل.

❖ إلا أنه ليس الأمر متشابه، لأنه هو الرب والسيد وأما أنتم فعبيد رفقاء لبعضكم البعض. ماذا إذن يعني "حتى كما" أي بذات الغيرة. لهذا فقد قدم أمثلة لأعمال عظيمة لعلنا ننتم ما هو أقل. هكذا يقوم المعلمون في المدارس بكتابة الحروف للأطفال بطريقة جميلة جدًا حتى يقلدهم الأطفال وإن كان بطريقة أقل... أين إذن أولئك الذين ينشقون عن زملائهم؟ أين هم أولئك الذين يطلبون كرامات؟ لقد غسل المسيح قدمي الخائن المدنس للمقدسات، اللص، والذي اقترب جدًا لوقت الخيانة، حالته لا يُرجى منها الشفاء، ومع ذلك جعله شريكًا معه على المائدة، فهل تتكبرون وتتغامزون؟ يقول قائل: "لنغسل أقدام بعضنا البعض". هل هو أمر عظيم أن نغسل أقدام خدامنا؟ بالنسبة لنا "عبد" و"حر" كلمتان مختلفتان، لكن توجد حقيقة واقعية. فإنه بحسب الطبيعة هو الرب ونحن خدم، ومع ذلك لم يرفض أن يفعل ذلك... لقد جعلنا الله مدينين لبعضنا البعض، إذ قام هو أولاً بالعمل، فجعلنا مدينين بممارسة ما هو أقل^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ أحسب أن من أسمى الصالحات أن يعبر الإنسان حياته متخفيًا.

❖ يمكننا أن ننال التواضع المخلص، هاجرين تشامخ الكبرياء المميت، بممارسة بعض أعمال التواضع في كل ما نفعله.

القديس باسيليوس الكبير

❖ غسل يسوع أقدام التلاميذ بكونه معلمهم، وأقدام الخدم بكونه سيدهم. فإن تراب الأرض الصادر عن العالم يُنظف بالتعليم، حيث لا يبلغ الأجزاء الدنيا المتطرفة في التلاميذ. لكن الأمور التي تدنس الأقدام تنزع بربوبية (سيادة) الحاكم، إذ له سلطان على الذين لا يزالون يتقبلون دنسًا عامًا، إذ هم لا يزالون يحملون روح العبودية (رو ٨: ١٥).^٢

^١ Homilies on St. John 71: 1.

^٢ Commentary on John, Book 32: 115 – 116.

❖ بخصوص المخلص وهو الرب (السيد) يمكن أن ترى فيه أمرًا يفوق السادة الآخرين الذين لا يرغبون في العبد أن يكون كسيده.^١

العلامة أوريجينوس

❖ في العبارة التي قرئت حاليًا يقول: "لأنه من هو أكبر، الذي يتكئ أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكئ؟ ولكني أنا بينكم كالذي يخدم". حينما ينطق المسيح بذلك من لا ينزع عنه حب المجد الباطل، ويطرد عن ذهنه محبة الكرامة الفارغة، ولا يبقى في عناده وتصلفه؟! لأن الذي تخدمه كل الخليقة العاقلة المقدسة، الذي يسبحه السيرافيم... المساوي مع الله الأب في عرشه وملكوته احتل مركز العبد وغسل أقدام الرسل. بمعنى آخر أخذ مركز العبودية خلال تدبير الجسد... الذي يُخدم صار خادمًا، رب المجد أصبح فقيرًا، تاركًا لنا مثلاً كما هو مكتوب (١ بط ٢: ٢١).
ليتنا إذن نتجنب حب المجد الباطل، ونخلص من عار الرغبة في الرئاسة. بهذا نصير مثله، ذاك الذي أخلى ذاته لأجلنا.^٢

القديس كيرلس الكبير

❖ تحدث ناسك دفعة عما يجلب التواضع للإنسان فقال: إن الطرق المؤدية إلى التواضع هي:

١. أن يعمل الإنسان عملاً جسديًا بحكمة.
 ٢. ناظرًا إلى نفسه أنه أقل من الجميع.
 ٣. دون أن يكف قط عن الصلاة لله.
- فالأعمال الجسدية تجلب للنفس التواضع، لأن النفس تشارك الجسد، وتتألم معه في كل ما يحدث له. فكما أن الأعمال الجسدية تجعل الجسد متواضعًا، هكذا تجعل النفس أيضًا متواضعة.
- أما أن ينظر الإنسان إلى نفسه كأقل من الجميع، فهذا من الملامح المميزة للتواضع. فإن تدرب الإنسان على ذلك حتى يعتاد عليه، فإن هذا كفيلاً بأن يزرع فيه التواضع، ويقتلع منه ما دعونه بـ "النوع الأول من الكبرياء"^٣. لأنه كيف يقدر إنسان أن يتكبر على غيره أو يلومه أو يقلل من شأنه، إن كان ينظر إلى نفسه كأقل الجميع؟

^١ Commentary on John, Book 32: 120.

^٢ In Luc hom 143.

^٣ بخصوص نوعي التواضع ونوعي الكبرياء راجع الفصل التالي.

بنفس الطريقة، من يمارس الصلاة الدائمة، يميل بنفسه نحو التواضع. فإذا يعرف عجزه عن الحصول على الفضيلة بدون معونة الله، لا يكف عن الصلاة، طالباً من الله أن يظهر له رحمة. هكذا عندما ينال الإنسان شيئاً ما خلال الصلاة بغير انقطاع يعرف كيف ناله، فلا يتكبر بنواله هذا الشيء، إذ لا يقدر أن ينسبه إلى قوته، بل ينسب كل صلاحه إلى الله، مقدماً له الشكر الدائم، سائلاً إياه على الدوام، خائفاً لئلا يُحرم من العون (الإلهي). هكذا يصلي بتواضع، وينال بصلاته التواضع. وبقدر ما يتقدم في الفضيلة ينمو في تواضعه، وبقدر ما ينمو في تواضعه ينال عوناً أكثر، وبالتالي يتقدم أكثر في التواضع.

الأب دوروثيوس

❖ إذ يجول الشر في الفكر (بلذة) يقسو القلب. أما ضبط النفس مع الرجاء فيبيد الشر ويلينان القلب (ويسحقانه).

❖ يوجد انسحاق للقلب، روحي ومفيد، وهذا يلمس القلب في أعماقه. ويوجد انسحاق آخر، مضر ومقلق، هذا يقوده إلى الهزيمة فقط (كاليأس).

القديس مرقس الناسك

الممارسة العملية لما نُعَلِّمُ به

❖ "أن تعلموا" (تعرفوا) فهذا يخص الكل، أما "أن تعملوا" فهذا ليس للكل. لهذا يقول: "طوباكم إن عملتموه". ولهذا السبب أقول دوماً وأكرر نفس الشيء مع أنكم تعرفونه، حتى أضعكم في موضع العمل. فإنه حتى اليهود "يعرفون" لكنهم ليسوا مطوبين، لأنهم لا يعملون ما يعرفون¹.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ في حضور شيخ (أو صاحب كرامة) لا تكن تواقاً أن تجلس، وإن أمرت فلا تجلس بجواره، بل فتش وحاول أن تجد موضعاً أقل فيمجدك الله بسبب تواضعك².

القديس باسيليوس الكبير

تذكر الآباء المتواضعين والتشبه بهم

¹ Homilies on St. John 71: 2.

² On Renunciation of the World, (Frs. Of the Church, volume 9, p. 27).

❖ لقد قرأ (الرسول بولس) أن إبراهيم عندما اعترف أنه نفاية ورماد وجد نعمة الله في تواضعه الشديد (تك ١٨ : ٢٧). وقرأ أن أيوب إذ جلس في كومة مزبلته استرد كل خسائره (أي ٢ : ٨، ٤٢ : ١٠-١٧)، وقرأ نبوة داود: "يقيم الله المحتاجين من الأرض، ويرفع البائس من المزبلة" (مز ١١٣ : ٧)¹.

القديس أمبروسيوس

❖ إبراهيم أبو الأنبياء كان يعتبر نفسه ترابًا ورمادًا (تك ١٨ : ٢٧). وكان إشعياء الغني بالرؤى يعرف أنه رجل نجس الشفتين، ولم يكن يفكر في نفسه أنه أحد هؤلاء العظماء أو يقدر أن يتأمل في شخصه أنه شيء (إش ٦ : ٥). نفوسهم (بولس وبطرس وإبراهيم وإشعياء...) سامية بالله، وأفكارهم ملقاة على الحضيض. إذ خاف بولس من الظن إذ يحسبه البعض أكثر مما هو عليه (٢ كو ١٢ : ٦)، واعترف بطرس أنه رجل خاطئ (مت ٢٦ : ٣٣؛ لو ٥ : ٨)، وأعلن إبراهيم أنه تراب ورماد، وصرخ إشعياء أنه نجس الشفتين، فمن هو إذًا غبي فلا يخاف ولا يرتجف ويرتعب ويرتعد ويقشعر، إن خامره فكر، وتولد في إحدى حواسه الظن في نفسه أنه شيء؟²

القديس مار يعقوب السروجي

أمثلة حيّة للمتواضعين

يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: [اليدّ (التي للقديس يوحنا المعمدان) التي أكد أنها غير مستحقة أن تمس حذائه سحبتها المسيح على رأسه³] [ويعلق على العبارة: "أمين هو الذي يدعوكم الذي سيفعل أيضًا" (١ تس ٥ : ٢٤)، قائلاً: [تطلع إلى تواضعه! لا تظن أن هذه (القداسة) تتحقق لهم بسبب صلاته عنهم وإنما بسبب دعوة الله لهم إليها. لقد دعاهم للخلاص، وهو صادق فسيخلصهم بالتأكيد، لأن هذه هي إرادته⁴]. يقدم لنا القديس مار يعقوب السروجي مثالاً حيًا لحياة التواضع: ١. يظهر تواضع القديس مار يعقوب السروجي المملوء حبًا مما جاء في أغلب

¹ On Penitence, 2:1:4.

² الرسالة الثامنة والثلاثون.

³ In Matt. hom. 38.

⁴ In 1. Thess., hom. 11.

رسائله حيث يلقب نفسه "يعقوب الناقص". ففي رسالته التي وجهها إلى قسوس ورؤساء الأديرة حيث يدعو نفسه: "يعقوب الناقص والحقير والمحتاج إلى مراحم الله وإلى مساعدة صلواتكم بيسوع النور...^١"، كما يكتب: "استلمت أسطر" (رسالة) حضرتكم محبي الله، وفرحت، واستنارت نفسي المظلمة بسلامكم الإلهي، وزال عن أعضائي المرض بافتقاد أسطركم. وكما أن ظل سمعان (بطرس) كان يعطي الشفاء للمرضى (أع ٥: ١٥)، هكذا نزلت رسالتكم المزخرفة بالمحبة الإلهية الكسل والتواني عن ضعفي^٢.

وفي رسالته إلى الأسقف بولس الرهاوي كتب: [أنا الناقص، عبد قداسك، كنت تواقاً، ليس فقط أن تحضر رسالتي أمامك، لكن أن تحز تحت أخص رجلك هذه... يا عظيم ومختار الله، صل لأجل نقصي].

٤- في مشاعره الرقيقة المملوءة تواضعاً يشتهي ألا تسبب رسائله حزناً لأحد، مفضلاً أن تحرق رسائله بالنار ولا يحزن قارئها. جاء في إحدى رسائله:

[كنت لي أبوتك في الرسالة... أن أبوتك حزنت كثيراً بسبب هذه الرسالة، الأولى التي قرأتها وتأملت فيها... ولماذا حزنت حضرتك يا رجل؟ إنه مكتوب أن نفرح في الرب في كل حين! وتغلبت عليك الكآبة، وكان يلزم ألا يحزنك مرض ولا موت. إن كانت هذه الرسالة - كما جاء في رسالتك - مضرة، وجب أن تحرق بالنار ولا تتضايق أنت].

٥- يكتب رسائله لا كمعلم يفتخر بتعليمه، بل كمن هو أقل ممن يرسل إليهم. جاء في إحدى رسائله: [لم أحرر هذه الأمور يا سيدي، مثل ملفان (معلم) لتلميذه، لكن مثل عضو ناقص إلى عضو نظيره أفضل منه]. [أنا لا أضل نفسي لأظن أنني شيء، بينما أنا لست بشيء، غير أنني مثل الأدنى والأنقص والمُلام والحقير].

تهيئة الراهب نفسه لحياة التواضع

في مقال للقديس باسيليوس الكبير عن النظام النسكي يحدثنا عن تهيئة الراهب نفسه.

❖ في المقام الأول والرئيسي يلزم على الراهب ألا يملك شيئاً من هذا العالم، بل تكون

^١ الرسالة الحادية والعشرون.

^٢ الرسالة الحادية والعشرون.

ممتلكاته هي عزلة جسمه، تواضع مشيه، لطف نغمة صوته، اتزان طريقة حديثه. يلزمه ألا يقلق من جهة طعامه وشرابه، ويأكل في صمت. في حضور رؤسائه يلزمه أن يمسك لسانه، أمام من هم أحكم منه يلزمه أن ينصت إلى كلماتهم.

يلزمه أن يحمل حباً لزملائه، مقدماً مشورة مترفة لمن هم تحته، منعزلاً عن الأشرار والجسدانيين والفضوليين.

يلزمه أن يفكر كثيراً ويتكلم قليلاً، غير متقدم في الكلام، ولا يدخل في حوار غير نافع، ولا يتحرك بسهولة نحو الضحك، وقوراً في مشيه، متطلعاً بعينيه إلى أسفل وبروحه إلى أعلى، غير مجاوب عن الأكاذيب بأكاذيب، راغباً في التعلم. يليق به أن يعمل بيديه، مفكراً دوماً في غايته النهائية، متهللاً في الرجاء، صبوراً في المحن، مصلحاً بلا انقطاع، شاكراً على كل شيء، متواضعاً أمام كل أحد، مبغضاً للكبرياء، وقوراً، حريصاً على حفظ قلبه من الأفكار الشريرة. يلزمه أن يكرس كنزاً في السماء (لو ١٢: ٣٣) بحفظه الوصايا، وفحص نفسه من جهة أفكاره اليومية وتصرفاته، غير مرتبكاً بأعمال العالم وأموره الزائدة (٢ تي ٢: ٤).^١

القديس باسيليوس الكبير

¹A Discourse on Ascetical Discipline, (Frs. Of the Church, volume 9, p. 33).

يا لخطورة الكبرياء!

في تعليق القديس باسيليوس الكبير^١ على تصرف الفريسي الذي دان العشار أوضح الفارق بين الفكر المتعالي المملوء عجرفة وكبرياء والفكر السامي النبيل الذي يرتفع فوق الأهواء، لا يحطّمه اليأس، ولا تشغله الزمنيات. بمعنى آخر التواضع لا يعني انحطاط الفكر بل سموه وارتفاعه خلال اتّحاده بالسيد المسيح المتواضع، فنحمل مع الرسول بولس فكر المسيح.

❖ يلزمه ألا يمدح نفسه ولا ينطق بما يمدح ذاته، ولا يجد لذة في الاستماع لمديح آخر له، بل يخدم كل شيء خفية، غير عاملٍ من أجل المظهر أمام الناس، بل يطلب مدح الله وحده، ويتأمل في مجيئه المجيد المهوب، كما يتأمل في خروجه من هذا العالم، وفي البركات المعدة للأبرار والنار المعدة لإبليس وملائكته (مت ٢٥: ٤١).^٢

القديس باسيليوس الكبير

يا لخطورة مرض الكبرياء!

تسلل هذا المرض حتى إلى التلاميذ أنفسهم، وقد سمح السيد المسيح أن يُسجل لنا الكتاب المقدس هذا الضعف حتى لا نستهيّن بهذا المرض، بل نطلب منه كطبيب للنفس أن يعمل فينا، كما عمل في تلاميذه فنبراً من كل فكر للكبرياء.

يقول القديس أغسطينوس: [أنني أتجاسر فأقول إنه خير للمتكبرين أن يسقطوا في عصيان واضح مشهور حتى يحزنوا في نفوسهم لأن سقوطهم هو بسبب فرحهم بذواتهم. فبطرس كان في حال أفضل حين بكى وهو غير مكتفٍ بذاته عما كان عليه حين كان متجاسراً معتدّاً بذاته. هذا ما أكدّه المرتل الطوباوي بقوله: "املاً وجوههم خزيًا فيطلبون اسمك يا رب" (مز ٨٣: ١٦).^٣]

يرى القديس أغسطينوس أن الله سمح بفضيحة العذارى المؤمنات حين اقتحم

^١ In Easi 2:12.

^٢ A Discourse on Ascetical Discipline, (Frs. Of the Church, volume 9, p. 35-36).

^٣ مدينة الله ١٤: ١٣.

البربر مدينة روما لأن هؤلاء كن قد أصيبن بالكبرياء فنزع الرب عنهن مديح الناس وسمح لهن بفقدان بتوليتهن لينحنين ويبكين فينزع عنهن فتورهن ويغتصبن المديح السماوي غير المنظور^١.

❖ ما أن تتكبر حتى تقعد في الحال ما نلتته^٢.

القديس أغسطينوس

❖ لست أريدك أن تكوني متكبرة بسبب، بل بالحري أن تكوني خائفة. إنك تسافرين كصبيبة معها ذهب. لتخش اللص. هذه الحياة الزمنية هي سباق. هنا نتنافس لكي نكلل فيما بعد. لا يدخل أحد بين الحيات والعقارب وهو متأكد أنه يكون في أمان^٣.

❖ ليس فقط الزنا والدعارة هما اللذان يندسان من يمارسهما، لكن الكبرياء أيضًا يندس الإنسان أكثر منهما^٤.

❖ يوهب التواضع لكل شخص حسب درجة عظمتة. الكبرياء مضر لكل أحد. إنه يطلب أن يفسد بالذات من هم عظماء^٥!

القديس جيروم

❖ لقد فتح التلاميذ طريقًا للضعف البشري، فكانوا يتنازعون فيما بينهم عن يكون الأعظم والأكبر من الباقين... هذا الضعف أثير فيهم، وسُجل لأجل نفعنا، حتى أن ما حدث بين الرسل يكون علة لكي ننعم بالتواضع. إذ انتهر المسيح المرضى، وكطبيب ناجح نزع بوصية عميقة مملوءة غيره^٦.

القديس كيرلس الكبير

❖ "أية امرأة لها عشرة دراهم إن أضاعت درهمًا واحدًا ألا توقد سراجًا وتكنس البيت وتفتش باجتهاد حتى تجده؟" (لو ١٥ : ٨) من هي المرأة؟ إنها جسد المسيح. ما هو السراج؟ "هيأت سراجًا لمسيحي" (مز ١٣٢ : ١٧)، لذلك كان يُبحث عنا حتى نوجد، وإذ نوجد ننطق. ليتنا لا نفتخر لأننا قبلًا لم نكن موجودين بل كنا نبقي هكذا مفقودين لو لم يُبحث

^١ مدينة الله ١ : ٢٨.

^٢ Ser. on N.T. 81: 5.

^٣ Letter to Eustochium. PL 22:395 ff.

^٤ In Ioan 16:4.

^٥ On Virginité, ch 31 PL 40 ; 413.

^٦ In Luc hom 143.

عنا^١.

القديس أغسطينوس

❖ واضح أن الفخر المبالغ فيه كان من سمات الرسل الكذبة^٢.

❖ التشامخ مع الخطيئة طامة كبرى... إن كان الذي يعمل صلاحًا يفقد تعبته إن انتفخ، فكيف يكون إثم الذي يضيف إلى خطايه خطيئة التشامخ؟ لأن مثل هذا لا يقدر أن يمارس التوبة^٣.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كن معتدلاً أيها الفريسي، وضع باباً ومزلاًجاً للسانك. أنت تتحدث مع الله العارف كل شيء، انتظر حكم الديان. ليس أحد من المهرة في ممارسة الصراع يضع الأكاليل لنفسه، وليس أحد يقبل التاج من نفسه، إنما ينتظر ما يقضي به الحكم. انحن بكبريائك، فالكبرياء مكروه لدى الله، ولعين في عينيه. مع أنك تصوم، فبذهنك المتعالي لا تنتفع به شيئاً. تعبك لا يُكلل، لأنك تمزج القانورات بالروائح الطيبة. حتى حسب الشريعة الموسوية لا يمكن تقديم ذبيحة لله بها عيب، فقد قيل له إن كل غنم أو ثور يقدم ذبيحة لا يكون فيه عيب (لا ٢٢: ٢١). لذلك فكل صوم يصحبه كبرياء توقع أن تسمع عنه من الله: "أليس هذا صوماً أختاره" (إش ٥٨: ٦). أنت تدفع العشور لكذلك إذ تدين البشر عامة تخطئ إلى ذاك الذي كرمته. مثل هذا العمل غريب عن الفكر الذي يخاف الله، إذ قال المسيح: "لا تدينوا فلا تُدانوا، لا تقضوا على أحد فلا يُقضي عليكم" (لو ٦: ٣٧). ويقول أحد تلاميذه: "واحد هو واضع الناموس... فمن أنت يا من تدين غيرك؟!" (يع ٤: ١٢). ليس أحد بصحة جيدة يحتقر مريضاً ملقياً على فراش، إنما يخاف لئلا يسقط هو نفسه تحت نفس الآلام...

ولكن ماذا عن العشار؟ يقول إنه وقف بعيداً، لم يجسر حتى أن ينطق أو يرفع عينيه إلى فوق. ها أنت تراه خالياً من كل نطق جسور، كمن ليس له حق في ذلك، بل كان مضروباً بتوبيخات ضميره، يخشى حتى من أن ينظره الله، بكونه إنساناً أهمل في شرائعه، حياته منحلة غير طاهرة.

^١ In Luc 12: 8-10.

^٢ In 2 Cor. hom 22:2.

^٣ In Rom. Hom. 5.

ها أنت تراه يتهم نفسه بطريقة منظورة... لقد كان خائفًا من الديان، يقرع صدره، ويعترف بخطاياها، ويكشف مرضه كما إلى الطبيب، ويسأل نوال الرحمة. ماذا كانت النتيجة؟ اسمع ما يقوله الديان: "نزل (هذا الإنسان) إلى بيته مبررًا دون ذاك"^١.

القديس كيرلس الكبير

❖ يا للجنون؟ ألا يدري هذا الإنسان المتكبر أن مجده يزول ويتبخر كالحلم، وأن العظمة والسلطان ليست هي إلا سراب خداع^٢.

القديس باسيليوس الكبير

❖ الإنسان الذي له معرفة قليلة ويفتخر بها جاهل، لا في كلماته فحسب، بل وفي تفكيره أيضًا.

القديس مرقس الناسك

❖ عظيمة هي قوة هذا الدواء، وعظيمة هي قدرة هذا التشبيه، في علاج مرض الكبرياء. لماذا تنتفخ؟ أو لماذا يحتقر آخر نفسه؟ أليس جميعنا جسدًا واحدًا، العظيم منّا والصغير؟

إن كنّا في مجموعنا واحدًا، وأعضاءًا لبعضنا البعض، فلماذا تعزل نفسك بالتشامخ؟ لماذا تهين أخاك؟ فكما هو عضو لك أنت عضو له.

لقد قرر (الرسول) أمرين يكسران الروح المتكبر: الأول إننا أعضاء بعضنا لبعض، ليس فقط الصغير عضو للكبير وإنما الكبير أيضًا للصغير، والثاني إننا جسد واحد. بل توجد نقطة ثالثة، وهي أن العطية من قبل النعمة، لذلك لا تستكبر، لأنها معطاة لك من الله...

أيضًا إذ يمس موضوع المواهب لا يقول أن أحدًا أكبر وآخر أصغر بل ماذا؟ المواهب مختلفة! كلماته هكذا "لنا مواهب" ليست أقل وأعظم بل "مختلفة"^٣.

القديس يوحنا الذهبي الفم:

^١ ON Luke hom 120.

^٢ راجع الأب إلياس كويتر المخلصي: القديس باسيليوس الكبير، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣٠٩. عظة ٢٠.

^٣ In Rom. hom. 21.

الكبرياء أسقط ملائكة

❖ الكبرياء ضد التواضع، خلاله فقد الشيطان سموه كرئيس ملائكة... فكر أيها الأخ أية خطية هذه التي يقاومها الله؟!¹

القديس جيروم

❖ إننا نرى أن الملاك الذي لأجل عظمة جلاله وبهائه دُعي كوكب الصبح أُلقي خارج السماء بسبب هذه الخطية وحدها. وبسبب طعنه بشوكة الكبرياء طُرِح من مركزه العظيم الفخم إلى أسفل كملاك لجهنم. كان كبرياء القلب بمفرده كافياً لأن يطرحه من السماء إلى الأرض. عظمة سقوطه توضح لنا بأي اهتمام ينبغي أن نشعر بالضعف البشري لكي نكون في يقظة من الكبرياء؟

لكن كيف نستطيع أن نتقاضي هذا الشر المميت؟ إذا تعقبنا إثر أسباب السقوط الرئيسية نُدرك أنه لا يمكن لهذا لضعف أن يُشفى، كما لا يُجدي العلاج بالنسبة للحالات الصحية السيئة ما لم تُستأصل الأسباب الرئيسية بحكمة وهدوء. بمعنى أن الشيطان وُهب سموًا إلهيًا ونال حكمة، فظن أن هذا السمو وهذه الحكمة وهذا الجمال، الأمور التي حصل عليها كهبات من الخالق، يتمتع بها بقوته الشخصية وليس من نعم هذا الكريم. بهذا انتفخ كما لو كان في غير حاجة لأية معونة إلهية لكي يستمر في هذه الحالة من النقاوة. وفكر في نفسه أن يكون مثل الله، لا يحتاج إلى أي أحدٍ، واثقًا في قوة إرادته الذاتية، متخيلًا أنه من خلالها يستطيع أن يمد نفسه بغنى بكل شيء ضروري في التدريب على الفضيلة أو حفظ بركتها الكاملة. هذا الفكر بمفرده كان سبب سقطته الأولى، وإذ يبحث الله عنه ظن (الشيطان) إنه غير محتاج إليه. أصبح فجأة مزعزعًا وغير ثابتٍ، وظهر ضعف طبيعته، وفقد التطويب الذي تمتع به كهبة إلهية، لأنه "أحب كلمات الدمار" التي بها تكلم، قائلاً: "أصعد إلى السماء".

بسبب اللسان الخادع الذي به قال لنفسه: "أنا أصبح شبيهًا بالعلي"، كآدم وحواء اللذين أرادوا أن يصيرا شبيهين بالله، حطمه الله إلى الأبد، كما طرده وحرمه من محل سكناه، فأخذ طريقه إلى الأرض. حينئذٍ إذ يرى البشر الخراب الذي لحق به يخافون منه ويضحكون عليه، ويقولون: هكذا يكون الذين يظنون أنهم في إمكانهم الحصول على السمو الإلهي بدون الحماية أو المعونة الإلهية. هكذا يكون الإنسان الذي لا

¹Ep 16, 12.

يكون الله عونهُ، ويثبُت في كثرة غناه ويملأهُ غروره^١.

القديس يوحنا كاسيان

الكبرياء علة السقوط

❖ لا شيء يجعل الرجل تزل إلا الكبرياء!

المحبة تحرك الرجل للسير والتقدم والصعود، أما الكبرياء فتدفع الرجل إلى السقوط^٢.

القديس أغسطينوس

❖ أصغ ماذا يقول الرب؟! "تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم" مت ٢٩: ١١.

لقد كشف لنا أصل الشرور وعلتها، وكيفية معالجتها وما هو مصدر الصلاح. بمعنى "الاعتداد بالذات" الذي أسقطنا، وبالتالي لا ننال العفو إلا خلال نقيضه وهو "التواضع".

ما الذي جلب علينا هذه الأحزان جميعها؟ أليس الكبرياء؟! فقد خلق الإنسان لكي ينعم بكل متعه في جنة عدن، لكنه حرم من أن يصنع شيئاً واحداً، فصنعه. انظر يا له من كبرياء؟! يا له من عصيان (ابن الكبرياء)؟!

الأب دوروثيوس

❖ من يطير إلي العلا (كالسحاب) يضمحل، إذ يفتر بذاته، مندفعاً إلى الدمار. البابا غريغوريوس (الكبير)

الكبرياء يقوقع الإنسان ويحبسه في الأنا

❖ المتكبر لا يعرف نفسه. لو عرف نفسه وعرف غباوته لم اغتر بنفسه.

القديس مرقس الناسك

❖ في كل كلماته لم يطلب (الفريسي) شيئاً من الله، لذلك لم ينل شيئاً. صعد ليصلي لكنه لم يفكر في الصلاة لله، وإنما في تمجيد ذاته. أكثر من هذا استخف بذاك الذي كان يصلي.

^١ القديس يوحنا كاسيان: المؤسسات لنظام الشركة، ١٢ في روح الكبرياء، ٤.

^٢ On Ps. 21.

❖ صار الفريسي ملومًا لكونه متكبرًا، وليس لأنه يشكر الله^١.

القديس أغسطينوس

❖ صلى (الفريسي) مع نفسه وليس مع الله، لأن خطية الكبرياء ردتته إلى ذاته^٢.

القديس باسيليوس الكبير

❖ كثيرة هي أخطاء الفريسي، أولاً لأنه كان متعجباً بلا إحساس، يمدح نفسه مع أن الكتاب المقدس يصرخ: "ليمدحك الغريب (قريبك) لا فمك، الأجنبي لا شفتاك" (أم ٢٧: ٢)...

القديس كيرلس الكبير

لا مكان لسيد التواضع في قلوب المتكبرين

❖ جلس سيد التواضع في منزل فريسي متكبر يُدعى سمعان، وبالرغم من جلوسه في منزله لم يكن في قلبه مكان يسند (ابن الإنسان) فيه رأسه^٣ (٩: ٥٧).

القديس أغسطينوس

❖ "لا شيئاً بتحزبٍ أو عجبٍ". هذا كما أقول دومًا هو علة كل الشرور. منه تصدر المحاربات والخصومات. بهذا تبرد المحبة عندما نحب مديح الناس، عندما نصير عبيدًا للكرامة التي يقدمها الكثيرون لنا. فإنه يستحيل أن يصير الإنسان عبدًا لحب المديح، ويكون عبدًا حقيقيًا لله^٤.

القديس يوحنا الذهبي الفم

الكبرياء والخدمة

❖ لا تغتر بنفسك إن خدمت حسنًا، لأنك إنما فعلت ما هو مطلوب منك.

❖ إن كان التلاميذ قد تنازعوا، فهذا ليس عذرًا لك، وإنما هو تحذير. لنحذر لئلا يكون نزاعنا على المراكز الأولى هو هلاكنا.

القديس أمبروسيوس

¹ Ser. On N.T. 65: 2,3.

² In Easi 2.

³ Ser. on N.T. 12: 1.

⁴ Homilies on Philippians, homily 5.

❖ لقد رفض رب المجد إنسانًا متكبرًا من تلمذته (مت ٨: ١٨-٢٠)، هذا الذي أراد أن يتبعه... لقد قال له ما معناه: إن فيك خداعًا كالثعالب وكبرياء كطيور السماء، أما ابن الإنسان البسيط غير المخادع والمتواضع بلا كبرياء فليس له فيك أين يسند رأسه... إنه يسند رأسه ولا يرفعها، قاصدًا التواضع^١.

القديس أغسطينوس

❖ إذ هو يرسلهم ليعلموا العالم بحق حذرهم من الإقتداء بكبرياء الفريسيين.

❖ هذا (المشي بالطيالة وحب التحيات...) هو طريق الذين يقتصون الشهرة من أجل جمع المال.

❖ إنهم ليس فقط يمارسون الشر، وإنما يتظاهرون بالصلوات والفضيلة ليُبرروا خطيتهم.

الأب ثيوفلاكتيوس

❖ في العبارات السابقة وجه الرب إلينا حديثًا طويلًا وهامًا ليظهر لنا الطرق التي تقودنا إلى الكرامة، معلنا أمجاد الحياة غير الملوثة لكي نتقدم فيها، وننمو بغيرة إلى ما هو مدهش، فننال مكافأة دعوتنا العليا (في ٣: ١٤). ولما كانت طبيعة فكر الإنسان تتجه نحو المجد الباطل وتميل إليه... وهذه خطية خطيرة يبغضها الله؛ هذا وتقود الحياة - أصل الشر - البشر إلى مثل هذا الفكر، فيظنون أن الله يهبهم الكرامات العليا من أجل حياتهم المجيدة المميزة (أي من أجل استحقاقاتهم الذاتية)؛ لذلك أراد الرب أن يسحبنا من هذه الأهواء (أفكار المجد الباطل). فوضع أمامنا فحوى هذه الدروس التي قرأت حاليًا علينا، معلمًا إيانا بهذا المثل أن قدرة السلطان الملوكي (الإلهي) تتطلب من العبيد أن يخضعوا لها كدين يلتزمون به. إنه يقول بأن الرب لا يقدم شكرًا للعبد حتى وإن فعل ما وجب عليه عمله لأنه عبد.

أسألكم أن تلاحظوا هنا أن التلاميذ، نعم وكل الذين يخضعون لقضيب المسيح مخلص جميعنا يُحثون على المثابرة لكنهم لا يمارسون الخدمة كفضلٍ من جانبهم، وإنما كمن يفي دين الطاعة الذي يلتزم به العبيد. بهذا يُنزع مرض المجد الباطل اللعين.

إن كنت تفعل ما هو واجب عليك فلماذا تفتخر؟ ألا ترى أنك إن لم تفِ دينك

^١ Ser. on N. T. 12.

تكون في خطر، وإن وفيته فلا تستحق شكرًا على ذلك؟ هذه الحقيقة تعلمها حسنًا العبد العجيب بولس وأدركها تمامًا، إذ يقول: "لأنه إن كنت أبشر فليس لي فخر، إذ الضرورة موضوعة عليّ، فويل لي إن كنت لا أبشر" (١ كو ٩: ١٦). مرة أخرى يقول: "إني مديون" (رو ١: ١٤) أن أكرز لليونانيين والبرابرة، للحكماء والجهلاء. فإن صنعت حسنًا، وحفظت الوصايا الإلهية، وأطعت ربك، فلا تسأل كرامة الله كاستحقاق لك، بل بالحري اقترب منه واسأله عطايا جوده... نعم! وإن كنا عبيدًا، لكنه يدعونا أبناء، ويكللنا بمجد الأبناء!¹

القديس كيرلس الكبير

أيها الراعي، لا تتشامخ!

❖ يا أيها الراعي الذي لا يعرف كرامته، من أنت حتى تدين عبدًا ليس لك؟ فإنه إن ثبت فلربه يثبت، وإن سقط فلربه يسقط، لكنه سيثبت ثابتًا. فإن كنت لا تقدر أن تبرر نفسك، فلماذا تخطئ باستمرار؟

إن كنت تتشامخ عليّ بضميرك وتقول: "أنا معلم وملك عليك"، فإن لم أقبل ذلك تضعني في القيود، كيف تعلمني التواضع، وأنت تتشامخ وتتباهي وتنتفخ؟ كيف تعلمني، قائلًا: "أحبوا بعضكم بعضًا"، وأنت مملوء بغضبًا وغضبًا؟ كيف تعلمني، قائلًا: "إن أخذ أحد مالك فلا تطالبه به"، وأنت تطلب ما هو لك وتأخذ فائدة؟ كيف تعلمني العفة، وأنت فاسد وثرثار ومتجبر؟ كيف تعلمني أن أترك هذا العالم، وأنت ساقط فيه ومختنق؟... كيف تعلمني أن أغفر ما في قلبي، وأنت تحتفظ في داخلك بالخميرة العتيقة؟ كيف تعلمني أن أسالم أخي، وأنت تبلبل العالم المتسع؟²

القديس أفراهاط

لا تتشامخ بسبب الغنى والملذات والكرامات

❖ أي شيء أسمى من أن تدرب ذهنك ألا يتشامخ بسبب الغنى والملذات والكرامات، وألا تضيع كل طاقتك في هذه الأمور؟

القديس أمبروسيوس

¹ On Luke hom 113- 6.

² Demonstrations, 14:26.

❖ بينما كانوا يتشاحنون فيما بينهم من يكون الأكبر، قال لهم: أنه ليس وقت الكرامات إنما هو وقت الخطر والذبح. انظروا، أنا سيدكم أقاد للموت البشع، مُحْتَرًّا من العصاة!
الأب ثيؤفلاكتيوس

الكبرياء والمجد الباطل

❖ من الغباوة أن تتعهد عملاً شاقاً وصعباً لمجرد أن تكون موضع إعجاب الغير، فتبذل جهداً عظيماً لحفظ وصايا الله لمجرد نوال مكافأة زمنية في الذهن.
البابا غريغوريوس (الكبير)
❖ مع أن الفريسي كان يصوم يومين في الأسبوع إلا أنه لم يستفد شيئاً، لأنه افتخر بذلك على العشار¹.

القديس أثناسيوس الرسولي

❖ وإليك مثل واحد من أمثلة متعددة. إذا صام إنسان بزهوٍ أو بالتفكير أنه قد تم أمرٌ فاضلاً خاصاً، حاسباً في نفسه شيئاً عظيماً، هذا يصوم بغباء ويبدأ يدين أخاه. هذا بالتأكيد ليس فقط بينما يبني حجراً يهدم اثنين، بل يلحق به خطر هدم كل الحائط بإدانتته لأخيه.

أما الإنسان الذي يصوم بحكمة، فإنه لا يفكر أنه يصنع شيئاً صالحاً خاصاً، ولا يود أن يمدحه الغير على صومه. إنما يفكر أنه بالنسك ينال العفة، وهكذا يصل إلى التواضع، وكما يقول الآباء: "الطريق إلى التواضع هو الأعمال الجسدية عندما تنفذها بتعقل". فيكون مثل البناء الماهر القادر على تشييد بيته تشييداً راسخاً.

الأب دوروثيوس

❖ الذين يجاهدون لكي تكون لهم حياة فاضلة وحياة حب لله، هؤلاء يجب عليهم أن يتخلّوا عن الاعتداد بالذات وعن كل مجد باطل فارغ. كما يلزمهم أن يجاهدوا من أجل إصلاح حياتهم وقلوبهم.

القديس أنطونيوس الكبير

❖ يصعب عليك الهروب من فكر المجد الباطل، لأن كل ما تصنعه لطرده يمكن أن

¹ Fest. Letters 1: 4.

يكون عاملاً مساعداً لإنشاء دافع جديد نحو المجد الباطل. هذا والشياطين لا تقاوم دائماً كل فكر سليم، بل أنها أحياناً تشجع فينا بعض الأفكار السليمة على رجاء أنها تقدر بعد ذلك أن تخدمنا.

❖ فكر "المجد الباطل" هو أخيب أنواع الأفكار.

يأتي هذا الفكر للسالكين في حياة البرّ، ويبتدئ الإنسان يمجّد جهاده، ويجمع لنفسه مديح الآخرين له. فيتصور فزع الشياطين منه، شفاء للنساء، ازدحام الجماهير حوله يلمسون هدب ثوبه، وأخيراً يتنبأ له بتكريسه للكهنوت. وأن الناس يفدون إليه ليجعلوه كاهناً، وعندما يرفض الكهنوت يقيدونه ويقودوه رغماً عنه.

بعدما يشعل الشيطان فيه هذه الآمال الكاذبة، ينسحب تاركاً المجال لمحاربات أخرى يقدمها شيطان الكبرياء أو شيطان التذمر، الذي يأتي حالاً ويعرض عليه أفكاراً مضادة لهذه الآمال، حتى أنه في بعض الأوقات يستسلم لأفكار شيطان الزنا، هذا الذي منذ لحظات كان يرى في نفسه أنه قديس وكاهن وقور!^١

أما "شيطان الكبرياء" فهو سبب سقوط النفس المحزن للغاية. إنه يشير على النفس ألا تنظر إلى الله كمعين لها، بل تنسب إلى ذاتها كل ما هو صالح. فتبتدئ تنتفخ أمام الإخوة، وتحسبهم جهلاء، لأنهم لا يعرفون منزلتها السامية. الكبرياء يتبعه الغضب والتذمر. والشر الأخير يتبعه خروج الإنسان عن وعيه والغيظ ورؤية شياطين كثيرة في الهواء^٢.

القديس أوغريسي

عذوبة المعرفة لعلاج المجد الباطل

❖ من يتلامس مع المعرفة ويختبر حلاوتها، لا يعود بعد يثق في شيطان المجد الباطل ولو قدم له كل ما في العالم من إغراءات! لأنه هل يقدر أن يعده بشيء أعظم من التأمل الروحي؟ ولكن إن لم نكن بعد قد تذوقنا المعرفة، فليتنا نحيا حياة الجهاد (العمل) بكل غيرة، ونعلن هدفنا أمام الله، وهو أن كل ما نعمله إنما لكي (نختبر) معرفة الله.

^١ إلى أناتوليس عن الأفكار الثمانية، ٨.

^٢ Praktikos 13,14.

❖ النفس المتكبرة وكر للصوص، لا تقدر أن تحتل كلمة معرفة.

❖ في كل إنسان، الاعتداد بالرأي يفقده معرفته لذاته.

القديس أوغريس

يا لشهوة حب إرضاء الناس!

❖ يا لخطورة شهوة "إرضاء الناس"! إذ تزحف متخفية بطريقة غير مُدركة وتملك حتى على الإنسان الحكيم!

فكل الشهوات الأخرى يمكن لمن يطيعونها أن يروا آثارها فيتواضعون ويكون. أما هذه الشهوة، فتلبس رداءً من كلمات التقوى ومظاهر الورع، حتى يصعب بالنسبة لمن أفسدتهم أن يكتشفوا مظاهرها المتنوعة.

القديس مرقس الناسك

❖ لقد كفّ (شاول الطرسوسي) عن إرضاء الناس عندما صار خادم المسيح، جندي المسيح يسير في صيت رديء وصيت حسن (٢ كو ٦ : ٨)،... لا ينتفخ بالمديح، ولا يحطمه التوبيخ. لا يتعالى بالغنّى، ولا يتقوقع على نفسه بسبب الفقر. يحتقر الفرح والحزن (العالمي) على السواء.

❖ الفضيلة الأولى للراهب هي الازدراء بحكم الناس عليه^١.

❖ لا تمل بأذنك إلى كلمات مؤذية... إذ تقودنا طبيعتنا الخاطئة بفضل الذين يتملقوننا، ومع أننا نجيب بأننا غير مستحقين للمديح، وتحمّر وجوهنا خجلاً لكننا نفضل من يتملقوننا.

القديس جيروم

❖ هل تريد أن تكون معروفًا لدى الله؟ حاول قدر المستطاع أن لا تكون معروفًا لدى الناس.

❖ إن كنت دائماً تذكر الله الذي يرى كل أفعال النفس والجسد، فإنك لا تخطئ بأي نوع، ويكون الله رفيقاً لك.

القديس أوغريس

^١ Ep. 52:13; 66:6.

❖ إذا كان الأصدقاء يفسدونك بكثرة مديحهم لك، فالأعداء يصلحون عيوبك بما يوجهونه من اتهامات ضدك.

القديس أغسطينوس

الكبرياء ورفض التعلّم

❖ ينتقد بولس أولئك الذين ينتفخون بالكبرياء بنظرتهم الدنيئة نحو بولس على غير ما هو عليه ويظنون أنهم ليسوا في حاجة إلى تعليمه¹.

الأب امبروسياستر

❖ الطريق دائماً صلب، تَطَّاه أقدام كل العابرين على الدوام، لهذا لا تبذر فيه بذار. هكذا من كانت لهم الأفكار العنيفة وغير الخاضعة، لا تدخل الكلمة الإلهية المقدسة فيهم، ولا تسندهم، لكي يتمتعوا بثمر الفضيلة المفرح. مثل هؤلاء يكونون كالطريق الذي تطَّاه الأرواح الدنسة ويدوسه الشيطان نفسه، فلا يأتون بثمر مقدس بسبب قلوبهم المجذبة العقيمة.

القديس كيرلس الكبير

❖ إنه من المتناقض أن يظن إنسان أنه سام وفي نفس الوقت أعماله منحطة.

القديس أوغريس

الكبرياء وحب السلطة

❖ الذين يمتدحون أنفسهم هم أولئك الذين يرغبون في السيطرة، ويطلبون السلطة باسمهم. من يُبعث في إرسالية ينال سلطة لا لحسابه بل لحساب مرسله. هنا يقول بولس الرسول انه اختير كوكيل للرب. فلا يدعي لنفسه شيئاً فوق ما وُهب له، إنه لا يربط نفسه بالذين يكرزون دون إرسالية (من الله)².

الأب امبروسياستر

❖ ليس العيب في السلطان في ذاته، وإنما في الطمع الباطل، وعلى هذا فإن تأسيس السلطان يأتي من قبل الله، ومن يستعمله يكون سفيراً لله بكونه خادم الله للصالح (رو ١٣: ٤-٣). العمل في ذاته ليس خطيئة، لكن العيب في الذي ينفّذه... يجب أن نميّز

¹ CSEL 81:274.

² CSEL 81: 276.

بين الاستخدام الصالح للسلطان والاستخدام الطالح...

القديس أمبروسيوس

الكبرياء والتهور

❖ "لا تتفاخر"، بمعنى "لا تتهور". فإن من يحب يكون متعقلاً وجاداً وثابتاً. بالحقيقة إحدى علامات الذين يحبون بطريقة خاطئة هي السقوط في هذا العيب. أما الذي يعرف هذا الحب فيتحرر من هذه الشرور تماماً. فحيث لا يوجد غضب في الداخل يهرب كل من التهور والاستخفاف بوقاحة. الحب يشبه مزارعاً يضع كرسيه في داخل النفس ولن يسمح لأي من هذه الأشواك أن تثبت فيها...

الحب يطهر الكل بكمال.

لاحظوا أن طويل الأناة ليس بالضرورة يكون مترفعاً... فإن لم يكن مترفعاً يصير طول الأناة رذيلة، ويتعرض الشخص لخطر السقوط في المكر. لذلك يقدم الحب دواءً، أقصد الترفق فيحفظ الفضيلة نقيّة.

مرة أخرى الشخص المترفق غالباً ما يصير مبالغاً في رغبته في إرضاء الغير، هذا أيضاً يصححه الحب، إذ المحبة "لا تتفاخر ولا تنتفخ". الترفق وطول الأناة غالباً ما يأخذان صورة التظاهر، أما المحبة تنزع هذه الرذيلة أيضاً. انظروا كيف يزين المحبة ليس فقط بما لها، بل وبما ليس لها. إذ يقول: إنها تجلب الفضيلة وتحطم الرذيلة، بل لن تسمح لها أن تثبت قط!

القديس يوحنا الذهبي الفم

الكبرياء سمة ضد المسيح

❖ "من يتكلم عن نفسه يطلب مجد نفسه" (يو ٧: ١٨). ذاك الذي سيُدعى ضد المسيح يقول عنه الرسول: "المرتفع على كل ما يُدعى إلهاً أو معبوداً" (٢ تس ٢: ٤). يعلن الرب عن نفس الشخص (ضد المسيح) أنه يطلب مجد نفسه وليس مجد الآب، فيقول لليهود: "أنا قد أتيت باسم أبي ولستم تقبلونني. إن أتى آخر باسم نفسه فذلك تقبلونه" (يو ٥: ٤٣).

¹ In 1 Corinth., hom , 33:1.

لقد صرح أنهم سيقبلون ضد المسيح الذي سيطلب مجد اسمه، منتقًا وغير ثابت، ولا مستقر بل حتمًا مدمر.

لكن ربنا يسوع المسيح يظهر لنا مثلاً عظيمًا في التواضع، فإنه دون شك هو مساوٍ للآب... يطلب مجد الآب لا مجد نفسه. فكم يليق بك يا إنسان، يا من حين تفعل أمرًا صالحًا تطلب مجد نفسك، بينما حين ترتكب أمرًا شرييرًا تسيء إلى الله؟ اعرف نفسك، أنت مخلوق! اعرف خالقك. أنت خادم، لا تحتقر ربك. أنت مُتَبَنِي ليس من أجل استحقاقك... اطلب مجد ذاك الذي تتال منه هذه النعمة فإنك إنسان مُتَبَنِي^١.

القديس يوحنا الذهبي الفم

افحص نفسك بدقة

❖ فمن يظن في نفسه أنه شيء فهو لاشيء، مظهرًا بهذا تفاوته. "ولكن ليمتحن كل واحد عمله" (غل ٦ : ٤). هنا يظهر (الرسول) أنه يجب أن نكون فاحصين لحياتنا الخاصة بدقة لا باستخفاف، لكي نزن تصرفاتنا. على سبيل المثال، إذا صنعت عملًا صالحًا ضع في اعتبارك ألا يكون قد قمت به من أجل المجد الباطل أو لأجل منفعة خاصة أو بضمير سيء أو برياء، أو لدافع بشري آخر...

"وحيث يكون له الفخر من جهة نفسه فقط لا من جهة غيره" (غل ٦ : ٤). الافتخار جمود (للنفس)، فإن أردت أن تقتخر لا تقتخر ضد قريبك كما فعل الفريسي...

يعالج (الرسول) الإنسان المتكبر حتى لا يعود ينشغل بأفكار عالية من جهة نفسه، وذلك بتذكره أخطائه الشخصية، ضاغطًا على ضميره بأنه يحمل خطايا بكونها حملًا ثقیلاً (غل ٦ : ٥)^٢.

القديس يوحنا الذهبي الفم

¹ St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 29:8.

² In Galat., Chapter 6.

الكبرياء والاعتكال على الأنساب

❖ يود أن يسحبهم من انشغالهم بالانتساب لإبراهيم ونزع الكبرياء عنهم ليحثهم بالأكثر للرجاء في الخلاص لا في إبراهيم ولا بعلاقتهم الطبيعية به، وإنما في التمتع بإرادته (البارة). لأن ما كان يعوقهم عن المجيء إلى المسيح هو هذا، أنهم كانوا يظنون أن هذه العلاقة تكفي لخلاصهم¹.

القديس يوحنا الذهبي الفم

الكبرياء والشجاعة

❖ ليس شيء غريب عن المسيحي مثل التعالي. أقول التعالي، وليس الجرأة ولا الشجاعة، لأن الأخيران يتناسبان مع المسيحي. التعالي شيء، والجرأة والشجاعة شيء آخر. هكذا التواضع شيء، والخسة والمداينة والتملق شيء آخر².

القديس يوحنا الذهبي الفم

¹ Homilies on St. John 54: 2.

² Homilies on Philippians, homily 5.

حول التواضع وعدم الكبرياء

نوعا التواضع ونوعا الكبرياء

❖ يوجد نوعان من التواضع، كما يوجد نوعان من الكبرياء.

النوع الأول من الكبرياء، هو أنه عندما يوبخه إنسان، يلومه ويشتمه كما لو كان هذا الأخ (الآخر) ليس بذي قيمة، حاسباً نفسه أفضل منه.

إن لم يرجع مثل هذا الإنسان إلى رشده، ويحاول إصلاح طريقه، يسقط شيئاً فشيئاً في النوع الثاني من الكبرياء، حيث ينتفخ الإنسان بذاته أمام وجه الله، ويعدد محاسنه وفضائله كما لو كان قد صنعها بقدرته وذكائه ومعرفته وليس بمعونة الله له.

النوع الأول من التواضع هو أن ينظر الإنسان إلى أخيه على أنه أحكم وأسمى منه في كل شيء، فيرى في نفسه أنه أقل من الجميع.

وأما النوع الثاني من التواضع فهو أن يعدد الإنسان أمام الله محاسن الآخرين، وهذا هو كمال التواضع الذي للقديسين.

الأب دوروثيوس

رب الحملان المتواضعة

جاء كلمة الله، مالى السماء والأرض، القدير، كحملٍ وديعٍ، حتى نقبل الاتحاد معه فنحمل روح التواضع، فهو رب الحملان المتواضعة، وليس راعي الذئاب المفترسة المتعجرفة.

❖ شفى الرب المتواضعين والفقراء. كان القادة في جنونٍ، لهذا ليس فقط لم يعرفوا الطبيب، وإنما أيضاً يطلبون قتله. وُجد جمع من الناس رأوا بسرعة مرضهم، وبغير تأخير عرفوا علاجه. انظروا كيف تحرك هذا الجمهور بواسطة معجزاته... فأمنوا به¹.

التواضع والشخصية المتكاملة

غاية الوصية الإلهية أن ترتبط بالله خلال الطاعة وبروح التواضع، نحيا حاملين

¹ St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate 31:7.

سمات ربنا يسوع المسيح وإمكانياته، فنحمل إرادته المقدسة. بالتواضع لا يفقد المؤمن شخصيته، بل تصير له بالحق شخصية سوية متكاملة! يصير ناجحاً في كل شيء؛ في حياته الروحية والأسرية وفي علاقته بزملائه وأقربائه. الشخص المتواضع محب للجميع، ومحبيب من الله وملائكته والناس، يقدره حتى مقاوميه ومضطهديه.

❖ لا يظن أحد في وصايا المسيح هذه أنها تجعله شخصاً تافهاً غير مستحق لسمو كلمة الله وجلالها.

الأب ثيوفلاكتيوس

❖ أشار ربنا إلى اسم الفقير (لو ١٦ : ١٩-٢٠) دون اسم الغني إذ يعرف الله المتواضع ويزكيه دون المتكبر^١.

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ وقف العشار من بعيد لكنه بالحقيقة كان قريباً من الله. بإحساس ضميره كان بعيداً لكن بنقواه اقترب.

❖ لم يجسر أن ينظر إلى فوق، إذ كان ضميره يضغط عليه إلى أسفل، أما رجائه فقد رفعه إلى فوق.

القديس أغسطينوس

التواضع خبرة عملية

❖ لا يستطيع أحد أن يصف التواضع ما هو، وكيف يُولد في النفس. أنه يعلم هذا بالاختبار، أما الكلام فيعجز عن أن يعرفه.

في أحد الأيام كان الأب زوسيمًا يتكلم عن التواضع، وكان أحد السوفسطائيين حاضراً فسأله: كيف تنتظر إلى نفسك أنك خاطئ، وأنت تعرف أن لك فضائل... وأنك تطيع الوصايا؟ فلم يجد الناسك بما يجيب به عليه، بل ببساطة قال: "لا أعرف ماذا أقول لك، إنما أعرف أنني خاطئ".

ولما عاد السوفسطائي يضايقه متسائلاً: "كيف هذا؟" عاد الناسك يكرر الإجابة

^١ Moral 1:8.

عينها: "أنا لا أعرف كيف هذا، وإنما أعرف بحق إنني خاطئ، فلا تبلبلني".
وأيضًا عندما قارب الأب أغاثون إلى الموت سأله الإخوة: "أما تخاف يا أبانا؟"
أجابهم: "إنني حاولت قدر المستطاع حفظ الوصايا، ولكنني إنسان؛ كيف لي أن أعرف
إن كان ما قد صنعتُه يرضي الله. لأن حكم الله شيء، وحكم الإنسان شيء آخر".
الأب دوروثيوس

التواضع والنسك

❖ ليس النسك ولا الأسهار ولا أي نوع من الألم يمكن أن يخلص. التواضع الحقيقي هو
وحده يقدر!

أحد آباء البرية

التواضع وصنع آيات وعجائب

❖ ماذا ينفعك صنع العجائب بكبرياء، إذا لم تكن وديعًا ومتواضع القلب؟! ألم توضع في
مصاف القائلين أخيرًا: ألسنا باسمك نتبأنا؟ وباسمك صنعنا آيات كثيرة؟ وماذا يسمعون؟
لا أعرفكم، ابعدوا عني يا فاعلي الإثم^١.

القديس أغسطينوس

التواضع والمواهب روحية

❖ من أعطى له بعض مواهب روحية، ويشفق على من لم توهب له هذه المواهب، يحتفظ
بمواهبه بواسطة عطفه على أخيه. أما الذي يطلب مجداً باطلاً بسبب مواهبه، فإنه
يفقدها مضروباً بأفكار الكبرياء.

القديس مرقس الناسك

❖ من عدل الحكم الإلهي أن تُعطى المواهب الصالحة للمتواضعين، وتُمنع عن المتكبرين
المرفوضين الذين يقول عنهم الرسول أنهم مستحقون أن يُسلموا إلى ذهن مرفوض (رو
١: ٢٨)^٢.

القديس يوحنا كاسيان

^١ خواطر فيلسوف في الحياة الروحية (الخوري يوحنا الحلو)، المطبعة الكاثوليكية بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٧٤، ٢٧٦.

^٢ Conf. 3: 20.

التواضع والدموع

❖ لا تنتفخ لأنك تسكب دموعًا في الصلاة، لأن المسيح هو الذي يلمس عينيك، ويعطيك البصيرة الداخلية.

القديس مرقس الناسك

بآلام الخطية ندرك بركات الطاعة

❖ قال الله بأن الإنسان لا يعرف كيف يتمتع بالفرح وحده، إنما لابد له أن يختبر الحزن ويبقى فيه إلى النهاية. فبدون تعلّمه ما هو الحزن وما هو التعب، لا يقدر أن يفهم ما هو الفرح وما هو السلام، وهكذا طرده الله من جنة عدن.

هنا أحاط بالإنسان حبه لذاته وأحاطت به إرادته الذاتية، وهذان يكسران عظامه ويعلمانه أنه يجب عليه ألا يتبع هواه بل يتبع وصايا الله، وهكذا تصبح آلام العصيان معلّمًا له عن بركات الطاعة، كما يقول النبي: "يؤبّخك شرك وعصيانك يؤدّبك" (إر ١٩: ٢).

والآن تدعونا الرحمة الإلهية قائلة: "تعالوا إلَيَّ يا جميع المتعبين والثقيلين الأحمال وأنا أريحكم" (مت ٢٨: ١١).

نطق (المسيح) بهذا، وكأنه يقول: لقد تعبتم وتألّمتم بما فيه الكفاية. لقد تذوقتم نتائج العصيان الشرير. تعالوا الآن واستريحوا. لتُعِدْ إليكم الحياة عن طريق التواضع بدلاً من الزهو الذي قادكم إلى الموت. "تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم" (مت ٢٩: ١١).

الأب دوروثيوس

التواضع وميراث الأرض

يؤكد السيد المسيح: "طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض" (مت ٥: ٥). فالإنسان الوديع أو المتواضع يبدو كمن يفقد بسبب تواضعه حقوقه على الأرض، لكن رب الودعاء يعد أنه يهب الأرض ميراثًا للودعاء. يؤخذ هذا المفهوم بالمعنى الروحي كما أيضًا الحرفي. فبالوداعة يملك المؤمن على القلوب الأرضية ويخضعها بالحب، فتصير كأنها ميراث له. إذ يحسب العالم أن الشخص الوديع يفقد الكثير بسبب خبث الأشرار ومكائدهم، لهذا أكّد السيّد أن المكافأة هي "ميراث الأرض". وكما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم:

[ثَقْم الأرض هنا بالمعنى الحرفي، بينما يظن أن الوديع يفقد ماله، يعد المسيح عكس ذلك، إنه لا يحتثنا بالبركات العتيدة فحسب بل وبالبركات الحاضرة أيضًا... لكن ما يقوله لا يعني أنه يحدّد المكافأة في الأمور الحاضرة، وإنما يربطها بالعطايا الأخرى أيضًا. ففي حديثه عن الأمور الروحية لا يستبعد الأمور الخاصة بالحياة الزمنية، ولا أيضًا بوعده بالأمور الخاصة بالحياة الحاضرة يُحد الوعد عند هذا^١.]

القديس أغسطينوس

^١ In Matt. hom 15:5.

مقومات المحبة الأخوية

خامسًا:

عدم النميمة

وتقديس اللسان والأذنين

١. بين النميمة والحسد.
٢. أضرار النميمة.
٣. تقديس اللسان والأذنين.

بين النميمة والحسد

تقترب النميمة كثيراً من الحسد، لكنها أشر منه. فالحسود يرى الخير في الآخرين فلا يطيقه، متمنياً زوال الخير بكل وسيلة. أما النمام فلا يرى خيراً قط. إنه يرى الشر في كل إنسان ولو كان خيراً، ولا يسكت عنه. فيسعى في إبراز كل شخص في صورة مهلهلة. وهو في ذلك يجد لذة وسروراً، مشركاً الآخرين معه في خطيته. وهو في هذا يصير أشر من الساقط في خطية "الإدانة".

وإن كانت من صفات النميمة استخدام اللسان في القدح والذم، فإنها صفة من صفات الشيطان الذي ذم الله ذاته القدوس أمام حواء، وذم أيوب أمام الله. فعمله ليلاً ونهاراً هو ذم الله أمام أولاده ليشككهم في حبه لهم، مع شكوى أولاد الله أمام أبيهم.

قال الكتاب عن النميمة: "كلام النمام مثل لقم حلوة تنزل إلى مخادع البطن" (أم ٢٦: ٢٢)، أي إلى عمق القلب.

"النامام وذو اللسانين العنوهما فقد أهلكا كثيرين من المسالمين. اللسان الثالث (الذي يتدخل بينهما بالنميمة) ززع كثيرين وبددهم من أمة إلى أمة، وهدم مدناً محصنة، وقلب بيوت العظماء، وكسر جيوش الشعوب، وأفنى أمماً ذات إقتدار. اللسان الثالث طرد نساء فاضلات وسلبهن ثمار أتعابهن. من أصغى إليه لا يجد الراحة ولا يسكن مطمئناً. ضربة السوط تبقى رصاً. وضربة اللسان تحطم العظام. كثيرون سقطوا بحد السيف، لكنهم ليسوا كالساقطين بحد اللسان" (يشوع بن سيراخ ٢٨: ١٥-٢٢).

❖ ما تتكلم به خلف أخيك، ولا تقدر أن تذكره قدامه، فهذا نميمة ووشاية.

أنبا مرقس

❖ القذف أشر من أكل لحوم البشر.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ قال شيخ: ما تكرهه لنفسك لا تقله لآخر. فأنت تغضب على من ينم عليك. فلا تتم أنت أحداً. أنت تبغض من يكذب عليك، فلا تكذب على أحد.

بستان الرهبان

- ❖ أخطر اللسان الثرثار والأذنين المتلهفتين (لسماع الأخبار). لا تحط من شأن الآخرين ولا تصغي إلى من يحط من شأن الغير.
- ❖ السيدة العجوز المهذرة والشيخ الذي يتحدث بخرافات والسوفسطائي في كلماته - هؤلاء جميعًا يصادرون الكتب المقدسة، ويمزقونها إلى قطع، ويعلمون بها قبل أن يتعلموها.
- ❖ الذين يفتتنون الأذن الشعبية بالأسلوب الناعم يظنون أن كل كلمة ينطقون بها هي شريعة الله.

القديس جيروم

أضرار النميمة

أضرار النميمة

❖ عندما نفضح خطيئة أخينا يفضح الله خطيتنا، وعندما نخبر الناس عن جريمة أخينا يفعل الله معنا هكذا.

أحد آباء البرية

❖ احفظوا أسماعكم من كلام النميمة، فتكون قلوبكم نقيّة. اهربوا من كل ما ينجس القلب.

❖ احفظوا ألسنتكم. وذلك بأن لا تقولوا عل إخوتكم شرًا. لأن الذي يقول على أخيه شرًا يغضب الله الساكن فيه. ما يفعله كل أحدٍ برفيقه فبالله يفعله.

القديس مقاريوس الكبير

❖ بالنميمة أغوت الحية حواء، وأخرجتها من الفردوس وأدم معها. فمن يقع بصاحبه (ينم) فإنه يُهلك من يسمعه ونفسه لا تنجو.

أنبا شيشاي

تقديس اللسان والأذنين

❖ يتطلب الجهاد للحصول على النقاوة الكاملة جهاد النفس والجسد معا في أعمال التوبة، بتناسيق وتساو.

فإذا وُهب العقل نعمة ما، يستطيع عندئذ أن يصارع ضد الشهوات بلا هوادة أو تراخ، ويتقبل أفكار الروح القدس وتوجيهاته وتعزياته، ويستطيع أن يطرد عن النفس الميول الدنسة النابعة عن شهوات القلب.

وبفضل الشركة بين عقل الإنسان أو نفسه والروح القدس، يساعد الروح القدس الإنسان على تنفيذ الوصايا التي تعلمها، ويرشده لطرد كل الشهوات عن النفس، سواء الشهوات النابعة عن النفس ذاتها مستقلة عن الجسد، أو تلك التي لحقت بها عن طريق الجسد.

والروح القدس يعلم الإنسان أن يحفظ جسده كله - من الرأس إلى القدمين - في تناسق:

فيحفظ العينين لنتظرا بنقاوة.

ويحفظ الأذنين لتصغيا في سلام، أو تنصتا إلى الأمور الخاصة بالسلام دون أن تتلذذا بالأحاديث عن الآخرين والافتراءات وذم الغير.

ويحفظ اللسان لينطق بالصالح فقط، معطيًا وزنًا لكل كلمة، فلا يسمح لشيء دنس أو شهواني أن يختلط بحديثه.

ويحفظ اليدين لتتحركا طبيعياً فترتفعان للصلاة ولصنع الرحمة والكرم.

ويحفظ المعدة ليكون لها حدود مناسبة للأكل والشراب، وذلك حسب القدر الكافي لقوت الجسد، فلا يترك الشهوة أو النهم ينحرفان بها فتتعدى حدودها.

ويحفظ القدمين ليسلكا ببر حسب إرادة الله، بهدف القيام بالأعمال الصالحة.

بهذا يكون الجسد كله قد اعتاد على كل عمل صالح، وصار خاضعًا لسلطان الروح القدس، فيتغير شيئًا فشيئًا حتى يشارك - إلى حد ما - في النهاية في صفات

الجسد الروحي الذي يناله في القيامة العادلة^١.

القديس أنطونيوس الكبير

لا تتسرع في الكلام

❖ لا تتسرع بلسانك، فالفم مصيدة الموت.

المدعو برناباس

❖ أقمع لسانك من السب، فإنك به تعبد الرب.

كوموديانوس

Commodianus

❖ من يحذر بلسانه لن يُسلب كنزه منه إلى الأبد. فم الساكت يترجم أسرار الله. ومن يتكلم بسرعة يبعد عن خالقه^٢.

الشيخ الروحاني

❖ من يضبط فمه فإن أفكاره تموت، كالجرة التي يوجد فيها حيّات وعقارب، سدّ فمها (فوهتها) فإنها تموت^٣.

الأب بيمين

❖ سأل أخ شيخاً: "يا أبي إنني أشتهي أن أحفظ قلبي". فقال له الشيخ: كيف يمكنك أن تحفظ قلبك وفمك الذي هو باب القلب مفتوح بلا ضابط؟

بستان الرهبان

❖ يصير الإنسان بالقداسة إلهاً، بهذا يكف عن أن يكون إنساناً ينطق بالكذب^٤.

القديس جيروم

لا تصغ إلى المنام

❖ جاء عن القديس أغسطينوس أنه نظم بيتين شعر كتبهما وعلقهما في بيت المائدة لإبادة طاعون النميمة. ترجمتهما:

^١ رسالة ١.

^٢ أي القديس يوحنا سابا: عن بستان الرهبان.

^٣ عن بستان الرهبان.

^٤ On Ps. hom 20.

يا ثالثًا عَرَضَ غيره

وسالباً شأن ديره

دع ذا المكان مفراً

فلست تحظى بخيره

فاتفق أن جلس معه على المائدة بعض الأساقفة من أصدقائه. فأخذوا يغتابون قوماً، وينمون عليهم أمامه. فنصحهم القديس حالاً قائلاً لهم: إما أن تمحوا هذين البيتين أو أنني أقوم عن المائدة.

❖ إذا سمعت أحداً يثلب غيره اهرب منه كهروبك من حية سامة، حتى يخلع ويتعلم ألا يتكلم بهذا مرة أخرى.

القديس جيروم

❖ إن كنت لا تقدر أن تسد فم المتكلم عن إنسانٍ بالشر، فلا أقل من أن تحفظ فمك من مشاركته في هذا الأمر.

مار اسحق السرياني

❖ إني لما سمعت قوماً يغتابون قريبهم، فأردت أن أردهم عن غيهم، قالوا لي: "إنهم كانوا يصنعون ذلك عن محبة قد حفظوها لمن يتكلمون عنه بكل مدحٍ وثناءٍ". فأجبتهم: "إن كنتم تحبونه، صلوا إلى الله حتى يخلصه من آثامه وزلاته، ولا تحتقروه بكلامكم".

❖ حذار أن يستولي عليك الحياء البشري من الذين يغتابون القريب. بل قل لهم: كفى، كفى يا إخوتي قدحاً وطعناً بهذا الرجل. كيف أقدر أن أحكم عليه أنا الذي أسقط كل يوم في زلات أشنع وأفطع؟ وهكذا تصنع خيرين: الأول شفاءك الخاص، والثانية برئ أخيك.

❖ هي دليل النوم وتشتيت الذاكرة، تُزيل اليقظة وتبرد الحرارة وتقتري الصلاة^١.

القديس يوحنا الدرجي

❖ لا تمش مع النمام، ولا تصدق كلام نميمة بخصوص إنسانٍ.

أنبا موسى الأسود

❖ إن أتاك (أخ) حاملاً إليك كلاماً ليست فيه منفعة، فقل له: اغفر لي يا أخي فإني ضعيف ولا أقوى على سماع هذا الكلام.

سلم السماء ١١: ٢.

❖ إن سمعت أخًا يدين آخر، فلا تستح منه أو توافقه لئلا يغضب الله. بل قل بتواضع:
اغفر لي يا أخي فإنني إنسان شقي، وهذه الأمور التي تذكرها أنا منغمس فيها ولست
أحتمل ذكرها.

أنبا إشعياء

مقومات المحبة الأخوية

سادسًا:

صُنْعُ السَّلَامِ

- ١ . صُنْعُ السَّلَامِ والبنوة لله.
- ٢ . المسيح سلامنا.
- ٣ . السلام والفضائل المسيحية.
- ٤ . العالم والسلام.

صُنْعُ السَّلامِ وَالْبِنُوَّةُ لِلَّهِ

الحب والسَّلام الحقيقي

❖ لا أعرف سَلامًا بغير حب، ولا شركة بدون سَلام^١.

القديس جيروم

❖ سَلامُ اللهِ شيء، وسَلامُ العالم شيء آخر. فالناس في العالم لهم سَلام، لكنه يعمل على تدميرهم. سَلامُ المسيح هو تحرر من الخطايا، ولذا يشرُّ اللهُ به. الشخص الذي له سَلام سيكون أيضًا له الحب وإله كليهما يحميه إلى الأبد^٢.

أمبروسيستر

❖ ليكون السَّلام حبيبًا لك وصديقًا؛ واجعل قلبك مضجعًا له نقيًا. ولتكن لك معه راحة مطمئنة بدون مرارة، وعناق عذب، وصداقة لا تنفصم عراها^٣.

القديس أغسطينوس

السَّلام في العهد القديم

كانت كلمة "السَّلام" "إيريني" عند اليونان القُدَّامى تعني حاله عدم الحرب، حيث يشعر الإنسان أو الشعب بالطمأنينة.

وعند الرومان القُدَّامى Pax تعني سلاماً بين فريقين، حيث يتفق الفريقان علي إيقاف الحرب مع عدم وجود أية مشاعر عدائية.

والسَّلام "شالوم" في العهد القديم فتعني ثلاثة أمور:

أولاً: حالة صحَّة من كل جوانب الحياة well-being، خاصة من الجانب

المادي للحياة، أي يكون الإنسان في حاله يُسر وعدم احتياج.

ثانياً: إقامة عهود حيث يتفق الطرفان علي وجود تعاون مشترك.

ثالثاً: حالة داخليَّة يهبها اللهُ للنفس البشريَّة التي لا تهتز.

^١ Ep 82:2.

^٢ CSEL 81: 313- 314.

^٣ خواطر فيلسوف في الحياة الروحية (الخوري يوحنا الحلو)، المطبعة الكاثوليكية بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٩٣-٢٩٥.

وكما جاء في إشعياء النبي: "فإن الجبال تزول، والأكام تتزعزع، أما إحساني فلا يزول عنك، وعهد سلامي لا يتزعزع، قال راحمك الرب" (إش ٥٤: ١٠).
 هذا السلام هو عطية إلهية فائقة ترتبط بعطية الخلاص حيث تتمجد النفس بمجد أبدي. هذا السلام الإلهي يوهب للمؤمن الحقيقي الذي يتمتع بحياة الشركة مع الله. وقد رفض الأنبياء الحقيقيون ما نادى به الأنبياء المزيفون من سلام وهمي غير إلهي. وكما جاء في أرميا: "يشفون كسر بنت شعبي علي عثم قائلين: سلام سلام ولا سلام" (إر ١٤: ٦).
 وقد جاء الحديث عن المسيح المخلص كرئيس للسلام (إش ٦: ٩).

السلام في العهد الجديد

جاءت كلمة "إيريني" لتعني السلام مع الله أو التمتع بالخلاص واهب المجد الأبدي والسلام الفائق للعقل.
 يقول الرسول بولس عن الله أنه إله سلام وليس إله تشويش (١ كو ١٤: ٣٣).
 فالسلام هنا يشير إلى التدبير المتناغم في نظام داخلي وخارجي دقيق. وقد دُعي الله ملك السلام، لأنه ينبوع السلام (عب ٧: ٢).

صنع السلام والبنوة لله

"طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون".
 يعطينا صنع السلام هذا الجزاء العظيم أن ندعى "أولاد الله"، ولكن ما هو صنع السلام؟ هل هو مجرد مصالحة الإخوة وأفراد العائلة الواحدة أو الزملاء في العمل؟
 كثيرًا ما نخطئ فهم "صنع السلام"، فنحاول بغيرة بشرية، أو بطرق بشرية أن نصنع سلامًا. فمثلاً نذهب إلى الزوج لنصالحه مع عروسه، فنجدّه يشتكي كثيرًا حتى نحكم على عروسه بالخطأ. وإذ نلتقي بالزوجة ونسمع لها نحكم على عريسها بالخطأ، ونحاول أن نصلح بينهما، وعبثًا يصطلحان. وإن اصطلحا فإلى حين، مجاملة لمن يُظن كصانع للسلام، أو خشية حديث الناس الخ. لكن هل تريد معرفة كيف تكون صانعًا للسلام أو ابنًا لله؟ تشبّه به.

لقد كشف لنا ربنا يسوع "السلام ذاته" كيف نصنع سلامًا في صلاته الوداعية، إذ تحدث عن ثلاث أنواع من الوحدة:

١. وحدة أولى مثالية بين الآب والابن: "كما أنك أيها الآب في وأنا فيك" (يو

١٨: ٢١)، وحدة في الجوهر والذات. فبالرغم من تمايز الآب عن الابن لكنهما غير منفصلين قط، لهما جوهر واحد، لاهوت واحد. أمر لا يدركه إلا الله، ومن أعطاهم أن يدركوه. تعجز اللغات البشرية عن التعبير عن هذه الوحدة.

٢. **وحدة بين البشر والله.** وهذه تعتمد على الأولى. فلو لم يكن الآب والابن واحدًا ما قُبلت ذبيحة الابن، وما استطاع أن يوحدنا مع أبيه، وما أمكنه أن يقوم بالمصالحة! فباستحقاق دمه صار لنا الاتحاد مع الله، وصارنا هيكل الله. لكن ما أبعد هذه الوحدة عن وحدة الجوهر واللاهوت.

٣. **الوحدة بين الأعضاء وبعضهم البعض،** أي صنع السلام بين بعضهم البعض. وهذا ما كان يمكن أن يوجد بدون الودنتين السابقتين. كيف نصنع سلامًا بين قلوبين مضطربين؟! "ليكونوا هم واحدًا فينا" (يو ١٨: ٢١).

لذلك هل تريد أن تتشبه برّبنا يسوع وتصنع سلامًا بين المتخاصمين؟! قدمه لكل منهم، فيشعر كل طرف من الأطراف بالسلام وحبه للسلام، ويشعر بخطيته. وعندئذ تجد في المثال السابق، يقول الزوج "أخطأت"، ولكن تجيب العروس: "بل أنا التي أخطأت"، وهكذا متى حلّ السلام الحقيقي "ربنا يسوع" فيهما، تصالحا.

يتحقق سلام الله مع الغير حين يشتهي المؤمن أن يبذل من أجل كل إنسان، فيطلب لا ما لنفسه بل ما هو للغير. لا يكف المؤمن عن الصلاة " لأجل جميع الناس، لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب لكي نقضي حياة مطمئنة هادئة في كل تقوى ووقار" (١ تي ٢: ٢)، ويوصينا الرسول بولس: "اهتموا اهتماماً واحداً، عيشوا بالسلام، وإله المحبة والسلام سيكون معكم" (٢ كو ١٣: ١١).

❖ لا يُحفظ رباط السلام بين الذين لا يوجد بينهم انسجام، ولا يتحقق فيهم لطف الروح بل يوجد خلاف وصراع ومنافسة حادة. إنه من الجسارة الوقحة أن تدعو هؤلاء أعضاء المسيح، أو أنهم يسلكون تحت قيادته، لكي نكون أمناء في الفكر فنقول بوضوح أن الحكمة الجسدية هي السيد عليهم وهي تملك عليهم^١.

القديس باسيليوس الكبير

❖ من يصنع صلحاً بين المتخاصمين يُدعى ابن الله، ومن يدس ويعكر ويوصل كلاماً شريراً من شخص إلى آخر فهو رسول الشيطان، وهذا تهلكه النار.

^١ On the Judgment of God.

❖ من يغير كلمات شريرة بصالحة، ويزرع الصلح بين إخوته، يربح حياة لنفسه.

الشيخ الروحاني

❖ "طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون" (مت ٥ : ٩).

السلام هو اتفاق الإرادة التامة بالمحبة.

أما مفاعيلها فهي المحبة والأمن والاتفاق والمودة، وعكسها الشكوك والاضطراب. إذن يسمى فاعلي السلام أولئك الذين يبطلون القتال ويسكنون الخصومات، والذين يجعلون السلام بين النفس والجسد. وفاعل السلام هو ذاك الذي يصلح بينه وبين الآخرين.

العلامة مار ديونيسيوس

يعقوب بن الصليبي

❖ دعا السيد المسيح صانعي السلام طوباويين وأبناء الله، لأن لا يوجد فيهم شيء يقاوم إرادة الله ويضادها، بل يطابقونها في كل شيء كأبناء صالحين. مجتهدين في أن يتشبهوا بأبيهم في كل ما يمكنهم، جاعلين سرورهم وإرادتهم في إرادة أبيهم وسروره.

❖ يكون كمال السلام حيث لا توجد مقاومة. فأبناء الله صانعو سلام، لأنه ينبغي للأبناء أن يتشبهوا بأبيهم. أنهم صانعو سلام في داخلهم، إذ يسيطرون على حركات أرواحهم ويخضعونها للصواب أي للعقل والروح، ويقمعون شهواتهم الجسديّة تمامًا، وهكذا يظهر ملكوت الله فيهم فيكون الإنسان هكذا: كل ما هو سامٍ وجليل في الإنسان يسيطر بلا مقاومة على العناصر الأخرى الجسدانيّة... هذا وينبغي أن يخضع ذلك العنصر السامي لما هو أفضل أيضًا، ألا وهو "الحق" ابن الله المولود، إذ لا يستطيع الإنسان السيطرة على الأشياء الدنيا، ما لم تخضع ذاته لمن هو أعظم منها هذا هو السلام الذي يعطي الإرادة الصالحة، هذه هي حياة الإنسان الحكيم صانع السلام!

القديس أغسطينوس

❖ "سلامًا أترك لكم. سلامي أعطيكم" (يو ١٤ : ٢٧). لقد أعطانا هذا ميراثًا، فقد وعدنا بكل العطايا والمكافآت التي تحدّث عنها خلال حفظ السلام. إن كنّا ورثة مع المسيح فلنسكن في سلامه، إن كنّا أبناء الله يلزمنا أن نكون صانعي سلام... إذ يليق بأبناء الله

¹ Ser. on Mount 1:9.

أن يكونوا صانعي سلام، ذوي قلب حنون، بسطاء في الكلام، متّحدين في المحبة، مترابطين معًا رباطًا وثيقًا بربط المودة الأخويّة^١.

القديس كبريانوس

❖ كان ضروريًا لربي ومخلصي ليس فقط أن يولد إنسانًا بين البشر، بل وأن ينزل إلى الجحيم، كإنسانٍ مستعدٍّ أمكنه أن يطلق نصيب (قرعة) الكفارة في برية الجحيم. وإذ عاد من ذلك الموضع كمل عمله، واستطاع أن يصعد إلى الآب، وقد تمّ التطهير بالكامل على المذبح السماوي، وأمّكنه تقديم عربون جسده الذي أخذه معه في طهارة دائمة. هذا هو اليوم الحقيقي للكفارة عندما صار الله كفارة عن البشر. وكما يقول الرسول أيضًا: "إن الله كان في المسيح مصلحًا العالم لنفسه" (٢ كو ٥: ١٩). ويتحدث عن المسيح في موضع آخر: "عاملاً الصلح بدم صليبه بواسطته سواء كان ما على الأرض أم ما في السماوات"^٢.

العلامة أوريجينوس

سلامك مع أخيك وسلامك مع نفسك

يتحقّق السلام مع النفس حين يحدث تناغم بين الجسد بكل إمكانيّاته والنفس بكل طاقاتها، وينسجم الفكر مع العاطفة، إذ يخضع الكل للروح القدس القائد المؤمن ومجّد حياته بلا توقف، وواهبه النمو الروحي الدائم.

وقد ارتبط السلام بالنقديس: "اتبعوا السلام مع الجميع والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب" (عب ١٢: ١٤). "والله السلام نفسه يقبّلكم بالتمام، ولتُحفظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لومٍ عند مجيء ربنا يسوع المسيح" (١ تس ٥: ٢٣). يرتبط أيضًا السلام بالفرح، يبارك الرسول بولس شعبه "ليملأكم إله الرجاء كل سرورٍ وسلامٍ في الإيمان لتزدادوا في الرجاء بالروح القدس" (رو ١٥: ١٣).

❖ السلام الذي يفوق كل عقل، إذ يحفظ قلوبنا، نتجنّب الاضطراب الذي للأهواء^٣.

القديس باسيليوس الكبير

❖ اهتم أيها الإنسان بالسلام، شدد يدك نحوه على قدر ما تستطيع. ينبغي لكل أحد أن

^١ On Unity of the Church 24.

^٢ Homilies on Leviticus, 9:4.

^٣ homily on Ps. 2q.

يصلح ذاته، ولذاته يسالم ولا يكون انقسام في ضميره، لأنه إذا اصطاح الإنسان مع جميع العالم، وهو منقسم على ذاته، فصلحه بلا منفعة.

القديس يوحنا التبائسي

سلامك مع أخيك وسلام الله الذي يفوق كل فهم

يُعرّف القديس إكليمنضس السكندري^١ المسيحيين بكونهم "جيل سلام"، وأنهم جنود سلام خاصين بالسيد المسيح.

❖ الإنسان هو أداة سلام.... آلة سلام واحدة^٢.

❖ هذا هو إعلان البرّ للذين يطيعون الأخبار سارة، وللذين يترقبون الدينونة. إذا ما ضُرب البوق العالي يُجمع الجنود وتُعلن الحرب. ألا يجمع المسيح من أقاصي الأرض جنود السلام؟ حسنًا، يجمع بدمه وبكلمته جيش السلام غير السافك الدماء والمُعَيّن لهم ملكوت السماوات^٣.

القديس إكليمنضس السكندري

❖ عندما يحل سلام الله علينا ندرك الله. ولا يكون للخلاف ولا للتنافر ولا للنزاعات موضع، ولا يوجد شيء موضع تساؤل. هذا أمر صعب في الحياة العالمية. لكنه يتحقّق عندما يكون لنا سلام الله حيث يصير لنا الفهم. لأن السلام هو حالة تمتع فعلي بالراحة والأمان^٤.

الأب ماريرس فيكتورينوس

❖ أطلب أن لا تنزعج نفوسنا قط، بل بالأكثر أننا في وسط المصاعب والسيوف المصوّبة ضد أعناقنا نتحصّن بسلام الله الذي يفوق كل فهم، وتكون هادئة عندما نحسب أن الذين هم غرباء عن الجسد هم مستوطنون مع رب الكل^٥.

العلامة أوريجينوس

❖ إن كان سلامنا مصدره نعمة الله، فلماذا تفتخرون مادمتم تخلصون بالنعمة؟ كيف

¹ Exhortation to the Heathen; Paedagogus 2: 2.

² Paedagogus 2: 4.

³ Exhortation to the Heathen, 11.

⁴ Epistle to Philippians 4:7.

⁵ An Exhortation to Martyrdom, 4.

يمكن لأحد أن يجد نعمة لدى الله إلا بالتواضع؟

❖ إن كان لكم سلام مع الله فلماذا تميزون أنفسكم عن الآخرين؟ فإن هذا هو ما يفعله الانشقاق... مرة أخرى لا نستفيد شيئاً إن كان كل الناس يمدحوننا والرب يقاومنا، ولا يوجد خطر ما إن رفضنا الكل وأبغضونا ما دام الله يقبلنا ويحبنا^١.

❖ سلام الله الذي يهبه للبشر يفوق كل فهم. لأنه من يستطيع أن يتوقع، ومن يستطيع أن يترجى أن مثل هذه الصالحات تحدث؟ أنها تفوق كل فهم الإنسان وليس فقط كلماته. لم يرفض أن يبذل ابنه من أجل أعدائه والذين يبغضونه والذين أصرّوا أن يتركوه، وذلك لكي يصنع سلاماً معنا. هذا السلام، الذي هو المصالحة، حب الله، يحفظ قلوبكم وأفكاركم^٢.

❖ "سلام الله" هو السلام الثابت والدائم، فإن كان لك سلام بحسب الناس، فإنه سرعان ما ينحل، لكن إن كان بحسب الله لا ينتهي أبداً...

لا تغضبوا، كما يقول، بل احكموا في المنازعات، ولا تخضعوا للأحقاد، ولا للسلام البشري، فالانتقام سمة البشر وعواقبه وخيمة، لكنه يقول ليس ذلك ما أقصده بل ذلك السلام الذي تركه لنا الرب بنفسه.

لأننا بواسطة السلام نحن جسد واحد، ولأننا جسد واحد فنحن في سلام... وحسناً أضاف: "وكونوا شاكرين"، لأن الشاكرين والمملوءين مودةً يعاملون رفقاءهم كما يفعل الله معهم، خاضعين للسيد، مطيعين معبرين عن شكرنا في كل شيء حتى إن أهاننا أحد أو اعتدى علينا بالضرب^٣.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ إنه يترك لنا سلاماً وهو راحل، وسيقدم لنا سلامه عندما يأتي في النهاية. سلاماً يتركه لنا في هذا العالم، و سلامه سيهبنا في العالم الآتي. يترك لنا سلامه، وإذ نسكن فيه نهزم العدو.

سيهبنا سلامه عندما لا يوجد بعد أعداء نحاربهم فنملك كملوك.

سلاماً يترك لنا حتى نحب أيضاً بعضنا البعض هنا، وسيعطينا سلامه حين نكون

¹ In 1 Cor. Hom 1:3.

² Homilies on Philippians, homily 14.

³ Homilies on Col., Hom. 8.

فوق إمكانية حدوث نزاع.

سلامًا يتركه لنا حتى لا يدين الواحد الآخر فيما هو سرّ لكل منهما ونحن على الأرض؛ سيهينا سلامه عندما "يُظهر آراء القلوب وحينئذ يكون المدح لكل واحدٍ من الله" (١ كو ٤: ٥). ومع هذا ففيه ومنه ننال السلام سواء الذي يتركه لنا وهو ذاهب عند الأب أو ما سيمنحنا إياه عندما يحضرنا إلى الأب.

وماذا يترك لنا عندما يصعد من عندنا سوى حضوره الذي لن يسحبه منا؟ فإنه هو سلامنا الذي يجعل كلاهما واحدًا (أف ٢: ١٤). لذلك يصير هو سلامنا، سواء عندما نؤمن بأنه هو، أو عندما نراه كما هو (١ يو ٣: ٢).

لأنه إن كان ونحن بعد في هذا الجسد الفاسد الذي يثقل على النفس ونسير بالإيمان لا بالعيان لا يترك الذين يرحلون وهم بعيدون عنه (٢ كو ٥: ٦-٧)، كم بالأكثر عندما نبلغ تلك الرؤية، سيملأنا بنفسه^١.

❖ السلام الذي يتركه لنا في هذا العالم يمكن بالأكثر لياقة أن يدعى سلامنا لا سلامه... أما السلام الذي لنا هو الذي في وسطه لا نزال نقول: "أغفر لنا ما علينا" (مت ٦: ١٢)... إنه ليس بالسلام الكامل، إذ نرى ناموسًا آخر في أعضائنا ضد ناموس ذهننا (رو ٢٢: ٧-٢٣)^٢.

القديس أغسطينوس

^١ St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 77: 3.

^٢ St. Augustine: On the Gospel of St. John, tractate, 77: 4.

المسيح سلامنا

❖ من يطلب السلام يطلب المسيح، إذ هو السلام.^١

القديس باسيليوس الكبير

❖ المسيح ربنا هو السلام... لنحفظ السلام فيحفظنا السلام في المسيح يسوع.^٢

القديس جيروم

❖ الله هو ينبوع السلام الحقيقي وكل سلام بصفة عامة أو خاصة. إنه يضم كل الأشياء معاً في وحده بلا تشويش... لا حاجة أن أخبر كيف تعبر محبة المسيح الحانية في سلام، والتي نتعلم منها أن نكف عن الصراع، سواء ضد أنفسنا أو ضد الغير أو ضد الملائكة. بل بالحري يعمل معاً حتى مع الملائكة لتحقيق إرادة الله، في اتفاق مع هدف يسوع الواهب العناية التي يعمل الكل في الكل، ويصنع سلاماً بطريقه لا ينطق بها سبق إقامتها منذ الأزل، ويصالحنا معه وفيه للأب.^٣

ديونيسيوس الأريوباغي

❖ نعم قد صار هذا هو عمل الابن الوحيد أن يُوجَد المنقسمين ويصالح الغرباء.^٤

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ كما بدأ السلام أن يستتب أعلن الملائكة: "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام" (لو ١٤: ٢). وعندما تقبّلت الكائنات الأدنى السلام من الكائنات الأسمى "صرخوا: مجد على الأرض، و سلام في السماوات" (راجع لو ٣٨: ١٩). في ذلك الحين عندما نزل اللاهوت والتحف في الناسوت صرخت الملائكة: "على الأرض السلام"، وعندما صعد الناسوت لكي ما يُبتلع باللاهوت (دون زوال الناسوت) ويجلس على اليمين - "سلام في السماء" - صرخ الأطفال أمامه: "أوصنا في الأعالي" (مت ٩: ٢١). لهذا تعلم الرسول

^١ Hom on Ps., 33.

^٢ On Ps. hom 41.

^٣ Divine Names, 11: 2, 4.

^٤ In Matt. hom 15: 6.

أنه يلزم القول: "عاملاً الصلح بدم صليبه سواء كان ما في السماوات أم ما على الأرض"^١.

القديس مار أفرام السرياني

❖ السلام الحقيقي علوي. مادمننا مرتبطين بالجسد نحمل نيرًا لأمر كثيرة نتعينا. ابحتوا إذن عن السلام، وتحزروا من متاعب هذا العالم. اقتنوا ذهنًا هادئًا، ونفسًا هادئة غير مرتبكة، لا تثيرها الأهواء، ولا تجتذبها التعاليم الباطلة، فتتخذى إغراءات قبولها حتى يمكنكم أن تتالوا "سلام الله الذي يفوق كل فهم يحفظ قلوبكم" (في ٤ : ٧). من يطلب السلام يطلب المسيح، لأنه هو نفسه سلامنا، الذي يجعل الاثنين إنسانًا جديدًا واحدًا (أف ٢ : ١٤)، عاملاً سلامًا، وعاملاً سلامًا بدم صليبه سواء ما كان علي الأرض أم ما كان في السماوات^٢.

القديس باسيليوس الكبير

❖ احتمل المخلص هذا كله "عاملاً الصلح بدم صليبه بواسطته سواء كان ما على الأرض أم في السماوات" (كو ١ : ٢٠). لأننا كنا أعداء الله خلال الخطية وحكم الله على الخاطي هو الموت. لهذا كان لابد من تحقيق أحد أمرين: إما أن الله في عدله يبيد كل البشرية، أو في محبته المترفة يزيل الحكم! أنظر حكمة الله، فقد حفظ الحكم وفي نفس الوقت حقق محبته! لقد حمل المسيح آثامنا في جسده على الخشبة لكي "تموت عن الخطايا، فنحن للبر" (١ بط ٢ : ٢٤). إنه لم يكن بالهَيَّيْنِ ذاك الذي مات عَنَّا، فليس هو مجرَّد حمل حرفي ولا إنسان عادي، بل أعظم من ملاك، إنه الإله المتأنس، لم تكن خطايا البشر أعظم من برّ الذي مات بسببها. لم تكن هذه الآثام كثيرة بالنسبة لبرّ ذاك الذي من إرادته وضع نفسه وإرادته أخذها^٣.

القديس كيرلس الأورشليمي

^١ Commentary on Tatian's Diatessaron, 14.

^٢ Homilies. 16:10.

^٣ مقالات لطالبي العماد ١٣ : ٣٣.

السلام والفضائل المسيحية

السلام والفضائل المسيحية

يقول القديس غريغوريوس أسقف نيصص^١ حيث أن الله هو مصدر كل صلاح، فالسلام عنصر أساسي يصاحب كل صلاح آخر فيه يشارك المؤمن. يقول القديس يوحنا الذهبي الفم^٢ إن السلام الذي من الله هو "مربية وأم" المسيحي، يصدر عن تناغم روحي في المسيحي من "السلام الذي حسب الله". يرى العلامة أوريجينوس أن عقل المسيحيين يلزم أن يتشكّل بواسطة [التعاون الحر (مع الله)... حين تكون النفس هادئة، تتمتع بذاك السلام الذي يفوق كل فهم، وعندما تبتعد (النفس) عن كل ارتباك وعندما لا تنتفخ بأي تشامخ^٣]. يدعو القديس باسيليوس السلام الروحي "أكمل البركات" والذي يُعرف بكونه نوعاً من استقرار قدرة العاقل^٤.

يعلق القديس أغسطينوس على هذا القول الإلهي هكذا: [لقد قدم هذا كغاية لحديثه حتى يجدوا فيه السلام، وذلك كما أننا نحن أيضاً مسيحيون بهذا الهدف... فهذا السلام هو غاية كل نية وكل عمل تقوي، نمارسه في الوقت الحاضر. فمن أجل السلام (في المسيح) ننع بسرائره، ونتتق بأعماله وكلماته ونقبّل غيرة الروح، ولأجله نؤمن به ونترجّاه... بهذا السلام نتعزّى في وسط كل متاعبنا وبه نخلص منها. من أجله نحتمل الضيقات بسرور حتى نملك فيه بسعادة دون ضيقات^٥].

❖ الكمال في السلام حيث كل شيء مقبول؛ ولذا فإن فاعلي السلامة هم أبناء الله، إذ لا شيء يخالف الله، وعلى الأولاد أن يتشبّوا بأبيهم. فاعلو السلامة في نفوسهم هم الذين يسيطرون على جميع ميولهم النفسية ويخضعونها للعقل، أي للفكر والروح، وقد كبحوا جماح شهواتهم اللحمية^٥، وصاروا

¹ On the Beatitudes, 7.

² Against the Jews.

³ Commentary on John 6:1.

⁴ On Rom. 1: 7.

⁵ In Joan. tr. 104: 1.

ملكوت الله، حيث انتظم كل شيء وراح ما هو سام في الإنسان ورفيع بأمر ما دونه المشترك بين الإنسان والحيوان، ثم أن ما سما في الإنسان، أي الفكر والروح، هو عينه خاضع للأسمى منه، أي الله.

في الواقع يستحيل عليك أن تحكم من هم دونك، إن لم تخضع لمن هو أعلى منك، وذلك هو السلام الذي يهبه الله في الأرض لذوي الإرادة الصالحة...

أتريد السلام؟ اعمل برًّا لا يكن لك السلام، "السلام والبرّ تعانقا" (مز ٨٥: ١٠).

القديس كبريانوس

❖ أسأل السلام لعفّتك بحبٍ عمليّ. حتى متى تُسمّى عبْدًا؟ متى ستصبح إنسانًا حرًّا؟ متى تصبح سيّدًا على الشعوب النجسة المحيطة بك؟ متى تقتل وتبيد أهل الغرلة الذين هم في مدينتك؟ متى تُختن بالختان الذي لم تصنعه الأيدي، كل سكان بيتك (تك ١٧: ٢٧)، بالختان الذي هو في الروح (رو ٢: ٢٩)؟ متى ستكون صاحب سلطان وملكًا على مدينة الأبد، ومتى ستخضع لك المدن الخمس والمدن العشر التي سبق ذكرها؟... متى ستبصر في نفسك السماوات الجدد (إش ٤٥: ١٧؛ ٢ بط ٣: ١٣)، وهي تعلن فيك بنظام مراتبها "قُدّوس" الجوهر الخفي؟^١

القديس يوحنا الدلياتي

❖ السلام هو غاية صلاحنا.

❖ هنا نحن سعداء عندما نكون في سلام، مثل هذا السلام القليل الذي نناله بالحياة الصالحة. لكن هذه السعادة إن قورنت بالسعادة النهائية فتحسب بؤسًا تامًّا.

❖ لقد لمستني فالتهبت نحو سلامك.

القديس أغسطينوس

السلام والصلاة

❖ يلزمنا أن نقف بالسلام بالصلاة، هذا الذي يوجد ليس بين الجميع، بل بين من لهم الإرادة الصالحة... "لأن مسكنة (الله) في السلام" (مز ٧٦: ١٠).

القديس جيروم

^١ الأب سليم دكاش اليسوعي: الشيخ الروحاني - مجموعة الرسائل الروحية، بيروت ١٩٩٢، ص ٨٣.

العالم والسلام

لنضح بكل شيء من أجل السلام

❖ ليتنا نحترق كل تلك الأشياء التي نحسبها ملكًا لنا وبسببها يخاصمنا إخوتنا... ليتنا ننقل ملكيتها لهم^١.

❖ إن كنت في عداوة فاصطَلح. إن جاءتك الفرصة للوصول إلى مصالحة، لا تترك نفسك في نزاع^٢.

القديس أغسطينوس

❖ إنه لإنجاز عظيم للمسيحي ألا يدخل في منازعات مع أحد. ولكن إن كان لأي ظرف أو تحت أيّة تجربة قام نزاع فليبق هادئًا حتى وإن بدا له أن فيه خسارة.

تعليم الاثني عشر رسولاً

خيرات العالم ليست مصدرًا للسلام!

❖ إهدأ يا من تتفخر بنفسك، لا تتبجح! فإن كانت ثروتك ترفع قلبك، فهي ليست بأكثر من ثروة حزقيا، الذي تمادى وتشامخ بها أمام البابليين، فحُـمِلت كلها إلى بابل. إن كنت تتفخر بأبنائك، فسيُـقَادون من عندك إلى الوحش كأبناء حزقيا الملك الذين أُقتيدوا بعيدًا وصاروا خصيان في قصر ملك بابل (٢مل ٢٠: ١٨، إش ٣٩: ٧). وإن كنت تتفخر بحكمتك فإنك في هذا لا تفوق رئيس صور، إذ قيل له: "ها أنت أحكم من دانيال، سر ما لا يُخفي عليك" (خر ٢٨: ٣). وإن ارتفع عقلك منكلاً على عمرك أنك كثير السنوات، فعددها ليس بأكثر من سني رئيس صور الذي حكم المملكة خلال أيام ٢٢ ملكًا من بيت يهوذا أي لمدة ٤٤٠ عامًا. وإذا كانت سنوات ملك صور كثيرة لذلك قال في قلبه طوال هذا الوقت: "أنا إله، وفي كرسي الله أجلس في قلب البحار" (حز ٢٨: ٢). لكن حزقيال قال له: "أنت إنسان لا إله" (حز ٢٨: ٢). فبينما كان

¹ Ser. on Mount 1:59.

² On Ioan. 45:13.

رئيس صور "بين حجارة النار يتمشى" (حز ٢٨: ١٤) كانت الرحمة تحل عليه. ولكن عندما تشامخ قلبه صار "الكروب المظلل (وقد) حطّمه"^١.

القديس أفراهاط

سلامنا في المسيح يغلب العالم

❖ إذ اضطرب التلاميذ عند استماعهم قول السيد المسيح: "أنا أمضي لأعد لكم مكاناً"، متصورين أن انصرافه عنهم يثير العداوة والحروب عليهم، أنظر كيف إنه نزع ارتياحهم، فقال: "سلاماً أترك لكم، سلامي أعطيكم"، فأوشك أن يقول: "مادام السلام يشملكم، فما الذي يضرّكم من العالم؟"

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ (المسيحيون) أبناء حب وسلام^٢.

رسالة برناباس

❖ ليس شيء ما يميّز المسيحي مثل كونه صانع سلام، لهذا يعدنا ربنا بمكافأة عظيمة كصانعي السلام^٣.

القديس باسيليوس الكبير

السلام والحرب

❖ تصلي الكنيسة ليعطي الرب الحكام مشورة صالحة لأجل سلام العالم^٤.

القديس إكليمنضس الروماني

❖ الذين كانوا قبلاً يقتلون الواحد الآخر... يرفضون الحرب حتى ضد الأعداء^٥.

الشهيد يوستينوس

حرب بين الشرّ والخير

❖ لقد دُبّرت الأزمنة مقدّماً بواسطة الله.

¹ Demonstrations, 5:7 (Of Wars).

² Barnabas, 12:9

³ Letter 114 to Cyriacus Tarsus.

⁴ Epistle 1: 61: 1-2.

⁵ Apology 1: 39: 3.

تتحقق أزمنة السلام في أيام الصالحين والأبرار، وتتحقق أزمنة الشرور الكثيرة في أيام الأشرار والآثمة. فإنه مكتوب: "الصالح لا بد أن يحدث، وطوبى لذاك الذي يعبر به الصلاح. والشر لا بد أن يحدث، وويل لمن يعبر به الشر"^١.
يحل الصلاح بشعب الله، وينتظر الطوبى ذاك الذي من خلاله يحل الصلاح. والشر يثور كجيشٍ يجتمع معًا بواسطة الشرير المتعجرف المتعالي، والويل أيضًا محفوظ لذاك الذي به يُثار الشر.
لا تلم يا عزيزي الشخص الشرير الذي ينزل بالشر على كثيرين، فإن زمان إتمام عملهم قد حلَّ^٢.

القديس أفراهاط

^١ Psedo-Clemen., Homily 12:29.

^٢ Demonstrations, 5:1 (Of Wars).

المحتويات

الحب الأخوي [١]

الحب

مفهومه ودرجاته

١. حاجتنا إلى الحب. ١٠

٢. الحب والدوافع. ١٣

الغريزة الجنسية في حياة المؤمن.

٣. الحب والجسد ١٧

الإنسان كيان واحد، الجسد من منظورٍ جديدٍ، بين الجسد والجسم، الإنسان الجسداني والإنسان الروحي، بركات الصراع بين شهوات الجسد وشهوات الروح، الإنسان الروحي والجنس، الجنس والحب الحقيقي، حارب شهوة الجسد بشهوة الروح، التجسد الإلهي وتقديس الحواس، الروح القدس وتقديس الحواس.

٤. الحب والشهوة ٣٢

١. آدم يخلع محبة الله على حواء، ٢. سليمان يخلع المحبة على الشريرات، الشهوة أخذ والحب بذل، النظرة الأبائية للجنس الآخر، خداع الشهوة. أمثلة: ١. من سيرة الأب باخوميوس، ٢. أنبا جراسيموس، عفة النضوج. ما هو موقف المؤمن؟ ١. عفة الضبط لا الكبت، ٢. عدم التخوف من الغرائز والعواطف، ٣. رفض حركات الشهوات، ٤. عدم طاعة أعضائنا لشهوة الجسد، ٥. الارتفاع إلى السماويات.

٥. الحب والصدقة ٤٥

الأصدقاء، يا لعظمة الصداقة! الصداقة غاية الوصية الإلهية، أنواع الصداقات، أسس الصداقة: ١. صداقة عطاء لا أخذ، ٢. صداقة داخلية في الرب، ٣. الله مركز الصداقة، ٤. أساسها المسيح وغايتها خلاص الآخرين، إلى أي مدى

نصادق الأشرار؟ إلى أي مدى تصادق القديسين والمجاهدين؟ صداقة القديسين المنتقلين، صداقة القديسين ليست هدفًا، قراءة سيرهم، زيارتهم، زيارة القديسين المجاهدين، زيارة أماكن القديسين، الاستشفاع بهم، الصداقة والتعلق الشخصي، الوسائل التي تحفظ وحدة الأصدقاء: ١. بادر بالصداقة وكرم أخاك، ٢. عبّر عن صداقتك لأخيك في غيابه، ٣. عبّر عن صداقتك لأخيك وسط آلامه، ٤. بالحكمة تقيم من الأعداء أصدقاء، ٥. تقدير تنوع الإمكانيات، ٦. تقدير تباين الآراء، ٧. بالتخلي عن محبة الزمانيات، ٨. نصائح أخرى، صداقة شريفة: أولاً: صداقات خاصة معثرة، ثانيًا: صداقات لمجرد نوال الشهرة.

٦. إمكانية الحب فيك ٧٣

١. بالمعمودية نلبس ثوب الحب، ٢. التوبة تجدد ثوب الحب، ٣. ممارسة أعمال الحب تتميها، المسيح أعلن حبه لنا عمليًا، نمو دائم في أعمال الحب.

٧. درجات الحب ٨٠

الدرجة الأولى: الوحشية أو الاعتداء على الغير، ١. شهادة الطفولة بذلك، ٢. التلذذ بالإثم في ذاته، الدرجة الثانية: مقابلة الشر بشر أعظم، الدرجة الثالثة: مقابلة الشر بشر مماثل، الدرجة الرابعة: مقابلة الشر بشر أقل، الدرجة الخامسة: عدم مقابلة الشر بشر، الدرجة السادسة: عدم مقاومة الشر.



الحب الأخوي [٢]

الحب الزوجي

❖ الحب الزوجي ٨٤

١- مفهوم الحب الزوجي ٨٥

أولاً: البشرية والحب الزوجي، ثانيًا: قدسيّة الحب الزوجي، أ- الحب الزوجي... يشهد لله واهبه، ب- الحب الزوجي... أيقونة السماء، ج- الحب الزوجي... كنيسة مقدّسة، بين العقد المدني وسرّ الزواج.

١. التعاون، ٢. الإنجاب، ٣. الحفظ من التحرق.

٣- كيف يختار الإنسان شريك حياته؟ ١٠١

أهمية اختيار الزوجة، كيف يختار الإنسان شريك حياته؟ هل ارتباط الطالب بطالبة في علاقة عفيفة علي ذمة الزواج حرام؟، الطريق الإيماني في اختيار شريك الحياة، ماذا إن أنكر أحد الإيمان؟

٤- الخطبة والحب الزوجي ١١٠

الخطبة في المسيحية، خاتم الخطبة، مدي العلاقة بين الخطيبين.

٥- الحب الزوجي في حياة الزوجين ١١٥

أولاً: محبة الطرف الثاني رغم ضعفاته، ثانياً: رئاسة الرجل وحبّه، ثانياً: رئاسة الرجل وحبّه، رابعاً: الاهتمام بمطالب الزوجة، خامساً: الخضوع للزوج واحترامه، سادساً: الشعور بالملكية المتبادلة، سابعاً: لتتزين الزوجة لرجلها، ثامناً: الحب الزوجي والتوبة الدائمة، تاسعاً: الحب الزوجي والإرشاد الكنسي، عاشراً: الحب الزوجي والاهتمام بخلاص الطرف الآخر، المسؤولية الشخصية عن الحياة الروحية.

٦- الحب الزوجي والعلاقة الجسدية ١٢٧

أولاً: بين الحب الزوجي والعلاقات الجسدية، ثانياً: العلاقة الجسدية والشهوة، هل تعوق العلاقات الجسدية العبادة؟، ثالثاً: العلاقات الجسدية والعفة.

٧- وحدة الزواج ١٣٢

عدم انحلال الحياة الزوجية، لماذا سمح الله في العهد القديم بالطلاق؟، هل يجوز التطليق لغير العلة؟، هل يجوز زواج المطلقة أو المطلّق؟

٨- الحب الزوجي من خلال الطقس القبطي ١٣٦

أولاً: التمييز بين الخطبة والزواج، ثانياً: طقس الزواج وسرّ الإفخارستيا، ثالثاً: موكب العروسين، رابعاً: وضع الإكليلين، خامساً: موضوع الصلوات، سادساً: تطويب العذراء مريم، سابعاً: تلاقي الأيدي، ثامناً: الدهن بالزيت.

٩-البتولية والترمل والحب الزوجي ١٤١

بين الزواج والبتولية والترمل، يا لعظمة البتولية! بتولية الجسد وبتولية الروح، اعتزاز الأرامل بمركزهن.



الحب الأخوي [٣]

الحب العائلي

١. الرباط العائلي ١٥٢

الحب دعامة الأسرة، الاستقرار العائلي، الاهتمام بكل عضو في الأسرة.

٢. الوالدية في المسيحية ١٦٠

مفهوم الأبوة والأمومة.

٣. والدية مسئولية ١٦٢

أهمية تربية الأبناء، أنت مسئول!، أنت مسئول حتى عن خلاص الابن غير الشرعي.

٤. الوالدية بين الحب والسلطة ١٦٥

عالم الطفولة، ١. سلطة الوالدية لأجل الأبناء، ٢. عملك هو تهيئة الطريق لا الامتلاك، ٣. تربية متبادلة، ٤. طاعة متبادلة، ٥. روح الحوار، ٦. الصعود إلى عالم الطفولة، ٧. اكتشاف مواهب الطفل وقدراته بروح التشجيع، ٨. الاهتمام بكيانه الكلي، امتلاك أم إطلاق.

٥. الوالدية والحب المقدس ١٧٤

الوالدية وقدسية الوالدين، إيجاد جو كنسي، الاهتمام بشخص المربي والخادم والصديق، قداسة عملية، القدوة الحسنة.

٦. الوالدية والحزم ١٨٣

العاملان مع الله!، الحب بين الحنو والحزم، لا تغيظهم.

٧. تنشئة الأطفال والمجد الباطل ١٨٦

تنشئة الأطفال والمجد الباطل، أهمية تربية الأطفال، تربية الأطفال عمل مقدس!،
لنقتدوا بالآباء المهتمين بأبنائهم، الاهتمام المبكر بتربية الطفل، نصائح للوالدين:
١. اختيار اسمه، ٢. تعليمه الرضا والقناعة، ٣. توجيهه نحو الأسفار المقدسة،
٤. سلمه في يدي الرب!، ٥. اهتمام الله نفسه بتربية الأبناء، ٦. تقدير قيمة الطفل
وقدراته، ٧. التحذير من العقوبات البدنية!، ٨. ليكن تعليم الطفل وتدريبه حسب
قدراته، ٩. التعليم بالقوة، ١٠. الاهتمام بمن لهم تأثير على الطفل، ١١. الاهتمام
بتقديس حواس الطفل، ١٢. نقاوة القلب، ١٣. العفة والطهارة في حياة أبنائنا، ١٤.
أولوية الحكمة في تربية الأبناء، ١٥. حفظهم من العادات الوثنية، ١٦. عدم بث
مفاهيم خاطئة في أذهان الأبناء، ١٧. اهتم بخلاص أولادك!، ١٨. الاهتمام بتعليم
الأبناء وتبدير الأمور الزمنية، ١٩. تشجيع الأبناء على التكريس، ٢٠. رب ابنك
فلا يربه الزمن!، ٢١. جريمة الإهمال في تربية الأبناء، ٢٢. يهتئهم للزواج
المقدس.

٨. آباء محبوبون ٢٠٤

حب في الرب!، آباء محبوبون في الرب، ١- حنة أم صموئيل، ٢- افنيكي أم
تيموثاوس، ٣- أم موسى النبي، ٤- عائلة باولا، ٥- محبة مونيكا لأغسطينوس،
٦- محبة أم لابنها البطريرك، ٧- محبة الشهداء لأولادهم، ٨- محبة طوبيا لابنه،
٩- تشجيع الآباء لأبنائهم على التكريس، أمثلة لمحبة زمنية، ١- محبة والد
أغسطينوس، ٢- أم تدفع ابنتها في تيار العالم الجارف.

٩. البنوة المسيحية ٢١١

سمات الأبناء المحبين: ١- الطاعة للوالدين، ٢- طاعة في الرب، (أ) بنو ركاب
يعصون النبي، (ب) الشهيدة دميانة تزجر والدها، (ج) أخت تنهر أخاها، ٣-
قبول التأديب، ٤- إعالة والديهم.

١٠. أب عجيب وأبناء وبنات في الرب ٢١٩



الحب الأخوي [٤]

الحب الجامع

أو

دور الشعب كنسيًا

١. الحب الجامع ٢٢٤

شعب أو لاؤس Laity، دور الشعب الايجابي.

٢. حب للجميع ٢٢٩

٣. عمل الكنيسة أن تحب ٢٣١

بين الحب والتعصب.

٤. غاية الوصية: خلاص النفوس ٢٣٤

الإحساس بالأخوة.

٥. رسالة الشعب كنسيًا ٢٣٧

لستُ كاهنًا، إيجابية الكنيسة.

٦. خدمة الشعب للخطاة ٢٤٣

١- حبه بلا عتاب، أمثلة لأناس محبين، ٢- انتهره في وداعة بلا غضب، ٣- لا تزدري به، ٤- لا تأخذ موقف المعلم البار، ٥- هذبه على إنفراد، ٦- أخبر مرشدك، ٧- اخدمه باستمرار، ٨- استر خطاياهم، - الصلاة من أجله، ١٠- احذر الجدال معه، كن مستعدًا للمجاوبة، ١١- علمه وهذبه بالحب والقدوة، احذر العثرة لأجل خلاص أخيك.

٧. صور كنسية لحب حي ٢٥٩

١- محبة سجين لخلاص قاضيه، ٢- محبة أطفال لإخوتهم، ٣- محبة مسبيين لشعبهما، ٤- محبة الشهداء لخلاص قاتليهم، ٥- محبة عذراء لخلاص شاب.



الحب الأخوي [٥]

الحب والعطاء

حبنا لإخوتنا الفقراء

١. مفهوم العطاء في المسيحية ٢٦٤

١. إنها بخور حب متقدّ يقدّم للاله، ٢. إنها تحرّر من عبوديّة العالم، ٣. هي مشاركة لأعضاء جسد الرب المتألّمة، ٤. الصدقة وزنة يلزم إضرامها بأمانة، ٥. الصدقة علامة صادقة عن التوبة.

٢. عطاء بلا حب ٢٧٤

١. الصدقة من أجل المجد البشري لا عن حب، ٢. صدقة المتكبرين، ٣. صدقة غير المؤمن، ٤. صدقة الظالمين، ٥. صدقة بلا سرور.

٣. فاعليّة العطاء ٢٧٨

١. أحد مقومات البرّ. ٢. نتمثل بالله صانع الخيرات، ٣. تصير لنا دالّة عند محب البشر وملائكته، ٤. نُعتق من الدينونة، ٥. ننال بركات زمنيّة وحياة أبدية، ٦. بالصدقة نقرض الرب، ٧. بالصدقة نُشفى من مرض الطمع.

٤. يا لعظمة الفقراء! ٢٩٢

أولاً: ترى فيهم شخص الرب يسوع، ثانياً: ستخرج من العالم مثله عارياً، ثالثاً: يقدّم لك أبلغ العظات، رابعاً: قد يغتني، وأنت تفقر!

٥. حول خدمة المساكين ٢٩٩

أولاً: اخدم بنفسك، ثانياً: أعط بسخاءٍ وسرورٍ، ثالثاً: ادع المساكين إلى ولائكم، رابعاً: عطاء للمحطّمين والمحتاجين والمرضى والقديسين، خامساً: هل نبحت عن استحقاقاتهم؟، خامساً: اخدم بحكمةٍ وتمييز، سادساً: لا تعتذر بضعف إمكانياتك، ثامناً: موقف الذين يتقبلون العطاء.

٦. بين العطاء والتقدمات ٣١٦

٧. يا لعظمة العطاء ٣١٩

٨. العطاء والرهبة ٣٢٢

هل للراهب أن يتصدق؟، صدقة خارج الدير، صدقة داخل الدير، هل يجوز للراهب أن يتصدق على عائلته؟ احذر الانشغال بالصدقة في غير أوانها.

٩. التوحد والعطاء ٣٢٩

لماذا لا يعمل المتوحد بالرحمة؟، وحدة بلا محبة.



الحب الأخوي [٦]

محبة الأعداء

١. محبة الأعداء والكمال ٣٣٣

محبة الأعداء والناموس، محبة الأعداء وسلم الكمال.

٢. يا لنفع محبة الأعداء! ٣٤٠

٣. أحبوا عدوكم، لا عداوته! ٣٤٣

إنه يبغيض الحق وليس شخصك!، نمارس عملاً ملائكيًا، لتكره شره!، لتكره شره!، اشتبه له الخير، لا تتشبه بشره!، تذكر الطبيعة البشرية المشتركة.

٤. حول محبة الأعداء ٣٤٩

تشبه بالسيد المسيح، اهرب من شر العدو، تجمع جمر نارٍ على رأسه.



الحب الأخوي [٧]

مقومات المحبة الأخوية

أولاً: طول الأناة أو الترفق

عدم الغضب

٣٥٢

١. عدم الغضب

طول الأناة أو عدم الغضب طريق الكمال، عدم الغضب... صوم روحي، عدم الغضب.. ملح الأرض.

٣٥٧

٢. أضرار الغضب

١- يفقدنا المحبة والتشبه بالله، ٢- يظلم عيوننا الداخلية، ٣- ينزع سلامنا وهدوءنا، ٤- يمنع إشراق شمس البر علينا، ٥- يفسد الصلاة ويحرمنا الغفران، ٦- يشغلنا عن هدفنا، ٧- يفسد رسالتنا، ٨- يؤدي إلى الحقد، ٩- يفقدنا كل فضيلة، ١٠- يؤدي إلى التجديف، ١١- أسرع أنواع الشرور، ١٢- تنتقم من نفسك.

التخلص من الغضب يرعب الشياطين، احذر الغضب.

٣٧٩

٣. أسباب الغضب

١- الكبرياء، ٢- فحص أعمال الآخرين، ٣- إصلاح الآخرين، ٤- محبة الماديات.

٣٨٢

٤. علاج الغضب

١- بالصلاة والحب والتواضع ننتزع الحقد الداخلي، ٢- لا تهتم بمدح الناس أو ذمهم، لا تدم نفسك فقط، بل اقبل ذم الآخرين لك!، ٣- حارب المرض لا المريض، ٤- لنلم أنفسنا، ٥- أقطع الألم في بدايته، ٦- لا تتسرع في الرد، ٧- تأمل يسوع طويل الأناة، ٨- أيقظ يسوع النائم فيك، ٩- تذكر أنك تستعد للرحيل ١٠- عمل الخير وتقديم الهدايا، أنظر إليه كطبيب، هل الانعزال (الانطواء) علاج للغضب؟

٤٠٧

٥. إلى أي مدى نطيل أناتنا؟

إلى سبع مرات سبعين مرة، أغفر تمامًا، لا تغضب على جمادات، من واجبنا ألا نستبقي غضبنا حتى ولو لحظة واحدة.

٤١١

٦. الغضب المقدس

٦٠٣

الغضب المقدس والغضب الشرير.

٧. حول موضوع الغضب ٤١٤

لا تشك، بل سامح!، لا تظلم أحداً، تقديم القرابين والغضب، الإساءة إلى الغير ولو بنظرة، نسيان خطأ الغير مؤقتاً، لا تبدأ المساء وأنت غضوب!.

٨. غضب الله ٤١٩

لا يحمل الله انفعالات بشرية، نحن نلقي بأنفسنا تحت العدالة، الله يغضب لكي يرحم بغضبه الإنسان.



الحب الأخوي [٨]

مقومات المحبة الأخوية

ثانياً: عدم الحسد

١. عدم الحسد ٤٢٣

المحبة... لا تحسد، لماذا دخل الحسد إلى العالم؟، عدم الحسد ثروة لا تُسلب، تجارب الأفكار والحسد، احذر حسد الشيطان!

٢. خطورة الحسد ٤٣٠

١. استهترنا به، ٢. أسقط الملائكة، ٣. يجعلك تعادي الله، ٤. يجعلك تعادي الكرازة بالإنجيل، ٥. ينزع السلام الداخلي، ٦. الحسد ينزع سلام الجماعة، ٧. الحسد يجعلنا أشر من الشياطين، ٨. الحسد يجعلنا جسدانيين، ٩. الحسد يعمي البصيرة، ١٠. الحسد شرارة الشرور، ١١. الحسد داء يصعب شفاؤه، ١٢. الحسد يضر الحاسد ويفيد المحسود، ١٣. الحسد يفسد حياة الخدام.

٣. علاج الحسد ٤٤٩

الشركة مع الله درع ضد حسد الآخرين، السيد المسيح محطم الحسد، بالتواضع تنتصر على الحسد

٣. لا تحسد، فإن نصيبك لن يقل! ٤٥١

شارك المحسود في خيره بحبك له!

٤. الغيرة والحسد ٤٥٣

✠ ✠ ✠

الحب الأخوي [٩]

مقومات المحبة الأخوية

ثالثاً: عدم الإدانة

❖ الإدانة والحب ٤٥٦

١. الإدانة والبصيرة الداخلية ٤٥٩

نظرة يسوع القدوس.

٢. الإدانة وروح التمييز ٤٦٣

روح الحب وروح التمييز، لندين الخطية لا الخاطئ، المحبة لا الإدانة تصلح
الخاطئ، لا تستخف بالغير، افتراض أحسن قصد ممكن لأعمال الآخرين.

٣. الإدانة اغتصاب حق الله ٤٦٩

أمثلة من سير القديسين.

٤. الإدانة تحجب النعمة ٤٧٤

٥. الإدانة تفقدنا السلام ٤٧٧

لا نلم الآخرين، بخوف الله نلوم أنفسنا.

٦. الإدانة تشغلنا عن حقيقتنا ٤٧٩

٧. الإدانة تسقطنا في الدينونة ٤٨٤

✠ ✠ ✠

الحب الأخوي [١٠]

مقومات المحبة الأخوية

رابعاً: التواضع وعدم الكبرياء

١. الحب الأخوي والتواضع ٤٩٢

الكبرياء يحطم الحب، والتواضع يحفظه، الحب الأخوي والاهتمام بالأصاغر.

٢. يا لعظمة التواضع! ٤٩٤

يا لصلاح التواضع!، يا لعظمة التواضع!، يا لعظمة المتواضعين!، يا لطوباوية المتواضعين!

٣. التواضع وتجلي النعمة الإلهية ٥٠٢

التواضع عطية إلهية، التواضع ورجاؤنا في الرب، التواضع ونمو المسيح فيّ، تجسد الكلمة في العذراء بالنعمة المتجاوبة مع تواضعها.

٤. التواضع والفضائل ٥٠٧

التواضع ينبوع كل برّ!، التواضع ينبوع كل برّ!، التواضع يسند الفضائل، التواضع أساس كل فضيلة، التواضع وروح الغضب، التواضع والحكمة العملية، التواضع يجعل النير حلواً وخفيّفاً، التواضع ومواجهة المتاعب والتجارب، التواضع وخدمة الآخرين، التواضع واكتشاف الإنسان نفسه.

٥. محب للنصيب الأصغر ٥١٤

٦. التواضع وحياة النصر ٣١٦

يا لنصرة المتواضعين!، التواضع والغلبة على الشيطان.

٧. التواضع والسموات المفتوحة ٥٢٠

الاهتمام المستمر ببناء برج سماوي، التواضع مركبة سماوية.

٨. التواضع وتكريم كل عضو ٥٢٤

التواضع وتكريم الآخرين، الكنيسة تحتاج إلى كل عضو، العضو الأصغر يعطي بهاء للأكبر ويكمل عمله، لا تزدري به بسبب مهنته أو وضعه الاجتماعي، كرامة

الأسقف، صور من تاريخ الكنيسة: ١. القديسان بلامون وباخوميوس، ٢. القديسان أنطونيوس وباخوميوس.

١٠. تداريب عملية لممارسة حياة التواضع ٥٣٤

التواضع يمس كياننا كله، لينحني قلبك وفكرك مع جسدك، لنتحرك بالصلاة في تواضع ونطلب الحنو الإلهي، أسلك كغريب أينما وجدت، لا تبرر خطاياك، في تواضع أنسى ما وراء!، اغفر لأخيك وصل لأجله، الهروب من المتكآت الأولى، الاعتدال في العبادة، لتقتد بالمسيح المتواضع!، تمثل بالسيد المسيح غاسل قدمي خائنه، الممارسة العملية لما نُعلّم به، تذكر الآباء المتواضعين والتشبّه بهم، أمثلة حيّة للمتواضعين، تهيئة الراهب نفسه لحياة التواضع.

١٠. يا لخطورة الكبرياء! ٥٥٠

يا لخطورة مرض الكبرياء!، الكبرياء أسقط ملائكة، الكبرياء علة السقوط، الكبرياء يقوقع الإنسان ويحبسه في الأنا، لا مكان لسيد التواضع في قلوب المتكبرين، الكبرياء والخدمة، أيها الراعي لا تتشامخ!، لا تتشامخ بسبب الغنى والملذات والكرامات، الكبرياء والمجد الباطل، عذوبة المعرفة لعلاج المجد الباطل، يا لشهوة حب إرضاء الناس!، الكبرياء ورفض التعلّم، الكبرياء وحب السلطة، الكبرياء والتهور، الكبرياء سمة ضد المسيح، افحص نفسك بدقة، الكبرياء والاتكال على الأنساب، الكبرياء والشجاعة.

١١. حول التواضع وعدم الكبرياء ٥٦٦

نوعا التواضع ونوعا الكبرياء، رب الحملان المتواضعة، التواضع والشخصية المتكاملة، التواضع خبرة عملية، التواضع والنسك، التواضع وصنع آيات وعجائب، التواضع والمواهب روحية، التواضع والدموع، بآلام الخطية ندرك بركات الطاعة، التواضع وميراث الأرض.



الحب الأخوي [١١]

مقومات المحبة الأخوية

خامسًا: عدم النميمة

وتقديس اللسان والأنين

١. بين النميمة والحسد ٥٧٢

٢. أضرار النميمة. ٥٧٤

٣. تقديس اللسان والأنين ٥٧٥

لا تتسرع في الكلام، لا تصغ إلى المنام.



الحب الأخوي [١٢]

مقومات المحبة الأخوية

سادسًا: صنع السلام

١. صنع السلام والبنوة لله ٥٨٠

الحب والسلام الحقيقي، السلام في العهد القديم، السلام في العهد الجديد، صنع السلام والبنوة لله، سلامك مع أخيك وسلامك مع نفسك، سلامك مع أخيك وسلام الله الذي يفوق كل فهم.

٢. المسيح سلامنا ٥٨٨

٣. السلام والفضائل المسيحية ٥٩٠

السلام والفضائل المسيحية، السلام والصلاة

٤. العالم والسلام ٥٩٠

لنضحي بكل شيء من أجل السلام، خيرات العالم ليست مصدرًا للسلام!، سلامنا في المسيح يغلب العالم، السلام والحرب، حرب بين الشر والخير.